

في الفكر النهضوي الإسلامي

المرشد الأمين للبنات والبنين

تأليف
رفاعة الطهطاوي

تقديم
منى أحمد أبو زيد

دار الكتاب المصرى
القاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

المرشد الأمين

للبنات والبنين

هــذا الكـتــاب

طبع لأول مـرة عـام (١٢٨٩هــ/ ١٨٧٢م)، ويُعـد أول كتاب عربي حديث يُكتب في التربية، ويدعو إلـى تعليـم البنـات، ليـس مثـل كتـب المطالعة المؤلفة فـي عصرنا الحاضر التي تجمع موضوعات شـتى لا تربـط بينهـا فكـرة، ولا يجمعهـا خـط، بـل هو كتـاب ذو غاية واحدة ترمي إلى خلق المواطن الصالح، يُعرِّفه حقوقه وواجباته، ويجعل منه إنسانًا متميزًا بعقله وخلقه، سواء كان ذكرًا أو أنثى، يحببه في وطنه، ويطالبه بالعمل بكل قوته لإسعاده ومجده.

يقسم الفكرة إلى أبواب، ويضع للأبواب فصولاً تتناول جزئيات صغيرة، وينتقل بين معارف تربوية، ومعلومات سياسية، وعواطف وطنية، ومبادئ إصلاحية، وشئون اجتماعية، وعلاقات أسرية، ومسائل دينية، وتبدو فيه أثر الثقافة الأجنبية من حيث وَحْدة الفكرة وتنظيمها، وأثر الثقافة العربية من حيث كثرة استشهاده بالشـعر، وإتيانـه بالحكـم، ويبـدو فيـه الأثر الإسـلامي بوضوح حيـن يلجأ لتأكيد أفـكاره بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وأقوال السلف والصحابة، وأخبار من التاريخ الإسلامي.

في الفكر النهضوي الإسلامي

الإشـراف العـام

إسماعيل سراج الدين

إدارة المشـروع

صلاح الدين الجوهري

ألفت جافور – هالة عبد الوهاب

اللجنة العلمية

محـمـــد عـمــــارة — محمد كمال الدين إمام

صـــلاح الـديـن الجوهري — إبراهـيـم البيـومـي غانم

الإشراف على الإخراج الفني

ألفت جافور

(**فريق العمل:** عاطف عبد الغني – صفاء حسين)

الإشراف على مراجعة النصوص

أحـمـد مـحـمـد شعبان — مـحـــمــد الـقــاســم

(**فريق العمل:** علياء محمد – أحمد عبد الحميد – فاطمة الزهراء صابر)

الأعمال التحضيرية والمتابعة

نهـال بـدر ـ هـدى سيد ـ

شيماء التـركي



في الفكر النهضوي الإسلامي

المرشد الأمين للبنات والبنين

تأليف

رفاعة الطهطاوي

تقديم

منى أحمد أبو زيد

٢٠١٢

دار الكتاب المصري
القاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب اللبناني
بيروت

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة – أثناء – النشر (فان)

رفاعة الطهطاوي، 1216-1290 هـ.

المرشد الأمين للبنات والبنين/ تأليف رفاعة الطهطاوي ؛ تقديم منى أحمد أبو زيد.– الإسكندرية، مصر: مكتبة الإسكندرية، 2011.

ص. سم. (في الفكر النهضوي الإسلامي)

تدمك 978-977-452-130-7

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية

1. الأسرة في الإسلام. 2. الزواج (الشريعة الإسلامية). 3. الأطفال في الإسلام. 4. التربية الإسلامية أ. أبو زيد، منى أحمد. ب. العنوان. جـ. السلسلة.

ديوي –297.577 2011573662

ISBN: 978-977-452-130-7

رقم الإيداع: 9839/2011

تتقدم مكتبة الإسكندرية بالشكر والتقدير

للوكالة السويسرية للتنمية والتعاون Swiss Agency for Development and Cooperation (SDC)

ومؤسسة كارنيجي بنيويورك Carnegie Corporation of New York

على الدعم المادي والمعنوي الذي قدَّماه للمشروع.

هذا الكتاب ضمن فعاليات مشروع «إعادة إصدار كتب التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّيْن/ التاسع عشر والعشرين الميلاديَّيْن»

المحتوى

كتاب «المرشد الأمين للبنات والبنين»

الباب الأول

في حقيقة الإنسان، ونسبته إلى غيره من المخلوقات، وبيان فضائل الذكور والإناث، وما يتبع ذلك

الباب الثاني
في الصفات المشتركة بين الذكور والإناث، والمخصوصة بأحد الفريقين

الباب الثالث
في التعلم والتعليم

الباب الرابع

في ذكر الوطن وتمدينه، وبيان أن أعظم أسباب ذلك التربية والتعليم، واستكمال المعارف والتعميم

الباب الخامس

في الزواج والتسري، وما يتعلق بذلك

الباب السادس
في أسباب عمارية البيوت والمنازل، وما يترتب على حسن تربية النساء من الفضائل

الباب السابع
في عموم القرابة، وحقوق بعضهم على بعض

خاتمة حسنى

مقدمة السلسلة

إن فكرة هذا المشروع الذي أُطلِق عليه «إعادة إصدار كتب التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّيْن / التاسع عشر والعشرين الميلادِيَّين»، قد نبعت من الرؤية التي تتبناها مكتبة الإسكندرية بشأن ضرورة المحافظة على التراث الفكري والعلمي في مختلف مجالات المعرفة، والمساهمة في نقل هذا التراث للأجيال المتعاقبة تأكيدًا لأهمية التواصل بين أجيال الأمة عبر تاريخها الحضاري؛ إذ إن الإنتاج الثقافي - لا شكَّ - تراكمي، وإن الإبداع ينبت في الأرض الخصبة بعطاء السابقين، وإن التجديد الفعال لا يتم إلا مع التأصيل. وضمان هذا التواصل يعتبر من أهم وظائف المكتبة التي اضطلعت بها، منذ نشأتها الأولى وعبر مراحل تطورها المختلفة.

والسبب الرئيسي لاختيار هذين القرنين هو وجود انطباع سائد غير صحيح؛ وهو أن الإسهامات الكبيرة التي قام بها المفكرون والعلماء المسلمون قد توقفت عند فترات تاريخية قديمة، ولم تتجاوزها. ولكن الحقائق الموثقة تشير إلى غير ذلك، وتؤكد أن عطاء المفكرين المسلمين في الفكر النهضوي التنويري - وإن

مر بمدٍّ وجزر - إنما هو تواصل عبر الأحقاب الزمنية المختلفة، بما في ذلك الحقبة الحديثة والمعاصرة التي تشمل القرنين الأخيرين.

يهدف هذا المشروع - فيما يهدف - إلى تكوين مكتبة متكاملة ومتنوعة، تضم مختارات من أهم الأعمال الفكرية لرواد الإصلاح والتجديد الإسلامي خلال القرنين الهجريَّيْن المذكورَيْن. والمكتبة إذ تسعى لإتاحة هذه المختارات على أوسع نطاق ممكن، عبر إعادة إصدارها في طبعة ورقية جديدة، وعبر النشر الإلكتروني أيضًا على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)؛ فإنها تستهدف في المقام الأول إتاحة هذه المختارات للشباب وللأجيال الجديدة بصفة خاصة.

ويسبق كلَّ كتاب تقديمٌ أعده أحد الباحثين المتميزين، وفق منهجية منضبطة، جمعت بين التعريف بأولئك الرواد واجتهاداتهم من جهة، والتعريف بالسياق التاريخي/ الاجتماعي الذي ظهرت فيه تلك الاجتهادات من جهة أخرى؛ بما كان فيه من تحديات وقضايا نهضوية كبرى، مع التأكيد أساسًا على آراء المؤلف واجتهاداته والأصداء التي تركها الكتاب. وللتأكد من توافر أعلى معايير الدقة، فإن التقديمات التي كتبها الباحثون قد راجعتها واعتمدتها لجنة من كبار الأساتذة المتخصصين، وذلك بعد مناقشات مستفيضة، وحوارات علمية رصينة، استغرقت جلسات متتالية لكل تقديم، شارك فيها كاتب التقديم ونظراؤه من فريق الباحثين الذين شاركوا في هذا المشروع الكبير. كما قامت مجموعة من المتخصصين على تدقيق نصوص الكتب ومراجعتها بما يوافق الطبعة الأصلية للكتاب.

هذا، وتقوم المكتبة أيضًا - في إطار هذا المشروع - بترجمة تلك المختارات إلى الإنجليزية ثم الفرنسية؛ مستهدفة أبناء المسلمين الناطقين بغير العربية، كما ستتيحها لمراكز البحث والجامعات ومؤسسات صناعة الرأي في مختلف أنحاء العالم. وتأمل المكتبة أن يساعد ذلك على تنقية صورة الإسلام من التشويهات التي يلصقها البعض به زورًا وبهتانًا، وبيان زيف كثير من الاتهامات الباطلة التي يُتَّهم بها المسلمون في جملتهم، خاصة من قِبَل الجهات المناوئة في الغرب.

إن قسمًا كبيرًا من كتابات رواد التنوير والإصلاح في الفكر الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لا يزال بعيدًا عن الأضواء، ومن ثم لا يزال محدود التأثير في مواجهة المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا. وربما كان غياب هذا القسم من التراث النهضوي الإسلامي سببًا من أسباب تكرار الأسئلة نفسها التي سبق أن أجاب عنها أولئك الرواد في سياق واقعهم الذي عاصروه. وربما كان هذا الغياب أيضًا سببًا من أسباب تفاقم الأزمات الفكرية والعقائدية التي يتعرض لها أبناؤنا من الأجيال الجديدة داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية وخارجها. ويكفي أن نشير إلى أن أعمال أمثال: محمد عبده، والأفغاني، والكواكبي، ومحمد إقبال، وخير الدين التونسي، وسعيد النورسي، ومالك بن نبي، وعلَّال الفاسي، والطاهر ابن عاشور، ومصطفى المراغي، ومحمود شلتوت، وعلي شريعتي، وعلي عزت بيجوفتش، وأحمد جودت باشا - وغيرهم - لا تزال بمنأًى عن أيدي الأجيال الجديدة من الشباب في أغلبية البلدان العربية والإسلامية، فضلاً عن الشباب

المسلم الذي يعيش في مجتمعات أوروبية أو أمريكية؛ الأمر الذي يلقي على المكتبة عبئًا مضاعفًا من أجل ترجمة هذه الأعمال، وليس فقط إعادة نشرها بالعربية وتيسير الحصول عليها (ورقيًّا وإلكترونيًّا).

إن هذا المشروع يسعى للجمع بين الإحياء، والتجديد، والإبداع، والتواصل مع الآخر. وليس اهتمامنا بهذا التراث إشارة إلى رفض الجديد الوافد علينا، بل علينا أن نتفاعل معه، ونختار منه ما يناسبنا، فتزداد حياتنا الثقافية ثراءً، وتتجدد أفكارنا بهذا التفاعل البناء بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد، فتنتج الأجيال الجديدة عطاءها الجديد، إسهامًا في التراث الإنساني المشترك، بكل ما فيه من تنوع الهويات وتعددها.

وأملنا هو أن نسهم في إتاحة مصادر معرفية أصيلة وثرية لطلاب العلم والثقافة داخل أوطاننا وخارجها، وأن تستنهض هذه الإسهامات همم الأجيال الجديدة كي تقدم اجتهاداتها في مواجهة التحديات التي تعيشها الأمة؛ مستلهمة المنهج العلمي الدقيق الذي سار عليه أولئك الرواد الذين عاشوا خلال القرنين الهجريين الأخيرين، وتفاعلوا مع قضايا أمتهم، وبذلوا قصارى جهدهم واجتهدوا في تقديم الإجابات عن تحديات عصرهم من أجل نهضتها وتقدمها.

لقد وجدنا أن من أوجب مهماتنا ومن أولى مسئولياتنا في مكتبة الإسكندرية، أن نسهم في توعية الأجيال الجديدة من الشباب في مصر، وفي

غيرها من البلدان العربية والإسلامية، وغيرهم من الشباب المسلم في البلاد غير الإسلامية بالعطاء الحضاري للعلماء المسلمين في العصر الحديث، خلال القرنين المشار إليهما على وجه التحديد؛ حتى لا يترسَّخ الانطباع السائد الخاطئ، الذي سبق أن أشرنا إليه؛ فليس صحيحًا أن جهود العطاء الحضاري والإبداع الفكري للمسلمين قد توقفت عند فترات زمنية مضت عليها عدة قرون، والصحيح هو أنهم أضافوا الجديد في زمانهم، والمفيد لأمتهم وللإنسانية من أجل التقدم والحث على السعي لتحسين نوعية الحياة لبني البشر جميعًا.

وإذا كان العلم حصاد التفكير وإعمال العقل والتنقيب المنظم عن المعرفة، فإن الكتب هي آلة توارثه في الزمن؛ كي يتداوله الناس عبر الأجيال وفيما بين الأمم.

إسماعيل سراج الدين
مدير مكتبة الإسكندرية
والمشرف العام على المشروع

تقديم

منى أحمد أبو زيد

يمثل النصف الأول من القرن التاسع عشر مرحلة مهمة من تاريخ تطور الفكر العربي بوجه عام، والفكر المصري بوجه خاص، وفي تلك المرحلة ظهرت شخصية مهمة على مستوى الحياة الفكرية والعملية معًا، هي شخصية «رفاعة رافع الطهطاوي» رائد النهضة المصرية والعربية.

حاول رفاعة أن يحقق النهضة العلمية لبلاده، معتمدًا في ذلك على دعامتين رئيسيتين:

الدعامة الأولى: مستمدة من التراث القديم بجميع روافده العلمية والدينية والتاريخية والفكرية.

والدعامة الثانية: مستمدة من الفكر التنويري الغربي خصوصًا الفرنسي، سواء أكان ذلك من خلال مؤلفاته أم ترجماته للعلوم المختلفة.

وكانت مجهودات رفاعة في مقدمة الأعمال التي أسهمت في يقظة العالم الإسلامي، وبعث نهضة جديدة تقوم على الربط بين الماضي والحاضر، وبناء

الجديد على أساس القديم، فحاول أن يجمع بين ما رآه حقًّا وحقيقة في الشرق، وما رآه نافعًا وناضجًا في الغرب، وكان لوجوده في بداية النهضة التي أقامها محمد علي في القرن التاسع عشر أثره فيمن جاء بعده، بل يمكن القول: إن محاور نهضتنا الحديثة تكاد ترجع نقطة البدء الصحيح فيها إلى جهود رفاعة الفكرية والإصلاحية.

فقد حقق رفاعة ثورة فكرية وإصلاحية في ميادين: التربية والتعليم والصحافة والترجمة والتأليف، وكان المفكر الأول الذي وضع حجر الأساس لثقافة تجمع بين الإسلام والمعاصرة في العصر الحديث، وكان المعلم الذي أرسى الأصول الحديثة لكثير من العلوم: الجغرافيا، والتاريخ، والسياسة، والاقتصاد، وكان بحق الرائد الأول للفكر المصري الحديث.

وليس أدل على مكانة الطهطاوي من عناوين الكتب التي عرضت فكره، والتي أطلقت عليه ألقابًا عديدة باعتباره أول وأهم من أقام النهضة الحديثة في مصر، وأنه «رائد التنوير» و«إمام فكر ورائد نهضة» وغيرها من عبارات تدل على المكانة التي احتلها الطهطاوي.

أولاً: حياة الطهطـاوي

١- حياته في مصر قبل البعثة

وُلد رفاعة رافع بن بدوي بن محمد بن علي عام (١٢١٦هـ/ ١٨٠١م)[١] في مدينة طهطا بجنوب الصعيد، وكان ميلاده في عام مهم من تاريخ مصر، وهو العام الذي انسحبت فيه الحملة الفرنسية من مصر دون أن تحقق طموحها السياسي، ولكن بعد أن أظهرت للمصريين مدى الهُوَّة الشاسعة التي تفصلهم عن مدنية أوروبا.

وُلد رفاعة في أسرة من الأشراف الذين توارثوا العلم الديني، ويُرْجع المؤرخون نسبه من ناحية أبيه إلى الحسين ﵁، ومن ناحية الأم إلى الأنصار الخزرجية[٢]. ويذكر رفاعة أسرته بقوله: «ومما ينبغي ذكره على عائلتنا أن اجتمع فيها مع منصب الأشراف التي هي لم تزل بيننا إلى الآن منصب قضاء الولاية»[٣].

وبالرغم من أن مولده كان في أسرة شريفة الأصل، فإن الفقر قد بدأ يصيبها بعد نزع الالتزامات من يد العلماء؛ فرحل رفاعة مع أبيه عن مدينته إلى

(١) خير الدين الزركلي، الأعلام، مادة «رفاعة»، ج (٣)، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م، ص٢٩. وأيضًا: جرجي زيدان، بناة النهضة الحديثة، سلسلة الهلال، مصر، مارس ١٩٥٧م، ص١١٣.

(٢) الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، ضمن الأعمال الكاملة، تحقيق: د. محمد عمارة، ج١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ص٥٤٢.

(٣) الطهطاوي، المرجع السابق، ج١، ص٥٣٦.

مدينة «جرجا» حيث حفظ هناك أكثر القرآن. وبعد وفاة والده رجع مرة أخرى إلى «طهطا» فتكفل به أخواله، وكانوا من علماء الأزهر، وعلى أيديهم تكونت شخصيته؛ فقرأ عليهم «المتون المتداولة في المعقول والمنقول»(١) حتى يتأهل للالتحاق بالأزهر.

ثم رحل رفاعة إلى القاهرة سنة (١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م)، والتحق بالأزهر، ومكث فيه خمس سنوات(٢)، درس فيها أصول العلوم الأزهرية، وهي التي شكلت الأساس التراثي من فكره وثقافته، وتتلمذ على يد عدد من مشايخ وعلماء الأزهر حينذاك.

أما أعظم أساتذة الأزهر تأثيرًا على رفاعة فهو أستاذه الشيخ حسن العطار(٣) (ت١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م) فقد كان أستاذًا سابقًا لعصره، ارتحل إلى بلاد كثيرة طلبًا للعلم واتصل بعلماء الحملة الفرنسية، وتعرّف على بعض ملامح نهضتهم، يذكره أحد الباحثين بقوله: إنه كان «واحدًا من أكبر علماء مصر الممتازين في عصره،

(١) صالح مجدي، حلية الزمن بمناقب خادم الوطن (سيرة رفاعة رافع الطهطاوي)، نشر جمال الدين الشيال، مطبعة الحلبي- مصر، ١٩٥٨م، ص٢٢.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، الجزء الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ص٤٣٣. وأيضًا: جاك تاجر، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر، دار المعارف- مصر، ص٥٢.

(٣) وُلد الشيخ حسن بن محمد العطار بالقاهرة عام (١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م)، وهو من أصل مغربي، وكان والده عطارًا، ووجه ابنه إلى التعليم الأزهري، وعند قدوم الحملة الفرنسية إلى القاهرة فرّ إلى أسيوط، ثم عاد مرة أخرى. وقد عاش حتى تولى مشيخة الأزهر في عهد محمد علي. انظر ترجمته عند: علي مبارك، الخطط التوفيقية، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٣٠٦هـ، ج(١)، عدد (٤)، ص٣٨.

وأنه لم يكن متضلعًا في العلوم الدينية تضلعه في الدراسات الأدبية»[١]. وللشيخ أثره العظيم على رفاعة، فقد وَجَّه أنظار تلميذه إلى ضرورة دراسة أنواع أخرى من العلوم غير التي تدرس في الأزهر.

إلا أن ما يهمنا ذكره في هذا السياق أن هذا الشيخ رشح رفاعة لتولي مهمة «الواعظ والإمام» لإحدى البعثات المسافرة إلى فرنسا، حينما طلب منه محمد علي أن ينتخب من علماء الأزهر إمامًا للبعثة المسافرة إلى فرنسا «يرى فيه الأهلية واللياقة فاختار رفاعة لتلك الوظيفة»[٢] ضمن ثلاثة وعاظ.

وقد أوصى الشيخ حسن العطار تلميذه عند سفره ألا يكتفي بعمله كإمام للصلاة؛ بل عليه أن يسجل كل ما يراه أثناء رحلته، وأن يحاول الاستفادة من علوم الغرب.

٢- الطهطاوي في باريس

كانت مهمة الطهطاوي مع البعثة أن يكون إمامًا وواعظًا، فلو كان رفاعة رجلاً عاديًّا لاكتفى بتلك المهمة التي عُهدت إليه، إلا أن ذكاءه وميله للعلم وحبه للمعرفة دفعه لتعلُّم اللغة الفرنسية في سرعة وإجادة أثارت إعجاب المشرفين على

(١) لويس شيخو، الآداب العربية في القرن التاسع عشر، بيروت، ١٩٠٨م، ج١، ص٤٧.
(٢) علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج(١٣)، مطبعة بولاق- مصر، ١٣٠٥هـ، ص٥٤.

البعثة؛ الأمر الذي كان وراء الاتفاق المبرم بين الشيخ حسن العطار ومسيو «جومار» - المشرف على البعثة - من أجل ضم رفاعة إلى طلاب البعثة.

وكان رفاعة المبعوث الوحيد بين أفراد البعثة الذي تخصص في فن الترجمة، «وبذلك أَعَدَّ رفاعة نفسه لما اعتزم القيام به لخدمة وطنه، وهو الترجمة التي افتتح بها نافذة لأمته على معارف الغرب»(١).

وفي خلال البعثة، تعرف الطهطاوي على العلوم الحديثة والنظم الأوروبية، وأوضاع الحياة الاجتماعية في فرنسا، وقارن بين هذه الحياة وما تركه في مصر، فكانت «هذه البعثة هي الإطلالة الهامة والحقيقية للعنصر المصري والعربي على الحضارة الأوروبية الحديثة في مواطنها وديارها»(٢)، وأدرك أهمية المزج بين التقدم الحضاري في فرنسا، وبين التراث الذي تعلّمه وحمله على كاهله وفي قلبه وعقله من الأزهر إلى باريس(٣).

وقد توهم البعض - من فرط إعجاب الطهطاوي بعلوم الحضارة الأوروبية - أنه كان أحد أبواق دعاة التغريب، على حين أنه كان في الحقيقة واحدًا من أبرز دعاة التجديد لحضارتنا العربية الإسلامية، فقد وعى الطهطاوي تراث أمته، وعرف أن

(١) مهدي علام، مقالة عن رفاعة ضمن مهرجان رفاعة رافع الطهطاوي، نشر المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٣٢.

(٢) محمد عمارة، رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٤٧.

(٣) محمد عمارة، العروبة في العصر الحديث، دراسات في القومية العربية، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص١٤٣.

العلماء في تراثنا الحضاري لم يكونوا هم الفقهاء فقط، بل لقد عرف العرب في ظل الحضارة الإسلامية علوم المدنية والحضارة من قبل، ونقلها الغرب عنهم، والعلوم التي تمدن بها الغرب هي في الأساس علوم إسلامية؛ فيقول الطهطاوي: «معرفة سائر المعارف البشرية المدنية التي لها مدخل في تقدم الوطنية التي يظهر الآن أنها أجنبية، هي علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية»[١].

وقد قام رفاعة بمهمة الترجمة منذ العام الأول لقدومه إلى باريس؛ فترجم قصيدة فرنسية وأسماها «نظم العقود في كسر العود»، كما شرع في ترجمة كتاب «مبادئ الهندسة» لمؤلفه «ليجندر» Le Gendre، ودرس اللغة الفرنسية، واشتغل بالإعراب النحوي والإعراب المنطقي، أي «تطبيق الكلام على قواعد النحو وقواعد المنطق، والإملاء والإنشاء والقراءة، ولا زال على ذلك ثلاث سنين»[٢].

كما درس كثيرًا من كتب التاريخ، فقرأ كتابًا عن «سير فلاسفة اليونان»، وآخر مختصرًا عن قدماء المصريين والعراقيين وأهل الشام، وكتابًا عن «خرافات اليونان» - والمقصود الأساطير اليونانية - وكتاب «لطائف التاريخ»، وكتاب «سير أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم»، وآخر بعنوان «نهضة الدولة الرومانية»، بالإضافة إلى كتب أخرى عديدة في التاريخ.

---

(١) الطهطاوي، الأعمال الكاملة، ج١، مرجع سابق، ص٥٣٤.

(٢) الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، ضمن الأعمال الكاملة، تحقيق: محمد عمارة، بيروت، ١٩٧٣م، ج٢، ص١٨٩.

وإلى جانب قراءته للكتب التاريخية، وترجمته بعضها، قرأ في العديد من العلوم الأخرى، مثل: الحساب، والهندسة، والجغرافيا، والتاريخ، والطبيعة، والرياضة، والسياسة، بالإضافة إلى كتب في علم المنطق، والمعادن، والقانون، ومجموعة متعددة من كتب الأدب الفرنسي، ودواوين الشعر. كما قرأ كتاب «رُوح القوانين» لمونتسيكو، وسماه «ابن خلدون الغرب»، وقرأ كتابًا أسماه «عقد التأنس والاجتماع الإنساني»(١)- ويقصد العقد الاجتماعي - لروسو.

كما كانت للطهطاوي اهتمامات أخرى، مثل متابعة الحياة اليومية للفرنسيين، والأخبار العامة عن طريق الصحف اليومية والشهرية في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكان لكل هذه القراءات والترجمات أثرها في تكوين العقلية الموسوعية التي تميز بها رفاعة، فقد كان يقرأ في كافة العلوم، ويترجم فيها أيضًا، فهو رجل نهضة علمية وثقافية، عملية ونظرية، مزودة بالتجارب والخبرات، «وكان انتقال فكر رفاعة من طهطا إلى باريس رمزًا لانتقال مصر من القرون الوسطى إلى العصر الحديث»(٢).

٣- عودة الطهطاوي إلى مصر

عاد رفاعة إلى مصر بوعي جديد، وبثورة فكرية، وحاول أن يعيد لبلاده الماضي القديم، والحضارة السابقة بإضافة الجديد إليها، وكان طريق التقدم -

(١) الطهطاوي، المرجع السابق، ج٢، ص١٩١.

(٢) أنور لوقا غبريال، ربع قرن مع رفاعة، سلسلة اقرأ، كتاب إبريل ١٩٨٥م، ص٣٥.

عنده - يتمثل في الإفادة من العلوم والنظم الأوروبية الحديثة في إطار الدولة الإسلامية بعد أن عرف علومًا جديدة ومناهج حديثة، وعاش في مجتمع لم يألفه من قبل، وبيئة لم يتعودها، وشاهد تقاليد غربية، وأنماطًا جديدة من النظم السياسية والاجتماعية.

وقد حاول الطهطاوي أن يستفيد من ملامح هذا الفكر الجديد في بناء نهضة مصر الحديثة عن طريق استخدام هذه العناصر الجديدة، وإدخالها إلى النظام والحياة الإسلامية، فكانت حركة إحياء وتجديد، أخذ في تطبيقها بعد عودته من فرنسا.

عاد رفاعة إلى مصر بعد خمسة أعوام قضاها في فرنسا في تحصيل العلوم الغربية، وجمع في فكره بين ثقافتين شرقية وغربية، وبدأ حياته العملية مرة أخرى في مصر، متمنيًا أن يفيد مصر بما حصل عليه وتعلمه من علوم وثقافات وعادات فرنسية.

عاصر الطهطاوي عددًا من حكام مصر، وكانت أعماله وإنجازاته تختلف حسب عقلية وطموح كل حاكم، وترتبط إلى حدٍّ ما بمدى ميل هذا الحاكم أو ذاك نحو التجديد والنهضة، وعرف أن عمل المفكرين يرتبط بميول الحكام واهتماماتهم، وضرب مثالاً على ذلك من التاريخ الإسلامي بزمن الخلفاء العباسيين الأوائل، الذين بلغت البلاد في عهدهم أَوْج تمدنها، وسبب ذلك أن

الخلفاء كانوا يعينون العلماء وأرباب الفنون؛ فالعلوم لا تُنشر إلا بإعانة صاحب الدولة لأهله، ويستشهد في ذلك بالمثل القائل «الناس على دين ملوكهم»[(١)].

عاصر رفاعة: محمد علي، وعباس الأول، وسعيد باشا، والخديوي إسماعيل. وبناء على مدى اهتمام كل حاكم بالناحية العلمية والثقافية، اختلفت إسهامات الطهطاوي باختلاف هؤلاء الحكام، وسوف نشير بإيجاز إلى أهم أعماله في عصر كلٍّ منهم:

- في عصر محمد علي (١٢٢٠-١٢٦٤هـ/ ١٨٠٥-١٨٤٨م) عمل الطهطاوي بمدرسة الطب، وكان عمله مترجمًا بين الأساتذة الأجانب والتلاميذ الذين لا يعرفون اللغات الأجنبية[(٢)]. ثم عُهد إليه بتدريس الترجمة في المدرسة التجهيزية الملحقة بمدرسة الطب، وكان يدَرِّس فيها مبادئ الحساب والهندسة، ووصف الكون، والتاريخ الطبيعي، والتاريخ القديم والحديث والمنطق، وهي علوم تؤهل التلاميذ للالتحاق بمدرسة الطب.

ثم انتقل الطهطاوي بعد ذلك إلى مدرسة المدفعية، وعُهد إليه بترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية، ومكث بها عامين، ترجم خلالها رسالة في

(١) حسين فوزي النجار، رفاعة رافع الطهطاوي رائد فكر وإمام نهضة، سلسلة أعلام العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م ص١٣٠.

(٢) أحمد عزت عبد الكريم، التعليم من نهاية حكم محمد علي إلى أوائل حكم توفيق، ج١ (عصر محمد علي)، القاهرة، ١٩٤٥م، ص٢٥٥.

الهندسة، ومجلدًا من «جغرافية ملطبرون» ونشره بعنوان «التعريفات الشافية لمريد الجغرافية».

وفي سنة (١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م) أُنشئت مدرسة الألسن، وعهد إلى رفاعة بإدارتها؛ فاختار تلاميذها من مدارس الأرياف والأقاليم، ومن طلبة الأزهر، وكان الغرض من إقامتها تزويد المترجمين بمهارة في الاستخدام الشفوي والتحريري بإحدى اللغات الأجنبية، ولكنها أصبحت فوق هذا معقلاً للبحث العلمي الجاد.

وكان يُدَرِّس فيها من اللغات: الفرنسية، والعربية، والتركية، والفارسية، والإيطالية، ومن العلوم: الهندسة، والجبر، والحساب، والجغرافيا. وما يهمنا هنا هو الإشارة إلى أن رفاعة هول أول من أدخل مادة التاريخ لأول مرة كعلم يُدَرَّس في مصر، وجعله مادة من مواد الدراسة(١).

كما ألحق بهذه المدرسة قسمًا للإدارة، وآخر لدراسة الإدارة الزراعية، وثالثًا لدراسة العلوم الفقهية، وقد أُسندت إلى رفاعة إدارة هذه الأقسام المختلفة، وكان مشرفًا وناظرًا على الشئون الإدارية، ومشرفًا على مراجعة الكتب التي يترجمها تلاميذه وإصلاحها.

وقد تأثرت هذه المدرسة بثقافة رفاعة التي تجمع بين الثقافتين العربية الإسلامية والغربية الحديثة، ففيها تُدرس علوم الفقه واللغة والأدب، يقوم بها

(١) جمال الدين الشيال، التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة، ص٥٦.

بعض علماء الأزهر، كما تدرس فيها اللغات الأجنبية وآدابها والتاريخ والقوانين الغربية، حتى إذا ظفر التلاميذ بهذا القسط من العلوم، شرعوا في ترجمة العلوم الغربية وفنونها وفقًا للمصلحة العامة(١).

في تلك الفترة أشرف الطهطاوي على جريدة «الوقائع المصرية»، وأحدث بها تطورات كبيرة، فقد عُيِّن أولاً لمراجعة النصوص العربية وفقًا لما يرد من مواد مكتوبة باللغة التركية، حيث كانت الجريدة تدون في البدء بالتركية، ثم أُضيفت لها الترجمة العربية في الجانب الأيسر، وبعدها نقل الطهطاوي المواد المكتوبة باللغة العربية إلى الجانب الأيمن، وأصبحت اللغة العربية هي لغة الجريدة الرسمية، وبهذا استطاع أن يسجل للغة العربية والقومية المصرية نصرًا أدبيًّا عظيمًا في زمن كان نفوذ الأتراك لا يزال مسيطرًا على كل شيء في البلاد أو يكاد(٢)، وتغيرت الموضوعات التي تنشر في الجريدة بما يهم المصريين، وكذلك تغير أسلوب الكتابة، وأصبح أسلوبًا يخلو - إلى حدٍّ كبير - من المحسنات اللفظية.

- وفي عصر عباس الأول (١٢٦٥-١٢٧٠هـ/ ١٨٤٩-١٨٥٤م) الذي أخذ في إغلاق معظم المدارس الحديثة، ومنها مدرسة الألسن، نُفي الطهطاوي إلى

(١) زيني دحلان، رفاعة الطهطاوي- مؤلفاته وآراؤه، رسالة ماجستير، إشراف: سهير القلماوي، آداب القاهرة، تحت رقم (٢٤٩)، ١٩٦٠م، ص٤٠.

(٢) إبراهيم عبده، تاريخ الوقائع المصرية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٨١.

السودان بغرض تولي نظارة مدرسة ابتدائية هناك، وظل بها أربع سنوات حتى توفي عباس الأول، وهناك ترجم رفاعة أول أثر أدبي من الفرنسية إلى العربية، ويذكر هذه الفترة بقوله: «ومع أن مدة الإقامة بتلك الجهات كانت لمجرد الحرمان من النفع الوطني، فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن سفري لم يضع هباءً منثورًا، فقد اعتنيت في مدتي هناك بترجمة وقائع تليماك»[١] وأخرج هذه الرواية تحت عنوان «مواقع الأفلاك في وقائع تليماك» لفينلون.

- ومع تولي سعيد باشا (١٢٧٠-١٢٨٠هـ/ ١٨٥٤-١٨٦٣م) الحكم أمر بإغلاق مدرسة الخرطوم، وعودة الطهطاوي إلى مصر، وأراد رفاعة أن يعيد الحركة التعليمية إلى الازدهار مرة أخرى، فقام بعمل مشروع لتعليم أبناء الشعب بالاشتراك مع صديقه أدهم باشا (١٢٦٠-١٣٢٧هـ/ ١٨٤٤-١٩٠٩م) إلا أن المشروع لم يُكتب له النجاح[٢].

ثم عُيِّن رفاعة وكيلاً للمدرسة الحربية، ثم رئيسًا لها، فحاول أن يجعل من هذه المدرسة مدرسة مدنية ثقافية، فأضاف إلى مناهجها العسكرية علوم المحاسبة والترجمة، ومواد علمية أخرى، وأشرف على مدرسة أخرى للحربية بالإسكندرية، ثم أُلغيت هذه المدرسة فيما بعد.

---

(١) الطهطاوي، الأعمال الكاملة، ج١، مرجع سابق، ص٤٦٢.

(٢) أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في مصر، ج٢ (عصر عباس وسعيد)، مرجع سابق، ص١٨٠.

وعمل الطهطاوي في تلك الفترة على توسيع دائرة المعارف التراثية، فسعى لدى الوالي حتى أمر بطبع العديد من كتب التراث؛ مساهمة منه في نشر التراث الإسلامي القديم.

- ثم جاء عصر إسماعيل باشا (١٢٨٠-١٢٩٦هـ/ ١٨٦٣-١٨٧٩)، وتُعد هذه الفترة من أزهى الفترات التي ازدهر فيها عطاء الطهطاوي، حيث تبلورت عبقريته في السنوات العشر الأخيرة قبل وفاته. وعلى الرغم من أن رفاعة في تلك المرحلة قد أصبح مصابًا بالشيخوخة، وأنهكته الأعمال الكثيرة، فإنه في تلك الفترة أتم أهم أعماله، فإذا كان قد اكتفى من قبل بالترجمة والتعريب، بالإضافة إلى مؤلفات قليلة، فإنه في ذاك العصر قدم أهم مؤلفاته وترجماته، كما تحددت بصورة أكبر أهم ملامحه الفكرية. فكان عصر الخديوي إسماعيل «فترة مثمرة في حياة الطهطاوي»[١]

وتولى رفاعة نظارة مجلة «روضة المدارس»، وهي صحيفة ديوان المدارس، وهي مجلة علمية فَكَّر علي مبارك في إصدارها، وتولى رفاعة رئاستها، وكانت نصف شهرية، واستمرت ثماني سنوات، صدر العدد الأول منها في (١٥ من المحرم ١٢٨٧هـ/ ١٦ من إبريل ١٨٧٠م)، ويحدد الطهطاوي الغرض من هذه المجلة في عددها الافتتاحي قائلاً: إن هدفها عرض أي مادة علمية من المواد النفيسة،

---

(١) جاك تاجر، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٥٧.

بحيث تكون فيها الفوائد المتنوعة والمسائل المتأصلة والمتفرعة أقرب تناولاً للمطلع المستفيد، فليس من وظائفها تغيير الأصول السياسية والوقتية والأفعال الرئاسية والإدارية؛ بل هدفها «تعميم العلوم، وتتميم المعارف، وانتشار الفنون، وإكثار اللطائف ومداولتها بين جميع أبناء الوطن، وتسويتهم في الورود»[(١)]. وهي موجهة نحو التعليم والتثقيف في الأساس، والغرض منها نشر العلوم، وإحياء الثقافة بصفة عامة، والآداب العربية بصفة خاصة، فلا مجال فيها للأخبار إلا ما يتعلق فيها بالمدارس، وما يوجه لتثقيف التلاميذ، وكانت مجلة رائدة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، في وصلها بين المحلي والعالمي، والقومي والإنساني، والقديم والجديد، فهي بالقدر الذي كشفت به عن جوانب جديدة من التراث العربي الإسلامي لم تتوقف عند هذا التراث أو تنغلق عليه، وإنما انفتحت على تراث العالم القديم، وربطت التراث العربي بالمعارف الحديثة في المجالات المختلفة.

ويبدو أن هذه النزعة هي المسئولة عن التنوع الثقافي الذي يلمحه القارئ في صفحات «روضة المدارس»، فالماضي إلى جانب الحاضر، والمؤلَّف إلى جانب المترجَم، والمقتبَس إلى جانب المُعرَّب، والنَّظْم إلى جانب النَّثْر، والعلوم الطبيعية إلى جانب العلوم الإنسانية والاجتماعية، والإبداع إلى جانب النقد، والآداب

---

(١) الطهطاوي، افتتاحية العدد الأول من مجلة «روضة المدارس»، يوم السبت ١٥ من المحرم ١٢٨٧هـ/ ١٦ إبريل ١٨٧٠م، مصورة ومنشورة في المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ج١، ص٣.

والفنون إلى جانب الفلسفات والنظريات[١]، ومن الشخصيات التي كتبت في هذه المجلة، وساهمت مع الطهطاوي في الحركة التثقيفية: علي مبارك، وعبد الله فكري، والشيخ حسين المرصفي، ومحمد قدري، ومحمود الفلكي، وإسماعيل الفلكي، وأحمد ندا العالم النباتي، وصالح مجدي، وعبد الله أبو السعود، والشيخ حسونة النواوي، وغيرهم.

ومن أهم الخدمات الثقافية التي قدمتها «روضة المدارس» نشرها لمجموعة من الكتب في صورة فصول بالمجلة، تُنشر كفصول مستقلة تكون كتبًا كاملة، وتكتب موضوعاتها بأقلام مجموعة من العلماء كلٌّ في مجال تخصصه.

وقد نشر فيها عبد الله فكري كتابه «آثار الأفكار ومنشور الأزهار»، وكتب علي مبارك «حقائق الأخبار في أوصاف البحار»، وعرض الدكتور محمد بدر «الصحة التامة والمنحة العامة»، و«المباحث البينات فيما يتعلق بالنبات»، و«بهجة المطالب في علم الكواكب».

كما نشر بها الطهطاوي كتاب «القول السديد في الاجتهاد والتجديد»، و«ترجمة كسرى أنو شروان»، و«تاريخ بِرْكة الأزبكية»، و«بقاء حسن الذكر

(١) جابر عصفور، أوراق ثقافية، ثقافة المستقبل ومستقبل الثقافة، المركز المصري العربي، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١٧٦-١٧٧.

باستخدام الفكر»، و«إحسان السيرة بإخلاص السريرة»، وكتابه الأخير «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز»[١].

وقد بقي رفاعة يتولى الإشراف على هذه المجلة حتى وفاته في (١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م) بعد أن وضع مصر على بداية حركة ثقافية وعلمية جديدة، وفتح النوافذ للاطلاع على العلوم الحديثة بعد أن ترجم هذه العلوم إلى العربية، وظهور نوع آخر من المؤلفات العربية الإسلامية - غير ما كان معروفًا في مصر من قبل - ساهمت في إحداث النهضة، وكان لها أثرها على الأجيال التالية.

ثانيًا: أهم مؤلفات وترجمات الطهطاوي[٢]، وقيمتها الفكرية

يُعدُّ الطهطاوي أول كاتب مصري في العصر الحديث يكتب في علوم لم تكن متداولة في هذا العصر، مثل: السياسة، والقانون، والاقتصاد، والتاريخ، والرياضيات والهندسة، بالإضافة إلى أن كتاباته في العلوم التقليدية امتازت بالتجديد على غير ما هو معروف في عصره.

وسنختار هنا أهم مؤلفاته وترجماته، مع توضيح الجديد الذي قدمه رفاعة، وكيف برز فيها موقفه في المزج بين القديم والحديث، ومن هذه الأعمال:

---

(١) حسين فوزي النجار، رفاعة، مرجع سابق، ص١٢٦.

(٢) انظر إحصاء هذه المصنفات عند: حسن السندوبي، أعيان البيان، القاهرة، ١٩١٤م، ص٩٣-٩٦. وأيضًا: يوسف زيدان، فهرس مخطوطات رفاعة رافع الطهطاوي، معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة، ١٩٩٦م.

كتاب «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» أو ما يسمى «خلاصة الإبريز» أو «الديوان النفيس بإيوان باريز»، وهو أول مؤلفات الطهطاوي المهمة، وكان قد كتب من قبل عدة رسائل أثناء عمله بالأزهر، منها ما يتعلق بالفقه والاجتهاد وعلم الكلام.

وهذا الكتاب يصور رحلة رفاعة وتجاربه في بلاد الغرب، ويوضح لنا كيف انتقل فكره من عالم شرقي لا يهتم إلا بالأمور الدينية إلى عالم معاصر جعل العقل ميزانًا للقضايا التي تتعلق بالأمور الدنيوية، وهو بلا شك صورة صادقة لما حدث من اتصال الشرق والغرب في فكره.

ويُعد هذا الكتاب أول كتاب في الإصلاح يرسم الأفكار الأساسية للنهضة[١]، وكان أيضًا محط إعجاب الفرنسيين، فكتب عنه المستشرق «دساسي» يقول: «إن المؤلف جيد النقد سليم الفهم.. اكتسب معارف عظيمة، وتمكّن فيها كل التمكن؛ حتى تأهل لأن يكون نافعًا في بلاده»[٢].

كما يذكر المستشرق «كوسين دي برسوال» أهمية هذا الكتاب قائلاً: إن رفاعة أراد أن يوقظ بكتابه هذا أهل الإسلام، ويدخل عندهم الرغبة في المعارف

---

(١) محمد أركون، الفكر العربي، ترجمة: عادل العوا، بيروت، ١٩٨٢م، ص١٤٨.

(٢) الطهطاوي، الأعمال الكاملة، ج٢، مرجع سابق، ص١٨٤.

المفيدة، ويولِّد عندهم محبة تعلُّم التمدن الإفرنجي، والترقي في صنائع المعاش[(١)] فكان هذا الكتاب بحقٍّ أحد الكنوز الفكرية الثمينة للإنسان العربي في القرن التاسع عشر[(٢)].

وفي أثناء تواجده في السودان، ترجم رواية فينلون بعنوان «مواقع الأفلاك في وقائع تليماك» - كما سبق أن أشرنا - وهي رواية تعليمية مأخوذة من التراث اليوناني، ضمنها فينلون آراءه السياسية، ومعارضته للحكم المطلق، وقدم الطهطاوي بهذه الرواية للأدب العربي الجديد أول رواية فرنسية[(٣)]، وأول عمل فني مستقى من أساطير اليونان.

وترجم رفاعة القانون المدني الفرنسي، وفيه حاول أن يقارب بين القانون الفرنسي وأحكام الشريعة الإسلامية، باختيار المصطلحات الفقهية المطابقة لمثيلاتها في القانون الفرنسي، وهو جهد رائد غير مسبوق في اللغة العربية لم يعرض له أحد قبل رفاعة.

ثم أصدر رفاعة في (١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م) أهم كتبه التاريخية، وهو كتاب «أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل»، وفيه أخبار عمَّنْ ملَك مصر من الأسر والملوك، والهدف من هذا الكتاب هو بعث الروح الوطنية

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص١٨٥.

(٢) محمد عمارة، العروبة في العصر الحديث، مرجع سابق، ص١٤٤.

(٣) عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، القاهرة، ١٩٥٩م، ج١، ص٣٣، ٣٤.

في نفوس المصريين، فقد عرض على أبناء وطنه ما وصل إليه القدماء من مجدٍ ورفاهية، مع بيان مكانة وطنهم بين الدول في الزمان القديم، وأراد بهذا العرض أن يشعر أبناء وطنه بأن الحضارة ليست من خصوصيات الشعوب الأوروبية، وأن مصر دولة ذات حضارة سابقة، و«في استطاعة أبنائها أن يصلوا إلى ما وصل إليه أجدادهم إذا جدوا واجتهدوا»[١]. وأراد كذلك إثبات مفهوم المواطنة بالمعنى الحديث، فإسماعيل هو امتداد لملوك مصر القدامى باعتباره مواطنًا مصريًّا يخدم الأمة.

كما يُعد هذا الكتاب أول كتاب علمي حديث يُؤلف باللغة العربية في التاريخ المصري القديم، اعتمد فيه الطهطاوي على نتائج البحوث الأثرية والتاريخية التي توصلت إليها البعثة الفرنسية، وكان بهذا الكتاب أول مؤرخ مصري يعرف تاريخ مصر القديمة على حقيقته - في حدود معارف عصره - وأول مؤرخ مصري آمن بأمجاد هذا التاريخ الفرعوني، وأعلن اعتزازه به، فمصر - في رأيه - أم الحضارات، ولم تسبقها أمة في ميدان المدنية، فهو هنا يفتخر بحضارته القديمة، ويدعو أبناء شعبه إلى صنع حضارة جديدة.

---

(١) الطهطاوي، الأعمال الكاملة، ج١، مرجع سابق، ص٣٧٩.

ثم أصدر الطهطاوي كتابه «التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية»[(١)] سنة (١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م)، جمع فيه القواعد والأحكام النحوية بطريقة واضحة، وهو أول عرض عربي حديث للنحو لم يكتبه على النمط المعروف في عصره، فقد كان رفاعة مهتمًّا- أثناء بعثته - بالنحو الفرنسي، وقرأ فيه كثيرًا، فاستفاد من هذا في كتابه، «ولأول مرة في تاريخ الكتب العربية في النحو نجد الجداول الإيضاحية تيسيرًا للقواعد وإيضاحها، ولأول مرة منذ قرون نجد في النحو كتابًا يسيرًا يقرب ولا يبعد»[(٢)].

كما نشر الطهطاوي كتابه «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية» وخصصه لمعالجة مسائل التمدن والعمران، وسبب تأليفه هو ألا يقف من أحداث التغير موقف المتفرج، بل أراد أن يساهم فيها مساهمة فعالة، فقال: «لما كان من الواجب على كل عضو أن يعين الجمعية (أي المجتمع) بقدر الاستطاعة، ويبذل ما عنده من رأس مال لمنفعة وطنه العمومية، وينصح لبلاده ما في وسعهم من المعلومية بذلت جهدي وجُدت بما عندي.. وسميتها مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية»[(٣)].

---

(١) حقق هذا الكتاب ونشره: البدراوي زهران تحت عنوان «رفاعة الطهطاوي، وقفة مع الدراسات الحديثة»، طبع دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٨٣م.

(٢) زيني دحلان، رفاعة الطهطاوي مؤلفاته وآراؤه، مرجع سابق، ص٩٣.

(٣) الطهطاوي، الأعمال الكاملة، ج١، مرجع سابق، ص٢٤٧.

ومنذ سنة (١٢٨٧هـ/١٨٧٠م) نشر الطهطاوي في مجلة «روضة المدارس» فصولاً من كتاب «القول السديد في الاجتهاد والتجديد»، عرض فيه للجوانب السلبية التي أصابت الشعوب الإسلامية ونُسبت خطأً إلى الإسلام، ودعا إلى ضرورة الاجتهاد والتحرر من البدع، وحاول أن يطبق التجديد في التراث الإسلامي عن طريق الاجتهاد ونبذ التقليد، فكان بحثًا عن دور المجددين في الإسلام، «الذين يأتون ليجددوا لهذه الأمة أمر دينها»[(١)]، ولأجل هذا الغرض أيضًا كتب رسالة بعنوان «البدع المتقررة في الشيع المتبربرة»، وعالج فيها مسألة النسب من الناحية الفقهية، ثم عرج على الانتساب إلى الأشراف، وحدوده الفقهية.

أما آخر مؤلفات الطهطاوي، فهو كتاب «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز»[(٢)] وقد نشره في مجلة «روضة المدارس» على شكل فصول، وتم جمعه بعد وفاته. وهو أول كتاب يوضع في السيرة النبوية في العصر الحديث، ويقدم لنا نموذجًا لكيفية التزاوج بين الحضارة الأوروبية بمناهجها الحديثة والعقل العربي المسلح بالتراث الإسلامي، ويعتمد رفاعة على المنهج العقلي في تحليل

---

(١) انظر: الطهطاوي، القول السديد في الاجتهاد والتجديد، روضة المدارس المصرية، عدد (٦)، السنة الأولى ١٨٧٠م. وأيضًا: فاروق أبو زيد، عصر التنوير العربي، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٧٨م، ص٤٨.

(٢) نشر هذا الكتاب بعد وفاة الطهطاوي ابنه علي فهمي بك، وظهرت طبعة جديدة له بتحقيق: عبد الرحمن حسن محمود، وفاروق حامد بدر، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٨٢م.

وقائع السيرة وأحداثها، كما يؤكد على الناحية الإيمانية، ويرى أن الإيمان اقتناع وجداني ليس شرطًا أن يكون وليد النظر العقلي.

وفي هذا الكتاب تبدو محاولة الطهطاوي الجمع بين المنهج العقلي والمنهج الإيماني، وإن كان يرى أن الغرض الحقيقي من سرد التاريخ ليس مجرد سرد الحوادث، وإنما أخذ ما يلائم منها لتطبق على المجتمع، مع ملاحظة الزمان والمكان، ويكشف بهذا الكتاب جوهر الثقافة العربية الإسلامية التي تجمع بين العقل والإيمان، وهي الثقافة التي قدمها رواد الفكر الإسلامي في صدر الحضارة الإسلامية، وهذا الكتاب يُعد من أوائل المؤلفات التي ترد على ادعاءات المستشرقين التي تدعي أن الثقافة العربية الإسلامية هي ثقافة اتباع لا ابتداع.

وهذه المؤلفات والترجمات ليست هي كل أعمال الطهطاوي الفكرية، إلا أننا حاولنا أن نقدم بعضها كنموذج على محاولته للتجديد والتطوير التي اضطلع بها، واستطاع بهذا التراث الفكري الذي قدمه - تأليفًا وترجمة ونشرًا - أن يساير التقدم، وأن يبثه في ربوع مصر والعالم الإسلامي؛ بهدف توسيع أفق العقلية العربية بعلوم جديدة، مع إحياء العلوم القديمة، وقدم حركة إصلاحية شملت العديد من المجالات، ومن هذه المجالات مجال التربية والتعليم، والذي خصص له كتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين»، وهو موضوع هذه الدراسة.

ثالثًا: كتاب «المرشد الأمين» في سياقه التاريخي

قضى الطهطاوي في باريس خمسة أعوام، طالع فيها باللغة الفرنسية مؤلفات في شتى أصناف العلوم، كما اطلع بوجه خاص على الفكر الفرنسي في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وقرأ فولتير وروسو ومونتسيكو، وحين عاد إلى مصر عكف على عدد من الكتب الهامة لتُتَرْجم إلى اللغة العربية، ومن بين الكتب التي أشرف على ترجمتها - ولا تخلو من دلالة خاصة - كتاب لمونتسيكو بعنوان «تأملات في أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم»، وقد كان هذا الكتاب يعكس رغبة أصيلة لدى الطهطاوي في أن يجد لنفسه جوابًا عن السؤال الذي طرحه ابن خلدون في «المقدمة» التي طبعها الطهطاوي، وهذا السؤال هو: كيف تنهار الحضارات؟ ولماذا؟ ومن ثَمَّ: كيف تُبنى الأمم والحضارات؟

لقد وعى الطهطاوي واقعة انهيار الأمة الإسلامية، وضعف الدولة العثمانية، و«رأى بعينه الهُوَّة التي باتت تفصل بين أمته وبين أمة الإفرنج، فتوجه في نظرته إلى بناء أمته المصرية أولاً، إلا أن ذلك كان يعني أيضًا بالنسبة له العرب والإسلام»[١]، وكان جُل كتبه وترجماته لخدمة هذا الهدف، يخص كل واحد منها بجانب من جوانب التحضر، ويأتي هذا الكتاب «المرشد الأمين» ليختص بدور التربية والتعليم في التمدن.

(١) فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص١١٢.

وقبل خمسة أشهر فقط من وفاة الطهطاوي، أي في (شوال ١٢٨٩هـ/ ديسمبر ١٨٧٢م) أخرجت مطبعة المدارس الملكية كتاب «المرشد الأمين للبنات والبنين»، وقد صدرت الطبعة الأولى من الكتاب في حياة صاحبه، وسرعان ما نفدت، وأُعيد طبعه مرة أخرى بعد عامين من وفاة المؤلف، كما نشره ابنه علي فهمي بك على حلقات في مجلة «روضة المدارس».

وكان رفاعة شيخًا تجاوز السبعين حين كلفه المشرف على المدارس «حسين كامل باشا» - ابن الخديوي إسماعيل الذي سيصبح سلطان مصر أثناء الحرب العالمية الأولى - بعمل كتاب في التربية يصلح لتعليم البنين والبنات على السوية[1]. كما ذكر رفاعة في مقدمة الكتاب.

ويُعد كتاب «المرشد الأمين» أول كتاب عربي حديث يُكتب في التربية، ويدعو إلى تعليم البنات، حيث كانت المرأة ما تزال حتى ذلك الوقت حبيسة الجدران، بعيدة في الغالب عن أي نوع من أنواع التعليم، خاصةً التعليم الوطني الرسمي، حيث وجدت في مصر والشام بعض المدارس التي تشرف عليها الإرساليات الدينية والجاليات الأجنبية. ولم تظهر أي مدرسة رسمية وطنية للبنات، ما عدا مدرسة للقابلات في مصر، وكانت أوائل الطالبات من الإماء الحبشيات، ولم تلتحق بها أي فتاة مصرية إلا بعد فترة.

---

(١) الطهطاوي، المرشد الأمين للبنات والبنين، الطبعة الحالية، ٢٠١١، ص ٧.

وحين تولى الخديوي إسماعيل مقاليد الحكم، واختار المهندس «علي مبارك» وكيلاً لديوان المدارس في مصر كان مرسوم التعيين واضحًا فيه أن الغرض الحقيقي من التعليم هو اكتساب الآداب، وظهر الخديوي أكثر اهتمامًا بالتعليم من سابقيه.

وسعى الخديوي إسماعيل إلى متابعة حركة الإصلاح التي بدأها جده محمد علي في مصر، ووالده إبراهيم باشا في الشام، ليعيد لمصر مكانتها. ولما كان بناء دولة عصرية يحتاج إلى وجود كوادر فنية وإدارية على درجة كافية من الكفاءة لخدمة مشروع التحديث، فقد حظي التعليم بقدر كبير من اهتمامه، وسعى لانتشار نظام تعليمي متكامل يقوم على قاعدة من المدارس الابتدائية، وبعض المدارس الثانوية (التجهيزية)، وعدد من المدارس العالية (الخصوصية).

كما عزم إسماعيل باشا على أن يفتح أبواب العلم أمام المرأة، وأن يسوِّي في اكتساب المعارف بينها وبين الرجل، ويخصها بمدارس تتعلم فيها، ويخرجها من ظلمة الجهل إلى نور العرفان، فكان هذا الكتاب تلبية لطموحات الحاكم، وأملاً من الطهطاوي في أن تتقدم بلده في ميدان المعرفة؛ فجاء الكتاب موافقًا وملبيًا للظروف التاريخية التي عاشتها مصر في أثناء فترة الخديوي إسماعيل، الذي حاول إحياء النهضة العلمية والثقافية التي سبق ورعاها محمد علي، بعدما تعرضت للتصفية في إطار السياسات التي استهدفت القضاء على مشروع محمد علي الإصلاحي.

وأسهم علي باشا مبارك (ناظر ديوان المدارس بعد ذلك) بدور مهم في إعادة صياغة النظام التعليمي مستعينًا بخبرة رفاعة، وكان الهدف الذي يَسعيان إليه هو توسيع قاعدة التعليم الأساسي بتحويل الكتاتيب المنتشرة في الريف والمدن إلى مدارس ابتدائية تخضع لرقابة الدولة؛ بهدف توحيد التنشئة لجيل جديد تقوم على كواهله نهضة مصر الحديثة[1].

وعاد لرفاعة دوره المتميز في الحركة الثقافية المصرية، وأُسند إليه رئاسة اللجنة التي صاغت لائحة ديوان المدارس لتضع أسس النظام التعليمي الحديث الذي يَعْتَمِدُ على ترغيب الناس في تعليم أبنائهم بعد تيقنهم من أهمية التعليم باعتباره حجر الزاوية في النهضة الحديثة.

وكان الطهطاوي مرشدًا لعلي مبارك في النهضة التعليمية التي تمت على يديه، والتي شملت إقامة ما يُعد نواة للتعليم الجامعي، فجمع المدارس العليا في حرم واحد، إلى جانب المعامل، ودار الكتب التي أُنشئت عام (١٢٨٧هـ/١٨٧٠م)، ودار العلوم التي بدأت منارة للثقافة الحرة الرفيعة، وكان كتاب «المرشد الأمين» حجر الأساس لخدمة هذا المشروع التعليمي.

وهكذا عاد الطهطاوي - في نهاية حياته - إلى ممارسة الدور الذي قام به منذ بدء حياته العملية، فقد كان في كل أطوار حياته معلمًا ومربيًا، بدأ حياته

---

(١) رءوف عباس، روضة المدارس ومشروع النهضة الثقافية، ضمن سلسلة أبحاث مؤتمر «رفاعة الطهطاوي رائد التنوير»، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٣٦٥.

شيخًا يلتف حوله الطلبة في الأزهر، وأنهى حياته معلمًا للأمة، يرسم لها طريقها التعليمي، ويرى سبيل تقدمها بالعلم الذي يُتاح لكل أفراد الشعب، لا فرق بين غني وفقير، أو ذكر وأنثى فدعا في «المرشد الأمين» إلى جعل التعليم عامًّا لجميع الناس، ينتفع به الأغنياء والفقراء ذكورهم وإناثهم فهو ضروري لسائر الناس.

وكان دور المربي أهم الأدوار التي قام بها الطهطاوي في حياته، وإذا ذُكرت نهضة التعليم المصري في القرن التاسع عشر لا بد أن يُذكر معها رائدها الأول الطهطاوي، فقد مارس هذا العمل على مدى خمسين عامًا، ولم يتطلع لسواه، قضى حياته مربيًا ومعلمًا، وهو يفتخر به. يقول الطهطاوي في مقدمته لرواية «تليماك»: «لقد تقيدت بعناية الحكومة المصرية بوظيفة تربية التلاميذ مدة مديدة، وسنين عديدة: نظارة وتعليمًا وتعديلاً وتقويمًا وترتيبًا وتنظيمًا»[١].

ومن أجل تحقيق غاية نشر التعليم، وضع رفاعة أول مشروع لنشر التعليم الأَوَّليّ في عام (١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م)، وهو المشروع الذي تبناه علي مبارك فيما بعد، وجعله أساسًا لمشروعه المعروف، واستعان برفاعة لتنفيذ المشروع، وعيّنه عضوًا بقومسيون المعارف، ثم رئيسًا لمجلس تنظيم المكاتب الأهلية، وأسهم في التأليف المدرسي بكتاب يقوم على تبسيط النحو، وهو «التحفة المكتبية» وبكتابين جليلين للقراءة هما «مناهج الألباب المصرية»، و«المرشد الأمين للبنات والبنين».

( ) نقلاً عن: أحمد عزت عبد الكريم، رفاعة المربِّي، ضمن أوراق مهرجان رفاعة رافع الطهطاوي، ص١٨٢.

رابعًا: تحليل كتاب «المرشد الأمين للبنات والبنين»

هذا العنوان ليس مجرد عنوان لكتاب، وإنما هو يوحي بما أراده الطهطاوي من هذا الكتاب، فالمرشد الأمين هو المؤلف نفسه، الذي كان إمامًا لطلبة البعثة التعليمية في باريس، ثم أصبح مرشدًا لنهضة الأمة بعد عودته. وتقديم «البنات» على «البنين» في عنوان الكتاب لم يكن لالتزام السجع فقط، بل ليؤكد على أهمية تعليم البنات، وأثر هذا في حياة الأمة، وليطابق هدف الطهطاوي من تأليف هذا الكتاب، وهو الاهتمام بالبنات، والعمل على انتشالهن من قاع الجهل، والحث على مساواتهن بالذكور؛ حيث لم تكن هناك مدرسة رسمية حكومية تعلم البنات، وأول مدرسة أُنشئت بعد وفاة الطهطاوي عام (١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م).

و«المرشد الأمين» هو أول كتاب في التربية يسجله الأدب العربي الحديث، ويضعه على رأس قائمة ستضم كتبًا كثيرة منها «مستقبل الثقافة في مصر» لطه حسين بعد انقضاء أكثر من ثمانين عامًا أدت إلى تطور المجتمع، وغيّرت الخطاب والمنهج.

ولا يُعد كتاب «المرشد الأمين» مثل كتب المطالعة المؤلفة في عصرنا الحاضر، يجمع موضوعات شتى لا تربط بينها فكرة، ولا يجمعها خط، بل هو كتاب ذو غاية واحدة ترمي إلى خلق المواطن الصالح، يُعرِّفه حقوقه وواجباته، ويجعل منه إنسانًا متميزًا بعقله وخلقه، سواء كان ذكرًا أو أنثى، يحببه في وطنه، ويطالبه بالعمل – بكل قوته – لإسعاده ومجده، والكتاب كله يدور حول ذلك،

فهو كتاب ذو فكرة ومنهج، يقسم الفكرة إلى أبواب، ويضع للأبواب فصولاً تتناول جزئيات صغيرة.

وفي الكتاب انتقال بين معارف تربوية، ومعلومات سياسية، وعواطف وطنية، ومبادئ إصلاحية، وشئون اجتماعية، وعلاقات أسرية، ومسائل دينية، وتبدو فيه أثر الثقافة الأجنبية من حيث وحدة الفكرة وتنظيمها، وأثر الثقافة العربية من حيث كثرة استشهاده بالشعر، وإتيانه بالحكم، ويبدو فيه الأثر الإسلامي بوضوح حين يلجأ لتأكيد أفكاره بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وأقوال السلف والصحابة، وأخبار من التاريخ الإسلامي.

ويعيب الكتاب كثرة الاستطرادات والأمثلة، والخروج عن العرض النظري والتأسيس الفكري بطريقة الفقهاء والخطباء والوعاظ، فهو يكثر من ضرب الأمثلة لتفهيم الجمهور، فكل موضوع مناسبة لجمع المعلومات دون تمييز بين العلم الجديد والمعلومات القديمة، وكانت هذه هي طريقة المفكر في عصر النهضة، وهي استدعاء العلم من الذاكرة الجماعية، أو من الوافد، فبينما نراه مثلاً يتحدث في بر الوالدين إذ به يتحدث عن الزهد، ثم ينقل مواقف تاريخية لبعض النجباء، وينتقل للدعاء وشروطه وأركانه، وتحقيق الولاية وكرامة الأولياء، ويترجم للغزالي، وينقل عن حضارة الغرب، إلى غير ذلك من موضوعات يدفعه إلى إيرادها المناسبات، وفي بعض الأحيان يحشد الحكم بعضها إلى بعض حتى يصبح الكتاب معرضًا لها.

وقد عُرف هذا المنحى بأسلوب الحكاء، وهو عين النهج الذي سار عليه معظم شيوخ عصره، مثل: أحمد فارس الشدياق، والشيخ حسين المرصفي. ومنهج رفاعة في هذا الكتاب هو منهج «الأدب» بتعريفه القديم، وهو «الأخذ من كل شيء بطرف»؛ لذا أكثر من النقل عن السلف، وردد الصور التاريخية، والأقوال المأثورة، وكان أسلوبه مزيجًا من الترسل والسجع، وإن كان ميله إلى السجع واضحًا يلجأ إليه كلما واتته الفرص.

رَتَّب رفاعة كتابه على مقدمة وسبعة أبواب، مشتملة على فصول وخاتمة. فعَرَّفَ التربية في فصل من فصول المقدمة، وبيَّن أثرها، وذكر في فصول تالية ما ينبغي أن يؤخذ به الأطفال من صغرهم، من تربية خلقية ودينية، حتى إذا وصل إلى بعض ما يجب أن يعتقده الطفل منذ صغره يبرهن على بعض هذه العقائد كعقيدة البعث والنشور.

ويثني رفاعة ثناءً جمًّا على تربية اليونان الأقدمين لأطفالهم، فكثر حكماؤهم واشترك في هذه التربية الحازمة نساؤهم ورجالهم، ويعود رفاعة إلى تاريخ العرب لينقل لنا ما كان نساء العرب يربين عليه أولادهن من الشجاعة والإقدام، وينقل بعض عوائد الأوربيين في تربية البنات والبنين.

يتحدث رفاعة في الباب الأول عن الإنسان ونسبته إلى غيره من المخلوقات، وفي الباب الثاني يذكر الصفات التي يشترك فيها الذكور والإناث، والصفات التي ينفرد بها كل جنس، وكان يريد من وراء ذلك أن يُفهم البنات

والبنين مكانتهم بين مخلوقات العالم، وامتيازهم بالعقل، وأنهم من طبيعة واحدة تختلف في بعض الصفات الذكورية أو الأنثوية، وأن الجامع المشترك بينهم هو العقل، الذي إذا دُعِّم بالتربية والتثقيف أسعد مجتمعه العائلي، ومجتمعه الوطني.

ويتناول رفاعة في الباب الثالث أحاديث عن التعلم والتعليم، وأنواعه، ودوره في تحقيق تقدم الوطن، ويعرض على الطلبة والطالبات في فصول متتالية ألوانًا من الفنون المختلفة النافعة لهم، والنافعة لبلادهم، ويحرك فيهم عنصر المنافسة، ويُبين فضل الرحلة والسياحة في طلب العلم، لينهض بجِدِّهم وطنهم.

وهنا ينتقل انتقالاً طبيعيًّا إلى ذكر الوطن في الباب الرابع، الذي يُعَدُّ الجيل الناشئ لخدمته، ويكمل هذه الخدمة بالعلم والثقافة، ويغرس في نفوس النشء محبة الوطن، ويبيِّن لهم أن وطنهم من أعظم الأمم، بل في مقدمة الأمم، وغرس هذه العقيدة في نفوسهم له أكبر الأثر في تربيتهم تربية وطنية صادقة.

كما تحدث عن ضرورة اتحاد أبناء الوطن، وعدم تشعبهم أحزابًا متعددة بآراء مختلفة؛ لما يترتب على ذلك من التشاحن والتحاسد والتباغض، وضرورة الانقياد لقانون الوطن، والاستعداد لأن يفديه المرء بروحه، ويدفع عنه كل مَن يتعرض له بضرر.

كما يعرض الطهطاوي في هذا الباب – الذي أَعْتَبره أهم أبواب الكتاب – لتمدن الوطن، ويذكر أن من أسبابه التمسك بالشرع، وممارسة العلوم والمعارف، وتقديم الفِلاحَة والتجارة والصناعة، واستكشاف البلاد التي تعين على ذلك، واختراع الآَلات والأدوات وكل ما يسهل طرق التمدن أو يقربها بإيجاد الوسائط والوسائل.

وابتداءً من الباب الخامس إلى الباب السابع، والذي يشغل حوالي ثلثي الكتاب، يتناول الطهطاوي مسائل الزواج والتسري، والعلاقات الأسرية، والحقوق التي بين الزوج والزوجة، أو بين الأقرباء، وهو موضوع محبب إلى الشباب ذكره، ووضع الطهطاوي فيه بعض المبادئ الصالحة للفتى والفتاة، ويحوي أحاديث طريفة في أخبار النساء.

وكان رفاعة يتناول موضوعاته بحرية لا نظفر بها اليوم فيما نؤلفه من كتب لتلاميذ مدارسنا وتلميذاتها، بل يُعد الحديث عنها اليوم محرمًا في كتبنا، مثل الحديث عن المحبة والصداقة بين الزوجين وغير الزوجين، ومذهب المحبين بعدم التشريك في المحبة[1]، وأن الحب في مبدئه اختياري، وبعد ذلك يصير اضطراريًّا، وأن العشق قسمان: عشق الحواس وعشق القلب، وأن للعشق مكارم أخلاق تتفرع منه وتنتسب عنه. وأن العاشق الصابر الكاتم إذا مات نال الشهادة،

(١) الطهطاوي، المرشد الأمين للبنات والبنين، مرجع سابق، ص ٤١٥.

وأن الحب ليس بمستكره في الدنيا ولا بمحظور في الشرع، وينبغي أن يكون الحب بين المتحابين ودادًا خالصًا صافيًا من الشوائب، قائمًا على الاحترام والإجلال بين النساء والرجال، متأثرًا في ذلك بكتاب ابن حزم[1] «طوق الحمامة» الذي كان ذائعًا بين المثقفين منذ القرن الثامن عشر، ويدور حول أحوال المحبين.

وهكذا لم يغمض رفاعة عينيه عن عاطفة قوية تضطرم في صدر الشباب، فحدثهم حديث والد بار، وذلك أفضل من أن يتلقوا هذه المعلومات من كتب لا رقيب عليها، تثير غرائز، وتدفع إلى مفاسد.

كما تكلم عن بر الوالدين، وذكر الأسباب التي تدفع إلى ذلك، ولم ينس الحديث عن حقوق الولد على والده، ولما كان الأستاذ والدًا رُوحيًّا للتلميذ أخذ رفاعة يتحدث عن حقوقه على هذا التلميذ، وحقوق التلميذ على أستاذه، وهنا يجد المجال فسيحًا لشرح بعض مبادئه في التربية، وبيان العقيدة الدينية، وأن أول واجب على معلم التلاميذ أن يعلمهم عقائد التوحيد، وأورد كثيرًا من أمور الدين وسيرة الرسول الكريم، وفي آخر الكتاب يذكر شذرة من كلامه (صلوات الله عليه) تدعو إلى الخير، وتحث على كل فضل، وكان آخر ما أورده من تلك الأحاديث: «بَشِّر المَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى المسَاجِدِ بِالنُّور التَّامِّ يَومَ القِيَامَةِ».

---

(١) المرجع السابق، ص ٤١٧- ٤٣٦.

خامسًا: المحاور الفكرية لكتاب «المرشد الأمين»

١- أهمية التربية والتعليم

كانت حملة نابليون على مصر سنة (١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م) حدثًا خطيرًا لم يقف عند حدود عسكرية أو سياسية، بل كانت له آثار ثقافية منها المجمع العلمي الذي باشر العمل فيه مختصون في فروع كثيرة من المعرفة؛ مما عزز التقابل بين شرق ما زال يعيش حياة القرون الوسطى، وغرب نال قصب السبق في المعرفة والتقدم.

وما أن تسلم محمد علي السلطة حتى أرسل بعثات علمية إلى إيطاليا ثم إلى فرنسا، وأنشأ عددًا ضخمًا من المدارس. وقد فهم التعليم على أنه أداة لإدراك القوة والتقدم، ومن هنا كان التعليم ذا صلة وثيقة بالمشروع النهضوي.

ويُعد الطهطاوي خير ثمرة من ثمرات نظام محمد علي التعليمي، شاهد أثناء سفره إلى فرنسا ما كانت تحظى به التربية في تلك البلاد، فأَثر ذلك في تصوره لنمط التعليم الذي ينبغي أن يكون لمصر، وكتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين» خير شاهد على ذلك[1].

---

(١) محمد القاضي وعبد الله صولة، الفكر الإصلاحي عند العرب في عصر النهضة، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٢م، ص١١٣.

ويحدثنا علي مبارك عن حال التعليم في مصر قائلاً: «ابتداءً من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر الهجريين - أي مدة ثلاثة قرون - أُهْمِلَ أمر المدارس، وامتدت أيدي الأطماع إلى أوقافها، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة»[١].

ويبدأ رفاعة كتابه بالحديث عن التربية ويُعرِّفها بأنها: «تنمية الأعضاء الحسية والعقلية، وطريقة تهذيب النوع البشري ذكرًا كان أو أنثى على طبق أصول معلومة، يستفيد منها الصبي هيئة ثابتة يتبعها ويتخذها عادة»[٢]، ويرى أن تغذية الطفل على ثلاثة ضروب: الأول تغذيته بالطعام لينمو جسمه، والثاني تغذية خُلُقه، بتعويده التطبع بالطباع الحميدة، والآداب والأخلاق، والثالثة تغذية عقله بتعليم المعارف وألوان العلوم[٣]، فللتربية ألوان ثلاثة: جسمية، وخُلُقية، وعقلية.

ومهمة التربية عند رفاعة تهذيب الخلق وتنمية العقول وتحسين الإدراك، وليس من مهمتها خلق الذكاء؛ لأن ذلك من الصفات الغريزية الطبيعية، فإذا أوكل إلى المربي عدة أطفال مختلفي الذكاء، لا تستطيع التربية الموحدة أن تسوي بينهم في الذكاء، «والذكاء الكامل إذا صحبته التربية الفاضلة كان عظيمًا كثير

(١) علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج٤، مرجع سابق، ص٣٨.
(٢) الطهطاوي، المرشد الأمين، مرجع سابق، ص ١٢.
(٣) المرجع السابق، ص ١١.

النجاح، فإذا صحبته التربية المتوسطة كان يسير النتيجة لا يبلغ صاحبه الرتبة المطلوبة»[١].

وبناء على هذا الأمر يضع الطهطاوي للتربية مهمة خطيرة بقوله: إن «الأمة التي حسنت تربية أبنائها، واستعدوا لنفع أوطانهم هي التي تعد أمة سعيدة .. بخلاف سوء التربية المنتشر في أمة من الأمم، فإن فساد أخلاق بنيها يفضي بها إلى العدم»[٢]، والأمة «التي تتقدم فيها التربية... يتقدم فيها أيضًا التقدم والتمدن»[٣].

وأول ما يجب أن يُعنى به مربي الطفل أن يمحو الأثرة من نفسه؛ لأنها خصلة جامعة لجميع العيوب دالة على دناءة النفس[٤]، وأن يحفظ منذ صغره العقائد الدينية، فينبغي أن يعلم الصغير - ذكرًا أو أنثى - من مبدأ أمره إقامة الدليل على وجود الله، ووحدانيته، وباقي صفاته الواجب معرفتها[٥]، وهكذا يجب أن تسير التربية الدينية جنبًا إلى جنب مع تربيته المعاشية ليجمع بين معرفتيهما.

(١) المرجع السابق، ص ١٣.
(٢) المرجع السابق، ص ١٤.
(٣) المرجع السابق، ص ١٧.
(٤) المرجع السابق، ص ٢٠.
(٥) المرجع السابق، ص ٢٨.

والتعلم هو جزء من التربية المعنوية، كما أنه هو الوسيلة العظمى التي يكتسب بها الإنسان معرفة ما يجهله، والتربية المعنوية هي تهذيب العقل، وترويض الذهن[١].

ويقسم الطهطاوي التربية المعنوية إلى ثلاثة أقسام

القسم الأول: تربية النوع البشري، يعني تربية الإنسان من حيث هو إنسان، وهو تنمية جسده وحواسه العقلية. وهذا القسم ضروري يتلقاه الأطفال صغارًا – إناثًا وذكورًا.

القسم الثاني: تربية أفراد البشر، أي تربية الأمم والملل، وهذا القسم من التربية لا يحصل إلا «بتعليم أحكام الدين الواجب معرفتها على كل إنسان»[٢]. وهذه تربية في الهُـوية.

القسم الثالث: التربية العمومية لكل إنسان في خاصة نفسه، وهي تربية الإنسان الخصوصية، وهذه التربية تُسمى أيضًا بالتعليمات العمومية، فهي ما يتعلمه الذكور والإناث في المكاتب (الكتاتيب) والمدارس، وفي سائر مؤسسات المعرفة التي يجتمع فيها للتعليم[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٢.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٤.

ويجمل الطهطاوي أهمية التربية في قوله: «وبالجملة فتربية أولاد الملة وصبيان الأمة وأطفال المملكة ذكورًا وإناثًا من أوجب الواجبات»[١].

أما عن شكل التعليم فلا نرى الطهطاوي يخصص في كتابه حيزًا للحديث عن إنشاء مؤسسات تعليمية، بل يقتصر الحديث - عنده - على المؤسسات الموجودة عند تأليفه كتابه، غير أننا نعرف جهوده الكبيرة لإنشاء مدرسة الألسن وإدارتها، وتوجيهاته الرامية إلى تأسيس المزيد من المؤسسات التعليمية.

ويقسم الطهطاوي التعليم العمومي إلى ثلاثة أقسام: التعليم الأَوَّلي الابتدائي، والتعليم الثانوي التجهيزي، والتعليم العالي الانتهائي.

فالتعليم الأولي عامٌّ ضروري لسائر الناس، يحتاج إليه كل إنسان كاحتياجه إلى الخبز والماء، وهذا التعليم يشترك فيه أهل المملكة على حدٍّ سواء، فهو عام لجميع الناس، يشترك فيه أبناء الأغنياء والفقراء: ذكورهم وإناثهم[٢]. ومنهج هذا النوع من التعليم دراسة القراءة والكتابة، مع تعليم القرآن الكريم، وأصول الحساب ومبادئ الهندسة والنحو. وهذا التعليم الأولي هو الذي وضعه وخطط له الطهطاوي وصديقه أدهم باشا في عهد سعيد باشا، ولكن لم يُقدَّر لهما تنفيذ برنامجهما كما سبق أن ذكرنا.

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٦.

وهذا التعليم متى تلقاه أفراد الأمة حَسُنَ حال الهيئة الاجتماعية، وارتقى به أرباب الحرف الصناعية، فإن الصانع مثلاً، إذا تعلم هذه المبادئ سَهُلَ عليه قراءة كتب صنعته، ويدخل فيها تحسينات جديدة، فيرقى ويسير في عمله إلى درجة الكمال.

أما التعليم الثانوي «فهو ما يكون به تمدين جمهور الأمة، وكسبها درجة الترقي في الحضارة والعمران»[١]، وعلومه كثيرة، منها: العلوم الرياضية بأنواعها، والجغرافيا، والتاريخ، والمنطق، وعلم المواليد الثلاثة[٢]، والطبيعة والكيمياء والإدارة الملكية، وفنون الزراعة، وغيرها. ولأهمية هذا النوع من التعليم يدعو الطهطاوي الحكومة إلى «ترغيب الأهالي، وتشويقهم فيما يخص هذا النوع»[٣].

أما التعليم العالي فهو الذي يشتغل الإنسان فيه بعلم مخصوص يتبحر فيه[٤] كعلم الفقيه والطبيب والفلكي والجغرافي والمؤرخ، ويريد صاحبه أن يجول في أصوله وفروعه حتى يكون كالمجتهد فيه.

وهذه الثلاثية تمثل إستراتيجية تعليم متكاملة.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٢) الحيوان والنبات والمعادن.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٦.

(٤) المرجع السابق، ص ١٣٧.

وإذا كان رفاعة يرى من الواجب تعميم التعليم الأولي بين أبناء الشعب جميعًا، وترغيب الشعب في التعليم الثانوي، فإنه يناصر التضييق في التعليم العالي، وحصره في فئة صغيرة من الناس «بحيث يكون عدد تلامذتها محصورًا، وعلى أناس قلائل مقصورًا»[(١)].

وقريب من هذا الرأي ذهب محمد عبده الذي قسم التعليم إلى ثلاث مراحل في لائحة إصلاح التعليم العثماني سنة (١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م): تعليم ابتدائي لتعليم الأمور الأساسية، وتعليم ديني وسط للطبقة المرشحة للوظائف، وتعليم ديني عالٍ لطبقة المعلمين.

وجلي أن هذه المراحل تعكس رؤية نخبوية، فالطهطاوي يرى أنه يلزم لنظام الدولة نوعان من التربية لتكون مهذبة: إحداهما تربية أبناء الملوك أو رؤساء الدولة، والثانية تربية أبناء الوطن، والتعليم العالي درجة معقدة لأرباب السياسات والرئاسات، وأهل الحل والعقد في الممالك والحكومات، وينبغي أن يقتصد في تعليمها.

ويلتقي محمد عبده مع الطهطاوي في هذه النظرة للتربية، وهو يجعل جمعية «المقاصد الخيرية» في خدمة الاستقرار الطبقي، فيقول: إنها «توطن نفوس

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٧.

التلامذة... على أن يعمل الواحد منهم عمل أبيه بإتقان، فولد النجار يكون نجارًا.. والتربية والتعليم يساعدان كلاًّ على إتقان عمله وصناعته»[١].

ويترتب على هذه النظرة موقف مخصوص من مسألة إجبارية التعليم الأولي، فالطهطاوي يبرز محاسنها قائلاً: «وفي بعض بلاد جرمانيا دخول المدارس للبنات والغلمان واجب قانونًا ... فلهذا كان أبناء أوربا وأمريقة (أمريكا) ذكورًا وإناثًا يحسنون في الغالب القراءة والكتابة.. ويعرفون مبادئ المعارف التي يتزين بها عقل الإنسان»[٢].

ويعرض الطهطاوي مضمون التعليم، ويتناول المواد التي يجب تدريسها في مختلف مراحل التعليم، وقد أولى الدين مكانة خاصة، فهو يدعو إلى تعليم الأطفال منذ الصغر العقائد الدينية، وجعل القرآن مادة أساسية في التعليم الأولي، في حين لا نجد للعلوم الشرعية ذكرًا في التعليم الثانوي والعالي، على أنه في مقام آخر ينطلق من النظرة التقليدية في تصنيف العلوم، فيقسمها قسمين: غايات، ووسائل. فالعلوم الشرعية هي المقصودة بالذات، وما سواها من العلوم والفنون فهي كالآلات. فالعلوم الشرعية هي أهم مما عداها، ولكنه يرى من جهة أخرى أن العلوم النقلية والعلوم العقلية متكاملة. وهذه النظرة ترتبط بمقاصد الشريعة، التي

---

(١) محمد عبده، الأعمال الكاملة، تحقيق: محمد عمارة، ج٣ «الإصلاح الفكري والتربوي»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ١٩٧٢م، ص٩٩.

(٢) الطهطاوي، المرشد الأمين، مرجع سابق، ص ٣٩.

تقسم العلوم إلى علوم وسائل، وعلوم مقاصد، وعلوم الدين هي علوم مقاصد لكونها تتسم بالثبات، بينما العلوم العقلية هي علوم وسائل لقابليتها للتغير، وفي منظومة المقاصد يأتي الدين ومعه علومه.

أما من حيث مناهج التعليم فإن الطهطاوي يؤكد وجوب اتباع طريق البساطة؛ حتى يسهل على التلاميذ الفهم «فينبغي للأستاذ المعلم أن يتخذ في تعليم الصبيان أقرب الطرق وأسهلها للتعلم، وكذلك ينبغي للأستاذ الماهر في الفنون والصنائع أن يسلك سبيل السهولة، وينهج أقصر المناهج في تعليم غلمانه»[(١)].

كما يشترط في المعلم اللين: أن يكون متأنيًا غير مبادر للاستعجال بالعقوبة، ولا يؤاخذ أحدًا بأول ذنب يصدر، ويجب التلطف بالتلاميذ، وأن يتآلف قلوب الطالبين، ويتلطف بهم، ويحرضهم على التعلم، ويذهب به ذلك إلى الدعوة إلى المراوحة بين الدرس واللعب، فينبغي للمعلمين أن يأذنوا في بعض الأوقات للمتعلمين باللعب، ويكون لعبًا جميلاً غير متعب لهم، ليستريحوا من كلفة الأدب، ويمكننا التماس الأثر الفرنسي فيما ذهب إليه، ولا سيما كتاب «التربية» لجان جاك روسو (١١٢٤-١١٩٢هـ/ ١٧١٢- ١٧٧٨م). ولا شك أن هذا الجزء من المنهج مصدره الثقافة الفرنسية.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٦.

وكان رفاعة يقدر مهنة التعليم حق قدرها، ويُجل القائمين بأمرها، حتى كتب عن ذلك مستشهدًا بما روي عن النبي ﷺ: «خير الناس وخير مَن يمشي على الأرض المعلمون ...»[١].

وغاية التربية والتعليم تظهر في دعوة الطهطاوي الإصلاحية، فتربية الأفراد ليست غاية في نظره، وإنما هي واسطة لتربية الأمة بتحسين تربية الآحاد ذكورًا وإناثًا، وانتشار ذلك فيهم يترتب عليه حسن تربية الهيئة المجتمعة (يعني الأمة بتمامها).

والتربية ترتبط بالتمدن ارتباطًا جدليًّا، فهي من جهة مرتبة تؤهل الأمة للوصول إلى التقدم، فالأمة التي تتقدم فيها التربية بحسب مقتضيات أحوالها يتقدم فيها أيضًا التقدم والتمدن على وجه تكون به أهلاً للحصول على حريتها. ومن جهة أخرى فالتعليم والتعلم ركن من أركان التمدن؛ لذلك تندرج التربية في مسار الفكر الوطني، وتصبح أساس الانتفاع بأبناء الوطن؛ لذلك نجد الطهطاوي يتحدث عن الوظائف الحكومية التي يؤَهِّل لها التعليم في المدارس، ويدعو إلى ربط التعليم بما يحتاجه الوطن.

ومن هنا ركز الطهطاوي مشروعه على التعليم بما هو نشاط محدد ذو خصائص معلومة. فكان برنامجه عمليًّا؛ إذ عمد إلى شد أزر النظام القائم بتعزيز

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٦٤.

مؤسساته التعليمية، وهكذا ظهر التعليم عنده باعتباره أحد أعمدة النهضة، كما أنه الحافظ لصلاح المؤمن في دينه ودنياه، وهذا التعليم كان السر وراء نهضة الغرب، ولا ريب أن كتابات الطهطاوي عن مضمون البرامج التعليمية وكذا سمات المعلم والمتعلم قد تأثرت تأثرًا كبيرًا بكتابات ابن حزم ومسكويه والغزالي، وغيرهم من فلاسفة الإسلام في مجال التربية، تلك التي كانت مطروحة على موائد المثقفين منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

٢- تطور مفهوم العلم

كانت ثقافة الطهطاوي قبل رحيله إلى فرنسا سنة (١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م) كمرشد وواعظ ديني ثقافة دينية تقليدية، وكان العلم في نظره يكاد ينحصر فيما تعلمه في الأزهر، وما تعرّف عليه من أستاذه الشيخ حسن العطار، فكانت ثقافته من النمط الذي ساد مصر والعالم الإسلامي في القرنين السابع عشر والثامن عشر، التي تقتصر في أغلبها على شرح المتون المتداولة، وتقديم الحواشي عليها، كما سبق وأشرنا.

وكانت السيادة الثقافية في هذه الفترة لشيوخ الأزهر وللنزعات الصوفية، ولأنماط خرافية من التفكير الديني والعلمي، ومع ذلك فإن مظاهر التفكير النقدي لم تكن غائبة تمامًا، لكن هذه المظاهر النقدية كانت محدودة جدًّا، أما الغالب الأعم فهو أزهر يكتنفه الجمود، وعلماء «لا يذهبون في علومهم أبعد من علوم الدين التقليدية، وعامة مأخوذة بالتصوف والمتصوفة وبالشعوذة والخرافات.

أما العلوم غير الدينية فلم يكن لها أثر، أو أنه لم يكن لها إلا أثر ضئيل لا يكاد يُحس»[١]؛ لأنه كان مقصورًا على الحلقات العلمية التي كانت تُعقد في بيوت كبار التجار وبعض شيوخ الأزهر.

إلا أن فكر الطهطاوي حينذاك لم يقتصر على العلوم الأزهرية فقط، بل حاول الخروج عنها، وساعده على ذلك الشيخ العطار الذي اتصل بالفرنسيين، وطلب منه أن يوسع من معرفته بالعلوم الغربية، التي تعرّف على أسمائها منه.

وعندما سافر الطهطاوي إلى باريس استطاع أن يوسع من إطار العلم التراثي نفسه، حين تعرّف أثناء بعثته على جوانب عديدة من التراث عن طريق المستشرقين الفرنسيين المتخصصين في العلوم العربية، وكانت لهم جهودهم في تحقيق التراث العربي، وقد أشار الطهطاوي إلى بعض منه طُبع في أوروبا، ولم يكن له طبعات في الشرق، كما استطاع في فترة بعثته أن يطلع على الثقافة والعلم الأوربيين، و«أن يخرج من كل ذلك بثقافة جديدة تجمع بين الثقافتين العربية والغربية»[٢].

ونادى الطهطاوي في ذاك الوقت بإصلاح الأزهر، فهو وإن كان يعترف بفضله عليه في ثقافته، ويصفه في «تخليص الإبريز» بصفات جميلة، إلا أنه يرى

(١) فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، مرجع سابق، ص١٠٨.
(٢) محمود فهمي حجازي، أصول الفكر العربي الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، ص١٣.

حاجته إلى الإصلاح والتطوير، وإضافة العلوم الحديثة إلى العلوم الدينية، ومع دعوته إلى إدخال العلوم العصرية في الأزهر كان يرى أن تقتبس مدارسنا الجديدة من المدارس الأجنبية المنشأة في مصر، ولهذا كانت «روضة المدارس» تنشر أخبار المدارس الأجنبية وتنوه بجهودها في التعليم، ويزور رفاعة بعض هذه المدارس، ويكتب في «الروضة» تقريرًا عنها وعن نظمها، فهو يرغب لمدارسنا ولعلومنا أن تساير الغرب في علومه ومناهجه.

وعرّف الطهطاوي «العلم» بمعناه الحديث، ومؤسساته الكبيرة، وفروعه المتعددة، وعرف مناهج جديدة في بحث جوانب الحياة المختلفة، فعاد بمفهوم جديد ومنهج جديد ووعي جديد، وظل يحاول في كتبه تأصيل أفكاره حول أهمية العلم في تحقيق المدنية، وعرف أن العلوم والمعارف التي قامت عليها حضارة ونهضة أوروبا هي موروثات عربية إسلامية، أخذها الأوروبيون وطوروها، فيقول: «إن هذه العلوم الحكمية التي يظهر الآن أنها أجنبية هي علوم إسلامية، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل إلى الآن في خزائن ملوك الإسلام»[(١)].

كما كان يؤمن أن العلم عام للإنسانية جميعها، وليس حكرًا لشعب معين، بل يجب طلبه من كل الشعوب، ويستشهد على ذلك بحركة الترجمة

(١) الطهطاوي، الأعمال الكاملة، ج١، مرجع سابق، ص٥٣٤.

التي قامت في عصر الدولة العباسية عندما كانت تترجم معارف الشرق والغرب، وبناء عليها أقام المسلمون حضارتهم. وقد استفاد الغرب من هذه العلوم التي نقلوها عن المسلمين، وأقاموا حضارتهم الجديدة، وأصبحت العلوم الأوروبية في «الأزمان الحديثة كأيام الخلفاء في البلاد المشرقية والمغربية فقد تقدمت الفنون الأدبية، والعلوم الشرعية النقلية والعلوم الحكمية والعقلية»[١].

والعلم النافع - عنده - هو كل علم ينتفع به في مجال الزراعة والصناعة والتجارة، والعلم النافع شامل لتعليم المعارف النافعة، ولا تتم العلوم الشرعية إلا به، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولما كانت عمارة «المسالك والممالك لا تستغني عن الفنون والصنائع وآلاتها وأدواتها، يَسَّرَ الله تعالى لكل زمان من الأزمان أناسًا أرباب براعة كاملة؛ لإحياء ما به يكون العمران، ويتسع التمدن في البلدان»[٢].

والعلوم المدنية والفنون والحِرف تحتاج من صاحبها القراءة فيها، ودراستها لتكميل قواعدها، ويستشهد في ذلك بما رآه في رحلته بباريس من أن سائر العلوم والفنون والصنائع مدونة - عندهم - في الكتب حتى الصنائع المدنية؛ لذا يقول: «فبقراءة الصانع كتب الصناعة المتنوعة تتكامل فيها براعته، وتحسن وتجود

(١) الطهطاوي، المرشد الأمين، مرجع سابق، ص ١٨٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٨.

صناعته... فترقى الفنون والصنائع على تعاقب الأجيال إلى درجة التحسين والكمال»[1].

فما عرضه الطهطاوي من تدوين العلوم حتى الصناعية عند الفرنسيين إنما هو نقد لنوعية العلوم التي كانت تدرس بالأزهر، والتي دارت غالبيتها على الشرح والتعليق دون تقديم ما هو جديد، ودون الالتفات لدور العلوم المدنية التي كانت أساس تطور الحضارة في الغرب، ورأى أن العلم بالمفهوم الحديث يتضمن كل أفرع المعرفة الإنسانية، ولا يقتصر على علوم الدين فقط، وفي كتابه «المرشد الأمين» يتحدث عن فائدة كل علم في تحقيق المدنية، ويعتبر أن العلوم العملية والتطبيقية جزء من المفهوم الجديد للعلم، والمعارف النافعة، سواء كانت علومًا أو فنونًا أو صناعات أو آلات، فإنها لا تخلو من مدارك علمية، ولهذه المعارف التطبيقية مكانتها بين العلوم، لا لأنها نافعة فقط، بل لخضوعها أيضًا لما تخضع له فروع العلوم الأخرى.

وكما تغير مفهوم العلم عند الطهطاوي، كذلك تغيرت صورة العالم، فكان التصور القديم للعلم هو العلوم الدينية التي تدرس بالأزهر، يقوم بها علماء الدين، أما في فرنسا فكان العلماء ليسوا هم علماء الدين، فقد سبق أن أكد في كتابه «تخليص الإبريز» على أن علماء الفرنسيين ليسوا هم القُسوس (القساوسة)؛

(١) المرجع السابق، ص ١٣٦.

لأن القسوس هم علماء في الدين فقط، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضًا. أما من يُطلق عليه اسم العالم فهو من له معرفة في العلوم العقلية التي من جملتها الأحكام والسياسات، ولم يَعد العالِم هو الفقيه فقط، ولم يعد الفقه هو العلم الوحيد، بل هناك علوم أخرى تقوم عليها الحضارة والعمران، فإن أسباب التمدن في الدنيا التمسك بالشرع وممارسة العلوم والمعارف، وتقديم الفلاحة والتجارة والصناعة، واستكشاف البلاد التي تعين على ذلك، واختراع الآلات والأدوات، وكل ما يسهل أو يقرب الطرق التمدنية بإيجاد الوسائط والوسائل.

ويؤكد الطهطاوي أن بإمكان المصريين التقدم، فهم يملكون الجانب الخلقي المعنوي، والذي ينقصهم هو الجانب المادي للتمدن والمتصل بالتجارة والزراعة والصناعة؛ ولذا فإن التواصل الثقافي يدعم عمليات التقدم عن طريق التأكيد على القيم الإيجابية الحية والفاعلة في ثقافتنا، وفي هذا أيضًا يختلف الفرنسيون عن العرب والمسلمين، «فهم تقدموا عندما قطعوا مع الكنيسة، بل مع الدين المسيحي.. بينما نتقدم نحن بالحفاظ على هذا التواصل لاختلاف التاريخ واختلاف التجربة مع الدين بيننا وبينهم»[١].

فكما نختلف عنهم في القيم النافعة للتقدم نختلف عنهم في العلاقة بديننا، فالتحسين والتقبيح عندهم عقليان، بينما عندنا الوضع مختلف؛ لأن

---

(١) رضوان السيد، حضور التراث العربي في كتابات الطهطاوي، الوظائف والدلالات، ضمن أبحاث مؤتمر الطهطاوي، ص٣٩٣، ٣٩٤.

تمدن «الممالك الإسلامية مؤسس على التحليل والتحريم الشرعيين بدون مدخل للعقل تحسينًا وتقبيحًا في ذلك؛ حيث لا حسن ولا قبيح إلا بالشرع»[(١)].

وكان الطهطاوي بهذا ممثلاً لعصر جديد، عندما وسع من مصطلح العلوم، ولم تعد هي فقط علوم الدين، بل هناك علوم أخرى هي أدوات للوصول إلى العلوم الحقيقية، واستطاع أن ينفذ إلى أساس تقدم البلاد الأوروبية، وأن أهم أسباب تقدمهم هو تطور مفهومهم عن العلم، ودعا بني وطنه إلى هذا المسلك، وإلى الخروج لطلب العلم. وأطلق على هذا مصطلح السياحة في طلب العلم، والتي بها «تستنير الممالك بالتناوب، فمصابيح العلوم أشبه بالكواكب.. تنتشر في الأفق انتشارًا مؤقتًا وهي سريعة الزوال، ولا تعود إلى محلها إلا بعد قرون وأجيال، فلا بأس إذا ضعف نور التمدن في مملكة من أن تعود إلى رتبتها الأولى، لا سيما إذا سخر الله لها ملكًا مُجدِّدًا»[(٢)].

وهذا القول في غاية الدلالة والأهمية، حيث يشير الطهطاوي إلى أن الحضارة والتمدن غير مرتبطين بدولة أو أمة معينة، بل الحضارة تدور في دورات متعاقبة، وهذا يذكرنا بموقف ابن خلدون في القول بالتعاقب الدوري للحضارات. ولعل من أهم الأفكار في هذا النص أن الطهطاوي يلقي عبء التقدم على مدى تفهم وإدراك الحاكم لقيمة العلم والمعرفة ودورهما في التقدم.

---

(١) الطهطاوي، المرشد الأمين، مرجع سابق، ص ٢٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٥.

٣- حقـوق المـرأة

مرت قضية «المرأة» في الفكر العربي الحديث بثلاث مراحل أساسية: الأولى الدعوة إلى «تربية المرأة»، والثانية الدعوة إلى «تحرير المرأة»، والثالثة الدعوة إلى «إصلاح المرأة». والحق أن تربية المرأة – وهي تمثل أولى المراحل التي مرت بها القضية في العصر الحديث – تعود إلى الطهطاوي، فقد كان في مقدمة مَن لمس الحاجة إلى تربيتها وتعليمها، مدفوعًا في ذلك بأمرين: الأول: موقف الإسلام الصحيح من المرأة، والثاني: ما شاهده من حال المرأة الأوربية عامة، والفرنسية بوجه خاص.

ولم ينصف المرأة معتقد من المعتقدات البشرية، أو قانون من القوانين الوضعية، ولا دين من الأديان السماوية، مثلما أنصفها الإسلام، ورد التهم الموجهة إليها، وفند الافتراءات التي تُقال عنها، ودفع الظلم الواقع عليها، وحفظ لها قدرها وكرامتها وحقوقها.

ولكن التراث الثقافي العربي الذي عاشه الطهطاوي في مصر لم يكن لديه تلك الصورة الرائعة التي قدمها الإسلام للمرأة؛ ذلك لأن الإسلام لم يكن هو المكون الوحيد للثقافة العربية، فللثقافة – أية ثقافة كانت – مكونات عديدة: كالتقاليد والعادات والأعراف؛ ولهذا فإن بعض الممارسات كانت لا تتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية. فكان نقد الطهطاوي لهذا الواقع متجهًا في الأساس إلى الصورة التي تحياها المرأة ولا تتفق مع التصور الإسلامي.

ويبدي الطهطاوي تعجبه ممن يدعي أن الدين يعارض تعليم المرأة القراءة والكتابة، ومن زوجات الرسول ﷺ مَن كانت تقرأ وتكتب كحفصة بنت عمر، وعائشة بنت أبي بكر، ورُوي في كتب الأحاديث روايات كثيرة عن النساء، وأن منهن من تُعلِّم النساء، ويعرض رفاعة أمثلة من التاريخ الإسلامي تؤيد فكرة تعليم المرأة، ليدلل على أن تعليمها لا يتناقض مع نزوع المجتمع إلى التدين، بل يشير إلى أن تعليم البنات في فرنسا كان يتم في أديرة الراهبات. فهو حريص على أن يوضح في خطابه للمجتمع المصري مدى مشروعية تعليم المرأة من الناحية الدينية الإسلامية والمسيحية على حد سواء، وهذا يعني بروز فكرة المواطنة عنده.

هذا عن الأمر الأول، أما الأمر الثاني، فإن رؤيته لوضع المرأة في فرنسا، ومشاركتها في الحياة العامة كان الدافع الثاني لديه للمناداة بتغيير وضع المرأة، حيث رأى أن المرأة - هناك - تساهم مساهمة فعالة في الحياة والتعلم والعمل.

ورأى الطهطاوي أن أحد أسباب تخلف العالم الإسلامي راجع إلى تهميش دور المرأة، وعدم إتاحة الفرصة لها للمشاركة في الحياة العامة، على الرغم من أن الدين لم يعقها عن ذلك، بل العائق الذي ظل يحد من تفتحها وتطورها هو «للعوائد المحلية المشوبة بجمعية جاهلية»[١] (مجتمع جاهلي). أما المجتمعات المتطورة - قديمًا وحديثًا - فقد اهتمت بتعليم المرأة، ويذكر رفاعة أن نساء اليونان -

(١) المرجع السابق، ص ١٤٤.

قديمًا – قد تعلمن مثل الرجال، ومن هنا كانت اليونان متقدمة على كافة البلدان «فبهذا صارت تربية عموم اليونان كاملة فاضلة في أغلب الأزمان»[١].

ويمكن القول إن مثقفي عصر النهضة تناولوا مسألة المرأة – على الأقل – حتى التسعينيات من القرن التاسع عشر كجزء ملحق بقضية النهضة، أو كمسألة من مسائلها؛ لذلك تكاد تقتصر مطالب ممثلي تلك المرحلة على حق المرأة في التعليم، وكان أهم هؤلاء أسعد الخياط، وأحمد فارس الشدياق[٢]، وبطرس البستاني[٣].

وبعد تسعينيات القرن التاسع عشر أخذت المشكلة منحى أكبر، وأصبحت مسألة «تحرير المرأة» قضية أساسية، وكان في مقدمة هؤلاء حمزة فتح الله، وقاسم أمين وكتابه «تحرير المرأة» وأحمد لطفي السيد، وارتفع أيضًا الصوت النسائي ينادي بهذه الحرية، أمثال: زينب فواز، وعائشة التيمورية، وبعدهما ملك حفني ناصف (باحثة البادية)، حتى نصل إلى نبوية موسى التي خصصت مؤلفها «المرأة والعمل» لمناقشة أوضاع المرأة في الشرق. وهكذا أثمرت دعوة الطهطاوي وغيره من الرواد في تغيير وضع المرأة[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٧.

(٢) أحمد فارس الشدياق، الساق على الساق فيما هو الفارياق، المكتبة التجارية، مصر، ١٩٢٠، ج١، ص٦٣.

(٣) جان دايه، المعلم بطرس البستاني، دراسة ووثائق، منشورات مجلة فكر، بيروت، ١٩٨١م، ص٣. وظهر هذا في خطاب ألقاه ١٤ كانون الأول / ديسمبر ١٨٤٩م.

(٤) بوعلي ياسين، حقوق المرأة في الكتابات العربية منذ عصر النهضة، دار الطليعة، دمشق، ١٩٩٨، ص١١.

ويخصص الطهطاوي مساحات كبيرة من كتابه هذا للحديث عن المرأة، ويبدو محبًّا لها، يمدحها ويثني عليها في عبارات كثيرة، ويصفها بأنها من أجمل صنع الله القدير، وقرينة الرجل في الخلقة، والمعينة له في تدبير أمره، والحافظة لأطفاله[١].

ويعقد الطهطاوي مقارنة بين الرجل والمرأة من الناحية الجسدية والنفسية، فيلاحظ أن الاختلافات بينهما تتركز في صفات الذكورة والأنوثة، فمن الناحية النفسية والاجتماعية هي أفضل من الرجل؛ لأنها أكثر شفقة ورحمة وعطفًا وحنانًا ورقة ولينًا، وعندها استعداد لأن تتنزه عن عوائد الرجال الخشنة، ومن الناحية الجسدية فالمرأة «ألطف شكلاً من الرجل»[٢]، وإن كانت بنيتها ضعيفة فإنه لا يرى في ضعف البنية سببًا لاحتباسها في البيت، ومنعها من تلقي العلم؛ لأن المرأة عُوِّضت عن بِنيتها الضعيفة بقوة عقلها وحدّة إحساسها وإدراكها، فإذا كانت «الأنثى مع عقلها الغريزي ذات معارف كافية، وظرائف شافية زادها عقلها كمالاً على ما تعرفه»[٣]؛ ولذا رأى أن تعلُّم الآداب فضيلة في الرجال والنساء جميعًا، ولكن في النساء أحسن لما فيهن من الرقة الطبيعية، والمحاسن المعنوية.

---

(١) الطهطاوي، المرشد الأمين، مرجع سابق، ص ٨٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٢.

ويخصص الطهطاوي فصلاً في الباب الأول عنوانه «في تشريك البنات مع الصبيان في التعلم والتعليم وكسب العرفان». يتكلم فيه عن ضرورة مساواة البنات مع الصبيان في حق التعليم، فيقول: «ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان»[(١)].

وهذه دعوة جديدة على العقل العربي المسلم في ذلك الوقت المبكر من النهضة العربية، حيث لم يكن تعليم المرأة مباحًا بشكل عام، وأقصى ما كانت تتلقاه من تعليم ما يخص بنات الطبقة العليا، ويتم داخل البيوت، أما التعليم العام في المدارس فلم يكن موجودًا، ووجد نوع آخر من التعليم - كما سبق وأشرنا - مع الإرساليات الدينية، والجاليات الأجنبية، ولم يظهر التعليم الوطني العام إلا مع إنشاء مدرسة القابلات سنة (١٢٥٢هـ/١٨٣٦م)، عندما اقترح الطهطاوي ذلك وقتما كان عضوًا في لجنة المعارف العمومية.

ثم دعا الطهطاوي في كتابه «مناهج الألباب المصرية» أولياء أمور الفتيات إلى تعليم البنات ما يليق بهن من القراءة وأمور الدين، وكل ما ينفعهن، فإذا سمحت الظروف للمرأة أن تتعلم، فلتنل حظها من العلم كالفتى، وهو ما خصص له الطهطاوي كتابه «المرشد الأمين»، وهو ما ساعد بعد ذلك في إنشاء أول مدرسة حكومية لتعليم البنات سنة (١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م).

(١) المرجع السابق، ص ١٤٣.

ويؤكد رفاعة أهمية تعليم المرأة مدعمًا رأيه بعدة فوائد: تعود على زوجها، وعلى أولادها، وعلى نفسها، ويلخص هذه الفوائد فيما يلي:

أولها: أن للتعليم أثرًا قويًّا في إسعاد بيت الزوجية، وحسن معاشرة الأزواج، فالتعليم يخلق التناسب والتجانس بين الزوجين، ويجعل المرأة أهلاً «لمشاركة الرجال في الكلام، فيعظمن في قلوبهم، ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش، مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها»[(١)]، ويؤكد هذه الفكرة في موضع آخر بقوله: فمعرفة إرضاء أحد الزوجين للآخر فن نفيس، وإن كان صعبًا في حد ذاته؛ لأنه يستدعي كمال التربية[(٢)]، وحصول المرأة على التربية والتعليم يجعلها تحوز أجمل صفات الكمال، وترفع قدرها أمام الرجل؛ لأن جمال الباطن، أفضل - فيما يرى الطهطاوي - من جمال الظاهر.

ثانيها: أن آداب الفتاة ومعارفها تؤثر كثيرًا في أخلاق أولادها؛ إذ إن البنت الصغيرة متى رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب، وضبط أمور البيت، والاشتغال بتربية أولادها «جذبتها الغيرة إلى أن تكون مثل أمها»[(٣)]، على عكس ما إذا رأتها مقبلة على زينتها وتبرجها، وإضاعة وقتها في هذا.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٩٢.

(٣) المرجع السابق، ص ١٤٥.

ثالثها: أن العلم يهيئ للمرأة سبيل العمل؛ فتتعاطى من الأعمال ما يتعاطاه الرجل على قدر قوتها وطاقتها إذا دفعتها الحاجة إلى ذلك، وهذا من شأنه أن يشغلها عن البطالة، فإن فراغ يدها من العمل يشغل لسانها بالأباطيل، وقلبها بالأهواء «فالعمل يصون المرأة عما لا يليق، ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال، فهي مذمة عظيمة في حق النساء»[١].

ويبدي الطهطاوي تقديره الشديد لقيمة العمل في ذاته، ويصف لذة العمل بأنها منحة إلهية[٢]؛ ولهذا ذم مَن يدعي التصوف، فيتعطل عن المكاسب، ولا يكون له علم يؤخذ عنه، ولا عمل صالح في الدين يُقتدى به، ويستشهد بقول شيخ الصوفية «الجُنَيْد»: «الله لا يحب الرجل البطال، فإن من تعطل وتبطل فقد انسلخ عن الإنسانية، وصار من جنس الموتى»[٣]. فالعمل قيمة في ذاته، سواء كان من الرجل أو المرأة، فبالعمل تتقدم الأمم.

ومسألة عمل المرأة التي نادى بها الطهطاوي في كتابه، قصد بها عمل المرأة في الطبقات العليا والبرجوازية في المدن؛ لأن المرأة الفقيرة في المدينة، أوالريف تعمل طوال تاريخها، والجديد الذي نادى به رفاعة هو إتاحة الفرصة أمام المرأة للعمل بشكل عام.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٧١.

ووقف الطهطاوي من قضية عمل المرأة موقفًا تقدميًّا - بقياس عصره - فقد ربط بين تعليم المرأة وعملها، واعترف بقدرة المرأة على الوصول إلى نفس مستوى الرجل في التعليم، فإذا حدث ذلك فتحت أمامها مساواته في مجال العمل فيقول: فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن، خاصة أن الإسلام قد أعطى للمرأة الحق في أن تعمل دون أن يمنعها ذلك من تأدية حق الأسرة عليها، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران/ ١٩٥]، وقــوله تعــالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النساء/٣٢]. ولو استقرأنا التاريخ الإسلامي لوجدنا مجالات العمل مليئة بأمثلة حيّة للمرأة المسلمة منذ مستهل الدعوة الإسلامية، ابتداء من السيدة خديجة رضي الله عنها التاجرة زوج الرسول ﷺ، وقد أقرها على ذلك فيما بعد، وجاءت النصوص تكرس حق المرأة في الملكية، وإطلاق يدها للتصرف في مالها.

ويحاول الطهطاوي تأكيد فكرته عن عمل المرأة تاريخيًّا وشرعيًّا، فيذكر أن النبي شعيب عليه السلام قد أباح لابنتيه سقي الماشية دون أن يقدح ذلك في حقه بشيء، فلا مفسدة في ذلك؛ لأن الدين لا يأباه، ونساء النبي ونساء أصحابه كن يسعين على عيالهن، ويخدمن أزواجهن، بل يقمن بالغزو مع الجيش.

ولكن ما هي الحدود التي وضعها الطهطاوي لعمل المرأة؟ هل حدد عملها بنطاق معين؟ أم أباح لها أن تدخل كل الميادين، بما فيها ميدان السياسة (الخلافة والإمامة) والقضاء؟ هنا يعود الطهطاوي إلى واقع التاريخ الإسلامي الذي تعين أن تكون السلطة للرجال دون النساء؛ حيث «إن الخلافة التي هي الإمامة العظمى، خلافة النبي ﷺ كانت من خصائص الرجال»[١].

يقرر الطهطاوي هنا واقعًا تاريخيًّا، ولكن ليس معنى ذلك أنه يقرر حقيقة، وهي أن النساء لا يصلحن للسياسة أو الرئاسة؛ لأنه في ذات الوقت يستشهد بقول عروة بن الزبير: «لو كانت إِمْرَةٌ لامرأة بعد النبوة لاستحقت عائشة الخلافة»[٢]. كما يذكر الطهطاوي عددًا كبيرًا من النساء في الشرق والغرب تولين الملك. والتاريخ يدلنا على وجود نساء تحملن أعباء الحكم بنجاح، وأَحْسَنَّ السياسة والرئاسة على ممالكهن، واكتسبن قصب السبق في ميادين الفخار، ويذكر منهن خمس عشرة ملكة في الشرق والغرب تحملن أعباء الحكم بنجاح، «العقل والطبع لا يأبيان أن يكون للنساء رئاسة المملكة... فلا موجب لحرمانهن من المناصب الملوكية، لا سيما وأن كثيرًا من الممالك حسنت فيها ملوكية النساء ونجحت، وظهر لكثير منهن المآثر»[٣].

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٧.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٥٧.

وبالرغم من ذلك لا يرى الطهطاوي إمكان تولي النساء الحكم في ذاك الوقت، وهذا لا يرجع في نظره إلى ضعف في عقل المرأة - لأننا سبق وأشرنا إلى تأكيده بمساواتها للرجل - وإنما أرجع ذلك لظروف اجتماعية قائلاً: «ولعل وجه عدم تولية النساء القضاء والإمامة كونهن لا يقدرن على مخالطة الرجال في الوفاء بفروض المناصب العمومية»[١]. وهذه رؤية اجتماعية متقدمة حتى عن اللحظة التاريخية التي نعيشها.

وفي نهاية مناقشتنا لهذه القضية يجب أن نتذكر أن تولي المرأة لمنصب الخلافة أو الإمامة أو حتى القضاء لم تكن قضية مطروحة على ساحة الجدال الفكري في عصر الطهطاوي، كما لم تكن مثارة لا في الشرق ولا في الغرب، على الرغم من وجود ملكات حكمن بلادهن في أوروبا، فإن مشاركة المرأة في السياسة لم تكن حتى ذلك الوقت ملموسة في الغرب، وحتى النساء اللاتي شاركن الرجال في العمل كن يحصلن على أجور أقل من الرجال، وعقد أول مؤتمر للمطالبة بحقوق المرأة السياسية في أمريكا عام (١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م)، ولم يكن الدستور الأمريكي الذي وُضع عام (١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م) يعترف بحقوق المرأة السياسية، حتى أدخل عليه التعديل عام (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م)، وبدأت المطالبة بحقوق المرأة السياسية، ولم تحصل المرأة الإنجليزية على حق الانتخاب

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣١.

إلا في عام (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م)[١]، أما المرأة المصرية فقد تأخر حصولها على حق الانتخاب حتى (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م).

وإذا كان الطهطاوي لم يدافع عن حقوق المرأة السياسية – التي ستأتي بعد ذلك من النساء من تدافع عنها مثل زينب فواز، ونبوية موسى وهدى شعراوي ودرية شفيق – فإنه قد دافع عن حقوق أخرى للمرأة في كتابه «المرشد الأمين»، فبدايةً يرفض أن تكون الحقوق للرجل فقط وعلى المرأة الواجبات؛ لأن لكل منهما حقوقًا وعليه واجبات، وهو في هذا يمهد للحديث عن مساواة المواطنين في الحقوق والواجبات.

ويعرض الطهطاوي من خلال فصل عنوانه «في بعض حقوق يلزم كلاً من الزوج والزوجة مراعاتها» صورًا من حقوق الزوج على زوجته، وأيضًا حقوق الزوجة على زوجها، كما يعرض لمسألة تعدد الزوجات، ويرى أن الاقتصار على زوجة واحدة أمر مندوب، قائلاً: «وندب أن لا يزيد على امرأة من غير حاجة ظاهرة»[٢]، وهذا كلام مهم من المنظور الفقهي ومن المنظور التاريخي.

---

(١) انظر هذا بالتفصيل في: محمد جميل بيهم، المرأة في التمدن الحديث، تطور القضية النسائية على وجه عام منذ القرون الوسطى وحتى الآن، بيروت، ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م، ص٢١٢ وما بعدها. وأيضًا: محمد عمارة، رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث، مرجع سابق، ص٣٥٨.

(٢) الطهطاوي، المرشد الأمين...، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

وقد طبق الطهطاوي هذا الأمر على نفسه، فقد التزم في عقد زواجه من ابنة خاله ألا يتزوج عليها طوال حياته، وإذا تزوج غيرها تصبح في هذه الحالة مطلقة منه[١]. أي أنه استخدم الشروط المقترنة بالعقد لإعطاء حقوق للمرأة، وهو مطلب ما تزال تطالب به المرأة حتى الآن.

أما موقف الطهطاوي من قضية السفور والحجاب، فكان أميل للاحتجاب، وهو أمر مقبول في زمن لم يكن المجتمع مؤهلاً بعد لخروج المرأة الدائم من منزلها، وأباح أن يكون خروجها لضرورة، فيقول: «ويُسنّ للزوج أن لا يمنع زوجته من زيارة والديها، ولا الخروج إلى المسجد ونحوه إلا لعذر... ويجب على المرأة الاحتجاب من الأجانب»[٢]، وسوف تصبح هذه القضية فيما بعد من أهم القضايا التي تتناولها الحركة النسائية.

٤- الوطـن والمواطـنة

يخصص الطهطاوي الباب الرابع من كتابه «المرشد الأمين» لفكرة «الوطن وتمدينه وبيان أن أعظم أسباب ذلك التربية والتعليم»، وفكرة الوطن هي

---

(١) ينص الطهطاوي في وثيقة زواجه على ذلك فكتب: «التزم كاتب الأحرف رفاعة بدوي رافع لابنة خاله المصونة الحاجة كريمة بنت العلامة الشيخ محمد الفرغلي الأنصاري أن يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى أو جارية أيًّا ما كانت، وعلق عصمتها بالثلاثة... وهذا ما انحطت عليه العهود، وشهد الله بذلك» [رفاعة رافع ١٤ شوال عام ١٢٥٥هـ].

(٢) الطهطاوي، المرشد الأمين، مرجع سابق، ص ٦٠٥.

فكرة جديدة على الفكر العربي الإسلامي الذي كان رابطته الأساسية هي رابطة الدين، وهي رابطة عملت الدولة العثمانية على تأكيدها وتدعيمها؛ للتمكن من إحكام قبضتها على كل الولايات الإسلامية. وقد بدأت هذه الفكرة في الغرب مع ظهور القوميات الأوروبية، أما في الشرق فقد أخذت في الظهور في تركيا مع حركة «الأتركة»، وظهور حزب «الاتحاد والترقي»، ثم ظهرت في الشام قبل مصر، بسبب شعور المسيحيين هناك بالاغتراب؛ فحاولوا قلب الرابطة الدينية إلى رابطة وطنية قوامها اللسان والأرض.

وقد طرح الطهطاوي، وخير الدين التونسي مسألة الدولة الوطنية، والتعريف بنموذجها الغربي القائم على العدل والقانون، تحمس الأول لها للدفاع عن تجربة محمد علي في الاستقلال عن الدولة العثمانية، بينما دافع الثاني عنها بعد الاصلاحات التي أقدمت عليها الدولة العثمانية في (١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م)؛ لأن خير الدين كان يرى في الانفصال عن الدولة العثمانية مقدمة للاستعمار الغربي.

وقد قدم الطهطاوي فكرة الوطنية باعتبارها إحدى الدعائم التي قام عليها التمدن الغربي، فأراد أن ينقلها إلى مصر ضمن مجمل الأفكار التي دعا إليها، وليس معنى ذلك أنه يستبدلها بالدين؛ لأنه في مواضع كثيرة يشيد برابطة الدين إلى جانب رابطة الأخوة الوطنية، فهو لم يفصل رابطة الأخوة الوطنية عن رابطة الأخوَّة الإسلامية التي تجمع بين مختلف الشعوب الإسلامية، فهو حريص على

انتمائه الإسلامي، بالإضافة إلى حرصه على انتمائه المصري الذي يعود بجذوره إلى الأصل الفرعوني.

يُعرِّف الطهطاوي الوطن بقوله: «الوطن هو عش الإنسان الذي فيه درج، ومنه خرج، ومجمع أسرته، ومقطع سرته، وهو البلد الذي نشأته تربته وغذاؤه هواؤه، ورباه نسيمه»(١). والمقصود من الوطن في هذا التعريف هو البلد الذي نشأ فيه. وأحيانا يسمي مصر «وطنه»، كما يسمي «طهطا» أيضًا وطنه.

وحرص الطهطاوي على مدح وطنه (مصر) في كثير من مؤلفاته، ففي «تخليص الإبريز» يصفها بأنها «أم الدنيا»، وفي «مناهج الألباب المصرية» يذكر معنى الوطن، ومصر ومزاياها، ويتعرض لفكرة التسامح الديني والأخوة في الوطن، وفي «المرشد الأمين» يذكر مصر قائلاً: «ولا يشك أحد أن مصر وطن شريف، إن لم نقل إنها أشرف الأمكنة، فهي أرض الشرف والمجد في القديم والحديث»(٢)، ومصر قادرة على الدوام على تحقيق التقدم؛ ولهذا يكثر من الرجوع إلى تاريخها لإثبات ريادتها الحضارية، سواء أكان هذا في أعماله التاريخية مثل «أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل» أم في ثنايا أعماله الأخرى، فأراد أن يبث حب الوطن في نفوس النشء؛ حيث إن حب الوطن هو الدافع الرئيسي لبناء المجتمعات المتحضرة.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠١.

كما عبّر الطهطاوي عن حبه لوطنه شعرًا في قصائد وطنية كثيرة، وكتاب «المرشد الأمين» حافل بمثل هذه الأشعار التي في حب الوطن، ومنها:

وكِنانة الله التي كَمْ فَوّقت　　مِنها وإنْ بَعُد العدوّ سهامُ
وَقَدِيمَة شَابَ الزَّمَان وحُسْنُها　　بَاقٍ ولمْ تَهْرَمْ لها أَهْرامُ
وإِذَا سَطَا حَرُّ الهَجِيرِ فَمَاؤُهَا　　وَهَوَاؤُهَا بَرْدٌ بِهِ وَسَلامُ[(١)]

ولا شك أن وعي الطهطاوي بقيمة مصر حضاريًّا وتاريخيًّا كان وراء إحساسه المتعالي بوطنه، وخاصةً بعد اكتشاف حجر رشيد، وأيضًا بسبب فترات الغربة المتكررة التي عاناها، ووصلت إلى حوالي عشر سنوات، قضى منها في باريس نحو ٦ سنوات (١٢٤١-١٢٤٧هـ/ ١٨٢٦-١٨٣١م)، وفي السودان نحو ٤ سنوات (١٢٦٦-١٢٧٠هـ/ ١٨٥٠-١٨٥٤م) فكانت سنوات الغربة مثيرًا متجددًا لمشاعره الوطنية.

ويُعرِّف الطهطاوي المواطنين بأنهم «متحدون في اللسان، وفي الدخول تحت استرعاء ملك واحد، والانقياد إلى شريعة (قانون) واحدة، وسياسة واحدة»[(٢)]، وهكذا يجمع في عبارته الروابط التي تجمع بين أفراد يعيشون على أرض واحدة، يضع اللغة في مقدمة هذه الروابط، تليها رابطة الأرض، ثم الرابطة السياسية

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٧.

والقانونية، ولا يدرج اختلاف الدين كعامل فاصل بين المواطنين؛ لأن «الشريعة والسياسة سَوَّتْ بينهم، وأوجبت عليهم أن يكونوا على قلب رجل واحد»[١] يجمعهم رباط المكان، فكأنهم كأهل المنزل الواحد، وأعضاء العائلة الواحدة.

وفي موضع آخر يُعرِّف المواطنين بقوله: «جماعة الناس الساكنة في بلدة واحدة تتكلم بلسان واحد، وأخلاقها واحدة، وعوائدها متحدة، ومنقادة غالبًا لأحكام واحدة، ودولة واحدة، وتسمى بالأهالي والرعية والجنس وأبناء الوطن»[٢] .

ومن هنا يدعو الطهطاوي إخوانه في الوطن إلى الاتحاد والتعاون للوصول بوطنهم إلى غايته من التمدن لتحقيق السعي «فلا ينبغي أن تتشعب الأمة الواحدة إلى أحزاب متعددة بآراء مختلفة؛ لما يترتب على ذلك من التشاحن والتحاسد والتباغض»[٣] .

والمواطنة حق لكل وطني، فله حقوق وعليه واجبات، وأعظم هذه الحقوق الحرية التامة في المجتمع، ولا يستحق المواطن هذه الحرية إلا إذا كان منقادًا لقانون الوطن، ومعينًا على إجرائه، فانقياده لأصول بلده يتبع التمتع بالحقوق المدنية «فصفة الوطنية لا تستدعي فقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة له على

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١١.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠٧.

الوطن، بل يجب عليه أيضًا أن يؤدي الحقوق التي للوطن عليه، فإذا لم يوفِ أحد من أبناء الوطن بحقوق وطنه ضاعت حقوقه المدنية التي يستحقها على وطنه»[١].

وهذا الوطن يتكون من طائفتين: حكام ومحكومين، أو ملك ورعية. ووجود الرئيس ضرورة هامة في تكوين الدولة، وربما هذا يذكرنا بما ذهب إليه الفلاسفة من قبل، فقد اشترط أفلاطون في كتابه «الجمهورية» وجود الرئاسة الفاضلة لإيجاد المدينة الفاضلة، وكذلك اشترط الفارابي في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة»، وهو أيضًا ما نادى به الطهطاوي قائلاً: «ولا جائز أن تستغني الأمة عن رئيس يحسن سياستها، وتدبير مصالحها، فبدونه لا تأمن على التمتع بحقوقها المدنية ومزاياها البلدية... فالرئيس... هو المحافظ على إجراء الأحكام والقوانين، وعلى حفظ الشريعة والدين»[٢].

ويحدد الطهطاوي لكل من الحكام والمحكومين نظامًا تربويًّا يؤهلهم للقيام بعملهم، فيعرض العلوم الواجب أن يعرفها أبناء الملوك والسلاطين، ويضع في مقدمتها: علم اللسان، والعلوم الإدارية، والأصول السياسية، وعلوم الحكمة، والإدارة الملكية، وتهذيب الأخلاق والسلوك، وغيرها.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٩.
(٢) المرجع السابق، ص ٢١١.

ويضع الطهطاوي معرفة القرآن وأركان الإسلام في مقدمة المعارف الواجب على الحاكم أن يلم بها فيقول: «والملوك أحق الناس بتدبر معاني القرآن الذي هو حجة الله على عباده من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، فهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم»[١].

«فالقرآن الشريف أساس الدين الذي هو أساس المملكة، فلا قوام لها إلا به، ولا تثبت أركانها إلا عليه، وهو إقامة منار الإسلام، وإظهار شعائر الحق، واتباع أحكام الشرع، والعمل بالفرائض والسنن ومندوبات الشريعة، وإقامة الحدود، وامتثال أمر الشارع، والانتهاء عن نواهيه، وإيصال الحقوق الواجبة إلى أربابها، والعمل بها يرضي الله سرًّا وعلانية، فإنه لا دوام للملك ولا بقاء للسلطنة بدون هذه الأشياء، فمعرفتها على الملوك أوجب من غيرهم»[٢].

ويستشهد الطهطاوي ببعض آراء خير الدين التونسي في كتابه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» ببعض نظم تربية أبناء الملوك في أوروبا[٣].

أما تربية المواطنين، أو الأهالي، فهي كما يقول الطهطاوي: تربية بما يليق بجميعهم على العموم، وقد سبق طرف من ذلك في الأبواب السابقة في كيفية انقسام العلوم لجميع أبناء الوطن من ذكور وإناث، وهكذا ينهي الطهطاوي فكرته

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٢١٦- ٢١٧.

هنا بما سبق أن بدأ به كتابه وهو تربية المواطنين، فإذا كان قد ختم هنا بتربية الملوك فإن الأصل عنده والتقديم كان لتربية المواطنين، والتي ساوى فيها بين الإناث والذكور، ثم يعرض بعد ذلك لحقوق المواطنين من حيث الحرية والمساواة.

٥- حقوق المواطنين (الحرية والمساواة)

جذب مفهوم الحقوق اهتمام الطهطاوي منذ دارسته في باريس، وذكر أنه قد قرأ هناك «في الحقوق الطبيعية»، ومن الحقوق التي دعا إليها وبثها في كتبه ومؤلفاته «الحقوق المدنية» التي يعتبرها من الأسس التي تقوم عليها الدولة الحديثة، ويضمها أمران هما: الحرية، والمساواة.

وحاول الطهطاوي في «المرشد الأمين» العثور على الأشكال الإسلامية المقابلة لصور الحقوق الأوربية، وهو يسعى لترويج هذه المصطلحات الغربية في زمن كانت السلطة الحاكمة بيد السلطان العثماني القابض باسم الدين؛ لذا نجد الطهطاوي دائم التذكير بأن ما يروج له لا يختلف عن مبادئ الشريعة الإسلامية، ولا يصطدم بها، فهو يجتهد في أن يقدمها للمسلمين في مصر وخارجها بروح عربية إسلامية، ليحدث ذلك الانسجام بين ما تغلغل في فكره من مبادئ النهضة الأوروبية وما كان للإسلام من مفاهيم، فرأى أن صور الحقوق في الثقافة الأوربية لها معنى مقابل في علم أصول الفقه، فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يسمى عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية، وهي عبارة عن قواعد

عقلية تحسينًا وتقبيحًا، يؤسسون عليها أحكامهم المدنية، وما نسميه بفروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق أو الأحكام المدنية، وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية، والغرض من هذا الحديث واضح ألا وهو المساعدة على قبول المفاهيم الأوروبية، ووضعها في نسيج الثقافة الإسلامية، بحيث لا تبدو غريبة أو دخيلة عليها، وفي مقدمة هذه الحقوق التي يضعها للمواطنين: حق الحرية، وحق المساواة.

أ - الحـرية

لم تعرف المجتمعات العربية والإسلامية - حتى مطلع القرن التاسع عشر - مصطلح الحرية إلا في حدود ضيقة، وكان يقابل معنى الرق، ولم تعرف الحرية بمعناها الواسع إلا مع حركة البعثات، واطلاع رواد النهضة على معانٍ أخرى للحرية في أوروبا.

وأدرك رواد النهضة - ولا سيما الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق وخير الدين التونسي، وغيرهم - أهمية مقولة الحرية في المجتمع الحديث، ودورها الذي لا غنى عنه، وأنها ملازمة للتقدم والازدهار، في حين أن الاستبداد والطغيان ملازمان للتخلف[(١)].

(١) معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، عالم المعرفة، العدد (١١٥)، ذو القعدة ١٤٠٧هـ/ يوليو ١٩٨٧م، ص٧٠-٧١.

وقد بدأ اهتمام الطهطاوي بالحرية منذ كتاباته المبكرة في كتابه «تخليص الإبريز» عندما أفرد فصلاً مطولاً تحدث فيه عن الحرية وضروبها وأقسامها وأشكالها، كما عرض لحرية الرأي والمعتقد، وأفرد لهما الصفحات الطوال، ووضح المعنى الاصطلاحي للحرية، وأنها تعني حقوق المواطنين الأساسية، ومساواتهم أمام القانون.

ولا يلبث مفهوم الحرية أن تطور في كتاباته المتأخرة، ففي «مناهج الألباب المصرية» تنقسم الحرية عنده إلى خمسة أقسام اصطلاحية: حرية طبيعية، وحرية سلوكية، وحرية دينية، وحرية مدنية، وحرية سياسية، وتكاد تتكرر هذه الأشكال مرة أخرى مع عرضها تفصيليًّا في كتاب «المرشد الأمين»، ويخصص لها فصلاً كاملاً، ويعتبر أن الحرية فطرية للإنسان، منطبعة في قلبه من أصل الفطرة.

ويقسم الطهطاوي الحرية إلى خمسة أقسام[(١)]

- **الحرية الطبعية**: ويعرفها بأنها ما لا طاقة أو قوة بشرية على دفعها، ومن أمثلتها الضرورات الإنسانية، كالأكل والشرب والمشي، فهي باختصار الحرية التي خُلقت مع الإنسان وانطبع عليها.

---

(١) الطهطاوي، المرشد الأمين، مرجع سابق، ص٢٧٣، وانظر أيضًا: عزت قرني، تاريخ الفكر السياسي والاجتماعي في مصر الحديثة (١٨٣٤-١٩١٤)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، رقم (٢٥١)، ص٥٩-٩٠.

- **الحرية السلوكية**: وهي حسن السلوك، ومكارم الأخلاق، والسير بما تقتضيه ذمة الإنسان، وتطمئن إليه في سلوكه في نفسه، وحسن أخلاقه في معاملة غيره.

- **الحرية الدينية**: ولا يقصد رفاعة بالحرية الدينية حرية الاعتقاد أو عدم الاعتقاد الديني من أصله، ولا يقصد بها كذلك حرية اختيار المرء لدينه، وإنما هي تساوي عنده ما يسمى «حق الاجتهاد في الدين»؛ فالحرية الدينية هي حرية العقيدة والرأي والمذهب بشرط ألا تخرج عن أصل الدين، ويبدو ذلك بوضوح في كتاب «القول السديد في الاجتهاد والتجديد».

- **الحرية السياسية**: وهي تخص علاقة الفرد بالدولة، وهي كيفية معاملة أرباب الإدارات الملكية وأصحاب السلطة والقانون للمواطنين، فهي تتناول أصول الحكم وقوانينه وإجراءاته التي يجب أن تلتزم بحسن السياسة والعدل.

- **الحرية المدنية**: إذا كانت الحرية السابقة إطارها بين رجال السلطة والمواطنين، فإن هذه الحرية تدور بين المواطنين بعضهم البعض، وهذه الحرية هي ما كانت تسمى في الاصطلاح الإسلامي بـ«حقوق الناس»، ويُعرِّفها الطهطاوي بأنها: حقوق العباد أو الأهالي الموجودين في مدينة بعضهم على بعض. وليس أساس هذه الحرية المدنية نصوصًا تلزم السلطة الدينية باتباعها، بل أساسها إنساني محض، وله جانبان: اجتماعي وفردي، وهي أقرب ما تكون إلى مفهوم التعاقد الاجتماعي، وربما اطلع الطهطاوي عليه من خلال قراءاته لجان جاك روسو أو غيره.

هذه هي الأقسام الخمسة الرئيسية التي يعرض لها الطهطاوي، إلا أنه في مواضع أخرى يتكلم عن أنواع أخرى من الحرية، مثل حرية الملاحة والسياحة في البر والبحر، أي حرية التنقل، ويرى أنها أعظم مُعين على التمدن، وأنها عادت على جميع ممالك الدنيا بالثروة والغنى والاطلاع على عجائب الدنيا[١]، وقد اهتم الطهطاوي بالملاحة على الأخص، وبالسياحة والسفر على الأعم في جل مؤلفاته، ابتداءً من «تخليص الإبريز»، ولهذا دلالة عميقة على رغبته في زرعه في قلوب المصريين والمسلمين، ونزع روح الخمول الذي يولده السكون، كما أنه يدل على عمق فهمه لأسباب قوة الحضارة الغربية.

ومن الحريات التي نادى بها الطهطاوي أيضًا الحرية الاقتصادية، وأن يباح لكل فرد أن يتصرف فيما يملكه جميع التصرفات الشرعية، ويعتبر هذا النوع من الحرية من أعظم المساهمات في المملكة المتمدنة، وأنها من أعظم المنافع العمومية، ورأى أن «النفوس مائلة إليها من القرون السالفة إلى القرون التي تقدم فيها التمدن إلى هذا العصر، وأن أصعب ما على العاقل الذي يفهم منافع هذه الفنون (أي الفلاحة والتجارة والصناعة) أن يرى تضييق دائرتها»[٢].

ويعبّر الطهطاوي في هذا النص السابق عن السياسة الاقتصادية التي اتبعها محمد علي، وكانت لا تزال سائدة حتى عصر إسماعيل باشا، حيث

---

(١) الطهطاوي، المرشد الأمين، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٦.

هيمنة الدولة على الاقتصاد، فنجده يراوغ ويلتمس العذر لعدم تخلي الدولة عن دورها في الاقتصاد، ويحاول تبرير سبب التضييق على الأفراد، ويرجعه إلى أن ملوك المملكة الموجود فيها ذلك يرون رعاياهم ليسوا أهلاً لهذه الرخصة؛ لعدم استكمال التربية الأهلية، وأنهم ينتظرون تقدم التربية، وصلاح حال الأهالي؛ ليبيحوا لهم رخصة اتساع الدوائر الزراعية والتجارية والصناعية.

وبناءً عليه إذا ما تقدمت التربية، وصلح حال الأهالي أباح الحكام لهم حرية النشاط الاقتصادي، وهكذا يعود الطهطاوي بهذه الحرية وأساس النشاط الاقتصادي الذي هو التقدم المادي للدولة إلى ضرورة الاهتمام بالتربية والتعليم، ولعله أراد بذلك أن يبرر لإسماعيل باشا إباحته الملكية الفردية، تلك التي أباحت ظهور الطبقة البرجوازية[١] المصرية.

ب- المســاواة

يُكمل مفهوم المساواة - عند الطهطاوي - مفهوم الحرية، من حيث إنه يضمن العدالة للجميع أمام القانون، ويسمح لقوة القانون أن تصبح شاملة لجميع الناس الذين تُقاس أفعالهم ومواقفهم بالمعايير نفسها.

---

(١) تشمل الطبقة صغار رجال الصناعة والتجارة وأصحاب المهن الحرة وموظفي الحكومة، ويرجع محمد أنيس نشأة الطبقة الوسطى المصرية إلى القرن الثامن عشر. وظهرت برجوازية جديدة بعد إرساء نظام الملكية الخاصة، وظهور طبقة الموظفين، وطبقة المثقفين المتأثرين بالثقافة الغربية.

ويؤكد الطهطاوي هذا الترابط بين مفهومي المساواة والحرية في عنوان الفصل الذي خصصه من «المرشد الأمين» ويسميه «في الحرية العمومية والتسوية بين أهالي الجمعية»، فيضع المساواة – أو ما أسماها التسوية – جنبًا إلى جنب مع الحرية، ويربط بينهما، ويظهر تأثره بشعارين من ثلاثة شعارات للثورة الفرنسية (الحرية، الإخاء، المساواة)، وأنهما بالمعنى الإسلامي ملازمان للعدل والإحسان.

ويشير الطهطاوي إلى أن المساواة صفة طبيعية في الإنسان تجعله في جميع الحقوق المدنية كإخوانه، ومصدرها هو اشتراك كل البشر في نفس الخصائص، وكل منهم يحتاج إلى الاستمتاع بالحياة، فهم مستوون في ذلك، لا رجحان لبعضهم على بعض في ميزان المعيشة.

ولكن هذه المساواة التي نادى بها لا تعني عدم وجود تمايز بين طبقات المجتمع، خاصةً أن الطهطاوي قد عاش في مجتمع تتفاوت فيه الطبقات، فهناك قلة تملك الجزء الأكبر من الثروة، وغالبية محرومة أو تكاد. وكان لا بد أن يبرر هذا التمايز بين المواطنين؛ لذا يقول: إن «هذا التساوي بينهم، إن أمعنا النظر فيه وجدناه أمرًا نسبيًّا لا حقيقيًّا؛ لأن الحكمة الإلهية ميزت بعضهم على بعض أزلاً... ومع أن الله تعالى فضلهم، بعضهم على بعض في الرزق، فقد جعلهم في الأحكام مستوين، لا فرق بين الشريف والمشروف، والرئيس والمرءوس»[١].

(١) الطهطاوي، المرشد الأمين، مرجع سابق، ص ٢٧٧ – ٢٧٨.

فهناك تمايز بين البشر في الصفات المعنوية، وفي الأملاك المادية، ولكنْ هناك تساوٍ في الحقوق وأمام القانون.

ويصرح الطهطاوي بأن هناك حالات تتراجع فيها الامتيازات، ولا يصبح لها اعتبار، وتطبق المساواة بحذافيرها، ومن تلك الحالات «حالة الحرب». فمن حيث ثبت أنهم مستوون في الحقوق فإنهم إذا وقعوا جميعًا في خطر عام وجب على سائرهم أن يتعاونوا في إزالة هذا الخطر، لما في إزالته من فائدة تعود على الوطن، «فبهذا تكون التسوية ملازمة للحرية عند انطواء راية الحرب ولوائه»[١].

والمساواة بين المواطنين في الحقوق يقابله أيضًا مساواة في الواجبات، وكلما كان للإنسان مطلب في أن يستوفي ما له من حقوق، فعليه أن يؤدي واجباته، فالمساواة أو التسوية - كما يسميها الطهطاوي - هي «تكليف جميع أهالي المملكة بدون فرق بينهم.. فالواجبات دائمًا ملازمة للحقوق لا تنفك عنها»[٢].

وهذا الربط بين الحقوق والواجبات هو ما وجدناه آخذًا في الظهور والتنامي عند رواد النهضة الذين تعرضوا للموضوع، مثل أديب إسحق، وعبد الله النديم، ومحمد عبده في مقالاته التي كتبها في «الوقائع المصرية».

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٩.

وهكذا بنى الطهطاوي التقدم والإصلاح والتمدن في مجتمعه على إصلاح أحوال التربية، وتعليم أبناء أمته، مستندًا في ذلك لقول أحد الحكماء: «إن سمحتم لي بتحسين التربية ألزمت نفسي لكم بإصلاح أحوال العالم بأسره»، وهي المهمة التي كرس لها الطهطاوي هذا الكتاب.

ولا غرو في أن ما طرحه الطهطاوي في هذا الكتاب من قضايا يُعبِّر عن ريادته كواحد من أكابر أعلام النهضة الإسلامية الحديثة من جهة، ويكشف كذلك عن وجهته التقدمية التي وازنت بين الأصالة والمعاصرة من جهة أخرى.

(كتاب)

المرشد الامين للبنات والبنين

(تأليف)

حضرة رفاعه بك رافع ناظر قلم الترجمة وأعضاء قومسيون ديوان المعارف

(الطبعة الاولى)

بمطبعة المدارس الملكية في العشر الاواخر من شوال سنة ١٢٨٩ هجريه)

صفحة الغلاف الداخلي لآخر طبعة للكتاب صدرت في حياة المؤلف

المرشد الأمين للبنات والبنين

تأليف

رفاعة الطهطاوي

طُبع لأول مرة عام (١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م)

خطبة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدًا لمن جعل كسب الآداب دَأْب أولي الألباب، وصلاة وسلامًا على سيدنا محمد الذي أوتي الحكمة وفصْل الخطاب، وعلى آله وأحزابه ومن تأدَّب بآدابه.

أما بعد..،

فإن مصرنا في ميدان المعارف سارت في مدى طويل مديد، وفي أَمَدٍ جليل بعيد، بلغت في وسيع مضماره ما في ضميرها من النية، ونالت بحزم خديويها وعزمه كمال الأمنية، حتى صارت جميع أرجائها مواطن منظمة وأماكن معظمة، تبسمت بأنوار العرفان ثناياها، وتنسمت بالعدل والإحسان أرواح بكرها وعشاياها؛ فنوّر أرجاءها نور بدره التمام، وبره الذي يأبى أن يساجله الغمام.

سَــعَادَتُنا بِإِحْــرَازِ المعَــالي　　　نَحُوزُ المجد بالهِمَمِ العَوَالي

بها عَصْر الهنا أَضْحَى ضَمِينا　　　وصاحب مصر إسماعيل فينا

فإنه أبقاه الله، لما ورد على موردها الأعذب، جَلَبَ إليها العَيْش الأَطْيَب. فكم له فيها من مهمة يكفيها، ووعود يوفيها، وعارفة يبديها، وصنيعة يوليها، وأرض موات يحييها، ومسعاة من مساعي تليد الشرف يبتنيها، وذخيرة من ذخائر طريف الطرف يقتنيها، وغاية من غايات الفضل يحتويها، وصفوة من المعالي يصطفيها، وحَسَنَة من حَسَنَات الدهر يرغب فيها وفي ذويها؟ حتى سرت محبة الأوطان منه في أهاليها؛ فلا يألفون إلا جاهًا، ولا يرشفون إلا لَمَاهَا[١] فكأنه المَعْنِيّ بقول من قال:

مَا مِصْرُ إلاَّ غَادَةٌ زُفَّتْ عَلَى الـ ... ـأَمْلاك والأُمَـرَاءِ والـوُزَرَاءِ
أَهْرَامُها تَحْكِي النُّهـودَ ونِيلُها ... شبه الذُّؤَابة سَالَ فِي البَطْحَاءِ
لم تَرْضَ غَيْرَك أَنْ يَفُوزَ بِحُسْنِهَا ... إِذْ أَنْتَ فِي العَلْيَاءِ بَدْرُ سَمَاءِ
بَلْ مَفْخَرٌ لِذَوِي الرِّيَاسَةِ والحِمَا ... وأُولِي النُّهَى أَبْنائِك النُّجَبَاءِ
يا مَنْ لَهُ القِدْحُ المُعَلَّى فِي العُلَى ... كَمْ عِنْدَنَا لَكَ مِنْ يَدٍ بَيْضَاءِ؟

حتى صار للأقطار المصرية زين أملاكها ومطلع أفلاكها وشمس ضحاها وقطب رحاها وبدر دجاها وبيت رجاها، له على مصر اليد العليا والفضل الأكبر والمجد الأوفى والجود الأوفر، عم إحسانه كل شريف ومشروف ومجهول ومعروف وقريب وبعيد؛ حيث هو لمجد مصر مبدئ ومعيد.

(١) اللَّمَى: سمرة الشفتين. (هذا الهامش يشير إلى إضافة مراجعي مكتبة الإسكندرية للنص الأصلي للكتاب، وسوف يُستعمل الرمز (م) لاحقًا للإشارة إلى ذلك).

سَأَلْنا مَعَالي مِصْرَ هَــلْ لَكِ عَوْدَة وَهَلْ سَابقَاتُ الدَّهْرِ يَدْنُو بَعِيدُهَا؟
فَقَالَتْ: بِإِسْـمَاعيل أَوْحَـدِ عَصْرِهِ وَجَدْتُ لأَيَّـامِ الصِّبَا مَنْ يُعِيدُهَا

فهو مليك اقتفى ميامنه كل نَاهٍ وآمر، وروى محاسنه كل بَادٍ وحَاضِر، فضائله لا تُعَدّ ولا تُحْصَى، وشمائله تَجِلّ عن أن تُسْتَقْصَى. فأما ذهنه الصائب فقد استوعب لمصره محاسن عصره مما عجز عنه السابقون، ونوّع من أنواع العمران مالم يتحصل عليه الباحثون المتسابقون، اقتحم في إيجاده عظائم الأمور، وجاهد في إحرازه مجاهدة السُّهُول والوُعُور[1]، فقد ادخر لاقتنائه بذل المكارم، وأيقظ عزمه للاستيلاء على المعالي والزمان مع غيره نائم، فكأنه يقول بلسان حاله:

وبِالجَوْهَرِ الأَعْـلَى تَعَـلّق مَطْلَبِي فَأَصْبَحْتُ لا أَلْوِي[2] عَلَى العَرَضِ الأَدْنَى

وأما مروءته فقد أصبحت مرآة يطالع فيها محاسن الأمور، وينال بهمة صفائها جوهر الصنع المحبوب المأثور، ويجتلي[3] بها صورة الكامل الباهر، ويَنْجَلي فيها صورة النَّوَال الذي أعجز الأوائل والأواخر. وأما أُبُوّته فهي التي اتسق أُنْسها، وطَهُر قدسها، وشَرُف غرسها، وطلعت في برج السعود شمسها.

أُبُوَّةُ خَيْرٍ أَحْـرَزَتْ كُـلَّ مَاجِدٍ حَـوَى قَصَبَاتِ السَّبْقِ في كُـلِّ مَفْخَرِ

---

(١) الوُعُور: جمع «الوَعْر»، وهو كل مكان صعب صلب لا تسهل الإقامة فيه أو السير فيه. (م).
(٢) أَلْوِي: أَميل. (م).
(٣) يجتلي: اجتلى الشيءَ: نظر إليه مستوضحًا. (م).

رِجَالُ تَجَارِيب وَأَبْطَالُ دَوْلَةٍ وَسَادَةُ أَحْكَام وَفُرْسَانُ مِنْبَرِ
إِذَا أَبْدَتِ الأَيَّامُ يَوْمًا جَهَامَةً[١] يُقَابِلُهَا مِنْ حُسْنِهِم كُلُّ مُسْفِرِ[٢]

وكأنما قال فيه من ينتقي الشعر ويصطفيه:

مَلِيكٌ تُرِيهِ قَبْلَ مَا هُـــوَ كَائِنٌ بَصِيرَتُهُ أَضْعَـــافُ مَا هُوَ بَاصِرُهْ
مَلِيـــكٌ إِذَا سَارَ كَالْبَدْرِ فِي الدُّجَا فَأَوْلادُه مِثْلُ النُّجُـــوم تُسَايِرُهْ
مَلِيكٌ لَهُ فِي كُـــلِّ يَوْم وَلَيْلَةٍ بَشِيرٌ يُهَـــنِّي بالهنـــاء بَشَائِرُهْ
مَلِيكٌ تَرَى مِنْ حَوْلِهِ كُلَّ عَالمٍ يُذَكِّرُه فِي العِلْمِ مَا هُوَ ذَاكِرُهْ

ففي أيام دولته السعيدة، كَمْ جَدَّدَ بمصر من محاسن العصر المفيدة؟ حتى صار أفقها لجياد العلماء من أشهر الميادين، ولفرسان النبلاء حدائق فنون وبساتين يتسابق بِأَبْكَارِ الأَفْكَار[٣] في حَوْمَتِهَا البنات كالبنين، فقد سوّى في اكتساب المعارف بين الفريقين، ولم يجعل العلم كالإرث للذكر مثل حظ الأنثيين؛ فبهذا سُوق المعارف المشتركة قد قامت، وطريق العوارف للجنسين استقامت، وليل جهل النساء جلاه فجر المعارف وفخر تمتعهن بالطرائف واللطائف، فقد أحيا في طباعهن نجاح الآمال، ونشر لهن أعلام المقال والفعال، وخَصَّهُنَّ بمدارس

---

(١) جَهَامَةً: عُبُوسًا. (م).
(٢) مُسْفِر: مُشْرِق وَضَّاء. (م).
(٣) أَبْكَار الأَفْكَار: الأفكار التي لا مثيل لها. (م).

كالصبيان، يخرجن بها من حيز العدم إلى الوجدان[١]، ومن الوهم إلى العيان؛ فبهذه الوسائل النفائس صدر لي الأمر الشفاهي من ديوان المدارس بعمل كتاب في الآداب والتربية يصلح لتعليم البنين والبنات على السَّوِيَّة؛ فَشَمَّرْتُ عن ساعد الاجتهاد، وعملت هذه المجموعة التي جاءت على وفق المراد، لم تدع في هذا المعنى لعين المتمني مَطْمَعًا، ولا لقوس الاقتراح مَنْزِعًا، زُفَّتْ إليها أَبْكَار المعالي، وحُفَّتْ بمبتكرات المعاني، وسميتها بالمرشد الأمين للبنات والبنين، جعلتها برسم دولتلو عطوفتلو[٢] أفندم حسين باشا كامل، عسى أن يكون نَظَر عنايته لحسن طبعها شامل، فهي واردة على أعتاب مكارم حضرته السنية، وأبواب مراحم سعادته البهية، أدام الله على الجميع حصن أنظار حضرته السامية، ولا برحت عنايته لسعادة مستشاره ورجاله شاملة وافية، تلحظ الجميع عناية ولي النِّعَم الأكرم، ورعاية توفيقه على الوجه الأَلَمّ[٣]. آمين.

ورتبتها على مقدمة، وأبواب مشتملة على فصول، وخاتمة، وهذا أَوَانُ الشُّرُوع[٤] في المَرَام[٥] بعون الملك العلام.

---

(١) الوجدان: الوجود. (م).

(٢) دولتلو: كلمة عثمانية، معناها: صاحب الدولة، وعطوفتلو: كلمة عثمانية أيضًا، معناها: صاحب العطوفة. (م).

(٣) الأَلَمّ: الأشمل. (م).

(٤) الشُّرُوع: البَدْء. (م).

(٥) المَرَام: الهَدَف، البغية. (م).

مقدمة

في بيان تربية الأطفال والإناث وفيها فصول

الفصل الأول

في بيان نفس التربية

عَرّف بعضهم التربية بأنها تنمية أعضاء المولود الحِسِّيَّة من ابتداء ولادته إلى بلوغه حَدّ الكبر، وتنمية رُوحه بالمعارف الدينية والمعاشية؛ فبهذا انقسمت التربية إلى قسمين: حِسِّية وهي تربية الجسد، ومعنوية وهي تربية الرُّوح، ومع ذلك فإن لتغذية الطفل ثلاثة أنواع من الغذاء مختلفة الموضوع. الأولى: تغذية المراضع للأطفال بالألبان. الثانية: تغذيتهم بإرشاد المرشد بتأديبه الأوّلي للأطفال، وتهذيب أخلاقهم، وتعويدهم على التَّطَبُّع بالطباع الحميدة والآداب والأخلاق. الثالثة: تغذية عقولهم بتعليم المعارف والكمالات، وهذه وظيفة الأستاذ المُرَبِّي، كما أن ما قبلها وظيفة المرشد المتولي أمر الصبي، فالنسبة بين الرضاع والتربية الأولية والتربية الانتهائية كالنسبة بين المرضع والمُرَبِّي، المرشد والأستاذ، فكلما جاد المُرَبِّي جادت التربية.

فالتربية بأنواعها الثلاثة، وإن كان يظهر ببادئ الرأي أنها سهلة بسيطة لا تحتاج إلا إلى عمل يسير، إلا أنها في الحقيقة وعند التأمل تستدعي عظيم اهتمام وعناية وسلوك، أصول مقرره وآداب محرره، ويضاف إلى ذلك ما يحتاج إليه

المراضع والمُرَبُّون والأستاذون من قوة محبة الأطفال ومعاملتهم معاملة من طَبَّ لمن حَبَّ[١].

وقد أنتج هذا أن التربية فنّ تنمية الأعضاء الحِسِّية والعقلية، وطريقة تهذيب النوع البشري ذكرًا كان أو أنثى على طِبْق أصول معلومة، يستفيد منها الصبي هيئة ثابتة يتبعها، ويتخذها عادة، وتصير له دأبًا وشأنًا ومَلَكَة[٢]. فالتربية المعنوية حينئذ هي فن تشكيل العقول البشرية، وتكييفها بكيفية حسنة مألوفة، وغايتها إيجاد مَلَكَة راسخة في الصغير تحمله على التَّخَلُّق بحسن الأخلاق حسب الإمكان بحيث تحصل من هيئة تربيته الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعًا بسهولة ويُسْر كطَلاقَةِ الوجه والحلم والشفقة ولِين الجانب، وحسن الظن بالناس، والإغضاء عن السفهاء وعدم مجادلتهم والسكوت عنهم قال الشاعر:

وَمَا شَـيْءٌ أَحَبُّ إلى لَئِيمٍ ... إِذَا شَـتَمَ الكَـرِيمَ مِنَ الجَوَابِ
مُتَارَكَةُ اللَّئِيمِ بِـلا جَـوَابٍ ... أَشَـدُّ عَلَى اللَّئِيم مِنَ السِّبَابِ

وكمال التربية حمل المكلف على رعاية الحق للحق والخلق؛ لينال خير الدارين ثم إن التربية لا تفيد الصبي الذكاء ولا الألمعية. فإن هذه الصفات هي في الأطفال غريزية طبيعية، وإنما بالتربية تنمو العقول وتتحسن الإدراكات، فإذا

---

(١) مَنْ طَبَّ لمن حَبَّ: أي معاملة الفطن الحاذق واحتياله واجتهاده لإرضاء من يحب. (م).

(٢) مَلَكَة: موهبة. (م).

رَبَّى المُرَبِّي عدة أطفال مختلفين في الذكاء مُتَّحِدِين في التربية، لا يقدر المُرَبِّي أن يتوصل إلى تسويتهم في الذكاء، بل يختلف ذكاؤهم باختلاف استعدادهم الغريزي. فمجرد التربية وحدها لا يترتب عليها ذكاء الصبي؛ حيث هو غريزي لا يزيد بالتربية المتزايدة، ومع ذلك فالتربية الحسنة الفاضلة في حد ذاتها خير من الذكاء المتوسط، والذكاء الكامل إذا صحبته التربية الفاضلة كان عظيمًا كثير النجاح، فإذا صحبته التربية المتوسطة كان يسير النتيجة لا يبلغ صاحبه الرتبة المطلوبة. وبالجملة، فالغرض من التربية تنمية الصغير جسدًا وروحًا وأخلاقًا في آن واحد يعني تنمية حِسِّيَّاته ومعنوياته بقدر قابليته واستعداده.

كُلُّ الأَنَـــامِ بَنُو أَبٍ لَكِنَّمَا ... في الفَضْلِ تُعْرَفُ قِيمَةُ الإِنْسَانِ

والتربية الأَوَّلِيَّة فائدتها أن يعتاد الصبي على أن ينقاد بطبعه إلى ما يريده منه مُؤَدِّبه، ويختاره له مُرْشِده فغايته المطاوعة. وهذا النوع كما يكون في الإنسان يكون أيضًا في الحيوان بترويضه وتمرينه على الإطاعة. وأما تنمية العقل التي هي غذاؤه بالمعارف كغذاء الجسم بالطعام فهي خاصة بالإنسان؛ فكما أن غذاء جسمه بالطعام الطيب يُنَمِّيه وينعشه ويقوّي أعضاءه، كذلك غذاء الروح بالمعارف يُنَمِّيها ويقويها بشرط أن تكون هذه المعارف معقولة مقبولة. فالتربية المعنوية تزيد في تنمية عقول الأطفال بالمعارف، وحسن الأخلاق على التناسب من حسن إدارة المرشد والمعلم؛ فبهذا يقال لمن اكتسب المعارف الجيدة والأخلاق الحسنة إنه حسن التربية.

وحسن تربية الآحاد[١] ذكورًا وإناثًا، وانتشار ذلك فيهم؛ يترتب عليه حسن تربية الهيئة المجتمعة يعني الأمة بتمامها. فالأمة التي حسنت تربية أبنائها، واستعدوا لنفع أوطانهم هي التي تعد أمة سعيدة، وملة حميدة، فبحسن تربية أولادها، والوصول إلى طريقة إسعادها لا تخشى أن تأتمن أبناءها على أسرار الوطن، ولا على ما يكسبها الوصف الحسن، بخلاف سوء التربية المنتشر في أمة من الأمم، فإن فساد أخلاق بَنِيها[٢]؛ يفضي بها إلى العدم؛ حيث يَفْشُو[٣] فيهم الانهماك على اللذات والشهوات، والانتهاك للحرمات، والتعود على المحرمات. ومن سوء التربية أن الأم تَكِل تربية أولادها إلى غيرها بدون أن تلاحظ تربية أولادها بنفسها، فإن الأم بما أودع فيها من الشفقة والرأفة على أولادها هي أولى وأرفق بالتربية ولتعديل مزاج أبنائها وبناتها، فإذا رَبَّتْ المرأة أولادها إلى سن التمييز تربية حسية أو معنوية؛ انْتَقَشَ[٤] في أذهان الأبناء اعتدال المزاج، والاتصاف بمكارم الأخلاق وتهذيبها، وسلوك سبيل الرِّفْق واللين التي هي من صفات التمدُّن.

رَأَيْتُ صَلاحَ المَـرْءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ وَيَعْدِيهم مِنْهُ الفَسَــادُ إِذَا فَسَـدْ
يُعَظَّمُ في الدُّنْيَا بِفَضْلِ صَلاحِهِ وَيُحْفَظُ بَعْدَ المَوْتِ في الأَهْلِ والوَلَدْ

---

(١) الآحاد: الأفراد. (م).

(٢) بَنِيها: أبنائها. (م).

(٣) يَفْشُو: ينتشر.(م)

(٤) انْتَقَشَ: تَرَسَّخَ. (م).

ففي أوائل حداثة الأولاد ذكورًا أو إناثًا ينبغي إِنَاطَة[1] تربيتهم بالنساء مع ملاحظة الأمهات، وبعد ذلك تكون تربية الأولاد بحسب موافقة أحوال الأُمّة، وطريقة إدارتها، وأحكامها؛ لِيَنْتَقِشَ في أفئدة الصبيان الإحساسيات، والأصول الحسنة الجارية في أوطانهم. مثلاً: إذا كانت طبيعة البلد المولود فيها الإنسان عسكرية مائلة للحرب والضرب؛ تكون تربية الأولاد الذكور أيضًا تابعة لها أصولاً وفروعًا؛ وتكون تربية البنات أيضًا مائلة لمحبة الشجعان والأبطال وفحول الرجال؛ ليشجعن الأبناء، ويعتبرن النفع للوطن. وإذا كانت المملكة زراعية أو تجارية أو بحرية وما أشبه ذلك؛ كان مدار التربية الصحيحة للأولاد مبنيًّا على ذلك، وفي هذه الخصوصيات جميعها الاستعدادية، تلاحظ المعارف العمومية التي يشترك فيها جميع الأمم والمِلَل، وكل هذا إِجْرَاء للنَّامُوس[2] الطبيعي التي اقتضته الحكمة الإلهية مجراه فقد فرق الله ﷻ همم الناس للصناعات المتفاوتة والمعلومات المتباينة، وجعل آلاتهم الفكرية وأدواتهم البدنية مستعدة لها، فجعل لمن قَيَّضَهم لمراعاة العلم والمحافظة على الدين قلوبًا صافية، وعقولاً بالمعارف وافية، وأمزجة لطيفة، وأبدانًا لينة.

إِنَّ التَّشَاغُلَ بِالدَّفَاتِرِ والمَحَا ... بِرِ والكِتَابَةِ والدِّرَاسَةْ
أَصْلُ التَّعَبُّدِ والتَّزَهُّدِ ... دِ والرِّيَاسَةِ والسِّيَاسَةْ

(١) إِنَاطَة: تكليف .(م).

(٢) النَّامُوس: القانون، الشريعة. (م).

وجعل لمن قَيَّضَهُ لمغانات المهن الدنيوية، والحِرَف المعاشية كالزراعة والبناء قلوبًا قوية، وعقولاً كَنِزَة، وأمزجة غليظة؛ لأن أكثر عمله منوط ببدنه لا بعقله. وكما أن من المُحال أن تصلح حاسة السمع للرؤية، وحاسة البصر للسمع؛ فمن المحال أيضًا أن يكون من خُلِقَ للمهنة يصلح للحِكْمة، ومع ذلك فقد جعل الله ﷻ كل جنس من الفريقين نوعين رفيعًا ووضيعًا. فالرفيع من يتحرى الحِذْق[١] في صناعته، ويُقْبِل على عمله؛ طلبًا لِمَرْضَات ربه بَقْدر وُسْعِه وطاقته، ويؤدي الأمانة فيما خلق له بقدر جهده واستطاعته قال ابن عطاء الله - مشيرًا إلى هذا المعنى: «من علامة إقامة الحق لك في الشيء إدامته إياك فيه، مع حصول النتائج» انتهى. قال الجمهور: «إن الله تعالى خلق في كل أحد استعدادًا تظهر عليه علامته في أول أمره»، كما قال الشاعر:

فِي المَهْدِ يَنْطِقُ عَنْ سَعَادَةِ جَدِّه … أَثَرُ النَّجَابَةِ سَاطِعُ البُرْهَانِ

وقال بعضهم: «إنه ينبغي للعاقل أن يَتَجَشَّمَ في نَيْلِ مَطْلُوبِهِ الشَّدَائِدَ، ويُجْهِد نفسه في طلب المعالي؛ ليظفر بالحظ الأوفر»، كما قيل:

سَأَطْلُبُ كُلَّ مَنْزِلَةٍ … تَعَرَّضَ دُونَهَا العَطَبُ[٢]
فَإِنْ أَسْلَم رَجَعْتُ وَقَدْ … ظَفِرْتُ وأَنْجَحَ الطَّلَبُ
وإِنْ أَعْطب فَلا عَجَبٌ … لِكُلِّ مَنِيَّةٍ سَبَبُ

---

(١) الحِذْق: المهارة. (م).
(٢) العَطَب: الفَسَاد. (م).

وبالجملة، فَمَن شَمَّرَ عن ساعد الجد؛ وجد مفتاح المجد. فالأمة التي تتقدم فيها التربية بحسب مقتضيات أحوالها؛ يتقدم فيها أيضًا التقدم والتمدن على وجه تكون به أهلاً للحصول على حريتها، بخلاف الأمة القاصرة التربية؛ فإن تمدنها يتأخر بقدر تأخر تربيتها. فإن التربية العمومية هي الحصول على تحسين عوائد الجمعية التأنسية، ومعرفة آدابها علمًا وعملاً، والتأدب بآداب البلاد. فالتربية هي أساس الانتفاع بأبناء الوطن لاسيما تربية أبناء الأمراء والأكابر والأغنياء، بتحسين أحوالهم، وتهذيب أخلاقهم، وتعويدهم من الصغر على ترك الكِبْر والإعجاب ومحبة النفس، وتكليفهم باستعمال الرِّفْق واللِّين والتلطُّف مع غيرهم؛ حتى لا يتجارى أحد من عَوَامّ الناس أو خواصِّهم على لَوْمِهِم على أفعالهم وأطوارهم وحركاتهم. ومن أهم ما ينبغي تجريدهم عنه من المَثَالِب(١) محبة النفس التي أفسدت أخلاق الناس، فاجتناب محبة النفس للتربية من أعظم أساس.

---

(١) المَثَالِب: جمع «المَثْلَبة»، وهي العيب والمنقصة. (م).

الفصل الثاني

في مَحْو محبة النفس من الأطفال في حال صغرهم، وإزالتها عن الكبار في حال كبرهم

محبة الإنسان لنفسه هو إحساس فيه، يبعثه على أن يجلب جميع ما يقدر عليه لرضاها وشفاء غليلها وقضاء شهوتها. فالمُتَّصِف بهذه الصفة يجعل نفسه محبوبته، وبغيته من الدنيا، ومركز دائرة مرغوبة، فلا تنبعث أشعة فكره إلا إليها، وكل ما يتمناه أو تشتهيه نفسه من الغنى والزينة والفخار يجعله عائدًا عليها، وكذلك يقصر بحثه عن إزالة الشر عنها؛ فلا رغبة له في نفع الإخوان ولا الأوطان، فجميع ما يجلبه من خير أو يدفعه من شر متولد من هذه المحبة. فهي بالنسبة إليه سبب اللذات والآلام، ومجلبة الشهوات الجسمية والعقلية. فالإنسان مَطْبُوع على أن يحسن له حب النفس ما فيه صلاحه الخاص به بما يوافق مَيْلَه وضعفه وتولعه بالفَخَار[1]، ويزين له الوصول إلى هواه، فأحب ما على الإنسان التعبير عن نفسه بأنا أو نحن؛ ليشرف نفسه ويزينها بما يستطيعه، وأعظم فخر للإنسان المحب لنفسه إذا اجتمع بأقرانه وأمثاله أن يظهر عليهم بمظهر الهَيْبَة والإجلال، وأن يحب منهم أن يدركوا منه قوة عقله وفضائله ومزاياه الخصوصية؛

---

(١) الفَخَار: التباهِي. (م).

ليحترمه جميع الناس، وهذا ما يرضيه غاية الرضى، ويساعد على بلوغه مُنَاه، ويعود على حوائجه بسهولة القضا، وما هذا كله إلا أنه يحب نفسه حُبًّا جَمًّا، وربما تجاوز في حبها الحدَّ مما أعمى وأصمى، فلا يحب سواها، ويبلغها من جميع ما تشتهيه مُنَاها، فهي لمأموله مركز الآمال ومَحَطّ الرِّحَال، ومن ذلك أنه يحب العلو على الجميع؛ فكأن عباد الله مخلوقون لجَنَابِه الرفيع، ودائمًا يريد منهم المدحة واستحسان الأفعال. فهذه الخَصْلَة في الحقيقة خارجة عن حد الإنصاف والاعتدال، لا يعد صاحبها إلا ظالمًا لنفسه، طائعًا لهواه، جائرًا جبارًا، مُتَمَلِّقًا حَسُودًا لمن سواه. فحب النفس خَصْلَة جامعة لجميع العيوب والذنوب، مُخِلَّة بالجنس البشري، دالة على دناءة النفس؛ حيث إن صاحبها مقصور الهمة على منفعة نفسه؛ لا يعود نفعه في شيء على إخوانه وأبناء جنسه، وهي منبع الحرص والطمع.

إِذَا مَا شِـــئْتَ أَنْ تَحْيَا حَيَــاةً سَـــهْلَةَ المَـحْـيَا
فَلا تَحْفِـــل بحب النَّفْـ ـس أو تَغْـــتَرّ بالدُّنْيـــا

وقد كتب الإسكندر إلى أرسطاطاليس أن عِظْنِي؛ فكتب إليه إذا صَفَتْ لك السلامة؛ فجدّد ذكر العَطَب، وإذا اطمأنّ بك الأمن؛ فاستشْعِر الخوف، وإذا بلغتَ نهاية الأمل؛ فاذكر الموت، وإذا أحببتَ نَفْسَك؛ فلا تجعل لها في الآثام نصيبًا.

وعلامة حب النفس أن يكثر الإنسان من مَدْحِهَا، ويحكي عنها أفعالاً عظيمة، يُطْنِب في مَتْنِهَا وشَرْحِهَا؛ فهو حُبٌّ مذموم، وصاحبه مَلُوم، يدل على قلة العقل والأدب، ودَنَاءَة الأصل والحَسَب، وعلى الخِفَّة والطيش، ولا يتمتع صاحبه بأهنأ عيش.

قال بعضهم: «إنه ينبغي في تربية الأولاد من ذكور وإناث أن يعتني مُرَبِّيهم، بأن يطفئ من قلوبهم نار حبهم لأنفسهم، وحرارة حرصهم على جلب كل شيء لخاصيتهم؛ فإن حبهم للنفس بهذه الدرجة إنما هو عين البِغْضَة لها؛ لأنه يجلب لهم بُغْضَ من عداهم من الإخوان، وكيف ينال السعادة من خَصَّ نفسه بالمحبة، ولم يجعل لأخيه منها قدر حبه؟» وفي الحديث الشريف: «لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى يحبَّ لأخيهِ مَا يُحبُّ لنفسِهِ»، وهذا الحديث من أعظم آداب الدين وأُسِّه.

ومما يترتب على حب هذا الاختصاص الحزن عند فقده أو عدم الحصول عليه؛ حيث إن الحزن ألم نفساني يعرض لفقد محبوب أو لفَوت مطلوب ممن يظن أن ما يحصل له من محبوبات الدنيا يجوز أن يبقى ويثبت عنده، أو أن جميع ما يطلبه من مفقوداتها لابد أن يصير في ملكه. فإذا علم الحريص أن جميع ما في المحسوسات غير ثابت ولا باقٍ، وأن الثابت الباقي هو ما يكون في عالم العقل؛ لم يطمع في المحال. فإذا لم يطمع فيه؛ لم يحزن، بل لا يطلب إلا بمقدار الحاجة، وترك الادخار والاستكثار والمباهاة والافتخار. فمن طلب بقدر الحاجة أمن فلم يجزع وفرح فلم يحزن وسعد فلم يشقَ وإلا لم يزل في جزع دائم وحزن مستمر.

فإن من طمع في المحال لم يزل خائبًا، والخائب محزون أبدًا، والمحزون شقي دائمًا. فما أحسن فرح المتعيشين بمعايشهم على تفاوتها، وسرور أصحاب الحِرَف المختلفة بمذاهبهم على تَبَايُنِهَا!! فليتصفح العاقل ذلك طبقة طبقة من طبقات هؤلاء، فلا يخفى عليه فرح التاجر بتجارته، والجندي بشجاعته، والزارع بزراعته، والشاطر بشطارته. فإذا لزم صاحب الفضيلة مذهبه وطالت عادته فيه، كان أولى بالسرور من هذه الطبقات، ولا يعتريه الحزن الذي يجتلبه لنفسه؛ إذ ليس هو من الأشياء الطبيعية بل أسبابه أسباب غير ضرورية. وإن مَنْ جلب لنفسه الحزن فهو غير عاقل؛ ولذلك قال بعض الحكماء: «إن مَنْ أحب أن ينال الشر أعداءه؛ فهو محب للشر، ومحب الشر شرير، وشر مِنْ هذا مَنْ أحب الشر لمن ليس له بعدو، وأسوأ مِنْ هذا حالاً مَنْ أحبّ أن لا ينال أصدقاؤه خير، ومَنْ أحب أن يُحرم صديقه الخير؛ فقد أحب له الشر، وهذا لا يُتصوّر إلا مِنْ الحريص الذي يحب اختصاص نفسه بالخير. فعلى الإنسان أن يرغب إليه تعالى في التوفيق المقرون بالاجتهاد؛ إذ لا يتم أحدهما إلا بالآخر. وأمّا إن كان حب النفس عبارة عن اعتبارها محبة للخير لها وللإخوان، واتصافها بالفضائل، وتجرّدها عن النقائص والرذائل مثل أهل العدل والإحسان، والميل إلى أن تكون في ميزان الخير راجحة جامعة لأنواع الأعمال الناجحة؛ فليس بهذه الصفة من الأفعال الذميمة؛ حيث أضيف إليه حب مثل ذلك للإخوان وأهل الأوطان؛ فإن هذا يكون من باب علامة الإيمان.

الفصل الثالث

في تعويد الأطفال من أوّل شُبُوبِيّتهم على العقائد الدينية، والتغذي بألبان الأحكام الشرعية

قد كتبت يد القدرة الربانية بغير آلات، وسَطرَت الإرادة الصمدانية خطوط المصنوعات، وجعلت ذلك وَقْفًا على تلاوة البصائر والألباب، ومشاهدة الأبصار والعيون عنوان هذا الكتاب، فكأنها أمرت العقول بالانتقال من السُّفْلِيَّات إلى العُلْوِيَّات، وبالنظر في جميع الأزمنة والأمكنة، وما أُودِعَ فيها من خير أو شر أو نفع أو ضر أو سعد أو نحس أو حياة أو موت أو صحة أو سَقَم مما يجري من مشيئته تعالى في سائر الكائنات. فكل هذا يرشد إلى معرفته تعالى وحكمته وحوله وقوّته كما نبه عليه تعالى بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الروم/ ٨]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على بديع صنعته وتدبير ملكه وحكمه.

ثم إن الله ﷻ جعل العقل النوراني في القلب الإنساني مرآة للعارف الفاضل، يميز به الحق من الباطل كما أرسل رسلاً ظاهرة؛ ليبينوا العلم الظاهر الذي تجهله النفس الأمّارة بالسوء حتى لا تقيسه بقياسها الفاسد بناء على ما يفهمه عقلها الكاسف الكاسد. فالعقل النير رسول قَبل واسطة النبي المرسل

والملك المقرب. وأما الرسول الحقيقي المشرع فقد أرسل من عند الله تعالى مبشرًا ومنذرًا لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، فهو مبين ومعين لما لا تستقل به عقول البشر، وإن كانت العقول أفادت قبل الشرائع نوعًا من التدبير، فالعقل الراجح الصحيح النظر الخالي عن الموانع قد يميز الحق من الباطل وهو مؤيد لرسالة المرسلين، وقد فرق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين العالمين في العقول، ومنحهم منها ما شاء من كثير وقليل، وكما فضل بعضهم على بعض في الرزق وكثرة المال فضل بعضهم على بعض في العقل؛ فعقول الأنبياء أرجح من عقول العلماء، وعقول العلماء أرجح من عقول العَوَامّ، وبقدر تفاوت العقول والبصائر الشبيهة بالأبصار قوّة وضعفًا؛ يكون التفاوت في إدراك قواعد الدين والدنيا؛ وبهذا يقع الإنكار والاعتزال لكثير من الناس في أمور الدين؛ لنقصان العقول كأهل الضلال والمشركين، وعبدة الأصنام والوثنيين.

إنَّ مَنْ أَشْـــرَكَ بِاللَّــــــ ـهِ جَهُــــــولٌ بِالمَعَانــــي
أَحْوَلُ العَقْـــــــلِ لِهَـــذَا ظَـــــــنَّ لِلْوَاحِــدِ ثَـاني

وكمنكري البعث من الحكماء والفلاسفة:

قَالَ المُنَجِّمُ والطَّبِيبُ كِلاهُمَا لَنْ تُبْعَثَ الأَمْوَاتُ قُلْتُ إِلَيْكُمَا
إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ أَوْ صَحَّ قَوْلِي فالخَسَارُ عَلَيْكُمَا

قال أعرابي لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ﵃: «هل رأيت الله حين عبدته؟ فقال: لم أكن لأعبد من لم أره. قال: فكيف رأيته؟ قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العِيَان، ورأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يُدْرَك بالحواسّ، ولا يُشَبَّه بالناس، معروف بالآيات، منعوت بالعلامات، لا يجوز في القضيات، ذلك الله الذي لا إله إلا هو فقال الأعرابي: الله أعلم؛ حيث يجعل رسالاته» .

وأما من يعرف الواجب والجائز والمستحيل؛ فيعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدرته تعالى قليل. فالعاقل إذا سمع معقولاً غريبًا استحسنه، والجاهل إذا سمعه قطع بتكذيب قائله وزيف ناقله؛ لقلة بضاعة عقله وضيق نطاق فضله؛ ولهذا وصف تعالى الجهال بقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان/ ٤٤].

وقد أودع الله ﷻ من عجائب المصنوعات في الآفاق والسماوات كما قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[يوسف/ ١٠٥]، وقد ندب إلى النظر في عجائب الدنيا بقوله: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾ [النمل/ ٦٩] وقال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات/ ٢٠]، وقال الشاعر:

فِي الأَرْضِ آيَاتٌ فَلا تَكُ مُنْكِرًا   فَعَجِائِبُ الأَشْيَاءِ مِنْ آيَاتِهِ

وقال آخر:

كَمْ آيَـةٍ لِـلإلَهِ شَـاهِدَةٍ   بِأَنَّـــهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُـــو

وقال آخر:

أَيَا عَجَبًا!! كَيْفَ يَعْصِي الإلَـ   ـهَ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ؟
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَـةٌ   تَـدُلُّ عَلَى أَنَّـهُ وَاحِـدُ

وقال صاحب الجوهرة:

فَانْظُرْ إِلَى نَفْسِكَ ثُمَّ انْتَقِل   لِلْعَالَمِ العُـلْوِيِّ ثُمَّ السُّفْلِيّ
تَجِـدْ بِـهِ صُنْعًا بَدِيعَ الحِكَمِ   لَكِنْ بِهِ قَـامَ دَلِيلُ العَدَمِ

ومن شاهد حَجَرَ المغناطيس، وجذبه للحديد، وحَجَرَ الماس الذي يعجز عن كسره الحديد، ويكسره الرصاص، ويثقب الفولاذ، ولا يقدر على ثقب الرصاص؛ يعلم أن الذي أودع هذا السِّرَّ قادر على كل شيء، فلا تكن مكذبًا بما لا تعلم وَجْه حكمته، فقد قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس/ ٣٩].

فالعاقل هو الذي إذا سمع شيئًا أو رآه أو دُعي إليه أو أُمِرَ به أو نُهيَ عنه، وكان ذلك الشيء واردًا شرعًا، مخالفًا لطبع نفسه أو موافقًا له، ولم يَدْرِ أن الصواب

في الإقبال عليه أو النفور عنه. دَبّره أوّلاً بنظر العقل الذي أودعه الله تعالى فيه، وتفكر في عاقبته، وما يَؤُول إليه من الصواب والهدى أو الخطأ والضلال؛ فيحكم به العقل النُّوراني المُودَع في القلب الإنساني، ولا نظر إلى ما تأمر به النفس الأمّارة بالسوء أو العقل الضعيف؛ لأن كُلاًّ منهما في حرب مع العقل النوراني، وهذا ما يسمى جهاد النفوس، فتقع فيه الموازنة والمغالبة والمحاربة؛ وإلى ذلك أشار (الصادق المصدوق) حين رجع من بعض الغزوات بقوله: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، فحينئذ ينبغي أن يبرز إلى النفس الأمّارة ضرغام العقل على جواد، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت/ ٦٩]؛ فيضربها بسيف الحق القاطع؛ لدروع حجج الجهل المانع، فيقول لهذه النفس اللوّامة: «لِمَ لا تطيعين مَنْ خلقك، وخلق كل شيء، وهو على كل شيء قدير، وهو الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له؟».

فإن قالت النفس: «ما الدليل على ذلك؟ قيل لها: إنه لابدّ لكل مخلوق من خالق؛ لأنه لا يخلق نفسه ألبتة، فإن سلمت هذا. وإلا قيل لها: «أفأنت خالقة أم مخلوقة؟» فإن قالت: «خالقة»؛ عرضت لها ذرة من خلق الله تعالى؛ وقيل لها: «اخلقي مثل هذه الذرة». فضلاً عن فيل أو جمل أو جبل أو سماء أو أرض؛ فإن عجزت عن خلق ذرة؛ ثبت أنها مخلوقة عاجزة مثل تلك الذرة، وقامت الحجة عليها، وعلى جميع المخلوقات لضعفهم وعجزهم، وثبت أن هناك شيئًا هو خالقهم ومالكهم ومدبرهم، وهو الإله الواحد الموجود القديم الباقي، وهو

المريد القادر المتصف بصفات الكمال، وعلمه القديم في كل كلي وجزئي حاضر، كما قال الشاعر:

يَا مَنْ تَعَرَّف لِي بِـــه فَعَرَفْتُه وَبِهِ المحبـــة حِـــينَ أَنْ أَحْبَبْتُهُ
أَنْتَ الَّذِي فِي كُلِّ شَيْءٍ حَاضِرٌ أَشْهَدْتَني عِلْمِي فَمِنْك شَهِدْتُهُ

وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: «ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذهَبَ يخلُقُ كَخَلْقي، فليَخْلقُوا ذَرَّةً أو ليَخْلقُوا حَبَّةً أو شَعِيْرةً» انتهى. وقد وقع السؤال عن حكمة الترقي؛ فأجاب التقي السبكي: «بديهة بأن صنع الأشياء الدقيقة فيه صعوبة. والأمر بمعنى التعجيز»؛ فناسب الترقي من الأعلى إلى الأدنى، واستحسن ذلك الحافظ ابن حجر: «والمراد بالأعلى الأعلى في صعوبة العمل أو في الخَسَاسَة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج/ ٧٣].

فقد اقتضت حكمته الإلهية من غير وجوب عليه أن يخلق المخلوقات؛ ليَدُلَّهم على معرفته بإظهار صنعته لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦] أي يعرفوني ويوحدوني؛ وحيث إن الإنسان مخلوق؛ لتوحيد الخالق؛ فينبغي تعليم الصغير - ذكرًا أو أنثى من مبادئ أمره - إقامة الدليل على وجود الله، ووحدانيته، وباقي صفاته الواجب معرفتها تفصيلاً في التفصيلي، وإجمالاً في الإجمالي.

الفصل الرابع

في أنه ينبغي تعليم الأطفال حين تربيتهم أحوال المعاد كالمعاش ليجمعوا بين معرفتهما

من المعلوم أن قدرة الله سبحانه وتعالى كباقي صفات المعاني، وهي الإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام، ثابتة القِدَم، وهي التي أوجد بها المخلوقات بعد العدم، وبها تكون الحياة بعد الممات، كما أشار بذلك سبحانه وتعالى بقوله ردًّا على من أنكر الحياة بعد الفناء؛ فقال الكافرون: ﴿هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ . أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق / ٢ - ٣]، وبقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ . وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ . وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ . وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ . رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق / ٦ - ١٠] أي كما أحيينا الأرض من بعد موتها بذلك الماء؛ كذلك نحييكم بعد موتكم، وكما أخرجنا جواهر المعادن والنبات والحيوان من الأرض، وأوجدناها بعد عدمها وفنائها؛ كذلك الخروج الذي أنكرتموه يكون بِقُدْرة من يقول للشيء كن فيكون، ومن هو على كل شيء قدير، وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ

كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل / ٤٠] هو كناية عن سرعة الإيجاد عند تعلق الإرادة، وليس هناك أمر حقيقة، ولا كاف ولا نون؛ وإلا لو كان هناك أمر؛ لتوجه أن يقال: «إن كان الخطاب للشيء حال عدمه فلا يعقل، وإن كان بعد وجوده ففيه تحصيل الحاصل».

وقد بالغ بعض الملحدين في الإنكار؛ فقال: «لو أن آدميًّا أكله آدمي آخر؛ فاستحال فيه أيضًا لحمًا ودمًا، وهكذا إلى ألف أو أكثر ثم مات الأخير منهم؛ فأكلته الأرض حتى فَنيَ وانعدم، ولم يوجد له أثر. فكيف يكون رجوع كل شيء من ذلك، وكيف يكون وجوده بعد عدمه وحياته بعد موته، وكيف يخرج ما استحال في جميع ذلك حتى يتميز كل واحد منهم على حدته بذاته؟» فاستبعد المنكر ذلك بجهله، وتمادى على إنكاره البعث؛ لضعف عقله، وجوابه أنه لو استحال جميع المخلوقات بعضها إلى بعض، واختلطوا كلهم، وصاروا دمًا ولحمًا واحدًا، أو ماء أو هواء أو نارًا، أو ألطف شيء يكون ثم فَنيَ ذلك كله، ولم يوجد له أثر؛ فليس عزيز عليه تعالى أن يوجده بالقدرة بعد عدمه، ويردّه كما كان أوّلاً، فلا يعجز عن تمييز كل واحد على حدته بذاته حتى يعيد إليه دمه ولحمه الذي كان عليه في حياته الأولى؛ فَيُثِيْبُه إن كان من أهل الثواب، ويعاقبه إن كان يستحق العقاب؛ ولهذا خلق للسعداء دار النعيم، وللأشقياء نار الجحيم.

والدليل على ذلك أن الله تعالى أوجد الناس أوّلاً بعد أن لم يكونوا شيئًا بدون كلفة ولا مشقة ولا استعانة بآلة ولا شيء غير صفاته كالقدرة والإرادة والعلم؛ فما أسهل عليه الإعادة وأهونها؟ ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى

ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ [الإنسان/ ١] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ ﴾ [الروم/ ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [العنكبوت/ ٢٠] أي كما أوجدهم من العدم أوّل مرة، كذلك يوجدهم بعد الفناء ثانية، إنّ الله على كل شيء قدير.

وقد صوّر الله الإنسان في أحسن صورة، وجعله باقي النوع بالتوالد والتناسل إلى آخر الدهر، وركَّب فيه العقل النُّوراني المضاف إلى الرُّوح المتصرفة في الحواس، وألهمها بالحركة الاختيارية الصادرة عن إرادة الله بما قضاه من خير أو شر أو طاعة أو معصية حتى ينفذ ما سبق في علمه، وما أبرمه بمشيئته وحكمه؛ ليخرج بذلك من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا . فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾ [الشمس٧ -٨]، فيكون ما أراده تعالى قديمًا في سابق علمه، محكمًا في ديوان حكمته وتدبير ملكه، محدثًا بقدرته، دالاًّ على وجوده ووحدانيته، شاهدًا باتصافه بسائر الصفات التي تتجلى بمحاسنها على جميع الموجودات بالفعل والصنعة؛ فانطبعت في جميع الموجودات آثار وجود الباري - تبارك وتعالى - أي مظاهر صفاته التي ظهرت من عالم الغيب إلى عالم الشهادة؛ فارتسمت في مرآة قلب الإنسان كما يرتسم الشيء المنظور في المرآة؛ فلهذا كان الإنسان أفضل المخلوقات، وأكرمها على الله، وأحسنها خلقًا بما أودع الله ﷻ فيه من بديع الحكمة، ورفيع الصنعة، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ

فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين/ ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء/ ٧٠].

وعند ظهور الإنسان الذي هو عبد مولاه إلى عالم الشهادة؛ اقتضى المقام أن يكون الربُّ آمرًا للعبد، ناهيًا له، وأن ما أمر به الربُّ يكون واجبًا أو مندوبًا، وما نهى عنه يكون حرامًا أو مكروهًا، وما فَوّض السيد أمره إليه، ولم يرتب فيه عليه ثوابًا ولا عقابًا ولا مدحًا ولا ذمًّا؛ كان مباحًا. فالتكليف بهذه الأحكام الخمسة شرعي؛ وحيث إن العقل النوراني بالقلب الإنساني صَدَّقَ بوجود الخالق، فلابد أن يصدّق أيضًا بملائكته وكتبه ورسله الذين بيَّنُوا الحلال والحرام، وعليهم نزلت الشرائع والأحكام، وخاتمهم خير البرية الذي أيد بالمعجزات القوية لاسيما معجزة القرآن الباقية إلى آخر الزمان، والناسخ شرعه جميع الشرائع والأديان، والمنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال/ ٦٢] أي نصرك في سائر أيامك. فإن أَمْر النبي ﷺ من أول حياته إلى وقت وفاته كان أمرًا إلهيًّا وتدبيرًا عليًّا، وما كان لكسب الخلق فيه مدخل، وكان تأييده ﷺ بالمؤمنين والأنصار والمهاجرين، ومن بعدهم بالخلفاء الراشدين، ولا زال شرعه مؤيَّدًا منصورًا إلى يوم الدين، يقوم بتأييده صالحو المؤمنين والملوك والسلاطين. فما أحسن الأمة التي تهذب

أخلاق أبنائها على ما وردت به الشريعة الغرّا[١]!فهذه الأمة هي السعيدة دنيا وأخرى. قال بعض الصالحين: «من لم يدخل في قمقم الشريعة، ويختم عليه بختام الحقيقة؛ فليس من أحبابنا، ولو مشى في ركابنا» ولقد أحسن من قال:

أَيُّهَــا المُــدَّعِي سُلَيْمًا سَفَاهًا   لَسْـــتَ مِنْهَا وَلا قُلامَةَ ظُفْرِ

إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ سُـــلَيْمٍ كَـوَاوٍ   أُلْحِقَتْ فِي الهِجَاءِ ظُلْمًا بِعَمْرِو

وقال آخر:

وَكَلٌّ يَـــدَّعِي وَصْلاً لِلَيْلَى   وَلَيْـــلَى لا تُقِرُّ لَهُــم بِذَاكَا

وبالجملة، فتربية أولاد الملة، وصبيان الأمة، وأطفال المملكة ذكورًا وإناثًا من أوجب الواجبات، كيف لا والتربية مطلوبة حتى في غير الآدمي؟ فإن كل أمة تعتني بتربية ما ينفع الإنسان من الحيوانات المنزلية كالخيول النافعة في الجهاد، والنحل، ودود القز، وذوات الأصوات كالببغاوات المفقودة في مملكة، الموجودة في أخرى، يصير جلبها لتربيتها وتطبيعها وتوليدها في المملكة المجلوبة إليها، وكانت أمة اليونان المشهورة بالحكمة في قديم الزمان تحسن تربية أبناء ملوكها غاية الإحسان، فلما ظهر أفلاطون، وأعجبته هذه التربية الحسنة، وتهذيب الأخلاق بالطريقة المستحسنة التمس من اليونان أن يتخذوا تربية أبناء الملوك نموذجًا ينسج على منواله في تربية أبناء كل مالك ومملوك.

---

(١) الغَرَّا: يقصد الغَرَّاء بتسهيل الهمزة، وتعني الشريفة. (م).

قال بعضهم: «إن السبب الأعظم في كثرة فحول الرجال، وكبراء الأبطال في بلاد اليونان في أيام جاهليتهم؛ إنما هو كان بعد إحسانهم تربية الأطفال، فكانت صغارهم تربى على طرف المملكة، وكانوا يعوّدونهم وهم أطفال على الشجاعة والقوّة، وكانت المرضعات لا يجعلن لهم قِماطًا[١]، وكانوا يعوّدونهم أيضًا على عدم الخوف من ظلام الليل، وعلى عدم البكاء والتشكي إلا لحاجة لازمة، وكانوا إذا بلغ الطفل سبع سنين أَمَرُوا المعلم أن يعلمه التعوّد على الأشغال، والتجلد على المشاق، والمبادرة في الطاعة، وكان المعلمون يسوّون بين سائر الأولاد في التعليم بالمكاتب العمومية بلا تمييز لأحد منهم بتعليم شيء وتقديمه على آخر، بل يعلمون الكل مع بعضهم بطريقة واحدة؛ لأنهم مستوون في القيام بالواجبات المتحدة في المملكة، وكانوا يجعلون كل من ظهرت نَجَابتَه[٢] في التعلم رئيسًا على من عداه ممن لم تظهر له نَجَابَة؛ فيَحْكُم الأنجبُ فيمن عداه منهم لكن بملاحظة الشيوخ؛ ليرُدّ الشيوخ من أخطأ في حكمه منهم إلى الصواب، ويجب تأديبه على ذلك بما يليق بخطئه من العقاب.

وطريق تعليم الأولاد التفاهم. التخاطب عند اليونان أن الآباء كانوا إذا اجتمعوا على مائدة عمومية يُحْضِرُون معهم أولادهم؛ ليغتنموا فائدة محاورة تلك المجالس، وكانوا يسألونهم عن بعض أشياء مهمة، فيقولون للواحد منهم: «ما رأيك في هذا الشيء أو في هذا الرجل؟ ويحملونهم على ردّ الجواب بسرعة

(١) قِماطًا: قطعة من قماش ونحوه يُلفّ بها الصغير. (م).

(٢) نَجَابَتُه: نباهته وتفوقه. (م).

مع الاختصار، وأدب الكلام. والقصد من ذلك أن ينشأوا على عادة حسنة؛ فيعتادوا العبارات الوجيزة، وتزيد فطنتهم وذكاؤهم، ويسلكوا في كلامهم مسلك البلاغة الدالة على علو همتهم. وكان يونان إسبرطة بجزيرة موره ممنوعين من العلوم الدنيوية، ومن الصنائع التي هي على الزينة والزخرفة مبنية، وإنما كانوا يميلون إلى الشعر لكونه يهيج نفوسهم، ويزيدها شجاعة وحماسًا، فمن ذلك ما حُكِي عنهم أنه اجتمع شيوخهم وشبانهم وصبيانهم للغناء، وشرع كلٌّ يغني بشرح حاله، فقال الشيوخ ما معناه: نحن كنا سابقًا منتظمين في سلك الشبان أرباب الشجاعة والرِّهَان؛ فأجابتهم الشبان ونحن كذلك بهذا الوصف الآن، ومن أراد البرهان فها هي الشقراء[1] والميدان؛ فرد عليهم صبيانهم بقولهم: ونحن سنصير يومًا من الأيام مثلكم في حومة الفرسان، وفضلنا سيفوق فضلكم في حوزة الشجعان؛ وبهذا هابهم الأجانب في المشارق والمغارب. شعر:

وسُعُودُهم تُثْنِي الأَعَادِي عَنْهُمُ إِنَّ السُّعُودَ كَتَائِبُ لا تُهْزَمُ

فسعد حسن التربية بنيل المقصود؛ يبعد العدو عن عدوه؛ خشية صولة الأشبال والأسود، فإن أشبال اليونان كانوا يدربونهم من أول صباهم كما قيل:

بَلَغْتَ لِعَشْرٍ مَضَتْ مِنْ سِنِيـ ـكَ بِمَا يَبْلُغ الرَّجُلُ الأَشْيَبُ
فَهَمُّك فِيهَا جِسَامُ الأُمُو رِ وهَمُّ لِدَاتِك أَنْ يَلْعَبُوا

واللِّدَات: الأَمْثَال في السن.

(١) الشقراء: الفرس، والمقصود إظهار الشجاعة عمليًّا. (م).

وقد انتظم النساء عند اليونان في سلك التربية؛ فاكتسبن من التعليم فضائل الرجال وصحة الأبدان؛ فبهذا كان لهن السلطنة العليا على قلوب الرجال؛ بحسن التربية والتعليم، فكان يجب عليهن معاناة الرياضات الشاقة، واستمرار اللعب والمصارعة؛ فبذلك حصل في تلك البلاد من النساء مدة طويلة من العجائب والغرائب ما يساوي شجاعة الرجال، ولهذا أيضًا احترمهن الأبطال احترامًا بليغًا حتى إن سلطنتهن على قلوب الرجال نشأ عنها مَيْلُهم لأعمال الشجعان ليحببنهم؛ فمن ذلك أن بعض الأمهات قالت لابنها لتسليه، وقد جرح جرحًا صار به أعرج: «يا بني، لا بأس عليك بذلك؛ فإنك الآن ما سرت خطوة إلا وذكرت شجاعتك». وكذلك كانوا في مدينة أثينة التي هي مدينة الحكماء يعتنون بتعليم الأولاد؛ لعلمهم أن بقاء عز المملكة إنما يكون بذلك، ويحثون على الاشتغال بالحِرَف والصنائع، وكل مَنْ ثبت عليه مِنْ أهالي المدينة أنه لم يَتَعَاطَ حِرْفَةً ولا صَنْعَةً، واتُّهم بذلك ثلاث مرات؛ فإنه يُفضح على رؤوس الأشهاد، وكذلك كل ولد يسرف في أمواله أو يحرم أبويه من القُوت، فإنه يُفضح على رؤوس الأشهاد أيضًا إلا إذا كانا لم يعلماه صنعة فلا عقاب عليه بذلك. وأما الوالد إذا بخل بالإنفاق على ولده؛ فلا يعاقب بهذه العقوبة.

ومن أحكام هذه المدينة أنه لا يجب على المرأة أن تتجهز لزوجها عند الابتناء بها بأكثر من ثلاثة أثواب وأمتعة قليلة الثمن؛ خوفًا على أهلها من الفقر. وإن من اجتمع بغير زوجة وعاشرها أو خالط النساء المتبرجات؛ لا يكون من

أرباب مشورة المدينة؛ لأنه لا يؤتمن على مصلحة الأهالي. وإن من سَكِرَ من أرباب مشورة المدينة؛ فعقابه القتل. فبهذا صارت تربية عموم اليونان كاملة فاضلة في أغلب الأزمان، وناهيك بتربية أرسطاطاليس للإسكندر الأكبر؛ حيث ترشح بتهذيب أستاذه له إلى أن ملك الدنيا، وهزم في كل الممالك الملوك والعسكر. وقد اجتهد الأروباويون الذين بلادهم الآن هي أقوى البلاد في أن يربُّوا بناتهم كتربية الأولاد. وكانت عادة الفرنساوية قديمًا أن يربُّوا بناتهم في أَدْيَار(١) الراهبات، ويمكثن فيها إلى حد تأهلهن للزواج، وكثيرًا من هؤلاء البنات كن يلبسن زي راهبات الكنائس إلى أن يخرجن من هذه المكاتب بوصف كونهن عرائس. وكل ما كان عند اليونان، وعند أهالي أروبا الآن من التمرين على الشجاعة، لا يساوي قطرة من بحر بالنسبة لتمرين العرب على اقتحام الخُطُوب(٢)، وتحريض الأمهات للأبناء على الجَوَلان في ميادين الحروب. فقد حُكِيَ أن الخنساء بنت عمرو السُّلَمِيَّة حضرت حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال؛ فقالت لهم من أول الليل: «يا بني، والله الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد، إنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم وأنتم تعلمون قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران/ ١٠٠]، فإذا أصبحتم - إن شاء الله - فاغدوا إلى قتال عدوِّكم مستبصرين، وبالله على أعدائكم

(١) أَدْيَار: جمع «دير»، وهو مبني مُعَدّ لسكنى الرهبان والراهبات النصارى. (م).

(٢) الخُطُوب: النَّوَازِل، الأمور العظيمة. (م).

مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شَمَّرَت عن ساقها، وأضرمت لَظًى على سياقها، فَتَيَمَّمُوا وَطِيسَهَا[١]، وجَالِدُوا رئيسها عند اخترام[٢] خَمِيسِهَا[٣]؛ تَظْفَرُوا بالغِنَى والكرامة في دار الخلود والمقامة». فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم، وشنوا الإغارة، وقاتلوا حتى استشهدوا جميعًا، فبلغها الخبر، فقالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته». فكان عمر بن الخطاب يعطي للخنساء أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد منهم مائتا درهم حتى قُبِضَ رضي الله عنه[٤].

ثم إن تربية الولد ينبغي أن تكون في بيت أبيه وأمه، وهي التربية اللائقة للبيت، وكل امرأة لم تُرَبِّها أمها في صغرها؛ لم ترغب في تربية أولادها في كبرها. وتربية الأمهات لأولادهن قليلة في أروبا بل يكون أمر التربية موكولاً للمرضعة، والعادة أن تكون هذه المرضعة عاقلة مستقيمة متقدمة في السن صاحبة معارف كافية كثيرة اللبن، والعادة إنها دائمًا ماسكة بيدها عصا صغيرة؛ تعلم بها الصبي وترضعه وتكلمه بكلمات تناسب سنه، وتكتب له فوق التَّخْتة[٥] حروف الهجاء، وجملاً قصيرة تناسب حداثة سنه.

---

(١) وَطِيسَها: نارها. (م).

(٢) اخترام: استئصال، إهلاك. (م).

(٣) خَميسها: الخَميس: الجيش. (م).

(٤) قُبِضَ: مات. (م).

(٥) التَّخْتَة: السبُّورة. (م).

ثم يدخل كلٌّ من الغِلْمَان والبنات المدارس المعدَّة لهن، وفي بعض بلاد جرمانيا دخول المدارس للبنات والغِلْمَان واجب قانونًا حتى عُدَّ أن في بروسيا سدس الأهالي يتعلمون في المكاتب، ويقرب من هذا تعليم جمهورية السوسة ومملكة بلجيقا والفلمنك وممالك أمريقة المتحدة؛ فلهذا كان أبناء أروبا وأمريقة ذكورًا وإناثًا يحسنون في الغالب القراءة والكتابة بالضبط الشافي، ويعرفون مبادئ المعارف التي يتزين بها عقل الإنسان، وهذا يشترك فيه عموم الأهالي. وأما التربية الوسطى والعالية فهي مخصوصة بأربابها، وسيأتي بيان ذلك في مساق الأبواب الآتية.

البابُ الأوّل

في حقيقة الإنسان، ونسبته إلى غيره من المخلوقات
وبيان فضائل الذكور والإناث
وما يتبع ذلك، وفيه فصول

الفصل الأول

في الإنسان من حيث ناطقيته

الإنسان هو الحيوان الناطق ذكرًا كان أو أنثى، وهو ذو حواس ظاهرة كغيره من باقي الحيوانات، ويتميز عنها بحواس باطنة، كما يتميز عنها أيضًا بشرف هيكله ونَاسُوتِه[١]، وبتناسب أعضائه الظاهرة والباطنة، وبشعر رأسه الذي هو زينة له، وبحدة بصره وببيانه عما في ضميره، وبإدراكه وفكره، وبصفاته الرُّوحانية والجسمانية كالفم الذي هو مظهر الضحك والكلام، وبلطف سمعه الذي يدرك الأصوات المسموعة أيًّا ما كانت، وكيف تشكلت، وبما ميزه الله به من الأعضاء كاليدين اللتين يحسن بهما الصناعة إلى غير ذلك.

فالإنسان يشترك مع غيره من الحيوانات بالأشياء المحسوسة التي بها يحافظ على حياته، بصيانة نفسه من البرد أو الحر، ووقايتها من الآفات الجوّية، ومن تعاطي الغذاء الذي يسدّ به الرَّمَق[٢] كل يوم. وقد وهبت الحكمة الإلهية للإنسان كغيره من الحيوان آلات عضوية ذات وظائف تعينه على حفظ حياته،

(١) نَاسُوته: طبيعته البشرية. (م).

(٢) الرَّمَق: بقية الروح أو الحياة. (م).

وقد اقتضت الحكمة أنه متى أصيب في هذه الأعضاء، وتعطلت مات حالاً. فهذا ما يشترك فيه الإنسان مع الحيوان.

وأما ما وهبه الله تعالى للإنسان خاصة فهي حياته المعنوية، وصفاته العقلية التي يعبر عنها في تعريفه بالناطقية، ويتميز بها عما سواه، وهي أيضًا توجب حفظه وصوته؛ فقد وهبه الله تعالى الدماغ الذي هو مجلس الحواس الباطنة، والقوى العقلية التي هي آلة الفكر، وأداة النظر، وإن شئت قلت الناطقية أي الجزء الناطق من الإنسان وهو الروح البشرية التي هي عبارة عن الفكر والإرادة.

فبالإدراك يقتدر أن يرتب المقدمات لاستخراج النتائج، وأن ينسب الماضي للحال، ويتبصر في عواقب المستقبل، ويتصور أسباب الظواهر الجوية والحوادث السماوية، ويميز الحسن من القبيح، والضار من النافع، وبالإدراك والفهم يصلح الإنسان الأشياء، ويشكلها على الوجه المطلوب. وعن الإدراك يتولد الرضى والغضب واللذة والألم والفرح والترح والصفا والكدر، فهذه الصفات من صفات الروح البشرية بواسطة الإدراكات العقلية؛ فتحس بها الروح إحساسًا سبقيًّا فإدراكها ضروري، خارج عن تعلق الإرادة؛ فلا يتوقف الإدراك على الإرادة في شيء من الأشياء.

والقوة الثانية للروح هي قوة الإرادة، وهي الميل النفسي للفعل والترك، وهذه القوة في الإنسان قاصرة محصورة في حدود نظام بِنْيَتِه؛ فليس الإنسان فعالاً لما يريد بل له نوع من الاختيار، وبميله الخاص به فهو دون غيره لناطقيته،

يفصح عما في ضميره بما يختاره من الكلمات، والألفاظ الاصطلاحية، والتفنُّن في العبارات ذوات الروابط القوية.

فقد أودع الله في الإنسان حفظ المعلومات، ووجودها في مذكرته؛ وبهذا حصل التفاهم بين الناس بعضهم مع بعض، وتَرَبَّت المَلَكَات، وقويت القوى العقلية والإدراكات؛ وبهذا أيضًا بلغ الإنسان مرامه، وجعل جميع ما عداه من الكائنات ينقاد له، ويطيع أحكامه.

الفصل الثاني

في سلطنة الإنسان بسبب ما فيه من الناطقية على جميع المخلوقات، وانقياد ما عداه له من الكائنات

لاشك أن الإنسان بما أُودع فيه من القوى العقلية؛ اهتدى إلى المعارف والعلوم والفنون والصنائع. فبأفكاره الجليلة عرف أن ينتفع بما حوله من المخلوقات، ويجلبها إليه، ويجعلها طوع يمينه، ولما وهبه الله سبحانه وتعالى الشهامة والشجاعة والحماس، وكلها من سمات الناطقية؛ كان تارة بصوته الجهوري المطرب ينشد شجاعة الشجعان، ويصف فروسية الفرسان في حومة الميدان، وتارة يرسم بيده رسوم الوقائع والنوازل وخرطات المسالك والممالك والمدائن، وطورًا يشتغل بتطريق المعادن، وطورًا يبني قصرًا مشيدًا، وتارة يشتغل برصد النجوم، ويقوّم الأجرام السماوية بالنظارات الفلكية، ويمسح دوائر أفلاكها بالمساحة الهندسية، ويمسح الأرض، ويعرف أطوالها وعروضها، ومسافة ما بينها وبين الشمس، وأخرى يمعن النظر، ويحيل الفكر إلى ما وراء الطبيعة؛ فيتكلم على الإلهيات، ويدخل بعقله في البحث عن العلويات، وقد يتنازل في البحث إلى مواد ليست علوية إلا أنها في ميزان الاعتبار لها فضل الراجحية، يرقى الباحث عنها إلى أَوْجِ[1] الفَخَار،

---

(١) أَوْج: قِمَّة. (م).

ويبلغ في معاناتها شَأْو[1] الاعتبار كالفنون والصنائع التي يحتاج إليها لتدبير أمره، وراحة سره؛ فيميل عقله مثلاً إلى استحسان الفلاحة التي تفيد النوع البشري صلاحه. ففي كل يوم - بعناية الزارع الفلاح، وسلوكه بالغرس، وخدمة الأرض - طريق الفلاح يبدو في الأراضي مغارس جديدة ونفائس مفيدة؛ فيتحصل لثروة الأوطان محصول التِّيل والكِتَّان، وبتنظيفهما، وتبيضهما بالصناعة؛ ينشأ عنهما ثياب بيضاء ذات بريق ولمعان، وبتربية الغنم في المراعي النضرة، والمروج الخَضِرَة؛ تكثر في الوطن الأصواف الجيدة، كما بتربية دود القز؛ يكتسب القُطر من الحرير أجوده ولأيدي ابن آدم يلين الحديد، وتتطرق المعادن، وتنتج عنها المصنوعات النافعة؛ لفتح الممالك والمدائن كآلات الحرب، وأدوات الطعن والضرب مما يحصل به النصر والتأييد، وكل يوم يأخذ في الترقي والتجديد.

لَـوْلا بَنُو آدَم بَيْنَ العَالَمِ   مَا بَانَ لِلْعُقُولِ فَضْــــلُ العَــــالِمِ

أو ليس الإنسان هو الذي يغرس الأشجار الجافية كالنخيل، وغير النخيل؟ وإذا أراد توقيع نخلة سقطت بين يديه، ونفعها له ليس بقليل؛ فيتخذ منها مصنوعات جليلة، ومشغولات جميلة.

ومن فضائل فطنة الإنسان الوقَّادة أن الحيوانات بأسرها إليه منقادة، ومستعدة؛ لتوفي له مراده، فمنها ما يتخذه للغذا والحرث أو الحمل أو إزالة

---

(١) شَأْو: غاية، أَمَد. (م).

القذا، ومنها ما يستعمله للصيد أو للحرب مع عمرو وزيد، ومنها ما يتخذه مطية أو يعدّه للسياق والفروسية، ومن أعجب ما يصطنعه الإنسان لمنفعة نفسه، مما يعود في الحقيقة على أبناء جنسه أن يفتح طرقًا واسعة في لُجَج البحور لأسفار السفن، واقتحام الأخطار لكل جسور، فبهذه الطرق العليا؛ تجري الجواري المنشآت في بُحْبُوحَة[١] بحار الدنيا، وتستكشف المسالك والممالك، وتقتحم مَفَاوِز البحار والمهالك؛ فيطلع أرباب السياحة والتجارة على محصولات بلاد البداوة والحضارة، وما هذا إلا مِنْ بحث الإنسان بفطنته الزكية، وقواه العقلية. فكلما نظرنا إليه من حَيْثِيَّة[٢] اتصافه بهذه الفضائل؛ حكمنا له بأنه الإنسان الكامل، وأنه بقوة ذكائه النافع هو الذي ظهرت على يده هذه المنافع. وأما إذا نظرنا إليه من حيث جواهره المادية، وأجزاؤه الحسية الطبيعية، وتأملنا إلى كونه لحمًا ودمًا وعصبًا وعظمًا وجعلنا مطمح نظرنا صورته الجسمانية، وصرفنا النظر عن إدراكات روحه النُّورانية، وقابلناه بما عداه من الحيوانات، وقسناه بما سواه من هذه المخلوقات؛ علمنا أنه من أضعفها لا محالة، وأنه لولا العقل والفكر لم ينل من الانتفاع منها ما ناله.

---

(١) بُحْبُوحَة: نعمة وافرة. (م).

(٢) حَيْثِيَّة: جهة. (م).

الفصل الثالث

في قياس الإنسان بما عداه من الحيوانات، وأنها أقوى منه من بعض الحَيْثِيَّات

قد منحت الحكمة الإلهية الحيوانات الإنسية والوحشية سلاحًا؛ تدفع به عن نفسها، وتسطو به على أبناء جنسها وغير جنسها. وأما الإنسان فهو مجرد عن ذلك، ومُعَرّض بجميع أعضائه للمهالك؛ فجلده عُرْضَة لِحَرِّ الشمس، وزَمْهَرير البرد، ومَضَارِّ الرياح العواصف، والتَّلاقِيح القَوَاصِف[1]. وقد حمى المولى سبحانه وتعالى جميع المواليد في سائر الهِضَاب والبِطَاح[2] حتى جعل للأشجار قشرًا عليها، وغلافًا، يقوم عندها مقام السلاح، ولم يكن للإنسان مثل ذلك، ويظهر قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [الإنسان/ ٢٨]، في كون الإنسان من حال طفوليته على غاية من الضعف، وعرضة لما لا يعدّ، ولا يحصى من الأمراض والأوجاع، وملازمته للآلام مدة حياته بدون انقطاع، ومما يفيد أن الإنسان أسوأ حالاً من جميع خلق الله أنه من حال ولادته لا يستطيع أن يقوم بنفسه، وأنه ضعيف المعدة، مضطرب العقل الفطري، مجرد عن التمييز، خرج من بطن أمه

---

(١) التَّلاقِيح القَوَاصِف: اللواقح من الرياح التي تحمل الندى ثم تُمَجّه في السحاب ثم يصير مطرًا، والقواصف: الرياح الشديدة. (م).

(٢) البِطَاح: سهول وأراضٍ منبسطة فسيحة الأرجاء، يسيل فيها الماء تاركًا فيها الرمل وصغار الحصى. (م).

لا يعرف شيئًا، عرضة لأن يقاسي ما يقاسي في مدّة عمره من الشقاء، لا يتمتع بالراحة والسعادة إلا ببذل نفيس عمره من مبدئه إلى آخر أمره، ومع ذلك فهو دائمًا غير آمن مما يكدره من صُرُوف الزمان[١]، وتغير الحَدَثان[٢]. فهل نستطيع أن نقول إنه ذو قوّة متين، أَشَمّ العِرْنِين[٣]، إذا قابلناه بأسد العَرِين[٤]، وهل يسوغ لنا أن نحكم بأنه سريع العدو في الفَلَوات والقِفَار[٥]، إذا قابلناه بالفرس والإبل، وكل حيوان عَدّاء[٦]؟ وهو أيضًا مجرَّد عَمَّا وهبه الله تعالى للطيور من الطيران في الهواء، وليس عنده ما عند السمك من سهولة السبح في الماء، وليس له من حاسة الشم ما أُودِعَ منها في الكلاب، ولا من حدة البصر بقدر ما في الصقور، ولا من قوة السمع ما في للأرانب، وليس له من ضخامة الجسم ما للفيل، وليس فيه من اللين والانعطاف ومطاوعة الأعضاء ما في القردة، وليس فيه من الخِفَّة ما في الظِّبَاء والغزلان.

وقد منحت الحكمة الإلهية، والقدرة الربانية كل حيوان من تلك الحيوانات بمناسباته وخَصَّته بما يهتدي به لجميع احتياجاته وضرورياته. فخصت

(١) صُرُوف الزمان: مصائبة ونوائبه وتصاريفه. (م).
(٢) الحَدَثان: الليل والنهار. (م).
(٣) أَشَمّ العِرْنين: أَشَمّ: سيد ذوأَنَفَة، العرنين: ما تحت مجتمع الحاجبين من الأنف، والمراد الرفعة والعلو وشرف النفس. (م).
(٤) العَرِين: مأوى الأسد. (م).
(٥) الفلوات والقفار: الفلوات جمع «فلاة» وهي الأرض القفر التي لا ماء فيها، والقفار: جمع «قفر» وهي الخلاء من الأرض. (م).
(٦) العَدَّاء: شديد العَدْو. (م).

الطيور الجوارح بأظفارها، ووهبت لذوات الأربع مخالبها وقرونها؛ لتدفع عن نفسها حتى السلحفاة التي هي أضعف الحيوان، فقد جعلت لها درعًا؛ يدفع عنها الأذى، ويمنع عنها القَذَى بخلاف الإنسان؛ فقد خرج من بطن أمه لا يعلم شيئًا، ولا يقدر على شيء إلا بالتربية والتعليم؛ فوجب تربيته، وتعليمه وإرشاده للمعيشة، والتكلم، وتعويده على أن يتفكر ويتأمل، فبهذا كان محتاجًا إلى ما لا يُعَدّ ولا يُحْصَى من أدوات المعاناة والتمرين والتجربة والممارسة على مدى الزمن حتى يمكنه أن يصل إلى أداء ما يحتاج إليه في تعييش نفسه، فلا يصل الإنسان إلى درجة المعرفة الكاملة إلا بالمرور والعبور في طرق المشاق والمصاعب، أو ليس أن أول صوت ظهر من الإنسان عند الولادة صياحه بالبكاء والأنين، وقد خرج من بطن أمه عاريًا مقبوض الكفين؟ ومما ينسب للإمام الشافعي رضي الله عنه:

وفي قَبْضِ كَفِّ الطِّفْلِ عِنْدَ وِلادِه[١] دَلِيلٌ عَلَى الحِرْصِ المُرَكَّبِ في الحَيّ
وفي بَسْطِهَا عِنْدَ المماتِ إِشَارَةٌ أَلا فَاشْهَدُوا أَنِّي خَرَجْتُ بِلا شَيّ

وقال آخر:

لما تُؤْذِنُ الدُّنْيـــا بِه مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَـــاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ
وإِلاَّ فَمَا يُبْكِيه مِنْـــهَا وَإِنَّهَا لأَفْيَحُ[٢] مِمَّا كَـــانَ فِيـــهِ وأَرْغَدُ

---

(١) وِلاده: مولده. (م).

(٢) أفيح: أوسع. (م).

إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهَلَّ كَأَنَّهُ بما سَوْفَ يَلْقَى مِنْ رَدَاهَا[١] يهدَّدُ

ومع ذلك فيتراءى فيه من صِغَر سِنِّه الميل إلى الإعجاب، وأنه مخلوق لأَنْ يأمر، وينهي، ويدعو؛ فيجاب، ويتصرف فيما عداه من المخلوقات. فإذا بكا في مهده لُفَّ باللفائف، وحُرِّك مَهْدُه، وضُمَّ كتأمين الخائف، فكان ابتداؤه في مهده مبدأ عقابه وإذاقته طعم عذابه، وليس له ذنب سوى أنه طفل ممدود، وفلذة كُبُود[٢]، بخلاف صغار الحيوانات فلا يعتريها شيء عقب ولادتها من هذا الداء، ولا تحتاج لعلاج الأمهات ولا الأطباء، فليس منها ما فيه مخافة بني آدم، ولا رِقَّة بِنْيَته ونحافتها، وليس فيها من كبر الآدمي وعجبه في حال الطفولية، وليس فيها ما فيه حين تَرَعْرُعِه من الوَسَاوِس والأَوْهَام والمطامع والحُمْق والجنون، وما أشبه ذلك من العيوب والمَثَالِب التي هو بها مفتون، فهي حظه ونصيبه من الدنيا الدَّنِيَّة، فيلزم تلطيفها ومحوها من عقله؛ لأنّ الإنسان لا يصل إلى درجة الكمال، ولا يقدر أن يدبر أمور دنياه وأُخْرَاه؛ ليخلص من الهلاك والوَبَال إلا إذا عاين ما لابد منه من المصاعب، وقاسى ما لا مزيد عليه من المتاعب، فكأنه افتدى صلاح حاله ومآله وكمال سعادته وإقباله بأغلى الأثمان، واشترى بأنفس ما عنده ما يخلصه من مَكَارِه الزمان، فإذا كان هذا حاله، وليس مخلوقًا إلا كالآلة؛ لانتظام العالم، وحفظ النوع البشري من الضياع، فلا يُعَدّ في الحقيقة بالنسبة لجثمانه إلا

(١) رَدَاها: هلكها. (م).

(٢) جمع «كَبِد». (م).

مِنْ سقط المتاع[١]، فلا يقال إن جميع ما خلقه الله إنما هو لأجل هذا الإنسان من حيث جثمانيته، بل من حيثية أخرى امتاز بها وهي عقله وعمله، كما لا يسوغ أن يقال إن جميع الرعايا في الدنيا مخلوقة؛ لأجل أن تحكمها الملوك، وتسترعي الغني منها والصعلوك. أو ليس أن رب الأرباب هو الذي خلق الذباب، وسلطه على البشر، وجعل الدود يأكل أحشاء بني آدم، وكذلك سلط الحشرات الحقيرة على أن تتمكن فيه من اللحم والدم فهل تنقاد لابن آدم الكواكب والفصول والرياح، وهل يتصرف فيها بالتصرف المباح؟ ومع ذلك فهو بعقله مَلَكَ ما في الأرض، وله سلطنة على من عَدَاه من الكائنات في طول البَسِيطة[٢] والعَرْض.
شعر:

قُـــلْ لِلَّذِي يَبْتَغِي دَلِيـــــلاً مِنْ غَيْرِ طُـــول على المُهَيْمِن
مَا ذَرَّةٌ فِي الوُجُـــودِ إلاَّ فِيـــهَا دَلِيـــــلٌ عَلَيْهِ بين

---

(١) سقط المتاع: أشياء وأغراض يتم تخزينها. والمراد: أن الإنسان يتكاثر فحسب دون النظر إلى الحفاظ على النوع البشري من الضياع. (م).

(٢) البَسِيطة: الأرض. (م).

الفصل الرابع

في أن بني آدم بالنسبة لجثمانهم يستوون مع غيرهم في هذه الدنيا من جماد العالم ونباته وحيوانه، ولا تأثير لهم فيما عداه، بل التأثير لخالق العالم ومولاه

من المعلوم أن سعادة الإنسان موقوفة على وجود المخلوقات التي لا يتم له راحة إلا بها، ولكن من حيث إن آفات الدهر كالوَبَا[1] والقَحْط[2] والمرض والحرب والحقد والحسد والشقاء والألم، كلها تدل على أن الإنسان من حيث مادته الجسمية ليس أسعد من غيره من الموجودات، كان يظهر أن المالك العادل سبحانه وتعالى سوّى بينه وبين ما عداه حتى يشاركهم في كونه لم يتم سعده، وأنه لا فضل له عليها بالنسبة لمادته الجسمية. ولو أن ابن آدم في الحقيقة هو الطبقة الأولى من الكائنات؛ فلم يَقِهِ مولاه من المقدورات العَرَضِيَّة، بل جعل أفراد الإنسان تحت أرجوحة القدر لا يدفعون عن أنفسهم ما حكم الله به عليهم من الحياة والموت، حتى جعل الملوك والرعاة كالأزهار تنعشهم الحياة، ويطفئهم الذبول حتى يؤول أمرهم للانعدام؛ ليشاركوا الحيوانات والنباتات في الفناء.

---

(١) الوَبَا: المراد الوَبَاء، وهو كل مرض شديد العدوى، سريع الانتشار من مكان إلى مكان. (م).

(٢)القَحْط: المجاعة لاحتباس المطر. (م).

قال أبو العتاهية في وَعْظِيَّة له:

هَلْ أَنْتَ مُعْتَبِرٌ بِمَنْ خَرِبَتْ ... مِنْهُ غَــدَاةَ مَضَى دَساكِرُه
وبمن أذلَّ الدَّهْــرُ مَصْرَعَهُ ... وتَبَــرَّأَتْ مِنْــهُ عَسَــاكِرُه
وبِمَنْ خَــلَتْ مِنْهُ أُسْرَتُهُ ... وبِمَنْ خلَتْ مِنْهُ مَنَابِـــرُه
أَيْنَ المُـــلُوكُ وأَيْنَ عِزُّهُمُ ... صَارُوا مَصِيرًا أَنْتَ صائِرُه
يَـــا مُؤْثِرَ الدُّنْيَا للذَّتِهِ ... والمُســتَعِدُّ لمـــن يُفَـاخِرُه
نَـلْ مَا بَدَا لك أن تَنَالَ مِنَ الدُّ ... نْيَا فَإِنَّ المــوتَ آخِــرُه

فليس الإنسان من حيثية جسمه بالنسبة لما عداه إلا مادة مُؤَلَّفَة من أجزاء منتظمة قابلة للتحويل والاستحالة من حالة إلى أخرى كما يشاؤه الملك القادر، فليست سلطنة الإنسان على الكائنات، ولا تدبيره لها في الحقيقة ونفس الأمر إلا لما خصه الله به من الصفات المعنوية التي هي أسرار الناطقية فهو واسطة من وسائط التدبير بما أودعه فيه من السر اللطيف الخبير، وهو ترجمان لسان القدرة الإلهية فتبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة في سائر الأَمْكِنَة والأوقات وقدَّرهما على الحيوان والنبات، وجعل الإنسان داخلاً في العموم وكونه أول عبد لمولاه معلوم، فهو العالم بما يدبر به العالم فيعيده كما بدا، وله صفات الكمال أزلاً وأبدًا.

فلا تأثير للإنسان فيما كان ولا يكون من حركة أو سكون فلا يقدر على تحريك كوكب من الكواكب ولا على تسكين شيء من الأرض التي يسكنها ولا على تسيير ماشٍ ولا راكب، ولا فعل له أصلاً في شيء من المواليد الحيوانية والنباتية والمعدنية، ولا في تنويع أنواعها ولا في وضع أعضائها التركيبية، بل جميع هذه الأشياء توجد وتتعاقب وتتجدد وتسكن وتتحرك بقدرة إلهية لا تستطيع أن تعارضها في ذلك القوّة البشرية، فلا يقتدر الإنسان أن يسعى في تخليد نفسه، ولا أن يمنع عنه ذات يوم الحلول في رَمْسِه(١) فبهذا كان النوع البشري بملازمته للجسمية والمادة مشاركًا للمخلوقات في الحكم الإلهي الذي خَصَّها به من التوالد والنمو والانعدام، قال بعضهم:

إذَا شُـــــورِكْتَ في أَمْرٍ بِدُونٍ ... فـــــلا يلحقْكَ عـــــارٌ أو نُفُورُ
فَفي الحيوانِ يشتركُ اضطرارًا ... أرســـــطاليسُ والكَلْبُ العَقُـــــورُ

ولما كانت بنية الإنسان بأجزائها المادية أكمل من سائر المخلوقات، وأنه مخلوق من تراب الأرض وراجع إليه، وكانت أفراده وأنواعه على حد سواء في الخلقة والبِنْيَة وإن اختلفت الألوان والطباع والسمات، كان بهذا المعنى لا يخرج عن الوحدة الخلقية وإن اختلف إقليم وجوده وقطره وأحوال أنواعه وطريقة معيشته وفطانته فهو إنسان يعني حيوانًا ناطقًا تستوي أفراده وأنواعه في الحيوانية والناطقية،

---

(١) رَمْسه: قبره. (م).

كما يشترك الفرس في أنواعه بالنسبة للحيوانية والصاهلية، وكذا سائر الحيوانات، وإنما يختلف باختلاف المكيفات حسنًا وقبحًا، شرفًا وَضِعَةً[١]، نَبَاهة وسَفَاهة مع تقارب أرباب النَّبَاهة في جميع البلاد بعضهم من بعض في الصفات الحميدة ومحاكاة الغوغاء والسفهاء بعضهم لبعض في المثالب والمعايب، فإن حكايات ملوك الدنيا وأمرائها وأشرافها وعظمائها وحكمائها تتقارب في الوسائل والمقاصد، وكذلك حكايات السُّفَهَاء والرِّعَاع من جميع البلاد يشبه فيها بعضهم بعضًا، وربما كان نفعهم في الممالك عظيمًا؛ ولذلك ورد في الحديث المرفوع أن الله ينصر هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، وكان الأحنف بن قيس يقول: أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النار والعار أَوَ لَيْسَ أنهم هم الذين يطفئون الحريق، ويستنقذون الغريق، ويسدُّون الجسور، ويبنون الثُّغُور[٢]، وقال الشافعي رضي الله عنه: لابد للفقيه من سفيه يناضل عنه ويحامي عليه، وقال الشاعر:

وإني لأَسْتَبْقِي امْرَأَ السَّوْءِ عُدَّةً   لعَدْوَةِ عِرِّيضٍ[٣] مِنَ القَوْمِ جَانبِ
أَخَافُ كِلابَ الأَبْعَدَيْنَ وهَرْشَهَا   إِذَا لمَ تجنبها كِلابُ الأَقَارِبِ

---

(١) ضعَة: انحطاط ولؤم وخِسَّة ودناءة. (م).

(٢) الثُّغُور: موضع غير محصَّن يُخشى هجوم العدو منه. (م).

(٣) عِرِّيض: مَن يتعرض كثيرًا للناس بالشر. (م).

يعني أن غوغاء كل مملكة تدفع غوغاء الأخرى؛ لأنه يستعان على الحديد بالحديد، وقد ذكر عامة البلدان واصل بن عطا فقال: ما اجتمعوا قط إلا ضَرُّوا وما تفرقوا إلا نفعوا، فقيل له: قد عرفنا مَضَرَّة الاجتماع فما منفعة الافتراق؟ فقال: يرجع الحائك إلى حياكته، والطَيَّان إلى تطيينه، والفلاح إلى فلاحته، وهكذا كل صانع إلى صنعته، وكل ذلك من مرافق المسلمين ومعاونة المحتاجين. وقال الجاحظ: كأنهم أعداد عام يعني أناسًا مستوين واحدهم في بَوَاطِنهم أشد تشابهًا من التوأمين في ظواهرهم، وكذلك هم في مقادير العقول وفي الاعتزام والسرعة وفي الأستان[1] والبلدان، فقد تشابهت قلوبهم، ألا ترى أنك لا تجد أبدًا في كل بلد وكل عصر الحاكمة إلا على مقدار وجهة واحدة من السُّخْف والخمول والغباوة، وكذلك النَّخَّاسُون على طبقاتهم من أصناف ما يبيعون ويبتاعون، وكذلك كل حَجَّام على الأرض فهو شديد الحرص وإن اختلفوا في البلدان والأجناس والأستان، وكذلك طبقات الشرف يشتركون في علو الهمة والميل إلى حفظ ناموس الأمة، والتباين بين الخواص والعوام لا يوجب التباين بين حقيقة الناطقية الجامعة للجميع في وصف الإنسانية فهي أحوال وأكوان كالصفات والألوان لا تمنع العامي والنبيه والأبيض والأسود من كونه كالآخرين إنسانًا.

(١) الأستان: اللواء. (م).

الفصل الخامس

في استواء الإنسان في أفراده وأنواعه، وعدم اعتبار ألوانه وطباعه، وفي ميله للتمدن بالطبع

لا شك أن الإنسان سواء كان ملكًا أو سُوقة، شريفًا أو مشروفًا، حضريًّا أو بدويًّا، فلاحًا أو صيادًا، حرًّا أو عبدًا، مُتَمَدِّنًا أو متخشنًا، يتناسل مع سائر أنواعه المنتشرة في الدنيا فيخرج النسل بين الأبيض والأسود، والعربي والأعجمي، والمتمدِّن والمُتَبَرْبِر، وتتناسل أمم الأقطار الحارة مع أمم الأقطار الباردة، فالأفراد المتولدة من هذا الاختلاف تتحسن أخلاقهم وطباعهم وألوانهم وأبدانهم، وتنتقل صفاتهم الأصلية عن أصلها؛ حيث تخلفها صفات التوالد بعضهم مع بعض فيحدث من ذلك أسماء أجناس الأمم وهذه الأسماء إنما تدل على تكييف الجنس المُنْقَاد لأحكام طباع الأراضي المولود بها ذلك النوع المخصوص بأحوالها وصفاتها وتسمى هذه التكيفات والتشكلات بالألوان والأجناس تسمية عرفية لأصحاب الجغرافية، فبهذا قَسَّمَ بعض العلماء ألوان الأمم وأجناسهم إلى ثلاثة أقسام؛ بعضها متميز عن الآخر، الأول: الجنس الأبيض المسمى بالقوقاسي أي الجركسي، والثاني: الجنس الأصفر المسمى بالمنغولي أي التتاري، والجنس الأسمر: المسمى بالسوداني، وبعضهم قسمها إلى خمسة أقسام، فزاد على الثلاثة

الأقسام السابقة الجنس الملباري أي الهندي، والجنس الأمريكاني، وبعضهم زاد على ذلك فأكثر الأنواع، وذكر منها الجنس العربي، والجنس الحَبَشِيّ، وهما داخلان عند من لم يزدهما في الجنس القوقاسي؛ حيث إن المعتبر إنما هو أصل البياض المقول بالتشكيك أي المختلف الحقيقة مع اعتبار تناسب الأعضاء في الحسن والوَضَاءَة، ولا شك أن العرب والحَبَش موصوفون بذلك.

وإذا أَمْعَنَّا النظر وأَنْعَمْنَا الفكر في تنظيم بِنْيَة الإنسان وتركيبه القويم وخَلْقِه في أحسن تقويم وتأملنا أوصافه الجسمية وفضائله العقلية، تبين لنا أنه مخلوق من أصل فطرته بعقله وحسه لأن يعيش بالتأنس والاجتماع مع أبناء جنسه، وأنّ قوّته البشرية تميل إلى الاحتياج إلى غيره، وأنه إذا لم يجتمع بالتأنس والعمران مع أمثاله كان أضعف من الحيوان الذي عند انفراد الإنسان يوشك هو أن يهم باغتياله ويذيقه كأس وَبَاله، فلولا ما في الإنسان من صفة الإدراك العقلية لما تَسَلْطَن على المواليد الحيوانية والنباتية والمعدنية، ولكن شرط تسلطنه على هذه الكائنات صقل إدراكه بتأنسه مع أبناء جنسه، وإلا لما أمن من اغتيال ما عداه في غَدِه وأَمْسِه، ولو لم يكن الإنسان مخلوقًا للتأنس مع إخوانه والاجتماع مع أقرانه ليصنع معهم هيئة اجتماعية وحالة عمران تمدنية لم يكن لتخصيص الحكمة الإلهية له بصفة الناطقية كبير مَزِيَّة، فقد منحه الله ﷻ قوّة الكلام وخصه بقوّة الفكر والفهم والأفهام؛ ليدرك ما في الأشياء التي حوله من المشابهة والمباينة ويعرف النسب بين الأشياء الخفية والمعاينة، وقد خصه الله ﷻ بالنفس المطمئنة

التي تسمى بالذمة ليميز بها ما يستحق المدح والمذمة وليتحقق بها ما له وعليه من الواجبات والحقوق لكل إنسان مثله، بل لكل مخلوق وكذلك ميزه بالقريحة التي هي مفتاح معالي الأمور ليأمر وينهى وهو آمر ومأمور.

فالحالة التأنسية للإنسان والاجتماعات البشرية للتحضر والعمران هي حالة فطرية للآدمي من أصل ولادته وخلقته وهي فيه جبلة وغريزة طبيعية، فبالناطقية الموجودة فيه من أصل الفطرة يمكنه إعمال قواه العقلية بإمعان الفكرة فيسعى لما فيه التمدّن والحضارة ويبذل جهده بحوز ما ينتج عن التمدن بالبراعة والمهارة؛ لأنه لو انفرد وحده ولم يتأنس بغيره ولا اكتسب لوطنه درجة العمران كان دائمًا ضعيفًا خائفًا، وعن جادة الأمن حائفًا[1]، فباجتماعه ببني جنسه واتحاد تجاريبهم وحدسهم بتجريبه وحدسه تتسع القوى العقلية المُنْضَمَّة إلى البحث عن العلوم العقلية والنقلية، فبهذا تتسلطن الأمة المتمدّنة على من سواها وتجلب لنفسها من المنافع جميع ما عند من عداها، وما دامت الجمعية التأنسية مائلة إلى الحصول على السعادة وراغبة في تحصيل الشرف والسيادة، فلا محيص لها من أن تتعاطى الأسباب وتتشبث بالاغتنام والاكتساب، فإن أهملت التمسك بحبال التمدّن والفضيلة واستغنت عنه ورضيت بالخشونة والدَّعَة عاشت مدّة عمرها ذليلة، فيجب على الإنسان أن يدع الدَّعَة التي هي في لوح فؤاده منطبعة وفي زوايا الكسل مُودَعَة.

---

(١) حَائِفًا: جائرًا مائلاً. (م).

الفصل السادس
في الكسل المُعَبَّر عنه بالدعة والسكون

هذا ولو أنّ الإنسان ناطق متفكر وقادر على إعمال فكره في الحقائق والدقائق إلا أن الدعة في كل إنسان طبيعية؛ حيث إعمال الفكر لا يخلو من التعب والنَّصَب، وقد قيل:

فَكَمْ دَعَــــةٍ أَتْعَبَتْ أَهْـلَهَا　　　وَكَمْ رَاحَةٍ نَتَجَتْ مِنْ تَعَبْ

وقال آخر:

إنّ الشّـبابَ والفراغَ والجِدَة　　　مَفْسَــدةٌ للمرءِ أيُّ مَفْسَــدةْ

فتجد الإنسان دائمًا ينجذب للراحة ويميل إليها كل الميل آناء الليل وأطراف النهار كانجذاب الأَجْرَام[1] بما فيها من الثقل إلى المركز؛ حيث عادة الأجرام سقوطها في المراكز وسكونها فيها بدون تحرّك ما لم يكن هناك في كل وقت من أوقات السقوط قوّة دافعة تبعدها عنه وتحرّكها لتدوم على الحركة، فقوّة

(١) الأَجْرَام: الأجسام التي في الفُلك مع ما فيها. (م).

الجذب وقوة الدفع اللتان في الأجرام الجوية موجودتان في الحالة الإنسانية؛ حيث إن الدعة تجذب الإنسان للسكون والارتياح، وقوّة العمل تدفعه عن مركز الدعة إلى حركة النشاط والفلاح وهاتان القوّتان متعادلتان لا ترجح إحداهما على الأخرى ولا تكون إحداهما بالخفة والثقل أحرى فهما في الإنسان على حدٍّ سواء؛ حيث اتحدت فيه هاتان القوتان إحداهما وهي محبة الدعة مسببة عن شهواته الشديدة، والثانية وهي الانهماك على العمل ناشئة عن نفوره من البطالة وإيثاره للأعمال الرشيدة، والقوّة الأولى تسمى قوّة الملاذ والشهوات فهي قوّة في الحقيقة جسمانية خدمة للجسم، قال الشاعر:

يا خادمَ الجسمِ كَمْ تسعَى لخدمتِهِ وتطلبُ الرِّبْحَ مما فيه خُسْرَانُ
عليكَ بالنفسِ فاستكملْ فضيلَتَها فأنتَ بالنَّفْسِ لا بالجِسْمِ إِنْسَانُ

والثانية: تسمى قوة الأمل والعمل، قال بعضهم: إن طلبت المورد العذب فاسلك طريق الصعب، وسِرْ سَيْرَ المجد الحازم، ولا تتكاسل في العزائم، واطلب مطالب الرجال، وإياك أن تُدعى بالبطال لعلك تجد على النار هدى، والناس في النشاط أقسام: هذا يسير وهذا يطير، فهيهات متى يلحق السائر بالطائر، وقال ابن الفارض:

وكُنْ صَارِمًا كالوَقْتِ فالمَقْتُ في عسى وإيَّاك عَلَّ فهي أَكْبَرُ علة
وسِرْ زمنًا وانهض كسيرًا فحظُّك الـ ـبَطَالَةُ ما أخّرت عزمًا لصحة

وقال آخر:

لَقَتْلَةُ مُثْخَنٍ في صفٍّ عزٍّ ولا نومُ الذَّليل على الفِرَاشِ
فمن رَضِيَ الحياةَ بحالِ ضَيْمٍ فذلك نَفسُهُ نَفسُ الفرَاشِ

وقال بعضهم: صُعود الآكَام[1] وهبوط الغيطَان خير من القعود بين الحيطان.

ومن كلام لقمان الحكيم: الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، فهاتان القوّتان متباينتان، ومستويتان في الإنسان بدون راجحية ولا مرجوحية، فحب الدعة يبعث الإنسان على أن يجر لنفسه جميع ملاذ الحواس، وأما الآمال فتبعثه على الحصول على راحة الروح وكمال التمدّن والائتناس، فالأولى تجمع في الإنسان جميع الملاذ البدنية وتسقطه في حضيض الإنسانية وتوصله إلى درجة الحيوانية:

تَزَوَّجَتِ البَطَالَةُ بالتَّواني فَأَوْلَدَهَا غُلامًا أَوْ غُلاَمَةْ
فأمَّا الابنُ لقَّبَهُ بِفَقْرٍ وَأَمَّا البِنْتُ سَمَّاهَا نَدَامَةْ

وقال آخر:

كَأَنَّ التَّوَاني زَوَّجَ العَجْزَ بنْتَهُ فَسَاقَ إليها حين زَوَّجَهَا مَهْرَا
فِرَاشًا وطِيئًا ثُمَّ قال لها اتَّكِي فلا شكَّ بعدَ الحملِ أن تَلِدِي الفَقْرَا

(١) الآكام: جمع «أكَمَة»، وهي تلٌّ صغير، أو موضع يكون أكثر ارتفاعًا مما حوله. (م).

وآمال الروح النورانية تجمع فيه جميع أنواع السلطنة العقلية وترقيه وتقربه من الدرجة الملكية الكاملة

انهضْ وسِرْ طَالِبَ المعَالي بكلِّ وادٍ وكلِّ مَهْمَهْ
وإن لَحَا[١] عَاذِلٌ جَهُولٌ فقُلْ لَهُ يا عَذُولُ مَهْ مَهْ[٢]

وهاتان اللذتان المتباينتان يظهر أثرهما في جميع البشر فترى هذا الأثر فيهم على اختلاف درجاتهم قد انبسط وانتشر فيوجدان على حدّ سواء في أفراد الملوك والرعايا، إلا أن لذة العمل منحة إلهية ولذة الدعة محنة شهوانية.

وقد عَلَّمَنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وجوه المكاسب والمنافع، وألهمنا دقائق الفنون والصنائع؛ حيث مدح السعي وذم البطالة بقوله تعالى: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ** ﴾[النجم/ ٣٩] وقال تعالى: ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ [الجمعة/ ١٠] أي اطلبوا المعاش الذي فيه قوامكم، وفضل الله هو رزقه الذي تفضل به على عباده وأباحه بالبيع والتجارات المشروعة، قال سعيد بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا انصرفت من الجمعة فخرجت من المسجد فساوم بالشيء وإن لم تشتر. انتهى. فلا خلاف في أن طلب الرزق مشروع، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اطلبُوا الرِّزقَ في خَبَايا الأرضِ» وإنما الكلام في أن التكسب

(١) لَحَا: شتم. (م).
(٢) مه: اكْفُف. (م).

بعد الطلب هل يدخل في حدّ الفرض وجوابه ما قاله الإمام الراغب من أن التكسب في الدنيا وإن كان معدودًا من المباحات من وجه فإنه من الواجبات من وجه، وذلك أنه إذا لم يكن للإنسان استقلال بالعبادة إلا بإزالة ضروريات حياته فإزالتها واجبة؛ لأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كوجوبه، وإذا لم يكن له إلى إزالة ضرورياته سبيل إلا بأخذ تعب من الناس فلابدّ أن يعوّضهم تعبًا له وإلا كان ظالمًا، فمن توسع في تناول عمل غيره في مأكله وملبسه ومسكنه وغير ذلك فلابدّ أن يعمل لهم عملاً بقدر ما يتناوله منهم وإلا كان ظالمًا لهم قصدوا إفادته أو لم يقصدوها، ومن أخذ منهم المنافع ولم يعطهم نفعًا فإنه لم يأت بأمر الله تعالى في قوله عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة/ ٢]، ولم يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [التوبة/ ٧١].

ولهذا ذُمَّ من يدعي التصوّف فيتعطل عن المكاسب ولا يكون له علم يُؤخذ عنه ولا عمل صالح في الدين يُقتدى به، بل يجعل همه في قضاء شهواته ولذاته، فإنه يأخذ منافع الناس ويضيق عليهم معاشهم ولا يرد إليهم نفعًا، فلا طائل في أمثالهم إلا أن يكدروا الماء ويغلوا الأسعار اهـ. وقال الجُنَيْد - رحمه الله تعالى: «إذا رأيت الفقير يطلب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة، والله لا يحب الرجل البطال، فإن من تعطل وتبطل فقد انسلخ عن الإنسانية وصار من جنس الموتى، وذلك أن الله خص الإنسان بالقوى؛ فالقوة الفكرية تطالبه بالعلوم التي تهديه وبالصنائع التي يترتب عليها من المكاسب والمنافع ما يرضيه ويصونه

ويحميه، فحق الإنسان أن يتأهل بقوّة فكره ويسير بقدر ما يطيقه، فيسعى لما يفيده السعادة ويتحقق أن سعيه سبب انتقاله من الذل إلى العز، ومن الفقر إلى الغنى ومن الضعة إلى الرفعة، ومن الخمول إلى النباهة، وكان النبي ﷺ يتعوّذ بالله تعالى من الكسل، وقال بعض الحكماء من تَخَلَّق بالكسل فَلْيَنْسَلّ عن سعادة الدَّارَيْن، وكان أبو مسلم الخراساني في مبادي خروجه للدعوة لبني العباس ينشد هذا البيت:

فَلاَ أُؤَخِّر شُغْلَ اليَوْمِ عَنْ كَسَلٍ　　إلى غدٍ إنَّ يـــومَ العَاجِزِينَ غَدُ

ومن كلام أزدشير بن بابك كسرى الفرس: شَهْدُ الجهد أحلى من عسل الكَسَل، يعني أن الشهد الحاصل بالجهد أحلى من الكسل الشبيه بالعسل في ميل النفس إليه والتذاذها به، وقال بعض العقلاء: راحتي في جراحة راحتي، أي بالشغل، ومن شأن البطالة أنها تبطل الهيئات الإنسانية، فإن كل هيئة بل كل عُضْو تُرِكَ استعماله يبطل كالعين إذا غمضت، واليد إذا عطلت، فإن الأعضاء خلقت لحكم في كل شيء، فإن الله سبحانه وتعالى لما جعل للحيوان قوّة التحرك لم يجد له رزقًا إلا بسعي ما منه لئلا تتعطل فائدة ما جعله له من قوّة التحرك، ولما جعل للإنسان الفكرة ترك له من كل نعمة أنعمها عليه من الأعضاء ما يصلحه حينئذ بفكرته لئلا تبطل فائدة الفكرة فيكون وجودها عبثًا.

وتأمل حال السيدة مريم - عليها السلام - وقد جعل لها من الرُّطب ما كفاها مؤنة الطلب، ولم يَحْنِ لها النخلة[1] وفيه أعظم معجزة، فإنه تعالى أمرها بهزِّها فقال: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم/ ٢٥] وقد أخذ بعضهم منه إشارة إلى أن الرزق من الله تعالى ولكنه مسبب تسببًا عاديًّا عن الطلب من العبد ومباشرة أسبابه فقال:

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ قَـالَ لمـريم ... وهُزِّي إليكِ الجِذْعَ تساقط الرُّطَبُ
ولو شاءَ أَحْنَى الجِذْعَ من غير هَزِّه ... إِلَيْهَا وَلَكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ له سَبَبُ

وعن أبي الأسود الدؤلي:

وَمَا طَلَبُ المعيشَةِ بالتَّمَنِّي ... ولكـن أَلْـقِ دَلْوَكَ فِي الدِّلاَءِ
تَجِئْك بملْئِهَا طَـوْرًا وَطَـوْرًا ... تَجِئْك بحَمْـأَةٍ وقليـلِ مـاءِ

وقد ورد في الخبر عن خير البشر أنه قال: إن الله تعالى يقول: يا عبدي حرك يدك أُنزل عليك الرزق، وكون حركة العبد من الله تعالى لا ينافي طلبها من العبد، كيف وهو مأمور بها؟ وحقيقة الأمر الطلب وحركة العبد أيضًا من الله تعالى، ولا ينبغي أن يُتوهم أن الأمر الوارد في قوله ﷺ: «توكلوا على الله» بالتوكل

---

(١) لم يَحْنِ لها النخلة: لم يجعلها تنعطف وتنحني. (م).

الذي مرجعه إلى أن يوكل الأمر كله إلى مالكه، والتعويل على وكالته يستلزم النهي عن التوسل بالكسب وأسبابه؛ لأن التوكل إسقاط الأسباب عن حَيِّز الاعتداد بها والاعتماد عليها والاستظهار بادخار الذخائر لا إسقاطها عن حيز الإمداد على الوجه المعتاد، وقد أشار ﷺ إلى أن التوكل ليس التعطيل، بل لابدّ فيه من التوسل بنوع من السبب؛ حيث قال: «لو توكَّلتم على اللهِ حقَّ التوكُّل لرُزِقْتُم كما تُرْزَق الطيرُ تَغْدُو خِمَاصًا[١] وتروح بِطَانًا»، فإن الطير ترزق بالطلب والسعي، نعم إنه لا ينبغي الإفراط في الكدّ وصرف النظر عن الاستراحة بعض الأحيان يشهد لذلك حديث: «إنّ المُنْبَتَّ[٢] لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى»، وإلى هذا أشار بعض الشعراء بقوله:

لَعَمْرُكَ ما كلُّ التعطُّل ضَائِرٌ ولا كلُّ شُغْلٍ فيه للقلبِ مَنْفَعَة

ومن جملة حسن السعي طلب تكثير التناسل والتوالد وقضاء اللذة المباحة بالتزاوج والتوالد، وهذه المزية هي خلاصة اللذة الشهوانية، فهي مزية ممدوحة، وليس عنها في بقاء النوع البشري مندوحة، ومن حكمة هذه اللذة حب الذكر والأنثى بعضهما لبعض للائتلاف والنسل والتمتع بما أحله الله تعالى، فلا شك أن بين الذكر والأنثى روابط التلذذ المباح، ويشتدّ الشوق بينهما ولو على

---

(١) خمَاصًا: جمع «خميصة» وهي ضامرة البطن من الجوع. (م).

(٢) المُنْبَتّ: الذي أتعب دابته حتى عَطِبَتْ، فبقي منقطعًا في سفره. (م).

بعد النواح، كما قال الشاعر:

يَا نَسِيمًا هَبَّ مَشْــكُورَ الرُّبَا أهدت الأشـــواقُ مسراه إليّ
وبـــريقًا لاحَ مِن نَحْـــوِهِم حاكيًا ذاك السَّنَا من ثَغرِ مَيّ
آه وا شَوْقِي إلى مَنْ قَدْ غَدَا بَصَرِي يَلْقَاهُمُ في كُلِّ شَيّ
وإذا لم يَجْتَلِيهِمْ نَاظِري أي نفعٍ لي إذًا في نَاظرَيّ
لو قطعتُ الدَّهْرَ وَصْلاً كَان لي قَدْرُ ما يثبتُ للطائرِ فيّ

فأصل الحب يولد في قلب المتحابين الانبساط والانشراح، وفي ميل أحد الزوجين للآخر كمال الارتياح، وفيما أودع الله في الأنثى والذكر من الذَّوْق والشَّوْق والتَّوْق[١] ما لا ينكر، وإن اختلفت الرجال والنساء في الفضائل والسمات والصفات والشمائل.

---

(١) التَّوْق: الشوق والميل للشيء. (م).

البابُ الثَّاني

في الصفات المشتركة بين الذكور والإناث والمخصوصة بأحد الفريقين، وفيه فصول

الفصل الأول

في اشتراك المرأة والرجل في بعض الصفات وافتراقهما في بعض آخر

من المعلوم أن فضائل الناس من حيث هم ناس إنما هي العقل والعفة والعدل والشجاعة، وهي فضائل الإنسان الحقيقية الأصولية وغيرها، كالوفاء داخل فيها فما هو داخل في جملة العقل ثقابة المعرفة[1] والحياء والبيان والصدع بالحجة والسياسة والعلم والحلم وغير ذلك مما يجري هذا المجرى ومما هو داخل في العفة القناعة وقلة الشَّرَه وطهارة الإزار وما أشبه ذلك من أقسام العفة، ومن أقسام الشجاعة الحماية والأخذ بالثار والدفاع والنكاية والمهابة والنصرة على الأقران والسير في المَهَامِه[2] والقفار وما أشبه ذلك، ومن أقسام العدل السخاء والسماحة والصبر على التغابن والانظلام والتبرع بالنائل وإجابة السائل وقِرَى الأضياف وما أشبه ذلك، وأما تركيب هذه الأقسام بعضها مع بعض فيحدث منها ستة أقسام، فإذا تركب العقل مع الشجاعة حدث عنه الصبر على المُلِمَّات ونوازل الخطوب والوفاء بالوعد، وإذا تركب العقل مع السخاء الذي هو من صفات العدل نشأ عنه إنجاز الوعد وما أشبه ذلك، وإذا تركب العقل مع العفة نشأ عنه التنزه والرغبة

(١) ثقابة المعرفة: الذكاء وسداد الرأي. (م).

(٢) المَهَامِه: جمع «مَهْمَه» وهي الصحراء، والأرض القَفْر البعيدة. (م).

عن المساكة[١] والاقتصار على ما يتيسر من المعيشة، وإذا تركبت الشجاعة مع السخاء الذي هو قسم من أقسام العدل حدث عنه الإخلاف[٢] والإتلاف وما أشبه ذلك، وإذا تركبت الشجاعة مع العفة نشأ عنهما إنكار الفواحش والغيرة على الحرم، وإذا تركب السخاء مع العفة حدث عنه الإسعاف بالقوت والإيثار على النفس وما أشبه ذلك، وكل واحد من تلك الفضائل الأربعة وسط بين طرفين مذمومين كالشجاعة مثلاً فإنها وسط بين المجازفة والجبن وهذه الفضائل من حيث هي فضائل إنسانية توجد في الرجال والنساء لكن على وجه مختلف في طباعهن.

وحيث إن هذه الصفات عامة في جميع أمم الدنيا وقبائلها وأحيائها وذكورها وإناثها، وإن الفضائل الممدوحة منها في بعض الأمم أكمل من غيرها إلا أن أمّة العرب جاهلية وإسلامًا مشهورة بها فلا ينكر أحد أن السماحة والإيثار من خواص العرب، وأعظم الإيثار مثلاً في قبيلة الأنصار الذين أنزل الله ﷻ في حقهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر/ ٩]، فمما ينقل في هذا الشأن ما وجده عبد الله بن العباس في سفره من إيثار بعض نساء الأنصار له عن نفسها وعن أولادها بشيء زهيد من القوت لم يكن عندها غيره، وذلك أن تميم بن عدي اليربوعي قال: كنت مع عبد الله بن العباس عند منصرفه

(١) المساكة: أمسك الشيء حبسه. (م).

(٢) الإخلاف: الإهلاك. (م).

من دمشق فسألته في بعض الأيام وقلت له بماذا يتم عقل الرجل؟ فقال: إذا صنع المعروف مبتدئًا به وجاد بما هو محتاج إليه، وتجاوز عن الزلة، وجازى على المكرمة، وتجنب مواطن الاعتذار، فقد تم عقله فحفظت ذلك منه وألصقته بقلبي، ثم بعد أيام نزلنا منزلاً فطلبنا طعامًا فلم نجده ولا قدرنا عليه فإن زيادًا كان قد نزل بذلك المنزل قبلنا بأيام قليلة في جمع كثير، فأتوا على ما كان فيه من الطعام فقال عبد الله لوكيله: اخرج إلى هذه البرية فلعل تجد بها راعيًا معه طعام، فمضى الوكيل، ومعه غلمان فأطالوا التوقف، فلما كادوا يرجعون لاح لهم خباء فأمّوه فوجدوا فيه عجوزًا فقالوا لها: هل عندك طعام نبتاعه منك؟ فقالت: أما طعام بيع فلا ولكن عندي أكلة لي وبأولادي إليها أمس حاجة، قالوا: وأين أولادك؟ قالت في رعيهم وهذا وقت عَوْدِهم، فقالوا: فما أعددت لهم؟ قالت: خبزة هي تحت مَلَّتها[1] أنتظر بها أن يجيئوا، قالوا لها فجودي لنا بنصفها، قالت: لا ولكن بكلها، قالوا: ولم منعت النصف وجُدْتِ بالكل ولا خبز عندك غيرها؟ قالت: إن إعطاء الشطر من خبزة نقيصة، وإعطاء الكل فضيلة، فأنا أمنع ما ينقصني وأجود بما يرفعني، فأخذوا الخبزة لفرط حاجتهم إليها فلما أتوا عبد الله أخبروه خبر العجوز، قال: ارجعوا إليها، فاحملوها في دَعَة وأحضروها، فرجعوا إليها، وقالوا لها: إن صاحبنا أحب أن يراك، قالت: ومن هو صاحبكم؟ قالوا: عبد الله بن العباس، قالت: ما أعرف هذا الاسم، قالوا: العباس بن عبد المطلب، وهو عم النبي ﷺ،

---

(١) المَلَّة: الجَمر والرماد الحار يوضع في حفرة أسفل وأعلى العجين حتى ينضج. (م).

قالت: والله هذا الشرف العالي، قومي أنصاره قالوا: نعم، قالت: فما يريد مني؟ قالوا: يريد أن يكافئك على ما كان منك، قالت: لقد أفسد الهاشمي ما أَثَّل[١] له ابن عمه عليه السلام، والله لو كان ما فعلت معروفًا لما أخذت عليه ثوابًا، وإنما هو شيء يجب على كل إنسان أن يفعله، قالوا: فإنه يحب أن يراك ويسمع كلامك قالت: أصير إليه لأني أحب أن أرى رجلاً من جناح النبي ﷺ، وعضوًا من أعضائه، فلما سارت إليه رَحَّبَ بها، وأدنى مجلسها، وقال: ممن أنت؟ قالت: من كلب بن وبرة، قال: كيف حالك؟ قالت: لم يبق من الدنيا ما يُفرح إلا وقد بلغته، وإني الآن أعيش بالقناعة، وأصون القرابة، وأنا أتوقع مفارقة الدنيا صباحًا ومساء، قال: أخبريني ما الذي أعددت لأولادك عند انصرافهم بعد أخذنا الخبزة؟ قالت أعددت لهم قول العربي:

وَلَقَدْ أَبِيتُ عَلَى الطَّوَى[٢] وأَظَلُّهُ — حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ المَأْكَلِ

فأعجبه قولها، فقال لبعض غلمانه: انطلق إلى خبائها، فإذا أقبل بَنُوها فَجِئْ بهم، فقالت للغلام: انطلق فكن بفناء البيت، فإنهم ثلاثة، فإذا رأيتهم تجد أحدهم دائم النظر نحو الأرض عليه شعار الوقار، فإذا تكلم أفصح وإذا طلب أنجح، والآخر حديد النظر، كثير الحذر، إذا وَعَدَ فَعَل، وإن ظلم قتل، والآخر كأنه شعلة نار، وكأنه يطلب بثار، فذاك الموت المائت والداء الكابت، فإذا رأيت هذه الصفة فيهم،

(١) أَثَّل: أَصَّل وثبَّت. (م).
(٢) الطَّوى: الجوع. (م).

فقل لهم عني: لا تجلسوا حتى تأتوني، فانطلق الغلام فأخبرهم الخبر، فما بعد أمده حتى جاءوا، فأدناهم عبد الله، وقال: إني لم أبعث إليكم وإلى والدتكم إلا لأصلح من أمركم، وأصنع ما يجب لكم، فقالوا: إن هذا لا يكون إلا عن مسألة أو مكافأة فعل جميل تقدم، ولم يصدر منا واحدة منها، فإن كنت أردت التكرم مبتدئًا فمعروفك مشكور وبرّك مقبول مبرور، فأمر لهم بسبعة آلاف درهم وعشرة من النوق، فقالت لهم العجوز: ليقل كل واحد منكم بيتًا من قوله، فقال الأكبر:

شَهِدْتُ عَلَيْكَ بِحُسْنِ المقالِ وصِدْقِ الفِعَالِ وطِيبِ الخَبر

فقال الأوسط:

تَبَرّعْتَ بالبَذْلِ قَبْلَ السُّؤَال فِعَال كَرِيمٍ عَظِيمِ الخَطَر

فقال الأصغر:

وحُقَّ لِمَنْ كانَ ذا فعلهُ بأنْ يَسْترِقَّ رِقابَ البَشَر

فقالت العجوز:

فَعَمَّرَكَ اللهُ مِنْ مَاجِد ووُقِيتَ مَا عِشْتَ شَرَّ القَدَر

ثم ودّعوه وانصرفوا، قال تميم اليربوعي: فالتفت إليَّ وقال لي: يا تميم وددت لو وجدت مزيدًا في ابتداء المعروف إلى هذه المرأة وبَنِيها، وجعل يتأوّه من تقصيره عن مراده في ذلك، فقلت له: لقد أحسنت وأرجحت، وقد شهد فعلك بما سبق من قولك فأنت أتم الناس عقلاً وأكملهم مروءة.

وقد خلق الله المرأة للرجل ليبلغ كل منهما من الآخر أمله، ويقتسم معه عمله، وجعل المرأة تلطف لزوجها أَتْراحه، وتضاعف أفراحه، وتحسن أمر معاشه، وتنشط حركة انتعاشه، فهي من أجمل صنع الله القدير، وقرينة الرجل في الخلقة، والمعينة له على أوّل حركات التدبير، والحافظة لأطفاله، والقائمة بأمر عياله، والمُسَلِّيَة له في أيام حياته في إقباله وغير إقباله، فالمرأة وإن كانت مخلوقة لملاذ الرجل ففيما عدا هذه الملاذ مثله سواء بسواء، أعضاؤها كأعضائه، وحاجتها كحاجته، وحواسها الظاهرة والباطنة كحواسه، وصفاتها كصفاته، حتى كادت أن تنتظم الأنثى في سلك الرجال، أو ليس أن ناسوت الرجل والمرأة في الخلقة على حدّ سواء، وهيكلهما مستوفي الترتيب والتنظيم وتناسب الحركات والأعضاء، ومشابهتهما في الشكل معلومة، وفي الهيئة مفهومة، فإذا أمعن العاقل النظر الدقيق في هيئة الرجل والمرأة في أي وجه كان من الوجوه وفي أي نسبة من النِّسَب لم يجد إلا فرقًا يسيرًا يظهر في الذكورة والأنوثة وما يتعلق بهما فالذكورة والأنوثة هما موضع التباين والتضاد.

وإنما يشق عمل المقايسة بين الذكر والأنثى على من لم يعلم تركيب أعضاء كل منهما وتمييز ما يخص جنسيهما ولا مما يشتركان فيه من الصفات التي لا تعلق لها بالجنسية، فإن جميع متعلقات الذكورة والأنوثة متباينة، وأما الاشتراك فهو وجه المشاكلة، ولكل من المباينة والاشتراك تأثير لزومي على صفاتهما المعنوية ومنها تنتج الأفضلية بالنظر للمشاركة أو المباينة.

ثم إن للمرأة بقطع النظر عن تباين الجنس صفات أخرى تتميز بها عن الرجل، وإن كانت أغلبية، فإن قامتها في الغالب دون قامة الرجل، وخاصرتها أنحف من خاصرته، وأرشق منها، ورأسها بالنسبة لبدنها أقل حجمًا من رأسه بالنسبة لبدنه، وسعة صدرها دون سعة صدره، وبدنها أشدّ بريقًا من بدنه، وأنعم، وأنور، وفيها من اللين واللطف والرخاوة ما ليس فيه، وكتفاها وثدياها وجميع أعضائها على العموم تلين وتنعطف وفيها استدارة جميلة، وبالجملة فالمرأة ألطف شكلاً من الرجل.

فهذه الصفات مميزات جنس الأنثى عند غالب الأمم لاسيما عند أمم الأقاليم المعتدلة التي ليست شديدة الحرارة والبرودة، فالرجل يدرك من أوّل وهلة من المرأة التي تشاركه في ملاذه وتدبير معايشه تلطفها وانعطاف حركاتها ومَيْسِها[1] وميلها واعتدالها ونظرها إليه بألحاظ لطيفة وإشارات خفيفة نظرًا

(١) ميسها: المَيْس: التبختر والاختيال. (م).

مخصوصًا، وإذا تكلمت أدرك من صوتها نغمًا أرق من صوت الرجال رخيمًا مع ما في المرأة عند الخطاب من الخفر والتِّيهِ والدلال ورِقَّة الحاشية، قال بعضهم:

ترى الدُّرَّ مَنْظُومًا إذا ما تَكَلَّمَتْ وكالدُّرِّ منظومًا إذا لم تَكَلَّمِ
تُعَبِّدُ أَحْـــرَارَ القـلوبِ بِدَلِّهَا وتملأُ عينَ الناظـــرِ الْمُتَوَسِّمِ

وقال آخر:

فمِنْ لؤلؤٍ تَجْلُوهُ عندَ ابتســامها ومِنْ لُؤْلُؤٍ عِنْدَ الحَدِيثِ تُسَاقِطُهْ

وكل هذا مصحوب منها بنوع من الضعف والتذلل والانكسار يؤذن بوجوب الرفق بها والحنان والعطف عليها، فيا حبذا هذه المزايا كما قال الشاعر:

لَوْلا عَجَــائِبُ صُنْعِ اللهِ مَا ثَبَتَتْ تِلْكَ الفَضَائِلُ في لَحْمٍ ولا عَصَبِ

وقد استبان من العادة أن المرأة تصل إلى درجة استكمال الأنوثة والبلوغ فيها قبل الرجل، وتستكمل درجة النموّ في زمن أقل مما ينمو فيه الرجل، ففي سن العشرين تحوز المرأة جميع ما يكون به بهاء جمالها ورشاقة قَدِّها واعتدالها، وفي هذا السن تبلغ المرأة جميع مناها مما يختص به جنسها، ولما كانت الأنثى تحفظ مدّة طويلة استدارة أعضائها واندماجها من حال صغرها، كانت في غالب الأحيان تبقى أيضًا مدّة طويلة على جمالها ولطافة شكلها ولين عروقها وأعصابها، حافظة

لكل ما يعطي لبشرتها اللين واللون والبريق من كل ما يميزها عن الرجل، ولكن مجموع عضلاتها قليل الانبساط والتمدّد، فبهذا لم تكن مستعدّة لأن تشترك مع الرجل في الأشغال الشاقة كالحرث والحرب والركض والخَبّ[١]، وأما من حيث قوّة أعصابها فهي دقيقة الحواس، سريعة الإحساس، وبدقة حواسها القوية التأثير السريعة الانفعال لا تطول مدّة الإحساس عندها ولا تمكث كإحساس الرجل؛ لأن تواتر المحسوسات على الحواس القوية التأثير يمحو بعضه بعضًا.

وأما وجود الدم في المرأة فليس قويًّا كما في الرجال، فلهذا قل أن يوجد في النساء البنية الصفراوية، ولما كان النساء مقصورات على الشفقة والرحمة والعطف والحنان والرفق واللين كنّ غالبًا مستعدات للتنزه عن العوائد الخشنية والأخلاق الغليظة والصفات المذمومة المجتمعة في أمزجة الرجال كالغضب والحقد والبغضاء والشقاق، وإنما أعظم ما فيهن الغيرة التي لا تكاد تخلو منها واحدة وقد يشترك معهنّ في الغيرة الرجال، والغيرة على العرض ممدوحة، ففي الحديث «الغَيْرَةُ من الإيمَانِ» أورده أبو سعيد الخدري مرفوعًا؛ ولذا قيل: من لا غيرة له لا دين له ولا مروءة، ولا يتأهل بشيء من أنواع الكمال بوجه من الوجوه، لكن الإفراط فيها بغلبة القوّة الغضبية والتفريط فيها بانعدامها أو ضعفها مذموم جدًّا، قال بعضهم ممن لا يغار على محبوبه:

---

(١) الخَبّ: نوع من العَدْو. (م).

يُطَالِبُنِي فِي حُبِّه كُــلُّ مَاجِـدٍ ... يُشاركني في مُهْجَتِي بنَصِيب
فلا تُلزمـــوني غَيْرَةً ما أَلِفْتُهَا ... فإنَّ حَبِيبِي من أَحَــبَّ حبيبي

والظاهر أن مثله ليس من ذوي المحبة الصادقة؛ لأن المحب غيور، وأين هذا المحب من مجنون ليلى؛ حيث يقول:

أَغَارُ على لَيْـلَى لأني أُحِبُّهـا ... أغارُ على شيءٍ يَعِزُّ على قَلْبِي

ومن غيرة يزيد بن الأصفر حيث يقول:

أغارُ على أَعْطَـافِهَا من ثِيَابِهَا ... إذا لَبِسَتْهَا فــوقَ جِسْمٍ مُنَعَّم

وقول الآخر:

أغارُ إذا آنَسْـــتُ في الحَيِّ أَنَّةً ... حِــذَارًا وَخَوْفًا أَنْ تَكُونَ لِحُبِّه

وقول الآخر:

أغارُ عليكَ مِنْ نَظَرِي وَمِنِّي ... ومِنْكَ ومِنْ مَكَانِكَ والزَّمَــانِ
وَلَوْ أَنِّي خَبَأْتُكَ فِي جُفُونِي ... إلى يوم القِيَامَةِ مَا كَفَـــانِي

---

(١) يستحيل: يتحول ويتغير. (م).

(٢) جُبِلْنَ: جُبِلَ: فُطِرَ وطُبع على الشيء. (م).

وفي الحديث أن الله كتب الغيرة على النساء أي جعلها طبيعة في قلوبهنّ، فالغيرة غريزة قوية مركوزة في نفوسهن ويقابلها من المحاسن قوّة حبهن للوالدين والأولاد والأزواج، وفي الغالب أن قوّة الغيرة كقوّة ذلك الحب تبلغ منهن إلى أقصى الدرجات حتى يستحيل(١) كلّ من هاتين القوّتين فيهن مع ما جُبِلْنَ(٢) عليه من الجبن إلى شجاعة الرجال وحماسة الأبطال، وبالجملة، فَبِنيَة النساء على هذا النظام توجب كونهن ألطف من الرجال طبعًا، وأرقّ حاشية، وإنما يعتريهن التغيير والتبديل من أمور أجنبية تطرأ عليهن من مزاج القطر ومن التربية ومن أحوال المعيشة ومن التروّضات والاعتيادات، ومع هذا كله فطباعهن في القوّة والعنفوان دون طباع الرجال.

وفي مبدأ شبوبية الذكور والإناث يتراءى أنهما يشتركان في الصفات الخارجة كالحسن والجمال واللطافة والظرافة من كلّ ما يجذب الإنسان للمحبة والميل إلى الطرفين، ولكن هذه المشاكلة الظاهرية تكون وقتية تنمحي عندما يبلغ كلّ منهما سنًّا يبدو منه ما أعدّه المولى ﷻ لكل من الذكر أو الأنثى من الاستعداد الحقيقي والمعنى الصحيح الذي خُلِقَ كلٌّ منهما لأجله، فينقطع عرق التشابه والتشاكل بين الذكر والأنثى بالكبر، ويرجع كلّ منهما لأن يتميز بصفاته الشخصية ويتباين بالكلية في السمات والأوصاف ويصير حال كل منهما على طرفي نقيض مع كمال الاختلاف فيختلف ذوقهما ويميل كلٌّ إلى ما خُلِقَ لأجله؛ فينتهي أمر الذكر عما قريب بفقد الشكل الأوّل الذي كان يتراءى اشتراكه فيه

مع الأنثى من نحو الوَسَامَة والوَضَاءَة؛ ولذلك قال بعضهم فيمن ذهبت وضاءته بالسِّنّ:

كَانَ بَدْرًا وَكَانَ قَلْبِيَ أُفْقًا ومَلِيكًا ولا أُخَالِفُ أَمْرَه
فَاعْتَرَاهُ الكُسُوفُ والملك وَلى عَظَّم اللهُ في المَحَاسِنِ أَجْرَه

وقال آخر ممن كان عنده من الملاحة نصيب فغيره الزمان يخاطب محبوبه المنظوم في سلك الحسان:

تَتِيهُ عَلَيْنَا مُذْ رُزِقْتَ مَلاحَةً رُوَيْدَك يَكْفِي بَعْضُ صَدِّك يَا بَدْرُ
فَيَا طَالَمَا كُنَّا مِلاحًا وطَالَمَا صَدَدْنَا وتهْنَا ثُمَّ غَيَّرَنَا الدَّهْرُ

وأما الأنثى فإنها تستمر على نموّ بدنها ونضارته وانضمام بعض أعضائها إلى بعض مع التحسين المتزايد على وجه يبهر العقول ويسحر الألباب، فلا تزال أشكال أعضائها آية في النضارة والجمال والحسن والاعتدال بما تقتضيه طبيعة الأنوثة من استكمال الصفات الذاتية التي خَصَّتْها بها الحكمة الإلهية؛ حيث أودعت فيها من أصل الفطرة صفة جاذبية.

ومما يوجد في الأنثى قوّة الصفات العقلية وحدة الإحساس والإدراك على وجه قوي قويم، وذلك ناشئ عن نسيج بِنْيَتِهَا الضعيفة، فترى قوّة إحساس المرأة وزيادة إدراكها تظهر في الأشياء التي يظهر ببادئ الرأي أنها أجنبية عنها، وأنها

فوق طاقة فهمها، فتجدها على أكمل درجات الإدراك من كل ما يوافق ذوقها وملاذها، وما يليق بها وتميل إليه طباعها، فلا يفوتها إدراك ذلك، ولا يَعْزُب[١] عن علمها وفهمها منه مثقال ذرة.

وأما الرجل فلا يكاد أن يدرك ما تميل إليه طباع المرأة ويوافق ذوقياتها إلا بممارسة جسمية وتجاريب عديدة، فهو جدير بأن يتلقى ذوق الملاذّ والتنعمات عنها، فهنّ أساتيذ الرجال في هذا المعنى، ففن المؤانسة والمجانسة المعتاد في مجامع الأنس والسرور والتأنُّس البشري واللياقات الدقيقة هو طَوْعُ أذنها، تفهم جزئياته بأدنى إشارة، وأخصر عبارة، مما لا يكاد يدركه الرجل إلا بصريح العبارة، ويصعب عليه أن يفهمه غالبًا على حقيقته، وسبب ذلك أنّ ميل النساء بالطبع إلى ما يوافق ذوقهن وقوّة مزاجهن يسهل عليهن الفهم ويجعلهن في ذلك أرقى من الرجال أرباب العقول، فلهذا كانت التربية الأوّلية للأبناء مخصوصة بهن حتى إن ما يشتهر به فحول الرجال والأبطال من العز والفخار وشرف النفس والاعتبار هو في الأصل مكتسب من تربية رَبَّات الحِجَال[٢] لاسيما جلب رقة المجالس الأنسية ومسامرة الجمعيات التأنسية.

فعقل النساء الغريزي وسهولة إدراكهن مما يلطف الجمعيات الائتناسية، وعقولهن القوية الإدراك تسدّ بعض الأحيان مسدّ المعارف التي تجهلها النساء،

(١) يَعْزُب: يبعد ويغيب (م).

(٢) رَبّات الحِجَال: الحجال هي الخلاخيل التي تُلبس في الرِّجلين، والمقصود النساء. (م).

فإذا كانت الأنثى مع عقلها الغريزي ذات معارف كافية وظرائف شافية زادها عقلها كمالاً على ما تعرفه، وبما فيها من الذكاء تدرك حقائق الإشارات، ودقائق الكنايات، ورقائق التوجيهات والتلميحات، وتؤوّل المعنى الذي تسمعه بأحسن التأويلات والتَّوْرِيات، وتقتدر على التلميح والتعريض والتورية في الخطابات والمحاورات.

وليس ذكاؤهن مقصورًا على أمور المحبة والوداد، بل يمتدّ على إدراك أقصى مراد، وقصة مُهَلْهِل أقوى دليل، وذلك أن مُهَلْهِلاً أخا كليب لما قتل أخوه كليب شَمَّر في أخذ ثأره، وقامت حرب البَسُوس أربعين سنة، ثم إنه نزل على بني مَذْحِج فأجاروه من بكر بن وائل، وكان الذي أجاره معاوية الخير، فلما أن قام فيهم اشترى عَبْدَيْن يغزوان معه، فلما طال عليهما أمره أحبَّا الراحة منه، فأجمعا على قتله، فقال لهما: إن كنتما فاعِلَيْن فأبلغا عني هذه الرسالة إلى أهلي، فقالا: هات رسالتك، فقال:

مَنْ مُبْلغٌ عَنِّي بِأَنَّ مُهَلْهِلاً ... للهِ دَرُّكُمَا ودَرُّ أَبِيكُمَا

فلما قتلاه وانصرفا، قالوا لهما: ما فعل سيدكما؟ قالا مات بأرض كذا فدفناه بها لأرض سمياها، فقيل لهما: هل أوصى بشيء حين مات؟ قالا: أوصانا بكيت وكيت، وأنشدا البيت فلم يدر أحد ما أراد، وقالوا ما هذا بشعر مهلهل، فقالت ابنته: ما كان أبي رديء الشعر، ولا سفاف الكلام، وإنما أراد أن يخبركم

بأن العبدين قتلاه، فقيل لها من أين لك هذا قالت قال:

مَنْ مُبْـلغٌ عَـــنِّي بِأَنَّ مُهَلْهِـلاً أَضْحَى قَتِيلاً بِالفَلاةِ مُجَنْدَلاَ
لله دَرُّكُمَـــــا وَدَرُّ أَبيكُــــمَا لا يَبْرَحُ العَـــبْدَانِ حتَّى يُقْتَلا

فقُرِّر العبدان، فأَقَرَّا؛ فقُتِلا به، فبتكميلها البيتين بالشطرين صح أنها سِرُّ أبيها، ولو كانت ذكرًا نبيهًا ربما كان يقصر جهده عن ذلك تنبيهًا.

ونظير ذلك ما يحكى أن امرأة من نساء بغداد جازت بمحل بين الرصافة والجسر، فمرت برجل، فقال لها: رحم الله علي بن الجهم، فأجابته رحم الله المعري، ثم تركته وانصرفت، ولم يدر من سمع ذلك ما أراد كل منهما بذلك فكانت إشارته إلى قول علي بن الجهم:

عيونُ المَهَا بينَ الرصـافَةِ والجِسْرِ جَلَبْنَ الهوَى من حيثُ أَدْرِي وَلا تَدْرِي

وكانت إشارتها في الردّ عليه إلى قول أبي العلاء المعري:

فيـــا دَارَهَا بالخَيْفِ إنَّ مَزَارَها قَرِيبٌ وَلَكِنْ دُونَ ذَلِكَ أَهْوَالُ

وقد يخطر للبنات المغاني الرقيقة الموافقة لمقتضى الأحوال موافقة غريبة كما يحكى أن بنتًا من بنات اليمن كان لها أخ يسمى ضياء، فقاتل في هذه الأزمان القريبة العهد في معركة بمحل يقال له العيون فقُتل هناك فَنَعَتْه أخته ببيتين في غاية الحماس والرقة؛ حيث قالت:

طاحَ في مَعْرَكِ العُيُونِ ضِيَاهَا فبكتْ فَقْدَهُ بدمعٍ هَتُونِ
لم يكنْ عاشقًا وَلَكِنْ تَقِيًّا فَلِمَاذَا غَدَا قَتِيلَ العُيُونِ

فهذا هو السحر الحلال الصادر عن رَبَّةِ الحِجَال، ومن ذلك ما يحكى عن المُتَلَمِّس الشاعر أنه غاب خائفًا من بني النعمان بن المنذر غيبة طويلة؛ لأنه كان هَجَاهُم فأُشيع موته، وكانت زوجته أميمة جميلة، فأشار عليها أهلها بالزواج، فأَبَتْ فَأَلَحُّوا عليها حتى زوّجوها رجلاً من قومها، وكانت تحب المتلَمِّس، فلما كانت ليلة زفافها قدم المتلَمِّس ليلاً فسمع في الحي صوت طبل وهمرجة[١] فرح، فسأل عن ذلك فقيل له إن فلانة زوجة المتلَمِّس زُوِّجَتْ من غيره، وها هو داخل عليها، فتحَيَّل المتلَمِّس حتى دخل في جملة النساء وهي على منصتها، فلما رقي العريس إليها ليستلمها تنفست الصعداء وقالت:

ألا ليتَ شِعْرِي وَالحَوادِثُ جَمَّةٌ بأيِّ بِـــلادٍ أَنْتَ يَا مُتَلَـمِّـــسُ

فأجابها:

بِأَقْرَبِ دَارٍ يا أُمَيْمَةُ فَاعْلَمي وَمَازِلْتُ مُشْتَاقًا إِذَا الرَّكْبُ عَرَّسُوا

ففطن العريس فنهض خارجًا وقال:

فكُونَا بخـــيرٍ ثُمَّ بيتَا بِمِثْلِهِ خَلا لَكُمَا بيتٌ كريمٌ ومَجْلِسُ

---

(١) همرجة: اختلاط والتباس. (م).

ومن ذلك ما يحكى من تحاكم أبي الأسود الدؤلي وزوجته إلى القاضي شريح؛ حيث قالت في مجلس المحاكمة: أيها القاضي، إني حملته تسعًا ووضعته دفعًا وأرضعته شَفْعًا[١]، حتى إذا تمَّتْ أَوْصَالُه وَدَنَا فِصَالُه[٢] أراد أن يأخذه كرهًا، ويتركني بعده وَرَهًا[٣]، فقال أبو الأسود: إني حملته قبل أن تحمليه ووضعته قبل أن تضعيه، فقالت: حملتَه خَفًّا وحملتُه ثقلاً، ووضعتَه شهوة، ووضعتُه كرهًا. إن بطني كانت له حواء، وثديي سقاء، ويدي وِقَاء، ورِجْلي حِذَاء، فقال: أيها القاضي إنما أعطيتها مهرًا كاملاً ولم أُصب منها طائلاً إلا وليدًا خاملاً، فافعل ما رأيت فاعلاً، فقضى لها القاضي عليه.

وقد اجتمع في كل من حُمْران الجعدي وزوجته صَدُوف حسن الإدراك وكمال الأدب في الدقائق المعنوية، وذلك أن حمران كان رجلاً لَسِنًا ماردًا، وأنه خطب صدوف وهي امرأة كانت تؤيد الكلام وتسجع في المنطق وكانت ذات مال كثير، وقد أتاها قوم كثير يخطبونها فردّتهم، وكانت تعنِّت خطابها في المسألة، وتقول لا أتزوّج إلا من يعلم ما أسأله عنه ويجيبني بكلام على حدّه لا يعدوه، فلما انتهى إليها حمران قام قائمًا لا يجلس، وكان لا يأتيها خاطب إلا جلس قبل إذنها، فقالت: ما يمنعك من الجلوس؟ قال: حتى يؤذن لي، قالت: وهل عليك أمير؟ قال: رب المنزل أحق بفنائه، ورب الماء أحق بسقائه، وكل له ما في

(١) شفعًا: زَوْجًا والمقصود عامين. (م).

(٢) فصالُهُ: فطامه. (م).

(٣) الوَرَه: الحُمْقُ والخَرَق. (م)

وعائه، فقالت: اجلس، فجلس، قالت له: ما أردت؟ قال: حاجة ولم آتك لِحَاجَة، قالت: تُسِرُّها أم تعلنها؟ قال: تُسَرُّ وتُعلن، قالت: فما حاجتك؟ قال: قضاؤها هَيِّن، وأمرها بَيِّن؛ وأنتِ بها أخبر وَبِنُجْحِها أبصر، قالت: فأخبرني بها، قال: قد عرّضتُ وإن شئتِ بينت قالت: من أنت؟ قال: أنا بشر ولدت صغيرًا ونشأت كبيرًا ورأيت كثيرًا قالت: فما اسمك؟ قال: من شاء أحدث اسمًا، وقال ظلمًا، ولم يكن الاسم عليه حتمًا قالت: فمن أبوك؟ قال والدي الذي ولدني ووالده جدّي فلم يعش بعدي، قالت: فما مالك؟ قال: بعضه ورثته وأكثره اكتسبته، قالت: فمن أنت؟ قال: من بشر كثير عدده معروف ولده قليل صُعُده يفنيه أبده قالت: ما وَرَّثَكَ أبوك عن أوّليه؟ قال: حسن الهمم، قالت: فأين تنزل؟ قال: على بساط واسع في بلد شاسع قريبه بعيد وبعيده قريب، قالت: فمن قومك؟ قال الذين أنتمي إليهم وأجني عليهم وولدت لديهم، قالت: فهل لك امرأة؟ قال: لو كانت لي لم أطلب غيرها ولم أضيع خيرها، قالت: كأنك ليست لك حاجة، قال: لو لم تكن لي حاجة لم أنِخْ ببابك ولم أتعرض لجوابك وأتعلق بأسبابك، قالت: إنك لحُمْران بن الأقرع الجعدي، قال: إن ذلك ليقال؛ فزوّجته نفسها، وفوّضت إليه أمرها، ثم إنها ولدت له غلامًا فسماه عَمْرًا، فنشأ ماردًا مفوّهًا.

ومن ذلك حكاية العَجْفاء بنت علقمة السعدي، وذلك أنها وثلاث نسوة من قومها خرجن يطلبن روضة يتحدثن فيها، فوافين بها ليلاً في قمر زاهر وليلة طلقة ساكنة وروضة مُعْشِبَة خصبة، فلما جلسن وقلن: ما رأينا كالليلة ليلة ولا

كهذه الروضة روضة أطيب ريحًا ولا أَنْضَر، ثم أَفَضْنَ في الحديث فقلن: أيّ النساء أفضل؟ قالت إحداهن: الخَرُود الوَدُود الوَلُود[١]، قالت الأخرى: خيرهن ذات الغَنَاء[٢] وطِيب الثَّنَاء وشِدَّة الحَيَاء، قالت الثالثة: خيرهن السَّمُوع الجَمُوع النَّفُوع غير المَنُوع، قالت الرابعة: خيرهن التي لأهلها جامعة الوَادِعة الرَّافِعُة لا الوَاضِعَة[٣]، قلن: فأيّ الرجال أفضل؟ قالت إحداهن: خيرهم الحظي الرضي غير الحظال (الحظال المقتر الذي يحاسب أهله بما ينفق عليهم) ولا التبَّال[٤]، قالت الثانية: خيرهم السيد الكريم ذو الحَسَب الصميم والمجد القديم، قالت الثالثة: خيرهم السَّخِيّ الوَفِيّ الرَّضِيّ الذي لا يغير الحُرَّة ولا يتخذ الضُّرَّة، قالت الرابعة: وأبيكن إن في أبي لنعتكن كرم الأخلاق والصدق عند التلاق والفَلْج عند السباق (الفلج بسكون اللام الظفر) ويحمده أهل الرِّفاق، قالت العجفاء عند ذلك: كل فتاة بأبيها معجبة.

وفي بعض الروايات أن إحداهن قالت إن أبي يكرم الجار ويعظم النار (أي نار القِرَى)[٥] ويَنْحَر العِشَار بعد الحوار[٦] ويحمل الأمور الكبار، فقالت الثانية: إن

(١) الخَرُود الوَدُود الوَلُود: الخرود من النساء: البكر الحيِيَّة التي لم تُمسس قط، الودود: كثيرة الحُبِّ، الولود: كثيرة الأولاد بالنظر للمتزوجات من أهلها. (م).

(٢) الغَنَاء: كثرة المال والثروة. (م).

(٣) الوَادِعة الرَّافِعَة لا الواضعَة: المراد المرأة اللطيفة التي ترفع من شأن زوجها ولا تحطّ منه. (م).

(٤) التبَّال: كثير العداوة. (م).

(٥) القِرَى: الضيافة والإكرام. (م).

(٦) الحوار: ولد الناقة الصغير. (م).

أبي عظيم الخطر منيع الوزر[١] عزيز النفر[٢] يحمد منه الورد والصدر[٣]، فقالت الثالثة: إن أبي صَدُوق اللسان كثير الأعوان يروّي السِّنان[٤] عند الطِّعَان[٥]، قالت الرابعة: إن أبي كريم النِّزَال مَنِيف المقال كثير النَّوَال قليل السؤال كريم الفعال. ثم تَنَافَرْنَ إلى كاهِنَة معهن في الحيّ فقلن لها: اسمعي ما قلنا واحكمي بيننا واعدلي، ثم أَعَدْنَ عليها قولهن، فقالت لهن: كل واحدة منكن مَارِدَة على الإحسان جاهدة لصواحباتها حَاسِدَة، ولكن اسمعن قولي: خير النساء المُبْقِية على بعلها الصابرة على الضَّرَّاء مخافة أن ترجع مطلقة إلى أهلها فهي تُوثِر حَظَّ زوجها على حَظِّ نفسها، فتلك الكريمة الكاملة، وخير الرجال الجَوَاد البَطَل القليل الفشل، إذا سأله الرجل ألفاه[٦] قليل العلل كثير النَّفل (أي العطاء والهبة)، ثم قالت: كل واحدة منهن بأبيها معجبة فأرسلته مثلاً. وأحسن وصف في الأزواج وفي أحوالهن ما ذكره الترمذي في الشمائل في باب السَّمَر من حديث أم زرع الآتي وهو عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - قالت: جلس إحدى عشرة امرأة تعاهدن

---

(١) الوَزَرُ: الجبل الذي يُعتصم به ليُنجي من الهلاك. (م).

(٢) عزيز النفر: عزيز القوم. (م).

(٣) الورد والصَّدَر: الصَّدر مقدم الشيء وأوله، والوِرد خلافه. (م).

(٤) السِّنَان: نصل الرمح. (م).

(٥) الطِّعَان: الضرب بالرمح غرض القتل. (م).

(٦) أَلفَاهُ: وَجَدَه. (م).

(تفسير الغريب من حديث أم زرع واسمها عاتكة وهي من النساء الإحدى عشرة)

وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئًا قالت الأولى[١]: زوجي لحم جمل غَثّ على رأس جبل وعر لا سهل فَيُرْتَقَى ولا سمين فينتَقَل. قالت الثانية[٢]: زوجي لا أَبُثُّ خبره إني أخاف أن لا أَذَرَه إن أذكره أذكر عُجَرَه وبُجَرَه. قالت الثالثة[٣]: زوجي العَشَنَّق إن أنطق أُطَلَّق، وإن أَسْكُت أُعَلَّق. قالت الرابعة[٤]: زوجي كَلَيْلِ تهامة لا حر ولا قَرّ ولا مخافة ولا سآمة. قالت الخامسة[٥]: زوجي إن دخل فَهِدَ، وإن خرج أَسِدَ، ولا يسأل عما عَهِد. قالت السادسة[٦]: زوجي إن

---

(١) فأما قول الأولى لحم جمل غث بفتح المعجمة وتشديد المثلثة أي هزيل، والمقصود المبالغة في قلة نفعه على رأس جبل وعر أي يصعب وصولها إليه، لا ينفعها في عشرة؛ لأنه سيئ الخلق مكروه متكبر، وبينت وجه الشبه بقولها لا سهل فيرتقى أي يصعد إليه، ولا سمين فينتقل أي يرغب الناس عن نقله لهزاله مع صعوبة الوصول إليه، فلا مصلحة في عشرته لها.

(٢) وقول الثانية إني أخاف أن لا أذره، الضمير إما للخبر ومعناه أنه طويل، وأذره حينئذ بمعنى أتمه، وإما للزوج، وتكون لا زائدة على حدّ ما منعك أن لا تسجد، وأذر بمعنى أترك. أرادت الطلاق، وعجره وبجره بوزن هُبَل أرادت عيوبه.

(٣) وقول الثالثة زوجي العَشَنَّق بمفتوحتين ثم نون مشدّدة وقاف هو الطويل النحيف أو السيئ الخلق، وأعلق أي يصيرني معلقة لا بعل لي يراعي حالي ولا أتوقع أن أتزوج.

(٤) وقول الرابعة كليل تهامة إلى آخره تريد أنه حسن الأخلاق سهل الأمر كامل معتدل، والقرّ بفتح القاف البرد، ولا مخافة ولا سآمة أي ليس فيه شر يخاف ولا خلق يوجب الملل من صحبته.

(٥) وقول الخامسة فَهِد تريد أنه يتغافل كرمًا وحلمًا وهو فَعِل من باب فَرِح أي أشبه الفهد في كثرة نومه، وأَسِدَ من باب طرب صار كالأسد، ولا يسأل عما عهد تريد أنه كريم الطبع بعيد الهمة حسن العشرة لين الجانب في بيته لا يتفقد شيئًا من أحوال منزله.

(٦) وقول السادسة لف أي خلط في أنواع الطعام، فالمعنى يمنع حق العيال ويؤثر أكل الطعام بالاستقلال، وكذلك قولها اشتف معناه على الذم؛ يشرب الشربة وحده ولا يترك منها لعياله؛ إذ الشُّفافة بضم الشين المعجمة بقية الماء في قرار الإناء، يقال لمن شربها اشتفها والتف أي في ثيابه تريد نام في عزلة منها، ولا يولج الكف ليعلم البث أي الحزن، تريد أنه لا شفقة له، فإذا وجدها عليلة لم تمس يده جسمها ليعلم ما بها.

أكل لَفَّ، وإن شرب اشْتَفَّ، وإن اضطجع التَفَّ، ولا يُولج الكَفّ ليعلم البَثّ. قالت السابعة[١]: زوجي عياياء أو غياياء طباقاء كل داء له داء شَجَّكِ أو فَلَّكِ أو جَمَعَ كُلاًّ لكِ. قالت الثامنة[٢]: زوجي المَسّ مَسُّ أرنب والرِّيح رِيحُ زَرْنَب. قالت التاسعة[٣]: زوجي رفيع العِمَاد عظيم الرَّماد طويل النَّجَاد قريب البيت من النَّاد. قالت العاشرة[٤]: زوجي مالك، وما مالك؟! مالك خير من ذلك؛ له إبل كثيرات المَبَارِك قليلات المسارِح، إذا سَمِعْنَ صَوْتَ المِزْهَر أَيْقَنَّ أنهن هَوَالِك. قالت الحادية

---

(١) وقول السابعة عياياء بمهملة مفتوحة وتحتيتين، العاجز عن إحكام، أمره وقوله، أو غياياء أو للشك بالغين المعجمة بمعنى ما قبله، وطباقاء بفتح أوّله ممدودًا الأحمق، وكل داء له داء، تريد أن أدواء الناس المشتتة فيهم مجموعة فيه، وشجك أو فلك، الشج الجرح والفَلّ الكسر تريد أنه ما ضرب إلا جرح أو كسر، والخطاب في الفعلين لنفسها، أو جمع كُلاً لكِ أي كلاً من الشج والفَل، تعني أنه تارة يجرح فقط أو يكسر فقط أو يجمع بين الأمرين معًا.

(٢) وقول الثامنة المس مس أرنب، أي ناعم الجسد، والريح ريح زرنب، تريد أنه طيب الرائحة كهذا النبات حسًّا أو معنى.

(٣) وقول التاسعة زوجي رفيع العماد، أي عالي الحسب شريف النسب، عظيم الرماد أي كريم جواد، طويل النجاد أرادت طول القامة الذي يستلزم طول النجاد، تريد وصفه بالشجاعة كما وصفته بالكرم، وقولها قريب البيت من الناد تريد وصفه بالرئاسة على غيره؛ لأن الحاكم لا يكون المجمع والنادي للقوم إلا قريبًا منه، ويحتمل غير ذلك.

(٤) وقول العاشرة مالك، وما مالك؟! هو اسم زوجها والاستفهام للتعظيم، وقولها مالك خير من ذلك أي كل زوج سبق ذكره أو زوج التاسعة أو هو ما ستذكره هي بعد أي خير من ذلك الذي أقول في حقه، وقولها كثيرات المبارك أي لا تسرح إلا قليلاً لاحتياج الضِّيفَان لها، والمِزْهَر عود الغناء الذي يُضرب به في بيت زوجها تحية للضِيْفَانِ.

عشرة[(١)]: زوجي أبو زرع فما أبو زرع؟! أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أذنيَّ، ومَلأَ من شَحْمٍ

---

(١) وقول الحادية عشرة وهي أم زرع المسمى بكنيتها هذا الحديث أَنَاس بوزن أقام أي حرّك، والحليّ بضم فكسر ثم ياء مشددة تريد أنه أناس أذنيها بما حلاها به، وقولها وملأ من شحم عضدي أي جعلني بالتربية في التنعم غير هزيلة، وقولها وبجّحني إلى آخره أي فرّحني وعظمني، وقولها غنيمة بضم أوّله مصغرًا تريد أن أهلها كانوا أصحاب غنم لا أصحاب خيل ولا إبل كأبي زرع، وقولها بشق بكسر الشين ضيق العيش والجَهد وقولها في أهل صَهِيل وأَطِيط بفتح فكسر فيهما أي أهل خيل، كَنَّتْ عنها بالصَّهِيل، وإبل كَنَّتْ عنها بالأَطِيط وهو صوت الإبل، وقولها ودائس اسم فاعل من الدوس وهو البقر، وقولها ومُنَقّ بضم الميم وفتح النون وتشديد القاف هو الذي ينقي الحب ويصلحه وينظفه من التبن، وقولها فلا أُقَبَّح بتشديد الموحدة أي لا أنسب للقبح في الكلام حتى أكون مبغوضة عنده، وأرقد فأتصبَّح أي أنام إلى الصبح تريد أنها متنعمة وفي بيتها من الخدم من يكفيها مؤنة مباشرة خدمة بيتها صباحًا، وأشرب فأتقمّح أي فأروى وأدع الماء لكثرته عنده في البيت، وقولها عُكُومها أي أعدالها وأوعية طعامها، وقولها رَدَاح بفتح أوّله وروي بكسره أي عظيمة ثقيلة، وقولها فُساح أي واسع، وقولها مضجعه كمَسَلّ شطبة بفتح الميم والسين المهملة وتشديد اللام، والشَّطْبة بشين معجمة مفتوحة فمهملة ساكنة هي السعفة المشطوبة من جريد النخل وذلك أنه يُشَقّ منه قضبان دِقَاق وينسج منه الحصير فقد كَنَّتْ عن خفة اللحم ودقة الخصر بأن مضجع ابنها الذي ينام فيه كمَسَلّ شطبة واحدة إذا سُلَّت من الحصير فبقي مكانها فارغًا بين أخواتها، وهو ما يتمدّح به رجال العرب كتمدّحهم بتشبيه الرجل بالسيف إما لرونقه أو لاستوائه واعتداله أو لدقته، وقولها وتشبعه ذراع الجفرة هي الشاة، وقولها في حق بنتها وملء كسائها كناية عن ضخامتها وامتلاء جسمها، وقولها وغيظ جارتها أي ضُرَّتِها، وكنّوا عن الضرة بالجارة تطيرًا من الضرر، أرادت أنها تغيظ ضرتها لجمالها، وقولها في حق جاريتها لا تبث إلى آخره أرادت أنها أمينة على أسرارهم، وقولها ولا تنقث من باب طلب أي لا تنقل، والميرة الطعام والمعنى لا تخون فيه ولا تفسده، وقولها ولا تملأ بيتنا تعشيشًا بعين مهملة أي لا تترك القمامة والكناسة متفرقة في البيت، ويروى بيننا بالنون بدل بيتنا، وتغشيشًا بالغين المعجمة أي لا تسعى بيننا بالغش والفساد، وقولها والأوطاب تمخض الأوطاب جمع وَطَب بفتحتين أي أَسْقِية اللبن وتمخض أي تحرك لاستخراج الزبد تريد أنه خرج في وقت كثرة الألبان والخصب وهو وقت سفر العرب للتجارة، وقولها كالفهدين أي يشبهان الفهدين في الوثوب واللعب وسرعة الحركة، وقولها برمانتين أي بثديين، وإنما احتاجت لذكر ولديها لتنبه على أن ذلك كان أحد أسباب تزوّج أبي زرع لها؛ لرغبة العرب في الأولاد وحرصهم على النسل وكثرة العدد، وقولها رجلاً سريًا أي شريفًا سخيًّا =

عَضُدِيَّ وبَجَّحَني فَبَجَحت إليَّ نفسي، وجدني في أهل غُنَيمَةٍ بشِقّ؛ فجعلني في أهل صَهِيل وأَطِيط ودَائِس ومُنَقّ؛ فعنده أقول ولا أُقَبَّح، وأرقد فأتصبَّح، وأشرب فأتقمَّح، أم أبي زرع، فما أم أبي زرع؟! عُكُومها رَدَاح وبيتُها فُسَاح، ابن أبي زرع، فما ابن أبي زرع؟! مضجعه كمَسَلّ شَطْبَة، وتُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الجَفْرَة، بنت أبي زرع، فما بنت أبي زرع؟! طوع أبيها وطوع أمها وملء كسائها وغيظ جارتها، جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع؟! لا تبثُّ حديثنا تبثيثًا، ولا تُنَقِّثُ ميرتنا تنقيثًا، ولا تملأ بيتنا تعشيشًا، قالت خرج أبو زرع والأَوْطَاب تُمْخَضُ، فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمّانتين، فطلقني ونكحها، فنكحت بعده رجلاً سَرِيًّا، رَكِبَ شَرِيًّا، وأَخَذَ خطيًّا، وأَرَاحَ عليَّ نَعَمًا ثريًّا، وأعطاني من كل رَائِحَةٍ زوجًا، وقال: كلي أم زرع ومِيرِي أهلك، فلو جمعت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زرع. قالت عائشة - رضي الله عنها - فقال لي رسول الله ﷺ: كنت لك كأبي زرع لأم زرع.

= وقولها ركب شريًّا بمعجمة أي فرسًا يستشري في سيره أي يلج ويمضي بلا فتور، وأخذ خطيًّا بفتح الخاء المعجمة أو كسرها الرمح، وأراح أي ردّ بعد الزوال أو أدخل في المراح، ونعمًا بفتح النون وهي الإبل والبقر والغنم، وثريًّا أي كثيرة من الثروة، وقولها من كل رائحة زوجًا الرائحة ما يرجع من الغنم والعبيد وأصناف الأموال بالعشي ويروى ذابحة بمعنى مذبوحة، أي ما يحل ذبحه، ويروى سائمة، والزوج الاثنان أو الصنف، وقوله وميري بكسر الميم أي احملي الطعام إلى أهلك. انتهى.

قال بعضهم: تعلموا الأدب فإن كنتم ملوكًا تربيتم به وإن كنتم وسطًا فُقْتُم أقرانكم (وإن)[١] أعوزتكم المعيشة عِشْتُم بأدبكم، فَتَعَلُّمُ الأدب حسن في الرجال والنساء جميعًا، ويحسن الأدب في النساء زيادة لما فيهن من الرقة الطبيعية والمحاسن المعنوية، فنسبة ذكاء المرأة الطبيعي إلى أخلاقها وعوائدها كنسبة لَطَافَتِهَا وظَرَافَتِهَا إلى أعضائها الظاهرة، فهي بالأدب جميلة حِسًّا ومعنىً، فهذه محسناتها البديعية الطبيعية والعقلية، وكل منهما قابل للإصلاح والاستكمال، ويجب الاحتراس والاحتياط في هذه المحاسن وفي تدبيرها بدون تبذير ولا تقتير[٢]، فالذكاء في النساء يكون إبرازه بالقيراط بدون تفريط ولا إفراط، يعني مُرَاعى فيه سلوك سبيل الحياء والأدب كما اقتضته في حَقِّهِن حكمة المولى عَزَّ وَجَلَّ، فبالحياء والأدب يَتَسَلَّطْن على قلوب الرجال، ويستعبدن ألباب[٣] الشجعان والأبطال.

---

(١) ما بين القوسين زيادة على النسخة المعتمدة؛ ليستقيم المعنى، وكذا جاءت العبارة في كتب التراث. (م).

(٢) تقتير: بُخل وتضييق. (م).

(٣) ألباب: مفردها لُب، وهو العقل. (م).

الفصل الثاني
في سلطنة النساء على قلوب الرجال

من خواص النساء وصفاتهن التي لا يشاركهن فيها الرجال مَنْقَبَة[1] الحياء، وكلما فاقت صفاتها الحِسِّيَّة والمعنوية أكثر مما هو في صاحباتها من النساء كان الحياء فيها أقوى مدحًا؛ ولذلك قيل:

وَيُكْرِمْنَهَا جاراتُها فيزُرْنَهَا ... وتَعْتَلُّ عَنْ إتْيَانهنَّ فَتُعْذَرُ
وَلَيْسَ لَهَا أَنْ تَسْتَهِينَ بجارةٍ ... ولكنَّها مِنْهُنَ تَحْيَا وتَخْفِرُ

فالحياء صفة ممدوحة فيهن، فاللائق بمن يُرَبِّي البنات، ويتعهد بشئونهن أن يتركهن على حيائهن الذي هو زينتهن، فلا تمسه التربية بِمَحْوٍ ولا تخفيف، وأن لا يجتهد أحد في إلهام الشجاعة لهن، وكذلك ما اشتملن عليه عادة من الخوف والوَجَل[2] مما ينبغي محوه في الذكور فلا بأس بإبقائه في النساء فإنهن غير مخلوقات لأن يَحُزْنَ شجاعة الرجال، وإنما وصفهن أن يحملن الرجال على

---

(١) مَنْقَبَة: خصلة حميدة وخلق جميل. (م).
(٢) الوجَلَ: الخوف والهلع. (م).

الشجاعة ويلهمنهم الحماس والإقدام، ويجب على الرجال أن يصرفوا قوّتهم وهمتهم في حماية النساء؛ حيث إن من المركوز في جِبِلَّة[١] الرجال وطبيعتهم الميل إلى نصرة النساء والأخذ بأيديهن لما فيهن من الضعف، وهذه صفة شريفة وهِمَّة عَلِيَّة مَرْكُوزة في نفس كل رجل أَوْدَعَ اللهُ في قلبه هيبة المرأة واحترامها، ويمدح أيضًا زيادة على ذلك من الشجاع أن يجبن عند حرب النساء، قال الشاعر:

أقولُ وقد حَـــاوَلْتُ تَقْبِيل كَفِّهَا ... وبي رِعْـــدَةٌ أَهْتَزُّ مِنْهَا وأَسْكُنُ
لِيَهْنِك أنِّي أَشْجَعُ النَّاسِ كُلِّهم ... لدى الحربِ إلا أنني عنكِ أَجْبُنُ

وقال آخر:

تَرَى الدُّرَّ مَنْظُومًا إِذَا مَا تَكَلَّمَتْ ... وكَالدُّرِّ مَنْظُـــومًا إِذَا لَمْ تَكَلَّم
تُعبِّدُ أَحْرارَ القُـــلُوبِ بِدَلِّها ... وتَمْلأُ عَيْنَ النَّاظِـــرِ المُتَوَسِّمِ

ومن خواص النساء المتزوجات أنهن متى رُزقن أولادًا يجتهدن في تتويجهم بتاج العزّ والكرامة، ويبذلن الهِمَّة الكاملة في تربيتهم بما يناسب الذكر أو الأنثى من التربية فيحفظن للبنات الصفة الملائمة للطافتهن التي هي الحياء المصاحبة للتواضع والانكسار واعتدال المزاج. فالحياء صفة ضعف خاصة بالنساء وبها في الحقيقة تقوية قلوبهن؛ فهي عبارة عن سلاح ماضٍ يستعبدن به فحول الرجال،

---

(١) جِبِلَّة: طبيعة.

فبهذا المعنى كانت شوكة النساء قوية بالحياء، فهو يمحو ما فيهن من الضعف، وبه يغلبن الأخصام فلا سلاح لحمايتهن إلا التَّدرُّع بدرع الحياء وإشهار سيف الخجل، واعتقال رِمَاح الذل والانكسار، فمن ذا الذي يرى الدموع تذرف من عين المرأة ولا يرقّ لحالها ولو كان من أَجْلاف البَوَادِي[1] أَرْبَاب الجَفْوة؟ وكيف لا يسمع شكوى المرأة من في قلبه أدنى رأفة ورحمة ولا يأخذ لها حقها ممن ظلمها؟ وكيف لا يغيث المرأة الملهوفة من تسأله الإغاثة ويكون فيه شهامة الرجال ومروءتهم؟ أم كيف يغضب الرجل على المرأة فتعتذر إليه شاكية باكية ولا يرثى لحالها ولا يصفح عنها الصفح الجميل؟ وبالجملة فيبعد أن الرجل ذا المروءة يفهم من المرأة ربة الحياء أنها مظلومة ولا يمحو ظُلامَتَها وينتصر لها ممن ظلمها، بل كل إنسان في قلبه رحمة لابدّ من أن يتقي الله في المرأة ويكفيها ما يهمّها ويخفف عنها ما يؤلمها، ففي حياء النساء سلطنة على قلوب الرجال تبعثهم على أن يسلكوا دائمًا طريق الفخار ليمدحوا عند النساء بحسن الأفعال، فجميع ما يصدر من الرجال مما يستحسنه النساء يقوّي سلطنتهن على قلوبهم، فإن الرجل يتمنى دائمًا نجاح أفعاله وصلاح أشغاله وثمرة مشروعه ليعجب زوجته أو غيرها لتشهد له بالفتوّة والشجاعة والبراعة، فمطمح أنظار الرجل في نجاحه وفلاحه وكسبه واغتنامه إرضاء زوجته المحبوبة وذوات قرابته من النساء، فهل من ميدان يسلكه الفتى من ميادين الفخار، وحلبة يسابق فيها الشهم أقرانه من حلبات الاعتبار،

(١) أَجْلاف البَوَادِي: سكان البادية المُتَّصفين بغِلَظ الطَّبع. (م).

إلا ويلاحظ فيها المدح ممن يهواها؟ فنجاحه دائمًا مقرون باستحسان النساء وربما كن مُعَضِّدَات لحماسته ومُهَيِّجَات لتنشيط جوده وسماحته، فإن الشهم يفرح كل الفرح ويسر كل السرور وتقرّ عينه متى بلغه استحسان الحِجَال لما صدر عنه من منتجات الأعمال، فهو يحب دائمًا أن تكون له منزلة في قلب من يهواها من النساء فيتشبث دائمًا بتجَشُّم[١] الأَخْطار لبلوغ الأَوْطار[٢]، فتجده إذا تحرّى الصدق والأمانة، أو حصل على كمال المعرفة لما فيه من مَلَكَة الذكاء والفَطَانة، أو نظم القصائد الطَّنَّانة الرَّنَّانَة، أو اكتسب النُّصْرة في الحروب أو اخترع شيئًا في الصنائع والفنون طبق المرغوب، أو برع في الأحكام الشرعية والصناعة القضائية، أو أحسن الفتيا في الدرجة العليا أو أتقن علم السلوك والأخلاق، أو سار حسن سيرته بممدوح صيته في الآفاق فلا تصدق لهجته، ولا تلوح بهجته إلا كان بذلك عند النساء بمكانة عَلِيَّة وعقيدة قوية فشهادتهنّ له شهادة عادلة، واعتقادهن فيه بحسن العمل تزكية فاضلة، وهذا ما يحمله على كمال الاجتهاد، وأن يزاول تحصيل المناقب الحميدة ليدرك مَرَامَه ويُسَكِّن من قلوب النساء في صميم الفؤاد.

ومما يحكى عن أميرة تنقَّبَتْ بنقاب الحياء، واشْتُهِرَت بصيت العَفَاف في العشائر والأحياء، وكانت من بيت الملك والسلطنة، وحَظِيَتْ بالأُبَّهة والطَّنْطَنَة[٣]

(١) التَّجَشُّم: التحمل عن مشقة. (م).

(٢) الأَوْطار: جمع وطر، وهي الحاجة والبُغية والمأرب. (م).

(٣) الطَّنْطَنة: الصخب. (م).

ثم عاند بيتها الزمان الخوّان، وتعدّت عليها صُرُوف الحدثان، وزالت عن ذَويها النعمة، ووقعت في شَرَكِ[1] الهَمِّ والوَصْمَة[2] وهي الحُرَقة (بضم ففتح كهمزة) بنت النعمان بن المنذر، فبعقلها وذكائها وما فيها من الحياء رَقَّ لها قلب خَصْمِها، فما كان في حقها بمتكبر ولا متجبر، وبيان ذلك أنه لما فتح سعد بن أبي وقاص القادسية، قيل له: إن الحُرَقة بنت النعمان بن المنذر حضرت ومعها جاريتان لها في مثل زيها، فلما وقفن بين يديه، قال: أَيَّتكن الحُرَقة بنت النعمان؟ قالت: أنا، قال: أنت؟ قالت: نعم، كأن الدنيا لا تدوم على حال، فإنها سريعة الانتقال تنتقل بأهلها انتقالاً، وتعقبهم بعد حال حالاً، إنا كنا ملوك هذا المصر يُجبى إلينا خراجه حتى تشتت الأمر، وصاح بنا الدهر فَشَقَّ عصانا، وشَتَّتَ ملانا، وكذلك الدهر يعثر بالأحرار ويكبّ على ذوي الأخطار، فقال لها سعد: أخبريني عن حالكم كيف كان؟ قالت: أطيل أم أقصر، فقال: بل أقصري، فقالت: أمسينا وليس أحد من العرب إلا وهو يرغب إلينا أو يَرْهَب مِنَّا، وأصبحنا وليس أحد من العرب إلا ونحن نرغب إليه أو نَرْهَبُ منه، ثم أنشأت تقول شعرًا:

فبينا نَسُوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنَا — إذا نحن فِيهِم سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ
فأُفٍّ لدنيـــا لا يدومُ نعيمُها — تَقَلَّبُ تَارات بنـــا وتَصَرَّفُ

---

(١) شَرَك: مِصْيَدة. (م).

(٢) الوَصْمَة: العيب والعار. (م).

فاستحسن سعد كلامها، وأكثر إكرامها، فلما أرادت الانصراف، قال لها: سَلِي حَاجَتك، قالت: خرابة أعمرها وأعيش بانتفاعها، فقال لعماله: اطلبوا في الولاية قرية خرابًا، فطلبوا فلم توجد، فقال لها سعد: إنا لم نجد في الولاية خرابة، فاختاري معمورة، فقالت: الحمد لله على أياديه؛ حيث وفق آبائي للعدل حتى أعمروا الدنيا بعدلهم وسلموها إلى غيرهم معمورة، فاجتهد أيها الأمير في تسليمها إلى غيرك أن تكون عامرة كما أخذتها، وتستحق رحمة الخالق ومحمدة الخَلْق، وإياك أن تسعى في خرابها، وأما أنا فبعد اليوم لا أرجو سرورًا ولا تمتدّ عيني إلى زهرة الدنيا، ثم دَعَتْ له فقالت: لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا زالت لكريم عندك حاجة مقضية أبدًا، وشكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا نالتك يد استغنت بعد فقر، ولا أزال الله عن قوم كرام نعمة، إلا وجعلك سببًا لردّها.

وكان قريبًا من سعد بن أبي وقاص أبو ثور فقال له: يا أبا ثور، احفظ هذه الكلمات حتى تخبر بها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - فلما قدم أبو ثور المدينة أخبر عمر بشأنها فقال: صَدَقَتْ ما من قوم إلا والدَّهْر يُمْلي لهم بيوم.

فيَــــــوْمٌ عَلَيْنَا ويومٌ لَنَــــا ويوْمٌ نُسَاءُ ويـــومٌ نُسَـــــرُّ

فقلب الرجل الرءوف بالشفقة على النساء الضعيفات مألوف ومعروف.

ومما ينتظم في سلك من يحب أن تشهد له النساء وترغب فيه قَطَرِيّ بن الفُجَاءة التميمي الخارجي الذي تَشَبَّب في أم حكيم، وكان فارسًا شجاعًا شاعرًا مجيدًا رئيس الخوارج، وسلموا عليه بإمارة المؤمنين عشرين سنة في أيام هشام بن عبد الملك، فمن جيد شعره في وقعة دولاب الذي يذكر فيه أم حكيم:

لعَمْرُكَ إنِّي في الحياةِ لَزَاهِدٌ ... وفي العَيْشِ مالم أَلْقَ أُمَّ حَكِيم
من الخَفِرَاتِ البِيضِ لم يُرَ مِثْلُها ... شِفَاءً لِذِي لُبٍّ دواء حكيم
ولو شَهِدَتْنِي يومَ دولابَ أبصرَت ... طِعَانَ فتًى في الحرب غَيْرِ ذَمِيم
غَدَاةَ طَغَتْ عَ الماءِ[1] بَكْرُ بنُ وائلٍ ... وعُجْنَا صُدورَ الخيلِ نحو تَمِيم
فَلَمْ أَرَ يَوْمًا كَانَ أَكْثَرَ مَقْطَعًا ... يَمُجُّ دَمًا مِنْ فَائِظٍ وكَلِيم
وضَارِبَةٍ خَدًّا كَرِيمًا عَلَى فَتًى ... أَغَرَّ نَجِيبِ الأُمَّهاتِ كَرِيم
أَصَابَ بِدُولابٍ وَلم تَكُ مَوْطِنًا ... لَهُ أَرْضُ دُولاب ودَيرُ حَمِيم
فَلَوْ شَهِدَتْنِي يَوْمَ ذَاكَ وخَيْلُنَا ... تُبِيحُ مِنَ الكُفَّارِ كُلَّ حَمِيم
رَأَتْ فِتْيَةً بَاعَ الإلهُ نُفُوسَهُم ... بِجَنَّةِ عَدنٍ عِنْدَه ونَعِيم

وأم حكيم التي تَشَبَّبَ فيها كانت معه في عسكر الإباضية، وكانت من أشجع الناس وأجملهم وجهًا وأحسنهم تمسكًا بدينها، وكان قطري يُجِلُّها ويحبها، وأخبر من شاهدها في تلك الحروب أنها كانت ترتجز وتقول:

(١) وردت الكلمة في الطبعة المعتمدة: علباء، وقد اخترنا ما وردت عليه في بعض كتب التراث: عَ الماء. بمعنى: على الماء (م).

أَحْمِلُ رَأْسًا قَـدْ سَئِمْتُ حَمْلَهُ وَقَـدْ مَلِلْتُ دَهْنَـهُ وَغَسْـلَهُ
أَلاَ فتًى يحمـلُ عَنِّي ثِقَلَهُ

والخوارج يفدّونها بالآباء والأمّهات، وخطبها جماعة من أشرافهم فردّتهم وقالت:

أَلاَ إِنَّ وجهًا حَسَّنَ اللهُ خَلْقَهُ لَأَجْدَرُ أن يُلْفَى لِذَا الحسنِ جامِعَا
وأُكْرِمُ هَذَا الوَجْهَ عَنْ أَنْ يَنَالَهُ تَوَرُّكُ فَحْلٍ هَمُّهُ أَنْ يُضَاجِعَا

ولو أن هذه البديعة الجمال سَلَكَتْ في الشجاعة مسلك الرجال، فلم تخرج عن الحياء والعصمة، واشتدّت بها العفة حتى رأت أن زواج مثلها في سنها مَذَمَّة ووصمة، فانظر إلى أيّ درجة يكون احترامها عند الجميع بما حَازَتْه من حُسْنِ الوجه وإحسان الصنيع، وكما أن النساء من عادتهن التلطف والدلال وسلامة الذوق وميلهن إلى إعجاب الرجال، وأن هذا يجذب لهنّ القلوب ويوصلهنّ إلى الحصول على المرغوب، ففيهنّ زيادة على ذلك فضائل أخرى عظيمة لو أفنى الرجال العمر في شكر الله على جمع هذه الفضائل فيهنّ لم يوفوا حق شكره، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يجعل زمن النساء مصروفًا على الاشتغال بالحظوظ واللذات ولا جعلهن لمجرّد قضاء الأَوْطار والتَّرَفُّهَات، بل منحهنّ شمائل جميلة، وجعلهن وسائل للمنافع الجليلة؛ حيث إن سعادة الرجال لا تتم إلا بوجود النساء فلم يَكْسُهُنّ حُلَلَ الجَمَال ولا مَنَحَهُنّ صفات الدلال

إلا لأمر معنوي لطيف لايخفى إلا على كل ذي عقل ضعيف، فقد أودع الله تعالى في الأنثى ما لا يوجد في الذكور إلا نادرًا وهو حاسية التأثر بالفرح والسرور، والتأثر والتألم والتأسف على ما يحصل للرجال من الهموم والغموم وصروف الأزمان، فأقل النساء تتأثر بما يحصل للرجال من المَبَرَّات والمَسَرَّات كما تتأثر من النَّكَبَات والمصائب، فيقتسمن مع الرجال السعادة والشقاء واليُسْر والعُسْر، وهذه الإحساسية الممدوحة فيهنّ غريزية وليس لهنّ عنها مندوحة، فيقع عند الرجال عطف النساء عليهنّ في المواطن الضيقة أعظم موقع، وهذه الإحساسية الدقيقة كَمَّلَتْ ما في النساء من الضعف؛ حيث إن الرجال يرون من النساء في الصداقة والاعتناء زيادة عما يؤملون منهنّ، فما كأنهنّ بهذه الأخلاق الحميدة التلطيفية إلا نفوس ملكية ملهمة بالأَلْطَاف الخَفِيَّة.

وأيضًا فقد خصهن الله سبحانه وتعالى دون الرجال بتدبير المعائش الأوّلية والقيام بالأشغال الضرورية والمتاعب المعاشية ومباشرة فراش المرضى من الأزواج والأولاد وغيرهم وتخفيف الآلام والأسقام وما أشبه ذلك مما لا يكاد يدخل تحت حصر، وجعل لهنّ صبرًا على تسكين الحركات الوجدانية وإخفاء التأثرات النفسانية، فبهذا كانت درجة الفضيلة في النساء كالعفة والعصمة أشدّ منها في الرجل، بحيث يبلغن في درجة الحياء أَوْج الكمال، فإن المرأة العفيفة الكريمة النفس تتحمل أثقال الحركات النفسانية عند الاحتياج إليها مما يعجز صناديد الرجال الصبر عليه.

فمن تأمل في نوع البشر ظهر له أن الأنثى لم تقتسم مع الرجل نصيبها مناصفة من اللذات والآلام، فهي دونه في ملاذّ الدنيا، وأكثر منه في التعرض للأعراض الخاصة بها لاسيما ما لا يعتري الرجال، حتى إن المرأة لا تتمتع بمطلوبها إلا إذا ذاقت في مقابلتها شديد الأوجاع؛ فلذتها المباحة لا تنالها إلا ببذل للقوّة والصحة وربما فقدت الحياة بقضاء وطرها، كأن تنطلق بالطلق إلى دار الحق وإن كان هذا ليس بكثير في العادة كما قاله بعضهم في مقصورة مشيرًا إلى ذلك المعنى:

أَبْكِي إناءَ شَبِيبةٍ ... من قبلِ ما امتَلأَ انْكَفَى
أَبْكِيهِ مِنْ غُصْنٍ نَضِيرٍ ما زَهَى حتَّى ذَوَى

فقد أعدّتها الحكمة الإلهية لهذه الملاذ الدنيوية وحفظ المصالح المنزلية.

فلو أرادت المرأة أن تسلك مسلك الرجال، وتتروّض على تكلف ثقيل الأحمال، وتتشبَّث بمعاناة الفنون والعلوم، والدخول في العلوم الأدبية من منثور ومنظوم، واجتهدت في ذلك حتى وصلت قريحتها في القوة إلى قرائح فحول الرجال، وتوغَّلَتْ في ميدان المعارف العالية، وبلغت منه أقصى مجال، وسَاوَتْ الرجل في جميع أحواله وَضَاهَتْهُ[١] في أقواله وأفعاله فهل تكتسب من ذلك

(١) ضَاهَتْه: شابهته وشاكلته. (م).

إلا المنافسة والمعاداة لاسيما من صويحباتها المحرومات اللاتي يبغضن من يفوق عليهنّ من أمثالهنّ في التعليمات، ويتهمنهنّ بالخروج عن الحياء؟ وإن كان حكماء الرجال يمدحن رَبَّات الفضائل وينظمونهنّ في سلك الأصفياء إلا أنهم لا يسوّغون لهنّ الدخول في ميدان فُحُول الرجال، ولا التخلق بأخلاق الأبطال، ولا ممارسة السياسات الملكية، ولا الرياسات العمومية، فإنها ربما أدّاها ذلك إلى التبرج والمخالطة، فلا يبرئها أحد مما يقال فيها، فهذا كان السبب في حرمان النساء في جميع البلاد من الظهور بمظهر الفضائل العلمية فتعوّدن على أن يعشن عيشة الخُمُول ويتباعَدْن عن الظهور ما لم يرضيْن بالشهرة التي لا تليق بهنّ، فالمرأة دائمًا أسيرة مستعبدة استعبادًا معنويًّا، لا يصح لها عرفًا أن تبدي رأيها، حتى إن أخلاقها وعوائدها الظاهرة لا تخلو عن بعض تخبئة وإن لا تكون جَلِيَّة فلا تظهر كالرجل في المحافل العامة ولا تتماشى في الشوارع والأسواق والمنتزهات، والعادة أن المُخَدَّرة[١] لا تخرج من بيتها لشيء من ذلك إلا مع من يعتمد عليه من الرجال فلا يسوَّغ لها أن تدخل محال المنازه والفُرْجة، ولا أن تسافر إلا ومعها محرم أو زوج أو من يُوثَقُ به، فالغالب عليهنّ ملازمة البيوت لحفظ المسكن، ونظافة المجلس، وطيب المأكل، والأنس مع الزوج، وتربية الولد، وحفظ العين عن المحارم، وتعهد مَنْ في البيت عند حصول المرض، وهذا غير شغل الرجل، قال بعضهم:

---

(١) المُخَدَّرة: التي لا تخرج من خِدْرها، أي بيتها. (م).

إذا اشْتَغَلَ الإنسانُ بالبيعِ والشِّرَا وفي مكسبٍ يأتي بطولِ نهارِهِ
وليس له في دَارِه مَنْ يَسُوسُهَا إذا غابَ في أشغالِهِ عن دِيَارِهِ
فذلك عندي مُهْمِلٌ أَمْرَ نَفْسِهِ وما عاقلٌ يَرْضَى بِهِ بِاخْتِيَارِهِ
ولابدَّ للإنسانِ مِنْ زَوْجَةٍ إذا تَأَخَّر تَبْقَى عينُها في انْتِظَارِهِ
وتُصْلِحُ ما يَخْتَارُهُ في أُمُورِهِ وتَخْدِمُهُ في فرشِهِ ودِثَارِهِ
إذا لم يكنْ في منزلِ المرءِ حُرَّةٌ تُدَبِّرُهُ ضَاعَتْ مصَالِحُ دارِهِ

ومع أن المرأة لها السلطنة على قلوب الرجال بالاستحقاق لما فيها من المنافع الجَمَّة[1]، فسلطنتها على قلب الرجل عبارة عن أن يكون أسيرها لما فيها من المعاني المحبوبة، وكمال الفضائل المرغوبة، فإذا تخلَّقَتْ بأخلاق تُغَايِرُ رِضَاه كالغضب وسوء الخلق؛ فإنها إن لم تسقط من عينه بذلك تهافت حبه، وتَنَاقَصَ وِدَادُه، واضْمَحَلَّ تأثير سلطنتها على قلبه، فبهذا تكون كحاكم ظالم تنفر منه السوقة، وتتغير عليه قلوب الرعية، فالحلم من النساء وحسن معاشرتهن مع الرجال أوّل مَزِيَّة، قال الشاعر:

إذا نَزَلَ الأذَى والحُبُّ يَوْمًا فإنَّ الحُبَّ يَرْحَلُ لا يُقِيمُ

(١) الجَمَّة: الكثيرة. (م).

وقال بعض الحكماء إنّ المرأة السيئة الخلق تُهْرِم[1] الرجل قبل هرمه، وتذهب بكرمه، فلا يتم أمر الرجل إلا بحرّة شفيقة، عفيفة رفيقة، حسنة الأخلاق عذبة المذاق، وكان بعض الفضلاء يقول: أعوذ بالله من غضب من لا يكاد يغضب، ومن غضب امرأة قادرة، ومن غضب ذي قوّة قاهرة.

(١) تُهْرِم: تُصيِّره هَرِمًا أي كبيرًا جدًّا في السن. (م).

الفصل الثالث

في أن المرأة ينبغي أن يكون من أعظم صفاتها حسن المعاملة والمعاشرة والحِلم

حيث إن المرأة مخلوقة للرجل وهو في الغالب مثلها غير مُنَزَّه عن المثالب والعيوب التي لا يخلو منها جنس البشر، وجب في حقها أن تتمرّن من شبوبيتها على تحمل أعبائه وأثقاله، وأن تكون مستعدّة للصفح عن خَلَلِه؛ فتسلك معه مسلك الحلم واللين والرفق وحسن الخلق، فإن هذا يعود عليها بالمنفعة أكثر مما يعود عليه، فإن سوء خلق النساء وعنادهنّ لا يفيدهن إلا زيادة النَّصَب[1] والتعب، بل ينتج عن ذلك إساءة عِشْرَة الرجال لهن؛ حيث إن الرجل يعلم أن المرأة وإن تمادت على إساءة الخلق فهو الغالب لها، فإنّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق النساء لمغالبة الرجال ولا للآراء والسياسات، فالرجال قوّامون عليهن ولا عكس، ولو شاء لأعطاهن الشجاعة والبَسَالَة[2] والفتوّة والشهامة، والأمر بخلاف ذلك، فإنه سبحانه وتعالى جعل صوت النساء مُفْتِنًا مطربًا غير جَهْوَري، فكأنه لم يجعل فيهن جارحة السَّبّ والشتم ولا آلة الصياح الشديد، وأيضًا حيث منحهن الحسن والجمال

(١) النَّصَب: الإعياء والتعب. (م).

(٢) البَسَالَة: الشجاعة والبطولة. (م).

وتناسب الأعضاء ورِقَّة الحاشية واللطافة والظَّرَافَة، فكأنه لم يجعل فيهن لياقة للغضب، ولا مناسبة للحِدَّة والحنق، ولا تقطيب الوُجُوه ولا العُبُوس، فلا تليق منهن ثورة الغضب، بل يجب عليهن أن لا ينسين الحلم عند شدّة غضبهن، نعم إن الغالب أن يكون لهن حق في الأسباب التي تغضبهن، ومع ذلك فلا ينبغي منهن كثرة المشاحنة والهذر في الكلام، بل يلتزمن البَشَاشَة، وطلاقة الوجه، وكمال الاحتشام؛ حيث إن كل إنسان من بني آدم لا ينبغي له أن ينطق إلا بما يليق بجنسه من ذكورة وأنوثة؛ فليس للمرأة أن تتخلق بأخلاق الرجل في ارتفاع الصوت.

وأيضًا لما كان في النساء مَثْلَبَتَان[1] من أصل الخِلْقَة وهما الضعف والجبن، كان يجب في تربيتهن حال الصغر تمكين هاتين المثلبتين وتثبيت هاتين النقيصتين اللتين هما في الحقيقة فضيلتان، فإن النساء إنما فقدن كمال الحرية وكِدْنَ أن يَكُنَّ تحت الحَجْر وتَرَبَّيْن على ذلك من الصِّغَر إلا ليدوم فيهن الحلم والانكسار والخضوع، ومع ذلك تجدهن دائمًا يبحثن عن سدّ خلل هذين العيبين بإتقان فن الحيلة والتلطف، فيكتسبن بذلك ما ينوب عن القوّة والشجاعة المفقودتين منهن، ولما كُنَّ محرومات من المناصب والمراتب والوظائف من كل ما يكسب النفوذ وكان حرمانهن من ذلك فيه كسر لأنفسهن؛ أَحْبَبْن أن يوجدن لأنفسهن

(١) مثلبتان: عيبان. (م).

شَمَمًا[١] على الرجال أصحاب المناصب؛ عوضًا عما فات منها، فاستعملن في ذلك وسائل مختلفة مُوصِلَة لأغراضهن بقدر ما يستطعنه، ولو أن أصل فن الحيلة وطرق الاحتياط والاحتراس ليس من طباعهن، وسلوكها صعب عليهن إلا أنهن متى تَشَبَّثْنَ به وحاولنه لموافقة أغراضهن بَرَعْنَ فيه وغَلَبْنَ الرجال، فإن المرأة متى كان لها مَأْرَب[٢] من المَآرب يشغلها فإنها تكتم من أوّل الأمر هذا المرام، ثم تتزين بأحسن ما عليها وتحسن الخطاب مع الرجل، وتستعمل الألفاظ الساحرة لِلُبِّه الجالبة لقلبه، ولا تزال تبذل المجهود في التلطف والتدلل والتذلل حتى تتمكن من السلطنة على قلبه، وتنال منه ما تشتهيه وتتمناه.

وقد خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في النساء استعدادًا مخصوصًا وهو ميل أنفسهن دائمًا إلى إظهار اللطافة والمحبوبية للرجال، فجميعهن على الإطلاق يرغبن في التحبُّب للرجال، وأن يكون معلومًا عند الرجال ما خزنه من الجمال والكمال والعفة وجميع الفضائل، فالأنثى من حيث هي أنثى ولو بلغت ما بلغت في درجة العفة ترغب أن تكون مألوفة محبوبة بعيدة الصيت في المعاني الحِسَان، ولا تَأْنَف أن يكون لها في القلوب موقع استحسان، ولو أنها مجرّدة عن الشجاعة الحسية، فإن حيثياتها ومعنوياتها التي هي عبارة عن اللطف والظرف ولين الكلام والإشارة سلاح لها يسهل عليها تجريده لتسبي به الرجل وتنتصر عليه، فَنِبَال عيونهن

(١) شَمَمًا: عُلوًّا وارتفاعًا. (م).

(٢) مَأْرَب: بُغيَة أو حاجة مُلِحَّة. (م).

وَمَالِي يَا لَمْيَـــــاءُ فِي الشِّعْرِ طَائِلٌ   سِوَى أَنَّ أَشْعَارِي عَلَيْكِ نَسِيبُ
عَفَافِي من دونِ التَّقِيَّةِ زَاجِرِي   وصَوْنُكِ من دون الرَّقيبِ رَقِيبُ

رُسُل المَنُون والبيض والسُّمْر منهن مفاتيح الحُصُون، قال الشريف الرضي يذكر عفته وصون محبوبته في قوله:

فكل امرأة مستعدّة لأن تبرز بهذه الصفات لحرب الرجال، بحيث لا تخلص للرجال من أسر جمالها المكنون وقهر سلطان حسنها المصون:

تَلَطَّفْ لِمَنْ تَهْوَى مِنَ النَّاسِ دَائِمًا   لتحمدَ يومًا غِبَّ[1] مَا تَتَلَطَّفُ
ولا تُكْثِرِ الإِعْـرَاضَ عَمَّنْ تُحِبُّهُ   فَتُنْكِرَ مِنْهُ بَعْضَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ

وقد خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لبني آدم ذكورًا وإناثًا احتياجات ضرورية ووجدانيات لزومية لقوامه وزوائد تحسينية لنظامه.

---

(١) غِبّ: عاقبة. (م)

الفصل الرابع

في الاحتياجات الضرورية البشرية

لا يجهل أحد أن قوام الإنسان وانتظام أحواله يستدعي أنه خُلِقَ لحكمة عجيبة ولم يُخْلَق عبثًا، قال سلطان العارفين ابن الفارض:

فَلاَ عَبَثٌ والخَلْقُ لَمْ يُخْلَقُوا سُدًى   وَإِنْ لَمْ تَكُنْ أَفْعَالُهُمْ بِالسَّدِيدةِ

فوجب بهذا السعي لإصلاح بِنْيَتِه المادية، وتنمية أجزائه العضوية بسدّ خَلَّة[1] ما فيه من الوجدانيات النفسانية القوية، كالجوع الذي يحسه الإنسان من الاحتياج إلى الغذاء وهو ألزم الوجدانيات وأقواها، وكالاحتياج إلى السكنى واللباس والنساء، وليست هذه الوجدانيات فيه ولا الحصول عليها لمجرد راحة النفس، بل لحفظ هذه النفس النفيسة، وبقائها للحصول على ما أراده الله منها، فالاحتياج إلى السكنى مثلاً إنما هو للصَّوْن من أذى حيوانات الخلاء وهَوَامِّها، والاحتياج إلى الملبس للوقاية من شدّة الحرّ والبرد، فهذه وجدانيات طبيعية أَوّلية واحتياجات مقدّمة الحصول عليها قبل غيرها، ومع أن كلاًّ من المسكن

---

(١) خَلَّة: فُرْجة بين شيئين. (م).

والملبس ليس من الوجدانيات الطبيعية الصِّرْفة[١] إلا أن العادة حكمت بعدم الاستغناء عنهما، وينتظم في سلكهما أيضًا احتياجات راحة النفس إلى توفية حظوظها ولذاتها المباحة، فإن النفس البشرية لم تُخْلَق لأن تكون منعزلة وحدها منفصلة عن أبناء جنسها مجردة عن الاجتماع والائتناس مع مليها إلى ذلك طبعًا واضطرارها إليه وَضْعًا، فهذا دليل على أن الإنسان يحتاج إلى التأَنُّس العام والاجتماع التام؛ لأن الإنسان بالانفراد لا يكفي للقيام بأَوَدِ[٢] نفسه؛ فلهذا اقتضت الحكمة الإلهية والإرادة الربانية أن تبيح له أن يختار ذاتًا يرتبط معها ارتباطًا أكيدًا بعقد وثيق للازدواج والارْتِفَاق وحفظ النسل، فإذا لم يحصل على ذلك اعْتَرَاه هَيَجَان البَدَن، وأصيب بالسَّوْدَاء[٣]، وتغير فيه الخلق الحسن، فمثل هذا الداء لا يحدث إلا من فقد الحاجة التي يستشعر بها الإنسان ويحسّ بأنها من ضرورياته.

ولا ينبغي للعاقل أن يخترع لنفسه احتياجات تصورية خيالية يظن أنها بالنسبة إليه ضرورية ولا يقدر عليها، فيعوّد نفسه على ما لا يستطيع دائمًا أن يستحصل عليه مما لا يقدر أن يستعوضه بغيره إذا فقد، فإن المرء لا يعتريه النَّصَب

---

(١) الصِّرْفة: الخالصة. (م).

(٢) أَوَد: ما يحفظ رمق الإنسان. (م).

(٣) السَّوْداء: مرض يصيب مَنْ يعشق ولا يصل معشوقه. (م).

ولا يلمّ به التعب إلا بتكليف نفسه ما لا يطيق وتمني نفسه الأماني التي لا يمكنه بلوغها، ولو سلك أصعب طريق فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «تَمَعْدَدُوا واخْشَوْشِنُوا»، فأمر بالتمعدد وهو أن يكون الرجل على سُنَّة مَعَدّ بن عَدْنَان أحد أجداده ﷺ، فكانت سنة معد الكدّ في العيش والتعب فيه، كان يزرع بيده ويحصد ويتعاطى مصالح الزرع، وقوله اخشوشنوا أي لا تسترسلوا في التنعم بالمأكل والمشرب وتدوموا عليه خوفًا من أن تحتاجوا إليه فلا تقدروا عليه، فإن من أَلِفَ الترفه والتنعم يصعب عليه ضده، والمنهي عنه الاسترسال والمداومة، وهذا لا يمنع من التمتع بالطيبات من الرزق لمن لا يتكلف ذلك، قال بعضهم:

وجدتُ القناعةَ كَنْزَ الغِنَى فصِرْتُ بأَذْيَالِهَا مُمْتَسِك
وأَوْرَثَني عِــزُّهَا خِلْعَــةً يَمُرُّ الزَّمَــانُ ولا تُنْتَهَـك
وصِرْتُ غَنِيًّا بــلا دِرْهَمٍ أَمُرُّ عَلَى النَّاسِ مِثْلَ المَلِك

وقال الشاعر:

أقسمتُ بالبيتِ العَتيقِ ورُكْنِهِ والطَّــائِفِينَ وَمُنْزِلِ القُرْآنِ
ما العيشُ في المالِ الكَثِيرِ وَجَمْعِهِ بَلْ في الكَفَافِ وصِحَّةِ الأَبْدَانِ

وقال آخر:

فَمَنْ مُخْبِرٌ حَاسِدِي أَنَّنِي وَهَبْتُ الأَمَــاني لِطُلاَّبِهَا

تــــذلُّ الرجـــــالَ لأَطْمَاعِهَا　　كــــذُلِّ العبيـــــدِ لأرْبَابِهَا
فـــــلا تَقْطِفَنّ ثمـــــارَ المُنَى　　فبِئْسَ عُصَـــــارَةُ أَعْنَابِهَا

وقال آخر:

وَقَائِلٍ ما المُلْكُ قُلْتُ الغِنَى　　فقالَ لا بـــــلْ راحةُ القَلْبِ
وصَوْنُ ماءِ الوَجْـــــهِ عن بَذْلِهِ　　في نَيْلِ ما يَنْفَدُ عَنْ قُرْبِ

ومع ذلك كله، فالحاجات تختلف باختلاف الناس وأحوالهم، قال بعضهم:

العَيْشُ دارٌ رَحْبَـــــــةٌ وحَلِيلَةٌ　　حَسْـــنَاءُ قَانِعَةٌ ومهرٌ فَارِهُ
فاظفرْ بِهِنَّ ولا تُبَالِي فالوَرَى　　إمَّا مُحِبٌّ مُخْلِصٌ أَوْ كَارِهُ

وقال بعضهم إن حقيقة السعادة الأبدية دنيوية وأخروية بعد أداء الفرائض الشرعية والتأدب بالآداب النبوية السنية أن يكون للمرء مسكن يأويه، وضَيْعَة قريبة غلتها تكفيه ولا تزيد على كفايته فَتُطْغِيه، وزوجة أمينة تُوَاسِيه، وولد بارّ يُسَلِّيه، وجار صالح لا يؤذيه، وخادم عن مهنة نفسه يحميه، وما وراء ذلك لا حاجة له فيه، كما قيل:

مَا أَعْجَبَ الشـــَّيْءَ أَرْجُوهُ فَأُحْرَمُهُ　　قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُ مِنْهُ قَدْ مَلأْتُ يَدِي

وكما أن للإنسان احتياجات محسوسة لابدّ منها فكذلك له احتياجات عقلية معنوية لا محيص عنها، كالاحتياج إلى التربية التهذيبية والتعليمات الأدبية، فإنه من حيث إنه مجبول على التأنس والعيشة مع أمثاله يجب أن يحسن خلقه ويروض طبعه، فإن الخلق عادة النفس التي تصدر من الإنسان بلا روية، فهو نوعان: إساءة وإحسان جُبِلَ عليهما الإنسان، فإن ارتسم في النفس أيهما كان نقله صعبًا لأنه تطبّع، فإذا كانت الأخلاق المحمودة غريزية في بعض الناس فلا يهمل الباقي منهم أن يصيروا إليها بالرياضة والألفة، ويرتقوا إليها بالتدرب والاعتناء والكلفة، فمن لم يكن منهم على الخير مطبوعًا يصير مُتَطَبِّعًا، والفرق بين الطبع والتطبُّع أن الطبع جاذب مُفْتَعِل والتطبع مجذوب مُفْتَعَل، وقد يكون في الناس من لا يقبل طبعه العادة الحسنة، ولا الأخلاق الجميلة، ونفسه مع ذلك تتشوَّقُ إلى المَنْقَبَة وتَأْنَف من المَثْلَبَة، لكن سلطان طبعه يأباه عليه.

السَّيْفُ ما لم يُلْفَ فِيهِ صَيْقَلٌ مِن نَفْسِهِ لم ينتفعْ بصِقَالِ

وسبب ذلك في الأخلاق أن الطبع المطبوع مَلَكَة للنفس التي هي محلّه؛ لاستيطانه إياها وكثرة إعانته لها، والأدب طارئ على المحل غريب، فالإنسان بأنسه وبايتناسه يعلو الرتب، وبشيمه الطاهرة ينال أعظم القرب، فلابد من الرياضة لكسب الخلق الحسن واستكماله، قال ﷺ: «بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارِمَ الأَخْلاقِ»،

وهي ما أوصاه به ربه عز وجل بقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف/ ١٩٩]، فلما امتثل أمر ربه أثنى عليه بقوله تنويهًا بفضله الجسيم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم/ ٤]، فلا أعظم من أدبه ﷺ الذي قال في شأنه: «أدّبني ربِّي فَأَحْسَنَ تأديبي»، وأكمل الآداب أدب العلم والعمل وكل ما يخرج الإنسان من الزَّيْغ والزَّلَل، فالإنسان من حيث إنه محاط بأشياء كثيرة تخصه، ومكلف بمعرفتها حق المعرفة للزومها له، يعهد من نفسه أنه لابدّ له من معرفتها والوقوف على حقيقتها، وليس لها طريق موصلة إلا التعلم والتعليم، وهذا موضوع الباب الآتي.

الباب الثالث

في التعلم والتعليم، وفيه فصول

الفصل الأول
في التعلم وأقسامه

التعلم هو الوسيلة العظمى التي يكتسب بها الإنسان معرفة ما يجهله بالكُلِّية، أو ما بقي له من تكميل علمه ببعض أشياء جزئية، فالتعلم جزء من التربية المعنوية التي هي تهذيب العقل وترويض الذهن، وهذه التربية المعنوية تنقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: تربية النوع البشري، يعني تربية الإنسان من حيث هو إنسان، يعني تنمية مواده الجسمية وحواسه العقلية، القسم الثاني: تربية أفراد الإنسان، يعني تربية الأمم والمِلَل، القسم الثالث: التربية العمومية لكل إنسان في خاصة نفسه وهي تربية الإنسان الخصوصية، فالقسم الأول طبيعي ويكون غالبًا في أيام الصِّبَا وزمن الشَّبِيبَة التي بفواتها يفوت المَرَام وتضيع الأيام، فينبغي أن لا تخلو أيام الصبي والصبية من إفادة واستفادة ليتحصل للذكور والإناث من صغر السن أسباب السعادة والسيادة، ولا يزال كل منهما بتوفيقه تعالى محصلاً للزيادة حتى لا يتأسف أحد منهم عند الكبر على ما مضى من الأيام، وانقضى من الأعوام بدون الحصول على المراد من أحوال المعاش والمعاد، وكان الشافعي – رضي الله تعالى – عنه ينشد ليقتدي به من يسترشد:

أَلَيْسَ مِنَ الخُسْرَانِ أَنَّ لَيَالِيًا تَمُرُّ بِلاَ عِلْمٍ وَتُحْسَبُ مِنْ عُمْرِي

وقد تأسَف على زمن الشبيبة أقوام كثيرون من الأفاضل ورجال أفضلون من الأماثل، وسعوا في كبر سنهم أن يجبروا خلل ما فات فتعلموا بقدر ما استطاعوا، ولذلك قيل:

إِذَا مَا أَوّل الخطيّ أخطا فَلاَ يُرْجَى لأَخِرِهِ انْتِصَارُ
إِذَا بَلَغَ الفَتَى عِشْرِينَ عَامًا وَمَا بَلَغَ المَرَامَ فَذَاكَ عَارُ

وبالجملة، فالتعلم يكون في سن الشبوبية لكل فرد من أفراد المعارف البشرية ويقوى العلم بالممارسة إلى ما شاء الله. قال الشاعر:

فَإِنَّ مَنْ أَدَّبْتَهُ فِي الصِّبَا كَالعُودِ يُسْقَى المَاءَ فِي غَرْسِه
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا نَاضِرًا بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

والقسم الثاني لا يحصل إلا بتعليم أحكام الدين - الواجب معرفتها على كل إنسان - وحقوق القرابة، ولا يكون ذلك إلا في الجمعيات التي ابتدأت في التمدُّن والعمران كتربية العشائر والعائلات، وهذا القسم إنما يكون بالهدى الذي أنعم الله به على الخلق كافة، بعضه بالعقل، وأسباب الهدى بهذا المعنى الكتاب والسنة وبصائر العقول، وكلها مبذولة لا يمنع منها إلا الحسد والكِبْر وحب الدنيا، والتعلق بالأسباب التي تعمي القلوب، وإن كانت لا تعمي الأبصار، ومن جملتها

استصحاب المألوف والعادة والعرف المعروف وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف/ ٢٢] كما أن العبارة عن الكِبْر والحسد بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف/ ٣١] وبقوله: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر/ ٢٤]، ويعبر عن الهدى بشرح الصدر كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر/ ٢٢]، وله نتائج شريفة أجلها معرفة الله تعالى التي بها سعادة الدارين وسائر الخصال التي تتفاضل بها الرجال والمتصف بالهدى متصف بالعقل المحمود والذي يرشد إلى تزكية النفس هو سياسة الشرع وصدق متابعة الرسول في سائر ما جاء به من الأحكام والآداب التي نصبها الشارع وجعل مرجعها الكتاب العزيز، الذي هو الآية الكبرى، والنعمة العظمى في بيان ما لا تهتدي إليه العقول، وفي الاعتصام من الفتن، ومصداق ذلك قوله ﷺ: «إنه سَتكُونُ فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيلِ المُظْلِم، قيل: فما النجاةُ منها يا رسول الله؟ قال: كتابُ الله تبارك وتعالى، فيــه نبأُ مَن قَبلَكُم، وخبرُ مَن بعدَكُم، وحُكْمُ ما بينَكُم، وهو فَصْلٌ ليسَ بالهَزْل» فهو الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول مع ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها في نظام أحوال الخلق كشرع الزواجر المُفْضِيَة إلى حفظ الأديان والعقول والأنساب والأموال وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه يحصل به الغرض كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامها، فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى، فلا عبرة بالنفوس القاصرة

الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينًا وتقبيحًا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدي الحدود، فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة، ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا دَرْء المفاسد، ولا ينافي المتجددات المستحسَنَة التي يخترعها من منحهم الله تعالى العقل وألهمهم الصناعة.

وأما التربية العمومية المسماة أيضًا بالتعليمات العمومية فهي ما يتعلمه الذكور والإناث في المكاتب والمدارس، وفي سائر مجامع المعارف التي يجتمع فيها للتعليم عدد مخصوص من المتعلمين، وهذا القسم الثالث ينقسم إلى ثلاثة أقسام: تعليم أوّلي ابتدائي، وتعليم ثانوي تجهيزي، وتعليم كامل انتهائي.

فالتعليم الأوّلي ما يكون فيه أهل المملكة على حد سواء؛ فهو عام لجميع الناس يشترك بالاشتغال فيه والانتفاع به أبناء الأغنياء والفقراء ذكورهم وإناثهم، وهو عبارة عن تعلم القراءة والكتابة في ضمن تعليم القرآن الشريف وأصول الحساب والنحو، فالكتابة مندوبٌ إليها في حديث استعن بيمينك - أي بالكتابة بيدك اليمنى- بأن تكتب ما تخشى نسيانه إعانة لحفظك، ومن لطفه تعالى بعباده أن ألهمهم الكتابة؛ حيث منحهم ما يعينهم على أداء ما ائتمنوا عليه مما يزيل عنهم الرَّيْب. ومنافع الكتابة لا يحيط بها إلا الله تعالى فما دُوِّنَت العلوم ولا قُيِّدَتْ الحِكَم ولا ضُبِطَتْ أخبار الأوّلين ومقالاتهم إلا بها، ولولاها ما استقام أمر

الدين، والظاهر أن الكتابة قديمة جدًّا وإن قال بعضهم إن أوّل من اتخذ القراطيس وكتب فيها يوسف عليه السلام، وكان يكتب للعزيز صاحب الرؤيا، ويقال هو أوّل من بِيعَ من الأحرار.

وأما النحو الذي هو من العلوم الأَوَّلِيَّة فهو لإصلاح اللسان كما قال بعضهم:

كَلاَمٌ بِلاَ نَحــوٍ طَعَامٌ بِلاَ مِلْحٍ ... وَنَحْوٌ بِلاَ شِعْرٍ ظَلاَمٌ بِلاَ صُبْحٍ

وقال آخر:

يَا طَالِبَ العِــلْمِ لا تَجْهَلَنَّ ... وَلُذْ بالمُبَرِّدِ أَوْ ثَعْــــلَبِ
تَجِدْ عِنْدَ هَذَيْنِ عِلْمَ الوَرَى ... فَلاَ تَــكُ كَالجَمَلِ الأَجْرَبِ
عُلُومُ الخَــــلائِقِ مَقْــــرُونَةٌ ... بِهَذَيْنِ فِي الشَّرْقِ وَالمَغْرِبِ

وأما مبادي الحساب والهندسة فنفعهما في المعاملات معلوم، وهذا التعليم الأولي متى تعلمه الآحَاد[١] حَسُنَ حال الهيئة الاجتماعية، وجَمُلَ كامل الرَّعِيَّة، وأرباب الكَارَات[٢] والحِرَف الصناعية، فإن الصانع مثلاً إذا تعلم ذلك سهل عليه

---

(١) الآحاد: الأفراد. (م).

(٢) الكَارَات: مفردها كار، وهي الحرفة والصنعة. (م).

بقراءة كتب صنعته أن يشتغل أشغالاً جيدة بالمراجعة، وأن يخرج من وَرْطَة مجرد السماع من فم أستاذه، وسهل عليه أيضًا أن يكمل صنعته التي تعلمها من أستاذه، ويدخل فيها تحسينات جديدة وتكميلات مفيدة، وأن يقيد جميع ما رآه وسمعه، ولا يكون أسيرًا لما نقله عن أستاذه الناقل أيضًا عن آخر إلى ما لا نهاية، فبقراءة الصانع كتب الصناعة المتنوّعة تتكامل فيها براعته، وتَحْسُن وتَجُود صناعته، ويكون أيضًا أهلاً للتعليم، وتسلك تلامذته هذا المنوال القويم؛ فترقى الفنون والصنائع على تعاقب الأجيال إلى درجة التحسين والكمال.

فالتعليم الأوّلي الذي هو عبارة عن المبادي التي تقدم ذكرها ضروري لسائر الناس، يحتاج إليه كل إنسان كاحتياجه إلى الخبز والماء، فينبغي للأستاذ المعلم أن يتخذ في تعليم الصبيان أقرب الطرق وأسهلها للتعلم، وكذلك ينبغي للأستاذ الماهر في الفنون والصنائع أن يسلك سبيل السهولة، وينهج أقصر المناهج في تعليم غلمانه؛ لأن العادة جارية بأن من يتعلم الصنائع والكَارَات وحِرَف المهنة إنما هم أولاد الفقراء والمتوسطين، وأن زمنهم محسوب على آبائهم الذين هم في الغالب مساكين؛ فلا ينبغي تطويل الزمن في تعليم الصنائع والمهن.

وأما التعليم الثانوي الذي درجته أعلى من درجة ما قبله فهو في الغالب لا يلتفت إلى البراعة فيه غالبُ الأهالي لصعوبته، فينبغي للحكومة المنتظمة ترغيب الأهالي، وتشويقهم فيما يخص هذا النوع، فهو ما يكون به تمدين جمهور الأمة،

وكسبها درجة الترقي في الحضارة والعمران. وأنواع هذا القسم التعليمي كثيرة، فما ينبغي أن يشتغل به أبناء الأهالي منها المهم فالأهم كالعلوم الرياضية بأنواعها والجغرافية والتاريخ والمنطق وعلم المواليد الثلاثة والطبيعة والكيميا والإدارة المِلْكِيَّة وفنون الزراعة والإنشاء والمحاضرات وبعض الألسنة الأجنبية التي يعود نفعها على الوطن، وأما درجة العلوم العالية فهي اشتغال الإنسان بعلم مخصوص يَتَبَحَّر فيه بعد تحصيله علوم المبادي والتجهيزات كعلم الفقيه والطبيب والفلكي والجغرافي والمؤرخ من كل علم يجب تعلمه وجوب كفاية، ويريد صاحبه أن يَجُولَ في أصوله وفروعه غاية الجَوَلان حتى يكون كالمجتهد فيه، فهو عبارة عن بعض أفراد في مملكة من الممالك، يكون لهم استعداد وقابلية لبلوغ أقصى نهاية المعارف التي بها نظام المملكة ليكونوا كالمجتهدين المجدّدين فيها.

وكما أن التعليمات الأوّلية والمعارف العمومية يجب أن تَعُمَّ جميع أولاد الأهالي فقيرهم وغنيهم يجب أيضًا أن يكون التعليم الثانوي كثيرًا منتشرًا في أبناء الأهالي القابلين له الراغبين فيه، فيُبَاح لهم التعليم والتعلم ليكونوا من الدرجة الوسطى بخلاف درجة العلوم العالية المعدّة لأرباب السياسات والرئاسات وأهل الحَلِّ والعَقْد في الممالك والحكومات فإنه ينبغي أن يُقْتَصَد في تعليمها، والتضييق في نطاقها، بحيث يكون عدد تلامذتها محصورًا، وعلى أناس قلائل مقصورًا، بمعنى أن كل من طلب الاشتغال بالعلوم العالية لابدّ من أن يكون صاحب ثروة ويسار، ويكون يساره مقيدًا بقيود خاصة في الغنى والاعتبار، بحيث لا يضر

تفرُّغُه للعلوم العالية بالمملكة، فمن الخطر على من له صناعة يَتَعَيَّش منها وينتفع به الناس أن يترك هذه الصناعة ليدخل في دائرة معالي المعارف التي لا تصلح أن تكون له بضاعة، فلا ينبغي أن يرخص للتلامذة المتعلمين العلوم الأوّلية والثانوية أن ينتظموا في سلك أرباب المعارف القصوى إذا كانت في حقهم قليلة الجدوى.

فمتى انتهى تعليم الشبان العلوم الابتدائية والتجهيزية، وظهر ميلهم إلى خصوصيات تناسب أحوالهم من الصنائع والفنون، وَجَبَ على أهلهم أن يضعوهم فيها، فإذا كان ميلهم إلى أشياء تضاد أحوالهم الحقيقية ولا منفعة لهم فيما تميل إليه أطماعهم الشهوانية منعهم أهلهم منها، ووضعوهم في لياقتهم من كل ما ينتج لهم المنافع في الفنون والصنائع لينالوا بذلك الوظائف اللائقة بحالهم، وينبغي لأهل الخير أن يساعدوا من يخرج من مَحَالِّ التعليم ببضاعة رابحة على نيل الوظائف الأهلية العمومية الكافية لقوام معاشهم وانتعاشهم؛ لأن رب المعارف الراغب للاستخدام في وظيفة عمومية إذا لم يكن له مساعد ومعين وكان له حق واستعداد في التقلد بها ولم يتقلد؛ سَقَطَ اعتباره، وضعف افتخاره، وظهر بمظهر الفقر والمسكنة، وربما أهلكه اليأس والقنوط بخيبة آماله وعيشته الخشنة، ورأى أنه ضَيَّع في طلب العلم ماله وزمنه.

الفصل الثاني

في أنه ينبغي لطالب العلم المشتغل به أن يصفي ذهنه بأكل طيبات الرزق

قال القاضي عياض: كان لمالك بن أنس رضي الله عنه في كل يوم في لحمه درهمان، قال مطَرِّف: لو لم يجد مالك في كل يوم درهمين يشتري بهما لحمًا إلا أن يبيع في ذلك بعض متاعه لفعل، وقال مالك: لو قيل لي إن دَقَّ الجوهر يعينك على هذا الأمر - أي طلب العلم - لدققته. ويقال إن يحيى بن يزيد كتب إلى الإمام مالك ابن أنس رضي الله عنه: «بلغني أنك تلبس الرقيق، وتأكل الرقاق، وتجلس على الوطيء، وتجعل على بابك حاجبًا، وقد جلست مجلس العلم، واتخذك الناس إمامًا، ورضوا قولك، فاتَّقِ الله يا مالك، وعليك بالتواضع، كتبته إليك كتابًا بالنصيحة ما اطَّلَعَ عليه إلا الله تعالى والسلام». فكتب إليه مالك: «وصل إليَّ كتابك فوقع مني موقع النصيحة في الإشفاق والأدب، متعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيرًا، وأما ما ذكرت من أني آكل الرقاق وألبس الرقيق وأحتجب وأجلس على الوطيء، فنحن نفعل، علم الله ذلك، ونستغفر الله، وقد قال عز وجل: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف/ ٣٢] الآية، وإني لأعلم أن ترك ذلك أفضل من الدخول فيه، ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام».

قال بعضهم: ومما يحسن جوابًا عن أكل مالك للأشياء الرقيقة أن أكلها يولد الخلط الجيد، ويصفي الذهن، فيحسن الفهم بأكل الطيبات لاسيما اللحم. انتهى. والمطلوب لطالب العلم البُلْغَة التي يتبلَّغ بها وهي إحدى وسائل طلب العلم المحصورة في قول الإمام الشافعي - رضي الله تعالى عنه:

أَخِي لَنْ تَنَالَ العِلْمَ إلاَّ بِسِتَّةٍ   سَأُنْبِيكَ عَنْ أَسْمَائِهَا بِبَيَانِ
ذَكَاءٌ وَحِرْصٌ وَاجْتِهَادٌ وَبُلْغَةٌ   وَصُحْبَةُ أُسْتَاذٍ وَطُولُ زَمَانِ

وقال آخر:

شُـــرُوطُ العِلْمِ أَرْبَعَــةٌ   فَأَوَّلُهـــا التَّفــرُّغُ لَه
وَثَاني شَرْطِــهَـــا شَيْخٌ   يُمَهّــدُ لِلْفَـــتَى سُــبُلَه
وثَالِثُـــهَا وُجُـــودُ فَـــتًى   يُبَـــلِّغُ رَبَّـــهُ أَمَلَه
وَرَابِعُهَـــا مُجَـــالَسَةُ السُّـــ   ـرَاةِ السّـــادَةِ الكمَـــلَه

ومع أنه ينبغي لطالب العلم أن يبحث عما به صفاء ذهنه وعقله، فلا ينبغي له أن يدقق النظر في الطيبات لينتخب أطيبها، قال الإمام الغزالي: قرّب عابد إلى بعض إخوانه رُغْفَانًا ليختار أجودها، فقال له العابد: مَهْ أي شيء تصنع؟ أما علمت أن في الرغيف الذي رغبت عنه كذا وكذا حكمة وعمل فيه كذا وكذا صانع حتى استدار، فَمِنْ ذلك السحاب الذي يحمل الماء، والماء الذي

يسقي الأرض، والرياح، وبنو آدم، والبهائم حتى صار إليك، وبعد ذلك تُقَلِّبُهُ ولا ترضى به، وفي الآثار لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلاثمائة وستون صانعًا ما بين رُوحاني وآدميّ وعنصر وآخر ذلك الخباز: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم/ ٣٤]. فعلى طالب العلم أن يرضى بما يَسَّرَه الله له، فكل شيء يَسُرُّه ويُفرحه، قال بعضهم: لا سرور يوازي سرور العلم، ولا لذة تساوي لذته، فإن أنواع السرور كثيرة؛ سرور الأبد الجنة، وسرور الدهر العلم، وسرور السنة العمارة الجديدة، وسرور نصف السنة الثوب الجديد، وسرور الشهر الزواج، وسرور الأسبوع غسل الثياب، وسرور اليوم الحمام، وسرور الساعة الاجتماع للأنس المنزلي ومسامرة الأحباب، وما أشبه ذلك، وحيث إن من لذات الدنيا لذة أنس الزوجية؛ كان لابدّ في حسن هذه المَسَرَّات من المناسبة والملايمة بين الزوجين حتى في درجة المعرفة والفِطْنَة وكمال الامتزاج، وهذا لا يكون إلا بالمشاكلة بين الزوجين والمجانسة بين القرينين، لاسيما في الممالك المتمدنة التي يعد فيها تعليم النساء من الشِّيَم المستحسنة، فالمرأة على هذا محتاجة للتعليم لإرشادها في أمور الزوجية والعشرة، وفي تربية الأولاد إلى الطريق القويم.

الفصل الثالث

في تشريك البنات مع الصبيان في التعلم والتعليم وكسب العرفان

ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معًا لحسن معاشرة الأزواج، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب، ونحو ذلك، فإن هذا مما يزيدهن أدبًا وعقلاً، ويجعلهن بالمعارف أهلاً، ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي، فيعظمن في قلوبهم، ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها، وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوّتها وطاقتها، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل، وقلوبهن بالأهواء، وافتعال الأقاويل، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقرّبها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مَذَمَّة عظيمة في حق النساء، فإن المرأة التي لا عمل لها تقضي الزمن خائضة في حديث جيرانها وفيما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون وفيما عندهم وعندها وهكذا، وأما القول بأنه لا ينبغي تعليم النساء الكتابة وأنها مكروهة في حقهن ارتكانًا على النهي عن بعض ذلك في بعض الآثار فينبغي أن لا يكون ذلك على عمومه، ولا نظر

إلى قول من عَلَّلَ ذلك بأن من طبعهن المكر والدهاء والمداهنة، ولا يعتمد على رأيهن لعدم كمال عقولهن، فتعليم القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائل الغير المُرْضِيَة ككتابة رسالة إلى زيد ورقعة إلى عمرو وبيت شعر إلى خالد ونحو ذلك، وأن الله تعالى لو شاء أن يخلقهن كالرجال في جودة العقل وصواب الرأي وحب الفضائل لفعل، فكأن الله تعالى خلقهن لحفظ متاع البيت ووعاء لصون مادة النسل، فمثل هذه الأقوال لا تفيد أن جميع النساء على هذه الصفات الذميمة، ولا تنطبق على جميع النساء، وكم من نهي وردت به الآثار كحب الدنيا ومقاربة السلاطين والملوك والتحذير عن الغنى، فقد حمل على ما يعقبه شر وضرر محقق، وتعليم البنات لا يتحقق ضرره فكيف ذلك، وقد كان أزواجه ﷺ من يكتب ويقرأ كحفصة بنت عمر، وعائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهم وغيرهما من نساء كل زمن من الأزمان، ولم يعهد أن عددًا كثيرًا من النساء ابتذلن بسبب آدابهن ومعارفهن، على أن كثيرًا من الرجال أضلهم التَّوَغُّل في المعارف وترتب على علومهم ما لا يحصى من شبه الخروج والاعتزال. وليس مرجع التشديد في حرمان البنات من الكتابة إلا التغالي في الغيرة عليهن من إبراز محمود صفاتهن أيًّا ما كانت في ميدان الرجال، تبعًا للعوائد المحلية المَشُوبَة بجمعية جاهلية ولو جرب خلاف هذه العادة لَصَحَّتْ التجربة، فإننا لو فرضنا أن إنسانًا أخذ بنتًا صغيرة السن مميزة، وعلمها القراءة والكتابة والحساب وبعض ما يليق بالبنات أن يتعلمنه من الصنائع كالخياطة والتطريز إلى أن تبلغ خمس عشرة سنة، ثم زوجها

لإنسان حسن الأخلاق كامل التربية مثلها، فلا يصح أنها لا تحسن العشرة معه، أو لا تكون له أمينة، ومثل ذلك سائر البنات فإن تعليمهن في نفس الأمر عبارة عن تنوير عقولهن بمصباح المعارف المرشد لهن، فلا شك أن حصول النساء على مَلَكَة القراءة والكتابة وعلى التخلُّق بالأخلاق الحميدة والاطلاع على المعارف المفيدة هو أجمل صفات الكمال وهو أشوق للرجال المتربين من الجمال، فالأدب للمرأة يغني عن الجمال لكن الجمال لا يغني عن الأدب؛ لأنه عَرَض زائل، وأيضًا آداب المرأة ومعارفها تؤثر كثيرًا في أخلاق أولادها، إذ البنت الصغيرة متى رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب وضبط أمور البيت والاشتغال بتربية أولادها جذبتها الغيرة إلى أن تكون مثل أمها بخلاف ما إذا رأت أمها مقبلة على مجرد الزينة والتبرج وإضاعة الوقت بهذر الكلام والزيارات الغير اللازمة؛ حيث تتصوّر البنت من الصغر أن جميع النساء كذلك فَتَأْلَفُ ذلك من صغرها، فشتان ما بين هذه وبين من تعتمد على معارفها وآدابها، وتفعل ما فيه إرضاء بَعْلِهَا وتربية أولادها؛ لأنها شَبَّت على ذلك كما قال البوصيري -رحمه الله:

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى ... حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

وقد قضت التجربة في كثير من البلاد أن نفع تعليم البنات أكثر من ضرره، بل إنه لا ضرر فيه أصلاً، فقد روي في كتب الأحاديث روايات عن النساء كثيرة، وقد كان في زمان رسول الله ﷺ من يعلم القراءة والكتابة من النساء للنساء

كالشفاء أم سليمان فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال لها: «عَلِّمِي حَفْصَةَ رُقْيَةَ النَّملةِ كما عَلَّمْتِهَا الكتابَ» أي الخط والهجاء، وخرّج أبو الدرداء رضي الله عنه عن الشفاء بنت عبد الله قالت: دخل عليّ النبي ﷺ وأنا عند حفصة فقال: «أَلا تُعَلِّمين هَذه رُقْيَة النَّملة كما عَلَّمْتِها الكتابَ» انتهت. والنملة بُثُورٌ صغار مع ورم يسير ثم يَتَقَرَّح فيتسع وتسميه الأطباء الذباب، وهذا الحديث دليل على أن تعلم النساء الكتابة جائز، وأن اشتراكهن مع الرجال لا بأس به؛ حيث اشتركن معهم في أصل الطبائع والغرائز، وورود النهي عن تعليمهن ينبغي أن يكون ليس على إطلاقه بدليل ما يعارضه بإباحة التعليم، فليتمسك كل من الفريقين الذكور والإناث بالأحاديث الواردة في فضل التعلم والتعليم، ويَتَشَبَّثُوا جميعًا بأذيال المدارسة والمطالعة ليقتطفا من أثمار العلم منافعه.

الفصل الرابع

في المدارسة والمطالعة

الدراسة هي تمرين العقل على مطالعة عدّة علوم أو علم واحد منها، ولما كانت فضيلة التعلم والتعليم والقابلية لذلك مشتركة بين جميع الناس لا يستغني عنها إنسان، وكان الاحتياج إليها ناشئًا من كراهة النفس للجهل الذي لا يمحوه إلا المواظبة على الاطلاع وكثرة الدراسة المستمرة التي يحصل بها التمكن من المعارف، وكانت مدّة الحياة قصيرة لا تكفي في الحصول على شطر له وَقْعٌ من المعارف البشرية؛ وجب على الإنسان أن يَتَشَبَّثَ بالعلوم الضرورية له كما قال الشاعر:

مَا حَوَى العِلْمَ جَمِيعًا أَحَدٌ   لاَ ولَو مَارَسَــــهُ أَلفَ سَنَهْ

إِنَّمَا العِلْــمُ عَمــيِقٌ بَحْرُهُ   فَخُذوا مِن كُلِّ شَيءٍ أَحْسَنَهْ

والأولى لطالب العلم أن يتشبث بما يلايم الفن الذي يتخذه له فنًّا يختص به، فدراسة العلم في حدّ ذاتها أفضل ما يشتغل به الإنسان، وأحلى ما يصرف فيه أوقات حياته، وأفضل لذات الدنيا، فلا سرور يوازي سرور العلم، والاشتغال

به يَحْسُن في جميع الأوقات، وشتى الأعمار، وفي جميع الأمكنة والبلدان؛ لأن مطالعة الكتب لا يضيق منها صدر الإنسان في مدّة عمره، وفي مبادي وأواخر أمره؛ لأنها تُصْلِح حال الشبان، وتنفع في حال الكهولة، وتخفف الآلام، وتفيد الصبر على نوائب الأيام حتى إن الإنسان المنهمك على القراءة لا يذوق طعم الفاقة[١] وإن كان فقيرًا وإن كان غنيًّا أغلت قيمة غناه وسعادته فما كانها إلا غذاء الأشباح والأرواح في الإمساء والإصباح وهي لأهل المدن فكاهة ورفاهة، ولأهل الريف مَشْغَلَة ونباهة، وفي الأسفار تخفف وَعْثَاءَ السفر كما تلطِّف أحوال أهل الحضر، وهي وقاية تحفظ من القلق والوساوس، وينتصر بها الإنسان على القلق والأرق، فهي خير واقٍ وحارس؛ لأن القلق داء وَخِيم وصاحبه سَقِيم، فهو كالنار يرعى بدن الإنسان ولو كان رفيع القدر عليَّ الشأن، فعلاجه النظر في كتاب يزيل الأَوْصَاب[٢] عن الأَلْباب[٣].

ومن فوائد الدراسة أنها تزين العقول بالمعارف الصحيحة، والعَوَارِف الرَّجِيحة، وتفيد النفس الزكية شرفًا ومَجَادَةً، وترقي الإنسان إلى أقصى درجات الفخر والسعادة، فيها يفقه الإنسان أحوال الناس على حقائقها، وما هم عليه أو ما كانوا عليه أو ما ينبغي أن يكونوا عليه بالوقوف على حسن طرائقها، وبذلك

(١) الفاقة: الفقر والحاجة. (م).

(٢) الأَوْصَاب: الأسقام والأوجاع. (م).

(٣) الأَلْبَاب: العقول. (م).

يكتسب التعوّد على الأشغال، وتلطيف النفس، وصفاء البال، ويقوى عقله، ويزول ما فيه من الخفة والطَّيْش لرفاهة الحال ولذاذة العيش، ويغلب الإنسان نفسه، وهواه باجتناب البطالة والكسل والفتور، ولا يضيع زمنه سُدًى في سفاسف الأمور، ومن فوائد المطالع للكتب الجيدة المفيدة أن يصير ناقدًا بصيرًا وجميع أحواله حميدة، ولو لم يكن فضائل الدراسة إلا الألفة بين الفضلاء والنبلاء والتعارف من بعضهم لبعض لكان هذا كافيًا لأهل العلى.

قال بعضهم: كان الناس فيما مضى إذا لقي العالم منهم من هو فوقه في العلم قال: هذه غنيمة، أي لكونه ينتهز فرصة التلقي عنه، وإذا لقي من هو مثله ذاكره، وإذا لقي من هو دونه لم يَزْدَرِ[١] عليه، واليوم يعيب الرجل من فوقه، ويظهر أنه ليس له به حاجة، ولا يذاكر مثله، ويزهو على من هو دونه، وهذا مما يُخِلُّ بالعالم؛ حيث إنه يفضي به إلى جَحْد الحقوق لحب الرئاسة والتعظيم، ويجعله يتعرض إلى ستر الحسنات، ويتتبع السَّقَطَات لهدم ما شيدته الفضائل بفضوله لا بفضله.

ومما يحكى أن الشّعْبِيّ دخل على عبد الملك بن مروان وبين يديه كتاب ينظر فيه، فقال: يا أمير المؤمنين إن الكتاب خير مُقَارِن، وأنبل جليس، وآنس أنيس، وأصدق صديق، وأحفظ رفيق، وأكرم مصاحب، وأفصح مخاطب، وأبلغ

(١) لم يَزْدرِ: لم يُحَقِّر ولم يَسْتَخِف. (م).

ناطق، وأكتم وَامِق[١]، يورد إليك ولا يصدر عنك، ويحكي لك ولا يحكي عنك، إن أودعته سرًّا كتمه، وإن استحفظته علمًا حفظه، إن فاتحته فاتحك، وإن فَاوَضْتَه فاوضك، وإن جَارَيْتَه جَارَاك، وإن صَمَتَّ عنه صَمَتَ عنك، ينشط بنشاطك، ويَغْتَبِط[٢] باغتباطك، ولا يرغب عنك عند رغبتك فيه، ولا يَتَخَلَّف عنك عند حاجتك إليه، ولا يُخفي عنك ذكرًا، ولا يفشي لك سرًّا، إن نشرته شهد، وإن طويته رَقَد، وإن سألته نَطَق، وإن انغلقت عنه انغلق، صامت متكلم، مُسْتَعِرْب مُسْتَعْجِم، يذاكرك بالفلسفة، ويبصرك بتقديم المعرفة، ويبدي لك أخبار الأول، ويشرح لك سير الدول، خفيف المؤنة كثير المعونة، حاضر كمعدوم، وغائب كمعلوم، لا تتصنع له عند حضوره في خلوتك، ولا تحتشم له في حال وحدتك، في الليل نعم السمير، وفي النهار نعم المشير، إن طويته انطوى، وإن نشرته احتبى، فقال له عبد الملك: لقد حببت إليّ الكتاب وعظمته في نفسي وحسنته في عيني. انتهى. قال بعضهم:

نِعْمَ المُحَدِّثُ وَالنَّدِيمُ كِتَابُ   تَلْهُو بِهِ إِنْ فَاتَكَ الأَحْبَابُ
لاَ مُفْشِيًا سِرًّا إِذَا اسْتَوْدَعْتَهُ   وَيُفَادُ مِنْهُ حِكْمَةٌ وَصَوَابُ

لاسيما كتب التواريخ والسير، فقد قال بعضهم فيها لما فيها من العبر:

---

(١) وامق: مُحِبّ. (م).

(٢) يَغْتَبط: يبتهج وتتحسن حالته. (م).

طَالعْ تَوَارِيخ مَنْ فِي الدَّهْرِ قَدْ وُجِدُوا ... تَجِدْ خُطُوبًا تُسَلِّي عَنْكَ مَا تَجِدُ
تَجِدْ أَكَابِرَهُم قَدْ جُرِّعُوا غُصَصًا ... مِنَ الرَّزَايَا بِهَا كَمْ فُتِّتَتْ كَبِدُ
عَزْلٌ وَنَصْبٌ وَضَرْبٌ بِالسِّيَاطِ وَجـرْ ... سٌ ثُمَّ قَتْلٌ وَتَوْرِيثٌ لِمَن وُلِدُوا

وبمزاولة المطالعة تتسع دوائر المعارف ونطاق الطرائف واللطائف.

الفصل الخامس

في سعة دائرة المعارف والاطلاع على التَّلِيد[1] منها والطَّارِف[2]

سعة دائرة المعارف عبارة عن كسب جميع حقائق حوادث المعارف البشرية لاتساع عقول ذوي الألباب الزَّكِيَّة[3]، وهي ثمرة الإكثار من بذل المجهود في قراءة كتب العلوم والفنون مما تقادم عهده أو تجدّد، وهي عبارة عن الجَوَلان[4] في معرفة التاريخ، ومعرفة الألسن، ومعرفة الكتب المؤلفة في أي فَنٍّ من الفنون بأنواعها.

فمن المعلوم أن الغرض الأصلي من العلوم والمعارف إنما هو الانقياد لأمر الله تعالى بما اقتضته الحكمة الرَّبَّانية في بعثه للرسل عليهم الصلاة والسلام؛ حيث إن الحكمة في بعثهم إنما هي لانتظام أحوال العباد في المعاش والمَعَاد[5]

---

(١) التَّليد: العريق الأصيل الضارب في القِدَم. (م).

(٢) الطَّارِف: المُحْدَث. (م).

(٣) الزكية: الصالحة. (م).

(٤) الجَوَلان: الطواف. (م).

(٥) المَعَاد: المرجع والمصير. (م).

مما لا يحصل إلا بعبادة أو معاملة أو مُنَاكَحَة أو جِنَايَة، فكل بالغ عاقل مُكَلَّف بعلم الحلال والحرام والعمل به؛ لينال سعادة الدَّارَيْن لكونه عمل وعمل بما فيه السعادة لمعاشه ومَعَادِه؛ ولهذا كان الناس على أربعة أقسام مجموعة في هذه الأبيات، وهي:

أَرْبَعَةٌ فِي النَّاسِ مَيِّزْتُهُمْ ... أَحْوَالُهُم مَكْشُوفَةٌ ظَاهِرَةْ
فَوَاحِـــدٌ دُنْيَاهُ مَقْبُوضَةٌ ... تَتْبَعُـــهَا آخِـــرَةٌ فَاخِرَةْ
وَوَاحِـــدٌ دُنْيَاهُ مَمْدُودَةٌ ... لَيْسَتْ لَهُ مِنْ بَعْدِهَا آخِرَةْ
وَوَاحِـــدٌ دُنْيَاهُ مَعْمُورَةٌ ... كَذَاكَ أُخْرَاهُ غَدَتْ عَامِرَة
وَوَاحِـــدٌ بَيْنَهُمُ ضَـائِعٌ ... لَيْسَتْ لَهُ دُنْيَا وَلاَ آخِرَةْ

فالقسم الأوّل والثالث حسن وأحسن، والقسم الثاني والرابع قبيح وأقبح، ونظم بعضهم الأحسن والأقبح في قوله:

مَا أَحْسَنَ الدِّينَ وَالدُّنْيَا إِذَا اجْتَمَعَا ... وَأَقْبَحَ الكُفْرَ وَالإِفْلاَسَ بِالرَّجُلِ

ولا يتيسر معرفة امتثال أمر الشَّارِع[(١)] إلا بعلم ما جاء به، ولا يتحصل العلم إلا بالاشتغال به، والجِدِّ في طلبه، واستجماع أصوله وفروعه ومكملاته ومُتَمِّمَاته، فالاشتغال به أولى ما أنفقت فيه نفائس الأوقات، وهو ينحصر في جنسين دنيوي

(١) الشَّارع: المُشَرّع أو واضع الأحكام الشرعية. (م).

وأخروي، يعني علوم المعاش وعلوم المَعَاد. وقد أكرم الله ﷻ الإنسان وخلق له ما في الكون من سائر المنافع وزَيَّنَهُ بالعقل الذي يميز به بين الحَسَن والقبيح، والضَّارَّ والنافع، والخطأ والصواب، وجعل ﷻ الإنسان المُتَّصِف بالقريحة[1] الذكية، والمَلَكَة القوية مُوَفَّقًا لتحصيل العلم واستفادته، واستنباطه وإفادته، وأولى العلوم بذلك العلوم الشرعية التي عليها مَدَار أحكام البلاد وراحة العباد، وهي معرفة الله تعالى والتفسير والفقه والحديث؛ إذ هي المقصودة بالذات، وما سواها من العلوم والفنون فهي لها كالآلات والإعانات، فالعلوم الشرعية هي أهم مما عداها، والاشتغال بها أوجب للحاجة إليها، والاضطرار إلى معرفة الحلال والحرام وإقامة الحدود والأحكام؛ ولهذا كان أهلها أفضل من غيرهم، فأما علم الكلام ففضله معلوم كما قيل:

أَيُّهَا المُبْتَدِي لِيَطْلُبَ عِلْمًا ... كُلُّ عِلْمٍ عَبْدٌ لِعِلْمِ الكَلامِ
تَطْلُبُ الفِقْهَ كَيْ تُصَحِّحَ حُكْمًا ... ثُمَّ أَغْفَلْتَ مَنْزِلَ الأَحْكَامِ

وقيل للقاضي ابن الطيب إن قومًا يَذُمُّون علم الكلام، فأنشد يقول:

عَابَ الكَلاَمَ أُنَاسٌ لاَ خَلاقَ لَهُمْ ... وَمَا عَلَيْهِ إِذَا عَابُوهُ مِنْ ضَرَرِ
مَا ضَرَّ شَمْسَ الضُّحَى فِي الأُفْقِ طَالِعَةً ... أَنْ لا يَرى ضَوْءَهَا مَنْ لَيْسَ ذَا بَصَرِ

---

(١) القريحة: قريحة كل شيء: أوله وباكورته، وهي في الإنسان طبعه الذي جُبِل عليه لأنه أول خلقته. (م).

فكيف والقرآن مملوء بعقائد التوحيد، وتقرير حججها على أكمل وجه؛ فلهذا كانت عقائد التوحيد لا تقبل من الخلاف بين أهل الحق ما تقبله الفروع الفقهية، ولما لم تكن في أزمنة الصَّدْر الأوّل[١] بدع يُحتاج إلى رَدِّها لم يتكلم على علم الكلام أهل الصَّدْر الأول ما تكلموا في الفروع؛ اكْتِفَاءً منهم بأدلة القرآن الواضحة لكل موفق، إلى أن ظهر أبو إسحاق الإسفرائيني، وهاجت المبتدعة، وكان قد صعد إلى جبل لبنان كثير من الأولياء والأتقياء يَخْتَلُون فيه عن الناس؛ حيث كان مُتَعَبَّدًا لهم[٢]، فذهب إليهم أبو إسحاق الإسفرائيني، فوجدهم يَتَعبَّدُون، فقال لهم: هربتم إلى هذا الموضع تتعبدون فيه وتركتم أمة النبي - عليه الصلاة والسلام - في أيدي المبتدعة، فقالوا له: أيها الأستاذ، لا قدرة لنا على مخالطة الخلق، وأنت الذي قد أقدرك الله على ذلك، فأنت أهله فرجع رضي الله عنه واشتغل بالرد على المبتدعة، وألف كتابه الجامع بين الجَلِيّ والخَفِيّ، فالاشتغال بعلم التوحيد مقدم على كل الواجبات، فالسعيد من وُفِّقَ لتحقيق عقائد إيمانه لما يراه من النعيم والسرور بواضح بُرْهَانه، ولكن لا ينبغي التَّغَالي في الدين كما لا ينبغي التساهل فيه، لاسيما من أصحاب الحل والعقد والأمر والنهي، وقيل: من عَرِي عن إيمانه تلاعب بدينه. قال الشاعر:

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِيننا فَلا دِينُنَا يَبْقَى وَلا مَا نُرَقِّعُ
فَطُوبَى لِعَبْدٍ آثَرَ اللهَ رَبَّهُ وَجَادَ بِدُنْيَاهُ لِمَا يتوَقَّعُ

---

(١) الصَّدْر الأول: هم الصحابة والتابعون رضي الله عنهم. (م).
(٢) مُتَعَبَّدًا لهم: مكانًا لعبادتهم. (م).

والاشتغال بالعلوم الشرعية أهم العلوم كلها، وأما المفسرون فاشتغلوا بتفسير كلام الله تعالى وفهم معانيه وأحكام آياته، ومباينه، وتبيين مُطلَقه من مُقَيَّدِه، ومُبَيَّنِه من مُجْمَلِه ومُحْكَمِه ومتشابهه وقَصصه ومواعظه ومنسوخه وناسخه فَهُم أساس الدين، وأما الفقهاء فإنهم خُصُّوا بالاستنباط في فقه الكتاب والحديث والتعمق بدقيق النظر في ترتيب الأحكام وحدود الدين، والترتيب بين الناسخ والمنسوخ وغيرهما، فَهُم حُكَّام الدين، وأما أصحاب الحديث فإنهم تعلقوا بظاهر حديث رسول الله ﷺ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر/ ٧]، وقد اشتغلوا بسماعه ونقله وتدقيقه، وتمييز صحيحه من سقيمه فَهُم حراس الدين.

وقد جرت عادة الله تعالى في خلقه على مر الأعوام والدهور وأنه لا يخلو زمن من الأزمنة ولا قرن من القرون عن أئمة من العلماء الأعلام أَعَدَّهم لإقامة شرائع الإسلام، وتقرير الحدود والأحكام، وأنه إذا انقرضت طائفة خَلَفَتْها أخرى كما في الحديث الشريف «لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتي ظَاهِرِيْن على الحقِّ لا يَضُرُّهم من خَالَفَهم حتى يأتي أمرُ الله وهُمْ على ذلك»، قال البخاري: أراد طائفة أهل العلم ولا يزال الكتاب والسنة مَوْجُودَيْنِ بين المسلمين إن شاء الله تعالى إلى يوم الدين.

ولما كانت عِمَارِيَّة المسالك والممالك لا تستغني عن الفنون والصنائع وآلاتها وأدواتها يَسَّرَ الله تعالى لكل زمن من الأزمان أناسًا أرباب براعة كاملة لإحياء ما به يكون العُمران ويتسع التمدن في البلدان، فمن هؤلاء علماء التواريخ والعارفون بالألسن واللغات، والمولعون بمطالعة الكتب ومعرفة مؤلفيها من مشاهير الرجال، فهم أيضًا مجددون للصناعة والبراعة، فكل صاحب علم أو صاحب فن لا يتصف بسعة دائرة معرفته إلا إذا اطلع على المؤلفات الجليلة من فنه؛ فصاحب التاريخ لابد أن يعرف جميع السِّيَر مما ورد في الكتاب والأثر، وأخبار الماضي والحال؛ ليقيس على ذلك ما عساه أن يكون في الاستقبال لاسيما تاريخ المِلَل والدُّوَل والنِّحَل وما كان عندهم من التدبير والحيل، ولكن لابد أن يكون صاحب بصيرة نَقَّادَة وفكرة وَقَّادَة، حتى يميز صحيح الوقائع من الأباطيل، ولا يلتفت إلى كل ما قيل من الأقاويل، ولا يهمل معرفة تاريخ بلاده، ووقائع مَسْقَط رأسه وميلاده، كما لا يهمل تاريخ العلوم والفنون.

وأما صاحب الجغرافيا فلابد أن يعرف كتب المسالك والممالك برية أو بحرية، وجميع الأراضي والبلدان والجزائر قديمة أو حديثة ورسومها على خريطاتها وأطالسها، وعلى الأُكَر(١) الأرضية والسماوية، والمسافات بينها، وتجاراتها وأحكامها وشرائعها وعوائدها وطبائعها إلى غير ذلك، ولابد أن يقف

(١) الأُكَر: الحفر في الأرض، ومفردها الأُكْرَة. (م).

على آثار الأقدمين، ويبحث عن تاريخ أزمانها، وينبغي لصاحب اللغات أن يعرف اللغات التي تدونت بها علوم المتقدمين والمتأخرين، مشرقية أو مغربية، مهجورة أو مستعملة بحسب الإمكان ليمكنه أن يراجع ما يحتاج إليه عند الإبَان(١)، فإن لم يتيسر له ذلك اطلع على الكتب المترجمة من تلك اللغات، وأعظم ما ينفع في سَعَةِ الاطلاع والتَّضَلُّع(٢) من العلوم والفنون إتقان صناعة الفصاحة والبلاغة، التي هي شيء آخر غير معرفة النحو والعربية؛ لأن الكلام لا يختص بِمَزِيَّة من الحسن حتى تتصف ألفاظه ومعانيه بوصفي الفصاحة والبلاغة، فالنظر لحسن الكلام إنما هو من هذين الوصفين، وأما النحو فشيء آخر؛ فلا ينبغي أن يستغني في حُسْنِ الكلام إلا الكُتَّابُ البلغاء أو الشعراء المُفْلِقُون(٣) لا علماء العربية؛ فإن أهل كل علم أعلم به، وكما لا يُسْأَل الفقيه عن مسألة حسابية فكذلك لا يُسأل الحاسب عن مسألة فقهية، وكذلك كما لا يُسأل النحوي عن مسألة طبية كذلك لا يسأل الطبيب عن مسألة نَحْوِيَّة، ولا يعلم العلم المخصوص إلا صاحبه المتضلع منه، فالذي يوثق به في معرفة الفصاحة والبلاغة علم البديع الذي هو فنٌّ عزيز في ذاته جميل في معانيه وصفاته. شعر:

شَيْءٌ بِهِ فَتَنَ الوَرَى غَيْرَ الذي ... يُدْعَى الجَمَالَ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ

(١) الإبَان: الوقت والحين. (م).

(٢) التضلع: تضلع الرجل: امتلأ ما بين أضلاعه شِبَعًا ورِيًّا والمقصود التبحُّر في العلوم. (م).

(٣) المُفْلقون: المجيدون البارعون. (م).

وكانت العرب العَرْباء[١] يقولون البديع بطباعهم المفطورة على الفصاحة، فكل عربي كان مَلِكَ القول وأميره كامرئ القيس وأنظاره، ومن لطافته تراه يجري على ألسنة العَوَام ويَرِد في ألفاظهم من غير قصد، ورُبَّ رَمْيةٍ من غير عناية وهو محبوب إلى الناس قَاطِبَةً، وما من أحد إلا ويحب أن يتكلم فيه حتى العامة يدعونه وكلهم يخوضون في فن الكتابة والشعر وهم يظنون أنهم عالمون به، وربما فاضلوا بين الكُتَّاب والشعراء، فَفَضْلُ الفصاحة والبلاغة، لا يُنْكَر وهما من أشرف الفضائل وأعلاها درجة، ولولا ذلك لما فخر بذلك رسول الله ﷺ في قوله: «أوتيت جوامع الكلم» وهي لا تكون إلا فصيحة بليغة، وما سُمِعَ أنه ﷺ افتخر بشيء من المعلوم سوى علم الفصاحة والبلاغة، فلم يقل إنه أوتي جوامع الحساب والطب ولا غير ذلك، فلو لم تكن هذه الفضيلة أعلى الفضائل درجة لما اتَّصَل الإعجاز[٢] بها دون غيرها فإن كتاب الله تعالى نزل عليها ولم ينزل بمعجز من مسائل العلوم الأخر.

ولما كانت هذه الفضيلة بهذه المكانة صارت في الدرجة العالية والمَنْثور[٣] منها أشرف من المنظوم؛ لأن الإعجاز إنما اتصل بالمنثور دون المنظوم، وأرباب النظم أكثر من كُتَّاب المنثور؛ لأننا لو شئنا أن نُحْصِيَ أرباب الكتابة والإنشاء

---

(١) العرب العرباء: العَرَب الخُلَّص. (م).

(٢) الإعجاز: ارتفاع عن مدى قدرة البشر. (م).

(٣) المنثور: كلام مرسل من غير وزن ولا قافية. (م).

من أول الدولة الإسلامية وإلى الآن لما وجدنا منهم من يستحق اسم الكاتب إلا أفرادًا قلائل؛ ولهذا قال بعض من انفرد في عصره بهذه الصناعة يَحُثُّ مَنْ أَجْرَى في بحر شريعتها شِرَاعَه:

يَا طَالِبَ الإِنْشَاءِ خُذْ عِلْمَهُ   عَنِّي فَعِلْمِي غَيْرُ مَنْكُورِ
وَلاَ تَقِفْ فِي بَابِ غَيْرِي فَمَا   تَدْخُلُهُ إِلاَّ بِدَسْتُورِ[١]

بخلاف الشعراء فإن عددهم كثير حتى لقد يجتمع منهم في العصر الواحد جماعة كثيرون كل منهم شاعر مُفْلِق، وهذا لا نجده في كُتَّاب الإنشاء، وربما ندر منهم الفرد الواحد في الزمن الطويل، وليس ذلك إلا لوُعُورَة مَسْلَكِ النثر وبُعْد مثاله، والكاتب المنشئ هو أحد دُعامتي الدولة فإن كُلَّ دولة لا تقوم إلا على دعامتين من السيف والقلم، قال الشاعر:

إن يَخْدِمِ القَلَمَ السَّيْفُ الَّذِي خَضَعَتْ   لَهُ الرِّقَابُ وَدَانَتْ خَوْفَهُ الأُمَمُ
فَالْمَوْتُ وَالْموتُ لاَ شَيْءٌ يُعَادِلُهُ   مَا زَالَ يَتْبَعُ مَا يَجْرِي بِهِ القَلَمُ
كَذَا قَضَى اللهُ لِلأَقْلاَمِ مُذ بُرِئَتْ[٢]   إِنَّ السَّيُوفَ لَهَا مُذْ أُرْهِفَتْ[٣] خَدَمُ

---

(١) دستور: قانون وإجازة وقاعدة يُعْمل بمقتضاها. (م).

(٢) بُرِئَت: خُلِقَت. (م).

(٣) أرهفت: أرهف السيف: سنَّه، رقَّقه وحدَّه. (م).

والقلم في البيت الأول مفعول مقدم، والسيف فاعل مؤخر، وجواب الشرط محذوف تقديره فلا عجب في ذلك يدل عليه البيت الثاني، وقال آخر:

إِذَا افْتَخَرَ الأَجْوَادُ يَوْمًا بِسَيْفِهِمْ   وَعَدُّوه مِمَّا يَجْلِبُ الجُودَ وَالكَرَمْ
كَفَى قَلَمَ الكُتَّابِ عِزًّا وَرِفْعَةً   مَدَا الدَّهْرِ أَنَّ اللهَ أَقْسَمَ بِالقَلَمْ

ومن نظر إلى سرعة فصل الخصام بالسيف قدّمه على القلم في الفضيلة، كقول الشاعر:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ   فِي حَدِّه الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ[١] لَاسُودُ الصَّحَائِفِ[٢] فِي   مُتُونِهِنَّ جِلاءُ الخطبِ وَالرِّيَبِ

ولاشك أن الممالك المتمدنة ترى صناعة الكتابة أنفع وإن كانت وظيفة السيف أرفع، وقال بعضهم في مدح القلم:

السَّيْفُ وَالرُّمْحُ خُدَّامٌ لَهُ أَبَدًا   لَا يَبْلُغَانِ بِهِ جِدًّا وَلَا لَعِبَا
تَجْرِي دِمَاءُ الأَعَادِي بَيْنَ أَسْطُرِهِ   فَلَا يُحَسُّ لَهُ صَوْتٌ إِذَا ضَرَبَا

---

(١) الصفائح: الصفائح هي السيوف العريضة. (م).

(٢) الصحائف: هي ما يُكتب من ورق ونحوه. (م).

وربما لا يفتقر الملك في ملكه إلى السيف إلا مرة أو مرتين، وأما القلم فإنه يفتقر إليه على الأيام وكثيرًا ما يُسْتَغْنَى به عن السيف، قال الشاعر:

قَوْمٌ إِذَا خَافُوا عَدَاوَةَ بَينِهِمْ   سَفَكُوا الدِّمَا بِأَسِنَّةِ الأَقْلَامِ
وَلَضَـــرْبَةٍ مِنْ كَاتِبٍ بِلِسَانِهِ   أَمْضَى وَأَنْفَذُ مِنْ رَقِيقِ حُسَامِ[١]

وقال آخر:

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوا الأَقْلَامَ عَنْ غَضَبٍ   ثُمَّ اسْتَمَدُّوا بِهَا مَاءَ الْمَنِيَّاتِ[٢]
نَالُوا بِهَا مِن أَعَادِيْهِم وَإِنْ قَعَدُوا   مَا لاَ يُنَالُ بِحَدِّ الْمَشْرَفِيَّاتِ[٣]

وإذا سُئِلَ عن الملوك التي غبرت[٤] أيامهم لا يوجد منهم من حسن اسمه إلا من حَظِي بكاتب خطب عنه وفَخَّم أمر دولته، وجعل ذكرها خالدًا يتناقله الناس رغبة في فصل خطابه، واستحسانًا لبديع كلامه، فيكون ذكرها في خفارة[٥]

---

(١) حسام: سيف قاطع. (م).
(٢) المَنِيَّات: جمع مَنِيّة، وهي: الموت والوفاة. (م).
(٣) المَشرَفِيَّات: جمع مشرفي، وهو سيف مجلوب من مشارف الشام والعراق واليمن. (م).
(٤) غَبَرَت: مضت وذهبت. (م).
(٥) خفارة: حماية وحراسة. (م).

ما دوّنه قلمه ورقّمته أساطيره، وليس الكاتب بكاتب حتى يضطر عدوّ الدولة أن يروي أخبار مَنَاقِبِهَا في حفلة، ويصبح ولسانه حامدًا لمساعيها وقلبه ما به غِلَّة[١]، وهذا الذي ذكرناه صِدْقٌ لا ينكره إلا مُتَعَسِّف، وبالجملة فإنه يجب على صاحب صناعة الكتابة والإنشاء أن يتعلق بكل علم وكل صناعة ويخوض في كل فن من الفنون؛ لأنه مُكَلّف أن يخوض في كل معنى من المعاني؛ لأن كلامه يمر على أسماع شتى من خاصة وعامة وذوي أفهام ذكية، وينبغي أن تكون مفردات ألفاظه مفهومة؛ لأنها إن لم تكن كذلك فلا تكون فصيحة، وأن تكون مُرَكَّبَاتُه مما تَفْهَمَهُ الخاصَّة والعامَّة ما لم يكن مقصودًا للخاصة فإنه يتفاوت بدرجات من خوطب به، ويكفي في ذلك النظر في كتاب الله تعالى فإنه أفصح الكلام، وقد خوطب به الناس كافة من خاصٍّ وعامٍّ، ومع ذلك فمنه ما يسارع الفهم إلى معانيه، ومنهم ما يَغْمُضُ فَيَعِزُّ فهمه إلا للخواص، وأيضًا لابدّ للكاتب الناثر من كونه - إن لم يحسن الشعر - لابدّ أن يكون له في دواوينه سعة اطلاع سواءٌ كان من شعر العرب العَرْباء أو من شعر المُوَلَّدِين[٢] أو المخضرمين[٣].

وأوّل من شرع في تقصيد القصائد واسْتَنَّ الشعر للعرب فاتبعوه وفتح لهم بابه فولجوه[٤]، امرؤ القيس؛ حيث استحسنت الأعراب تشبيهاته وسلكوا

(١) غِلَّة: عداوة وحقد وحسد. (م).

(٢) المولَّدين: المولَّدون من الشعراء هم المحدثون منهم. (م).

(٣) المخضرمين: المخضرمون من الشعراء الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. (م).

(٤) فولجوه: فدخلوه. (م).

مذهبه، فمن ذلك الوقت صارت معالم الشعر قائمة لا تُلْوَى[1]، وأعلامه منشورة لا تُطْوَى، ينفع ويضر ويسوء ويسر ويعزل ويولي. قال الشاعر:

فَمَنْ ذَا رَأَى فِي الوَرَى خِصْلَةً تُقَــــرِّبُ نَأْيًا وَتُنْئِي قَــرِيبًا
تُمِيتُ وَتُحْــــــيِي بِأَقْـوَالِهَا وَتُفْقِرُ خَصْمًا وَتُغْـــنِي حَبِيبًا

ومع أن امرأ القيس هو أوّل من حَسَّن الشعر في الجاهلية، وجعله باللغة المألوفة في تلك الأزمان الجاهلية القديمة، إلا أن أشعار الإسلاميين المتقدّمين صارت أَرَقَّ من أشعار أهل الجاهلية، وأشعار المُحْدَثِين ألطف من أشعار المتقدّمين، وأشعار المُوَلَّدِين أبدع من أشعار المحدثين، ثم كانت أشعار العصريين باعتبار التأخر أجمع لنوادر المحاسن وللطائف البدائع من سائر المذكورين، ولانتهائها إلى أبعد غايات الحسن، وبلوغها أقصى نهاية الجودة والظرف تكاد تخرج من باب الإعجاب إلى الإعجاز، ومن حدّ الشعر إلى السحر؛ فكأن الزمان يَدَّخِر لنا من نتائج خواطرهم وثمرات قَرَائِحِهِم وأبكار أفكارهم ما نخوض به بحرهم العميق، وما يكون لنا رفيقًا إذا سلكنا تلك الطريق، وأما منفعة الشعر عند العرب فإنه كان ديوانهم الوحيد ومجمع سياستهم الفريد؛ لأنهم كانوا يرجعون إليه عند اختلافهم في الأنساب والحروب، فكان مُسْتَوْدَع علومهم وحافظ آدابهم ومَعْدِن أخبارهم، ولم يزل له عند المتأخرين هذه المَزِيَّة وقد قيل:

---

(١) تُلْوى: تُهْمَل. (م).

الشِّعْرُ يَحْفَظُ مَا أَوْدَى الزَّمَانُ بِهِ ... وَالشِّعْرُ أَفْخَرُ مَا يُنْبِي عَنِ الكَرَمِ
لَوْلاَ مقَــــالُ زُهَيْرٍ فِي قَصَائِدِهِ ... مَا كُنْتَ تَعْرِفُ جُودًا كَانَ فِي هَرَمِ

وقد تعاطى نظم الشعر من لا يُحْصَى عددًا من الخلفاء، والملوك، والأمراء، والوزراء، والقضاة، والزهاد، والعلماء حتى إن جماعة من ملوك بني بُوَيْه أَرْشَوْا[(١)] جماعة من الشعراء حتى نظموا لهم أشعارًا فنسبوها لأنفسهم لما زاد في ذلك من المنزلة الرفيعة، وقد رُوِيَ عن جماعة من الصحابة أشعار كثيرة، حتى دوّنوا لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه ديوانًا ذكروا فيه أشعارًا حِسَانًا نسبوها إليه، وقد وُجِدَ منها ما هو لعلي بن أبي طالب المغربي كالأبيات المتعلقة بمدح العلم:

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ الأَنْسَابِ أَكْفَاءُ ... أَبُــوهُــــمُ آدَمُ وَالأُمُّ حَــــوَّاءُ

فالشعر ديوان الأدب، وفخر العرب، شرفه مُخَلَّد، وسُودَدُهُ[(٢)] مجدّد، تَفْنَى العصور وذكره باقٍ، وتَهْوِي الجبال وفخره إلى السماء راقٍ، ليس لما أثبته ماحٍ ولا لمن أعذره لاحٍ، مات سُحَيْم عبد بني الحَسْحَاس وله ذِكْرٌ أَضْوَعُ[(٣)] من المِسْك وأنضر من الآس[(٤)]، ولولا الشعر لما عُرِفَ ولا بالإجادة وُصِفَ، وكم في بني حام

---

(١) أرشوا: أعطوا رشوة، وهي ما يُعطى بدون حق لقضاء مصلحة. (م).

(٢) وسودَده: مجده وعِظمُه وشَرَفُه. (م).

(٣) أَضْوَع: أطيب وأشد انتشارًا. (م).

(٤) الآس: شجر دائم الخضرة، يزرع للتزيين وللرائحة العطرية. (م).

من مجهولٍ طَغَام لا يُذْكر ولا يُشْكر، وقيل إن إبراهيم بن المهدي لما اعتذر إلى المأمون - وكلامه معروف - قال للمأمون في جواب قوله أنت الخليفة الأسود: أما كوني أسود فقد قال عبد بني الحَسْحَاس:

أَشْعَارُ عَبْدِ بَنِي الحَسْحَاسِ قُمْنَ لَهُ ... يَوْمَ الفخَارِ مَقَامَ الأَصْلِ وَالوَرِقِ[١]

إِنْ كُنْتُ عَبْدًا فَنَفْسِي حُرَّةٌ كَرَمًا ... أَوْ أَسْوَدَ اللَّوْنِ إِنِّي أَبْيَضُ الخُلُقِ

فقال المأمون: والله لوددت أنهما لي بجميع ملكي يعني البيتين، وهذا جرير بن الخَطَفي مع ضِعَة بيته، وقلة أهليه، وعدم نباهة جَدِّه وأبيه قد رفعه شعره، وَعَمَّرَه قوله، وشهر اسمه، وخلد رسمه، وضَاهَى الفَرَزْدَق، وناواه[٢] وجاهره بالأهاجي، وعاداه مع شرف الفرزدق وكرم أصله، ولولا الشعر لكان بمعزل عن مجاراة مثله، ولقد ذهب امرؤ القيس وأبوه ومُلْكُه وأهلوه وبَقِي شعره وكلامه وحُفِظَ قوله ونظامه، وكم من مَلِكٍ في كِنْدَة ذهبت منه العُدَدَ والعُدَّة مما تحسن ثباته، ولا يعرف اسمه ولا سماته وبقي امرؤ القيس، ولقد ذهب مُلْكُ التبابعة والأكاسرة وزال سلطان المقاول والأساورة ولم يبق لهم سوى بيت سائر من مديح شاعر، وبلغ رسول الله ﷺ أن كعب بن زهير هجاه فَهَدَرَ دمه؛ فجاء متنكرًا حتى دخل المسجد واستأذنه في إيراد مِدْحَتِهِ؛ فأذن له، فقام بين يديه وأنشد قوله بانت سعاد، فلما بلغ إلى قوله:

(١) الوَرِق: الدراهم. (م).

(٢) ناواه: عاداه. (م).

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَني وَالعَفْو عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ

قال: عفا الله عنك وخلع عليه بُرْدَتَه وطَيَّبَ نفسه وأَمَّنَه، ولولا شعره لطاح دمه، وَحَدَّث أبو غزَّية الأنصاري قال: لما أنشد حسان بن ثابت رسول الله ﷺ حتى وصل إلى قوله:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللهِ في ذَاكَ الجَـــزَاءُ

تبسم ﷺ وقال له: «جَزاكَ اللهُ الجَنَّةَ عَلى ذَلِكَ» ثم أنشده:

فَإِنَّ أَبِــي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِــرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

فقال ﷺ: «وقاكَ اللهُ حرَّ النَّارِ».

ولما قَتَل ﷺ النضر بن الحارث أنشأت ابنته قُتَيْلة تقول:

أَمُحَمَّدٌ وَلأَنْتَ نَجْلُ نَجِيبَةٍ فِي قَوْمِهَا وَالفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقٌ[١]
مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّمَا مَنَّ الفَتَى وَهْوَ المَغِيظُ المُحْنَق[٢]
فَالنَّضْرُ أَقْرَبُ مَنْ تَرَكْتَ وَسِيلَةً وَأَحَقُّهُمْ إِنْ كَانَ عِتْقٌ يُعْتَقُ

(١) فَحْلٌ مُعْرِق: عريق النسب أصيل. (م).
(٢) المغيظ المُحْنِق: المغِيظ: هو من غضب غضبًا كامنًا. المُحْنِق: الحاقد حقدًا لا ينحلُّ. (م).

فلما سمع شعرها قال - وما ينطق عن الهوى: «لو سمعتُه قبلَ قتلِه ما قتلتُه». ومن تأثير الشعر في النفوس أن سُدَيْفًا دخل على السَّفَّاح وعنده بنو أمية على مراتبهم فأنشده:

لاَ يَغُرَّنَّكَ مَا تَرَى مِنْ أُنَاسٍ … إِنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءً دَوِيّا[١]
فَضَعِ السَّيْفَ وَارْفَعِ الصَّوْتَ حَتَّى … لاَ تَرَى فَوْقَ ظَهْـرِهَـا أُمَوِيّا

وأنشد أيضًا:

أَصْبَحَ المُلْكُ ثَابِتَ الأَسَاسِ … بِالبَهَالِيـلِ[٢] **مِنْ بَنِي العَبَّاسِ**

حتى انتهى إلى قوله:

وَاذْكُرُوا مَصْرَعَ الحُسَيْنِ وَزَيْدٍ … وَشَـهِيدٍ بِجَانِبِ المِهْرَاسِ

يريد حمزة الذي استشهد بأحد بجانب المِهْرَاس، والمهراس اسم ماء هناك؛ فتأثر السفاح بذلك تأثرًا بان في صفحات وجهه، وكان سببًا لقتل بني أمية مع ما كان في النفس منهم، والقول يفعل ما لا تفعل الإبر، وأمر بضرب رقابهم عن آخرهم.

---

(١) داء دويًّا: مرضًا شديدًا. (م).

(٢) البهاليل: مفردها بهلول وهو: العزيز الجامع لكل خير الحيي الكريم. (م).

وقال يحيى بن خالد: سألني رجل من بني أمية أن أوصله إلى الرشيد، فقلت له إن أمير المؤمنين منحرف عن كل منتسب إلى أمية، فإن كانت لك حاجة فأنا أقضيها لك، فأبى إلا الإيصال إليه، فَعَرَّفْتُ الرشيد بذلك؛ فأمر بإحضاره، فلم أرتب أنه يُمْسِي مقتولاً، فلما مثل بين يديه أنشد:

يَا أَمِينَ اللهِ إنِّي قَائِلٌ   قَوْلَ ذِي عَقْلٍ وَدِينٍ وَأَدَبْ
لَكُمُ الفَضْلُ عَلَيْنَا وَلَنَا   بِكُمُ الفَضْلُ عَلَى كُلِّ العَرَبْ
عَبْدُ شَمْسٍ كَانَ يَتْلُو هَاشِمًا   وَهُمَا بَعْدُ لأمٍّ وَأَبْ
فَصِلُوا الأَرْحَامَ مِنَّا إنَّمَا   عَبْدُ شَمْسٍ عَمُّ عَبْدِ المُطَّلِبْ

فقال له الرشيد: «صدقت»، متأثرًا بقوله وقد عمل الشعر في نفسه وأمر له بأربعين ألف درهم، ولما أخذ المُعِزُّ العَلَوِيّ مصر وجلس للهناء(١)، دخل عليه ابن هانئ الأندلسي واستأذنه في الإيراد(٢) فأذن له، فأنشد قصيدة منها:

أَلاَ إِنَّمَا الأَيَّامُ أَيَّامُكَ الَّتي   لَكَ الشَّطْرُ مِنْ نَعْمَائِهَا وَلِيَ الشَّطْرُ

التفت المُعِزُّ إلى وزيره وقال له: «اكتبوا له بالإسكندرية وسَلِّمُوها إليه بمن فيها؛ فهي شطر قد خصصناه به». هكذا كانت جوائز الشعراء، ودخل بعض الشعراء على حَسَّان بن جراح الطائي صاحب الشأم وأنشده قوله:

---

(١) جلس للهناء: جلس لاستقبال التهنئة. (م).

(٢) استأذنه في الإيراد: أستأذنه في أن يذكر له شيئًا. (م).

هَلِ الوَجْدُ إلاَّ أَنْ تَلُــوحَ خِيَامُهَا ... فَيَقْضِي بِإِهْدَاءِ السَّــلاَمِ زِمَامُهَا

فلما بلغ إلى قوله:

أَلاَ إِنَّ طَيًّا لِلْمَكَــارِمِ كَعْبَةٌ ... وَحَسَّانُ مِنْهَا رُكْنُها وَمُقَامُهَا

تَقِلُّ لَكَ الأَرضونَ مُلْكًا وَأَهْلُهَا ... عبيدًا فَهَلْ مُسْتَكْثِرٌ لَكَ شَامُهَا

وَهَبَهُ حَمَاةَ وأعمالها.

ولما مدح أبو تمام أحمد ولد المعتصم بقصيدته التي أولها.

مَا فِي وُقُوفِــــكَ سَــاعَةً مِنْ بَاسِ ... تَقْضِي زِمَــامَ الأَرْبُعِ الأَدْرَاسِ[١]

حتى وصل إلى قوله:

إِقْدَامَ عَمْرٍو فِي سَـــمَاحَةِ حَاتِمٍ ... فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَــاءِ إِيَاسِ

قال له بعض الحاضرين وهو يعقوب الكِنْدي: كيف تشبه ولد أمير المؤمنين بالأعراب الأجلاف وهو أشرف منزلة وأعظم مجلَّة[٢] فانقطع وأطرق ثم رفع رأسه وأنشد مُرْتَجِلاً:

---

(١) الأَرْبعَ الأدراس: مكان إقامة القوم الذي طُمِس وذهب ذكره. (م).

(٢) مَجَلَّة: احترام وتعظيم وإكرام. (م).

لاَ تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُوْنَهُ مَثَلاً شَرُودًا[١] فِي النَّدَى وَالبَاسِ
فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنُورِه مَثَلاً مِنَ المِشْــكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ

فاهتز الأمير لذلك طربًا، ووقع له بالموصل إجازة، فهذا تأثير الشعر في النفوس، فإذا تأملت في الواقع ونفس الأمر رأيت أن الذي نفع أبا تمام في استدراكه معرفته بالكتاب الشريف، وهذا من سَعة الاطلاع التي هي أنفع ما يكون للعلماء والأدباء.

ومن أركان سعة الاطلاع معرفة الكتب المدوّنة في العلوم والفنون، وما اشتملت عليه من المواد المهمة إجمالاً ومعرفة حال معلميها واختلاف معلوماتهم ودرجات الوثوق بهم تفصيلاً، فلابدّ من معرفة تمييز الكتب الجيدة التأليف المعتمدة النقل والتصنيف من غيرها؛ ليعتمد الإنسان على الصحيح منها ويترك غيره حتى يُعَدَّ صاحب سعة اطلاع وينعقد على كماله في العلوم والمعارف الإجماع.

ولاشك أن الكتب هي ثمرات العقول وتأليفها نظمًا ونثرًا موضوعه حفظ المعارف البشرية، وتوسيع دائرتها وإبراز أصول العلوم والفنون والأخلاق والعوائد، وكل علم نافع وإخراجه إلى حَيِّز الوجود، فالكتب هي حاملة الشرائع، والتواريخ

(١) شرودًا: حائدًا عن جادة الصواب. (م).

والحوادث، والاختراعيات، والاستكشافات ومَاجَرَيَات الدنيا[1]، وهي عبارة عن معلمين ووعاظ ومستشارين يرجع إليهم في جميع الأمور تفيد من يرجع إليها جميع ما يجهله، وإذا فقدت الأساتذة وجدت الكتب فهي ترفع أرباب الحفظ إلى درجة عالية وتسلي الإنسان وتزيل همومه، لاسيما إذا اتخذ مطالعة الكتب الأدبية دَيْدَنًا كما قيل:

وَإِذَا الهُمُومُ نَزَلْنَ مِنْكَ وَلَمْ تَجِدْ ... أُنْسًا وَمَلَّ فُؤَادُكَ الأَحْبَابَا

فَاعْمَدْ إِلَى الكُتْبِ الَّتِي قَدْ ضُمِّنَتْ ... أَوْرَاقُهَا الأَشْعَارَ وَالآدَابَا

فَهِيَ الَّتِي تَنْفِي الهُمُومَ وَلَنْ تَرَى ... أَحَدًا لَهُ أَدَبٌ يَمَلُّ كِتَابَا

فانظر تجد فرقًا عظيمًا بين مسامرة المجالس المعتادة، ومطالعة كتب الآداب والفنون التي ألفها أولو الأذهان الوَقَّادة، فإن الذكي يبحث عن الكتب الجيدة المقبولة التي تستنير بها العقول، وترتاح إليها النفوس فأرباب الفطن تميل إليها أكثر من السماع من أفواه المتكبرين المعجبين بأنفسهم، فمعرفة الكتب والتمييز بين الغَثِّ والسمين منها فن مخصوص، لا يتصف به إلا صاحب المعارف المتينة والمتفنن في العلوم جميعها؛ حيث لا يخفى عليه جميع الكتب المنسوخة والمطبوعة ويعرف أهمية كل كتاب منها ودرجة منفعته، وهل هو نادر أو كثير، وهل هو غريب في بابه، وما درجة قيمته، وهلم جرًّا.

(١) مَاجَرَيَاتَ الدنيا: أحداثها. (م).

ومن المعلوم أن أصل التعلم إنما يكون بالتلقي والأخذ من أفواه الأساتيذ؛ حتى يتحصل الإنسان على المَلَكَة الصادقة التي يعدّ بالحصول عليها المتعلمُ منتهيًا، فمن قَصَّر عن ذلك واسْتَبَدَّ بأخذ العلم من الكتب دون مراجعة الأساتيذ فهو المقصود من قول الشاعر:

كُلُّ مَنْ يَطْلُبُ العُلُومَ وَحِيدًا دُونَ شَيْخٍ فَإِنَّهُ فِي ضَلاَلِ
لَيْسَ فِي الكُتْبِ وَالقَرَاطِيسِ عِلْمٌ إِنَّمَا العِلْمُ فِي صُدُورِ الرِّجَالِ

وكذلك ينبغي أن يكون للعَالِم الواسع الاطلاع حافظة يستحضر بها القوانين العلمية بدون أن يكتفي بجميع الكتب للرجوع إليها عند الحاجة، قال الشاعر:

إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظًا وَاعِيًا فَجَمْعُكَ لِلْكُتْبِ لاَ يَنْفَعُ
أَتَجْلِسُ بِالعِـــــيِّ[1] فِي مَجْلِس وَعِلْمُكَ فِي البَيْتِ مُسْتَوْدَعُ
وَمَنْ يَـــــكُ فِي عِلْمِهِ هكَذَا يَكُنْ دَهْره القَهْقَرَا[2] يَرْجِعُ

فما أحسن العلماء، والحكماء، والأدباء، وأرباب الفنون والصنائع إذا كان لهم سعة اطلاع حفظ، فمثل هؤلاء يحق لهم أن يتنافسوا في كسب المعارف

(١) العي: العجز. (م).
(٢) القهقرا: الرجوع إلى الخلف. (م).

ليتجدّد عندهم ثمراتها بمناسبة هذه الأزمان الجديدة، واتساع الاطلاع يفيد الكاتب أكثر مما يفيد الأمي الحافظ، قال أبو هريرة: ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله ﷺ مِنِّي إلا عبد الله بن عمر؛ فإنه كان يكتب وأنا لا أكتب. استأذن رسول الله ﷺ في الكتابة فأذن له فقال: «يا رسول الله أكتب كلما أسمع منك في الرضى والغضب؟ قال: نَعَمْ، فإنِّي لا أقولُ إلا حقًّا».

الفصل السادس

في المنافسة في كسب المعارف بين الأقران[1]

التنافس صفة نفسانية تبعث طالب العلم على أن يجتهد كل الاجتهاد؛ ليفوق الأقران أو يساويهم وأن يستقري، ويبحث عما يفعلونه من الحسن والطيب والملايم؛ ليشارك الأقران فيه ويبرع فيه بجودة فهمه ودقة نظره، فالتنافس غيرة محمودة، وغبطة معهودة مركوزة في جميع النفوس الزكية، تستحسن فضل الأقران وتذعن[2] به كمال الإذعان؛ فَيَتَحَرَّى صاحبها استسهال المصاعب وركوب متون[3] الأخطار والمتاعب، وأن تنتقل هِمَّتُهُ من الثَّرَى[4] إلى الثُّرَيَّا[5] ليصعد بالمعارف مكانًا قَصِيًّا[6] كما قيل:

أَنَّى يَنَالُ محَلَّةَ الجَــوْزَاءِ مَنْ ... لاَ يَسْتَطِيعُ مِنَ الصُّعُود صعُودَا

(١) الأقران: جمع قِرْن، وقِرْن الإنسان مثيله. (م).

(٢) تذعن: تخضع وتنقاد. (م).

(٣) متون: جمع مَتْن، وهو ظهر كل شيء. (م).

(٤) الثرى: التُّراب النَّدي. (م).

(٥) الثريا: مجموعة من النجوم في السماء في صورة ثور. (م).

(٦) قَصِيًّا: بعيدًا. (م).

فيصرف شدّ عزمه في عُلويات المعالي فيبني بها المباني العوالي كما قيل:

شَدَدْتَ مِنَ اللِّوَا مَالَمْ يَشُدُّوا وَشِدْتَ مِنَ العُلَى مَا لَمْ يَشِيدوا
بِنَاؤُكَ كُلُّهُ أَجْرٌ وَشُكْرٌ وَمَا يَبْنُونَ اَجُرٌّ وَشِيدُ[١]

وينبغي لطالب المعالي أن لا يفوته شيء من فضل إخوانه وأن يزاول كل المزاولة أن يتفوّق على أقرانه، فالمنافس يجتهد بغاية الحماسة والشدّة، ويَحْتَدُّ في اجتهاده غاية الحدّة، ويسلك في بلوغ أمله المناهج الشريفة والمباهج المَنِيفَة[٢]، فسيره ممدوح، وصدره مشروح، ويغذي بالفضائل الروح، وكما حصل له الفتح الممنوح يحصل على يديه لمريديه منح الفتوح، فلا يصبر إلى ذهاب الشباب ولا اختلاق الإهاب[٣] كما قيل:

سَــأُنْفِقُ رَيْعَــانَ الشَّبِيبَةِ آنِفًا عَلَى طَلَبِ العَلْيَاءِ أَوْ طَلَبِ الأَجْرِ
أَلَيْسَ مِنَ الخُسْـرَانِ أَنَّ لَيَالِيًا تَمُرُّ بِلاَ نَفْعٍ وَتُحْسَبُ مِنْ عُمْرِي

ولا بأس على من تنافس في عرائس المعارف، وحَلاَّهَا بأحسن لباس وجَمَّلهَا وجلاَّها على الناس:

---

(١) آجر وشِيد: اَجُرّ مفردها أجُرَّة، وهي لَبِنٌ محروق مُعَدّ للبناء ويُصنع من الطين، والشِّيد: كل ما طُلي به الحائط من جصٍّ. (م).

(٢) المنيفة: العالية المَشرفة. (م).

(٣) اختلاق الإهاب: المراد كِبَر السن. (م).

مَنْ عَلَّمَ النَّاسَ كَانَ خَيْرَ أَبٍ ذَاكَ أَبُو الرُّوحِ لاَ أَبُو الجَسَدِ

وقال آخر:

كُــــنْ لِأُسْــتَاذِكَ بالشُّكْـــرِ مُذيــعـًــا وَتَجَمَّــــلْ
لُمرَبِّــــــي الجِسْـــمِ فَضْلٌ ومُرَبِّــــي الرُّوحِ أَفْـــضُــلْ

وقال بعضهم الأُبُوَّة على قسمين صُلْبِيَّة(١) وقلبية، وكذلك البُنُوَّة، وما كان قلبيًّا أعظم شرفًا مما كان صُلْبيًّا بدنيًّا.

فالتنافس من حسن شمائل أعضاء الجمعية، ومن أكمل فضائلها النفعية، فهو صفة قلبية، وخُلَّة(٢) شديدة قوية ناشئة من حب الخير للوطنية، تقوّي الحواس الباطنية الممنوحة للإنسان من فَيْض القدرة الإلهية، فالتنافس يَعُودُ على الممالك المتمدّنة بمزيد المنافع، وعلى سائر أعضاء المملكة بإنارة مملكتهم بأنوار عقولهم السواطع، وقد يرفع التنافس عقل صاحبه في أعلى عِلِّيِّين(٣) ويجعله في جميع درجات سنه على غاية من النشاط يشار له بأطراف البَنَان، ويورث مجده للبنين، ويتوّجه بتاج القبول بين أقرانه، ويجعله كالملك على إخوانه؛ لإظهار حجة سلطانه وقيام حجة برهانه، وربما ظهر ببادئ الرأي أن التنافس رفيق الطمع،

---

(١) صلبية: الصُّلب: عظم الظهر، والمقصود الأبناء من الذرية (م).

(٢) خُلَّة: خَصْلَة. (م).

(٣) عَلِّيِّين: مفرد عِلِّيّ، وهو اسم لأعلى الجنة، أو موضع في السماء السابعة. (م).

وشقيق الحسد، وأن المتمسك به غير سالك في السبيل الأَسَدِّ[١] مع أنه ليس فيه شيء من هاتين المثلبتين[٢] بل بينه وبينهما بَوْنٌ[٣] بعيد في الأثر والعين؛ إذ ليس الغرض من التنافس حصر الفضل في صاحبه، ولا الاختصاص بمكاسبه ومواهبه؛ بل مجرد التقدم في المعارف والدخول مع الأقران في ميدان السباق، ليبادر كُلٌّ منهم بالسعي واللحاق؛ فبهذا يحسن حال المعارف البشرية وتبلغ درجة الكمال، فالمنافس كالفارس الذي يدعو قِرْنَهُ للدخول في حَوْمَة النزال فلا يعلم أَمَنْضُول هو أم ناضل[٤] ومفضول أم فاضل، ولا بأس بالسباق العمومي في حلقة الفخار ولا بالتَّشَبُّثُ في كسب الاعتبار، فمن لم يساعده مجال فطنته على كمال الفوقان[٥] فلا تخلو فروسيته من كسب ثمرة تكافئ جريه في هذا الميدان، فَقَلَّ أن يخيب تنافس المتنافسين، فمن لم يكن من المُصَلِّيْنَ[٦] كان من المُجَلِّيْنَ[٧].

ومما يعدّ مَثْلَبَة خسيسة لا مَنْقَبَة نفيسة، المنافسة في الأمور الدنيوية الدَّنِيَّة وزوائد الرفاهية المدنية، فإنه لا تحسن بها المباهاة ولا المفاخرة؛ حيث لا نفع لها

---

(١) الأَسَدّ: الصائب المستقيم. (م).

(٢) المثلبتين: مفردها مثلبة، وهي العيب والمنقصة. (م).

(٣) بون: بُعد ومسافة بين شيئين. (م).

(٤) منضول أم ناضل: منضول: مغلوب، وناضل: غالب. (م).

(٥) الفوقان: الانتباه. (م).

(٦) المصلَّين: جمع مُصَلَّى، وهو الحصان الثاني في الحلبة. (م).

(٧) المجَلِّين: جمع مُجَلَّى، وهو أول حصان يدخل الحلبة. (م).

دنيا ولا آخرة، فليست مما يعود بالنفع العام على أهل الوطن من خاص وعام كما قيل:

لَعَمْرُكَ مَا التَّنَعُّمُ فِي رِيَاشِ[١] وَلاَ ظَبْيٍ يُلاَعَبُ فِي الفِرَاشِ
وَلاَ فِي الكَاسِ وَالأَوْتَارِ قَامَتْ لَهَا جَرْدٌ[٢] رَقِيقَاتُ الحَوَاشِي
وَلاَ فِي مرحَةٍ وَرُكُوبِ خَيْلٍ وَلاَ صَيْدٍ تَرَاوَعَ عَنْ خدَاشِ
وَلَكِنّ التَّنَعُّمَ فِي انْبِسَاطٍ بِلاَ قَبْضٍ يَغُمُّ وَلاَ انْكِمَاشِ
وَفِي عِلْمِ الأُمُورِ لِذِي اطِّلاَعٍ بَصِيرٍ فِي مَدَى التَّفْكِيرِ مَاشِي
يَسُوسُ الحَال يُفْشِي فِيه نَفْعًا وَيَدْفَعُ بِالتَّلَطُّفِ ظُلْمَ غَاشِي
فَفِي فَتَرَاتِ أَحْدَاثِ اللَّيَالِي يريش وَفِي تَصَادُمِهَا يراشِي
وَيُغْضِي عَنْ عُيُوبِ أَخِيه صَفْحًا كَأَنْ لَمْ يَبْدُ وَهْوَ إِلَيْهِ غَاشِي

وأما بعض المتفلسفين المتقشفين الذين يرون زينة الدنيا وطيباتها بعين الازدراء والاحتقار؛ حيث إن الدنيا ليست بدار قرار فهم يذمّون المنافسة، ويرون أنها محض طمع كما قال أبو نصر محمد بن محمد التركي الحكيم فيلسوف الإسلام الذي تخرّج بكتبه الرئيس أبو علي بن سينا وانتفع بكلامه هذه الأبيات.

---

(١) رياش: لباس أو أساس فاخر. (م).

(٢) جرد: الليّن من القماش. (م).

أخي خَلِّ حَيِّزَ ذي بَاطلٍ ... وَكُــــلُّ الحَقَـــائِقِ فِي حَيِّزِ
فَمَا الدَّارُ دَارُ مَقَامٍ لَنَا ... وَلاَ المرْءُ فِي الأَرْضِ بِالْمُعْجِزِ
يُنَافِـــسُ هـــــَذَا لِهـــذا عَلَى ... أَقَـــلِّ مِنَ الكـــلِمِ الْمُوجَزِ
وَهَلْ نَحْنُ إِلاَّ خُطُوطٌ وَقَعْـ ... ـنَ عَلَى نُقْطَةٍ وَقْعَ مُسْتَوْفِزِ(١)
نُحِيطُ السموات أولى بنا ... فمـــاذا التَّنَفُّسُ فِي المَرْكَزِ

فالمنافس بقصد نفع وطنه الفاضل هو ما يوصف بالإنسان الكامل؛ فكيف وهو المؤثر المعرفة على النزاهة، والمروءة على الفكاهة، والفضيلة على الإعجاب، وبهذا ينتظم في سلك ذوي الألباب وأن جميع نتائج درسه نافعة، وثمار غرسه يانعة، وإذا اتسع عقله بالممارسة والتجربة صار من أرباب القرائح المخترعة المكتسبة.

(١) مُسْتَوْفِز: الذي قد رفع أَلْيَتَيه ووضع ركبتيه، والمقصود قعد غير مستقر. (م).

الفصل السابع

في الروح والعقل والقريحة

الرُّوح هي أصل الحياة والحركة وأصل الإحساسات والإدراكات والشهوات، تهدي الإنسان في حركاته وسكناته وأفعاله وأقواله، وبها يمتاز عما سواه من باقي الحيوانات، وهي من أصل الفطرة في حدّ ذاتها طاهرة زكية وإنما تولدت عنها الشهوات واللذات لما اتصلت بالأجسام الطبيعية، ثم إن للروح استعدادات تتميز بها إلا أن كُنْهَهَا[1] مغيب عن البشر لا يعرفون حقيقته، وإنما غاية ما يقال فيها إنها جوهر متميز عن الجسم ومباين له؛ حيث إن لها استعدادات على تنجيز عمليات ليس من خواص المادة تنجيزها؛ فهي التي تدرك الأشياء بما فيها من المشابهة والمشاكلة والمباينة والمضادة، وتحيل فيها الفكر وتقيم عليها الدليل، وتنتج النتائج الصحيحة وتتبصر في عواقب الأمور، وتقضي وتحكم بما يلزم وهذا لا يوجد في المواد الجسمية.

فهي مشتملة على أصل فعال يحملها على العمل أو الترك تبعًا لما تدركه من الملايمة، وهذا الأصل الفعال هو الإرادة التي تحمل على الاختيار، فتختار

(١) كنهها: الكنه: حقيقة الشيء. (م).

ما يليق لها من أسباب السعادة مما تظنه كذلك، ومن متعلقات الروح والعقل والقريحة، فالعقل قوّة رُوحانية بها إدراك حقيقة الأشياء وقياس بعضها ببعض بما فيها من الجامع والحكم عليها بما يقتضي، فالعقل في الإنسان هو الجزء الناطق المتفكر، وهو عبارة عن قوّة روحانية نورانية تدرك ما له وجود في خارج العيان، أو في الأذهان على حقيقته، وتدرك جميع العلاقات والمباينات في المخاطبات والمحاورات، فإذا أعرب المتكلم عما في ضميره تصوّر عقل السامع إذا كان سليمًا قويًّا صحة الكلام أو فساده من أوّل وهلة، وبقدر إدراك الإنسان النسب والعلائق بين الكائنات التي حوله تكون جودة عقله على حسب قوّة هذا الإدراك.

فالعقل هو الوسيلة الوحيدة في التصوّر والتصديق وتمييز الحقائق على وجه دقيق نميق، وإذا كان حادًّا ذكيًّا متوقدًا[١] يخترع ويبتدع كان قريحة، فالعقل الواسع يدرك العلاقات المتولدة بين الأشياء، ومن أوّل وهلة يحفظ فروعها ومتشعباتها وينسبها إلى أصل واحد، ومركز عمومي يجمعها حتى تصير بالنسبة للعقل معلومًا واحدًا ومستحضرة فيه بصورة واحدة، فتنتقش في مرآة العقل المعلومات تأصيلاً وتفريعًا في صورة جَلِيَّة، فالمدرك لهذه الصورة هو القريحة فلا يتصف بالقريحة إلا من اتصف بسعة العقل، ولكن قد يتصف الإنسان بسعة العقل ولا يكون مُتَّصِفًا بالقريحة؛ إذ كل منهما ممتاز عن الآخر؛ لأن القريحة

(١) متوقدًا: نشيطًا لامعًا سريع الفهم. (م).

دائمًا نشطة شغالة فعالة ولادة مُتَصَوِّرة بخلاف العقل ولو متسعًا، فإنه في الغالب مثله كمثل التاجر يعطي ويأخذ مع الفتور والكسل وقلة الحماس والسرعة، ولا مانع أن يقال إن القريحة هي أعلى درجات أفكار العقل البشري بقدر ما يستطيع أن يتفكر، فهي بهذا المعنى أجلُّ نعم الباري ﷻ؛ إذ بها يكون للإنسان مَلَكَة الوقوف على الحقائق والدقائق والرقائق، وبها ربط التصوّرات المتجددة العجيبة التي تدركها النفس والاختراعات والابتداعات التي لا على مثال سابق، فالقريحة تجمع أطراف التصوّرات والتصديقات المتفرقة بما تدرك فيها من العلاقات وتتصرف التصرف التام في هذا الجمع.

وأكثر الناس ممن لا يُمْعِنُ النظر في القريحة يعتقد أنها حدة قوية في النفس، تهديها بالصدفة والاتفاق إلى صَوْب أي شيء من الأشياء؛ فتخبط بها خَبْطَ عَشْوَاء[١] كالدولاب[٢] الذي يتحرك بنفسه حركة قَسْرِيَّة[٣] حتى يصل بالصدفة والاتفاق إلى عمل يعمله بدون إرادة ولا اختيار، أو كمنبع ينصب ماؤه في أي محل كان ويتركه فلا يعيده إليه، وليس الأمر كما يعتقدون بل هو كما أسلفناه قوّة فعالة تبرز عملها على الأشياء بفن مخصوص وإرادة مخصوصة، تتحرى التصرف في مفعولها بجميع التصرفات المطلوبة وتشكله بأشكال حقيقية

---

(١) فتخبط بها خَبط عشواء: تتصرف على غير علم ولا بصيرة. (م).

(٢) الدولاب: العجل من خشب وتُحمل عليه الأثقال. (م).

(٣) قسرية: مقهورة مغلوبة. (م).

مرغوبة، فهي كالخبير بفن التشريح يميز أجزاء الأعضاء التي تبحث عنها وتنظر فيها وتقيس نسب أجزائها المُؤْتَلِفَة، ولو تباعدت فهي كالمرآة الصقيلة التي تنطبع فيها صور الأشياء، أو كآلة عمومية نباشة ثاقبة في بحثها عن الأشياء، ومن أفضل وظائفها أنها لا تزاول البحث عن المستحيل الذي لا يُتصوّر وجوده ولكن عن استخراج الجائز الممكن الوجود ولو متعاصيًا، فكل من اتصف بالقريحة المتصرفة هذا التصرف حُكِمَ له بقوّة رُوحه واتساع عقله وسرعة حكمه وإنتاجه وأنه جوهري العقل.

وقد اقتضت الحكمة الإلهية إيداع القريحة العقلية في دماغ الإنسان لتكون كإيداع المعادن النفيسة في باطن الأرض، فإن المعادن في باطن الأرض غير مصقولة ولا متشكلة بأشكال منتظمة، بل مَشُوبَة[١] بأخلاط وأجزاء أجنبية فلا تنظف وتظرف إلا بالفنّ والصناعة، وكذلك القريحة فإن العلوم والفنون تعمل فيها ما تعمله تصفية المعادن النفيسة بإزالة ما خالطها من المواد الأجنبية، ولا يزيد في جوهرها بل يبرزها على ما أرادته الحكمة الإلهية، وإذا قويت القريحة في العلوم والفنون والصنائع وبلغت فيها درجة كمال، كانت آلة للاختراع والابتداع حتى لا يكون لتصرفها نهاية ولا لحسن تدبيرها غاية، وقد سلف لنا أنها هي العقل الكامل الذي يدرك العلاقات بين الأشياء ومن هذه العلاقات ما يكون بين الفنون الأدبية والعلوم الحقيقية.

---

(١) مشوبة: مختلطة. (م).

الفصل الثامن

في العلاقة بين الفنون الأدبية والعلوم الحقيقيَّة

الفنون الأدبية المسماة بعلوم العربية وهي: النحو، والصرف، والبيان، والمعاني، والبديع، والخط، والعَرُوض والقوافي، وقَرْضُ الشعر، والإنشاء، والمحاضرات، ولاسيما اللغة وكل ما يُعِين على تحسين العبارات العلمية كلها آلة للعلوم الحقيقية عقلية أو نقلية، فبالتمكن من الفنون الأدبية يقتدر الإنسان على التعبير عما في الضمير بأحسن عبارة وأوضح إشارة، ويحصل على مَلَكَةِ تأدية العبارات العلمية بما يقتضيه الحال من اختصار أو بسط، فمن هذا يفهم أن المعارف الأدبية والعلوم الحقيقية مُتعَلِّق بعضهما ببعض لكمال ما بينهما من الروابط والمناسبات، وأن كلاًّ منهما مُتَوَقِّف على الآخر، وإذا نظرنا إلى ما سبق من التقدّمات العلمية في البلاد المتمدنة كبلاد اليونان وبلاد الرومانيين وبلاد الإسلام وجدنا أن دراسة الآداب في مدن آسيا ورومه وبغداد ومصر وغيرها حَسَّنت دراسة العلوم الحقيقية، وأن دراسة العلوم الحقيقية كَسَتْ المعارف الأدبية حُلَل[1] البهجة والرونقة[2] وزادتها تحسينًا وتكميلاً.

---

(١) حُلل: جمع حلة وهو كل ثوبٍ جديد. (م).

(٢) الرونقة: الصفاء والحُسْن. (م).

فكلٌّ من النوعين العلميين اقتبس من الآخر ما زاده بهجةً وكمالاً، ولما كانت بهجة اليونان لم تَكْمُل إلا بالجمع بين النوعين سعدت بذلك وتمتعت بفضل الحكمة والآداب، واشتهرت بذلك أكثر من غيرها وصارت العلوم الأدبية والعلوم الحَكَمِيَّة متقارنة في التمكن والتقدم خصوصًا في مدينة أثينه، وهي مدينة حكماء اليونان وكذلك الرومانيون فكانت في زمن القيصر أغسطوس أدبياتهم وحكمياتهم على حدٍّ سواء في التقدم والتكامل لاسيما في مدينة رومه، وكانت إذ ذاك رومه، حاكمةً على أثينه بقوّة سلاحها وشوكة حكامها، وإن تساوى المدينتان في العلوم والآداب وسعة الاطلاع، وأما الأزمان الحديثة كأيام الخلفاء في البلاد المشرقية والمغربية فقد تقدمت الفنون الأدبية والعلوم الشرعية النقلية والعلوم الحكمية والعقلية، وتَوَلَّع هؤلاء الخلفاء بالبحث عن ترجمة كتب اليونان في دواوينهم بلغة العرب الفصحى؛ فسارت الآداب والعلوم في الخلافة الإسلامية سيرًا واحدًا مُتَّحِد الخطوة، وصارت علوم الأقدمين وآدابهم وتواريخهم معلومة للمتأخرين مع ما أضيف إلى ذلك من تآليف علماء الإسلام وتصانيفهم وما تحدَّد من نتائج قرائحهم الذكية، وثمرات عقولهم المنيرة مع ما توارثوه في الأدبيات من أسلافهم وهم العرب العَرْبَاء. قال عتبة بن أبي سفيان: «إن للعرب كلامًا هو أرقُّ من الهواء وأعذبُ من الماء، مَرَقَ من أفواههم مروق السهام من قِسِيِّهَا[1] بكلمات مُؤْتَلِفَاتٍ، إن فُسرت بغيرها عَطِلَتْ، وإن بُدلت بسواها من الكلام اسْتُصْعِبَتْ،

(١) قسيها: القسي: جمع قوس وهو ما تُرمى به السهام. (م).

فسهولة ألفاظهم توهِمُكَ أنها ممكنة إذا سُمِعَتْ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طلبت، بلغتهم نَزَلَ القرآن، وبها يدرك البيان، وكل نوع من معناه مُبَايِنٌ لما سواه، والناس إلى قولهم يصيرون وبهديهم يَأْتَمُّون، أكثر الناس أحلامًا وأكبرهم أخلاقًا» وآباءٌ لنا كانوا كرامًا – وهم على العموم أعزُّ الناس أنفسًا – لم ينقادوا إلى أجنبيٍّ من الملوك بل سلكوا في حفظ حريتهم أحسن السلوك، ومن أعزهم نفسًا وأشرفهم هممًا الأنصار وهم الأوس والخزرج أبناء قَيْلَة، لم يؤدوا إتاوة(١) قط في الجاهلية إلى أحدٍ من الملوك، وكتب إليهم تُبَّع أبو كرب يدعوهم إلى طاعته ويتوعدهم إن لم ينقادوا له؛ فكتبوا إليه:

العَبْدُ تُبَّـــعُ كَمْ يَؤُمُّ قِتَالَنَا   وَمَكَانُهُ بالمَنْزِلِ المُتَـــــذَلِّلِ
إِنَّا أُنَاسُ لاَ يُنَـــــامُ بِأَرْضِنَا   عَضَّ الرَّسُولُ هنَا لأُمِّ المُرْسِلِ

فلما دنا لقتالهم كانوا يقاتلونه نهارًا ويُخْرِجون إليه القرى ليلاً؛ فَنَدِمَ من قتالهم ورحل عنهم، فكل عزيز نفس من العرب يرى في نفسه الملوكية وأنه سَيِّدُ حَيِّه وقبيلته وأكرمها.

وَإِذَا سَأَلْتَ عَنِ الكِرَامِ وَجَدْتَنِي   كَالشَّمْسِ لاَ تَخْفَى بِكُلِّ مَكَانِ

---

(١) الإتاوة: جزية أو ما يؤخذ بالإكراه. (م).

وبالجملة، فالعلوم الأدبية تكسو العلوم الحقيقية طلاوة[١] جَلِيَّة، فإنه لو صار في التآليف والتصانيف سرد مسائل أي علم كان بعبارة بسيطة مجردة عن التحلي بحلية الإنشاء والأدب، ولم يصر تلطيفها بما يسيغها في ذوق القارئ لكانت مسائلها ركيكة غير رائقة؛ فلابد لمسائل العلوم من حسن التوقيع وفصاحة العبارة وتحسينها بما يزيل عن ذهن القارئ وَعْسَاء السآمة[٢]، فحسن العبارة في تقرير المسألة العقلية والنقلية هو ذكرها على وجه لطيف مقبول للعقل ليستفيدها السامع وتلتذ بها المسامع، فنهاية الآداب تحسين العبارات وتزيينها بالتلطيف والانسجام لتكون بهذا المعنى مفتاحًا لأبواب العلوم الحقيقية، كما أن العلوم الحقيقية تُعين بالكلية والجزئية على كمال توسيع دائرة الآداب في كل لسان لاسيما لسان العرب؛ ولذلك تجد الفنون الأدبية عند الأمة القليلة الحضارة والعِمَارِيَّة التي دائرة علومها ومعارفها الحقيقية ضيقة النطاق لم تزل في حالة الطفولية وأدباؤها يشبهون الصغير في المهد لا يعرف إلا المناغاة[٣]، فلا يستطيع الأديب منهم أن يميز الغث[٤] من السمين ولا أن يأتي المعارف العالية من أبوابها، فَلأَجْل اجتناء ثمرات المعارف في تلك البلاد يجب غرس الآداب فيها،

---

(١) طلاوة: حُسْن ورونق. (م).

(٢) وعساء السآمة: وعساء: السهل اللين من الرمل. السآمة: الملل والضجر، والمقصود الانغماس في الضجر والملل. (م).

(٣) المناغاة: الحديث مع الصبي بما يحب ويهوي. (م).

(٤) الغث: الرديء من كل شيء. (م).

وتعويد عقول أهلها على التدقيق والترقيق في الكلام، والنظر في العلاقات التي بين الفنون الأدبية والعلوم الحقيقية، فبهذا تتقدّم الآداب والعلوم، وبامتزاجهما يحصل التناسق كما هو معلوم، قال الشاعر:

إذَا مَا الفِكْرُ وَلَّدَ حُسْنَ لَفْظٍ وَأَسْلَمَهُ الوُجُودُ إِلى العِيَانِ
وَوَشّـــاهُ فَنَمْنَمَهُ مجيـــدٌ فَصِيحٌ فِي المَقَالِ وَفي اللِّسَانِ
تَرَى حُـــلَلَ البَيَانِ مُنَشَّرَاتٍ تَجَلَّى بَيْنَهَا صـــورُ المَعَـــاني

ففنون الآداب آلات قوية لسائر العلوم الحقيقية، والتَّضَلُّع منها يحتاج إلى تسهيل الأسباب والوسائل لتنتشر في الأوطان، وتجلب معها أعظم الفضائل وكمال العرفان.

الفصل التاسع

في ذكر الطرق المسهِّلة لتقدم العلوم والآداب، وطريق الحصول عليها والاكتساب

أعظم الوسائل والوسائط التي تُعين على تقدم العلوم والفنون في مملكة من الممالك هو تشويق صاحب المملكة للأدباء والعلماء بالمكافأة اللائقة والتحف الملايمة؛ لأنه يَنْتُجُ من التشويق المنافسة والمقارنة وينشأ عن ذلك سعادة المملكة بوجود الرجال في محط الرحال، كما ينشأ عن ذلك أيضًا إصلاح أحوال الأهالي فالملك العاقل، والأمير الفاضل، والسلطان العادل هو من يسعى دائمًا في إسعاد دولته وإرشاد سلطنته بإسعاد أفراد الأهلين المساعدين على نفع وطنهم، فالحاكم الذي يعشق علوّ الشأن، ويقيم على محبة وطنه الحجة والبرهان يتخذ قواعد حكمه وضوابط مُلْكِه تشريفَ أهل الفضل، ومكافأة أهل النبل سواء كانوا من أرباب التأليف والتصنيف، أو من أهل التعليم والتفهيم، أو من أصحاب الاختراع والابتداع حتى يُشْهِرَهُم بالشهرة الممدوحة ليبقى ذكرهم، وآثار مجدهم معلومة التاريخ لمن يأتي من بعدهم، فلا تزال في أوطانه أشجار المعارف مثمرة، وأغصان اللَّطائف مزهرة، وتكثر المسابقة والمنافسة، وتستمر الدراسة والممارسة، وتفيض

على المملكة بحار المعارف والعوارف، ويبدو صلاح اللطائف والطرائف، وتقوى ينابيع العلوم والفنون، وتتسع مقالات الشروح والحواشي والمتون.

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن الكائنات الفطرية قابلة للتغيير والتبديل، لاسيما العقول البشرية فإنها كالجنود المجندة تجرّد دائمًا لاتساع مملكتها سيوف الذكاء المهندة(١)، فكما أن النور مدى الأزمان في حرب مع الظلمة، والعلم يحارب الجهل والوصمة فكذلك مصابيح المعارف بهذا المعنى تستنير تارة وتنطفئ أخرى، وينتقل نورها إلى مملكة يرى وجوده فيها أجدر وأحرى.

فبهذا صح عند الاقتضاء الانتقال عن الأوطان لاكتساب فضائل العرفان، فمن لم يجد معلمًا يعلمه في بلده أو وطنه ما يحتاج إليه من أمر دينه أو معاشه؛ فليرحل وجوبًا في الواجب وندبًا في المندوب اقتداءً بالسلف الصالح والخلف الناجح، فقد رحل موسى إلى الخَضِرِ - عليهما السلام - للاستفادة منه، ورحل جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه مسيرة شهر إلى أنيس بن عبد الله في طلب حديث واحد، ورحل عقبة بن الحارث من مكة إلى المدينة في مسألة واحدة، قال القاضي الفاضل في بعض رسائله: ما أعلم أن لِمَلِكٍ من الملوك رحلة في طلب العلم إلا للرشيد فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع المُوَطَّأ على الإمام مالك، وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين، قال:

(١) السيوف المهندة: السيوف المطبوعة من حديد الهند. (م).

ثم رحل لسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب بولديه الأفضل والعزيز إلى الإسكندرية، فسمعه علي بن طاهر بن عوف، ولا أعلم لهما ثالثًا. فالسياحة أمر عظيم في تكميل النفس؛ لأن السياح يلقى أفاضل مختلفين فيستفيد من كل واحد فائدة مخصوصة، وقد يبلغ مَبْلَغ الأكابر من الناس فيْسَتْحقِر نفسه في مقابلتهم، وقد يصل إلى المدارس الكبيرة فينتفع بها، وقد يشاهد اختلاف أحوال أهل الدنيا بسبب ما خلق الله في كل طرف من الأحوال الخاصة بهم فتتقوّى معرفته.

وبالجملة، فالسياحة لها أمر قوي في أمر الدين والدنيا، وبهذا تستنير الممالك بالتناوب، فمصابيح العلوم أشبه بالكواكب ذوات الأذناب[١] تنتشر في الأفق انتشارًا مؤقتًا وهي سريعة الزوال، ولا تعود إلى محلها إلا بعد قرون وأجيال، فلا بأس إذا ضعف نور التمدّن في مملكة من أن تعود إلى رتبتها الأولى، لاسيما إذا سَخَّر الله لها مَلِكًا مَجَدِّدًا صاحب قريحة عظمى، ويد طُولى وللآخرة خير لك من الأولى.

(١) الكواكب ذوات الأذناب: جِرْم سماوي له ذَنَب يدور حول الشمس في فلكٍ بيضيّ. والمقصود شدة الوضوح لوجودها في السماء. (م).

الباب الرابع

في ذكر الوطن وتمدينه وبيان أن أعظم أسباب ذلك التربية والتعليم واستكمال المعارف والتعميم، وفيه فصول

الفصل الأول

في الكلام على الوطن

الوطن هو عش الإنسان الذي فيه دَرَج[١] ومنه خرج ومَجْمَعُ أسرته ومقطع سرّته، وهو البلد الذي نَشَّأته تربته، وغذاؤه هواؤه، ورباه نسيمه، وحلت عنه التمائم فيه، قال أبو عمرو بن العلاء: «مما يدل على حرية الرجل وكرم غريزته حنينه إلى أوطانه، وتشوّقه إلى متقدّم إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه»، والكريم يحنّ إلى أحبابه كما يحنّ الأسد إلى غابه، ويشتاق اللبيب إلى وطنه كما يشتاق النجيب إلى عطنه[٢]، فلا يُؤْثِر الحرّ على بلده بلدًا ولا يصبر عنه أبدًا، قال الشاعر:

بِلاَدٌ بِهَا نِيطَتْ عَلَيَّ تَمَائِمِي   وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا

وقال آخر:

بَلَدٌ صَحِبْتُ بِهَا الشَّبِيبَة وَالصِّبَا   وَلَبِسْتُ ثَوْبَ العَيْشِ وَهْوَ جَدِيدُ

---

(١) دَرَج: نما ونشأ. (م).

(٢) النجيب: الناقة، والعطن: مبرك الإبل، والمقصود أن الإبل تشتاق لأوطانها. (م).

فَإِذَا تَمَثَّلَ فِي الضَّمِيرِ رَأَيْتُهُ   وَعَلَيْه أَثْوَابُ الشَّبَابِ تَمِيدُ(١)

وكان الناس يتشوّقون إلى أوطانهم ولا يفهمون العلة في ذلك حتى أوضحها علي بن العباس الرومي في قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه(٢) على رجل من التجار يعرف بابن أبي كامل أجبره على بيع داره واغتصبه على بعض جُدُرِها؛ فقال:

وَلِي وَطَنٌ آلَيْتَ أَنْ لاَ أَبِيعَهُ   وَأَنْ لاَ أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرَ مَالِكَا
عَمَّرْتُ به شَرْخَ الشبابِ ونعمةً   بصحبةِ قومٍ أَصْبَحُوا في ظِلاَلِكا
وَحَبَّب أوطانَ الرِّجَالِ إليهمُ   مآرِبُ قضاها الشبابُ هنالكا
إذا ذكـــروا أوطـــانَهُم ذكَّرتهم   عُهودَ الصِّبَا فيها فحنُّوا لذلكَ
فقد ألفَتْهُ النَّفْـــسُ حَتَّى كَأَنَّهُ   لها جسدٌ إن بانَ غُودِرْتُ هَالِكَا

ولا يبعد العاقلَ عن الوطن إلا طلبُ العلى إذا لم يمكن فيه، قال صاحب لامِيَّة العجم:

إِنَّ العُلَى حَدَّثَتْنِي وَهْيَ صَادِقَةٌ   فِيمَا تُحَدِّثُ أَنَّ العِزَّ فِي النُّقَلِ
لو أن في شَرَفِ المأوَى بُلُوغَ مُنًى   لم تَبْرحِ الشَّمْسُ يَوْمًا دَارَةَ الحَمَلِ(٣)

---

(١) تميد: تتثنى وتتبَخْتَر. (م).
(٢) يستعديه: يستعين بالمساعدة للنصرة على شخصٍ ما. (م).
(٣) دارة الحمل: مدار الحمل. (م).

وقال من تحير في الحِلِّ والارتحال:

وَبَقِيتُ بَيْنَ عَزِيمَتَيْنِ كلاهُمَا أَمْضَى وَأَنْفَذُ مِن شباةِ سنانِ[١]
هَمٌّ يُشَوِّقُنِي إِلَى طَلَبِ العُلَى وهَوًى يُشَوِّقُنِي إِلَى الأَوْطَانِ

وقد جرت العادة أن البعيد عن الوطن الذي قضى فيه جزءًا من شبابه يتشوّق إليه سواء كان من أهل البدو أو من أهل الحضر، فأهل البدو يتأسفون على فراق نجد ويحنون إليها حنين المتأسفين على غوطة[٢] دمشق وقصور مدينة السلام، وتحف الجزيرة، ومستشرف الخَوَرْنَق[٣] وجوسق سُرَّ مَنْ رَأَى من كل من بَعُدَ منهم عن بلده وطال مقامهم بغيره، فإذا أبدينا بعض محاسن أم الدنيا، والنعمة التي هي كِنَانَة الله في أرضه ظهر لنا أنها تعدّ أوّل وطن من أوطان الدنيا يستحق أن تميل إليه قلوب بنيه وأنه أحق أن تحنّ إليه نفوس مفارقيه من ذويه.

ولا يشك أحد أن مصر وطن شريف إن لم نقل إنها أشرف الأمكنة؛ فهي أرض الشرف والمجد في القديم والحديث، وكم ورد في فضلها من آيات بَيِّنَات وآثار وحديث، فما كأنها إلا صورة جنة الخلد منقوشة في عرض الأرض بيد

---

(١) شباة سنان: حَدُّ الرمح. (م).

(٢) غوطة: الأرض المنخفضة المستقرة. (م).

(٣) مستشرف الخورنق: أعلاه. (م).

الحكمة الإلهية التي جمعت محاسن الدنيا فيها حتى تكاد أن تكون حَصَرَتْهَا[١] في أرجائها ونواحيها بلدة معشوقة السكنى، رحبة المأوى، حصباؤها[٢] جوهر، وترابها مسك أذفر[٣]، يومها غداة، وليلها سحر، وطعامها هنيء، وثراها مريء[٤]، واسعة الرقعة، طيبة البقعة، كأنّ محاسن الدنيا عليها مفروشة وصورة الجنة فيها منقوشة، واسطة البلاد ودُرَّتَها ووجهها وغُرَّتها، بلد كم خرج منه من كبار ملوك وسلاطين وحكماء وأساطين، وكم نبعت منه عيون علوم وانجلى به من البلاد سحائب غيوم، فمن ذا يضاهي مصر في كمال الافتخار، أو يباريها في الجمال والاعتبار، أمّتها أوّل أمّة في المجد وعلوّ الهمة.

بَهَالِيلُ فِي الإِسْلاَمِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ ... كَأَوَّلهِـــمِ فِي الجـَـاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ القَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا ... أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

موصوفة عند الجميع بالشجاعة والحماسة والكِياسة[٥] والرئاسة فضلاً عن الذكاء والفطنة ولطافة العوائد والأخلاق مما سارت به الركبان بسيرتهم الحميدة

---

(١) حَصَرَتها: حدَّدَتها وقَصَرتها . (م).

(٢) حصباؤها: الحصباء: الحصى. (م).

(٣) مسك أذفر: مسك شديد ذَكاء الريح. (م).

(٤) مريء: طيّب. (م).

(٥) الكِياسة: الظُّرف والذكاء واللباقة. (م).

في سائر الآفاق فلها الحق في أن يحترمها جميع الأمم والملل وملوك الدنيا والدول، فكم اقتبسوا منها في الأزمان الخالية أنوار العلوم والمعارف التي طَوَّقَتْ أجياد الدنيا وصارت بها في الدرجة العالية.

ولم تزل إلى الآن فخار كل زمان كما لم تزل آثار محاسنها زينة لكل مكان، حظها من التمدّن عظيم ورَوْنَق تاجها درّ نظيم، فهي الكنانة ذات المنعة والمكانة التي قيل فيها:

وَكِنانَةُ اللهِ الَّتِي كَم فوّقت ... منها وإن بَعُدَ العَدُوّ سِهَامُ
وقديمة شابَ الزمانُ وحُسْنُها ... باقٍ ولم تَهْـرَمْ[1] لهـا أَهْرَام
وإذا سَطا حَرّ الهجير[2] فماؤها ... وهواؤها بـردٌ به وسـلام
وغَنِيَّةٌ بالنيلِ عن نَيْل الحيا ... وله أَيَـادٍ في الوفـودِ جِسَام
وعن المَطِيِّ[3] المثقلاتِ وحملِها ... بالمنشـآت[4] كَأَنَّهَا أَعـلامُ
مِنْ كُلِّ باسطةِ الجَنَاحِ[5] كأنَّها ... لمـا تسـيرُ بالريـاحِ غَمَام[6]

(١) تهرم: تصل لأقصى الكِبَر. (م).
(٢) الهجير: شدة الحر عند انتصاف النهار. (م).
(٣) المطيّ: جمع مطية، وهي الناقة التي تُركب. (م).
(٤) المنشآت: السفن مرفوعة الشراع. (م).
(٥) باسطة الجناح: المقصود بها السفينة. (م).
(٦) غَمام: جمع غَمامة وهي السحابة. (م).

تَسْري بمن فيــها وهُمْ في غَفْلَةٍ وكذا ليـــــــــالي الدَّهْرِ والأيام
وعزيز مصرَ على السَّرِيرِ تَهَابُهُ الـدُ نْيـــــا ولم يَبْعُدْ عَلَيْهِ مَرَامُ

يقال إن من خصائص مصر كثرة الدنانير بها، وإن من دخل بها ولم يستغن فلا أغناه الله، ولا عبرة بما قاله بعضهم في تفضيل بغداد عليها:

يَقُولُونَ مصرُ أَخْصَبُ الأرضِ كُلِّهَا فقلتُ لهم بغدادُ أخصبُ مِن مصر
وما مصر إلا بلدةٌ مثلُ غَيْرِهَا تَعَاقَبُهَا الأيامُ بالعُسْرِ واليُسْر
ولكنَّـــكم تُطــرُونَهَا[١] بهــــواكـــمُ ولم تَخْلُ أَرْضٌ من مُحِبٍّ وَمِنْ مُطْرِي
وإلا فأينَ الخِصبُ عن معشرٍ بها يُقَاسُون أنواعَ العذابِ مِنَ الفَقْرِ
وما خير قوم تَجْدبُ الأرضُ[٢] عندَهُم بما فيه خِصبُ العالَمِينَ من القَطْرِ
إذا بُشِّرُوا بالغَيْثِ رِيعَتْ[٣] قُلُوبُهُم كما رِيعَ فِي الظَّلْمَاءِ سِرْبُ القَطَا الكُدْرِي[٤]

وقال بعضهم: من خصائص مصر أن المصري لا يرى مُسْتَوطنًا في غيرها إلا في الذل، وكانت تحية ملوكها وعظمائها «أيها العزيز» كما نطق به القرآن الشريف، وبالجملة فالبلاد تُمْدَح وتذم فقد كان يقال: الدنيا بصرة، ولا مثلك يا بغداد، وكان

(١) تطرونها: تجاوزون الحد في مدحها. (م).
(٢) تجدب الأرض: تُصاب بالقحط. (م).
(٣) ريعت: فزعت. (م).
(٤) القطا الكدري: القطا طائر ثقيل المشية، والكدري نوع من أنواعه قصيرة الأذناب. (م).

الحَجَّاج يقول: الكوفة جاريةٌ جميلة لا مال لها؛ فهي تخطب لجمالها، ونحن نقول: مصر جارية عروس مُحَلاّة بالمال والجمال، فهي تخطب لمالها وجمالها؛ فهي الآن مجمع التَّالِد والطَّارِف، ومعدن المحاسن واللطائف، وبها منافع أرباب النهايات في كل فن باديه وهي حاضرة إفريقه وما عداها بادية.

قال بعض من سكن سواها وهو يهوى سُكْنَاها: فآهًا على الديار المصرية وأوقاتها، وسُقْيًا لمعاهد أُنْسِهَا لِنَفْسِهَا وَلَذَّاتِها، لِذَاتِهَــا،

وَرَعْـيًـا لتلك المنازل التي:

*** لا تَخْرُجُ الأَقْمَارُ عَنْ هالَاتِهَــــــا ***

وحفظًا لتلك الوجـوه التي:

*** للشَمْس أضواءٌ على جَبَهَاتِهَــــا ***

وشكرًا للنفــوس التي:

*** المَجْــدُ يَغْلُبُها عَلَى شَهَوَاتِهــــا ***

ذُكِرَ الأَنَامُ لَنَا فكَانَ قَصِيدَةً أَنْتَ البَدِيعُ الفرْدُ مِن أَبْيَاتِهَا

شعر:

قَضَيْتُ أَطْيبَ لَيْلَتِيَّ مُنَعَّمًا فِيمَا يَلَذُّ بِهِ فُؤَادُ العَاشِقِ
فِي لَيْلَةٍ قَمَرُ السَّمَاءِ مُغَازِلِي وبِلَيْلَةٍ قَمَرُ الزَّمَانِ مُعَانِقِي

فكيف وهي على ممر الليالي والأيام منبع السعادة، ووارثة دار السلام، وزينة بلاد الإسلام مليكها عزيز، وأهلها أهل كرامة، وتعزيز محبوبة من أبناء الأوطان متمسكة بحديث حب الوطن من الإيمان، وهي إن شاء الله تعالى في أمان واطمئنان من حوادث الزمان؛ حيث إن عزيزها:

أَقَامَ مَنَارَ الحَقِّ حَتَّى اهْتَدَتْ بِهِ ... وَأَبْصَرَهَا مَنْ لَمْ يَكُنْ قَطُّ أَبْصَرَا

وَعَادَتْ عَلَى الدُّنْيَا عَوَائِدُ فَضْلِهِ ... فَأَقْبَلَ مِنْهَا كُلُّ مَا كَانَ مُدْبِرَا

الفصل الثاني

في أبناء الوطن وما يجب عليهم

قد اقتضت حكمة الملك القادر الواحد أن أبناء الوطن دائمًا مُتَّحِدُون في اللسان، وفي الدخول تحت استرعاء ملك واحد، والانقياد إلى شريعة واحدة وسياسة واحدة، فهذا مما يدل على أن الله ﷻ إنما أعدّهم للتعاون على إصلاح وطنهم، وأن يكون بعضهم بالنسبة إلى بعض كأعضاء العائلة الواحدة، فكأن الوطن إنما هو منزل آبائهم وأمهاتهم ومحل مَرْبَاهم، فليكن أيضًا محلاًّ للسعادة المشتركة بينهم، فلا ينبغي أن تتشعب الأمة الواحدة إلى أحزاب متعدّدة بآراء مختلفة لما يترتب على ذلك من التشاحن والتحاسد والتباغض وعدم أَمْنِيَّة الوطن، فلا يتمنى بعضهم سعادة نفسه وشقاوة غيره لاسيما وأن الشريعة والسياسة سوّت بينهم، وأوجبت عليهم أن يكونوا على قلب رجل واحد، وأن لا يعتقدوا لهم عدوًّا إلا من يوقع بينهم الفشل بخداعه ليختلّ نظام ملكهم وينحلّ انتظام سلكهم، فهذا هو العدوّ المبين الذي لا يحب أن يكون أهل الوطن على وطنهم آمنين، ولا بحرِّيتهم متمتعين.

ثم إن ابن الوطن المتأصل به أو المنتجع إليه الذي توطن به واتخذه وطنًا يُنْسَبُ إليه تارة إلى اسمه فيقال مصريٌّ مثلاً، أو إلى الأهل فيقال أهلي أو إلى الوطن فيقال وطني، ومعنى ذلك أنه يتمتع بحقوق بلده؛ وأعظم هذه الحقوق الحُرِّيَّة التامة في الجمعية التأنسية، ولا يتصف الوطني بوصف الحرّية إلا إذا كان منقادًا لقانون الوطن، ومعينًا على إجرائه، فانقياده لأصول بلده يستلزم ضِمْنًا ضمان وطنه له التمتع بالحقوق المدنية والتَّمَزِّي[١] بالمزايا البلدية، فبهذا المعنى هو وطني وبلدي يعني أنه معدود عضوًا من أعضاء المدينة فهو لها بمنزلة أحد أعضاء البدن وهذه أعظم المزايا عند الأمم المتمدّنة، وقد كان أهالي غالب الأمم محرومين من تلك المَزِيَّة التي هي من أعظم المناقب، وكان ذلك في الأزمان التي كانت فيها أوامر ولاة الأمور جاريةً على هوى أنفسهم يفعلون ما شاءوه، وقد كانت الأهالي إذ ذاك لا مدخل لها في معارضة حكامهم، ولا محاماة لهم عن أحكام الشريعة فكان لا يمكنهم أن يخبروا ملوكهم بما يرونه غير موافق، أو يكتبوا شيئًا فيما يخص السياسات والتدابير، ولا يُبْدُوا آراءهم في شيء، فكانوا كالأجانب في أمور الحكومة، وكانوا لا يتقلّدون من الوظائف والمناصب إلا بما هو دون استحقاقهم، والآن تغيرت الأفكار وزالت عن أبناء الوطن هذه الأخطار؛ فالآن ساغ[٢] للوطني الحقيقي أن يملأ قلبه بحب وطنه؛ لأنه صار عضوًا من أعضائه.

---

(١) التَّمزّي: التمتع. (م).

(٢) ساغ: سَهُلَ وجاز. (م).

فالوطني المخلص في حب الوطن يفدي وطنه بجميع منافع نفسه ويخدمه ببذل جميع ما يملك، ويفديه بروحه ويدفع عنه كل من تعرّض له بضرر كما يدفع الوالد عن ولده الشرَّ، فينبغي أن تكون نية أبناء الوطن دائمًا متوجهةً في حق وطنهم إلى الفضيلة والشرف ولا يرتكبون شيئًا مما يُخِلُّ بحقوق أوطانهم وإخوانهم؛ فيكون ميلهم إلى ما فيه النفع والصلاح، كما أن الوطن نفسه يحمي عن ابنه جميع ما يضره لما فيه من هذه الصفات، فحب الأوطان وجلب المصالح العامة للإخوان من الصفات الجميلة التي تتمكن من كل واحد منهم في جميع أوقاته مدّة حياته، وتجعل كل إنسان منهم محبوبًا للآخرين، فما أسعد الإنسان الذي يميل بطبعه لإبعاد الشر عن وطنه ولو بإضرار نفسه.

فصفة الوطنية لا تستدعي فقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة له على الوطن، بل يجب عليه أيضًا أن يؤدي الحقوق التي للوطن عليه فإذا لم يُوفِّ أحدٌ من أبناء الوطن بحقوق وطنه ضاعت حقوقه المدنية التي يستحقُّها على وطنه.

وقد كان الرومانيون في قديم الزمان يجبرِوُن الوطنيَّ الذي بلغ من العمر عشرين سنة أن يحلف يمينًا أنه يحامي عَنْ وَطَنِه وحكومته فيأخذون عليه عهدًا بذلك وصيغة اليمين: أشهد الله على أني أحمل سلاح الشرف لأمانع به عن وطني وأهله كلما لاحت فرصة أتمكن فيها من مساعدته، وأشهد الله على أني لحماية الوطن والدين أحارب منفردًا أو مع الجيش، وأشهد الله على أني لا أُكَدِّر

صفو وطني ولا أخونه ولا أغدر به، وأني أركب البحار أيًّا ما لزم ذلك في جميع الغزوات التي تأمر بها الحكومة، وعلى أني أحافظ على امتثال القوانين والعوائد المقبولة في بلادي الموجودة في الحال وما يتجدّد منها، وأشهد الله أن لا أتحمل أحدًا يجسر أن يُخِلَّ بها وينقص انتظامها. انتهى.

فمن هذا يُفْهم أن أمة الرومانيين كانت متشبثة بحب وطنها؛ ولهذا تسلَّطت على بلاد الدنيا بأسرها، ولما انسلخت[1] عنها صفة الوطنية حصل الفشل بين أعضاء هذه المِلَّة، وفسد حالها وانحل عقد نظامها بتعدد اختلاف أمرائها وتعدّد حكامها، فبعد أن كانت محكومة بقيصرة واحدة انقسمت في المشرق والمغرب بين قيصرين: قيصر رومة وقيصر القسطنطينية، وكانت الشوكة لباع[2] طويل فصار أمرها إلى باعين قصيرين؛ فآل أمرها في جميع الحروب إلى الانهزام ورجعت بعد كمال الوجود إلى الانعدام، وهكذا شأن الملة المُخْتَلَّة الحكومة والدولة الغير المنظومة.

---

(١) انسلخت: فارقت. (م).

(٢) باع: مسافة ما بين الكفين إذا بسطتهما. (م).

الفصل الثالث

في الملة والدولة في العرف، وما يتعلق بذلك

الملة في عرف السياسة كالجنس جماعة الناس الساكنة في بلدة واحدة تتكلم بلسان واحد، وأخلاقها واحدة وعوائدها متحدة، ومنقادة غالبًا لأحكام واحدة، ودولة واحدة، وتسمى بالأهالي والرعية والجنس وأبناء الوطن، وينبغي أن تكون الأمة المستحقة لأن تتصف بهذه الصفات وتتلقب بهذه الأسماء، ذات شهامة وشجاعة وذكاء، وميل إلى حب المجد والفخار، وشرف العرض تحب حرّيتها وتتولع[1] بقوّة رئيس دولتها وتنقاد لقوانين مملكتها وسياستها.

ولا جائز أن تستغني الأمة عن رئيس يحسن سياستها وتدبير مصالحها فبدونه لا تأمن على التمتع بحقوقها المدنية، ومزاياها البلدية، ولا تحفظ نفسها ولا مالها ولا عرضها، فالرئيس المُعَنْوَن له بأي عنوان كان من ألقاب رياسة الدولة هو المحافظ على إجراء الأحكام والقوانين، وعلى حفظ الشريعة والدين فيلزم لنظام الدولة نوعان من التربية لتكون مهذبة مرتبة أحدهما تربية أبناء الملوك،

---

(١) تتولع: تتعلق بشدة وتحرص عليه. (م).

أو رؤساء الدولة، والثانية تربية أبناء الوطن، فأمّا تربية أبناء الملوك فإنها تحتاج إلى كثرة الاحتفال بتعليمهم جميع ما يتعلمه أبناء الوطن من العلوم الأوّلية لاسيما علم اللسان، قال أبو عثمان: دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله فقلت له: يا أمير المؤمنين في اللسان عشر خصال: أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وحاكم يفصل بين الخطاب، وناطق يُرَدُّ به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الأشياء، وواعظ يُعْرف به القبيح، ومغرّد تدرأ[١] به الأحزان، وخاصة تزهى بالصنيعة، وملهى يونق الأسماع. وقال الحسن البصري إن الله تعالى يرفع درجة اللسان؛ فليس من الأعضاء شيء ينطق بذكره غيره:

رَأَيْتُ العِــــزَّ فِي أَدَبٍ وَعِلْمٍ ... وَفِي الجَهْـــلِ المَذَلَّةُ وَالهَوانُ
كَفَى بِالمَــــرْءِ ذَمًّا أَنْ تَرَاهُ ... لَهُ وَجْهٌ وَلَيْـــسَ لَهُ لِسَانُ

وقال آخر:

فَإِنْ كُنْتَ ذَا عَزْمٍ وَرَأْيٍ وَهِمَّةٍ ... فَلاَ تَحْتَقِرْ عِلْمًا وَلاَ تَرْضَ بِالدُّونِ[٢]
فَإِنَّ رَوَاءَ الجَهْلِ[٣] أَقْبَحُ مَلْبَسٍ ... وَفِيه عَزِيزُ القَوْمِ قَدْ خُصَّ بِالهُونِ

(١) تدرأ: تدفع. (م).
(٢) الدُّون: التقصير عن الغاية. (م).
(٣) رَواء الجهل: التشبع به. (م).

وقال خالد بن صَفْوَان: ما الإنسان لولا اللسان إلا ضالة مهملة أو بهيمة مرسلة أو صورة مُمَثَّلَة، وقال بعضهم فيما يعارض ذلك وضَمَّنَ في البيت الحديث الشريف:

الصَّمْتُ أَزْيَنُ مَا يَكُونُ وَإِنَّمَا يَأْتي البَلاءُ مِنَ الكَثِيرِ المنطقِ
لاَ تَلْفِظَنَّ بِمَا يَعِيبُكَ نُطْقُهُ فَتَقُولَ وَيْلِي لَيْتَنِي لَمْ أَنْطِقِ
وَإِذَا أَرَدْتَ سَلامَةً مِنْ منطقٍ فَاحْبِسْ لِسَانَكَ فِي اللَّهَاةِ[1] وَأَطْرِقِ
وَاحْذَرْ لِسَانَكَ أَنْ تَقُولَ فَتُبْتَلَى إِنَّ البَـــلاَءَ مُوكلٌ بِالمنطقِ

وذكر الصمت عند الأحنف فقال رجل: الصمت أفضل وأحمد، فقال الأحنف: صاحب الصمت لا يتعدّاه نفعه وصاحب المنطق ينتفع به غيره والمنطق الصواب أفضل - يعني من الصمت - كما أن الصمت أفضل من المنطق الغير الصواب، وبالجملة فخير الأمور أوساطها والجمع بين الطرفين ممكن لكامل العقل، فعلى العاقل الحازم أن لا يكون مهذارًا مكثارًا[2] كما أنه لا يكون صمته من طبع البهائم مستعارًا، وحَسْبُكَ من اللسان فضلاً أنه آلة لشكر الخلق والخالق، وواسطة في حفظ الروابط والعلائق[3]، فقد قال بعض السلف: لصانع المعروف

(١) اللهاة: أقصى الفم. (م).
(٢) مهذار مكثار: مهذار: من يكثر من الكلام الذي لا فائدة منه، مكثار: كثير الكلام. (م).
(٣) العلائق: مفردها علاقة، وهي رابطة تربط بين شخصين. (م).

إجلال القلوب وثناء الألسن وحسن الأحدوثة وذكر العاقبة وفخر الأعقاب، وقال بعضهم:

أَحْسَنُ مِنْ كُلِّ حُسْنٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَزَمَنْ
صَنِيعَةٌ مَشْكُورةٌ خَالِيَةٌ مِنَ المِنَنْ

وروي عن النبي – عليه الصلاة والسلام – أنه قال: «رَحِمَ الله امْرَأً أَصْلَح مِنْ لِسَانِهِ»، وسمع عمر بن عبد العزيز رجلاً يتكلم فأبلغ في حاجته، فقال: «هذا والله السحر الحلال»، وقال مَسْلَمَة بن عبد الملك: «إن الرجل يسألني الحاجة فتستجيب نفسي له بها، فإذا لَحَنَ[1] انصرفت نفسي عنها»، وقال بعض الحكماء لأولاده: «يا بَنِيَّ أصلحوا من ألسنتكم، فإن الرجل لتَنُوبُه النائبة فيستعير الدابة والثياب، ولا يقدر أن يستعير اللسان»، وكان شبيب بن شيبة إذا رأى رجلاً يتكلم فأساء القول قال: «يا ابن أخي، الأدب الصالح خير من المال المضاعف»، وقال الشاعر:

وَكَائِن تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ زيادتُهُ أو نقصُهُ في التَّكَلُّمِ
لسانُ الفَتَى نِصْفٌ ونِصْفٌ فؤادُهُ فلمْ يَبْقَ إلا صورةُ اللَّحْمِ والدَّمِ

(١) لحن: أخطأ في الإعراب وخالف وجه الصواب. (م).

وقال أبو عثمان للمُعْتَصِم: «حُضَّ[1] يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كل الأدب؛ فإنك إن أفردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه»، فدعا المعتصم مؤدّب ولده فأمره أن يأخذهم بتعليم جميع العلوم انتهى.

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَرْوِ العُلُومَ فَيَعْتَلِي فَإِبْصَارُهُ بِالعَيْنِ مِثْلُ حِجَابِهِ
وَمَا ذُو الحِجَا[2] فِي دَرْسِهِ العِلْمَ ذُو حِجَا وَلكِنَّهُ إِنْ زَادَ زَاد حجابه

وكذلك يجب على المربي لأبناء الملوك والسلاطين أن يهتم بتعليمهم بما يلزم في تمكينهم من العلوم الإدارية وأصول السياسة والرئاسة ليحسنوا التدبير على وجه الذكاء والكياسة، فما أسعد الملة التي تَمَكَّن رئيسها في زمن شبابه من المعارف والحكمة، وتَلَقَّن الإدارة المَلَكِيَّة من أرباب الفضائل المجرّبين المتصفين بالأخلاق الحميدة والآراء السديدة والحائزين لأصول وفروع العلوم السياسية، ولا يليق أن تفوّض تربية أبناء الملوك لأرباب الدناءة ولا لأرباب البدع والأوهام ولا لأصحاب الأطماع؛ لأن العدوى تَسْري فتفسد الطباع، ولا ينبغي أن يقتصر في تعليم أبناء الملوك على خصوص الأحكام بتفويض أمر تربيتهم إلى من لا يعرف آداب الملوك ولا علم تهذيب الأخلاق والسلوك، بل ينبغي أن يفوّض

(١) حُضَّ: حُثَّ. (م).
(٢) الحِجا: العقل والفطنة. (م).

أمرهم لأساتيذ متفننين ليكون الوطن في اعتقاد فضلهم على يقين. وقد ذكر العلماء - رحمهم الله تعالى - أن الولي ينبغي له تأمل حال الصبي وما هو مستعدّ له من الأعمال متهيئ له منها فيعلم أنه مخلوق له ولا يحمله على غير ما كان مأذونًا له فيه شرعًا، فإنه إن حمله على غير ما هو مستعدّ له لم يفلح فيه، وفاته ما هو متهيئ له، فإذا رآه حسن الفهم صحيح الإدراك جيد الحفظ واعيًا؛ فهذا من علامات قبوله للعلم وتَهَيُّئِهِ له فلينقشه في لوح قلبه مادام خاليًا، فإنه يتمكن منه ويستقرّ ويزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه وهو مستعد للفروسية وأسبابها من الركوب والرمي واللعب بالرمح لا حظَّ له في العلم ولم يخلق له مَكَّنَهُ من أسباب الفروسية والتمرّن عليها، فإنه أنفع له وللمسلمين وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع مستعدًّا لها مقبلاً عليها، وهي صناعة مباحة نافعة للناس فليمكنه منها، هذا كله بعد تعليمه ما يحتاج إليه في دينه، فإن ذلك واجب على كل أحد لتقوم حجة الله على العبد، فإن له على عباده الحجة البالغة كما له عليهم النعمة السابغة[1].

قال صاحب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك أمير الأمراء وفخر الكبراء السيد خير الدين باشا التونسي في كتابه عند ذكر المواد المسهلة للمعارف في أوروبا ما نصه: من عادتهم أن من يبلغ من أبناء العائلة سنّ التربية ينتخب له

---

(١) النعمة السابغة: النعمة الكاملة التامة. (م).

رئيس تلك العائلة معلمين مهرة يعلمونه من فنون العلم ما يناسب حاله، والمراد منه من كل ما يهذب أخلاقه ويوسع في المعارف نطاقه، فإذا بلغ من التعلم أَشُدَّه يوجه إلى الممالك الأجنبية لمشاهدة أحوالها ومطالعة سياستها وأحكامها وما لها من التقدم في العمران وغيره ليتحقق بالمشاهدة ما بينها وبين بلاده من التفاوت؛ ليعتبر أسباب ذلك وقت مباشرته لسياسة المملكة فيتجنب ما تأخرت به بلاده إنْ رأى غيرها خيرًا منها، ويعتني بما تقدّمت به إن رآه دونها، فإذا بلغ من العمر نحو ثماني عشرة سنة يصير من أعضاء المجلس الأعلى يحضره ولا يكون له كلام فيه إلا إذا بلغ من العمر خمسًا وعشرين سنة، وفائدة ذلك التدرب على الأمور السياسية ومُثَافَنَتِهَا (أي ممارستها وملازمتها) حتى يستكمل المَلَكَةَ(١) فيها مع ما يحصل له بذلك من الخبرة بطبقات رجال السياسة المتأكد معرفتها على من يترشح للرئاسة التي هي أعظم الخطط البشرية وأصعبها، فيجب على متقلدها من الاستعداد والمعرفة بمقتضيات الأحوال المختلفة ما لا يجب على غيره لاسيما معرفة أهل الخبرة والمروءة والنجدة من رجال المملكة لينتخبهم للخطط المعتبرة مع التفطن لدسائس الحُسَّاد والمفسدين، فإن المطلوب من الملوك هو مجرّد فصل النوازل(٢) الشخصية كما هو مشاهد في بعض الممالك الإسلامية ولا مباشرة جزئيات الإدارة التي يمكن إجراؤها بغيرهم من المتوظفين، وإنما المطلوب منهم

(١) الملَكة: استعداد عقلي خاص لتناول الأعمال بذكاء ومهارة. (م).

(٢) النوازل: جمع نازلة وهي شدة من شدائد الدهر. (م).

النظر في كليات الأمور من معرفة الرجال اللائقين بالخطط وامتحانهم، وتعقبهم بالمراقبة لإرشاد جاهلهم، وزجر[1] متجاهلهم وتفقد أحوال الرعايا، والإعانة على تكثير الصنائع والعلوم الموصلة إلى تهذيب الأخلاق، ونموّ الأرزاق، والعناية بتنظيم العساكر البرية والبحرية، وتحصين الثغور بالعدّة المانعة والقوّة الدافعة لحفظ الدين والوطن، وإصلاح أحوال الخلطة السياسية والمَتْجَرِيَّة مع الدول الأجنبية بما ينمو به عز المملكة وثروتها إلى غير ذلك من الكليات، فإن سعادة الممالك وشقاوتها في أمورها الدنيوية إنما تكون بقدر ما تيسر لملوكها من ذلك وبقدر ما لها من التنظيمات السياسية المؤسسة على العدل ومعرفتها واحترامها من رجالها المباشرين لها.

نقل عن المؤرخ بولبيوس اليوناني الذي تكلم على سياسة الأمة الرومانية، وما وقع بينها وبين أهل قَرطَاجَنَّة من الحروب أنه قال في معرض الاستدلال على أن المباشر للأمر يلزمه أن يكون عارفًا بأصوله ما معناه: إذا كان المريض لا يُرْتَجى له حصول العافية على يد طبيب يجهل نوع المرض والدواء المناسب له؛ فكذلك المملكة لا يُرْجى خيرها واستقامتها إذا كان وزراؤها المباشرون يجهلون أصول سياستها وقوانين شرائعها وعاداتها، ولا يخفى أن حصول خير المملكة إذا كان يمتنع بسبب الجهل بأصول السياسة فامتناعه إذا انضم لذلك عدم وجود

(١) زَجْر: منع ونهي وانتهار. (م).

تلك الأصول بالكلية أحرى وأولى؛ لأن السبب في الحالة الأولى دائرٌ بين الجهل والتجاهل وكلاهما أمر عارض تمكن إزالته بتبديل المباشرين وإرشاد جاهلهم وإلزام متجاهلهم بالجريان على الأصول المحفوظة، أما إذا لم يوجد من تلك الأصول شيء يرجع إليه وسند مضبوط يقع التعويل عند الاشتباه عليه؛ فإن هاته الحالة يتسع فيها مجال الأغراض والشهوات من الآمر والمأمور وربما يئول أمر الدولة إلى الاضمحلال والدّثور(١)، ولله عاقبة الأمور. انتهى.

(قوله: ولا يكون له كلام فيه إلا إذا بلغ من العمر خمسًا وعشرين سنة، الظاهر أنّ هذه المدّة كانت محددّة لأبناء أعضاء المجلس العالي بفرانسا حين كان منصب الأعضاء متوارثًا، وأما أبناء العائلة الملوكية الذين هم أعضاء بالنسب لذلك المجلس فكان رأيهم مقبولاً متى بلغوا من العمر ثماني عشرة سنة لإيناس(٢) الرشد منهم في هذا السنّ؛ لأنه يلاحظ فيهم أنهم يكتسبون عادة معلومات ليست في غيرهم من صغر سنهم، فإذا بلغوا الثمانية عشرة سنة كانت لهم هذه المَزِيَّة في المجلس الأعلى دون أبناء أربابه.

وأما تربية الأهالي فهي تربية بما يليق بجميعهم على العموم، وبالنسبة للياقة كلٍّ منهم على الخصوص، وقد سبق طرف من ذلك في الأبواب السابقة

---

(١) الاضمحلال والدثور: الفناء والزوال. (م).

(٢) إيناس: إحساس وطمأنينة. (م).

في كيفية انقسام العلوم لجميع أبناء الوطن من ذكور وإناث وسيأتي لذلك بعض بقايا متفرّقة.

ومما يُنْسَبُ للقاضي عياض من رسالة له لابد لكل حين من بنين يحلون عاطله، ويجلون فضائله، ولكل مجال رجال يقومون بأعبائه، ويهيمون في كل وادٍ بأنبائه، ولئن كانت جَمْرَة الأدب خامدة، وجذوته هامدة، فلن يخليه الله من هلال يشرق بسمائه بدرًا، ولازال ينبع فيقذف بفضائله بحرًا وشبل يشدو فيزأر من غابه ليثًا وطل يبدو من ربابه غيثًا. انتهى.

ويقاس على الأدب بقية العلوم التي منها السياسة، فلكل زمان من ذلك دولة ورجال، قال الشاعر:

إِنَّمَا الإِنْسَـــانُ صَفْـــوٌ وَقَذَا[1] وَيُوَارِي نَفْسَهُ بِيضٌ وَجُون[2]
لاَ تَكُنْ مُحْتَقِـــرًا شَأنَ امْرِئٍ رُبَّمَا كَانَتْ مِنَ الشَّـــأْنِ شُئُون

وقال آخر:

إذَا لَيْـــلَةٌ هَـــرَّمَتْ يَوْمها أَتَـــــى بَعْدَ ذَلِك يَوْمٌ فَتَى

---

(١) قذا: ما يتجمع في العين من أذى. والمقصود كدر العيش. (م).

(٢) بيض وجون: البياض والسواد. (م).

وكما قَيَّضَ الله ﷻ لكل عصر من ينظم محاسن أبنائه في سطور الطُّروس[١]، ويُنَوِّه بشرف فضلائه الجالب لأحاديثهم مَسَرَّة النفوس، وإبقاء فضيلة نوع الإنسان تذكيرًا بمنح القادر الدَّيَّان، وفاء بحق من تقدّم على من تأخر وأن ينشر من محاسنه ما يُؤْثَر، ويُسَطَّر قَيَّضَ الله لهذا العصر العزيز المنفرد في وقتنا هذا بالحزم والعزم بالقِدْح المُعَلَّى[٢] خديو مصر إسماعيل، الذي هو لمملكة مصر نعم المولى؛ حيث أعاد إليها معالمها الشريفة، وأوجد فيها من المتجددات كل تليدة وطريفة، واقتحم في ذلك الأخطار لنيل هذه الأوطار؛ إذ لولا ذلك لجُهِلَ قدر المتقدّمين، وضاع ما تعب فيه سعيهم فلم يلحق المتأخرين، فجزاه الله عن هذا السعي المشكور خير جزاء يَرْفُلُ[٣] به في حلل السرور حتى جعل مصر دائمًا تنشده:

كَسَــــوْتَنِي حُلَّةً تَبْقَى مَحَاسِنُهَا فَسَوْفَ أَكْسُوكَ مِنْ حُسْنِ الثَّنَا حُلَلا
إِنَّ الثَّنَاءَ لَيُحْــــيِي ذِكْرَ صَاحِبِهِ كَالغَيْثِ يُحْيِي نَدَاهُ السَّهْلَ وَالجَبَلا

قيل علوم الملوك النسب والخبر والشعر وعلوم السلاطين المغازي والسير؛ ولهذا قيل:

---

(١) الطروس: الصُّحف. (م).
(٢) بالقِدْح المُعَلَّى: بالسهم الفائز. (م).
(٣) يرفل: يتنعَّم. (م).

شَرَفُ المُلُوكِ بِعِلْمِهِمْ وَبِرَأْيِهِمْ وَكَذَاكَ أَوْجُ الشَّمْسِ فِي الجَوْزَاءِ

وعِلْمَ التجار الحساب، وعلم الكُتّاب الخط واللغات، ومدار العلوم على أربعة: النحو لتقويم اللسان، والطب لتقويم الأبدان، والحكايات لتقويم المروءات، وحسن التدبير لتقويم المعاشات، وهذا كله بعد تقويم الأديان وتَمَكُّن أهل الدين الحق من معرفة ما جاءت به الأحاديث الشريفة ونطق به القرآن.

والوسيلة في استجماع هذه الأربعة فن الخط؛ فقد قيل للخط فضل وشرف ومنفعة لا تُجهَل بل تُعْرَف، به تُقَيَّد العلوم وتُثْبَت وتُزْرَع في الصدور فتنبت، ألم تسمع ربك الأكرم حيث يقول في الكتاب المُحْكَم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ. عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق/ ٤-٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: «قَيِّدُوا العِلْمَ بالكِتَابَةِ»، وخَرَّج ابن شاهين عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني لا أحفظ شيئًا، فقال: «اسْتَعِنْ بِيَمِينِكَ عَلَى حِفْظِكَ»؛ يعني الكتابة، ولما عدمت العرب الكتابة في الجاهلية وكانت أمة أمية، جعل لها الشعرُ العوضَ؛ فأدركت به الغرض، أقامته مقامها، فدوّنت به كلامها وعرفت به أيامها كما يُرْوى الشعر ديوان العرب، وفضل الكتابة شهير والكلام فيها وفي مدحها كثير، ومن أمدح ما قيل في كاتب:

إنْ هَزَّ أَقْــــلامَهُ يَــوْمًا ليُعْمِلَهَا أَنْسَاكَ كُلَّ كَــمِيٍّ[١] هَزَّ عَامِلَهُ
وَإِنْ أَقَــرَّ عَـــلَى رقٍّ أَنَامِلَهُ[٢] أَقَــرَّ بِالـــــرِّقِ كُتَّابُ الأَنَامِ لَهُ

والبيت الأخير من الشعر النفيس وفيه ضرب من التجنيس[٣]، ويكفي صاحب الخط مدحًا ما قال عمر بن الخطاب: «من خط وخاط وفرس فذاكم الغلام».

وعلى ذكر القرآن الشريف فقد قال العلماء: ينبغي لقارئ القرآن أن يراعي عشرة أشياء: الأوّل: أن يفهم أصل القرآن بأن يعلم أن الله تفضل على العباد بإنزاله. الثاني: أن يعظم القرآن ولا يمسه إلا بطهارة، قال تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة/ ٧٩]، وفي الحديث عنه ﷺ «مَنْ قَرَأَ القُرآنَ ثُمَّ رَأَى أَنَّ أَحدًا أُوتيَ أفضَلَ مما أُوتِيَ فقدْ استصغَرَ ما عظَّم الله تعالى». الثالث: أن يحضر قلبه ويترك حديث نفسه. الرابع: أن يتفهم كل آية وفيم أنزلت. الخامس: أن يتدبره ويستنبط معانيه. السادس: أن يتبين الأوضح من اختلاف معانيه. السابع: أن يقدِّر بأن المخصوص بأحكامه نفسه لا غيره. الثامن: أن تكون أفعاله على وفقه. التاسع: أن يقدّر بأنه يسمع من الله. العاشر: أن يعلم أن توفيقه لقراءته والعمل به

(١) كَمِيّ: اللابس للسلاح. (م).
(٢) أنامله: أصابعه. (م).
(٣) التجنيس: تكرار حروف متشابهة الصوت في كلمات متتابعة. (م).

من الله تعالى، روي عنه ﷺ «إن الله يُريدُ العَذابَ بأهلِ الأرضِ فإذَا سَمِعَ تعليمَ الصِّبيانِ الحكمةَ صَرفَ ذَلك عَنْهُم»، قال مروان: يعني بالحكمة القرآن. ورُوي عنه ﷺ «أكْثروا مِنْ تِلاوةِ القُرآن في بُيُوتِكم فإنَّ البيتَ الَّذي لا يُقرأُ فيه القرآنُ يَقلُّ خَيرُهُ ويكثُرُ شرُّه ويضيقُ على أَهْله (أي يضيق رزقه عليهم؛ لأن البركة تابعة لكتاب الله حيثما كان كانت» وورد عنه ﷺ: «إنَّ من إجْلالِ الله تَعَالى إكرامَ ذِي الشَّيبة المسلم، وحاملِ القرآنِ غيرِ الغَالي[١] فيه والجَافي[٢] عنْهُ، وإكرامَ ذي السُّلطان المُقْسِطِ[٣]».

والملوك أحق الناس بتدبير معاني القرآن الذي هو حجة الله على عباده من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أُجِر فهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم، وقد قال الله تعالى ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ** ﴾ أي دينه ورسوله ﷺ ﴿**يَنصُرۡكُمۡ** ﴾ أي على عدوّكم، فإنه الناصر لا غيره من عدد أو عدد ﴿ **وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ** ﴾ [محمد / ٧] أي في القيام بحقوق الإسلام والمجاهدة مع الكفار.

---

(١) الغالي: المتشدد المجاوز للحد. (م).

(٢) الجافي فيه: البعيد عنه. (م).

(٣) المقسط: العادل. (م).

قال ابن مسعود: إذا أردتم العلم فاقرأوا القرآن فإن فيه علم الأوّلين والآخرين (أي الأصول)، وقال عثمان بن عفان ﵁: لو طَهُرَتْ قلوبنا ما شبعت من كلام الله وكيف يشبع المحب مع كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه.

قال بعض المحققين: إن كلام الله رسالة من الله لعباده ومخاطبة لهم، وهو البحر المشتمل على جواهر العلم المُتَضَمِّن لظاهره وباطنه؛ ولهذا قاموا بآداب سماعه ورَعَوْه حق رعايته، وقد تجلى لخلقه في كلامه لو كانوا يعقلون، وكذلك كلام رسوله ﷺ مما يتعين حسن الاستماع إليه؛ لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. انتهى.

وقال الشيخ عبد العزيز الديريني: «إنّ الله ﷻ أنزل مائة وأربعة كتب فأودع علومها في أربعة كتب: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وأودع علم التوراة والإنجيل والزبور في القرآن، وأودع علم القرآن في المُفَصَّل وهو من الحجرات إلى آخر القرآن، وأودع ذلك في الفاتحة ففيها علم كل كتاب أنزله الله ﷿، ومن قرأها فكأنما قرأ جميع الكتب المنزلة، وبيان ذلك أن جميع أسماء الله تعالى في ضمن بسم الله هذا هو الاسم الجامع، وفيه معنى الجلال، وفي الرحمن الرحيم معنى الجمال، وكل ما ورد من الثناء الحسن على الله تعالى في ضمن قوله الحمد لله، فإن الحمد جامع لكلِّ ثناء حسن، وكل ما ورد في ذكر المخلوقات في ضمن قوله رب العالمين، فإنّ العالم لفظة تدل على كل موجود سوى الله ﷿، وكل ما ورد

من الإنعام والإحسان إلى سائر الخلق في ضمن قوله الرحمن الرحيم، وكل ما ورد في ذكر القيامة والثواب والحساب والعقاب في ضمن قوله مالك يوم الدين، وكل ما ورد في الأحكام من الأمر والنهي وجميع الفقه في ضمن قوله إياك نعبد، وكل ما ورد في التوحيد ورؤية الأفعال من الله عز وجل في ضمن قوله وإياك نستعين، وكل ما ورد في سلوك الطريق إلى الله تعالى وذكر المقامات من التوبة والمحاسبة والخوف والرجاء والمراقبة والحياء والزهد والورع في ضمن قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، وكل ما ورد في ذكر الأنبياء والأولياء والصدّيقين والشهداء والصالحين في ضمن قوله ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وقد بَيَّن الله عز وجل ذلك في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[النساء/ ٦٩]، وكل ما ورد في القرآن مُفَصَّلاً ورد في الفاتحة مُجْمَلاً؛ ولذلك سميت أم القرآن وأم الكتاب وفاتحة الكتاب وتسمى الكافية؛ لأنها تكفي في الصلاة، وسماها الله تعالى صلاة بقوله: (قسَّمتُ الصلاةَ، بَيني وبينَ عَبْدِي نِصْفَين)، وهي ركن من أركان الدين، وهذه السورة من أجلّ النعما وأكرم الحسنى». انتهى. وأوّل دار فتحت في المدينة المشرفة للعلوم سميت دار القرّاء، فقد قال الواقدي إن عبد الله بن أم مكتوم قدم مهاجرًا إلى المدينة فنزل دار القرّاء. انتهى.

قال بعضهم: فإذا رأيت الرجل ذوقه ووَجْدَه[1] وطربه وتشوّقه في سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن، فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه وأنه مغرور يعتقد أنه على شيء.

فالقرآن الشريف أساس الدين الذي هو أساس المملكة، فلا قوام لها إلا به، ولا تثبت أركانها إلا عليه، وهو إقامة منار الإسلام، وإظهار شعائر الحق، واتباع أحكام الشرع، والعمل بالفرائض والسنن ومندوبات الشريعة، وإقامة الحدود، وامتثال أمر الشارع والانتهاء عن نواهيه، وإيصال الحقوق الواجبة إلى أربابها، والعمل بما يرضي الله سرًّا وعلانية، فإنه لا دوام للملك ولا بقاء للسلطنة بدون هذه الأشياء، فمعرفتها على الملوك أوجب من غيرهم، وتعليم هذه الأشياء على الوجه الأكمل لا يكون غالبًا إلا من خصائص الرجال؛ فلهذا تَعَيَّن أن تكون السلطنة فيهم دون النساء اللاتي في الغالب لا يستطعن أن يتعلمن هذه المعارف الحكمية المهمة في المملكة والسلطنة والخلافة؛ حيث إن الخلافة التي هي الإمامة العظمى خلافة النبي ﷺ كانت من خصائص الرجال، وكذا نياباتها في الخطط الجَسِيمَة وليس عدم استخلاف النساء لعدم وجود من يصلح لذلك، فقد قال عروة بن الزبير لذكوان: لو كانت إمرة لامرأة بعد النبوّة لاستحقت عائشة الخلافة -كما سيأتي توضيح ذلك في الفصل الآتي- وكذلك لما لم تكن النبوّة

(١) وجده: حبّه وعِشقَه. (م).

إلا في الذكور دون النساء لم تكن السلطنة فيهم إلا نادرًا، وقد اقتضت الحكمة الإلهية أنه لم يكن فيهن في قديم الأحقاب[١] حكيمة اشتهرت بحكمتها ولا من تفلسفت بإفراط معرفتها، وإنما من تولى منهن السلطنة فإنما كان أكثر ذلك عن وراثة، والحكمة ليست كذلك.

(١) الأحقاب: جمع حِقْبَة، وهي مدة من الدهر لا تحديد لها. (م).

الفصل الرابع

في قَصْر رتبة السلطنة والأعمال السلطانية على الرجال دون النساء

قد قضت الشريعة المحمدية وقوانين غالب الممالك بقصر السلطنة على الرجال دون النساء، وأن النساء لا يتقلدن الرُّتَب الملوكية ولا يلبسن التاج الملوكي، بل تكون المملكة متوارثة في سلسلة الذكور إلا فيما ندر من الممالك المبيحة لذلك، وأما القضاء فليس لهنّ فيه حظ ولا نصيب، قال الشاعر:

لَنَا حَاكِمٌ حُكْمُهُ مَا مَضَى　　وَأَحْكَامُ زَوْجَتِهِ مَاضِيَه
فَيَا لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ قَاضِيًا　　وَيَا لَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَه

يشير بذلك إلى أن النساء لهنّ النفوذ على أزواجهنّ وسبب هذا أن النساء في الغالب وصفهنّ النقص عن الرجال في مهمات الأمور الحسية والمعنوية، فلا يستطعن لما فيهنّ من الضعف أن يتحملن أعباء المملكة الثقيلة، كما قال الشاعر:

كُتِبَ القَتْلُ وَالقِتَالُ عَلَيْنا　　وَعَلى الغَانِيَاتِ[1] جَرُّ الذُّيُولِ

---

(١) الغانيات: جمع غانية وهي الشابة الحسناء. (م).

يقال إنه في حرب الحَرَّة أُتِيَ عَتَّاب بن وَرْقاء بامرأة من الخوارج، فقال لها: ما الذي حملك على الخروج علينا؟ أما سمعت قول الله تعالى:

كُتِبَ القَتْــــلُ وَالقِتَــالُ عَلَيْنا وَعَلى الغــــانِيَاتِ جَــرُّ الذُّيُولِ

فقالت: جهلك بكتاب الله هو الذي أخرجني عليك. وقبل هذا البيت بيتان وهما:

إنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ عِنْــدِي قَتْلَ بَيْضَاءَ خَــودَةٍ عُطْبُولِ[١]
قُتِلَتْ هَذِهِ عَلَى غَيْــرِ جُرْمٍ إِنَّ للهِ دَرَّهَـــا مِنْ قَتِيــلِ

وهذه الأبيات لعمر بن رَبِيعَة رثى بها عَمْرَة زوجة المختار الثَّقَفِي لما قتلها مصعب بن الزبير عَقِبَ قتل المختار؛ حيث سألها عنه فقالت: كان رجلاً صالحًا ولاشك أن حِلْيَة النساء الحِنَّاء أي الزينة وحلية الرجال الدم أي الشجاعة، كما قلت:

مَا صِفَاتُ الفَتَى كَمِثْلِ فَتَاةٍ لا ولا في حُلاهُمَـــا بِالسَّوَاءِ
فَخِضَابُ[٢] الحنا لِكَفِّ الغَوَانِي وَلِكَفِّ الرِّجَــالِ خَضْبُ الدِّمَاءِ

---

(١) خودة عطبول: خودة: فتاة حسنة الخلق شابة، عطبول: جارية فتية ممتلئة طويلة العنق. (م).

(٢) خضاب: تغيير اللون إلى الحُمْرة. (م).

وقال آخر:

خُلِقْنَا رِجَالاً لِلتَّجَـلُّدِ[١] وَالأَسَى وَتِلْكَ الغَـوَانِي لِلْبُكَـى وَالمَآتِمِ

فعلى مقتضى هذا كنّ يَمِلْنَ بالطبع للأفراح والأتراح[٢] ولنفوسهنّ إلى كلا النوعين ارتياح. يُحكى أن معاوية قال لرجل من اليمن: ما كان أجهل قومك حين مَلَّكوا عليهم امرأة - يعني بلقيس - فقال: أجهل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه. وهذا من الأجوبة المُسْكِتَة. ولعل وجه عدم تولية النساء القضاء والإمامة والمناصب العامة كونهن عورة لا يقدرن على مخالطة الرجال في الوفاء بفروض المناصب العمومية؛ ولهذا لما كانت الخَيْزُرَان أم الهادي والرشيد حاكمة في خلافة ابنها الهادي مستمدّة بالأمور الكبار، وكانت المواكب تغدو إلى بابها، زجرهم الهادي عن ذلك وكلمها بكلام صعب وقال: إن وقف ببابك أمير لأضربن عنقه، أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو سبحة؟ فقامت من عنده وهي لا تعقل شيئًا من الغضب. وقيل إن ذلك كان سبب موته.

(١) التجلد: الصلابة. (م).

(٢) الأتراح: مفردها ترح، وهو نقيض الفرح. (م).

قال بعض أهل السياسة إن التعليل بالضعف عن القيام بأعباء الملك أمر أغلبي، فقد عهد في النساء بعض ملكات أحسنّ السياسة والرئاسة على ممالكهن واكتسبن قصب السبق في ميادين الفخار، وذكر أسماء من تَمَلَّكَ من النساء وقام بأعباء المملكة، فمنهن بلقيس ملكة سبأ باليمن، وسمرة ملكة نِينَوَى وبابل، والزبا المشهورة بالملكة القاهرة في العرب، والملكة أمنسه، والملكة طماهوموت، والملكة طوسير، وقلوبطرة ملكة مصر، وزنوبيه ملكة تدمر بالشأم التي اتسع ملكها بالشأم وغيره، وشجرة الدر أم خليل قرينة الملك الصالح ملكة مصر، وبلنشه ملكة فرانسا التي تملكت بعد زوجها لويز الثامن بالنيابة عن ابنها سنت لويز، والملكة إيليزابيته، والملكة ستورت ملكتا الإنكليز، والملكة كترينه الثانية ملكة الموسقو، والملكة مارية تريزه ملكة المجار، والملكة خرستيانه ملكة أسوج، فكلهن أحرزن حسن التدبير والإدارة وأقمن البراهين على لياقة النساء لمنصب السلطنة.

فأما بلقيس فهي بنت هدهاد من ولد يَعْرُب بن قَحْطَان، كان أبوها ملك اليمن كلها ومات ولم يخلف من الولد غيرها فجلست بعده على سرير ملك اليمن وأطاعها الملوك، وكانت كاتبة قارئة عربية عادلة في أحكامها، تجلس من كل أسبوع يومًا للحكومة وتتحجب عن الناس، ترخي ستورًا رقيقة بحيث تراهم ولا يرونها، وجميع الناس وقوف في حضرتها مُطْرِقِين[1] رءوسهم من هيبتها، وإذا كان

(١) مطرقين: أمالوا رؤوسهم إلى صدروهم. (م).

لأحد عندها حاجة يسجد لها أوّلاً ثم يعرض حاجته، ولما فرغ سليمان بن داود - عليهما السلام - من بناء بيت المقدس سار إلى الحج بمكة ومعه جنوده فأقام بها ما شاء الله أن يقيم، ثم خرج من مكة بعد أن قضى نسكه وسار نحو اليمن فرأى أرضًا حسنة فأخبر بأمر بلقيس وعرشها وما لها من القوّة والبأس؛ فأرسل إليها كتابًا كما قال تعالى عنها: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ . إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل / ٢٩-٣١]، فجمعت الملأ من قومها واستشارتهم، ففوّضوا إليها الأمر بعد أن أروها أنها ذات قوّة وبطش شديد كما حكى عنها هذا القول المولى في قوله تعالى ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ . قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ [النمل / ٣٢-٣٣]، فلما لمحت من كلامهم أنهم يميلون إلى حرب سليمان استحسنت أن ترسل إليه [بهدية][(١)] وتدفعه عن ملكها وقالت لقومها كما حكاه الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ . وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل / ٣٤-٣٥]، فكتبت إلى سليمان كتابًا وأرسلته مع رجال من أشراف قومها، فردّ سليمان عليه السلام الهدية وقال للرسول ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ [النمل / ٣٧] فلما رجع رسول بلقيس إليها وأخبرها بما رآه بعثت إلى سليمان عليه السلام تقول: إني

(١) مابين القوسين مطموس في الأصل، والكلمة المضافة زيادة يستقيم بها المعنى. (م).

قادمة عليك حتى أنظرك وما تدعو إليه من دينك ثم أقبلت عليه، فدعاها إلى الإسلام فأجابت بقولها إني أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، وحسن إسلامها وتزوّجها وأحبها حبًّا شديدًا ثم ردّها إلى ملكها على الصحيح، وقيل إنه ولد لسليمان منها ولد سَمَّاه داود ومات في حياته، وكانت مدة ملكها على اليَمَن عشرين سنة وتولى ملكها من بعدها عمها ناشر النعم بن شُرَحْبِيل، وبملك بلقيس تضرب الأمثال.

وأما سمرة ملكة نينوى وبابل فإنها كانت قبل أن تتزوّج ملك أثور تَحْتَ أمير من أمراء جيوشه يسمى ممنو، وكانت على غاية من الشجاعة العسكرية، مسترجلة كأكابر الرجال، وكان الملك نينوس دائمًا يطمع في توسيع نطاق سلطنته فسار إلى ممالك بلاد آسيا واستولى عليها ولم يعجز إلا عن أخذ مملكة بَلْخ ببلاد التتار لشجاعة جنودها فرجع منها مهزومًا، وفتح أيضًا من أفريقه مصر وبرقة والسودان، ثم أراد أن يفتخر بالعمارات الملكية فبنى مدينة نينوى وجعلها من عجائب الدنيا، ثم عاد لفتح مملكة بلخ وحاصر مدينتها بلا طائل، وكاد أن يرجع بالخيبة والعار لانهزامه وفتور همة جيشه، وكانت في المعسكر سمرة فحرضت العساكر على الإقدام وأنعشت حماسهم وهَمَّت بهم على المدينة حتى فتحتها عنوة، فشكر لها نينوس هذا الصنيع واتفق موت زوجها في هذه الحرب فتزوجت نينوس وعاد بها إلى مملكته فولدت له نيناس، ولما مَرِض مَرَض الموت سلمها زمام المملكة وجعلها وصية على ابنها نيناس، فَبِمَوْتِ زوجها استولت على بلاد نينوى وبابل.

فلما صعدت على سرير الملك قبل الميلاد بألف وتسعمائة وست عشرة سنة قصدت أن تَفُوقَ في المجد زوجها نينوس باني نينوى - مدينة يونس عليه السلام - فبنت مدينة بابل وجعلت محيطها أربعة وعشرين فَرْسَخًا وعرض السور اثني عشر ذراعًا كبيرة وارتفاعه أربعين ذراعًا، وشَيَّدَت مائتين وخمسين برجًا حول أسوار المدينة متباعدة عن بعضها، وجعلت لهذه المدينة مائة باب من الحديد الصب، وجعلت بيوتها متباعدًا بعضها عن بعض بمسافة، ولكل بيت بستان، وجعلت نهر الفرات يخترق المدينة بين أرصفة عريضة متينة، وجعلت فوق هذا النهر قنطرة طولها ستمائة وأربعة وعشرون قدمًا لتوصل بين جزئي المدينة، وجعلت على طرف من طرفي القنطرة قصرًا شاهقًا متواصلاً بالآخر بِقَبْوَة[١] محفورة تحت أرض النهر، وصوّرت في إحدى القصرين صورة منحوتة فيها تمثال هذه الملكة راكبة على فرس وفي يدها رمح كأنها ترمي به على ذئب، وتمثال زوجها نينوس كأنه يطعن أسدًا، وبَنَتْ أيضًا هيكلاً[٢] يسمى هيكل بعل فيه ثلاثة تماثيل من الذهب الإبريز طول اثنين منها أربعون قدمًا وطول الثالث ثلاثون، وفي هذا الهيكل برج ارتفاعه ستمائة قدم بقصد رصد النجوم، وحفرت أيضًا بركة محيطها إحدى وعشرون فرسخًا وعمقها ثلاثون قدمًا بقرب بابل وعملت مسلّة عمودية ارتفاعها مائة وخمسة وعشرون قدمًا، ونحتتها من جبال أرمنية وأحضرتها إلى قرب بابل،

---

(١) قبوة: بناء تحت الأرض. (م).

(٢) هيكلاً: موضعًا مقدسًا للعبادة. (م).

وعملت بساتين معلقة تسمى حديقة سمرة، وجعلت فوق رأس القصرين قلعة لبابل.

وكما امتازت بالمباني والعمائر افتخرت بالفتوحات العظيمة فإنها عملت سياحة في جميع ممالكها، وصنعت في مدنها آثارًا ثم سارت إلى مصر وكان فتحها زوجها نينوس فمرت بأقاليم مصر وأضافت إلى أملاكها بجهة مصر جزءًا عظيمًا من بلاد إفريقة، وذهبت إلى واحات سيوة لتطلب جواب الكهانة من هيكل المشترى المسمى جوبتير أمون؛ فأفهمها الكاهن أنه يأتي إليها من أم آسيا شرف مخلد إذا تحزب عليها ابنها نيناس، ثم إنها حاربت بلاد السودان ونظمتها ورجعت لترتاح في بلاد التركمان، وشرعت في أن تتغلب على الهند وجهزت لذلك جنودًا لا تحصى ولا تعد، وبعد أن انتصرت بعض نصرات اضطرت إلى أن ترجع إلى نهر السند ثانيًا؛ حيث غلبها ملك الهند وجرحها في ميدان الحرب، فاصطلحت معه على افتداء الأسرى ورجعت إلى بلاد التركمان، وقد بقي لها من عساكرها نحو الثلث، ثم إن ابنها نيناس أراد قتلها وسلب ملكها، فتذكرت كهانة هيكل المشترى فصفحت عن ابنها وسلمته سلطنة بلاد أبيه، واختفت عن أعين الناس ولم يظهر لها أثر.

وأما الزَّبَّاء فهي مشهورة بالملكة القاهرة في العرب، وهي بنت عمرو بن الظَّرِب بن حسان العمليقي ملك الجزيرة وأعمال الفرات ومشارف الشام، وهي

لم تتزوّج أصلاً بل استمرت بكرًا واسمها نائلة، وكان أبوها من قبلها ملكًا على تلك الممالك، وكان في زمنه جَذِيمَة الأَبْرَش بن عامر التَّنُّوخي وقيل الأزدي ملك الحيرة، وأوّل من ساس العرب وأوّل من اتخذت له الشموع وأوقدت بين يديه وأوّل من عُمِلَ له المَنْجَنِيق[١] من ملوك العرب وأوّل من اجتمع له الملك بأرض العراق، فغزا جذيمة عمرًا أبا الزباء فقتله سنة ثلاثين من ميلاد عيسى عليه السلام، فطردها فلحقت بالروم وجمعت الجيوش واستخلصت من جذيمة ملك أبيها وبنت مدينتين متقابلتين على شاطئ الفرات من الجانب الشرقي والغربي وهما اليوم خراب، وقد قنطرت الفرات وجعلته طريقًا بين مدينتيها، فحدّثت جذيمة نفسه لتزوّجها، وكانت أجمل أهل عصرها؛ فطمع فيها وفي ملكها فأرسل يخطبها، فأظهرت له غاية الفرح فشرع في السير إليها، فلما دخل عليها قتلته وأخذت بثأر أبيها، وكان له ابن أخت يسمى عمرو بن عدي ملك البلاد بعد خاله، جذيمة فأخذ في الحيلة على قتل الزَّبَّاء لأخذ ثار خاله، فاتفق عمرو مع قصير صاحب جذيمة، وَجَدَع[٢] قصير أنفه وهرب قصير على تلك الحالة على أنه مغاضب لعمرو، فلما رأته على تلك الحالة أنعمت عليه وقربته وصار من أَخِصَّائِها، وكان قصير يتجر للزَّبَّاء ويأخذ المال من مولاه ويعطيه إلى الزَّبَّاء على أنه كسب متجرها مرّة بعد أخرى، حتى أتى بثقل نحو ألف جمل من الصناديق وفي داخلها رجال

---

(١) المنجنيق: قَذَّاف تُرمى به الحجارة. (م).

(٢) جدع: قَطَعَ. (م).

معتدّون للحرب، فلما شاهدت الزباء ثقل تلك الأحمال ارتابت منها وقالت:

مَا لِلْجِمَـــال مَشْيُهَا وَئِيدَا[١] أَجَنْدَلاً[٢] يَـحْـمِــلْن أَمْ حَدِيدَا
أَمْ صــــــرفانًا تَارِزًا[٣] شديدَا أَم الرِّجَـــالُ جُــثَّـمًا قُعُـــودَا

فلما دخلت الإبل إلى حصن الزباء خرجت الرجال من الصناديق، وأخذوا المدينة عَنوة فخرجت الزباء هاربة من قصرها إلى سرب كانت اتخذته تحت الفرات إلى حصن أختها في الجانب الآخر، وكان قصير على طريق السرب فأبصرت قصيرًا ومعه عمرو وبيده السيف، فلما تمكن منها وعرفت أنه قاتلها لا محالة مَصَّت خاتمًا في يدها كان مسمومًا وقالت: بيدي لا بيد عمرو فسارت مثلاً، كما ضرب المثل أيضًا بجدع قصير أنفه في قول العرب: لأمر ما جدع قصير أنفه، وقد ذكرها ابن دُرَيْد في مقصورته بقوله:

وَقَدْ سَمَا عَمْرُو إِلَى إِرْشَادِهِ فَاحْتَطَّ مِنْهَا كُلَّ عَالِي المُسْتَمَى
فَاسْتَنْزَلَ الزَّبَّاءَ قَسْرًا وَهْيَ مِنْ عُقَابِ لَوحِ الجَوِّ أَعْلَى مُنْتَمَى

وهي غير زرقاء اليمامة، ووهم بعضهم أنها هي، فإن زرقاء اليمامة كانت تسكن في حي جَدِيس باليمامة في ممالك اليمن، ويقال إنها كانت حادّة البصر

---

(١) مشيها وئيدًا: مشيها متمهل. (م).
(٢) جندلاً: حجارة. (م).
(٣) صرفانًا تارزًا: الرصاص اليابس. (م).

تبصر من مسيرة ثلاثة أيام، ويحكى أنها كانت لها قطاة ثم مر بها سرب من القطا بين جبلين فقالت:

لَيْتَ الحمــــــام لِيَه إلَى حَمَــامَـتِـيَـــــهْ
وَنِصْفَـــــهُ قَــدِيَه[1] تَمَّ الحمَــــــــامُ مِيَــهْ

فنظر فإذا القطا قد وقع في شبكة صياد فعدّه فإذا هو ست وستون قطاة ونصفها ثلاث وثلاثون فإذا ضم ذلك إلى قطاتها كانت مائة فصار يضرب بها المثل في حدّة البصر والحكم في الشيء بالدّقة، قال النابغة يخاطب النعمان بن المنذر:

وَاحْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الحَيِّ إذْ نَظَرَتْ إلَى حَمَامِ شِرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَدِ[2]
قَالَتْ ألاَ لَيْتَمَا هَذَا الحَمَامُ لَنَا إلَى حَمَامَتِنَا وَنِصْفُهُ فقـــــدِ
فَحَسبُوه فَأَلْفَـــوْه كَمَــا ذَكَرَتْ سِتًّا وَسِــتِّيْــنَ لَمْ تَنْقُص وَلَمْ تَزِدِ
فَكمّلت مائة فيـــــها حَمَامَتُهَا وَأَسْرَعَتْ حِســبَة فِي ذَلِكَ العَدَد

ويُحْكَى أنه كان على طسم مَلِكٌ فعل فعلة شديدة تخل بالعِرْض والنَّامُوس أغضبت جديس؛ فاتفقت جديس على أنه إذا جاء الملك وصَحِبَتْهُ طسم في وليمتهم يقتلون طسم عن آخرهم، فجاءت طسم إلى حي جديس وقعدوا

(١) قَدِيَه: حَسْبِي. (م).
(٢) وارد الثمد: يقصد الماء للشرب. (م).

يأكلون، وكانت جديس قد خبئوا أسلحتهم في الرمل، فوثبت جديس على طسم فأبادوهم جميعًا إلا شخصًا يدعى رباح بن مرة، فإنه فرّ إلى حسان بن أسعد ملك اليمن يستنجده، وأخبره بما فعلت جديس بطسم فوعده النصرة ونادى مناديه في حِمْيَر بالمسير إلى اليمامة، فلما كانوا منها على ثلاثة أيام قال رباح: أيها الملك إن لي أختًا متزوّجة في جديس تبصر الراكب من ثلاث ليال، وأنا أخاف أن تنذر جديسًا بك فوكل واحدًا أن يقتلع شجرة ويضعها أمامه، فأمرهم ففعلوا، فنظرت زرقاء اليمامة من مكان مُشْرِف وقالت: يا جديس لقد سارت إليكم الشجر، فقالوا لها وكيف؟ فقالت: إني أرى شجرًا من ورائه بشر؛ فكذبوها وغفلوا عن أُهْبَة الحرب فأنشدت تقول:

إنْ تَأْخُذُوا حِذْرَكُمْ يَا قَوْم يَنْفَعْكُم ... وَلَيْسَ مَا قَدْ أَرَى بِالأَمْرِ يُحْتَقَرُ
إنِّي أَرَى شَجَرًا مِنْ خَلْفِهَا بَشَرٌ ... فَكَيْفَ تَجْتَمِعُ الأَشْجَارُ والبَشَرُ
صُفُّوا الطَّوَائِفَ مِنْكُم قبل داهيةٍ ... مِنَ الأمورِ التي تُخْشَى وَتُنْتَظَرُ
ثُورُوا بأجمعِكُم فِي وَجْهِ أَوَّلِهِم ... فَإِنَّ ذَلِكَ منكُم فاعلموا ظَفَرُ
وغَوِّرُوا[1] كُلَّ مَاءٍ دُونَ مَنْزِلِهِم ... فليس من دونهم وِرْدٌ ولا صَدرُ
أو عَجِّلوا القومَ عندَ اللَّيْلِ إِذْ رَقَدُوا ... وَلاَ تَخَافُوا لَهُمْ حَرْبًا وَإِن كَثُرُوا

(١) غوروا: أبعدوا الماء عن منازلهم (م).

فَصَبَّحَهُم حسان ملك اليمن بعسكره بعد ثلاثة فقتلهم قتلاً ذريعًا عن آخرهم، وأمر بزرقاء اليمامة فنزع عينيها فإذا في داخلهما عروق سود، فسألها عن ذلك فقالت: إني كنت أكتحل بالإثمد[١] فَثَبَّت لي بصري، فاستعمل الإثمد من وقته، وصَلَبَ زرقاء اليمامة بعد قتلها على باب جوّ وهي بلدة باليمامة، وقد أُولع الشعراء في ذكرها فقال النَّمِر بن تولب وسماها عنزًا:

وَفَتَاتُهُم عَنْزٌ غَـــدَاةَ[٢] تَبَيَّنَتْ ... مِنْ بَعْدِ مَرْأَى فِي الفَضَاءِ وَمَسْمَعِ
وَرَأَتْ مُقدِّمَة الخميسِ وحَوْلَهَا ... رَكضَ الجِيَادُ إِلَى الصَّبَاحِ بِتُبَّعِ

وفيها يقول بعضهم وسماها عفراء:

لَقَدْ نَظَرَتْ عَفْرَا إِلَى الجِذع نَظْرَةً ... إِلَى مِثْـــلِ مَوجِ الْمُفْعَم الْمُتَلاطِمِ
إِلَى حِمْيَر إِذْ وَجَّهُوا مِنْ بِلاَدِهِمْ ... تَضِيقُ بِهِم لأْيَـــا فُروجُ المَخَارِمِ

واللأي: البطء، وفي هذه الواقعة يقول الملك حسان بعد فراغه منهم:

أَخْلَقَ[٣] الدَّهْـــــرُ لجوٍّ طَلَلا[٤] ... مِثْلَ مِا أَخْلَقَ سيف خَلَلا

(١) الإثمد: حجر يُتَّخذ منه الكحل. (م).

(٢) غداة: وقت ما بين الفجر وطلوع الشمس. (م).

(٣) أَخْلَق: بَلِيَ ورثَّ. (م).

(٤) طلل: ما بقي من آثار الديار بعد رحيل أهلها. (م).

كَانَ طَسْـــمٌ وَجدِيسٌ إِخْوَةً صَـــالِحـًا أَمْرُهُمَـــــا فَاقْتَتَلا
فَبَغَى ذَاكَ عَلَى هَذَا فَلَمْ أَرْضَ مِنْ أَمْرِهِمَا مَا فَعَـــــلا

فمن هذا يُعْلَمُ أن بلد الزباء الموصل، وبلد زرقاء اليمامة باليمامة باليمن، فهما متباينان، وبلد الزباء هو حصن الحضر بشاطئ الفرات صار مملكة ساطرون الذي غزاه كسرى سابور ذو الأكتاف، والظاهر أن بلاد ساطرون التي استولى عليها سابور هي التي صارت فيما بعد من جملة ممالك زنوبيه ملكة تدمر التي غلبت فارس واستولت على بلادها في هذه الجهات، وسيأتي ذكر تملكها لهذه البلاد قريبًا وأنها أغارت على مملكة مصر واستولت على الإسكندرية مرتين.

ويُحْكى أن كسرى حاصر ساطرون في هذا الحصن سنتين ولم يقدر على أخذه فأشرفت بنت ساطرون يومًا فنظرت إلى سابور وعليه ثياب دِيبَاج وعلى رأسه تاج من ذهب مُكَلَّل بالزَّبَرْجَد(١) والياقوت واللؤلؤ، وكان جميلاً فَأَسَرَّت إليه أتتزوّجني إن فتحت لك باب الحصن؟ قال: نعم، فلما أمسى ساطرون وشرب حتى سكر - وكان لا يبيت إلا سكرانًا - أخذت مفاتيح باب الحصن من تحت رأسه فبعثتها مع مولى لها إلى سابور، ففتح الباب فدخل سابور وقتل ساطرون وأشياخ الحصن وخربه، فسار بها معه فتزوّجها، فبينما هي نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تتململ لا تنام، فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه

(١) الزبرجد: حجر كريم يشبه الزمرد. (م).

ورقة آس، فقال لها سابور: هذا الذي أسهرك؟ قالت: نعم، قال فما كان أبوك يصنع لك؟ قالت: كان يفرش لي الديباج ويلبسني الحرير ويطعمني المخ، قال: أفكان جزاء أبيك ما صنعت به أنت إليّ بذلك أسرع؟! ثم أمر بها فأربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها.

وقد حكم مصر من النساء عدّة ملكات، فمنهن الملكة آمنسه، ويقال لها هاتاز، وكان ملكها قبل الهجرة بألفين وثلاثمائة وتسعة وسبعين سنة، وكانت مدّتها مشتملة على الفخار؛ حيث شيدت المباني بمصر وغزت بلاد العرب، ومنهن الملكة طماهوموت بنت الملك هوروس وأخت رمسيس الأوّل، كان ملكها قبل الهجرة بنحو ألفي ومائتي سنة وخمسين، ومنهنّ الملكة طوسير، والظاهر أنها التي يقال لها دلوكه العجوز، حكمت قبل الهجرة بنحو ألفي سنة، ومنهنّ الملكة قلوبطره آخر ملوك البطالسة، وهي أشهر ملكات مصر في كتب التواريخ، فهي بنت بطليموس الحادي عشر الملقب أوليطيس ومعناه الزامر، وكان قد أوصى بطليموس الحادي عشر بممالك مصر لأكبر أولاده وكبرى بناته بشرط عقد الزواج بينهما وأن يشتركا معًا في سلطنة مصر شيوعًا، وأن يكون الوصي عليهما الأمة الرومانية، فلما مات تولى بعده على مصر ابنه بطليموس الثاني عشر الملقب دنيس أي الخمار عملاً بوصية أبيه، ولم يكن عمره إلا ثلاث عشرة سنة فكان قاصرًا، وكان عمر قلوبطرة الموصى لها بالملك بالمشاركة مع أخيها سبع عشرة سنة، فكانت أهلية السياسة والتدبير منحصرة فيها دون أخيها لعدم رشده، فاشتغلت

بتدبير المملكة وأَمَدَّت الرومانيين بالإعانات البرية والبحرية، ثم لما استرشد أخوها تواطأ مع أعدائها وحصلت فتنة عظيمة فخافت على نفسها وفرّت إلى الشام، فشرع أخوها أن يقتفي أثرها ليحاربها، وجهز عساكره بقرب فرما يريد السفر إلى الشام، فاتفق حضور قيصر أمام إسكندرية يريد خصمه بومبيوس الذي جاء إلى مصر مستصرخًا من قيصر، فلما حضر قيصر على ساحل الإسكندرية أرسل إليه بطليموس برأس بومبيوس على يد وزيره طيودوس ووضعها بين يديه، فعامل هذا الرأس بمكارم الأخلاق في الاحتفال لدفنه، ثم بعد مدّة غزا قيصر بطليموس الثاني عشر، وانتصر عليه وأغرقه هو وجنده في النيل وتعلق قلب قيصر بقلوبطرة؛ لأنها كانت بديعة الجمال، وكان قد أحضرها معه من الشأم إلى مصر وأعادها ملكة على مصر وحماها كل الحماية.

وبعد موت أخيها بطليموس الثاني عشر الذي هو زوجها، تزوّجت ببطليموس الثالث عشر وكان قاصرًا ليشترك معها في المملكة، ومن هذا الوقت قبضت على زمام مملكة مصر وصار لها دون غيرها في المملكة الحل والعقد، وكان زوجها الذي هو أخوها ملكًا صورة فقط، وقد مات بعد ثلاث سنوات من توليته، ثم قُتل يولس قيصر محبوب قلوبطرة وكان حاميها؛ فخافت على نفسها فأشركت بعد موت أخيها أصغر أولادها، وزعمت أنها ولدته من قيصر ولقبته بطليموس قيصرون - يعني القيصر الصغير - ويسميه بعض المؤرخين بطليموس الرابع عشر، وكان أنطنيوس أحد الشركاء في القيصرة الرومانية قد أحب قلوبطرة بعد

موت قيصر وحماها حماية كاملة، وشدّ أزره بها، واعتمد على أن تعينه على أخصامه، وانعقد بينهما عقد الزوجية، ثم صار قيصرًا على البلاد الرومانية بالشركة مع أغسطوس، وبلغ الأمنية، فالتمست قلوبطرة منه أن يضيف إلى المملكة المصرية جميع مدن السواحل الشرقية الواقعة على بحر سفيد، وجزيرة قبرص وجزء من أناطول وبلاد يهوذا الموصوفة بالبلسم في تلك الأزمان، وأن يعطي لها بلاد العرب والحجاز الموصلة إلى الهند لتكون هذه البلاد مضافة لدولة مصر ليتم للإسكندرية صفة المركزية العمومية، فأجاب إلى التماسها وجرد روما من بلادها الظريفة المتحلية بها، وصارت قلوبطرة من ذلك الوقت بزواج هذا القيصر كأنها ملكة الدنيا وعَظُمَ مظهرها، ثم حصل حرب أنطنيوس مع أغسطوس فخرجت قلوبطرة بنفسها للغزو مع أنطنيوس، وكان محل الحرب في سواحل روم إيلي، وأمدّت قلوبطرة أنطنيوس وحزبه بمائتي سفينة بحرية، فانتصر أنطنيوس على شريكه ثم انتصر شريكه عليه، ثم سارت ستون سفينة من سفن قلوبطرة بقوّة المجاذيف من بين سفن أنطنيوس وهربت صوب جزيرة موره وفيها الملكة قلوبطرة هاربة من القتال، فاقتفى أثرها أنطنيوس لعدم القدرة على فراقها، فاقتفى أثرهما خصمهما أغسطوس قيصر؛ فسلمت إليه قلوبطرة مدينة فرما التي هي مفتاح الديار المصرية وقصدها بذلك الغدر بأنطنيوس الذي يعتمد على أمانتها والتحبب إلى أغسطوس، وكان أنطنيوس دخل الإسكندرية وقد جردت قلوبطرة أنطنيوس من الجنود الذي كان يمكنه أن ينجو بها من خصمه، وكل ذلك لم

يستشعر أنطنيوس بالخيانة والغدر منها، ثم أَحَسَّت بسوء فعلتها وحاك إثم الفعلة في صدرها وخافت من انتقام أنطنيوس إذا علم الحقيقة، فاختفت مع أموالها في مدفن حصين كانت شَيَّدَتْه لتدفن فيه، وأشاعت أنها تريد قتل نفسها، وتواتر الخبر حتى بلغ أنطنيوس فعزم أيضًا أن يقتل نفسه حتى لا يعيش بعدها فطعن نفسه بخنجره ولم يمت في الحال، وقد علم قبل خروج روحه أن قلوبطرة لم تزل على قيد الحياة، فطلب من أتباعه أن ينقلوه إليها ليجتمع بها قبل موته فمات عندها، وكان قد بلغ أغسطوس أن قلوبطرة تريد أن تقتل نفسها فأرسل إليها من يمنعها من ذلك فدخل عليها الجند فمنعوها من ذلك، ثم لما علمت أن أغسطوس لا يحبها بل يريد أن يوقعها في أسره ويذهب بها إلى رومة في السلاسل والأغلال قتلت نفسها شر قتلة حتى لا تكون عند أعدائها مُثْلَة[١].

وبقتلها نفسها انتهى حكم البطالسة بمصر وصارت مصر إيالة[٢] رومانية، وكان موتها سنة ٦٥٢ قبل الهجرة، ففي تاريخها قرب شبه مما فعلته الزباء إلا أن الزباء سلكت مسلك الأبطال، ولم تُطْمِع فيها أحدًا من الرجال، فشتان بين العصمة العربية والعوائد اليونانية.

وأما سبب تقليد زنوبية ملكة الشأم ومشارف العراق لمملكتها الواسعة، واتساع ملكها وامتداد سطوتها أنه كان في أيام الملك غليانوس قيصر الرومانيين

(١) مُثْلَة: عقوبة ونكاية. (م).

(٢) إيالة: ولاية. (م).

قبل الهجرة بثلاثمائة وإحدى وستين سنة حصل لسلطنة الرومانيين ضغضعة[1] بقيام حكام الأقاليم على رومة، وكان إذ ذاك في المملكة الشامية على مدينة تدمر ملك يسمى أودنياطوس كان محالفًا للرومانيين، وهو الذي هزم سابور ذا الأكتاف ملك الفرس المغيرين على إقليم الرومانيين وطردهم إلى أن أوصلهم إلى تخت بلادهم حتى قيل إنه لم يبق للرومانيين من حلفائهم مصادق إلا ملك تدمر، فقد كان حافظًا لبلاد الرومانيين من هجوم العجم، وقد كافأه غليانوس قيصر الرومانيين على صداقته له بتلقيبه أغسطس - أي قيصر- فعظم شأنه بهذا العنوان وانتقل هذا العنوان، من هذا الملك بالوراثة إلى زوجته زنوبية وأولاده بعد موت أودنياطوس.

وظهرت زنوبية بعد زوجها بمظهر عجيب في البلاد المشرقية في أيام أورليانوس قيصر الرومانيين، وقويت شوكتها بالمشرق واستفحل أمرها، وانتظم ملكها وصارت تدمر كرسي سلطنتها عامرة آهلة زاهرة بهية حتى كأنها جنة من جنات الدنيا، واتسعت دائرة ملكها من ساحل بلاد الصور والشأم إلى نهر الفرات والعراق برًّا وبحرًا، وأعانت التجارات ووسعت دائرة الأخذ والعطاء؛ فابتهجت مدينتها حتى صارت كأنها بلقيس زمانها بمدينة تدمر أيام سليمان عليه السلام. وقد فاقت زوجها في الشجاعة والحماس والشوكة والبأس وظهرت بعنوان القيصرة،

---

(١) ضغضعة: ضَعْفٌ وتَشَتُّت. (م).

وتمكنت في مملكتها؛ حيث إنها كانت تَدَّعِي أنها عريقة المجد، وأن نسبتها تنتهي إلى سلاطين مصر وملوكهم، وأنها تستحق أن تنظم في عقد سلوكهم، فكانت في جنس النساء نادرة الزمان تخطب العساكر بأبلغ خطبة، وتحرّضهم على الحرب، وتضمن لهم النصرة بالطعن والضرب، وتلبس في رأسها خودة الحرب كالأبطال حاسرة عن ذراعيها كالفتيان من الرجال، وكانت تترقب دائمًا أن تحكم الممالك الرومانية، وتؤمل أن تصير على ممالك الدنيا قيصرة عمومية، وكانت إذ ذاك الديار المصرية تحاول الخروج من قبضة الرومانيين وتزاول الاستقلال بنفسها كما في زمن الفراعنة الأوّلين، فشرعت زنوبية أن تستولي على مصر ببذل ما عندها من الأموال بدون حرب ولا سجال[١]، فلم تنفعها هذه الوسيلة فاستعملت القوّة الجبرية وغلبت الجنود المصرية واستولت على سرير[٢] الإسكندرية، ولكن بعد قليل طُرِدَت منها وزُحْزِحَت عنها، ثم عادت إليها لما أمدتها مملكة تدمر بالجنود العديدة، وكان ذلك في زمن القيصر أوريانوس، وكان التغلب على مصر في عهده دون حرب البسوس؛ فخرج هذا القيصر من رومة الكبرى وحضر إلى الشأم فانتصر على زنوبية نصرة عظيمة بقرب حمص؛ ففرت هاربة دون حصون تدمر عَقِيب الانهزام فضيق القيصر عليها الحصار ومنع عنها الميرة[٣] والذخيرة، فحاولت الخروج والفرار وتسليم هذه الدار، فقبض الجند على هذه الملكة في

---

(١) سجال: استمرار الحرب دون انتصار طرف أو هزيمة آخر. (م).

(٢) سرير: يُعَبَّر بها عن المُلك والنعمة. (م).

(٣) الميرة: الطعام. (م).

أثناء الطريق ووقعت في قبضة فرسان الروم وخانها الرفيق والصديق. فلما تمثلت بين يدي القيصر قالت له: قد ساعدتك علينا الأقدار بالنصر فها أنا معترفة لك بالولاء والسيادة علينا، فوقعت أسيرة في قبضة هذا القيصر فَأَذَلَّهَا وأدخلها رومة من ضمن الموكب المعقود في اليوم المشهود؛ لتكون غنيمة وعلامة على النصرة العظيمة، وعوضها عن مملكتها قصرًا متنزهًا في رومة، وقد بقيت ذريتها بهذه المدينة محرومة إلى قرب فتوح الشأم بالإسلام فانتقلت ذراريها من البلاد الرومانية وكان زوال ملكها من البلاد الشامية وغير الشامية بثلاثمائة وخمسين سنة قبل الهجرة المحمدية - على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية - وربما تُوُهِّم أنها الزباء وليس كذلك، فإن تلك الملكة التي هي ملكة الجزيرة متقدّمة عليها.

وأما شجرة الدّر زوجة الملك الصالح وأم ولده خليل المُتَوفَّى في حياته وبه كانت تُلَقَّب، فإنه لما توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب قامت أم ولده شجرة الدّر بالأمر، وجمعت الأمراء وكتمت إشاعة موته وأرسلت إلى الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح بحصن كيفا تستدعيه الحضور إلى مصر، وبلغ الإفرنج موته فشرعوا في قتال المسلمين فقاتلهم المسلمون، وكان أميرهم فخر الدين فانهزم المسلمون وقتل الأتابك فخر الدين، ثم أتاح الله النصر بقرب المنصورة ودمياط للمسلمين، وانهزم الإفرنج ووصل المُعَظَّم تُورَانْشَاه إلى مصر، وكانت شجرة الدر عقدت مجلسًا وولته السلطنة وتمم هزم الإفرنج وأسر ملكهم، وبعد هزيمة الإفرنج

أَنِفَ[١] جند الصالح من استعلاء بطانة المعظم تورانشاه عليهم وتحكمهم فيهم فقتلوه، ثم اجتمع الأمراء المُتَوَلّون قبل تورانشاه ونصّبوا أم خليل شجرة الدّر ملكة على ممالك الصالح يوم الخميس ثامن عشر صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة، وألبسوها خلعة السلطنة وباس لها الأمراء الأرض من وراء حجاب، فلما تم أمرها في السلطنة أنعمت بالوظائف السَّنية على الأمراء، وأقطعت المماليك البحرية الأقاطيع[٢] العظيمة، وأغدقت على الجند بالأموال والخيول حتى أرضت الكبير والصغير منهم ما يمكن، وساست الرعية أحسن سياسة، وأرسل الخليفة العباسي يعاتب أهل مصر في توليتها وقال: إن كان ما بقي عندكم رجل تولونه نرسل إليكم رجلاً، وما أحسن ما قيل:

وَلَوْ أَنَّ النِّسَــــاءَ كَمَنْ ذَكَرْنَا ... لَفُضِّلَتِ النِّســــاءُ عَلَى الرِّجَالِ
فَمَا التَّأْنِيثُ لاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ ... وَلاَ التَّـــذْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهِلالِ

وقد يتصف الجنس بأوصاف الجنس الآخر، كما قال الشاعر:

هززتُكم لو أنَّ فيكـــم مهزةً ... وذَكَّرْتُ ذا التَّأْنِيثِ فاسْتَنْوَقَ الجَمَل[٣]

---

(١) أَنِفَ: لم تقبله النفس. (م).

(٢) الأقاطيع: أراضى تُمَلَّك. (م).

(٣) استنوق الجمل: صار الجمل كالناقة في ذُلِّها. (م).

وخُطِبَ لها على المنابر بعد الخليفة فكان يقال : اللهم احفظ الجهة الصالحية ملكة المسلمين وعصمة الدنيا والدين أم خليل، وضربت السكة باسمها، ووضعت علامتها على المراسم وكان نص علامتها أم خليل، وكانت مشهورة بالخاتون أيضًا، وإليها تنسب نوبة خاتون التي كانت تدور بالقلعة بعد العشاء بالطبل، وناب على العساكر بعنوان أتابك عز الدين الجاشنكير أيبك التركماني، وخُلِعَت بِرِضَاها وكانت آخر دولة الأيوبية، وبعد خلعها تزوّجها أيبك التركماني الذي تولى سلطنة مصر بعدها.

وأما بلنشة ملكة فرانسا زوجة لويز الثامن التي وَلَدَتْ له سنت لويز فإنها تولت المملكة بالوصاية عن ابنها من سنة ألف ومائتين وستة وعشرين إلى ألف ومائتين وستة وثلاثين ميلادية مدّة قصوره، فلما صار رشيدًا تولى المملكة بنفسه، ثم تولت نيابة المملكة مدّة غيابه لحرب المقدس وحرب مصر أيام حرب أهل الصليب مع الإسلام ببلاد المشرق، وقد انتصرت هذه الملكة على حزب الفرنساوية الذي شنّ إغارة العداوة لها وللحكومة. ومدّة حكومتها كانت على غاية من التَّبَصُّر والعقل وماتت وعمرها خمس وستون سنة، وكما كانت مشهورة بالعقل والتدبير كانت مشهورة أيضًا بالملاحة والجمال حتى تَغَزَّل فيها بعض أمراء بلادها.

وأما إيليزابيته ملكة الإنكليز بنت هنري الثامن ملك الإنكليز فقد كان أبوها في أول الأمر أخرجها من ولاية العهد من بعده لعدم أَهْلِيَّتِها، ثم نقض الوصية في مرض موته وعهد إليها بعد أختها مارية فتقلدت منصب مملكة الإنكليز سنة ألف وخمسمائة وثمانية وخمسين ميلادية، وكانت أختها مارية منعت الإنكليز من التمسك بالمذهب البروتستاني فأعادت إيليزابيته هذا المذهب وجعلت نفسها خليفة هذا الدّين، وشوّقت[1] فنّ الزراعة ورغبت فيه كل الترغيب، وأعانت على تقديم التجارة والملاحة وحسن إدارة الخزينة الملكية وتكثير مالها، وكانت عدوة للمذهب القاثوليقي، وما فعلته مع مارية ستورد ملكة أقوسيا كان مما يلام به عليها؛ وذلك لأنها غضبت على ملكة أقوسيا؛ حيث إنها تعنونت بعنوان ملكة الإنكليز اغتصابًا بالمملكة، وليس هذا السبب الأصلي في الغضب وإنما لكون مارية ستورد قاثوليقية المذهب وأجمل منها، ومع ذلك فالحق على مارية؛ حيث إنها أوقعت الفتنة والخلل في بلاد الإنكليز فسجنتها ملكة الإنكليز وتهمتها بأنها تعصبت على قتلها ثم ضربت عنقها، فأراد أن ينتقم لمارية فليب الثاني ملك إسبانيا فأرسل عمارة سفن عظيمة إلى بلاد الإنكليز فهلكت هذه العمارة بالرياح العاصفة وبسفن الإنكليز، ثم ضبطت هذه الملكة أمة إرلنده التي قوّمتها أهل إسبانيا وأعانت مملكة الفلمنك عدّة مرات ونصرتها على الإسبانيول، وأعانت ملك فرانسا أيضًا في حربه مع أهل بلده وقد رغب في

---

(١) شوَّقت: رغبت في الشيء. (م).

خطبة هذه الملكة عدّة من ملوك أوربا وحثتها مشورة الإنكليز على أن تختار ملكًا منهم للزواج ولكن لم ترض أبدًا أن تتزوّج ولازالت على هذه الحالة حتى توفيت وعهدت بمملكة الإنكليز بعدها إلى جاكس ملك أقوسيا ابن مارية ستورد، وكانت حكومة إيليزابيته تكاد أن تكون مطلقة التصرف؛ لأنها كانت لا تستشير مجالس المملكة إلا نادرًا، ومع أنها كان فيها خصال حميدة من خصال الملوك والسلاطين فكانت لا تخلو من ضعف النساء فإنها كانت تتزين وتَتَبَرَّج وتعجب بنفسها وتغار من حِسَان النساء وكانت لا تخلو أيضًا من التَّحَيُّلات.

وأما مارية ستورد ملكة أقوسيا بنت جاكس الخامس فكان لها أخ من السِّفاح[١] يسمى موراي، فتحزب الأوقوسيون معه على الملكة أخته وقبضوا عليها، وأرادوا أن تخلع المملكة على أخيها وأن تخرج من دين القاثوليقية فهربت من أقوسيا إلى إنكلتيرة ظنًّا منها أن تحتمي عند إيليزابيته بنت عمها، ولكن لما كان بينهما منافسة وخصومة قبضت عليها الملكة ووضعتها في السجن ثماني عشرة سنة، ثم اتهمتها بأنها مفتنة وأنها تحزبت مع أعدائها بقتلها وحكمت عليها بالقتل كما سبق آنفًا، والحال أنها بريئة ومارية هذه معدودة بأنها أجمل نساء وقتها، وينضم إلى ذلك أنها كانت صاحبة قريحة جيدة مزينة بالمعارف والآداب، ولم يزل موجودًا إلى الآن من شعرها الرقيق المنسجم قصائد غراميات ووداعيات،

(١) السِّفاح: الزِّنا. (م).

وهي أيضًا مشهورة عند العيسوية بأنها ماتت في حماية دينها القاثوليقي فلم يزل العيسوية يتذكرونها ويمدحونها على ذلك، ومع ذلك فأغلب الناس يرون أنها ماتت قتيلة حَمِيَّتها وتشديدها في الدين القاثوليقي وأنها أكثرت من خصام أعدائها.

وأما كاترينه الثانية قيصرة الموسقو زوجة بطرس الثالث فإنها حببت نفسها لجميع أهل الروسيا، ثم خلعت زوجها سنة ألف وسبعمائة واثنين وستين، وبعد موت زوجها لبست تاج القيصرية في مدينة موسقو بموكب عظيم، ثم أخذت من الدولة العلية بلاد القرم وقلعة آزوق وإسماعيل وغيرهما، ثم عقدت مع البروسية وأستريا معاهدة لمقاسمة بلاد اللاهستان المسماة بولونيا، ثم وسعت دائرة سلطنتها وأحيت في بلادها الزراعة والصناعة، وقدمت الآداب والفنون والصنائع وشوّقت أهلها، وكانت دائمًا تراسل الحكيم ولتير الفرنساوي فكانت ملكة عظيمة، ولا يلام عليها في شيء مما يخص المملكة، وإنما ذمّها بعض الناس ببعض شذوذ في أخلاقها الخاصة بها، وخلفها ابنها بولص على الإمبراطورية سنة ألف وسبعمائة وستة وتسعين ميلادية بعد وفاتها بالفالج[١].

وأما مارية تريزة بنت كارلوس الرابع ملك النيمسا فلم يكن لأبيها أولاد من الذكور، فعهد إليها بالإمبراطورية، فلما مات في سنة ألف وسبعمائة وأربعين ميلادية ظهر للسلطنة متطلبون، وحارب جميع الملوك المتطلبين هذه الأميرة وأخذ

(١) الفالج: الشلل النِّصفي. (م).

منها فريديريق الثاني وغيره من الملوك بعض أقاليم، واستعان ملك باويره بفرانسا وتعنون بعنوان إمبراطور أستريا وسمى نفسه كارلوس السابع، فلا زالت مارية تريزة تقاوم جميع أعدائها وتحاربهم في مدينة ويانة إلى أن اضطرت أن تترك هذه المدينة؛ فالتجأت إلى مملكة المجار فدخلت فيها وجمعت أعيان المملكة وقدمت لهم ولدها الذي كان في المهد وجذبت الأهالي جميعًا إلى حزبها حتى صاروا جميعًا معها على قلب رجل واحد وملكوها عليهم، وبذلت جهدها في طرد الإمبراطور، وولت الإمبراطورية لزوجها فرنسيس الأوّل، واشتغلت بعد صلح العموم بجبر خلل السلطنة، فشوّقت الصنائع والتجارة وأسست مدارس عمومية، وبقيت مملكتها في الهدء والسلم إلى أن وقع بينها وبين البروسية الحرب المسمى حرب السبع سنوات، فاتحدت فرانسا معها على البروسيا وحصل الصلح بينهما، وعقدت مارية مع إمبراطورة الروسيا مشارطة مقاسمة بلاد اللاهستان، وماتت سنة ألف وسبعمائة وثمانين ميلادية، وخلفها ولدها المسمى يوسف الثاني على ممالكها وتقلد الإمبراطورية.

وأما خرستيانه ملكة أسوج فإنها خلفت أباها الملك غوسطا وأدولف الذي مات قتيلاً في حرب الموسقو سنة ألف وستمائة واثنين وثلاثين ميلادية؛ فتقلدت بالمصالح سنة ستمائة وأربعة وأربعين إلى سنة ستمائة وتسعة وأربعين وأحسنت التدبير والسياسة مع البهجة والرونق إلى تلك السنة، ومن هذا التاريخ

أبعدت الوزراء العقلاء واحتاط بها بطانة السوء من المفسدين فحصل في الإدارة الخلل، فتعبت من هذه الحالة القاسية وعزلت نفسها في سنة ألف وستمائة وأربعة وخمسين ميلادية وقلدتها لابن عمها كارلوس وستا، ولم يكن عمرها إذ ذاك إلا ثماني وعشرين سنة، فساحت في بلاد أوربا ودخلت في فرانسا وقتلت ناظر اصطبلها الذي كان معها في السفر لضمير، ثم أقامت في رومة وماتت في سنة ألف وستمائة وتسع وثمانين ميلادية، وهذه الملكة كانت حسنة التربية ومدّة حياتها كانت تشتغل بالعلوم والآداب والديانة، ومدّة تملكها على أسوج انجذب إليها مشاهير الرجال من جميع البلاد فكانت تكرمهم وترحب بهم، ومع أن هؤلاء النساء تقلدن السلطنة وسلكن مسالك الشجعان نوعًا إلا أنهنّ كنّ سيئات العواقب، وقَلَّ أن خلت إحداهنّ في بعض الأفعال من نقصان، قال الشاعر:

النِّسَاءُ نَاقِصَاتُ عَقْلٍ وَدِينٍ ... مَـــا رَأَيْنَـــا لَهُـــنَّ رَأْيًا سَنِيًّا
وَلأَجْلِ الكَمَالِ لَمْ يَجْعَلِ اللّـ ... ـــهُ تَعَـــــالَى مِنَ النِّسَاءِ نَبِيًّا

وهو منقوض بالسيدة مريم على القول بنبوتها، فإذا كان حالهنّ كذلك فكيف يجوز وراثتهنّ للخلافة والسلطنة؟ ومن تقلد منهنّ السلطنة وأفلح فيها فلم يكمل له الفلاح، وإذا كمل فهو من النادر الذي لا حكم له، فحديث لَنْ يُفْلحَ قومٌ وَلّوا عليهم امْرَأَةً صادق بالمضمون مؤيد بالتجاريب، وتولية شجرة الدّر التي لم يسبق في الإسلام سلطنة لغيرها كانت لمحض الضرورة التي تبيح المحظور.

وقال بعض الحكماء أرباب التحسين والتقبيح العقليين: إن النساء كنّ في قديم الزمان وأزلي الحدثان في مصر رئيسات منازلهنّ يَسُسْنَ عموم الأمور المنزلية بدون مشاركة الرجال، ولهن في تدبير المنزل وتأديب الأولاد الولاية العامة، مع أن العقل والطبع لا يستحسنان ولايتهنّ على منازلهن ولا إناطتهنّ[١] بتربية وتهذيب أبنائهنّ لما يكتسبه الأولاد منهنّ من قلة الشهامة وعدم التعوّد على شجاعة الشجعان، ولكن العقل والطبع لا يأبيان أن يكون للنساء رئاسة المملكة؛ لأن ما فيهنّ من الضعف مما لا يسوّغ لهن كمال العناية بالإدارة المنزلية هو الذي بعينه يكسبهن الرفق والحلم والتلطف، وكل ما يليق برتبة السلطنة من المحسنات التي مبناها الرأفة والشفقة وهما ساكنان في قلب المرأة؛ لأن دأب الرجال الشدّة والعنفوانّ[٢] والجبروت وما أشبه ذلك من الأخلاق الجافية التي قَلَّ أَنْ يخلو عنها الرجال ولا تليق بالملوك في تأليف قلوب الرعية، فلا موجب لحرمانهن من المناصب الملوكية لاسيما وأن كثيرًا من الممالك حسنت فيها ملوكية النساء ونجحت، وظهر لكثير منهن المآثر وقد فهمت ردّه، وأيضًا منعهن من الإمامة والقضاء اللذين هما دون السلطنة؛ لأن الإمامة والقضاء قد يكون فيهما الاجتهاد وهو مرتبة عليا، وقل أن توجد امرأة فيها الأهلية، على أن أبواب الشريعة والسياسة التي تخص الملوك واسعة لا تطيقها عقول النساء على ما فيهن من

---

(١) إناطتهن: تكليفهن. (م).

(٢) العنفوان: الحِدَّة. (م).

كون جميعهن عورات يتعذر مخالطتهن للموظفين من الأمراء الملكية والجهادية ومعاشرتهن لجميع أصحاب المناصب والمراتب من أرباب السيوف والقلم.

وأما وجود اللياقة فيهنّ فليست محل المنع، فإن السيدة عائشة استجمعت من الأمور الشرعية والسياسية كفاءة الخلافة، فقد سئل عروة بن الزبير عن علم عائشة فقال: والله ما رأيت امرأة أعلم بالفرائض والسنن والتنزيل والتأويل من عائشة - رضي الله عنها - حتى بأشعار العرب وأيامهم وأنسابهم والطب والأدوية، فقلت لها: من أين لك علم الطب والأبدان؟ فقالت: من رسول الله ﷺ كان إذا مرض يتداوى وإذا مرضت يصف لي فأبرأ[١]، وإذا سئل يصف للمرضى فتعلمت منه، فقلت: ومن أين لك معرفة بأنساب العرب وأيامها وأشعارها؟ قالت: فوالله يا ابن أختي ما سمعت أذني شيئًا فيه نفع للناس إلا حفظته ولا أنساه، وقال عروة: والله ما ندمت على شيء قط أشدّ مني ندمًا على ما فاتني من علم عائشة - رضي الله تعالى عنها - وما الذي يمنعها وقد رباها أعلم العلماء وأحكم الحكماء وأفصح الفصحاء رسول الله ﷺ وأبوها علامة قريش المفتي في حضرة النبي ﷺ، والولد سرّ أبيه وعروة هذا شقيق عبد الله بن الزبير ونسبهما معروف، ولما قطعت رجله بسبب الأَكِلة[٢] وهو في الصلاة، وكان الوليد

(١) أبرأ: أُشفى وأُعافى. (م).

(٢) الأَكِلَة: داء يقع في العضو فيتآكل. (م).

بن عبد الملك عنده لم يشعر بقطعها حتى كويت فوجد رائحة الكي - على ما ذكره ابن قتيبة - ولم يترك وِرْدَه[١] تلك الليلة، وعاش بعد قطع رجله ثمانين سنة، ولما قتل أخوه عبد الله قال لعبد الملك: أريد أن تعطيني سيف أخي، فقال: هو بين السيوف ولا أعرفه، فقال: إذا حضرت السيوف أنا أعرفه، فأمر عبد الملك بإحضارها بين يدي عروة فأخذ منها سيفًا مفلل الحد وقال: هذا سيف أخي، فقال له عبد الملك: أوكنت تعرفه قبل الآن؟ فقال: لا، فقال: كيف عرفته؟ فقال: بقول النابغة الذبياني:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِـــرَاعِ الكَتَائِبِ

وعروة هو الذي احتفر البئر المسماة بئر عروة بالمدينة الشريفة وليس فيها بئرٌ أعذب ماءً منها، وولادته سنة اثنتين وقيل ست وعشرين، وقال ابن خلكان: وتوفي في قرية له دون المدينة يقال لها فُرْع بضم الفاء وسكون الراء من ناحية الرَّبَذَة بينها وبين المدينة أربعة أميال وهي ذات نخل ومياه.

وأما فصاحة عائشة فما رواه علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أنه قال: دخلتُ على عائشة - رضي الله عنها - بعض الأيام فرأيتها جالسة وعليها قميص مُرَقَّع فحمدتْ الله تعالى بما هو أهله وثَنَّت بالصلاة على نبيه وذِكْرِ بعض

---

(١) وِرْدَه: نصيبه اليومي من قراءة القرآن. (م).

ما وهبه الله تعالى من فضله، وأثنت على أبي بكر وعمر وعثمان بما كان فيهم من العدل والإحسان ثم حَضَّت بالاقتداء بهم واتباع أمرهم، فوالله ما سمعت أذني من سائر النساء أفصح منها وأنظم من كلامها ولا أرشد من رأيها، فقلت لها: أنت والله أمّ المؤمنين حقًّا والعالمة بالله ورسوله الناصحة المشفقة الواعظة المبلغة، دللت الناس على الحق وأمرتهم باتباعه ونهيتهم عن حظ أنفسهم وأنت أهل أن يسمع قولك ويطاع أمرك ويقبل نصحك، ثم قمت وخرجت واضعًا يدي على كتف ذَكْوان، وقلت: والله يا ذَكْوان ما سمعت أذني خطيبًا من أكثر الصحابة أفصح من عائشة ولا أبلغ من موعظتها، فلو كانت إمرة لامرأة بعد النبوّة لاستحقت عائشة الخلافة. وقال عليه السلام: عائشة عالمة هذه الأمّة. ولذلك كان أكابر الصحابة يأتون إليها ويسألونها عما أشكل عليهم من الفرائض، كما رُوِيَ عن أبي موسى الأشعري قال: ما أشكل علينا أصحاب رسول الله حديث قط، وسألنا عنه عائشة إلا ووجدنا عندها منه علمًا. وروى الأَحْنَف بن قيس أنه قال: سمعت كلام أبي بكر رضي الله عنه حتى مضى، وكلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى مضى، وكلام عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى مضى، وكلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى مضى، ولا والله ما سمعت فيهم أبلغ من عائشة – رضي الله عنها.

وقد ذكرنا في الفصل الثاني من الباب الثاني سلطنة النساء على قلوب الرجال، وهذه السلطنة نفوذها يكفيهم في تحسين أحوال الرجال وترقيق طباعهم، فإن الحب سلطان قادر وملك قاهر تذل لهيبته الأملاك، وتذعن لسطوة سيوفه

الفتاك، وتنقاد لطاعته الزهاد والنساك. يحكى أن عربية جارية المأمون الذي أظهر في ممالك الدنيا مكنون غرائب العلوم والفنون قالت له يومًا:

وَأَنْتُمْ أُنَاسٌ فِيكُمُ الغَدْرُ شِيمَةٌ[١] لَكُمْ أَلْسن شَتَّى وَأَلْسِنَةٌ عَشْرُ
عَجِبْتُ لِقَلْبِي كَيْفَ يَصْبُو[٢] إِلَيْكُمُ عَلَى عِظَمِ مَا يلْقَى وَلَيْسَ لَهُ صَبْرُ

فقال يخاطبها:

أَنَا المَأْمُونُ وَالمَلِكُ الهُمَامُ خَلاَ أَنِّي بِحُبِّك مُسْتَهَامُ[٣]
أَتَرْضَى أَنْ أَمُوتَ عَلَيْك وَجْدًا وَيَبْقَى النَّاسُ لَيْسَ لَهُم إِمَامُ

فقالت له: يا أمير المؤمنين أبوك الرشيد أعشق منك؛ حيث يقول:

مَلَكَ الثَّلاثُ الآنِسَاتُ عِنَانِي[٤] وَحَلَلْنَ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ
مَا لِي تُطَاوِعُنِي البَرِيَّةُ كُلُّهَا وَأُطِيعُهنَّ وَهُنَّ فِي عِصْيَانِي
مَا ذَاكَ إِلاَّ أَنَّ سُلْطَانَ الهَوَى وَبِهِ قَوِينَ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِي

فقدّم ذكرهنّ على نفسه وأنت قدّمت نفسك على من تزعم أنك تهواها، قال لها المأمون: إني منفرد بك والرشيد مقسم بين ثلاث، قالت: أعرفهن

(١) شيمة: خُلُق. (م).
(٢) يصبو: يميل. (م).
(٣) مستهام: هائم مُحِب. (م).
(٤) عناني: اللجام الذي يُمسك به الفرس، والمقصود السيطرة عليه. (م).

الواحدة مقصودة وهي فلانة، والثنتان محبوبتان لها فأحبهما لحبها إذ ذاك مما يسرها، كما قال خالد بن يزيد بن معاوية في رملة:

تَجُولُ خَلاخِيلُ النِّسَاءِ وَلاَ أَرَى ... لِرملةَ خُلْخَالاً يَجُولُ[١] وَلا قَلْبَا
أُحِبُّ بَنِي العَــــوَّامِ حُبًّا لِحُبِّهَا ... وَمِنْ أَجْلِهَا أَحْبَبْتُ أَخْوَالَهَا كَلْبَا

فأين المخرج لأمير المؤمنين؟ فسكت وعظم حبه.

وقال بعضهم في الخلخال أيضًا:

اسْتَكْتَمَتْ خُلْخَـــالَهَا وَمَشَتْ ... تَحْتَ الظَّلاَمِ بِهِ فَمَــــــا نَطَقَا
حَتَّى إِذَا رِيحُ الصَّبَا[٢] نسمتْ ... مَلأَ العَبِيرُ بِسَـــــيْرِهَا الطُّرُقَا

وقال المستعين بالله الحاكم الأموي أحد خلفاء العَرَب:

عَجَبًا يَهَابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِي ... وأهابُ لَحْظَ[٣] فَوَاتِرِ الأَجْفَانِ[٤]
وأُقارِعُ الأبطـــــالَ لا مُتَهَيِّبًا ... منها سوى الإعـــراضِ والهُجْرَانِ
وتملكتْ نفسي ثلاثٌ كالدُّمَى ... زُهْرُ الوجـــوه[٥] نواعـــمُ الأَبْدَان

---

(١) يجول: يدور ويتحرك. (م).

(٢) ريح الصبا: ريح تهبُّ من ناحية الشرق. (م).

(٣) لَحْظ: نظرة العين. (م).

(٤) فواتر الأجفان: عين لها نظرة فيها فتور ليست حادة. (م).

(٥) زهر الوجوه: وجوه مشرقة متلئلئة. (م).

حاكمتُ فيهنَّ السُّلُوَّ إلى الصِّبا فقضى بسلطانٍ على سلطان
فأَبَحْنَ من قتلي الحِمَى وتَرَكْنَنِي في عِزٍّ مُلكي كالأسير العَاني
لا تَعْذِلوا ملكًا تَذَلَّلَ في الهوى ذُلُّ الهوى عِزٌّ وملكٌ ثاني
ما ضَرَّ أَنِّي عبدُهُنَّ صَبَابةً[1] وبَنُو الزَّمــــان وَهُنَّ من عبْدَاني

ولعبد الله بن طاهر:

نَحْنُ قَوْمٌ تُذيبنا الحَدقُ النُّجْــ ـلُ[2] على أننا نُذيبُ الحديدَا
وتُرَانَا عند الكَرِيهَةِ[3] أحرا رًا وفي السِّلم للغَوَانِي عبيدا

والغواني جمع غانية وهي الجارية التي غَنِيَتْ بزوجها، وقد تكون التي غنيت بحسنها وجمالها عن الحلي والزينة كما قيل:

ذَاتُ حُسْنٍ لَو اسْتَزَادَتْ مِنَ الحُسْـ ـنِ قَلِيلاً لَمَا أَصَابَتْ مَزِيدَا
فَهْيَ كَالشَّمْسِ بَهْجَةً وَالقَضِيبِ اللَّـ ـدنِ[4] قَدًّا[5] والرِّيم[6] طَرفًا وَجِيدًا[7]

---

(١) صبابة: شوق وعشق. (م).
(٢) الحدق النجل: العيون الواسعة. (م).
(٣) الكريهة: الشدة في الحرب. (م).
(٤) القضيب اللدن: الغصن الليِّن. (م).
(٥) القد: القامة. (م).
(٦) الريم: الظبي الأبيض الخالص البياض. (م).
(٧) جيد: عُنق. (م).

فهذه السلطنة المعنوية قوية، ولهذا يُدعى لشوكة سلطنتها بما يُدعى به لدولة الملوك ويخاطب خطابهم كما قال شمس الدين بن العفيف التلمساني:

أَعَزَّ اللهُ أنصـارَ العيونِ ... وخَلَّد مُلْكَ هَاتِيكَ الجفونِ

وضاعف بالفُتُـورِ لها اقتدارًا ... وإِنْ تَكُ أَضْعَفَتْ عقلي وديني

وأبقى دولةَ الأعطـافِ[1] فينا ... وإن جَارَتْ على القلب الطَّعِين

وأَسْبَلَ ظِلَّ ذاك الشَّعرِ يومًا ... على قَـدٍّ به هَيْفُ[2] الغُصُونِ

وصَانَ حجابَ هاتيكَ الثَّنَايَا ... وإن ثنت الفؤادَ إلى الشُّجُونِ

وأما السلطنة الرسمية على الرعية فهي لا تكون إلا في البلاد التي قوانينها محض سياسة وَضْعِيَّة بشرية؛ لأن قوانين مثل هذه الممالك تنتج اختلاط الرجال بالنساء بناءً على قانون الحرية المؤسس عليه تمدّن تلك البلاد وإلا فتمدن الممالك الإسلامية مؤسس على التحليل والتحريم الشرعيين بدون مدخل للعقل تحسينًا وتقبيحًا في ذلك؛ حيث لا حسن ولا قبيح إلا بالشرع.

---

(١) الأعطاف: الجوانب. (م).

(٢)قَدٌّ به هَيْفُ: جسم دقيق الخصر. (م).

ولا يسوغ لمتولي الأحكام أن يحكم في التحريم والتحليل بما يلائم مزاجه مما يخالف الأوضاع الشرعية المنقولة عن الأئمة المجتهدين، ولا عبرة بالاستكراه النفساني والاستحسان الطبيعي والأخذ بالرأي من غير دليل شرعي، بل يعتمد متولي الأحكام على فتاوى العلماء وأقوال المجتهدين في الدين، فإن الإمارة إنما تخلف النبوّة في حراسة الدين وسياسة الدنيا فتقف عند حدود الله تعالى المعضدة بقوله تعالى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة/ ٣] وكان أبو حنيفة النعمان يقول: «إياكم والأخذ في دين الله بالرأي وعليكم باتباع السُّنة فمن خرج عنها ضل وغوى» انتهى. وإنما يجوز للحاكم إذا رأى مصلحة ظاهرة للرعية شرعية مرعية كمخافة ضرر يلحق الرعية في دينها ودنياها أن ينهى عن بعض المباحات التي يترتب عليها الضرر، كما إذا خاف من أهل الحل والعقد أن يتفقوا على فتنة فمنعهم الاجتماع الذي هو في الأصل مباح، ولكن إذا نهى عنه صار محظورًا، وكذلك إذا أمر مَن عِنْدَهُ قوتٌ من قمح أو نحوه زائد عن حاجته أن يبيعه للناس وجب على صاحب القمح أن يبيعه؛ حيث إن الضرورة العامة تزول به، فهو من باب جلب المصالح ودرء المفاسد، فبهذا صار واجبًا، وكما إذا أمر بصدقة أو عتق مما يترتب عليه أمر من الأمور المهمة فإنه يصير واجبًا؛ لأن أوامر الحكام مَنُوطَة بمصالح الرعايا دنيا ودينًا، وإنما الممنوع من الحكام إنما هو اتباعهم هوى أنفسهم قال تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ

وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص/ ٢٦] الآية، فكل ما يمنعه الشرع صراحة أو ضمنًا فغير مباح ولا يعدّ تمدّنًا بخلاف المباحات إذا تصرف فيها العقل بالتصرفات التحسينية وحوّلها من حالة إلى حالة أحسن منها، فهذا عين التمدّن الذي نبينه في الفصل الآتي.

الفصل الخامس

في تمدن الوطن

تمدّن الوطن عبارة عن تحصيل ما يلزم لأهل العمران من الأدوات اللازمة لتحسين أحوالهم حسًّا ومعنى، وهو فوقانهم في تحسين الأخلاق والعوائد وكمال التربية وحملهم على الميل إلى الصفات الحميدة واستجماع الكمالات المدنية والترقي في الرفاهية وهذا التمدّن بالنسبة للأمة المقيمة في الوطن، وتختلف أفراد هذه الأمة المتمدّنة بالنسبة للترفيه والتحسين، فالتمدّن بالنسبة للأمم والأفراد مقول بالتشكيك؛ ولهذا تجد المملكة أعظم تقدمًا في التمدُّن من الأخرى، وكذلك زيد من الناس أرقى تمدّنًا من عمرو بالنسبة لتحسين حاله ومنزله. وضدّ التمدّن التخشن وهو الخلوّ عن الترفُّه في درجة المعيشة، ولاشك أن رسالة الرسل بالشرائع هي أصل التمدن الحقيقي الذي يعتدّ به ويلتفت إليه، وأن الذي جاء به الإسلام من الأصول والأحكام هو الذي مدّن بلاد الدنيا على الإطلاق وانبعثت أنوار هديه في سائر الآفاق، قال رسول الله ﷺ «أتيتُكم بشريعَةٍ حَنيْفيَّةٍ بيضَاءَ لم يأتِ بها نبيٌّ قَبْلي، ولو كانَ أخِي مُوسى وسائرُ الأنبياءِ في زمَني لمْ يَسَعْهم إلاَّ اتباعُ شريعَتِي»، ومن زاول علم أصول الفقه وفَقِهَ ما اشتمل عليه من الضوابط

والقواعد جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التي وصلت عقول أهالي باقي الأمم المتمدنة إليها وجعلوها أساسًا لوضع قوانين تمدّنهم وأحكامهم قَلَّ أن تخرج عن تلك الأصول التي بنيت عليها الفروع الفقهية التي عليها مدار المعاملات، فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يسمى ما يشبهه عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية؛ وهي عبارة عن قواعد عقلية تحسينًا وتقبيحًا يؤسسون عليها أحكامهم المدنية وما نسميه بفروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق أو الأحكام المدنية، وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية، وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والتولع بحمايته مما يفضلون به عن سائر الأمم في القوّة والمنعة يسمونه محبة الوطن، على أنه عندنا - معشر الإسلام - حب الوطن شَعْبة من شُعَبِ الإيمان وحماية الدين مجمع الأركان، فكل مملكة إسلامية وطن لجميع من فيها من الإسلام، فهي جامعة للدين والوطنية، فحمايتها واجبة على بنيها من هاتين الحَيْثِيَّتَيْن، وإنما جرت العادة بالاقتصار على الدين لقوّة أهميته مع إرادة الوطن، وقد تكون الغيرة على الوطن الخصوصي محضة لمجرّد الجنسية والمنزلية كالقيسي واليماني والمصري والشامي مع أن الوطن يستوي فيه النوع الإنساني فتجد الحزبين ولو اختلف البعض مع الآخر يتحدان بالنسبة للأجنبي لحماية الوطن أو الدين أو النوع وفوائد التمدّن كثيرة وعليها مدار جميع العلوم المعاشية والمعادية[1]؛ ولذلك قال بعضهم: كلما اتسع نطاق تمدّن ممالك الدنيا

(١) العلوم المعاشية والمعادية: العلوم المعاشية: علوم تتعلق بقوام حياة الإنسان، العلوم المعادية: علوم تتعلق بالآخرة ويوم القيامة. (م).

خَفَّت الحروب وقلَّت العداوة وتلطَّفت الفتوحات وندرت التقلبات والتغلبات حتى تنقطع بالكلية وينمحي الاستعباد والاسترقاق بغير حق ويزول الفقر والمسكنة[١].

ثم إن أسباب التمدّن في الدنيا التمسك بالشرع وممارسة العلوم والمعارف وتقديم الفلاحة والتجارة والصناعة واستكشاف البلاد التي تعين على ذلك واختراع الآلات والأدوات من كل ما يسهل أو يقرّب الطرق التمدنية بإيجاد الوسائط والوسائل، فمما أعان على التعليم والتعلم الذي هو ركن عظيم من أركان التمدّن المطابع الأهلية، يقال إن أوّل من اخترع طبع الكتب في أوروبا أمة الألمان وانتقلت منهم إلى بلاد فرانسا سنة ألف وأربعمائة وثلاثين ميلادية وإلا فاختراع الطبع قديم جدًّا في بلاد الصين، وكان أهل فرانسا إذ ذاك من عماية الجهل في بحر عميق ومن غواية[٢] التخشن في مكان سحيق، فاعتقدوا أن الطباعين سحرة وهَمُّوا بقتلهم فأنقذهم منهم لويز الحادي عشر ملك فرانسا، وجعل المطابع تحت حمايته ثم انتقلت إلى باقي بلاد أوروبا ومنها إلى بلاد المشرق ومصر.

---

(١) المَسْكَنَة: الخضوع والذل. (م).

(٢) غواية: ضلال. (م).

ومما أعان على سعة دائرة التمدن في بلاد الدنيا ترخيص جميع الملوك للعلماء وأصحاب المعارف في تدوين الكتب الشرعية والحكمية والأدبية والسياسية، ثم توسع في حرية ذلك بنشره طبعًا وتمثيلاً وخصوصًا جرائد الوقائع - لاسيما في بلاد أوروبا - بقانون حرية إبداء الآراء بشرط عدم ما يوجب الاختلال في الحكومة بسلوك سبيل الوسط بغير تفريط ولا شطط.

ومن أعظم معين على التمدّن حرية الملاحة والسياحة في البر والبحر فإنها عادت على جميع ممالك الدنيا بالثروة والغنى والاطلاع على عجائب الدنيا، وكانت السياحة في الأحقاب السالفة لعرب الإسلام لاستكشاف البلدان وإدخال أهلها في دين خير الأنام فاستكشفوا من البرور والبحور ما لا يحصى، ومدّنوا من أهل جزائر البحر المحيط وسواحله ما لا يُسْتقصى، ثم حذا حذوهم الحُذّاق والألبا(١) من أهالي أوروبا، فظفروا باستكشاف دنيا جديدة لم تكن معلومة للأقدمين، وأعظم ما أعان على الملاحة وهي السفر في البحر اختراع البوصلة التي هي بيت الإبرة، قيل إن أوّل مخترع لها عرب الإسلام الذين سافروا في جميع أقطار البحر المحيط لنشر الإسلام عند الأمم المتبربرة في جميع الأقطار، وقيل إن المخترع لبيت الإبرة إنما هم الأوروباويون والجمع بين القولين أن يقال

(١) الألبَّا: الألِبَّاء جمع لبيب وهو العاقل ذو اللُّب. (م).

إن الاختراع لهذه الآلة إنما كان للعرب وإن الأورباويين إنما اجتهدوا في تكميلها وتحسينها وتكثيرها، وهي عبارة عن علبة مثبت فيها إبرة حديد مسقية بالمغناطيس تتحرّك دائمًا صوب القطب الشمالي ولا تنحرف عنه إلا انحرافًا يسيرًا ويرسم فيها الجهات الأربع وهي الشمال والجنوب والشرق والغرب لمعرفة مَهَابّ الرياح الأربع الأصلية والريح النَّكْبَاء[١]، فبهذا يهتدي بها الربانون في البحر إلى صوب مقصودهم، ثم إن أغلب ممالك أوروبا أرباب قوّة بحرية إلا أن أعظم الممالك قوّة بحرية مملكة الإنكليز ثم مملكة فرانسا، وللدولة العلية في القوة البحرية ميسرة قوية ومينات لا نظير لموقعها في الحصانة والأمنية، وللحكومة المصرية بوغازات ذات أهمية يصح أن تكون أوّلية وذات أولوية فكل من البحرين الأبيض والأحمر لها مساعد، وسائر ثغورها مراكز تجارة لكل صادر ووارد.

وقال أرباب السياسات إنه ينبغي لأي مملكة من الممالك أن تكون قوّتها البحرية على النسبة من قوّتها البرية، وعلى حسب عِظَم مُلْكها، وإن أنفع شيء في تقديم القوّة البحرية في مملكة من الممالك أن يكون بيرقها[٢] مرخص السير في البحار محترمًا في جميع أجزاء بحار الدنيا. ومن فضائل القوّة البحرية أنها تعين على تقدّم الزراعة والتجارة والصناعة لاسيما في المستعمرات الخارجة عن

(١) الريح النكباء: الريح الجالبة للكوارث. (م).

المملكة، ولأجل تكثير السفن والعمارات البحرية يجب على الأمة المتشبثة بذلك أن تكثر من غرس الغابات والأورمانات، ليكثر عندها الخشب اللائق لابتناء السفن بحيث تتمكن المملكة البحرية من أن تنشئ ترسانات للسفن في بلادها، فإن تعذر عليها ذلك وجب أن تتحصل على السفن اللائقة بها بالشراء من البلاد الأجنبية بقدر ما يفي بحاجتها؛ لأن القوّة البحرية هي منبع غزير لتوسيع دائرة التمدُّن الذي مبناه على العدل والحرية العمومية.

الفصل السادس

في الحرية العمومية والتسوية بين أهالي الجمعية

الحرية من حيث هي رخصة العمل المباح من دون مانع غير مباح ولا معارض محظور، فحقوق جميع أهالي المملكة المتمدّنة ترجع إلى الحرية فتتصف المملكة بالنسبة للهيئة الاجتماعية أنها مملكة متحصلة على حريتها، ويتصف كل فرد من أفراد هذه الهيئة بأنه حر يباح له أن ينتقل من دار إلى دار ومن جهة إلى جهة بدون مضايقة مُضايق ولا إكراه مُكْرِه، وأن يتصرف كما يشاء في نفسه ووقته وشغله، فلا يمنعه من ذلك إلا المانع المحدود بالشرع أو السياسة مما تستدعيه أصول مملكته العادلة. ومن حقوق الحرية الأهلية أن لا يجبر الإنسان على أن يُنفى من بلده أو يعاقب فيها إلا بحكم شرعي أو سياسي مطابق لأصول مملكته، وأن لا يضيق عليه في التصرف في ماله كما يشاء، ولا يحجر عليه إلا بأحكام بلده وأن لا يكتم رأيه في شيء بشرط أن لا يُخِلَّ ما يقوله أو يكتبه بقوانين بلده.

وتنقسم الحرية إلى خمسة أقسام: حرية طبعية، وحرية سلوكية، وحرية دينية، وحرية مدنية، وحرية سياسية، فالحرية الطبعية هي التي خُلِقَتْ مع الإنسان وانطبع عليها فلا طاقة لقوّته البشرية على دفعها بدون أن يعدّ دافعها ظالمًا كالأكل

والشرب والمشي مما يشترك فيه جميع الأفراد ولا يستغنون عنه مما لا ضرر فيه على الإنسان نفسه ولا على إخوانه، فلا يجوز مثلاً التخمة ولا أكل السموم ولا أكل طعام الغير بدون إذنه. والحرية السلوكية التي هي حُسْنُ السلوك ومكارم الأخلاق هي الوصف اللازم لكل فرد من أفراد الجمعية المستنتج من حكم العقل بما تقتضيه ذمّة الإنسان، وتطمئن إليه نفسه في سلوكه في نفسه وحسن أخلاقه في معاملة غيره، والحرية الدينية هي حرية العقيدة والرأي والمذهب بشرط أن لا تخرج عن أصل الدين كآراء الأشاعرة والمَاتِريدِيَّة[1] في العقائد وآراء أرباب المذاهب المجتهدين في الفروع، فإن الإنسان يأمن على أن يتبع مذهبًا من هذه المذاهب يتمسك به في العبادة ومثل ذلك حرية المذاهب السياسية وآراء أرباب الإدارات الملكية في إجراء أصولهم وقوانينهم وأحكامهم على مقتضى شرائع بلادهم، فإن ملوك الممالك ووزراءهم مرخصون في طرق الإجراءات السياسية بأوجه مختلفة ترجع إلى مرجعٍ واحد وهو حسن السياسة والعدل. والحرية المدنية هي حقوق العباد والأهالي الموجودين في مدينة بعضهم على بعض فكأن الهيئة الاجتماعية المؤلفة من أهالي المملكة تضامنت وتواطأت على أداء حقوق بعضهم لبعض، وأن كل فرد من أفرادهم ضَمَنَ للباقين أن يساعدهم على فعلهم كل شيء لا يخالف شريعة البلاد، وأن لا يعارضوه وأن ينكروا جميعًا على من

(١) الأشاعرة والماتريدية: الأشاعرة: هم أتباع المنهج الأشعري المنسوب لأبي الحسن الأشعري (ت ٣٢٤ هـ) والماتريدية: هم أنصار المنهج الكلامي السنّي، الذي ينسب إلى أبي منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ). (م).

يعارضه في إجراء حريته بشرط أن لا يتعدّى حدود الأحكام. والحرية السياسية أي الدولية هي تأمين الدولة لكل أحد من أهاليها على أملاكه الشرعية المرعية وإجراء حريته الطبعية بدون أن تتعدّى عليه في شيء منها فبهذا يباح لكل فرد أن يتصرف فيما يملكه جميع التصرفات الشرعية فكأن الحكومة بهذا ضمنت للإنسان أن يسعد فيها مادام مجتنبًا لأضرار إخوانه.

فالحرية بهذه المعاني هي الوسيلة العظمى في إسعاد أهالي الممالك، فإذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى في راحة الأهالي وإسعادهم في بلادهم، وكانت سببًا في حبهم لأوطانهم، وبالجملة فحرية أهالي كل مملكة منحصرة في كونهم لهم الحق في أن يفعلوا المأذون شرعًا وأن لا يكرهوا على فعل المحظور في مملكتهم، فكل عضو من أعضاء جمعية المملكة يرخص له أن يتمتع بجميع مباحات المملكة، فالتضييق عليه فيما يجوز له فعله بدون وجه مرعي يعدّ حرمانًا له من حقه فمن منعه من ذلك بدون وجه سلب منه حق تمتعه المباح وبهذا كان متعدّيًا على حقوقه ومخالفًا لأحكام وطنه، ومتى كانت حرية الأهالي مصحوبة بعدل الملوك الذين يمزجون اللِّين بالخشونة للإهابة فلا يُخْشى منها على الدولة بل يكون التعادل في الحقين ويسعد الرئيس والمرءوس.

وحيث إن الحرية منطبعة في قلب الإنسان من أصل الفطرة واقتضت الحكمة الإلهية عدم تحقيره وذله وكَرَّمَتْهُ على جميع من عداه فينبغي أن يصرف

حريته في إكرام وطنه وإخوانه ورئيس دولته، فإذا كان الإنسان يكلف بنفع وطنه فلا يعدّ تكليف الحكومة له بجهاد الأعداء، أو إعانة الحكومة على مصارفها من التعدّي على حقوقه فإن هذا من واجباته لوطنه؛ حيث إن العدوّ الذي يتعدّى بالإغارة على بلد من البلاد يجب على أهلها قتاله وصدّه عنها، وما ذاك في الحقيقة إلا لحماية الحرية فمن محاسن حرية الأمّة أنها تفرح أيضًا بحرية غيرها من الأمم وتتأذى من استعباد أمم الممالك الذين لا حرية عندهم.

وأعظم حرية في المملكة المتمدّنة حرية الفلاحة والتجارة والصناعة، فالترخيص فيها من أصول فنّ الإدارة الملكية، فقد ثبت بالأدلة والبراهين أن هذه الحرية من أعظم المنافع العمومية وأن النفوس مائلة إليها من القرون السالفة التي تقدّم فيها التمدّن إلى هذا العصر، وأن أصعب ما على العاقل الذي يفهم منافع هذه الفنون أن يرى تضييق دائرتها ولكن قد يكون سبب التضييق في ذلك أن ملوك المملكة الموجود فيها ذلك يرون رعاياهم ليسوا أهلاً لهذه الرخصة لعدم استكمال التربية الأهلية فيها، وأنهم ينتظرون تقدّم التربية وصلاح حال الأهالي ليبيحوا لهم رخصة اتساع الدوائر الزراعية والتجارية والصناعية؛ لأن تهذيب الأهالي وتحسين أحوالهم يكسب عقولهم الرشد والتصرف في العمليات المتسعة.

قال بعض الحكماء: إن سمحتم لي بتحسين التربية ألزمت نفسي لكم بإصلاح أحوال العالم بأسره، فإن العقول البشرية متى بلغت مبلغًا عظيمًا في

فهم المعارف المعاشية اتسعت في المعاملات وتشبثت باختراع ما يعين على المنافع العمومية من الأدوات والآلات، واهتم أهل العصر بتمامهم في مزاولة الأعمال والأشغال وصار للماهرين في الفلاحة والصناعة والتجارة اقتدار على تدوين كتبها وتقييدهم فيها جميع التجديدات، فبهذا تتجدّد بالمعارف المكاسب الوافرة والمغانم المتكاثرة يومًا فيومًا، فالمملكة التي تقدّم فيها علم الإدارة والاقتصاد في المصارف وحصلوا في ذلك على القواعد المكينة والأصول المتينة فليس عجيبًا إن فازوا بمنافعها العمومية وثمراتها الحالية والمآلية، ولا يبعد أن من نافسهم ممن بجوارهم في هذه العلوم وعرف أصولها وفروعها تجدّد عنده هذه المنافع بعينها وبالممارسة والمزاولة لا تزال تأخذ في الاتساع حسب الإمكان، ويقارن الحرية التسوية وكلاهما ملازم للعدل والإحسان.

وأما التسوية بين أهالي الجمعية فهي صفة طبيعية في الإنسان تجعله في جميع الحقوق البلدية كإخوانه، وهي جامعة للحرية المدنية والحرية الملكية؛ وذلك لأن جميع الناس مشتركون في ذواتهم وصفاتهم، فكل منهم ذو عينين وأذنين ويدين وشم وذوق ولمس، وكلٌّ منهم محتاج إلى المعاش، فبهذا كانوا جميعًا في مادّة الحياة الدنيا على حدّ سواء، ولهم حق واحد في استعمال الموادّ التي تصون حياتهم فهم مستوون في ذلك لا رُجحان لبعضهم على بعض في ميزان العيشة، ولكن هذا التساوي بينهم إن أمعنا النظر فيه وجدناه أمرًا نسبيًّا لا حقيقيًّا؛ لأن الحكمة الإلهية ميزت بعضهم على بعض أزلاً؛ حيث منحت البعض أوصافًا

جليلة لم تمنحها للبعض الآخر، فبهذا تباينوا في الصفات المعنوية بل وفي الصفات الطبيعية كقوّة البدن وضعفه، ومع أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض في الرزق فقد جعلهم في الأحكام مستوين لا فرق بين الشريف والمشروف والرئيس والمرءوس، كما أمرت به ودلت عليه سائر الكتب المنزلة على أنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - فليس للتسوية معنى آخر لاشتراكهم في الأحكام بأن يكونوا فيها على حدّ سواء؛ فحيث اشتركوا واستووا في الصفات الطبعية فلا يمكن أن ترفع هذه التسوية من بينهم في الأحكام الوضعية، فمن حيث ثبت أنهم مستوون في الحقوق أنتج ذلك أنهم إذا وقعوا جميعًا في خطر عام وجب على سائرهم أن يتعاونوا في إزالة هذا الخطر لما في إزالته من منفعتهم العمومية، فإذا وقع لوطنهم حادث وجب عليهم أن يصرفوا النظر عن امتيازاتهم المعنوية كأنهم مجرّدون عنها بالكلية، ويرجعوا إلى صفة التسوية وينسوا كل مَزِيَّة، فبهذا تكون التسوية ملازمة للحرية عند انطواء راية الحرب ولوائه، وينضم إلى ذلك صفة ثالثة وهي محافظتهم على بقاء الهَدْء والراحة العامة في وطنهم ومنع الاختلال الداخلي وحسم عرق الفتن، فكل ملة تتخذ أصل قانونها التسوية من أصل الفطرة في الحقوق ويدومون على مراعاة هذه التسوية فإن حريتهم توضع على أساس متين وتكون مملكتهم راسخة القواعد لا يعتريها الخلل من بين يديها ولا من خلفها، فبهذا تقوى على المدافعة عن بلادها وتحمي عن حقيقة وطنها وتدفع جور من جاوره من الممالك، فهذه هي الأمّة القوية الشوكة في الداخل والخارج مهابة عند الجميع. فالتسوية

في الحقوق ليست إلا عبارة عن تمكن الإنسان شرعًا من فعل أو نيل أو منع جميع ما يمكن لسواه من إخوانه أن يفعله أو يناله أو يمنع منه شرعًا، فكل إنسان يتصرف في أملاكه وحقوقه تصرفًا كتصرف الآخرين أيًّا ما كانت في المملكة صفته شرفًا أو ضعة فهو مساوٍ للجميع في تصرفاتهم، ومن البديهي أن استواء الإنسان في حقوقه مع غيره يستلزم استواءه مع ذلك الغير في الواجبات التي تجب للناس بعضهم على بعض؛ لأن التسوية في الحقوق ملازمة للتسوية في الواجبات، فكما أن الإنسان يطلب أن يستوفي ما هو له فعليه أن يؤدّي ما عليه، فالتسوية عبارة عن تكليف جميع أهالي المملكة بدون فرق بينهم بأن يفوا بما يجب لبعضهم على بعض، فالطالب هو ذو الحق والمطلوب هو ذو الواجب، فالواجبات دائمًا ملازمة للحقوق لا تنفك عنها. وعلى كل حال فالتكاليف الشرعية والسياسية التي عليها مدار نظام العالم مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن الموانع والشبهات؛ لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه وتعالى، وإنما ليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.

فمن أدّى واجباته واستوفى حقه من غيره وكان دأبه ذلك اتصف بصفة العدل، والعدل صفة تبعث الإنسان على الاستقامة في أقواله وأفعاله وأن ينتصف لنفسه ولغيره، حتى جعله بعض الحكماء فضيلة قاعدة لجميع الفضائل، وأنه أساس الجمعية التأنسية والعمران والتمدن فهو أصل عمارة الممالك التي

لا يتم حسن تدبيرها إلا به، وجميع ما عدا العدل من الفضائل متفرّع منه وكالصفة من صفاته، وإنما يسمى باسم خاص كالشفقة والمروءة والتقوى، ومحبة الوطن، وخلوص القلب، وصفاء الباطن، والكرم، وتهذيب الأخلاق، والتواضع، وما ماثل ذلك فهذه كلها نتائج العدل، ثم إن الحديث الشريف وهو قوله ﷺ «لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى يحبَّ لأخيْهِ ما يحبُّ لنَفْسِهِ» يتضمن الدرجة العليا في العدل، وهو موافق لما نطقت به حكم الحكماء وشرائع الأنبياء قبل الإسلام، فقد حسنه الشرع والطبع وإن كان تحسين النواميس الطبيعية لا يعتدّ به إلا إذا قرره الشارع.

الفصل السابع

في الأحكام الطبيعية المستندة قبل التشريع إلى العقل

الحكم الطبيعي المستند إلى العقل هو في أصله قبل تشريع الشرائع عليه مدار العالم ومجرى قوامه، وهو النظام الذي وضعته الحكمة الإلهية في القوى البشرية وجعلته مشتركًا بينهم مستويًا فيهم ليميزوا فيه المباحات بدون نظر لبلد دون أخرى ولا لقوانين مملكة دون ما عداها.

ولما كانت أعمال كل نوع من أنواع المخلوقات، وكل عضو من أعضاء فرد ذلك النوع منقادة لنواميس طبيعية عمومية خصته به الحكمة الإلهية كان لا يمكن مخالفة هذه النواميس بدون اختلال للنظام العام والخاص، وهذه النواميس الطبيعية التي خصت بها العالم القدرة الإلهية عامة للإنسان وغيره، فمنها كون الشمس تضيء على سطح الأرض ويسطع نورها على التدريج في سيرها، وأن وجودها على البسيطة يستلزم النور والحرارة، وأن الحرارة يلزمها سخونة الماء ويتكوّن عنها الأبخرة التي تتصاعد في الجوّ ويتكوّن عنها السحاب الذي يستحيل إلى الأمطار والثلج والبرد ويتسبب عن ذلك مياه العيون والأنهار والجداول، وليس لهذه الأشياء تأثير في بعضها وإنما هي أسباب عادية والتأثير إنما

هو للحكيم القادر وتسميتها طبيعية عند الحكماء إنما هو نظر للظاهر.

وَمَنْ يَقُلْ بِالطَّبْعِ أَوْ بِالعِلَّة   فَذَاكَ كُفْرٌ عِنْدَ أَهْلِ المِلَّة

فمن هذه الأسباب العادية حقيقةً الطبيعية ظاهرًا أن الماء يجري من أعلى إلى أسفل ويحاول أن يمتد ويستوي في إنائه تسوية واحدة لا يعلو بعض أجزائه على بعض ويكون أثقل من الهواء، ومن ذلك أن جميع الأجسام التي في الجوّ تميل للسقوط على الأرض ما عدا النار فإنها تميل للصعود نحو السماء وإنها تضر بالمعادن والحيوانات والنباتات وأن الهواء ضروري لمعيشة بعض الحيوان، وأن الماء الذي به حياة الحيوان والنبات يخنق في بعض الأحوال بعض الحيوانات ويقتلها وأن بعض عصارات النباتات وبعض المعادن تضر بالحيوان، وتقتله وبالجملة فالأسباب العادية المسماة عند الحكماء بالنواميس الطبيعية كثيرة كثرة بالغة.

فينبغي للإنسان أن لا يتجارى على هذه الأسباب ويتعدّى حدودها؛ حيث إن المسببات الناتجة عنها منتظمة محققة ولا نظر إلى خرق العادة التي لا تكون إلا لنحو كرامة لولي؛ لأن كل ما كانت معجزة لنبي كانت كرامة لولي لا فرق بينهما إلا التحدّي بالنبوة.

والولي من استولى على طاعة مولاه كاستواء السفينة إذا طاب لها الريح فيجب احترام الأولياء وعدم إهانتهم، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقولُ

اللهُ تعالى: مَنْ أَهانَ لي وليًّا فَقَد آذَنَني بالمحَاربة» وقد نطق القرآن بكرامات الأولياء، ففيه قصة أصحاب الكهف، قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف/ ١٠] الآيات، وقصة مريم قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران/ ٣٧] قال المفسرون: كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، وقد أثنى عليهم المولى تبارك وتعالى بقوله ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس/ ٦٢] الآية وقال العلامة اللقاني في الجوهرة:

وَأَثْبِتَنْ لِلأَوْلِيَا الكَرَامَه وَمَنْ نَفَاهَا انْبِذَنْ كَلاَمَه

فمنهم من يكون ستره بالأسباب، ومنهم من يكون ستره بظهور العزة والسطوة والقهر على حسب ما يتجلى الحق تعالى لقلبه فيقول الناس حاشا أن يكون هذا وليًّا لله تعالى وهو في هذه النفس؛ وذلك لأن الحق تعالى إذا تجلى في قلب العبد بصفة القهر كان قاهرًا، أو بصفة الانتقام كان منتقمًا، أو بصفة الرحمة والشفقة كان رحيمًا مشفقًا وهكذا، ولم يزل في كل عصر وأوان أولياء وعلماء.

(رجع) فعلى الإنسان أن يطبق أعماله على هذه الأسباب التي تقدّم ذكرها ويتمسك بها وإلا عوقب عقابًا إلهيًّا لمخالفة خالق هذه الأسباب، مثلاً

إذا أراد الإنسان أن يبصر المبصرات في ظلمة الليل الحالك وحاول ذلك كل المحاولة أو خالف ما تقتضيه الفصول الزمانية واستسهل ما يتسبب عنها أو ناقض خواص العناصر كأن أراد أن يعيش في قرار الماء أو يمس النار بدون أن يحترق أو أن يشرب السم بدون أن يموت فإنه يجازي على أفعاله في الحياة الدنيا بقدر مخالفته للأسباب العادية بأن يغرق أو يحترق أو يشرق أو يموت بخلاف ما إذا راعى هذه الأسباب العالم بخواصها على قدر الإمكان؛ فإنه يصون نفسه على قدر الإمكان؛ حيث هي موضوعة بالحكمة الإلهية للحفظ والصون والإسعاف والإسعاد إلى غير ذلك.

وأغلب هذه النواميس الطبيعية لا تخرج عنها حكم الأحكام الشرعية فهي فطرية خلقها الله ﷻ مع الإنسان وجعلها ملازمة له في الوجود، فكأنها قالب له نسجت على منواله وطبعت على مثاله وكأنما هي سطرت في لوح فؤاده بإلهام إلهي بدون واسطة، ثم جاءت بعدها شرائع الأنبياء بالواسطة وبالكتب التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فهي سابقة على تشريع الشرائع عند الأمم والملل، وعليها في أزمان الفترة تأسست قوانين الحكماء الأُوَل وقدماء الدول وحصل منها الإرشاد إلى طريق المعاش في الأزمنة الخالية، كما ظهر منها التوصل إلى نوع من انتظام الجمعيات التأنسية عند قدماء مصر والعراق وفارس واليونان، وكان ذلك من لطف الله تعالى بالنوع البشري؛ حيث هداهم لمعاشهم بظهور حكماء فيهم يقننون القوانين المدنية لاسيما الضرورية كحفظ المال والنفس

والنسل، وهذا الأخير هو حكمة عظيمة في الفطرة التي فطر الناس عليها من تأبيده بازدواج النساء والرجال الذي حكم الطبع والشرع بحله وحث عليه شرع كل ملة من الملل.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن خلق النساء والرجال من نفس واحدة ليسكن بعضهم إلى بعض، ومع ذلك فجعل النساء رأس الشهوات التي هي النساء والبنون والذهب والفضة والخيل المُسَوَّمَة والأنعام والحرث في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران/ ١٤]؛ وذلك لتقدّم النساء في قلوب الرجال على جميعها، أوكانت عائشة - رضي الله تعالى عنها - تقول: من شِقْوَتِنَا أن الله ﷻ قدّمنا حين ذكر الشهوات، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم/ ٢١]. ورُوِيَ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يتزوّج المرأة لا يعرفها ولا تعرفه فلا يكون إلا ليلة حتى لا يكون شيء أحب إليه منها وإليها منه، فقال ﷺ: «تِلْكَ أُلْفَةُ الله» وتلا قوله ﷻ: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾، وروى البخاري عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرِّجال مِن النِّساء»، وروى مسلم عن أبي سعيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه: قال: «إِنّ الدُّنيا حُلْوةٌ

خَضِرَةٌ وإنَّ الله مُسْتَخْلِفُكمُ فيها فناظرٌ كيفَ تعمَلونَ، فاتَّقوا الله واتَّقوا النِّساء فإنَّ فِتْنَةَ بني إسرائيل كانت في النِّساءِ».

ومع أن النساء رأس الشهوات كما تقدّم فهنّ في الحقيقة جعلهن الله ﷻ لسعادة الرجال؛ حيث أودع في قلوب الرجال حب النساء وفي النساء حب الرجال للائتلاف بينهما والتمتع بما أحله الله ﷻ من الزواج أو التسري، ومما يتولد عن ذلك التمتع من الذرية والنسل الذي عليه مدار العمران وبقاء الإنسان والنظام العمومي كما سيأتي بيانه في الباب الآتي.

الباب الخامس

في الزواج والتَّسَرِّي، وما يتعلق بذلك، وفيه فصول

الفصل الأول

في الـزواج

عقد الزواج إنما يُقْصَد منه ارتباط أحد الزوجين بالآخر وإيجاد علاقة الاتحاد بينهما للعفاف والنسل، بحيث يكون ذلك على وجه شرعي وكل منهما مُعَان ومُجَازى عليه بالثواب، قال الشاعر:

حَقٌّ على اللهِ عَونُ جَمْعٍ — وهو لهم في غَدٍ يُجَازي
مُكَاتِبٌ نَاكِحٌ عفافًا — ومَنْ يَزُرْ بَيْتَهُ وغَازي

وخير الزوجين من كانا متحابين كما قيل:

ما العيشُ إلا أنْ تحبَّ وأنْ يُحبَّك مَنْ تُحبُّه

وقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على الزواج والتناسل الذي عليه مدار نظام العالم، ولا يتم هذا المقصود إلا إذا صحبه صدق المحبة وصفاء المودّة، وأمانة أحد الزوجين للآخر وصيانة العرض الذي هو محل للمدح والذم منهما، ولو أن هذا المعنى ليس صريحًا في العقد إلا أنه ضِمْنيٌّ سُكُوتيٌّ، ولو أنه

أيضًا عامٌّ في الرجال والنساء بدون استثناء إلا أنه أَوْكَدُ في حقوق الزوجية بين الزوجين، وتظهر ثمرة الصداقة منهما في سياستهما المنزلية كما يظهر الإخلال بهذه الفضيلة في تلك السياسة المنزلية بين العائلة والأولاد الذين هم القصد الأعظم بقوله ﷺ: «تزوَّجوا الوَدُودَ الوَلودَ فَإنِّي أُباهي بكم الأمَمَ يومَ القيامةِ حتَّى بالسَّقْط»، وقال ﷺ: «سوداءُ ولودٌ خيرٌ من حسناءَ عقيم»، ولا يُسَنُّ لمن في دار الحرب التزوّج مطلقًا خوفًا على ولده من التَّدَيُّن بدينهم والاسترقاق، ويتعين حَمْلُه على من لم يغلب على ظنه الزنا لو لم يتزوّج؛ إذ المصلحة المُحَقَّقَة الناجزة مقدّمة على المفسدة المُسْتَقْبَلة المُتَوَهَّمة.

ولم تزل العرب تكره من لا تلد، قال ﷺ: «بيتٌ لا صبيانَ فيه لا بركةَ فيه» انتهى. فإن الولد كله خير في جميع أحواله إن شاء الله تعالى؛ لأنه إن عاش فله رزق على الله تعالى، قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء/ ٣١]، ولعل والده يسعد به، ولذلك قال ﷺ لرجل شكا إليه أخاه: «لعلَّك به تُرْزَق» وشكا رجل إلى بعض العلماء كثرة عياله فقال: «من كان من عيالك رزقُه على غير الله فحوِّله إليَّ»، وقال ﷺ: «من كانَ له مالٌ فليستَكْثِرْ من العَبيدِ فَرُبَّ عَبْدٍ قُسِمَ لهُ من الرِّزقِ مَا لم يُقْسَمْ لمولاه». وفي حديث. «التمسوا الرِّزقَ بالنكاحِ»، فمن هذا يُعلم أن البركة في العائلة لاسيما الأولاد؛ فإن الولد من خيري الدنيا والآخرة؛

لأنه إن عاش كان له رزق على الله، وإن مات في صغره كان فرطًا[١] لأبويه يُثْقَلُ به ميزانهما وإلى الجنة يقودهما، فقد قال ﷺ: «إنَّ الطفلَ يجُرُّ أبويه بِسَرَرِه[٢] إلى الجَنَّةِ»، ورُوي عن الحسن البصري - رحمه الله تعالى - أنه جاءه رجل فقال: «يا أبا سعيد، إنه كان لي ابن صغير فمات، وإذا رأيت شيئًا مما كان يلعب به جزعت من ذلك جزعًا شديدًا فقد خِفْتُ أن يحبط الله تعالى أجري. فقال له: إذا رأيت شيئًا من ذلك فقل: اللهم اجعل لي أجرًا، اللهم اجعله لي فَرَطًا» ومن ذلك ما صح من حديث أم سلمة - رضي الله تعالى عنها - قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَا مِنْ مسلم تُصِيبه مصيبةٌ فَيقولُ ما أَمَر اللهُ به إنَّا لله وإنا إليه راجعون، اللهمَّ أجُرْني في مُصيبَتي واخلُفْني خيرًا منها، إلا أَخْلفَ الله له خيرًا منها. فلما مات أبو سَلَمة قلت: أيُّ المسلمين خيرٌ من أبي سَلَمة! أوّل بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتُها فأخلفني رسولَ الله ﷺ» وقيل: إذا مات ولد العبد يقول الله تبارك وتعالى للملائكة: «ما قالَ عبدِي عندَ قبْضِ رُوح ولدِه وثمرَةِ فؤادِه» فيقولون: «إلهنا حَمَدك واستَرجَع»، فيقول الله تعالى: «فإنِّي أُشهِدُكم يا ملائِكتي أنِّي بَنَيتُ له بيتًا في الجنَّة وسميتُه بيتَ الحمدِ».

شعر:

لا يَدُومُ البَقَاءُ للخَلْقِ لَكِن دَوَامَ البقاءِ للخلَّاقِ

(١) فَرَطًا: أجْرًا. (م).

(٢) بِسَرَرِه: السَّرر، والسِّرر: الحبل السُّرِّي. (م).

وقال بعضهم:

فَلَسْنَا وإنْ كَانَ البَقَـاءُ مُحَبَّبًا   بِأَوَّلِ مَنْ أَخْنَى عَلَيه[١] حِمَامُ[٢]

وقيل:

وَزَهْـرَةُ الدُّنْيـا وإنْ أَيْنَعَتْ   فإنَّها تُسْـقَى بِمَـاءِ الزَّوَالِ

وقال ابن عباس – رضي الله عنهما: «أوّلُ شيء كتبهُ الله في اللَّوح المحفوظ: إنني أَنَا اللهُ لا إله إلا أَنَا، ومحمد رسولي، مَنْ لم يَستسلمْ لقضائي ويَصبرْ على بلائي ويشكرْ نعمَائي فليتَّخِذْ رَبًّا سوائي». شعر:

سَـيَكُونُ الـذي قُضِـي   سَـخِطَ العبـدُ أم رَضِي
فَـدعِ الهـمَّ يا فَتىَ   كُلُّ هَـمٍّ سَيَنْقَـضِي

وقيل:

مَا للرِّجَالِ مَعَ القَضَاءِ مَحَالَةٌ   ذَهَبَ القَضَاءُ بِحِيـلَةِ الأقْوَامِ

وقال بعض أهل الإشارة: «البلاء على ثلاثة أوجه: بلاء التعذيب وبلاء التأديب وبلاء التقريب»، وقال بعضهم: «كلُّ بلاء يقربك إلى الله تعالى فهو

(١) أخنى عليه: أهلكه. (م).

(٢) حِمَام: قضاء الموت وقدره. (م).

نعمة، وكلُّ نعمة تبعدك عن الله فهي نقمة»، قال ﷺ: «إنَّ الله يتعاهدُ[1] العبدَ المؤمن من بلائِه كَمَا يتعاهدُ الوالدُ ولدَهُ بالخيرِ»، وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابتْهُ مصيبةٌ فليذكرْ مصيبَته فِيَّ[2] فإنَّها من أَعْظمِ المصايِبِ»، وقال السريّ السَّقَطِيّ - رحمه الله: «الصبر على أربعة أقسام: صبر على طاعة الله يقوم بها العبد فلا يقطعها ولا يهملها ولا يخلطها بالرياء ولا يتبعها بما يُحبطها، وصبر على معصية الله لا يقربها، وصبر على الشدائد لا تحمله على مخالفة ربه، وصبر على النعمة لا تبطره».

شعر:

إنَّ للهِ في الأنَــــام مُــــرَادَا وَســـِوَى مَا أَرَادَهُ مُسْتَحِيــــلُ
نَحنُ مُسْتَعْمَلُون فِيـــمَا خُلِقْنَا ما لَنَا في نُفُوسِنَا مَا نَقُـــولُ

وقيل:

مَنْ عَـــارَضَ اللهَ في مَشِيئَتهِ فَمَـــا مِن الدِّينِ عِنْدَهُ خَبَرُ
لا يَقْـــدِرُ النَّاسُ بِاجْتِهادِهم إلاَّ عَلَى مَا جَـــرى بِهِ القَـــدَرُ

ويُروى أن الأطفال يجتمعون في موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب، فيقولون: أين آباؤنا وأمّهاتنا. فيُقَال لهم: ليسوا مثلكم بل لهم ذنوب

(١) يتعاهد: يرعى. (م).
(٢) فليذكر مصيبته فِيَّ: فليذكر مُصابه في وفاتي. (م).

يُحاسبون عليها. فيتصارخون ويصيحون على باب الجنة صيحة واحدة، يقولون: لا ندخلُ الجنَّة إلا مع آبائنا. فيقول الله تعالى: «تَخَلَّلوا الجمعَ فخذوا بيدِ آبائكم فأدخلوهم معكم الجنة»، وروى الإمام مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يموتُ لأحدٍ من المسلمينَ ثلاثةٌ من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جُنَّةً[١] من النَّار، «فقالت امرأة عند رسول الله ﷺ: «أو اثنان؟ قال: «واثنان».

وقيل: عزّى أعرابي عمر بن عبد العزيز على ابن له فقال:

تَعَزَّ أَمِيرَ المؤمنـــين فـــإنَّهُ ... لِمَا قد تَرَى يُعَزَّى الصغيرُ ويُولَدُ

هَلْ ابْنُكَ إلاَّ مِنْ سُـــلالةِ آدمٍ ... لكـــلٍّ على حَوْضِ المَنِيَّةِ مَوْرِدُ

والإسلام عند أهل الحقيقة تسليم الأمور كلها لله والرضى بقضاء الله والصبر على بلاء الله، وترك التعرض في جميع ما جاء عن الله ورسوله وأتباعه، وأن تعتقد وتتيقن أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله وحده لا شريك له، ولا دافع لما قضاه ولا رادّ لما أمضاه، ولا مانع لما أعطى، ولا ضال لما هدى، ولا مهدي لمن أضل؛ لقوله تعالى: ﴿ **مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى** ﴾ [الأعراف/ ١٧٨] الآية، وقال ﷺ: «مِنْ بَرَكَةِ المرأةِ سُرعةُ تزويجِهَا وسرعةُ رَحِمِهَا - يعني ولادتها - ويسيرُ مهرها»، قال أحمد بن عبد الله بن سيف أبو بكر السِّجِسْتانيّ: سمعت

---

(١) جُنَّة: وقاية. (م).

المزني وقد سُئل عن رجل تزوّج امرأة على بيت شعر. فقال: يجوز على معنى قول الشافعي إذا كان مثل قول القائل:

يُريدُ المـــــرءُ أن يُعْطَى مُنَاهُ ... وَيَأبَـــــــى اللهُ إلا مَا أَرادَا
يَقولُ العبــــدُ فَائـدَتي ومَالي ... وتَقْوَى اللهِ أفضـــــلُ مَا استَفَادَا

فالمهر اليسير للزوجة أَوْلَى. ويُرْوَى «اليُمْنُ في المرأةِ قلَّةُ مَهْرِها، وحُسْنُ خُلُقِهَا، وكثرةُ ولدِهَا، وفي الفَرسِ رُخْصُها وقلَّةُ عَلَفِها وكثرةُ نَسْلِها، وفي الدارِ رخصُها وسَعَتُها وصلاحُ جيرانها»، وقال بعضهم في الجار:

يَلومُونَني أنْ بِعْتُ بِالرُّخْصِ منزلي ... ولم يعـــرِفُوا جَارًا هُنَاك يُنَغِّصُ
فقلتُ لَهُم كُفُّـــوا الملامَ فإنها ... بِجيرانِهَا تَغْلوا الديارُ وتَرخُصُ

وقد ورد في الجار السوء قوله - عليه الصلاة والسلام: «لا يدخلُ الجنَّة عبدٌ لا يأمنُ جَارُه بوائِقَه» أي غوائله وَشَرَّه، والبائقة الداهية، يقال أعوذ بالله من بوائق الدهر ومصيبات الليالي والأيام، وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤمنُ باللهِ واليوم الآخرِ فليُحْسن إلى جارِه وَمَنْ كان يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليُكْرم ضيفَهُ ومَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليقل خيرًا أو ليصمت»، وقال ﷺ: «إنّما النساءُ لُعَبٌ فإذا أخذ أحدُكم لعبتَه فليستحسنْها»، وقال ﷺ: «من تزوَّج مِنْ بلدةٍ فَهُو مِنْ أَهْلِها»

وقال النووي: «والقرابة غير القريبة أولى من الأجنبية، وذات الدين أولى، ومع الدين ذات الجمال والعقل أولى»، وقد ورد عنه ﷺ: «إذا تزوج الرجلُ المرأةَ لدينِهَا وجمالِهَا كان فيه سِدَادٌ[١] من عَوَز»، وحُكِيَ عن المأمون أنه ذكر الحديث المذكور وفتح سين سداد، فأعاد النضرُ الحديثَ وكسر السين، فاستوى المأمون قائمًا وقال: «تُلَحِّنُني[٢] يا نضر! فقال: إنما عن هُشَيم[٣]، وكان لحَّانًا فتبع أمير المؤمنين لفظه. قال: فما الفرق بينهما؟ قال: السَّداد بالفتح القَصْدُ في الدين والسبيل، والسِّداد بالكسر البُلْغة، وكلُّ ما سددت به شيئًا فهو سِداد بكسر السين وأنشد:

أَضَاعُوني وأيُّ فَـــتًى أَضَاعُوا ليــــومِ كَرِيهَةٍ وســـدَادِ ثَغْرِ

والنضر من أصحاب الخليل بن أحمد، والبيت لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ﭬ المعروف بالعَرْجِيّ نسبة إلى العَرْج عقبة بين مكة والمدينة.

وندب أن لا يزيد على امرأة من غير حاجة ظاهرة، وأن لا يتزوّج مَنْ معها ولد مِنْ غيره مِنْ غير مصلحة، وأن لا يتزوّج المرأة إلا بعد بلوغها وبعد النظر إليها ليكون أحرى[٤] أن يدوم الحب بينهما، وتزويج البكر أَوْلَى من الثيب لقوله ﷺ: «عَليكُم بالأبكَارِ؛ فإنهنّ أعذبُ أفوَاهًا وأنتَقُ[٥] أرحَامًا وأرضَى باليَسِيْرِ».

---

(١) سدَاد: ما تُسَدُّ به الحاجة. (م).

(٢) تُلَحِّنُني: تتهمني بالخطأ في النطق. (م).

(٣) إنما عن هُشَيم: إنما كانت رواية الحديث بفتح سين سداد عن هُشيم، وهو هُشيم بن بشير السُّلَمي (ت ١٨٣هـ). (م).

(٤) أحرى: خليق وجدير. (م).

(٥) أنتق: أكثر أولادًا. (م).

وينبغي لمن أراد الزواج أن يقصد عراقة المَوْلِد وطهارة المنشأ، وأن يتخير من يأنس إليها ولا يرى غيرها، وذكروا أن المغيرة بن شعبة لَمَّا ولي الكوفة سار إلى دير هند بنت النعمان وهي فيه عمياء مترهبة، فاستأذن عليها، فقالت: من أنت، قال: المغيرة بن شعبة الثقفي، قالت: ما حاجتك؟ قال: جئت خاطبًا، قالت: إنك لم تكن جئتني لجمال ولا لكمال، ولكنك أردت أن تتشرف في محافل العرب فتقول: تزوّجت بنت النعمان بن المنذر، وإلا فأي خير في اجتماع عمياء وأعور!

وينبغي أن يتزوّج الرجل قرينته في السن، ويُحْكَى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال ما معناه: لا ينكحنّ أحدكم مِنْ النساء إلا قرينته، يعني مَنْ كانت في سنه، كأنه - رضي الله تعالى عنه - كره للشاب أن يتزوّج المسنة، وللمسن أن يتزوّج الشابة، وما تقدّم من قصد عراقة المولد فدليله قوله ﷺ: «إياكم وخضراءَ الدِّمَنِ، قيل يا رسول الله، وماذا؟ قال: المرأةُ الحسنَاءُ في المنْبَتِ السُّوءِ» والمعنى أنه ﷺ كره نكاح الفاسدة، وقال إن أعراق السوء تنزع أولادها، وتفسير حقيقته أن الريح تجمع الدِّمن وهو البَعْرُ في البقعة من الأرض ثم يركبه السافي[1]، فإذا أصابه المطر نبت نبتًا غضًّا ناعمًا يهتز، وتحته الأصل الخبيث، فيكون ظاهره حسنًا وباطنه قبيحًا فاسدًا، والدِّمَن جمع دِمْنَة وهي البعرةُ، قال زُفْر بن الحارث:

---

(١) السافي: الريح. (م).

وَقَدْ يَنْبُتُ المرعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرى وتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَا

يعني أن الرجلين قد يُظهران الصلح والمودّة وينطويان على البغضاء والعداوة، كما ينبت المرعى على الدمن، ومن الآثار الواردة عن العرب أيضًا «إياك وعقيلةَ المِلْح» يُكَنُّون بذلك عن المرأة الحسناء في منبت السوء، فإن عقيلة الملح هي اللؤلؤة تكون في البحر فهي حسنة وموضعها ملح، قال عبد الملك بن عمير: «المرأة السوداء بنت السيد أحب إِلَيَّ من الحسناء بنت الرجل الدَّنيء»، وقيل: «عليك بمن تربت في النعيم ثم أصابها فاقة فَشَرَّفَهَا الغنا وأَدَّبَها الفقر»، وفي حديث مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «الدُّنيا مَتَاعٌ وخيرُ مَتَاعِهَا الزَّوجةُ الصالحةُ»، وفي الحديث أيضًا: «انظر في أي نصاب تضعُ ولدك فإن العِرْقَ دَسَّاسٌ» وقال الشاعر:

وكـــلٌّ إلى طبعـــهِ رَاجِعٌ وإنْ صَدَّه الضِّدُّ عن قَصـــدِهِ
ترَى المـــاءَ مِنْ بَعْدِ إسْخَانِهِ يعـــودُ ســـرِيعًا إلى بَرْدِهِ

قال الراجز:

إنَّ الأصولَ تَجلِبُ الفُروعَا والعِرقُ دَسّـــــاسٌ إذا أُضِيعَا

وقال آخر:

مَا طَابَ فرعٌ أصلُه خَبيثُ ولا زَكــــا مَنْ مَجْدُهُ حَدِيثُ

وقال آخر:

وكُلُّ مَنْ تمايلتْ أطـــرافُهُ في فَيْئِهَا وكَرُمَـــــتْ أَسْلافهُ
كَانَ خَليقًا بالعَلاءِ والكَرَم حيثُ يُرَى في أصلِهِ حُسْنُ الشِّيَم

وقد يخبث الفرع الذي طاب أصله كما قيل:

إذا طَابَ أَصْلُ المرءِ طَابَتْ فُروعُهُ ومِنْ عَجبٍ جادتْ يدُ الشَّوكِ بالوَردِ
وقد يَخْبُثُ الفرعُ الذي طَابَ أَصْلُهُ لِيُظْهِرَ سرَّ اللهِ في العكسِ والطَّردِ

قال بعضهم:

وإذا جَهلتَ مِن امرِئٍ أعراقَه وقديمُهُ فانظـــرْ إلى مَا يَصْنَعُ

وقال آخر:

وَكلُّ إنســـانٍ لهُ جَـــوْهَرُ يُنْبيكَ عَنْ جَــــوهَرِه فِعْلُهُ
لا تطلب المَشْمُومَ مِنْ حَنْظَلِ فإنَّه يغـــلبُهُ أصـــلُهُ

وقال آخر:

الْخَـــلْقُ مُختَلِفٌ جواهِـــرُهُ ولقَـــلَّ مَنْ تـــزكـــو عناصرُهُ
ولقلَّ مَنْ تصفُـــو سرائِرُهُ ويصـــحُّ باطنُـــهُ وظـاهِرُه

وقال بعضهم فيمن ينبغي تَخَيُّرُهَا للزواج شرعًا:

صِفَاتُ مَنْ يستَحِبُّ الشَّرعُ خِطْبَتَهَا جَلَوتُها لأُولي الأبصار مُختصِرَا
حَسِيبةٌ ذاتُ دِينٍ زَانَهُ أدبٌ هذي الصفاتُ التي تَحْلُو لِمَنْ نَظَرَا
بها الأحاديثُ جاءتْ وَهي ثابتةٌ أحاطَ عِلمًا بها مَنْ في العُلوم قَرَا

وفي حكمة داود عليه السلام: «المرأةُ السوءُ لِبَعْلها كالحِمْلِ الثقيلِ على الرجلِ الكبيرِ، والمرأةُ الصالحةُ لهُ كالتَّاجِ على رأسِ الأميرِ».

وقال بعضهم: إن المرأة السُّوء مثل شَرَكِ الصياد، لا ينجو منها إلا مَنْ رضي الله عنه، وعن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «النساءُ ثلاثة: هَيِّنَةٌ لَيِّنةٌ عفيفةٌ، وأخرى وِعاءٌ للولد، وثالثةٌ غُلٌّ[1] يلقيه الله في عنق من يشاء من عباده»، وقال بعضهم في زوجته:

(١) غُلٌّ: طوق من حديد أو جلد. (م).

لَقَد كنتُ مُحتاجًا إلى موتِ زَوجَتي ... ولكن قرينَ السُّوءِ باقٍ مُعَمَّرُ
فَيَا ليتَها صارتْ إلى القبر عَاجلاً ... وعذَّبها فيـهِ نكيرٌ ومُنْكَرُ

وقال آخر:

خَلِيليَّ لا واللهِ مَا الدهرُ مُنْصِفٌ ... وليسَ له يَومًا عَليَّ جَمِيلُ
يقرِّب مِنِّي كلَّ شخصٍ كَرِهْتُهُ ... ويُبْعِدُ عنِّي مَنْ إليهِ أَمِيلُ

ويُقَال إن المرأة إذا كانت مُبْغِضَة لزوجها فإن علامة ذلك عند قربه منها تكون مرتدّة الطَّرْفِ عنه كأنها تنظر إلى إنسان غيره، وإن كانت مُحِبَّةً له لا تقلع عن النظر إليه.

وفي حكمة سليمان عليه السلام المرأة: «العاقلة تبني بيت زوجها والسَّفِيهةُ تهدمه»، وقالت الحكماء: «لم تُنْهَ امرأةٌ عن شيء إلا فعلته» كما قال بعضهم:

إنَّ النساءَ متى يُنْهَيْنَ عَنْ خُلُقٍ ... فإنَّهُ واقـعٌ لابُدَّ مفعُولُ

وقال عمر رضي الله عنه: «أكثروا لهن من قول لا، فإن نعم يغريهن على المسألة» وقال حكيم: اعص النساءَ وهواكَ، واصنع ما شئت.

قال بعضهم: العيش كله مقصورٌ على الخَرِيدة[١] الصالحة، والزوجة الموافقة، والبلاء كله مُوكلٌ بالقرينة السوء التي لا تسكن النفس إلى عشرتها، ولا تقرّ العيون برؤيتها. وفي الحديث: «ثلاثةٌ لا تمسُّهُمُ النارُ: المرأةُ المطيعةُ لزوجِها، والولدُ البارُّ بوالديه، والعبد القاضي حقَّ الله وحقَّ مولاه».

ورُوي أيضًا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كُنتُ آمِرًا أحدًا أن يسجد لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أنْ تسجدَ لزوجِها».

وقال حكيم: الأُنْسُ في ثلاثة: الزوجة الصالحة، والصديق المصافي، والولد البار، وقال بُزُرْجُمِهْر: ستة خصال تعدل نعيم الدنيا: الزوجة الموافقة، والولد الصالح، والطعام المريء، والكلام المحكم، وكمال العقل، وصحة البدن. وقال المأمون لجلسائه: من أطيب الناس عيشًا؟ فقال بعضهم: من كانت له زوجة ترضيه، وبيت يأويه، ومال يكفيه، وإخوان تواسيه. فقال المأمون: ويحتاج مع ذلك أن لا يعرفنا فنؤذيه.

شعر:

سعادةُ المـــرءِ أن يكـونَ لَهُ   بيت ثَوَيّ وكســـوة حسنه
وعندَه زوجـــــةٌ موافِقَةٌ   مَوصـــُوفَةٌ بالجمـــالِ مُؤتَمَنَه

---

(١) الخريدة: الحَيِيَّة. (م).

وجــــــاءه قـــوتُهُ ببلدتهِ ولم يُفـــــارق لِقُـــوتِهِ وَطنَه
وعاشَ تِسْـــعِين فـــي رَفَاهِيَةٍ كانَ كَمَنْ عاشَ ألفَ ألف سنه

ولما كان الجمال محبوبًا ومعظمًا في القلوب كان النبي ﷺ يدعو الناس إلى الجمال الباطن بجمال الظاهر كما قال لجرير بن عبد الله البَجَلي وكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يسميه يوسف هذه الأمة قال له رسول الله ﷺ: «أَنْتَ امرؤٌ قد حسَّنَ الله خَلْقَكَ فَحَسِّن خُلُقَك»، وقال بعض الحكماء: ينبغي للعبد أن ينظر كل يوم في المرآة فإن رأى صورته حسنة لم يشنها بقبح فعله، وإن رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة والفعال، وقد نظم بعضهم هذا فقال:

يَا حَسِنَ الوَجْه تَوَقَّ الخَنَا[1] لا تُبدلـــــنَّ الزَّيـــــنَ بالشَّينِ
ويا قبيحَ الوَجْـــــه كُنْ مُحْسِنَا لا تجمعـــــنَّ بينَ قبيحـــــينِ

ومن أعظم أوصاف النساء الفصاحة ليتمكن بها عن السؤال عن الدين، فمن فصاحة النساء ما رُوي عن أسماء بنت يزيد الأنصاري - رضي الله عنها - أنها أتت النبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت: يا رسول الله إني وافدةُ النساء إليكَ، إنَّ الله بعثك بالحقِّ للرجالِ والنساءِ، فآَمَنَّا بكَ واتبعناك، وإنَّا معاشرَ النساءِ

(١) الخنا: الفحش وقبيح الكلام. (م).

محصوراتٌ قواعدٌ في بيوتِكم، مَقْضَى شهواتِكم، وحاملاتُ أولادكم، وإنَّكم معاشرَ الرجالِ فُضِّلتُم علينا بالجمعة والجماعة وعيادة المرضى وشهادة الجنائز، وأفضلُ من ذلك الجهاد في سبيل الله تعالى، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجًّا أو معتمرًا أو مُرَابطًا[1] حفظنا لكم أموالكم، وغسلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفما نشارككم في الأجر يا رسول الله؟ فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه الكريم، ثم قال: «هل سمعتم مقالةُ امرأةٍ أحسنَ مِنْ هذه عن أمرِ دِينها؟ فقالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امرأةً تُهدى إلى مثل هذا: «فالتفت النبي ﷺ إليها ثم قال: «انصَرفي أيتها المرأةُ وأعلمي من خَلفَكِ أنَّ كلَّ شيءٍ حَسنٍ تفعله إحداكنَّ لزوجها طلبًا لمرضاته، وابتغاءها موافقته يَعْدِلُ ذلك كلَّه فأدبرت المرأةُ وهي تهلِّلُ وتكبرِّ استبشارًا». أخرجه البيهقي.

قال الإمام أبو حنيفة النعمان - رحمه الله: «خدعتني امرأةٌ وفَقَّهَتْنِي امرأة وزَهَّدَتْنِي امرأةٌ، أما الأولى فكنت مجتازًا[2] فأشارت إليَّ امرأة إلى شيء مطروح في الطريق فتوهمت أنها خرساء، وأن الشيء لها، فلما رفعته دفعته إليها، فقالت لي: احفظه حتى تسلمه لصاحبه، وأما الثانية فإن امرأة سألتني عن مسألة في الحيض فلم أعرفها، فقالت قولاً تعلمت الفقه من أجله، وأما الثالثة فإني مررت

---

(١) مرابطًا: مجاهدًا. (م).

(٢) مجتازًا: سالكًا الطريق. (م).

ببعض الطرقات فقالت امرأة هذا الذي يصلي الفجر بوضوء العشاء، فتعمدت ذلك حتى صار دأبي.» انتهى.

ويُرْوَى أن امرأة دخلت على مسجد أبي حنيفة فأخرجت تفاحة أحد جانبيها أحمر والآخر أصفر فوضعتها بين يديه ولم تتكلم، فأخذها وشقها نصفين، فقامت المرأة وخرجت، فلم يعلم أصحابه مرادها فسألوه عن ذلك، فقال: إنها أرادت أنها ترى في أيام حُمْرة وتارة ترى صُفْرة كَحُمْرة التفاحة وصُفْرتها فشققتها، وأريتها باطنها، وأردت أنك لا تَطْهُرين حتى تري البياض الخالص، ففهمت وخرجت. انتهى.

وقال الشيخ الأكبر في حديث «استفت قلبك وإن أفتاك المُفْتُون»: إنَّ في هذا الحديث لمقام المتورعين؛ فإنهم إذا بحثوا عنه عرفوا به، كما اشتهرت أخت بشر الحافي لما سألت الإمام أحمد عن الغَزْل على ضوء مشاعل الولاة إذا مرت في الليل، وقال لها الإمام أحمد: من بيتكم يخرج الورع الصادق، لا تغزلي فيها، ولو علمت معنى حديث استفت قلبك ما سألت عن ذلك، فكأنها ما سألت عن ذلك حتى زاد بها، فكانت تدع ذلك الغزل من غير سؤال، وتستر مقامها، ولا يُثنى عليها بذلك؛ فإنه ﷺ إنما أعطانا ذلك الميزان في قلوبنا ليكون مقامنا مستورًا على الناس خالصًا مُخَلَّصًا لا يعلمه إلا الله، اللهم إلا أن يكون أحدنا مُقْتدًى به فله أن يظهر ورعه ليُتبع. انتهى. يعني أن هذه المرأة الصالحة تعلم أن البر ما

يطمئن له القلب وأن الإثم ما حاك في الصدر، وأن الغزل على ضوء مشاعل الولاة فيه الشبهة، وإنما سألت عن ذلك ليشتهر عنها ذلك ويقتدي بها غيرها من أهل الصلاح من رجال ونساء، وهذا أيضًا يُفهم منه شيئان: الأوّل: أنها كانت تشتغل بالغزل وتحترف به، الثاني: أنها كانت تجتهد أن يكون كسبها حلالاً طيبًا. انتهى.

ومن الفصاحة والفطنة أيضًا ما ذكر عن الحُرَقة بنت النعمان بن المنذر فيما حُكي عنها أنه لما فتح سعد بن أبي وقاص القادسية قيل له إن الحُرَقة بنت النعمان بن المنذر حضرت ومعها جاريتان لها في مثل زيها، فلما وقفن بين يديه قال: أيتكن الحرقة بنت النعمان، قالت أنا: قال: أنت؟ قالت: نعم كأنَّ الدنيا لا تدوم على حال فإنها سريعة الانتقال، تنتقل بأهلها انتقالاً وتعقبهم بعد حال حالاً، إنا كنا ملوك هذا المصر يُجْبى إلينا خراجه، حتى تشتت الأمر، وصاح بنا الدهر، فشق عصانا، وشَتَّتَ مَلأَنا، وكذلك الدهر يعثر بالأحرار ويكب على ذوي الأخطار، فقال لها سعد: خبريني عن حالكم كيف كان؟ قالت: أُطيلُ أم أُقصر؟ فقال: بل أقصري. فقالت: أمسينا وليس أحد من العرب إلا وهو يرغب إلينا أو يرهب منا ثم أنشأت تقول شعرًا:

فَبَيْنَا نَسُوسُ المالَ والأمرُ أمرُنَا ... إذا نحنُ فيهم سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ[1]

(١) نَتَنَصَّفُ: نخدم. (م).

فَأَفٍّ لدُنْيَا لا يـــــــدُومُ نعيمُهَا تَقَـلَّبُ تـــــاراتٍ بِنـــا وتَصَرَّفُ

فاستحسن سعد كلامها وأكثر إكرامها، فلما أرادت الانصراف قال لها: سلي حاجتك، قالت: خرابة أعمرها وأعيش بانتفاعها، فقال لِعُمَّالِه: اطلبوا في الولاية قرية خرابًا، فطلبوا، فلم توجد، فقال لها سعد: إنَّا لم نجد في الولاية خرابة فاختاري معمورة، فقالت: الحمد لله على أياديه حيث وفق آبائي للعدل حتى أعمروا الدنيا بعدلهم وسلموها إلى غيرهم معمرة، فاجتهد أيها الأمير في تسليمها إلى غيرك أن تكون عامرة كما أخذتها وتستحق رحمة الخالق ومحمدة الخلق، وإياك أن تسعى في خرابها، وأما أنا فبعد اليوم لا أرجو سرورًا ولا تمتد عيني إلى زهرة الدنيا، ثم دعت له فقالت: لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا زالت لكريم عندك حاجة مَقْضِيَّة أبدًا، وشكرتك يدٌ افتقرتْ بعد غنىً، ولا نالتك يدٌ استغنت بعد فقر، ولا أزال الله عن قِوَامِ كرام نعمة إلا وجعلك سببًا لردِّها. قال الراوي لهذه الحكاية: فالتفتَ إليَّ سعدٌ وقال: يا أبا ثور احفظ هذه الكلمات حتى تخبر بهن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: فلما قدمت المدينة أخبرت عمر بشأنها فقال: صدقت، ما من قوم إلا والدهر يملي لهم بيوم يسرهم وقال:

فَيَـــوْمٌ علیـــنَا ويَوْمٌ لـــنَا ويَـــوْمٌ نُسَـــاءُ ويَومٌ نُسَـــرُّ

وكان شَنّ من دهاة العرب، وكان ألزم نفسه أن لا يتزوّج إلا بامرأة تلائمه، فكان يجوب البلاد في ارتياد طِلْبَتِه، فصاحبه رجل في بعض أسفاره، فلما أخذ منهما السير قال له شنّ: أتحملني أم أحملك؟ فقال له: هل يحمل الراكبُ الراكبَ؟! فأمسك وسار حتى أتيا زرعًا، فقال له شن: أترى هذا الزرع أُكِلَ أم لا؟ فقال: أما تراه في سنبله؟! فأمسك إلى أن استقبلتهما جنازة، فقال له: أترى صاحبها حيًّا أم لا؟ فقال له صاحبه: أتراهم حملوا إلى القبور حيًّا؟ ثم إنهما وصلا إلى قرية الرجل فصار به إلى منزله، وكان له بنت تسمى طبقة، فأخذ يطرفها بحديث رفيقه، فقالت له: ما نطق إلا بالصواب؛ أما قوله أتحملني أم أحملك فإنه أراد تحدثني أم أحدثك حتى نقطع الطريق بالحديث، وأما قوله أترى هذا الزرع أكل أم لا فإنه أراد هل استسلف ربه ثمنه، وأما استفهامه عن حياة صاحب الجنازة فإنه أراد به أخلف عَقِبًا[1] يحيا به ذكره أم لا، فلما خرج إلى شنّ حدثه بتأويل ابنته كلامه؛ فخطبها إليه فزوّجه إياها، وسار بها إلى قومه، فلما خبروا ما فيها من الدهاء والفطنة قالوا: «وَافَقَ شَنٌّ طَبَقَةَ» فصارت مثلاً، وهذا أحد الأقوال في تفسير هذا المثل، وقد قيل في تفسيره ما هو أشهر من هذا وهو مردود في كتاب مجمع الأمثال للميداني. انتهى.

---

(١) عَقِبًا: العقب: ولد الرجل. (م).

وحكى بعضهم أن عدّة فوارس وجدوا رجلاً في بلاد الحرب معه جارية لم يُرَ مثلها شبابًا وجمالاً، فصاحوا خلّ عنها، ومعه قوس له، فرمى بعضهم فجرحه فهابوا الإقدام عليه، ثم عاد ليرمي فانقطع وتره فأسلم الجارية واستعصم بحبل كان قريبًا منه، فابتدروا الجارية وفي أذنها قرط فيه درّة فانتزعه بعضهم من أذنها، فقالت: وما قدر هذه؟! فكيف لو رأيتم درّتين في قلنسوته؟ فاتبعوه، فقال: ما لكم ألم أدع لكم بغيتكم؟ قالوا: ألق ما في قلنسوتك، فرفع قلنسوته، فإذا فيها وتر القوس قد كان أعده وَأُنْسِيَه من الدَّهش فلما رآه عقد في قوسه، فولى القوم ليس لهم إلا النجاء بأنفسهم وخَلُّوا عن الجارية كما قيل:

قَهَرْتَ العِــدَا لا مُسْتَعينًا بِعُصْبَةٍ وَلكــن بأنْــواعِ الخديعةِ والمكْرِ

وقال حسن بن علي بن الحسين لامرأته عائشة بنت طلحة: أمرك بيدك - يعني طلاقك بيدك - فقالت له: قد كان بيدك عشرين سنة فأحسنت حفظه فلن أضيعه إذ صار في يدي ساعة واحدة وقد صرفته إليك، فأعجبه ذلك منها وأمسكها، وطلق رجل امرأته فلما أرادت الارتحال قال: اسمعي وليسمع من حضر: إني والله اعتمدتك برغبة وعاشرتك بمحبة، ولم أجد منك زلة ولم يدخلني عنك مَلَّة، ولكن القضاء كان غالبًا برغبة، فقالت المرأة: جزيت من صاحب ومصحوب خيرًا، فما اسْتَقْلَيْت[1] خيرك، ولا شكوت ضَيرك، ولا تمنيت

(١) استقليت: بغضت. (م).

غيرك. قيل: أراد حاتم الطائي سفرًا فدخل على أمه يودعها، فقالت له: يا بني اعتصم بالتقوى تكن فوق الذي أنت دونه، وكن ممن إذا نزلت به النوائب قام إليها ثم قام بها، واجعل مالك وقاية لعرضك، وقولك دون فعلك، امض مصاحبًا، فإلى الله أرغب في حياطتك، وإياه اسأل أن يحُيي بك الشرف، ويظهر بك المروءة، ويجعل لك من كل حسن شاهد ومن كل جميل رائد. انتهى.

وقال علي كرّم الله وجهه: من سعادة المرء خمسة أشياء: أن تكون زوجته موافقة، وأولاده أبرارًا، وإخوانه أتقياء، وجيرانه صالحين، ورزقه في بلده، وقد نظم بعضهم هذا:

سعادةُ المرءِ في خمسٍ قد اجتمعتْ فَلاَحُ جيرانِهِ والبرُّ في وَلدِه
وزوجةٌ حَسُنَتْ أخلاقُها وكَذَا خِلٌّ أمينٌ ورزقُ المرءِ في بَلَدِه

قال بعضهم في التزويج تسعة فوائد: حفظ المسكن، ونظافة المجلس، وطيب المأكل، والأنس بمذاكرة النساء، والمباشرة، والولد، وحفظ العين عن المحارم، والتعهد عند الأمراض، وزيادة القرابة بوصلتهن.

وليس نفع المرأة مقصورًا في راحة زوجها بل هي نافعة لأرحامها وغيرهم فيما يخص مكارم الأخلاق، كما يحُكى عن عمرو بن العاص أنه دخل على معاوية - رضي الله عنهما - وعنده ابنته عائشة، فقال: من هذه يا أمير المؤمنين،

قال: هذه تفاحة القلب قال: انبذها عنك فإنهن يلدن الأعداء ويقربن البعداء ويورثن الضغائن، قال: لا تقل كذا يا عمرو! فوالله ما لازم المرضى ولا ندب الموتى ولا أعان على الأحزان إلا هنّ. وقال رسول الله ﷺ: «مِنْ يُمْنِ المرأةِ تَبْكِيرُهَا بالأُنثى» قال بعضهم:

أُحِبُّ البنـــــاتِ فحبُّ البنا ... تِ فرضٌ على كلّ نفسٍ كَريمه
لأن شـــعيبًا لأجلِ البنَا ... تِ أَخْدَمَهُ اللهُ موسى كَليمَه

وقال الشاعر:

رَأَيْتُ رجالاً يكرهُونَ بناتِهم ... وفيهنَّ لا تكذبُ نساءٌ صَوالحُ
وفِيهنَّ والأيَّامُ تعثُرُ بِالفَتَى ... خَـــوادِمُ لا يَمْلَلْنَهُ ونَوائــحُ

وقال بعضهم في صديق رزق بنتًا فسخطها:

قَالُوا لَهُ مــاذا رُزِقتـــا ... فأصَاخ ثَمَّتْ قـــال بِنتَا
وأجلّ مَنْ ولـــد النِّسَا ... أُبو البنـــاتِ فَلِمَ جزعتَا
إن الذيــــن تودُّ مِنْ ... بَيْنِ الخـلائقِ ما اســـتطعتَا
قالوا بفضـــل البنتِ ما ... كَبَتُوا[١] بـــه الأعـــداء كَبتَا

(١) كبتوا: صرعوا. (م).

وهَنَّأ بعضهم صديقًا له ببنت فقال: أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، والأولاد الأطهار المبشرة بأخوة يتناسقون ونجباء يتلاحقون. قال الشاعر:

فَلَوْ كان النساءُ كمثلِ هَذِي لفُضِّلتْ النساءُ على الرِّجالِ
ومَا التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ ولا التذكيرُ فخـــــرٌ للهلالِ

والله يعرفك يا مولاي البركة في مطلعها والسعادة بموقعها، فادَّرع اغتباطًا[١] واستأنف نشاطًا، فإن الدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها، والذكور يعبدونها، والأرض مؤنثة وفيها البرية ومنها كثرة الذرية، والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجم الثاقب، والنفس مؤنثة وهي قوام الأبدان وملاك الحيوان، والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا عُرِفَ الكلام، والجنة مؤنثة وبها وُعِدَ المتقون وفيها ينعم المرسلون، فهنيئًا هنيئًا لك وأوزعك الله شكر ما أسداه إليك.

فقد استبان مما سبق كله أنه ﷻ خلق الزوجين الذكر والأنثى، وخلق النطفة في الصلب وهَيَّأ لها عروقًا ومجاري، وجعل لها الرحم قرارًا ومستودعًا، وسَلَّطَ الشهوة على الزوجين لتعريف ما أعدّت له، وهو التوصل إلى الولد تحقيقًا

(١) فادَّرع اغتباطًا: رواية الخبر في بعض كتب التراث: فادرع بها اغتباطًا ومن ثمَّ فالمعنى: اتخذ من بنتك درعًا تفرح بحمايته. (م).

لما سبقت به المشيئة وحقت به الكلمة، وفي التوصل إلى الولد قربة من وجوه، الأوّل: حب الله تعالى في السعي لتحصيل الولد لبقاء جنس الأولاد، الثاني: طلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير من يباهي به الأنبياء، الثالث: طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده، الرابع: طلب الشفاعة بموت الولد الصغير قبله. أما الوجه الأوّل وهو تحصيل الولد لبقاء جنس الإنسان فهو أدق الوجوه وأقواها عند ذوي البصائر في عجائب صنع الله تعالى.

وبيان ذلك أن السيد إذا أسلم إلى عبده البذر وآلة الحرث وهيأ له الأرض للحراثة، وكان العبد قادرًا عليها فَوَكَّلَ به من يتقاضاه، فتكاسل وعطل آلة الحرث وترك البذر ضائعًا حتى فسد، ودفع المُوَكَّل به عن نفسه بنوع من الحيلة كان مستحقًّا للعقوبة من سيده، فهذه الأفعال والآلات التي اقتضت الحكمة الإلهية فيها ترتيب المسببات على الأسباب تشهد بلسان حال فصيح وتنادي أولي الألباب بالتلميح والتصريح لتعريفهم ما أعدّت له، فكل ممتنع من النكاح وسالك سلوك الرهبانية فهو مُعْرِضٌ عن الحراثة مُضَيِّعٌ للبذر لما خلق الله تعالى من الآلات المعدّة لذلك، وأما المتزوّج فهو ساع في إتمام ما أحب الله إتمامه بخلاف غيره المترهبن فهو معطل.

ومن الغريب أن مدينة من مدن موره ببلاد اليونان تسمى إسبرطة كانوا يحتقرون الرجل الأعزب ويستخفون به، حتى إنه اتفق أن شابًّا من جند اليونان

استحقر أمير جنده لكونه أعزب ولم يرض أن يقف أمامه ولا يعظمه فسأله أمير الجند عن سبب ذلك، فقال له: إنه ليس لك أولاد تكافئني في مقابلة تعظيمي لك بوقوفهم أمامي إذا تقلدت برياسة الجند.

وقال أعرابي يمدح قبيلة منجبة:

كَمْ قد وَلَدْتُم من رئيسٍ قَسورٍ[١] دامي الأظافرِ في الخميس[٢] الممطرِ
سدلت أناملُه بقائمِ مُرْهَفٍ وبنشرِ فائدةٍ وذِرْوَة منبرِ
ما إن يريدُ إذَا الرماحُ تَشاجرتْ دِرعًا سوى سِرْبَال[٣] طِيبِ العُنصُرِ
يلقى السيوفَ بوجْهِهِ وبنحْرِهِ ويقيمُ هامتَهُ مقامَ المِغْفَرِ
ويقول للطرف اصطبر لشَبَا[٤] القَنَا فعقرتُ ركنَ المجدِ إن لم تُعقَرِ
وإذا تأمَّل شخصَ ضيفٍ مُقْبلٍ مُتَسَرْبلٍ سِربَالَ مَحْلٍ[٥] أَغْبَرِ
أوما[٦] إلى الكَومَاءِ هذا طارقٌ نَحَرَتْني الأعداءُ إنْ لم تُنْحَرِ

(١) قسور: عزيز يقهر غيره. (م).
(٢) الخميس: الجيش. (م).
(٣) سربال: قميص. (م).
(٤) لشَبَا: لِطَرْف. (م).
(٥) مَحْل: قحط. (م).
(٦) أوما: أشار. (م).

ولمحبة الله تعالى في بقاء النفوس أَمَرَ بالزواج وحث عليه وأباح التعدّد لطفًا منه تبارك وتعالى على خلقه، خشية أن لا تتجاوز بهم الرغبة لكن بشرط العدل بين الزوجات، فقال: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء/ ٣]، وقد ورد عنه ﷺ: «مَنْ كانَ له امرأتان فلمْ يعدِلْ بينهما، جاءَ يومَ القيامةِ وشقُّه مائلٌ» وفي رواية: «ساقطٌ»، وقال الحكماء: من الحزم أن لا يغتر الرجل بما تُظْهِر له المرأة من عدم غيرتها والرضى بأن يتزوّج عليها، وكان الشيخ عبد العزيز الديريني أحد الصوفية يقول: إياك أن تتزوّج على امرأتك أو تتسرَّى[1] عليها إلا إنْ وَطَّنْتَ نفسك على نكد الدهر، ولمَّا وقع هذا الشيخ فيما كان يحذِّر الناس منه، وتزوّج على امرأته أنشد:

تزوّجتُ اثنتينِ لفَرطِ جَهلي ... وقد حازَ البلا زوجُ اثنتينِ
فقلتُ أعيشُ بينهما خَروفًا ... يَنَعَّمُ بينَ أكرمِ نعجتينِ
فجاء الحالُ عكسَ الحالِ دومًا ... عَذابًا دائمًا بِبَلِيَّتينِ
رِضَى هَذِي يُحرِّكُ سُخْطَ هذي ... فَلاَ أَخْلُو مِن إحدى السخطتينِ
لهذي ليلةٌ ولتلكَ أُخْرَى ... نِقَارٌ دائمٌ في الليلتينِ
إِذَا مَا شِئْتَ أن تحيا سعيدًا ... من الخيراتِ مملوءُ اليدينِ
فعِشْ عَزبًا فإنْ لم تستطِعْه ... فواحدةٌ تلاقي عسكرينِ

---

(١) تَتَسَرَّى: تنكح. (م).

قال بعضهم صحبت الحسن البصري ثلاثين سنة ما سمعته خاض في شيء مما تخوض فيه الناس من أمر الدنيا حتى أتته امرأة يومًا ناهيك بها من امرأة شبابًا وجمالاً، فجلست بين يديه، وقالت: يا شيخ أيحل للرجل أن يتزوّج على امرأته وهي شابة جميلة وَلُود؟ قال: نعم، أحل الله له أربعًا، فكشفت عن وجه لم يُرَ مثله حسنًا، وقالت: وعلى مثلي؟! قال: نعم، قالت: سبحان الله بعيشك يا أبا سعيد! لا تُفْتِ الرجالَ بهذا، ثم قامت منصرفة وأتبعها الحسن بصره، ثم قال: ما ضرَّ امرأ كانت عنده هذه ما فاته من دنياه. انتهى.

وقال الحسن - رضي الله تعالى عنه: لا تَدَعُوا نساءكم يزاحمن العلوج[١] في الأسواق، قَبَّح الله تعالى من لا يغار. وورد عنه ﷺ: «الغيرةُ من الإيمان» (بفتح الغين المعجمة) وقال رسول الله ﷺ: «إني لغَيورٌ وما مِن امرئٍ لا يغارُ إلا منكوسُ القلبِ» والطريقُ المغنيةُ عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال، وهي لا تخرج إلى السوق، والغيرة في الريبة محمودة يحبها الله تعالى، وفي غيرها مذمومة ويبغضها الله تعالى، وكان الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - يسدّون الكُوَّات[٢] التي في الجدران لئلا يطّلع منها النساء على الرجال.

(١) العلوج: الرجال الأشِدَّاء. (م).

(٢) الكوَّات: مفردها كُوّة، وهي الخرق في الحائط. (م).

وكان شريح بن الحارث الكِنْديّ القاضي وَلِيَ الكوفة لعمر فَمْن بعدَه، وعاش مائة سنة وَوَلِيَ القضاء خمسًا وسبعين سنة منها، واستعفى من القضاء قبل موته بعام، فأعفاه الحجاج، وكان أعظم الناس بالقضاء، وهو أحد السادات الطّلْس أي الذين لا شعر في وجوههم، وهم أربعة: عبد الله بن الزبير، وقيس بن سعد، والأحنف بن قيس، وكان للقاضي شُريح مزاح، فمنه أنه دخل عليه عدي بن أرطأة فقال: أين أنت أصلحك الله؟ فقال له: أنا بينك وبين الحائط، قال: اسمع مني ما أقول. قال: قل: أسمع، قال: إني رجل من الشأم، قال: مكان سحيق، قال: وتزوّجت عندكم، قال: بالرفاء والبنين، قال: وأردت أن أرحلها، قال: الرجل أحق بأهله، قال: وشرطت لها دارها، قال: الشرط لها، أو قال: المؤمنون عند شروطهم، قال: فاحكم الآن بيننا، قال: قد فَعَلْت، قال: فَعَلَى من حكمت؟ قال: على ابن أمك؟ قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالك. انتهى. وتزوّج شريح امرأة يقال لها زينب، فنقم عليها فضربها، ثم ندم وأنشد:

رأيتُ رجالاً يضربونَ نساءَهُم فَشُلَّتْ يميني يومَ أضربُ زينبَا
أَأَضْرِبُها مِن غيرِ ذنبٍ أتتْ بِهِ فما العدلُ في ضربٍ لمنْ ليسَ مُذنِبَا
وزينبُ شمسٌ والنساءُ كواكبُ إذا طلعتْ لم تُبصر العينُ كوكبَا

ومع إباحة تعدد الزوجات وجواز التسرِّي شرعًا فإنه منهي عن كثرة المباشرة، إلا أن منافع مباشرة الرجل زوجته كثيرة، منها أنه إذا كان للزوج هَمٌّ زال همه عنه بذلك، وإذا كان قلبه متعلقًا بالحرام وأتى زوجته ذهب عنه التعلق، وبذلك أيضًا يزول الوسواس عن القلب، وقد يؤدّي ترك المباشرة إلى الصَّرَع والماليخوليا[١] واختلاط الذهن وكثرة التخيلات، وقد يحدث عن ترك الوقاع مع شدّة الاحتياج إليه ما يعمي عين القلب، ويسدّ باب الفكر، ويسيء التدبير، فاستعماله يبرئ من هذه الأمراض، وكثرته في الصيف والخريف أعظم ضررًا وفي الشتاء والربيع أقل ضررًا.

وقيل: خمسة تقتل البدن: دخول الحمام على الشبع، وأكل المالح، والمواقعة على الامتلاء، ومواقعة العجوز والمريضة المنهوكة، وقيل: إن مواقعة العجوز تأخذ القوّة وتسقم البدن وتعجل الشيب وتجلب الهرَم وتورث الموت فجأة، وقالوا: إن آخر عمر الرجل خير من أوّله؛ يكثر حلمه، ويعظم علمه، وتحمد سريرته، وآخر عمر المرأة شر من أوّله؛ يذهب جمالها، ويشأم لسانها[٢]، ويعقم رحمها، ويسوء خُلقها. قال بعض الحكماء: أطيب المواصلة يحتاج إلى خمس:

---

(١) الماليخوليا: آفة نفسية تتصف بظهور الانطواء على النفس والعزلة. (م).

(٢) يشأم لسانها: تتحدث كدرًا وكُرْهًا. (م).

أن تكون المرأة صغيرة السن، مليحة الخَدْر، جميلة القَدْر، بارزة النهد، كريمة الجدّ فهذه هي التي تزيد القوّة في البدن، وتُذْهِب الهم والغم والحزن.

ومن مضارّه أنه يضعف البدن والبصر، ويحدث وجع الظهر والرأس لمن طبيعته البرودة أو اليبوسة، وكثرته تضعف الكلى وتُوبس الدماغ، وتضر بالروح وقد قيل في ذلك:

ثَـــلاثٌ هُنَّ مُهْلِكَةُ الأنـــامِ   وداعيـــةُ الصَّحِيحِ إلى السَّقَامِ
دوامُ مُدامَــــــةٍ ودوامُ وطءٍ   وإدخالُ الطعـــامِ على الطعامِ

وسُئِل مالك عنه فقال: هو نور عينيك ومنح ساقيك فأقلل منه أو أكثر، وقالوا: مَنْ قَلَّ وِقاعُه[1] فهو أصح بدنًا، وأنقى جلدًا، وأطول عمرًا، وتعتبرون ذلك بذكور الحيوان؛ وذلك أنه ليس في الحيوان أطول أعمارًا من البغال ولا أقصر أعمارًا من العصافير، وهي أكثر سِفادًا[2]، والوِقاع حال خلوّ المعدة أقل ضررًا وحال امتلائها أكثر ضررًا ويظهر ذلك في الولد.

وقد أمر ﷺ المباشر عند مباشرته أن يحضر في قلبه إرادة صلاح المولود، ويدعو الله بذلك، قال الغزالي في كتاب الأربعين: «عُرِف بالتجربة أن المباشر

(١) وِقَاع: جماع. (م).
(٢) سفادًا: جماعًا عند الحيوانات. (م).

حال مباشرته لو أدمن النظر إلى بياض مشرق أو حمرة قانية حتى غلبت تلك الصورة على نفسه مال لون المولود إلى ذلك اللون الذي غلب عليه، قال: وإن الجنين وقت ما يتحرّك في البطن تميل صورته إلى الحسن إن كانت الأم مشاهدة تلك الحالة بصورة حسنة بحيث غلبت تلك الصورة على نفسها»، قال الغزالي أيضًا: «وإن الرجل إذا غشيها وهي مذعورة فأكرهها أَذْكَرتْ فجاءت به لا يطاق، ثم إن الولد ربما أشبه أخواله والأكثر أن يشبه أباه أو أمه. شعر:

فانظرْ إلى الولدينِ مَنْ أَدنَاهما   شـــبهًا بوالـــدِهِ فذاكَ الماجدُ

ورُوي أن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم،﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار/ ٨] أي في أي شبه من أب وأم أو خال أو عم أو غيرهم. انتهى. قال بعض العرب يتمدّح بأصله الخال:

خَالي لأنتَ ومَنْ جــريرٌ خالُهُ   يَنل العَـــلاء ويُكْرِمُ الأخْوَالا

وأما قول بعض العرب:

بَنُونَا بَنُو أبنـــائِنَا وبناتُنـــَا   بنوهُنَّ أبناءُ الرجـــالِ الأباعدِ

فإنما المراد به أنهم ينسبون إلى قبائل آبائهم عند شنّ الغارات والحروب، وإلا فالقرابة موجودة فيهم ولا تنقطع أنسابهم إلى آباء أمهاتهم، أو يقال: إن قائل هذا

البيت يرى كغيره من العرب أن الأنساب إنما تعتبر من جهة الأب فبها يتعارفون وبها يتفاخرون، ولا يرون للبطون نسبًا، على أنهم ليسوا وحدهم مختصين بهذا المذهب، بل اختلفت بعد ظهور الإسلام المذاهب الأربعة في ذلك، فبعضهم لا يرى إثبات الشرف من جهة الأم وبعضهم يرى خلافه، وأُلِّف في كلا المذهبين كُتُب ولو نظرنا إلى أن نسبة الولد لأمه هي أنفى له من الريبة بخلاف الأب، كما يُرْوَى أن الإنسان يُدْعَى يوم القيامة بفلان ابن فلانة؛ لما قدرنا أن نقول إن نسبته إلى أبيه أرجح فضلاً عن التساوي بين النسبتين، وإنما القصد من ترجيح نسبته إلى أبيه إنما هو ثبوت عمود النسب والتعارف بالآباء أعلى من التعارف بالأمهات.

ويقال أن أبناء السراري ولو أفلحوا لا يكونون مثل أبناء الحرائر ولنذكر هنا ما يتعلق بالسراري وأبنائهن.

الفصل الثـــاني

في التســـري

الأصل في التسري قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء/ ٣]، ونقل بعضهم عن شيخ الإسلام شمس الأئمة الكردي من علماء الحنفية في كتابه الفتاوى البزازية: أنه يُسْتَحَبُّ التسري عملاً بالسنة ومخالفة لأهل الكتاب، فإنهم لا يرون ذلك، ويقال: كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم السادة الغرّ، وهم علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - المعروف بزين العابدين والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففاقوا أهل المدينة علمًا وتقى وعبادة وورعًا، وما منهم إلا ابن سَرِيَّة[1]؛ فرغب الناس حينئذ في السراري وكان اتخاذهم على قلة، فإن أم زين العابدين سُلاَفَة بنت يزدجر آخر ملوك الفرس وأم سالم بن عبد الله بن عمر وأم القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أختان لسلافة، فالثلاثة أبناء خالة، وسبب ذلك أن الصحابة

---

(١) سَرِيَّة: جارية. (م).

لما أتوا المدينة لسبى فارس في خلافة عمر، كان فيهم ثلاث بنات لملك الفرس، وأمر عمر ببيعهن فقال له علي: إن بنات الملوك لا يُعاملن معاملة غيرهن، فقال: كيف الطريق إلى بيعهن؟ قال: يقوّمن ومهما بلغ ثمنهن يقوّم به من يختارهن، فقُوّمن وأخذهن علي رضي الله عنه فدفع واحدة لعبد الله بن عمر، وأخرى لولده الحسين، وأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق فَأَولَدُوهنَّ النجباء.

وينقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ليس قوم أكيس من أبناء السراري؛ لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم، وقيل: الجارية الوسيمة من النعم الجسمية، وقيل لا تتخذ السرية الأسرية أي ماجدة. قال الشاعر:

سُقيًا لدهرِ سروري ... والعَيشُ بينَ السَّراري
إذ طيرُ سَعْدِي جِوَارٍ ... مَعَ امتلاكِ الجواري
أيامَ عَيْشِي كَعُوْدِي ... وقَدْ ملكتُ اختياري
أجري بغير عِذَارٍ ... أجني بغير اعتذَارِ

وكُلُّ الخلفاء من بني العباس أبناء سراري، وليس فيهم من أبناء الحرائر إلا ثلاثة: السفاح والمخلوع والمنصور، وأكثرهم من النجابة بمكانة، ولاشك أن السراري البيض في الجمال بموقع، إلا أن نساء العرب ربات وفاء أكثر منهن، قال الشاعر:

لَمْ تَتْرُكْ الترك في شمسٍ ولا قمرٍ حُسنًا لغيرهم يُعْزَى ويُنْتَسَبُ
لكنهم لم يَفُوا إنْ عاهدوك على ودٍّ ومَا هكذا في فِعْلِهَا العربُ

وقال بعض الحكماء: من أراد النساء والذرية فعليه بالأصيلات من الحرائر، ومن أراد الفراش وطيب المعاش فلا يعدل عن الحبشيات. انتهى. ولعل هذا بالنسبة لأمزجة أشراف مكة والمدينة وغيرهما من البلاد الحجازية. وقال بعضهم في حبشية ذات شروط طوال عراض:

سَمْرَاءُ تَسْـبي الوَرى بِشَرَطٍ كَخِنْـجرٍ هـمَّ بالرقيبِ
أَقَامَـهَا عِشْـقُهُا طـريقًا تسـيرُ فيـه إلى القـلوبِ

وقال آخر:

لي مِنَ الحَبَـشِ غـادةٌ وَصْفُـهَا ليـسَ يُـدْرِكُ
مَلَـكَ القلـبَ حبُّهـا وكـذا الشَّـرَطُ أَمْلَـكُ

وقيل:

وَفَتَاةٍ رَنَتْ بِحُسْـنٍ قَوَامٍ وعيـونٍ مُفَـتَّرَاتٍ مِرَاضِ
أَسَرَتْني وأَطْلَقَتْ دمعَ عَيْنِي بشهودٍ قد أثبتَتْ عند قاضي

بعد دعوى عَلَيَّ أَنِّيَ عبدٌ ورقيقٌ بِحُكْم عقدِ التَّراضي
فتوقفتُ كي يطولَ التَّدَاعي بيننا والكلامُ عند التقاضي
ثم عند الثبوتِ والحكم بالمو جب قالتْ: ياقاضي حكمي ماضي
وشروطي في أصل عقدِ مَبِيعِي فاسألُوهُ إذ ذاك هل كان راضي
قلت: هاتِ الشُّرُوطَ أَنْظُر فيها فَأَرَتْني بســـــرعة وانتهـــاض
فلثمتُ الشروطَ ألفًا فقالت: سَجِّلِ الحُكْمَ واقضِ ما أنتَ قاضي

ولا يخفى ما في الشروط من التورية، ومن قبيل التورية بالشرط قول الصلاح:

برُوحِي خَدُّهُ المُحْمَرُّ أَضْحَتْ عليهِ شـــامَةٌ شـــرط المَحَبَّة
كأنَّ الحســـنَ يعشـــقُهُ قَدِيمًا فَنَقَّطَـــــه(١) بِدِينَـــارٍ وحَبَّة

وذُكِرَ النساء عند معاوية ﵁ فقال من أراد النجابة فعليه بالمشرق، ومن أراد الخدمة فعليه بالمغرب، ومن أراد اللذاذة فعليه بالبربر، قيل له: والمولدات، قال: إذا شبعت إحداهن فليس همتها إلا الشوق، وعلى كل حال ينبغي أن يجتنب الزنجيات وعليهنّ يحمل ذم السود وأبنائهن، كما قال الشاعر:

---

(١) نَقَّطَه: حَسَّنَه. (م).

فــــي الهــــندِ طَــيْرٌ نَاطِقٌ   ســــبْحَانَ مَنْ قَــــدْ أَلْهَمَه
يقـــولُ فــــي تَسْــبِيْحِهِ   ابــــنُ الأَمَــــة مَــــا أَلأَمه

قال بعضهم إن نساء الزنج دون غيرهن في جودة الذهن ورقة الطبع والبشرة، وإذا وجدت منهنّ الحسناء الناعمة البدن فلا بأس بها، وعلى مثلها يحمل قول الشاعر:

رُبَّ سَوْدَاءَ وَهْيَ بَيْضَاءُ مَعْنَى   نَافسَ المِسْــــكَ عندها الكَافُورُ
مثل حَبِّ العُيونِ يحسبه النَّا   س ســـــوادًا وإنَّما هُـــوَ نُورُ

وقال آخر في سوداء:

عُلِّقْتُهَا حَمْســَـاءَ[1] مصقــولةً   ســـــوادُ قلبي صِفَةٌ فيـــــها
ما انكســـــفَ البَدْرُ على تَمِّهِ   ونُــــــورِه إلا لِيَحْكِـــــيهَا
لأجْـــلِهَا الأزمـــــانُ أَوْقَاتُهَا   مُؤَرَّخَـــــــاتٌ بليـــــاليـــــها

وإنما كان التاريخ بالليالي دون الأيام لأن الهلال إنما يبدو ليلاً، وهذا التخيل في مدح السواد كالتخيل في مدح الخال في قول الشاعر:

---

(١) حمساء: شديدة. (م).

لَكِ خَالٌ كَأَنَّ كَفِّي خَطَّتْـــ ـه بِنَقــطٍ تُـمِــلُّهُ آمــــالي
فيه معـــنى من البُدُورِ وَلَكِنْ نفضتْ صَبْغَهَا عليـــه الليالي

قال هشام بن عبد الملك لزيد بن علي - رضي الله تعالى عنه - في كلام خاطبه به: بلغني أنك تريد الخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن أمة، فقال زيد إن الأمهات لا تضعن من الأبناء شيئًا، وليس أحد أولى بالله ولا أرفع منزلة عنده من نبي بعثه، وقد كان إسماعيل بن إبراهيم من سرية وأخوه إسحاق من سارة فاختاره الله وأخرج من صلبه سيد البشر، وما على أحد جدّه رسول الله ﷺ أن تكون أمه من كانت، فقال هشام لقد أُعْطِيتُ جدالاً على رغمي، أي أوقعت نفسي في جدال من انتصر عليّ.

وفي قصة أبي العباس السَّفَّاح وخالد بن صفوان ما يفيد بيان أنواع السراري وصفات الحسن، وذلك أنه كان عند أبي العباس السفاح أم سلمة بنت يعقوب ابن عبد الله المخزومي، وكان قد أحبها حبًّا شديدًا ووقعت في قلبه موقعًا لطيفًا فحلف لها أن لا يتخذ عليها سرية ولا يتزوّج عليها امرأة، فَوَفَّى لها بذلك فخلا به خالد بن صفوان يومًا فقال: يا أمير المؤمنين فكرت في أمرك وسعة ملكك وأنك قد مَلَّكْت نفسك امرأة واقتصرت عليها، فإن مَرِضَتْ مَرِضْتَ وحرمت نفسك التلذذ بالسراري واستظراف الجواري ومعرفة اختلاف حالاتهن وأجناس التمتع

بما يُشْتَهَى منهن، فمنهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغَيْدَاء، والبيضة البيضاء، والعقيقة الأدماء[١]، والذهبية السمراء، والبربرية العجزاء، والمولدات المدنيات اللاتي يفتن بمحاورتهن ويجذبن بحلاوتهن، ولو رأيت يا أمير المؤمنين السمراء واللعساء[٢] من مولدات البصرة والكوفة، وذوات الألسن العذبة، والقدود المهفهفة والأوساط المختصرة، والثدي والنهود المحققة، وحسن زيهن وشكلهن لرأيت فتنًا ومنظرًا حسنًا، وأين أنت يا أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر إلى ما عندهن من الحياء والخفر والدلال والتعطر!

وأقبل خالد يحتدّ في الوصف ويكثر في الإطناب بحلاوة لفظه وجودة كلامه، فلما فرغ قال له العباس ويحك يا خالد، والله ما سلك شيء مسمعي قط أحسن مما سمعته منك فأعده عليّ فأعاده عليه وزاد فيه ثم انصرف خالد وبقي أبو العباس مفكرًا مغمومًا، فدخلت عليه أم سلمة وكانت تبرُّه كثيرًا وتمعن مسرته وموافقته في جميع ما أراد فقالت له: مالي أراك مغمومًا يا أمير المؤمنين؟ فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر ارْتَعْتَ له؟ قال: لم يكن شيء من ذلك، قالت: فما قصتك؟ فجعل يكتم عنها فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد، قالت فما قلت له؟ قال: سبحان الله – ماذا أقول لمن ينصحني؟ فخرجت من عنده وأرسلت

(١) الأدماء: البيضاء. (م).

(٢) لعساء: امرأة بيضاء يعلو شفاهها سواد. (م).

إلى خالد عبيدًا لها وأمرتهم بالتنكيل به[١]، قال خالد: ولما انصرفت إلى منزلي مسرورًا بما رأيت من إصغاء أمير المؤمنين لكلامي وإعجابه بما ألقيت إليه وأنا لا أَشُكُّ في الصلة، فلم ألبث أن جاء أولئك العبيد فلما رأيتهم أقبلوا نحوي أيقنت بالجائزة فوقفوا علي وسألوا عني فعرفتهم بنفسي، فأهوى إِلَيَّ أحدهم بعمود كان في يده، فتبادرتُ إلى الدار وأغلقتُ الباب ومكثتُ لا أخرج من منزلي، وطلبني أمير المؤمنين طلبًا شديدًا فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم قد هجموا علي فقالوا: أجب أمير المؤمنين، فقلت في نفسي: لم أر دم شيخ أضيع من دمي، وركبت فلم أصل إلى الدار حتى استقبلني عدّة رسل فدخلت على أمير المؤمنين فوجدته جالسًا فأومأ إليّ بالجلوس فثاب[٢] إِلَيَّ عقلي فجلست وفي المجلس باب عليه ستور قد أُرْخِيَت وخلفه حركة، فقال لي يا خالد لم أرك منذ ثلاث، قلت كنت عليلاً يا أمير المؤمنين، قال إنك وصفت لي آخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يخرق سمعي قط كلام أحسن منه فأعده علي، قلت نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك أن العرب إنما اشتقت اسم الضُّرَّة من الضرر، وإنْ أحد عنده امرأتان إلا كان في ضرر وتنغيص، قال: ويحك لم يكن هذا من حديثك، قلت: نعم يا أمير المؤمنين وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأَثَافِيِّ القِدْر[٣] يغلي عليها أبدًا، وأن الأربع شَرٌّ مجموع لصاحبه يهرمنه ويسقمنه ويضعفنه، فقال: برئت من قرابتي من رسول

---

(١) التنكيل به: عقابه بما يردعه ويمنع غيره عن إتيان ما أتى. (م).
(٢) ثاب: رجع. (م).
(٣) أثافيّ القدر: الحجارة التي تُنصب، وتجعل القدر عليها. (م).

الله ﷺ إن كنت سمعت منك شيئًا من هذا قط، قال خالد: بلى يا أمير المؤمنين وعرّفتك أن بني مخزوم ريحانة قريش وأن عندك ريحانة الرياحين وأنت تطمح بعينيك إلى الإماء والسراري، فقال: ويحك أَتَكْذِبُني وتُكَذِّبُنِي فقلت: أفتقتلني يا أمير المؤمنين؟ قال: فسمعت ضحكًا من وراء الستر وقائلاً يقول صدقت والله يا عماه بهذا حدثته ولكنه بَدَّل وغَيَّر ونطق على لسانك بما لم تنطق به، قال خالد: فقمت عنهما وتركتهما يتراوضان في أمرهما فما شعرت إلا برسل أم سلمة ومعهم المال ونحو ثياب، فقالوا لي: تقول لك أم سلمة إذا حدّثت أمير المؤمنين فحدّثه بمثل حديثك هذا. انتهى.

وعن عبد الرحمن بن محمد بن أخ الأصمعي قال: قال عمي للرشيد في بعض حديثه يا أمير المؤمنين بَلَغَنِي أن رجلاً من العرب طلق في يومٍ خمس نسوة، قال: كيف ذلك وإنما يجوز للرجل الملك على أربعة؟ قال يا أمير المؤمنين كان متزوّجًا بأربعة فدخل عليهن يومًا فوجدهن متنازعات، فقال: إلى متى هذا التنازع؟، فقال لامرأة منهن: اذهبي فأنت طالق، فقالت له صاحبتها: عجلت عليها بالطلاق ولو أدّبتها بغير ذلك لكان أصلح، فقال لها: وأنت طالق أيضًا، فقالت له الثالثة: قَبَّحَك الله فوالله لقد كانتا إليك محسنتين، فقال: وأنت أيها المعددة أياديهما طالق أيضًا، فقالت الرابعة: وكانت هلالية ضاق صدرك عن أن تؤدّب نساءك إلا بالطلاق، فقال لها: وأنت طالق أيضًا، فسمعت جارة له

وأشرفت عليه وقالت: والله ما شهدت العرب عليك وعلى قومك بالضعف إلا لما بَلَوْه منكم ووجدوه فيكم، أبيت إلا طلاق نسائك في ساعة واحدة، قال: وأنت أيتها المتكلمة لما لا يعنيك طالق إن أجازني بعلك، فأجابه بعلها: هيه فقد أجزتك، وقد ورد عنه ﷺ «لا خير في النساء ولا صبر عنهنّ يغلبن كريمًا ويغلبهنّ لئيم فأحب أن أكون كريمًا مغلوبًا ولا أحب أن أكون لئيمًا غالبًا».

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: حدّثني أبو السمراء الشاعر قال: حججت فبدأت بالمدينة فبينما أنا منصرف من قبر رسول الله ﷺ إذ أنا بامرأة بفناء المسجد ممن يبيع طرائف المدينة، فإذا هي في ناحية وحدها وقد قام عنها من كان قعد إليها، فإذا هي ترجع بصوت فالتفت فرأيتها فوقفت فقالت: هل من حاجة؟ قلت: تزيدين في السماع، قالت: وأنت قائم فلو قعدت فقعدتُ كالخَجِل، فقالت: فكيف عِلْمُكَ بالغناء؟ قلت: عِلْمٌ لا أحمده، قالت: فعلام أنفخ في غير نار، ما منعك من معرفته؟ فوالله إنه لسحوري وفطوري، فقلت: وكيف وضعته بهذا الموضع العالي؟ قالت: وهل له موضع يوضع فيه من رفعته وعلوه دون السماء الشاهقة؟ قلت: فهؤلاء النسوة اللاتي أرى في مثل حالك، قالت: فيهن وفيهن ولي قصة، قلت: وما هي؟ قالت: كنت وأنا شابة في مثل هذه الخلقة التي ترى من الأُدْمَة[١] وعدم الحسن، وكان زوجي شابًّا وضيئًا وكان لا يُقْبِل عَلَيَّ

---

(١) الأُدْمَة: السُّمرة. (م).

حتى أطيبه وأتحفه فأضر ذلك بي، وكانت امرأة قصار قد عَلِقَتْ به فزاد ذلك في حسرتي، فشكوت ذلك إلى جارتي وأعلمتها ما أنا فيه من غلبة امرأة القصار على زوجي، قالت: أدلك على ما ينهضه إليك ويرد قلبه عليك بلا غرامة؟ قلت: إذًا تكونين أعظم الخلق عَلَيَّ مِنَّة، قالت: اختلفي إلى مجمع مولى آل الزبير فتعلمي من ألحانه عشرة أصوات ثم غَنِّي بها زوجك فإنه يقبل عليك بجوارحه كلها، قالت: فرجوت في مشورتها البركة، فتلطفت لمجمع المغني فلم أفارقه حتى رضيني حَذَاقة[1] ومعرفة، فكنت إذا انصرف زوجي من مهنته وحضر رفعت صوتي فغنيت فحظيت بذلك بما لا مزيد عليه من الإقبال علي، فكنا كما قال الشاعر:

وكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جــذِيمَةَ حِقْبَةً ... مِنَ الدَّهْرِ حتَّى قِيلَ لن يَتَصَدَّعَا[2]

قلت: وما ظننت أن الله خلق مثلك، وما كان أحد أعظم عليك منة من صاحبة المشورة، قالت: حسبك بها منعمة وحسبك بي شاكرة، فلما أن نهضت لأقوم قالت: على رِسْلِك لا تنصرف خائبًا، ثم ترنمت بصوت خفي فغنت:

ولي كَبِدٌ مقروحةٌ مَنْ يَبِيعني ... بها كبدًا ليسـتْ بذاتِ قُرُوحِ
أباها عَلَيَّ الناس أن يَشْتَرُونَهَا ... ومَنْ يشـتري ذا عِلَّةٍ بِصَحِيحِ

---

(١) حذاقة: مهارة. (م).
(٢) يتصدعا: يتفرقا. (م).

ثم قالت: انطلق صحبتك العافية والبقاء، قال أبو السمراء: فوالله لو جاز لي أن لا أفارقها ما كنت في الدنيا ما اخترت بها مؤنسًا وما ذكرتها وأنا في حزن إلا سُرِّي عني.

قال بعض الحكماء: فضل الغناء كفضل النطق على الخرس والدينار المنقوش على القطعة من الذهب، وفي كلام بعضهم: أن الغناء يحرّك الهوى الساكن ويسكن ألم الهوى المتحرّك، وفي كلام بعضهم: الصوت الشجي يوصل إلى نعيم الدنيا والآخرة؛ لأنه يؤنس الوحيد ويُرَوِّحُ التعبان ويسلي الكئيب ويحض على الشجاعة واصطناع المعروف. قال أفلاطون: هذا العلم - يعني علم الموسيقى- لم يضعه الحكماء للهو واللعب بل للمنافع الذاتية ولذة الرُّوح الرُّوحانية وبسط النفس وترطيب اليبوسات وتعديل السوداء وترويق الدم. وقال بعضهم: سميت الأنغام والألحان بالغناء لأن النفس تستغني به عن الملاذ البدنية في حال سماعه.

(رجع إلى ذكر محاسن النساء) ولأهل كل عصر ألفاظ جاذبة في محاسن النساء كألفاظ خالد بن صفوان التي ألقاها على أبي العباس السفاح في الحكاية المتقدّمة. وقال بعض الظرفاء يصف محاسن امرأة هي روضة الحسن وضرة الشمس وبدر الأرض، هي من وجهها في صباح شامس ومن شعرها في ليل دامس كأنها فلقة قمر على برج فضة بدر التم يضيء تحت نقابها فهي غير

داخلة في قول القائل:

لَيْتَ النِّقَابَ على النِّسَاءِ مُحَرَّمُ   كي لا تَغـــرَّ قَبِيحَةٌ إنســـــانَا

وغصن البان يهتز تحت ثيابها، ثغرها يجمع الضريب والضرب كأنه نثر الدر، كما قال البحتري:

إذا نَضَوْنَ[١] شُفُوفَ الرّيطِ[٢] آوِنَةً   قَشَرْنَ عن لؤلؤِ البَحْرَيْنِ أَصْدَافَا

قد أثبت صدرها ثمر الشباب وخطت لها يد الشباب حُقَّيْن من عاج، كما قال بعضهم:

طلبُوا حِفَاظَ عُهُودِ أَرْبَابِ الهَوَى   فاسْـــتَوْدَعُوهَا في حقـــاقِ نهود

كأنها البدر قرط بالثريا ونيط بها عقد من الجوزاء، أعلاها كالغصن ميال، وأسفلها كالدعص[٣] منهال، لها عنق كإبريق اللجين، نطاقها محرب وإزارها مخصب، مطلع الشمس من وجهها، ونبت الدر من فمها، وملقط الورد من خدّها، ومنبع السحر من طرفها، ومبادي الليل من شعرها، ومغرس الغصن من قدّها، وهذه الأوصاف تصلح لكل حسناء من الحرائر والسراري، وإن اختلفت الألوان التي تختلف في الحسن باختلاف مذاهب العشاق.

---

(١) نضون: خلعن. (م).

(٢) شفوف الريط: ثياب رقيقة تظهر ما تحتها. (م).

(٣) الدِّعص: كثيب من الرمل. (م).

الفصل الثـــالث

في السمرة والبياض

قد توسع الناس فيما يخص السمرة والبياض وأطنبوا في هذا المبحث وبسطوا القول في التفصيل بين السمر والبيض، وخاضوا بسبب ذلك في كلام عريض فخرجوا منه إلى التفصيل وعدم التفضيل، وبيان ذلك أن منهم من ذهب إلى تفضيل السمر مطلقًا وآخرون قدّموا البيض عليهم؛ لأن الحق أبيض أبلج وآخرون فصلوا فقالوا إن كلاًّ يميل إلى عكس لونه، وهذا تحكم وحكم على الطبائع والأمزجة بلا دليل، والصحيح أن الميل إما بداعية التلذذ أو النفع ولا ضبط للأوّل لاختلافه كالأشخاص. وأما الثاني فالقول فيه إما بحسب معتدل المزاج فالروميات حينئذ في نحو الحجاز أنفع كما أن الحبشيات في نحو الروم أجود؛ لأن حرارة الأبدان تختبئ في الأغوار زمن البرد وبالعكس في الأنجاد، وأما بحسب المرضى فالسود للمبرودين أجود والبيض للمحرورين أنفع، وأما الميل في نفس اللون فمذهب.

وَمَنْ يَكُ مُغْرمًا بِبَنَاتِ كِسْرَى فَإِنِّي مُغْـــرَمٌ بِبَنَاتِ حَـــامِ

قال بعضهم إن المصريين إلى السمرة أميل وليس هذا على عمومه بل هم أميل إلى البياض المشرب بسمرة، ومما قيل في البيض:

بَيْضَاءُ تَجْلُو الهَمَّ عن نَاظِرِي   بعينِ حَقٍّ لا بعـــــينِ انتقَاص
فقـــــلْ لمنْ يرغبُ في سُمْرَةٍ   ما الفِضَّةُ البيضاءُ مِثْلُ الرّصَاص

قالت عائشة – رضي الله تعالى عنها: البياض نصف الحسن، وقال المُؤَمَّل أبي أُمَيْل:

شَهِدَ المُؤَمَّـــلُ يومَ يَلْقَى رَبَّهُ   أَنَّ البَيَاضَ طـــرازُ كُلّ جميلِ

وقال آخر:

فَضَّلَ السُّـــودَ جـــــاهلٌ   قَـــوْلُهُ ليـــــسَ يَنْهَضُ
كيفَ تَخْفَى فَضَـــائِلُ الـ   ـــــبيضِ والحـــقُّ أبيـــض

وقال آخر:

بيضاءُ في حُمرِ الثّيَابِ كَوَرْدَةٍ   بَيْضَاءَ مثلَ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ[1]
تَهْتَزُّ في غُصْنِ الشَّبَابِ إذا مَشَتْ   مِثْلَ اهْتِزَازِ نَوَاعِمِ الأَغْصَانِ

(١) شقائق النعمان: نبات فيه حمرة. (م).

وقال أبو القاسم الزاهي:

وبِيضٍ بألحاظِ العيونِ كَأَنَّما هَزَزْنَ سيُوفًا واسْتَلَلْنَ خنَاجِرَا
تَصَدَّيْنَ لي يَوْمًا بِمُنْعَرَجِ[1] اللِّوى فَغَادَرْنَ قَلْبِي بالتَّعَتُّبِ غَادرا
سفرْنَ بدورًا وانْتَقَبْنَ أَهِلَّةً ومِسْنَ غصونًا والتَفَتْنَ جآذِرا[2]

ولا يخفى ما فيه من التقسيم البديعي البديع.

وعن أنس - رضي الله تعالى عنه: «كان رسولُ الله ﷺ أبيضَ كأنما صِيْغَ من فضَّةٍ»، خرّجه الترمذي في الشمائل. ووصف علي بن أبي طالب رضي الله عنه النبي ﷺ فقال: «كانَ أبيضَ اللونِ مُشَرَّبًا بحُمْرةٍ» ولا معارضة بين حديث أنس ووصف علي له بالحمرة؛ لأن الحمرة كانت في وجهه وبياض الفضة كان في جسده، وتطلق الحمر على حِسان النساء، قيل لأعرابي تمنّ فقال: حمراء مكسال[3] من بنات الأقيال[4]، قيل: وأصل الحمرة في البياض بالوجه ظهور الدم فيه، فإنه يزيد البياض حسنًا، وهذا معنى قولهم في المثل الحسن أحمر، قال الشاعر:

---

(١) بِمُنْعَرَج: بمنعطف. (م).
(٢) جآذر: البقر الوحشي. (م).
(٣) مكسال: لا تكاد تبرح مجلسها لتوفر الخدم. (م).
(٤) الأقيال: ملوك حِمير. (م).

هِجَانٌ[١] عليها حمرةٌ في بَيَاضِهَا تَرُوقُ بها العَيْنَيْنِ والحُسْنُ أَحْمَرُ

وقد تعتري البيض الصفرة لاستنارتهنّ وملازمتهنّ الكَنّ[٢] والنعمة والخفض والدعة بل ولملازمتهنّ التَّضَمُّخ بالطيب[٣]، كما تعتري الصفرة الدرة الزهراء والعاج الأبيض بكثرة مماسة الطيب، ولهذا قال الشاعر:

وَمَا تَعَشَّقْتُ مِنْ بَيْضَاءَ حَالِيَةٍ كالعاجِ صفَّرها الأكنانُ والطيبُ

ويقال إن المرأة إذا كانت عتيقة الحسن ناعمة البدن فإنّ لونها يكون من أوّل النهار إلى ابتداء العَشِيَّة ضاربًا للحمرة، ومن العشية إلى آخر النهار ضاربًا للصفرة، ومعنى هذا أن المرأة الرقيقة البشرة الصافية اللون تتلوّن بتلوّن الهواء، والهواء عند الطفل يصفر باصفرار الشمس ويتوضح بالغداة لبياضها، وهذا كله مبالغة في وصف المرأة بالصفاء والشفافية، قال ذو الرُّمّة:

بَيْضَاءُ في دَعَجٍ[٤] صفراءُ في نَعَجٍ[٥] كأنَّها فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبُ

(١) هِجَان: بيضاء. (م).
(٢) الكَنّ: البيت. (م).
(٣) التَّضَمُّخ بالطيب: الإكثار منه. (م).
(٤) دَعَج: شدة سواد العين. (م).
(٥) نَعَج: بياض خالص. (م).

وقال آخر:

بيضـــاءُ صفـــراءُ قد تَنَازَعَهَا لونـــــانِ من فِضَّةٍ ومن ذَهَبِ

وقال آخر:

هيفاءُ مثل الشمس عندَ طُلُوعها في الحســـنِ أو كَدُنُوِّهَا لغروب

وكان علي رضي الله عنه يبالغ في محبة البياض حتى روي عنه أنه قال: من تزوّج امرأة سمراء ثم طلقها فعليّ مهرها، فكان يكره السمر.

وقال بعضهم: إن الحبشيات ألطف ممن عداهنّ مزاجًا، وأرق بشرة، وأعدل حرارة، فهنّ أوفق لسائر الجهات مطلقًا، قيل: من أراد حسن السكن والعشرة فعليه بالعراقيات، ومن أراد نجابة الولد فعليه بالفارسيات، وأما المصريات فمنجبات وهن أحسن منظرًا، وأعذب محادثة، وألطف ذاتًا، وأكمل ملثمًا وأجمل زينة، وأظرف شمائل، وألوان الحبش كلها مقبولة ظريفة؛ لأنها في مرتبة الاعتدال بين السواد والبياض وخير الأمور أوساطها؛ وذلك لأنها إمّا صفرة أو خضرة أو سمرة وكلها من موجبات الفرح والمسرة، أما شرف السمرة فإنها لون العرب ولونهم أشرف الألوان وأحسنها، كما قال مسكين الداري:

أنا مِسْـــكِينٌ لمـــــنْ يَعْرِفُني لَوْنِي السُّـــمْرَةُ أَلْوَانُ العَرَبْ

وأما شرف الخضرة فلأنها لون سندس الجنة وعلامات الإبراق في الثمار والأشجار وعلامات الإشراف على الرءوس والتيجان على الملوك، ومن موجبات الفرح والسرور، كما في الخبر المأثور والمنظوم من المنثور.

ثَلاثَةٌ يُذْهِبْنَ بالقَــلْبِ الحَـزِنْ   المَــاءُ والخُضْرَةُ والوَجْهُ الحَسَنْ

وفي الجامع الصغير أحب الألوان إلى رسول الله ﷺ الخضرة، وأما شرف الصفرة فلأنها من أسباب الفرح والسرور، كما صرح بذلك بعض المفسرين لقوله تعالى ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة/ ٦٩]، وقال الحكماء: النظر إلى الأصفر الخالص يورث الفرح والسرور بالخاصية، فهذه ألوان السراري الحبشيات التي يفضلهنّ بعض أهل الذوق على الروميات، وقد تغزلت الشعراء في ذلك عمومًا فقال بعضهم في الأسمر:

عَشِقْتُهُ أَسْــمَرَ حُلْوَ اللَّمَى   لســلوانِهِ الصَّبُّ لم يَسْتَطِعِ
يُقَطِّــع قــلبي وما رَقَّ لي   ودَمْعِــي يــرقُّ وما يَنْقَطِع

وقال آخر:

دَعْنِي وحَالِي في هَوَى أَبْيَض   كالبَدْرِ أو أَحْســنَ مِنْ ذَلِكَ
وعِشْ مُعَنَّى في هَوَى أَسْمَرَ   أَو مِتْ إذا مَا شِئتَ في حَالِكَ

ولا تخفى التورية هنا، وفي الأخضر الزيتي اللون قال بعضهم:

ومُخْضَرَّة اللَّــــوْنِ زَيتيَّة تَحَيَّرَ فيــــها جَمِيعُ الأَنَام
وقد كَتَبَ الشــــرطُ في خَدِّها كـــلامًا أتى فائقًا في انسِجَام
أَيَا نَاظِرًا لِمُحــيَّايَ قُلْ بِهَـــذَا المَلِيكِ يتِمّ النِّظَامِ

وفي الأصفر الذهبي اللون يقول بعضهم:

وَبي ذَهَبِي اللَّونِ صِيغَ لِحَيْرتي يُطيلُ امتِحَانًا لِي كأنِّي زَائِفُ
يُذِيبُ فُؤادِي وهو لا غِشَّ عِنْدَه فيا ذَهبِيَّ اللَّوْنِ إنَّك حَائِفُ[1]

وقال في الألوان من أنصف ولم يتعسف وهو البهاء زهير:

اسْــــمَعْ مَقَــــالةَ صَــبٍّ وكُـــنْ بِحَقّــــكَ عَوْني
إِنَّ المَليــــحَ مَليــــحٌ يُحَــبُّ في كُـــلّ لَـــوْنِ

وقال ابن مطروح نحو ذلك فزاد وأفصح عن المراد:

أَعْشَـــقُ البيـــضَ ولَكِنْ خَاطِري بالسّــمْرِ أَعْـــلَقْ
إِنَّ فـــي البيـــضِ لَمَعْـــنًى غيرَ أنَّ السُّـــمْرَ أَرْشَـــقْ

(١) حائف: جائرٌ في الحكم. (م).

وظـــلاَلُ الأَيْــــكِ عِنْدِي مِنْ هَجِـــير الشَّمس أَوْفَقْ
وشـــذا العـــَنْبَر والمِسْـ ـــكِ مِن الكَــافُور أَعْبَقْ
وإذا أَنْصَـــفْتَ فالإِنْــ ـصَافُ بالإِنْسَـــان أَلْيَـــقْ
فَبَدِيعُ الحُسْـــنِ يُـــهْوَى كيفـــما كـــان ويَعْشَقْ

وبالجملة، فكم في سائر الألوان من درّة يتيمة وجوهرة ثمينة كريمة، والبالغة منهنّ الغاية في الجمال والدين أعز من الكبريت الأحمر وأطيب من المسك الأذفر، فعلى من ظفر بها أن يتمسك بحبل عصمتها؛ فما كل وقت وآن يسمح الزمان بِحُورِ الجنان وكما اختلف أهل الأذواق في حب الألوان وتفضيل بعضها على بعض اختلفوا في الأَبْكَار والثَّيِّبَات والفضل بينهما، وفصل هذه القضية يحكم فيها قوله تعالى في وصف نساء أهل الجنة ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً . فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة/ ٣٥-٣٧].

الفصل الرابع

في البكارة والثيوبة

امتنانه سبحانه وتعالى على أهل طاعته بالأبكار في قوله تعالى في وصف نساء أهل الجنة: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً . فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة/ ٣٥-٣٧] يفيد فضل البكر على الثيب؛ حيث أنشأهنّ لهم أبكارًا لم يعرفن غيرهم كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن/ ٥٦] والطمث الافتضاض ولا يكون إلا مع دم فلا يقال في الثيب طمثت، وروى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنكحت يا جابر؟ قلت نعم يا رسول الله، قال أبكرًا أم ثيبًا؟ قال: بل ثيبًا، قال: فهلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك وتضاحكها وتضاحكك»، وروى هشام بن عروة عن أبيه قيل لعائشة - رضي الله عنها - ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع إذا خلا في بيته؟ قالت: «والله ما كان إلا بشرًا ولكنّ الله أكرمه وأَكْرَمَ به، والله إنه كان ليخصف نعله[1] ويرقع ثوبه ويُحَدِّث آحاد الناس، ولقد قلت له يومًا: يا رسول الله لو أنك وجدت روضتين في إحداهما شجر ونبات قد رعي وأكل، وفي الأخرى شجر ونبات الأُنُف[1] لم

---

(١) يخصف نعله: يخيطها ويصلحها. (م).

(٢) أُنُف: لم يَرْعَه أحد. (م).

يُرْعَ، في أيهما كنت مرسلاً بعيرك؟ فقال رسول الله ﷺ في الأُنُف التي لم تُرْعَ، فقلت: يا رسول الله ذلك مثلي ومثل نسائك كلهنّ ليس منهنّ واحدة إلا كانت عند غيرك قبلك»، اختصره البخاري فأخرج بعضه وقال: تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوّج بكرًا غيرها.

قال الغزالي في الإحياء: في البِكْر خواص لا توجد في الثَّيِّب، منها أنها لا تحنّ أبدًا إلا إلى الزوج الأوّل، فإن الطباع مجبولة على الإنس بأوّل مألوف، وآكد الحب ما يقع مع المحب الأوّل غالبًا كما قيل:

نَقِّلْ فُؤادَكَ ما استطعتَ مِنَ الهَوَى ... ما الحــــبُّ إلا للحـــبيبِ الأَوَّلِ
كَمْ منزلٍ في الأرضِ يَأْلَفُهُ الفَتَى ... وحَنِينُهُ أبـــدًا لأوّلِ مَنْـــــزِلِ

وقال آخر:

لا يُتْرَكُ الحـــقُّ القديمُ لِحَادِثٍ ... هــــذا مقـــالُ أَجِلَّةِ الجُمْهُورِ

ومنها إقبال الرجل عليها وعدم نفوره عنها، فإن طبع الإنسان ينفر عن التي مسها غيره ويثقل ذلك عليه مهما تذكره، وبعض الطباع في هذا أشدّ نفورًا من بعض، ومنها أنها ترضى في الغالب بجميع أحوال الزوج لأنها أنست به ولم تَرَ غيره، وأما التي اختبرت الرجال ومارست الأحوال فربما لا ترضى بعض الأوصاف التي تخالف ما ألفته فتقلي الزوج بسبب ذلك، قال أبو الفرج في

كتاب النساء عن علي رضي الله عنه قال: لا تنسى المرأة أبا عذرها ولا قاتل بكرها، وأبو عذرها هو الذي افتضها أوّل مرة فأزال عذرتها والعذر والعذرة بمعنى وهو البكارة، وبكرها أوّل ولد يولد لها.

وقال صاحب كتاب عقلاء المجانين: أراد رجلٌ النكاحَ فقال لأستشيرنّ أوّل من يطلع ثم لأعملنّ برأيه، فكان أوّل من طلع عليه هَبَنَّقَة القَيْسِي وهو راكب على قصبة، فقال: إني أردت النكاح فما تشير علي؟ قال: البكر لك والثيب عليك، وذات الولد لا تقربها واحذر جوادي أن يرمحك، وممن يعدّ من عقلاء المجانين بقرة المجنون كان بحلب وله شعر حسن، قال سفيان بن الحسين: اجتزت في بعض أسواق حلب فإذا ببقرة المجنون قد استقبلني خارجًا من خربة، فقال: مرحبًا يا أبا عبد الله، قلت: وبك يا ثور، قال: بالله عليك يا سفيان أنشدني شيئًا من شعر عبد الرحمن بن الحكم بن العاص، فقلت: وأيه تريد؟ فقال: إن كنت تحفظ قوله:

هَيْفَاءُ فِيْهَا إذَا استَقْبلْتَها عَجَبٌ

فقلت: نعم وأنشدته:

هيفاءُ فيها إذا اسْتَقْبلتهَا عَجَبٌ غَرَّاءُ غامضةُ الكُشْحَيْنِ[1] مِعْطَارُ
مِنَ الأوانِسِ[2] مِثلُ الشَّمسِ لم يَرَهَا بساحةِ الدَّارِ لا بَعْلٌ ولا جَارُ

(١) الكشحين: الخصرين. (م).

(٢) الأوانس: جمع آنسة. (م).

فقال: والله إن هذه لَمُنْيَة المتمني، ثم لفت بوجهه وفرك أصابعه، ثم قال: يا أخي أنا والله يعجبني قول من قال فأحسن، قلت: ما الذي قال فأعجبك؟ قال:

أحســـــنُ من مُنْيَةِ التَّمَنِّي ونَيْلُ وَصْــــلٍ بـــــلا تَعَنِّي
قـــــولُ فتـــــاةٍ لُمْسْتَهَامٍ[1] يَلْثُمُ فَـــــاهَا تَنَـــحَّ عَنِّي
لا خـــيرَ في عاشـــقٍ عَجُولٍ ما أحســـنَ الصَّـــبْرَ والتَّأَنِّي

فقلت يا بقرة أنشدني شيئًا لنفسك، قال نعم وأنشد:

حرامٌ عليـــكم لو مَنَنْتُم بِزَوْرَةٍ فأوجَبْتُمُوا فيـــها عَلَيَّ التَّطَوُّلا؟!
فإن لم تكونوا مِثْلَنَا في اشْتِياقِنا فكونوا أُنَاسًا يُحْسِنُونَ التَّجَمُّلا[2]

ثم أخذه ما كان يأخذه فسقط لوجهه فانصرفت عنه.

وللحريري في إحدى مقاماته وهي المقامة الثالثة والأربعون في تفضيل البكر على الثيب، قال: أما البكر فالدرّة المخزونة، والبَيْضة المكنونة[3]، والباكورة

(١) مستهام: محب. (م).
(٢) البَيْضَة المكنونة: الجارية في خِدْرِها. (م).
(٣) التجمل: تكلّف الجميل. (م).

الجِنِّيَّة[١]، والسُّلافة[٢] الهنية، والروضة الأُنُف[٣]، والطوق[٤] الذي ثَمُنَ وَشَرُفَ، لم يدنسها لامِس، ولا استغشاها لابِس[٥٢]، ولا مارسها عابث، ولا أَوْكَسَها طَامِث[٦]، ولها الوجه الحَيِيّ، والطرف الخفي، واللسان العيي، والقلب النقي، ثم هي الدمية الملاعبة، واللعبة المداعبة، والغزالة المغازلة، والملحة الكاملة[٧]، والوشاح الطاهر القشيب[٨]، والضجيع الذي يشبّ ولا يشيب، (وله في ضدّ ذلك) وهي المهرة الأبية العنان[٩]، والمطية البَطِيَّة الإذعان[١٠]، والزندة المتعسرة الاقتداح[١١]، والقلعة المستصعبة الافتتاح، ثم إن مؤنتها كثيرة، ومعونتها يسيرة، وعشرتها صلفة، ودالتها مكلفة، ويدها خرقاء، وفتنتها صماء، وعريكتها[١٢] خشناء، وليلتها ليلاء وفي رياضتها عناء، وعلى خبرتها غشاء، وطالما أَخْزَت

---

(١) الباكورة: أوَّل كل شيء، والجنية: الفتاة منسوبة إلى الجِنّ في تلونها وجمالها. (م).

(٢) السُّلافة: من الخمر أخلصها وأفضلها، وفيها تشبيه للبكر بالخمر في جودتها. (م).

(٣) الروضة الأُنُف: الحديقة التي لم تُرْعَ، وهي كناية عن صيانة المرأة وعدم تعرضها ليد سوء. (م).

(٤) الطَّوْق: العُنُق. (م).

(٥) استغشاها لابس: غَطَّاها رجل، كناية عن الجماع. (م).

(٦) أوكسها طامث: نقص منها بفض عذرتها. (م).

(٧) الملحة الكاملة: مكتملة الحسن. (م).

(٨) الوشاح الطاهر القشيب: الحُلي النقي الجديد. (م).

(٩) المهرة الأبية العنان: أنثى ولد الفرس صعبة الانقياد، يشبه بها الفتاة العزيزة المترفعة عن السوء. (م).

(١٠) المطية البطية الإذعان: الناقة يركب ظهرها على مهلٍ، يشبه بها الفتاة في معاملتها بالرفق واللين. (م).

(١١) الزندة المتعسرة الاقتداح: العود الذي يستقدح به النار، ويشبه الفتاة به للدلالة على صعوبة الاقتراب منها. (م).

(١٢) عريكة: طبيعة أو خلق. (م).

المنازل، وفَرَكَت المغازل، وأحنقت الهازل، وأضرعت الفنيق البازل[١]، ثم إنها التي تقول أنا أجلس وألبس فأطلب من يطلق أو يحبس. (وله في تفضيل الثيب قوله) أما الثيب فالمطية المذللة، واللهنة المعجلة[٢]، والبغية المسهلة، والطبة المعللة، والقرينة المتحببة، والخليلة المتقربة، والصناع المدبرة، والفطنة المختبرة، ثم إنها عجالة الراكب، وأنشوطة الخاطب[٣]، وقعدة العاجز، ونهزة[٤] المبارز، عريكتها لينة، وعقلتها هينة، ودخلتها متبينة، وخدمتها مزينة، (وله في ضدّ ذلك) هي فضالة المآكل، وثمالة[٥] المناهل، واللباس المبتذل، والوعاء المستعمل، والذواقة المتطرفة، والخراجة المتصرفة، والوقاح المتسلطة، والمحتكرة المتسخطة، ثم كلمتها كنت وصرت وطالما بغى علي فنصرت، وشتان بين اليوم وأمس، وأين القمر من الشمس، وإن كانت الحنانة البروك[٦]، والطماحة الهلوك[٧]؛ فهي الغل القَمِل، والجرح الذي لا يندمل.

وقوله في البكر ثم إن مؤنتها كبيرة ومعونتها يسيرة، وفي الثيب هي عجالة الراكب وأنشوطة الخاطب إشارة إلى قول عمر رضي الله عنه: البكر كالبُرَّة[٨] تطحن ثم

---

(١) الفنيق البازل: الفحل الكريم. (م).

(٢) اللهنة المعجلة: الهدية السريعة. (م).

(٣) أنشوطة الخاطب: عقدة وإحكام الخاطب. (م).

(٤) نُهْزَة: فرصة. (م).

(٥) ثمالة: القليل من كل شيء. (م).

(٦) البروك: كثيرة البركة.(م)

(٧) الطماحة الهلوك: التي تتطلع بنظرها إلى غير زوجها فتفسد حياتها. (م).

(٨) البُرَّة: القمح. (م).

تعجن ثم تخبز ثم تؤكل، والثيب عجالة الراكب تمر وسويق، يشير بذلك إلى سهولة أمر الثيب وأن البكر تحتاج في تزوّجها والبناء بها إلى كلف شديدة، وكانت العرب يمرّ بها الراكب المستعجل فيعرض عليه النزول للقرى فيمتنع لعجلته، فتخرج ما استيسر فيأكله وهو راكب، فذلك هو عجالة الراكب.

وعلى ذكر الثيوبة يحسن من لطائف كنايتهنّ عنها ما وقع لبثينة، وقد جازت على بعضهم فقال لها أَبِكْرٌ أنت؟ قالت نعوذ بالله من الكساد، فانظر كيف دلت على الثيوبة بأحسن عبارة، وما أحسن قول جميل فيها متغزلاً - وزاد عليه بعضهم أبياتًا ولم يلتزم فيها ما التزمه:

خَلِيليَّ إن قالتْ بُثَيْنَةُ مَا لَهُ   أتانا بلا وَعْدٍ فقولا لَهَا: لَهَا[١]
سَهَا وهو مَعْذُور لعِظَمِ الَّذي به   ومَنْ بات طُول الليل يرعى السُّهَا[٢] سَها
بثينةُ تُزْري بالغَزَالَةِ[٣] في الضُّحَى   إذا برزتْ لم يَبْقَ يومًا بِهَا بَهَا[٤]
دَهَتْنِي بِوُدٍّ قاتلي وهو مُتْلِفِي   وكم قد دَهَتْ بالوُدِّ مَنْ وَدّها دَهَا[٥]
لَهَا مُقْلَةٌ كحلاءُ نجلاءُ خِلْقَةً   كأنَّ أباها الظبيُ أو أُمَّهَا مَها

---

(١) لَهَا: غَفَل. (م).
(٢) السُّها: كويكب صغير خَفيّ. (م).
(٣) الغزالة: الشمس. (م).
(٤) بَهَا: بهاء، ولكن حذفت الهمزة تخفيفًا ولمناسبة الوزن. (م).
(٥) دها: دهاء، ولكن حذفت الهمزة تخفيفًا ولمناسبة الوزن. (م).

وَمَاسَتْ بِأَعْطَافٍ لِطَافٍ تهزُّها فَعَايَنْتُ غُصْنَ البَانِ من هَزِّها زَهَا
وَأَبْصَرْتُ طَرْفًا بالصَّبَابَة آمِرًا وطَرْفًا عَنِ السُّلْوَانِ أَهْل النُّهى نَهَى
وقالت وقد أَسْرَعْتُ في السَّيْرِ نَحْوَهَا وجُبْتُ قِفَارًا دُونَهَا ومَهَامِهَا[1]
مُدامةُ ريقي عُتِّقَتْ ثم رُوِّقتْ فمن لم يُمُتْ بالسُّكْرِ من صَفْوِهَا وَهَا[2]
وفي شفتي اللعسا شِفَا كُلُّ مُدْنِفٍ[3] فإن كنت مشتاقًا إلى رشفها فَهَا[4]
لها طَلْعَةٌ من شَعْرِهَا وَجبينهَا تَعانَقَ فيها ليلُهَا ونهارُهَا
لها من مهاةِ الرَّمْلِ جِيدٌ ومُقْلَةٌ وليس لها استيحاشُها ونِفَارُهَا
ولا سكنتْ وادي العَقِيقِ ولا الغضى ولكن بقلبي وبعيني دارها
إذا ما الثُّرَيَّا والهلالُ تقارنا أشكك هل ذا قرطها وسوارها
وما كنت أدري قبل لؤلؤِ ثَغْرِهَا بأن نفيساتِ اللآَلي صغارها

وكما اختلفت أذواق الناس في البياض والسواد اختلفت أيضًا في السمن والضمور وهو مفاد الفصل الخامس.

---

(١) مهامها: أراض قفار بعيدة (م).
(٢) وَهَا: ضَعُفَ. (م).
(٣) مدنف: مريض. (م).
(٤) فَهَا: فأقبل وتعال. (م).

الفصل الخامس

في السمن والضمور والسنّ

اختلفت أذواق الناس في السِّمَن[1] والضمور ما هو الأفضل منهما، وأكثر البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة النقد يقدّمون المجدولة[2] التي تكون بين السمينة والمشوقة، فقالوا إنها غصن بان، وقضيب خيزران، لا يمكن في مشي المرأة التثني إلا إذا كانت مجدولة، ولاشك أن التثني في مشي المرأة الذي هو أحسن ما فيها لا يكون مع السمن، قال الشاعر في حسن المشي:

ظِبَاءٌ أعارتْهَا المَهَا حُسْنَ مَشْيِهَا كما قد أَعَارَتْهَا العيونَ الجَآذِرُ[3]
فمن حُسْنِ ذاك المشي قامت فَقَبَّلَتْ مواطنَ من أقدامهنّ الغدائرُ

وقال آخر:

طَرَقَتْ واللَّيْلُ مَسْبُولُ الجَنَاح مرحبًا بالشَّمْسِ من قَبْلِ الصَّبَاحِ
غَادَةٌ تحملُ في أجفانها مرضًا فيه مَنِيَّاتُ الصِّحَاح

---

(١) السِّمَن: نقيض الهزال. (م).

(٢) المجدولة: حسنة الخلق والتكوين. (م).

(٣) الجآذر: جمع جؤذر، وهو ولد البقرة الوحشية. (م).

كالقَضِيبِ اهْتَزَّ والبَدْرُ بَــــدَا والكـــثِيبُ ارتَجَّ والعَنْبَرُ فاح

وقال بعضهم:

رَنَا وانْثَنَى كالسَّيْفِ والصَّعْدَةِ[١] السَّمرَا فما أكثرَ القتلى وما أَرْخَصَ الأسرى

وقال بعضهم:

رنـــــا ظـــبيًا وغَنَّى عَنْدليبًا ولاحَ شَـقَائِقًا[٢] ومَشَـــى قَضِيبا[٣]

والأشعار في هذا المعنى الدقيق الرشيق كثيرة.

وقال مصعب بن الزبير: النساء فرش فأطيبها أوثرها - يعني أسمنها - وكان يقول: استأثروا في فرشكم الشبرمة - أي السمينة - فإني ما رأيت لباسًا على رجل أزين من فصاحة، ولا رأيت لباسًا على امرأة أزين من شحم. وقال الشاعر:

وما حُبُّ الهَزِيلَةِ من مُرادي ولستُ أَرُومُ إلا ذاتَ شَحْمِ
أبا التَّنعيمِ أعدل ذات عرقٍ وهل تحكي قُمَامَةُ بيتَ لحمِ

---

(١) الصعدة: القناة المستوية تنبت لا تحتاج إلى تثقيف. (م).

(٢) شقائق النعمان: نبات عشبي جميل منه ما هو أبيض وأحمر مبقع بنقط سوداء. (م).

(٣) قضيبًا: قِسيّ عُمِلَتْ من غصن غير مشقوق. (م).

وعن عائشة – رضي الله تعالى عنها – قالت: أرادت أمّي أن تسمنني لدخول رسول الله ﷺ فلم أقبل على شيء مما تريده حتى أطعمتني القثاء(١) بالرطب فسمنت عليه كأحسن السمن، وروى أبو مَسْلَمَةَ عن عبد الرحمن عن عائشة – رضي الله عنها – قالت تسابقت مع رسول الله ﷺ وأنا جويرية فسبقته فلما حملت اللحم قال لي رسول الله ﷺ: «تعالي أُسَابقك» فقالت: «وكيف أسابقك يارسول الله وأنا على هذه الحال؟» قال: «لابدّ»؛ فسابقته فسبقني، فقال: «هذه بِتِلك».

ويحكى عن الحسن البصري أنه قال لا تسمنوا نساءكم فإن كنتم ولابدّ فاعلين فاحفظوهنّ أي من إفراط السمن والانتهاء في الضخامة. وكان للفرزدق زوجتان إحداهما تسمى حَدْراء، والثانية تسمى النوار، وكانت حدراء عربية هيفاء مجدولة، وكانت النوار حضرية ضخمة؛ فكان يفضل حَدْراء عليها، فقال في ذلك:

لَعَمْـــرِي لأَعْرَابِيَّـــةٌ في مِظَلَّةٍ ... يظلّ بِرَوْقَي(٢) بيتها الريح يَخْفِقُ
كأمِّ غزالٍ أو كدُرَّةِ غائصٍ ... تكاد إذا مرَّت بها الأرض تشرقُ
أَحَبُّ إلينا من ضِنَاكٍ ضِفَنَّة(٣) ... إذا وُضعتْ عنها المراوحُ تَعْرَقُ

---

(١) القثاء: نبات من فصيلة القرعيات، طعمه أقرب إلى الخيار، ويقال له أيضًا «الفقُّوس». (م).

(٢) بروقي بيتها: الروق والرواق: سقف في مقدمة البيت. (م).

(٣) ضِفَنَّة: حمقاء كثيرة اللحم ثقيلة. (م).

والضناك بكسر الضاد المرأة المفرطة السِّمَن، وكذلك الضفنة المرأة الضخمة المتناهية في الضخامة، وذلك كعبدة بنت عبد الله بن يزيد زوجة هشام بن عبد الملك، فإنها كانت مفرطة في السمن لا تستغني في القيام عن الاستعانة بثلاث أو أربع من الجواري، فَيُحْكَى أنه أُهْدِيَتْ إلى هشام يومًا الدّرة اليتيمة المتوارثة، وكان وزنها فيما يقال ثلاثة مثاقيل، وكانت قد حازت جميع الصفات المستحسنة من الصفاء والنقا والاستدارة، فقال لعبدة: إن قمت بنفسك من غير استعانة بأحد فهي لك، فحاولت القيام بشدّة ومشقة وما تم نهوضها حتى خرّت على وجهها وسال الدم من أنفها، وقام هشام يغسل ما أصابها من الدّم وأعطاها الدّرة فبقيت عندها إلى أن أخذها منها عبد الله بن علي بعد انقضاء دولة بني أمية، وكان عبد الله ابن علي غير راغب في النساء ولكنه لما رأى عبدة رأى جمالاً رائعًا وحسنًا بارعًا فطلب منها التزويج فأبت، فكان ذلك من أكبر الدّواعي على قتلها، وقيل قتلها خوفًا من أن تَنُمّ للسفاح بالدّرة، وفي عبدة يقول عمر بن أبي ربيعة:

أَعَبْدَةُ ما يَنْسَى تَذَكُّرَكِ القَلْبُ ... ولا عنه يُسْلِيه رَخاءٌ ولا كَرْبُ

وعبدةُ بيضاءُ التَّرَائِبِ طَفْلَةٌ ... منعمةٌ تُصْبِي الحليمَ ولا تصبو

ومثل عبدة في الضخامة والسمن هند بنت إسماعيل بن خارجة زوجة الحجاج بن يوسف الثقفي، فقد روى أبو الفرج في الأغاني عن أبي موسى قال:

(١) طَفْلَة: ناعمة ليِّنة. (م).

وجهني الحجاج لأخطب له هندًا بنت إسماعيل بن خارجة فلما خطبتها من أبيها وزوّجتها منه وكانت حاضرة قامت مبادرة وعليها مِطْرَف خَزٍّ [١] أسود، فوالله لقد رأيته دخل بين ظهرها وكَفَلها[٢] ولم تستقل قائمة حتى انثنت ومالت لأحد شقيها من شحمها فعرّفت الحجاج بذلك، فوجه لها ثلاثين غلامًا مع كل غلام عشرة آلاف درهم وثلاثين جارية مع كل جارية تخت ثياب، وقال لها: إني أكره أن أبيت خلوًا ولي زوجة، فقالت وما احتباس امرأة عن زوجها وقد ملكها وأتاها صداقها وكرامتها فأتت من ليلتها، قال المدائني: بلغني عن المرأة التي تولت زفافها إليه أنها قالت: دخلنا على الحجاج وهو في بيت عظيم في أقصاه ستارة وهو دون الستارة على فرشه، فلما دخلت عليه سلمت فأومأ إلي بقضيب كان في يده فجلست عند رجليه ومكث ساعة لا يتكلم ونحن وقوف، فضربت هند بيدها على فخذه وقالت: ليس هذا وقت سوء الخلق، فتبسم وأقبل عليها واستوى جالسًا فدعونا له وأرخينا الستور عليهما.

وقد علمت مما سبق أن أفضل النساء المجدولة التي ليست بالسمينة ولا الضامرة، فخيار الأمور أوساطها إلا أن المرأة إذا فاتت حدّ الشبوبية ربما ضمرت، قال أبو الفرج في كتاب النساء: بنت عشر سنين تشمس وتلين، وبنت عشرين تسر الناظرين، وبنت ثلاثين لذة للمعانقين، وبنت أربعين ذات رخاوة ولين،

(١) مطْرَف خَزٍّ: رداء من حرير مُرَبّع، له أعلام في طرفيه. (م).
(٢)كَفَلها: الكَفَل: العَجُز. (م).

وبنت خمسين ذات بنات وبنين، وبنت ستين عجوز في الغابرين، وقال بعضهم في أعمار النساء من الشعر ما حسن به وصفهنّ مما لم يسبق إليه:

متى تَلْقَ بنتَ العشرِ قد بَضَّ ثَدْيُهَا   كلؤلؤةِ الغوَّاص يَهْتَزُّ جِيدُهَا
تجِدْ لذَّةً منها لِخِفَّةِ رُوحِهَا   وعِزَّتِهَا والحُسْن بعدُ يَزِيدُها
وصاحبة العشرينَ لا شيءَ مثلُها   فتلك التي يَلْهُو بها مُسْتَفِيدُها
وبنت الثلاثينَ الشِّفاءُ حَديثُها   هي العيشُ ما دَقَّت ولا رَقَّ عودُها
وإن تَلْقَ بنت الأربعين فَغِبْطَةٌ   وخَيْرُ النِّساءِ ودُّها وولودُها
وصاحبة الخمسينَ فيها بَقِيَّةٌ   من الحسنِ نوع الحسن صلب عمودها
وصاحبة الستينَ لا خيرَ عندها   وفيها متاعٌ والحَرِيصُ يُرِيدها

وقال بعضهم قالت امرأة لأخرى: ما تقولين في ابن عشرين؟ قالت: ريحانة تشمين، قالت: فابن ثلاثين؟ قالت: شديد متين، قالت: بابن أربعين؟ قالت: أبو بنات وبنين، قالت: فابن خمسين؟ قالت يجوز في الخاطبين، قالت فابن ستين؟ قالت: صاحب سعال وأنين. ومن هذا، ومما تقدّم يفهم أن بلوغ الستين من الرجال والنساء هو حدّ فقدان الأرب[1] غالبًا، وأن الخير في كل من الرجال والنساء هو فيما دون ذلك من الأعمار، وذكر بعضهم الأعمار وصفاتها

(١) الأرب: الحاجة. (م).

في النساء فقال: إن منهن الكاعب وهي التي كعب ثدياها أي برزا وظهرا، ومن طباعها الصدق في كل ما تسأل عنه، وقلة الكتمان لما علمته، وقلة التستر والحياء والتساهل، ومنهن الناهد أي التي نهد ثدياها واستدارا ولم يتكامل شبابها فتستتر بعض الاستتار، وتظهر بعض محاسنها، وتحب أن يُتأمّل ذلك منها، ومنهن الممتلئة شبابًا التي قد استكمل خلقها وعظم ثدياها، فيحدث عندها دلال وأدب وتحلو ألفاظها ويعذب كلامها، ويتخلق فيها الميل لجنسها، ومنهن العانس وهي المتوسطة الشباب التي تهيأ ثدياها للانكسار فتحمش[١] مشيتها ومنطقها، وتبدي محاسنها بخفر[٢] ودلال ولعب، وأحب الأشياء إليها مفاكهة[٣] الرجال، وهي في هذه الحالة قوية الميل لما تقتضيه أنوثتها مستحكمة العشق، ومنهن المتناهية الشباب ولا شيء أشهى إليها من الاتصال بالرجال، ومنهن النَّصَف وهي التي يأخذ ماء وجهها في النقص، ولحمها في الاسترخاء وذلك بعد مجاوزة الأربعين، وهي التي قيل فيها:

وَإِنْ أَتَوكَ فَقَـــالُوا: إنَّها نَصَفٌ فإنَّ أَحْسَنَ نِصْفَيها الذي ذَهَبَا

فتكون ملاطفة للرجال مدارية لهم شديدة الحرص عليهم، وما فوق ذلك فالعجوز (أي المُسِنَّة) التي يجب على العاقل أن يرغب عن زواجها، قيل خاصم

(١) تحمش مشيتها: تمشي بدقة. (م).

(٢) بخفر: بحياء. (م).

(٣) مفاكهة: مِزَاح. (م).

رجل امرأته إلى زياد، وكانت قد أَسَنَّت فاشتدّ زياد على الرجل، فقال الرجل أصلح الله الأمير إن خير نصفي عمر الرجل آخرهما؛ يذهب جهله ويثوب حلمه ويجتمع رأيه، وإن شر نصفي عمر المرأة آخرهما؛ يسوء عقلها ويمتدّ لسانها فحكم له عليها، والمسنة تحاول أن تُرِيَ لزوجها ما يرى من الشباب.

يحكى أن رملة بنت عبد الله بن خلف لَمَّا أَسَنَّتْ وكانت ضرة لعائشة بنت طلحة عند عمر بن عبد العزيز جعلت تتجنب في مثل أيام أَقْرَائِها[١] تريد أنها في سن مَنْ يحيض، وقد تحمل المرأة العربية لخمسين سنة، ويقال إنها إن كانت قرشية حملت لستين.

فقد ولدت هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زَمْعَة موسى بن عبد الله ابن الحسن بن علي بن أبي طالب ولها ستون سنة، ولا يعلم امرأة ولدت وهي بنت ستين إلا قرشية، قال الأطباء: مواقعة المسنة سم من السموم ينضي البدن، ويورث الهم والحزن، قال الشاعر:

لا تَقْرَبَنَّ عَجُوزًا إن دَعَوْكَ لها ... وانْفُضْ ثِيَابَك عنها ممتعًا[٢] هَربَا

وإن أَتَوْكَ فقالوا إِنَّهَا نَصَفٌ ... فإنَّ أحسنَ نِصْفَيْهَا الذي ذَهَبَا

(١) أقراء: جمع قُرْء. وهو: الحيض أو الطُّهْر. (م).

(٢) مُمْتِعًا: مستغنيًا. (م).

وقد تغزل أبو الأسود الدئلي في عجوز، فقال كما أنشده أبو تمام في الحماسة:

أَبَى القَلْبُ إلا أُمَّ عَوْفٍ وَحُبَّهَا عجوزًا ومن يُحبِبْ عجوزًا يُفَنَّدِ
كَسَحَقِ يَمَانٍ قد تقادمَ عَهْدُهُ ورَوْنَقُهُ ما شِئْتَ في العَيْنِ وَاليَدِ

وقال آخر في مليحة أسنت:

قالوا اسْلُها قد ذَوَى عنابُ رَاحَتِهَا وأنت رَهْنُ صباباتٍ وتَضْلِيل
فقلتُ لستُ بسالٍ حبَّها أبدًا وكُلَّما كرنش العنابُ يحلُو لي

وهذا من باب قولهم يبلى القميص وفيه عرف المندل، فإن الإنسان الصادق في حب من يهواه يستصحب الأصل ويرى إبقاء ما كان على ما كان، فكل ما انمحى من خارج العيان فهو موجود في الأذهان، فالمحب يتصوّر دائمًا حسن الحسان ويديم معاملتهن بالبر والإحسان.

فقد حكي أن خرقاء صاحبة ذي الرمّة أرسلت إلى بعض الشعراء ليشبب بها، فقال: لا أشبب بعجوز، فبرزت له وقد أماطت[١] قناعها فأخذت بمجامع قلبه ورأى منها أحسن النساء، فقال:

لقد أرسلَتْ خرقاءُ نَحْوي رَسُولَهَا لتَجْعَلني خرقاءُ ممن أَضَلَّتِ
وخرقاءُ لا تزدادُ إلا مَلاَحَةً ولو عمّرتْ تَعْمِير نُوحٍ وجلتِ

(١) أماطت: أبعدت. (م).

فالجميلة المعمرة كالثوب اليماني ذهبت جِدَّتُه، ومع ذلك فهو يروق العين مرأى، واليد ملمسًا حتى بالغ بعضهم حيث قال:

ويَزِيدُها مَرُّ الليـــالِي جِدَّةً[١]　　وتَقَادُمُ الأَزْمَانِ حُسْــنَ شَبَابِي

قال بعض العرب: لا تتزوّج من النساء ستًّا: لا أَنَّانة، ولا مَنَّانة، ولا حَنَّانَة، ولا حدّاقة، ولا برّاقة ولا شدّاقة، أمّا الأنانة فهي كثيرة الأنين فنكاح المريضة لا خير فيه، وأمّا المنانة فهي التي تمنّ على زوجها، وأمّا الحنانة فهي التي تحنّ إلى زوج آخر، وأمّا الحدّاقة فهي التي ترنو بحدقتها إلى كل شيء تشتهيه وتكلف الرجل شراءه، وأمّا البراقة فهي التي تمكث طول النهار تشتغل في وجهها حتى يصير له بريق. انتهى. وليس هذا البريق في شيء من الحسن، فإن الحسن ما زين الزينة واستحسن دونها، وهذا هو الحسن العام.

(١) جدَّة: تجدد. (م).

الفصل السادس

في الحسن والجمال

مما أنعم الله به على العبد تحسين خَلْقِه وخُلُقِه، فلا ينبغي للعبد إذا أحسن الله وجهه أن يضيف إليه قبيح المعاصي أو قبح وجهه أن يجمع بين قبيحين كما قيل:

إذا فَاتَ الفَتَى أَمْرَيْنِ أَضْحَى بَعِـــيدًا عـــن مُمَازَجَة القُلُوبِ
جَمَالُ الوجهِ أو خُلُقٌ جميلٌ يَزِينُك في الحُضُورِ وفي المَغِيبِ
فحُسْنُ الوَجْهِ يَشْفَعُ في المساوي وحُسْنُ الخُلقِ يَشْفَعُ في الذُّنُوبِ

وقيل:

فَلاَ تَحْسَبَنَّ الدُّرَّ في البَحْرِ وَحْدَهُ فَقَدْ تُخْرِجُ الأَفْوَاهُ مِنْ لَفْظِهَا دُرَّا

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الرَّجلَ المؤمنَ ليدركَ درجةَ الصائِم القائِم بالخُلقِ»، وقال أمير المؤمنين عَلِيٌّ كرّم وجهه: «أوّل عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصاره على الجاهل»، وقال بعض العلماء من نفاسة الحلم وارتفاع

قدره أن الله ﷻ لم يسم به في كتابه أحدًا إلا إبراهيم خليله وإسحاق ذبيحه؛ حيث قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود/ ٧٥]، وفي قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[الصافات/ ١٠١]، وكان يقال: جمع الله مكارم الأخلاق في آية واحدة ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف/ ١٩٩]، وقال بعضهم:

خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِعُرْفٍ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَا
وَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ جَاهٍ فَضُمَّ إِلَى الجاهِ لِينَا

ودخل محمد بن عباد على المأمون فجعل يعممه بيده وعلى رأسه جارية تضحك، فقال لها المأمون: لم تضحكين؟ فقال محمد بن عباد: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين، إنها تعجبت من قبحي وإكرامك لي، فقال لها المأمون: لا تعجبي من قبحه إن تحت عمامته كرمًا ومجدًا لا يوجد في غيره، ثم أنشد يقول:

وهَلْ ينفعُ الفتيانَ حُسْنُ وُجُوهِهِم إذا كانتِ الأَعْرَاضُ غَيْرَ حِسَانِ
فَلاَ تَجْعَلِ الحُسْنَ الدَّلِيلَ على الفتى فما كُلُّ مَصْقُولِ الحَدِيدِ يَمَانِي

وعن وصية لبعض العلماء قال: حق على العاقل أن يخالق من لَقِيَه وأن يتزيَّا بزي من ساكنه، قال بعض الشعراء:

إن جِئتَ أرضًا كُلُّهم عُورٌ فَغَمِّض عَيْنَك الوَاحِدَة

قيل: لا يسود الرجل حتى لا يبالي في أي ثوب ظهر، ودخل بعضهم على معاوية وعليه عباءة فازدراه، فقال: يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك وإنما يكلمك من فيها، ودخل بعضهم أيضًا على الرشيد فأنشده:

تری الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدرِيهِ وفي أَثْـــــــوَابِهِ أَسَدٌ حَصُورُ(١)

وقيل:

لو كانت النَّارُ للياقُوتِ مُحْرِقَةً لكان يَشْتَبِهُ الياقُوت بالحَجَرِ
فلا يَغُرَّنكَ أَطْمَارِي(٢) وقيمتها فإنَّما هي أَصْدَافٌ على دُرَرِ
ولا تَظُنَّ خَفَاءَ النَّجْمِ مِنْ صِغَرٍ فالذَّنْبُ في ذاك مَحْمُولٌ على النَّظَرِ

والبيت الأخير ينظر إلى قوله:

والنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الأَبْصَارُ رُؤْيَتَهُ وَالذَّنْبُ للطَّرْفِ لاَ للنَّجْمِ فِي الصِّغَرِ

قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، قال بعض الأمراء لحاجبه: أَدخِل عليّ عاقلاً، فأتاه برجل، فقال: بم عرفت عقله؟

---

(١) حَصُور: هَيُوب. (م).
(٢) أَطْمَارِي: أثوابي البالية. (م).

قال: رأيته يلبس الكتان في الصيف، والقطن في الشتاء، والملبوس العتيق في الحرّ والجديد في البرد.

وكان ﷺ يختار لحاجته صبيح الوجه حسن الاسم طلبًا لاجتلاب القلوب، وفي حديث قتادة عن أنس «ما بعث الله نبيًّا إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيكم ﷺ أحسنهم وجهًا وأحسنهم صوتًا، وقد حاز يوسف عليه السلام شطر الحسن، وحاز نبينا عليه الصلاة والسلام كل الحسن، قال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلألأ في الجدر النور، وقالت أمّ معبد في بعض ما وصفته به: أجمل الناس من بعيد وأحلاهم وأحسنهم من قريب، وفي حديث أبي هالة يتلألأ وجهه كتلألؤ القمر ليلة البدر، انتهى. فهو كما قيل:

لَبِسْتَ رِدَاءَ الفَخْرِ في صُلْبِ آدَمٍ فلا تَنْتَهِي إلاَّ إِلَيْكَ المَفَاخِرُ
ولله بَدْرٌ في السَّماءِ مُنَوَّرٌ وأَنتَ لنا بَدْرٌ على الأَرْضِ ظَاهِرُ

وفي الحديث كما رواه البخاري في تاريخه وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج اطلبوا الخير عند حسان الوجوه، وقيل في معناه:

لقد قالَ الرَّسولُ وقَالَ حقًّا وخَيْرُ القَوْلِ ما قالَ الرَّسُولُ
إذا الحَاجَات عَزَّتْ فاطْلُبُوها إلى مَنْ وَجْهُهُ حَسَنٌ جَمِيلُ

وقيل لفيلسوف: أي الرسل أنجح؟ قال: الذي له جمال وعقل وفكر. وقيل: إذا أرسلتم رسولاً فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم، قال لقمان لابنه: لا تبعث رسولاً جاهلاً فإن لم تجد حكيمًا فكن رسول نفسك، شعر:

إذا أَبْطَا الرَّسُولُ فُقلْ نَجَاحٌ ولا تَفْرَحْ إذا عَجِلَ الرَّسُولُ

وقال آخر:

إذا أَرْسَلْتَ فَارْسِلْ ذَا وَقَارٍ كَرِيمَ الطَّبْعِ حُلْوَ الاعْتِذَارِ
يُوَفِّقُ بَيْنَ نِيـــــرَانٍ ومـــــاءٍ ويُصْـــلحُ بينَ سِـــــنَّورٍ[1] وَفَارِ

ويُرْوَى عنه ﷺ أنه قال: «إن الله جميل يحب الجمال»، وقيل في هذا المعنى:

خَلَقْتَ الجَمَـــــالَ لَنَا فِتْنَةً وقُلْتَ لنـــــا يا عِبَادِي اتَّقُون
وأَنْتَ جَمِيـــــلٌ تُحِبُّ الجَمَال فكيف عِبَـــادُك لا يَعْشَقُون

(١) سِنَّوْرٍ: قِطّ. (م).

فالحسن صفة تميل إليها الطباع السليمة والأذواق المستقيمة وتنجذب إلى عشقه أرباب العقول، وفي المثل شفيع الحسن مقبول، ولقد أحسن من أنشد يقول:

وإذا المَلِيحُ أَتَى بذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءتْ مَحَاسِنُه بِأَلفِ شَفِيعِ

ومثله قول الآخر:

إذا جَاءَ المَلِيحُ بِألفِ ذَنْبِ مَحَاهَا من مَحَاسِنُه شَفِيعُ

وقال أبو فراس:

أَسَاءَ فزَادَتْهُ الإِساءَةُ حُظْوَةً حَبِيبٌ عَلَى مَا كَانَ مِنْه حَبِيبُ
تَعُدُّ عَلَيَّ الوَاشِيَاتُ ذُنُوبَهُ ومِنْ أَيْن لِلْوَجْهِ المَلِيح ذُنُوبُ

وقد أجمع الحكماء قاطبة على أن النظر إلى المرأة الجميلة الحسنة الخلق تفرّح النفس وتنشطها وتزيل عنها الأفكار والوساوس السوداوية، وتقوّي القلب قوّة لا مزيد عليها بسبب إزالة الأفكار الرديئة، لاسيما إذا انضم مع حسن الصورة حسن المحادثة؛ لأن لحاسة السمع مدخلاً عظيمًا في تطييب كلام القلوب بكلام المحبوب، وأما أحلى قول بعضهم في هذا المعنى:

وحَدِيثُهُ كالغَيْثِ يَسْمَعُهُ راعي سِنِينَ تَتَابَعَتْ جَدْبَا
فَيَصِيحُ مِنْ طَرَبِ مَسَامِعِهِ ويَقُولُ في فَرَحٍ هَيَا رَبَّا

وهذا هو المعنى المقصود من قول أبي نواس: وقل لي هي الخمر في قوله:

أَلاَ فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الخَمْرُ وَلاَ تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمْكَنَ الجَهْر

وإذا كان المحبوب يتلذذ بتكرار اسم محبوبه على لسانه فكيف لا يكون ذلك والوجهان متقابلان والفَمَّان متحادثان، وكما أن الحكماء أجمعوا على ذلك فقد أجمعوا أيضًا على أن النظر إلى المرأة القبيحة السيئة الخلق كمجالسة الثقيل تثير الهموم وتجلب الغموم، وتؤلم القلب وتميت النفس، وتذهب النشاط وتطوي الانشراح، كما قيل:

وجَلِيسٌ حَدِيثُه للمَسَرَّاتِ طَارِدُ مَثل لَيْلِ الشِّتاء فهو طويلٌ وباردُ

وكانت لُبَابَة بنت عبد الله بن عباس من أجمل الناس وجهًا، وكانت تحت الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فكانت تقول: ما نظرت إلى وجهي في المرآة مع أحد إلا رحمته من حسن وجهي إلا الوليد، فإني كنت إذا نظرت إلى وجهي مع وجهه رحمت نفسي من حسن وجهه ونضارته، قال بعضهم:

نَظَرْتُ إلَيهِ نَظْرَةً فَتَحَيَّرَتْ دَقَائقُ فِكْرِي في جَلِيلِ صِفَاتِهِ
فَأَوْحَى إِلَيهِ الوَهْمُ أَنِّي أُحِبُّه فَأَثَّرَ ذَاكَ الوَهْمُ فِي وَجَنَاتِهِ

وعلى ذكر المرآة يحسن قول بعضهم:

رَأَى حُسْنَ صُورَتِهِ في المِرَاة فأصبحَ صَبًّا بِهَا مُدْنَفَا[1]
وصَيَّرَ يَعْقُوبَ اسْمًا له يُشيرُ بأَنْ قَدْ رَأَى يُوسُفَا

وقال بعضهم: إن المرأة إذا كانت حسنة الصفات حسنة الأخلاق، نجلاء العين سوداء الحدقة، متحببة لزوجها قاصرة الطرف عليه، فهي على صفة الحُورِ العين، كما قيل:

حُورٌ حَرَائِرُ مَا هَمَمْنَ بِرِيبَةٍ كَظِبَاءِ مَكَّةَ صَيْدُهُنَّ حَرَامُ
يُحْسَبنَ مِنْ لِينِ الكَلَامِ فَوَاحِشًا ويَصُدُّهُنَّ عن الخَنَا[2] الإِسْلَامُ

وقال آخر وهو ممن كَاثَرَ بمحبوبه وفاخر:

لم يَبقَ لي أَمَلٌ سِوَاكِ فَإِنْ يَفُتْ وَدَّعْتُ أَيَّامَ الحَيَاةِ وَدَاعَا
لا أَسْتلِذُّ لغَيْرِ وَجْهِكِ مَنْظَرًا وَسِوَى حَدِيثِكِ لا أُرِيدُ سَمَاعَا

---

(١) مُدْنَفَا: ملازمًا للمرض. (م).
(٢) الخَنَا: الفحش. (م).

وقال آخر:

يا حُسْـــنَهُ إذ قَالَ ما أَحْسَنِّي ويا لذَاكَ اللَّفْـــظِ ما أَعْذَبَهُ

ثم إن الحسن العام هو ما يزين الزينة ويستحسن بدونها، وأما الحسن الخاص فهو ما يختص به كل عضو من الصفات، ولهذا قالوا الحلاوة في العين، والملاحة في الفم، والجمال في الأنف، والظرف في اللسان، وقالوا إذا حسنت العين فتمامها الدَّعَج[(١)]، والفم تمامه الفَلَج[(٢)]، وطلاوة الجبين تمامها البَلَج[(٣)]، وأحسن ما تكون المرأة إذا طال منها الأطراف والعنق والشعر والقامة، وقصر منها العين واللسان واليد والرجل - والمراد بالقصر القصر المعنوي كعدم الطموح بالعين والفم، وأخذ شيء فوق الحاجة، والخروج من بيتها - وابيض منها اللون والفرق والثغر - أي الأسنان نفسها، أمّا اللثة فقد مَدَحَتْ العرب سَوَادَها - واسودّ منها العين والهدب والشعر، واحمرّ منها اللسان والشفة مع اللَّعَس يعني يسير السواد - ودَقَّ[(٤)] منها الحاجب والأنف والبنان والخَصْر[(٥)]، وغلظ منها المِعْصَم[(٦)] وما يقعدها عند

(١) الدَّعَج: شدة السواد. (م).
(٢) الفَلَج: تباعد ما بين الأسنان يحسن المنظر. (م).
(٣) البَلَج: تباعد ما بين الحاجبين. (م).
(٤) دَقَّ: صَغُرَ. (م).
(٥) الخَصْر: وسط الإنسان. (م).
(٦) المِعْصَم: موضوع السوار من اليد. (م).

النهوض والساق، واتسع منها الجبين والجبهة والعين والصدر وضاق منها الأنف والأذن والفم، وما عدا ذلك راجع إلى ما ذكر وتفنن في الأوصاف، وأهل الفِرَاسَة يجعلون الجمال الظاهر دليلاً على اعتدال المزاج.

فمعتدل المزاج لا يتهافت على التهتك والابتذال؛ فإنه بهذا يذهب ما في جماله من البهاء والجلال، فقد حُكِي أن سيدة بنت أحمد بن جعفر بن أحمد الصالحية كانت بعيدة الصيت بالجمال والكمال والأدب، وكانت تسمى بلقيس الإسلام، وكان زوجها المكرم الصليحي لما مات عنها تركها بدار العز التي بناها بمدينته من بلاد اليمن، فلما استولى ابن أحمد بن المظفر الصليحي على الملك أراد أن يتزوّجها ليكمل له ملكه، فامتنعت منه فعزم على قتالها.

ثم أشير عليه بأن يكاتب في أمرها المستنصر العبيدي صاحب مصر، إذ كان أهل اليمن قائمين بدعوته فامتثل ذلك وأرسل إليه رسولين من قِبَله في هذه القضية، فرجع إليه بقضاء حاجته ومعهما خصيّ برسم الكلام معها، فدخل الخَصِيُّ إليها وقد حضر وجوه أهل الدولة قائمين لقيامه، فقال أمير المؤمنين يسلم على الجهة المالكة السيدة الرضية الطاهرة الزكية وحيدة الزمن وسيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام خلاصة الأنام ذخيرة الدين وَلِيَّة[1] أمير المؤمنين، ويقول لها: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ

(١) وَلِيَّة: ناصرة. (م).

أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾ [الأحزاب / ٣٦]، وقد زوّجك مولانا أمير المؤمنين من أمير الأمراء أبي حِمْيَر سبأ بن أحمد على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار ذهبًا عينًا، وخمسون ألفًا أصنافًا تحفًا وألطافًا، فقالت: أمّا كتاب مولانا أمير المؤمنين، فإني أقول فيه: إني ألقي إليَّ كتاب كريم، وأما أنتما فوالله ما جئتما إلى مولانا من سبأ بنبأ يقين، بل حرّفتما القول عن مواضعه، وسَوَّلَتْ لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

وتم عقد النكاح بينهما واستأذنها زوجها الأمير في الدخول بها بدار العز فأذنت له، فدخل ومدّ يده إليها أوّل مرة فلم تمتنع عليه أوّل مرّة مما يكون بين الرجل وزوجته، ثم أراد المعاودة فمنعته وغضبت وخرجت من البيت الذي كانت معه فيه، ولم يجتمع بها إلا تلك الليلة خاصة، وبعض أهل اليمن يقولون: إنه لم يرها وإنما أجلست له تلك الليلة جارية من جواريها فعلم بذلك وكتم الأمر ولم يُفْشِه، فهذه هي المرأة العفيفة والجهة الشريفة، وبالجملة فلباس ثوب العفاف من أجمل الأوصاف، وقلت في هذا المعنى:

أَصْبُو إِلَى كُلّ ذي جَمَالٍ ولَسْتُ من صَبْوَتي أَخَافُ
ولَيْسَ بِي في الهَوَى ارْتِيَابٌ وإِنَّما شِيمَتي العَفَافُ

ومن النساء المشهورات أمّ حكيم التي تشبب بها قَطَرِي رئيس الخوارج الذين خرجوا على الخلافة في أيام هشام بن عبد الملك، وقد سبق ذكرها في

الفصل الثاني من الباب الثاني، وقيل: إن عبد الله ومُصْعبَ وعُرْوَة أولاد الزُّبَيْر ابن العَوَّام طافوا بالكعبة وتعلقوا بأذيالها، فقال عبد الله: اللهم إني أسألك الخلافة، وقال عروة: اللهم إني أسألك الجنة، وقال مصعب: اللهم إني أسألك أن تكون سكينة بنت الحسين بن علي وعائشة بنت طلحة بن عبدالله من أزواجي، فأعطى الله كلاًّ منهم مراده، فكان عبد الله بن الزبير خليفة على الحرمين والحجاز واليمن والعراق ومصر وغير ذلك ما عدا الشأم، وتزوّج مصعب عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، وأَصْدَقَ عائشة بنت طلحة كصداق سكينة بنت الحسين، وكانا يتغايران، وكان الشرف لسكينة والجمال لعائشة.

قيل: طلع البدر ليلة فلما توسط السماء بعثت عائشة وصَيِفَة لها إلى سكينة تقول: من أشبه بهذا البدر، وجهي أم وجهك؟ فلم تجبها سكينة، وأذن المؤذن، فلما قال: أشهد أن محمدًا رسول الله، بعثت سكينة وصيفة لها إليها تقول: هذا جدّي أو جدّك؟ فلم تعد عائشة تفاخرها بعد بشيء، وكانت عائشة أبدع امرأة بالمدينة وأجمل وأكمل نسائها، وهي أوّل من خَضَّب من نساء العرب أطراف الأصابع، وأوّل من لبس العصائب الدِّيباج المنسوجة بالذهب والجوهر، وأوّل من اتخذت لشعرها طرّة ومشطته بماء الورد والمسك، وأوّل امرأة رآها الناس في الموقف في هَوْدَج، وأوّل امرأة أقام معها زوجها سبعة أيام لا يظهر، وأوّل امرأة رأى الناس الصُّرَر المختومة تخرج إلى المستورات من جيرانها فيها الدراهم يوم أسبوعها، وأوّل امرأة سهرت على زوجها من الغيرة حتى طلع الفجر.

ومما يناسب تشبيهها وجهها في الحسن بالبدر ما يُحكَى عن علي بن الجهم أنه قال لجاريته: أتجعلين الليلة مجلسنا في القمر؟ قالت له: ما أولعك في الجمع بين الضرائر، فاستدعى بحلة ليفرغها عليها ويستجلي قمر وجهها فيها، فقالت: إليك عني إنها تغطي المحاسن كما تستر القبائح، فغاب عنهما القمر فاهْتَمَّ[١] فقالت: لا تهتم لفقده فقد احتشم من محاسني واستخلفني من بعده، ويحسن هنا قول بعضهم:

إذا مَا غَابَ وَجْـــــهُ البَدرِ عَنَّا   فوَجْهُكَ عِندَنَا البَدْرُ المقيمُ
وإِنْ أَفَلَتْ نُجُومُ السَّعْدِ يَوْمًا   فوَجْهُكَ نَجْمُ سَــــعْدٍ مُسْتَدِيمُ

وقول الشاعر:

أَرْخَتْ ثَلاَثَ ذَوَائبٍ[٢] من شَعْرِهَا   في ليلةٍ فَأَرَتْ لَيَاليَ أَرْبَعَا
وَاستَقْبَلَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهَا   فَأَرَتْنِيَ القَمَرَيْنِ في وَقْتٍ مَعَا

ولبعض النساء فضل لاسيما في الشعر، قال الشهاب الحجازي: أنشدني شيخ الإسلام حافظ مصر والشام شهاب الدين أحمد ابن الإمام العَلاَّمَة نور

---

(١) اهْتَمَّ: حَزِن. (م).
(٢) ذَوَائِب: جمع ذؤابة وهي: الشعر المضفور من الرأس. (م).

الدين علي بن حجر، قال: أنشدتني إجازة من نظمها المحجبة المخدرة المسندة فاطمة بنت محمد بن المنجا الدمشقية الأصل وقد فارقت بعلها:

لَمَّا غَدَا لِوَثِيقِ عَهْدِي نَاقِضًا ... وأَرَادَ حَبْـــلُ الوُدِّ أَنْ يَتَمزَّقَا
فَارَقْتُهُ وخَلَعْتُ من يَدِه يَدِي ... وتلوتُ لِي ولـــه وإِنْ يتفرّقا

ومن ذلك ما أنشدتنيه من لفظها لنفسها المحجبة المصونة والدرة المكنونة، العريقة الحسب الأصيلة النسب العالية المقام الكثيرة التهجد والقيام، حافظة أهل زمانها، فائقة أقرانها، صاحبة السند العالي واللفظ الفصيح الغالي، الست زينب ابنة الإمام العالم العامل، والبحر الوافر الكامل، برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم العثماني الشافعي، وقد اعتدى عليها بعض الناس في وقفها وتَّجوه عليها بشيخ الإسلام وقاضي القضاة عز الدين أحمد الحنبلي، فكتبت إليه بهذين البيتين وهما:

قَسَمًا بِحَقِّكَ لا تُضَامُ ضَعِيفَةٌ ... وتكونُ عِزَّ الدِّينِ حَيًّا بَاقِيًا
فَقِهًا وُقِيتَ أذى عدوٍّ أَحْمَقٍ ... لك رَبُّهَا لا زال كهفًا واقيًا

ومن النساء من اشتهر بالصيانة والديانة، ودخل في زمرة أفاضل العلماء بحيازة الفضل والأمانة، فمن حاز هذه الرتبة خديجة بنت أحمد بن عبد العزيز

ابن القاسم بن عبد الرحمن أمّ الفضل بن شهاب الدين النويري القرشية العقيلية المكية أمّها وأمّ أخويها قاضي القضاة كمال الدين أبي الفضل محمد ونور الدين على كمالية ابنة قاضي القضاة نجم الدين محمد بن محمد الطبري المكي، كانت من ثروات النساء دينًا وعفة وكرمًا وعبادة، وكانت تخلو عدّة ليالٍ للعبادة وتلازم الأوراد دائمًا، ولا ترغب فيما يميل إليه النساء، وكانت تكتب وتقرأ ولها فضائل وتَنْظُم الشعر الجيد، وبينها وبين علماء عصرها وصلحائه مكاتبات، ولها قصيدة نبوية أوّلها:

حَمَل الغَرَامُ عَلَيّ مَا لا أَحْمِلُ   فَرثَى لِحَالِي مَنْ يَلُوم وَيَعْذِلُ

وكتبت إلى الشيخ بهاء الدين أحمد بن السبكي، وقد أهدت له عقيدًا وهي وهو سائران في رفقة من مكة إلى المدينة النبوية للزيارة:

بَعَثْتُ لَكُم بِشيءٍ من عَقِيـــدٍ   هَدِيَّتُهُ لقـــلِتهِ فَضِيـــــحَه
وَلَكِنَّا لنُخــبِرُكُمْ بـــــأنَّا   عقيدةُ وُدِّنـــا فِيكُم صَحِيحَه

فأجابها بأبيات منها:

بَركَاتُ أُمِّ المؤمنِينَ خديجةً   عَمَّتْ قوافلَنَا وفَاضَ نَدَاهَا
ولها قصائدُ في النَّبيِّ مُحَمَّدٍ   سَتَنالُ في الجَنَّاتِ طيبَ جناهَا

فالله يَقْبلُها ويَشْكُرُ سَعْيَهَا ... ويَــــــدُومُ في طيبِ الهَنَا أَخَوَاهَا
ويعزُّ للإسلام هذا البيتَ إذ ... عمَّتْ مكارمُهُ وطــــابَ حلاَهَا

تُوُفيِّتْ بمكة سنة سبع وسبعين وسبعمائة، وكانت صالحة عالمة، انتهى.

ومن اشتهر بالأدب والتصوّف والغزل والتعفف من النساء بالأندلس حمدة بنت زيد بن تقي العوفي، يحكى أنها خرجت متنزهة بالرملة من وادي آش فرأت ذات وجه وسيم أعجبها فقالت:

أَبَاحَ الدَّمْعُ أَسْرَارِي بِوَادٍ ... لَهُ لِلْحُسْــــنِ آثارٌ بَوَادِي
فَمِن نَهْرٍ يَطُوفُ بِكُلِّ رَوْضٍ ... ومِنْ رَوْضٍ يَطُوفُ بكلِّ وادِي
ومِنْ بين الظِّبَاءِ مهاةُ رَمْلٍ ... سَبَتْ لُبِّي وقد مَلَكَتْ قِيَادِي
لها لَحْــــظٌ تردِّدُه لأَمْـــرٍ ... وذَاكَ اللحظُ يَمنعُنِي رُقَادِي
إذا سَــــدَلَتْ ذَوَائِبَها عليهِ ... رأيتَ البدرَ في جُنْحِ السَّوَادِ
كأنَّ الصُّبْحَ ماتَ له شَقِيقٌ ... فَمِن حُزْنٍ تَسَرْبلَ بالحِدَاد

ومن كلامها أيضًا:

وَلما أَبَى الوَاشُونَ إِلاَّ فِرَاقَنَا ... ومالَهُمُو عِنْدِي وعِنْدَك مِنْ ثَارِ
وشَنُّوا عَلَى أَسْمَاعِنَا كُلَّ غَارةٍ ... وقَلَّتْ حُمَاتِي عِنْدَ ذَاكَ وأَنْصَارِي
غَزَوْتُهُمُو مِنْ مُقْلَتَيْكَ وَأَدْمُعِي ... ومِنْ نَفْسِي بالسَّيْفِ والسَّيْلِ والنَّارِ

وكانت علية العباسية بنت المهدي أخت هارون الرشيد فائقة في الجمال والأدب والعلم، تزوّجها موسى بن عيسى العباسي، وكان الرشيد يبالغ بإكرامها واحترامها، ولها ديوان شعر، عاشت خمسين سنة وتوفيت سنة عشر ومائتين، وكان سبب موتها أن المأمون سلم عليها وضمها إلى صدره وجعل يقبل رأسها ووجهها مغطى فشرقت من ذلك وحُمَّت وماتت لأيام يسيرة.

ولما خرج الرشيد إلى الري أخذها معه، فلما وصل إلى المرج نظمت قولها:

ومُغْتَرِبٍ بالمَرْجِ يَبْكِي لِشَجْوِهِ ... وقَدْ غَابَ عنه المُسْعِدُونَ على الحبِّ
إذا ما أَتَاه الرَّكْبُ مِنْ نَحْو أَرْضِهِ ... تَنَشَّقَ يَسْتَشْفِي بِرَائحةِ الرَّكبِ

وكانت حاذقة في الغناء وضَرْبِ العود فغَنَّتْ بهما، فلما سمع الرشيد الصوت علم أنها قد اشتاقت إلى العراق وإلى أهلها فأعادها، ومن شعرها:

كَتَمْتُ اسمَ الحَبِيبِ عن العِبَادِ   ورَدَّدْتُ الصَّبَابَةَ في فُؤَادِي
فوا شَــــوْقِي إلى نادٍ خَلِيٍّ   لعلّي بِاسْــــمِ مَنْ أَهْوَى أُنَادي

ومن كلامها أيضًا:

تَجَنَّبْ فإنَّ الحُبَّ داعيةُ الحبِّ   وكَمْ مِنْ بَعِيدِ الدَّارِ مُسْتَوجِبُ القُرْبِ
تَبَصَّرْ فإنْ حَدَّثْتَ أَنَّ أخا الهَوَى   نَجَا سالمًا فارْجُ النَّجاةَ مِنَ الحُبِّ
وأَطْيَبُ أيامِ الفَتَى يَوْمُه الذي   يُرَوّع بِالهِجْرَانِ فيه وبالعَتْبِ
إذا لم يَكُن في الحُبِّ سُخْطٌ ولا رِضَى   فأين حَلاَوَاتُ الرَّسائلِ والكُتبِ

وكانت علية تساجل الأدباء وتناظر العلماء فكانت بالمشرق كَوَلاَّدَة بنت المُسْتَكْفِي بالله بالمغرب، وكانت صيانتها بقدر شرفها بخلاف ولادة المذكورة، فإنها قد برعت في الحسن، والجمال، والبهاء، والكمال، واللطف، والدلال، وكانت عالمة كاتبة شاعرة لها مجلس تُمَدُّ فيه الموائد ويجتمع بها فيه العلماء والفضلاء والشعراء والأدباء، وكانت بدون تكليف لكنها عفيفة، وكانت كثيرًا مّا تقول:

إنِّي وإِنْ نَظَرَ الأَنَامُ لبَهْجَتِي   كظِبَاءِ مَكَّةَ صيدُهُنَّ حَرَامُ
يُحسَبْنَ مِنْ لَينِ الكَلاَمِ فَوَاحِشَا   ويَصُدُّهنَّ عَنِ الخَنَا الإِسْلاَمُ

وكانت بقرطبة جالسة لاستجلاء محاسن النظم والنثر، وقد ولع بها ابن زيدون، وصدرت بينهما المراسلات، وأنشأ فيها رسالته الزيدونية فتكلم الناس فيها، وما أحسن كلام ابن زيدون في خطابه لها بقوله:

إنيّ ذكرتُكِ بالزَّهْرَاءِ مُشْتاقًا والأُفْقُ طَلْقٌ ووَجْهُ الأرضِ قد رَاقَا
والرَّوْضُ عن مائه الفِضِّي مُبْتَسِمٌ كما حَللتْ عن اللَّبَّات[1] أَطْوَاقَا
وللنَّسيم اعْتلاَلٌ[2] في أَصَائله[3] كأنــــه رَقَّ لِي فاعتَلَّ إشْفَاقَا
لا سَكَّن اللهُ قلبًا عِنْدَ ذِكْرِكم إنْ لم يَطِرْ بِجَنَاحِ الشَّوْقِ خَفَّاقَا
لو شَاء حَمْلِي نَسِيمَ الريحِ نَحْوَكُمُ وَفَّاكُم بفتى أضنــــاهُ مَا لاقَى
الآن أَحْمَـدُ مـــا كُنَّا لِعَهْدِكُمُ سَــلَوْتم وبَقِـــينَا نَحْنُ عُشَّاقَا

وقد ساعده الدهر أن زارته وذهبت بعد أن ودّعته، فقال:

وَدَّعَ الصَّبْرُ مُحِبًّا وَدَّعَكْ ذَائعًا من سِرِّه ما اسْتَوْدَعَك
يَقْرعُ الســـنّ على أن لمْ يَكنْ زاد في تِلْكَ الخُطَا إذ شَيَّعَك
يا أَخَا البَدْرِ سَنَاءً وَسَنَا حَفِظَ اللهُ زَمَانًا أَطْلَعَك

(١) اللَّبَّات: جمع اللَّبَّة: وهي وسط الصدر والنحر. (م).
(٢) اعْتِلاَل: مرض. (م).
(٣) أَصَائِل: جمع أصيلة، وهي ما كان بعد النهار من العشي. (م).

إنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكَمْ   بِتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَك

قال صاحب الخريدة: وكانت ولادة هذه غريبة الدهر فريدة العصر قلّ أن يسمح الزمان بمثالها أو يجود الحسن بعدها بجمالها. قال صاحب قلائد العقيان: إن شعر ولادة أستحي أن أقول إنه شعر امرأة؛ فإنه تعجز عنه فحول الرجال وهو:

ولَمَّا أَبَى الوَاشُونَ إلا فِرَاقَنَا   ومالَهُمُو عندي وعِنْدَكَ مِنْ ثَارِ
وشَنُّوا على أَسْمَاعِنَا كُلَّ غَارَةٍ   وقَلَّ حُمَاتِي عند ذاك وأنصاري
غَزَوْتُهُمُو من مُقْلَتَيْكَ وَأَدْمُعِي   ومن مُهْجَتِي بالسَّيفِ والسَّيلِ والنَّارِ

وقد تقدّم نسبة هذه الأبيات لحمدة الأندلسية، ومن شعرها خطابًا لابن زيدون وكانت تميل إليه أيضًا:

تَرَقَّبْ إذا جَنَّ الظَّلاَمُ زِيَارتِي   فَإِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَكْتَمَ للسِّرِّ
فَبِي مِنْكَ ما لو كان بالشَّمْسِ لم تُنِرْ   وبالبَدْرِ لم يَطْلُعْ وبالنَّجْمِ لَمْ يَسْرِ

قيل ومن شعرها:

أَلْحَاظُكُم(١) تَجْرَحُنَا في الحَشَا   ولَحْظُنَا يَجْرَحُكُم فِي الخُدودِ

---

(١) أَلْحَاظُكُم: نَظَرَاتُكم. (م).

جُرْحٌ بِجُرْحٍ فَاجْعَلُوا ذَا بِذَا ... فَمَا الذي أَوْجَبَ جُرْحَ الصُّدُودِ

قال بعضهم: مثل هذا الشعر كثير على امرأة، وقال العماد في الخريدة: إن بعض الكنيين من أهل مصر يقول إن هذين البيتين لمحمد بن علي بن أبي الغمر المنعوت أنجب الدين الهاشمي الإسنائي الذي قال في الخمر:

عَذْرَاءُ تَفْتَرُّ عن دُرٍّ عَلَى ذَهَبٍ ... إذا صَبَبْتَ بها ماءً على لَهَبِ
وَافَى إليها سِنَانُ المَاءِ يَطْعَنُها ... فاسْتَلأَمَتْ زَرْدًا[١] من فِضَّةِ الحبب[٢]

انتهى. وفي بعض الدواوين عزو البيتين للقاضي عبد الوهاب المالكي، وتشبه أبيات ولادة أيضًا أبيات سلمى بنت القراطيسي من أهل بغداد، وكانت مشهورة بالجمال والأدب:

عُيونُ مَهَا الصَّرِيمِ[٣] فِدَاءُ عَينِي ... وأَجْيَادُ الظِّبَاءِ فِدَاءُ جِيدِي
أُزَيَّنُ بالعُقُودِ وإِنَّ نَحْرِي ... لأَزْيَنُ للعُقُودِ من العُقُودِ
ولا أَشْكُو من الأَوْصَابِ[٤] ثِقَلاً ... وتَشْكُو قَامَتِي ثِقَلَ النُّهُودِ

---

(١) اسْتَلأَمَتْ زَرْدًا: لَبِسَتْ الدرع. (م).
(٢) الحَبَبْ: ما يُتَحبَّبَ من بياض الريق على الأسنان، والمراد أنها منعته عن ثغرها بأسنان يشبه بياضها بريق الفضة. (م).
(٣) الصَّرِيمِ: الهاجر الذي قطع صلته بأحبائه. (م).
(٤) الأَوْصَاب: الأسقام. (م).

ولما بلغت هذه الأبيات المكتفي قال: اسألوا عنها هل تصدّق صفتها أقوالها؟ فقالوا: ما يكون أجمل منها، فقال اسألوا عن عفافها، قالوا: هي أعف الناس، فأرسل إليها مالاً جزيلاً فقال: تستعين به على صيانة جمالها ورونق أدبها، فإنعام المكتفي عليها من غير أن ينظرها مكتفيًا بسماع أوصافها هو من قبيل قول الشاعر:

عَشِقْتُكُم مِنْ قَبْلِ رُؤْيَـــــاكُم   لحسْنِ وَصْفٍ مِنْكُمُ قد جَرَى
كَذَلِكَ الجَنَّــــــــةُ مَعْشُوقَةٌ   لِوَصْفِهَا من قَبْـــلِ أَنْ تُبْصَرَا

وقول الآخر:

يا قَوْمُ أذني لِبَعضِ الْحَيِّ عَاشِقَةٌ   والأُذنُ تَعْشَقُ قَبْلَ العَيْنِ أَحْيَانَا

وأما عائشة البيعونية الفاضلة العالمة فكانت من أكابر النساء المتصوّفات مشغولة بالعبادة والزهد والورع، تقول الشعر الغريب على لسان الصوفية أو في مدح الرسول الحبيب، وتذكر ذلك في معرض الغزل الرقيق، وكلامها مقبول وبحسن القبول حقيق، فمن ذلك بديعيتها التي عُدّت من البدائع وفاقت بمطلعها على أكثر المطالع؛ حيث قالت في الاستهلال وأجادت في المقال لاسيما وأنها في مدحه ﷺ:

في حُسْنِ مَطْلَعِ أَقْمَارٍ بذِي سَلَمٍ أَصْبَحتُ في زُمْرَة العُشَّاقِ كالعَلَمِ
أَقُولُ والدَّمْعُ جَارٍ جَارِحٌ مُقَلِي والجَارُ جَارٍ بِعَذلٍ فيه مُتَّهَمِ
يا للهَوَى في الهَوَى روح سَمَحْتُ بها ولم أَجِدْ رُوحَ بُشْرى منهم بهم
وفي بُكَائِي لِحَالٍ حَالَ مَنْ عَدِمَ لَفَّقْتُ صَبْرًا فلم يُجْدِ لمنعِ دَمِي
يا سعدُ إن أَبْصَرْت عَينَاك كاظمةً وجئت سِلَعًا فَسلْ عن أَهلِها القِدَم
فَثَمَّ أَقْمَــــارٌ تُمٌّ نازلــــين على طُوَيْلِع حَيِّهِم وانْــــزِلْ بِحَــــيِّهِمِ

إلى آخرها وكلها مُلَح، وقالت في الغزل:

كأنَّما الخَالُ تحت القِرْطِ في عُنُقٍ بَدَا لَنا مِنْ مُحَيَّا جُلِّ مَنْ خَلَقَا
نجمٌ بَدَا في عَمُودِ الصُّبْحِ مُسْتَتِرًا تحت الثُّرَيَّا بِقُربِ الشَّمْسِ فاحْتَرَقَا

فانظر إلى اختراع هذا المعنى في الخال تجده كالمعجز من ربات الحجال. وما أحسن قولها من قصيدة تقفو فيها قصيدة ابن زريق البغدادي في البحر والقافية التي مطلعها:

لا تَعْذِلِيهِ فإنَّ العَذْلَ[1] يُولِعُهُ   قد قُلْتِ حَقًّا ولكنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ

إلى أن قال فيها:

وَدَّعْتُهُ وَبِــــوُدِّي لو يُوَدِّعُنِي   صَفْوَ الحَــــيَاةِ وَأَنِّي لا أُوَدِّعُهُ

فقالت:

وَدَّعْتُهُ وجَمِيلُ الصَّبرِ وَدَّعَنِي   إذْ ذَاكَ والقَلْبُ مِنِّي سَارَ يَتْبَعُهُ
وصِرْتُ لا صَبرَ لي حَتَّى أَلُوذَ به   ولا فُؤادِي أرجِّي العَذْل يَنْفَعُه
أُذْرِي الدُّمُوعَ فتُذْكِي في الحَشَا لهبًا   النَّأْيُ أَسْعَرهُ والشَّوْقُ نَوَّعَه
وما يَئِسْتُ وَلكِنِّي على طَمَعٍ   بأنَّ شَمْلِي بِهِم مَولاَي يَجْمَعُه
نَذْرٌ عَلَيّ لَئِن وَافَى البَشيرُ بِهِم   لأَبْذُلَنَّ لَــــه مَــــالِي وأَخْلَعُه
وأَجْعَلُ الرُّوحَ منيِّ من مَنَائِحِه   إنْ نِلْت مَا أرتجي صاحي توقعه

(١) العَذْل: اللوم. (م).

وقالت من بحر وقافية عينية بن الفارض في مدحه ﷺ:

سَحَائبُ جَفْنِي بالدُّموعِ هَوَامعُ[١] إذا لاَحَ مِنْ تِلقَاءِ يَثْرِبَ لامِعُ
وصَبْري مَغْلُوبٌ وشَوْقِي غَالِبٌ وحُبِّي مَطْبُوعٌ ووَجْدِيَ طَابِعُ
ودَمْعِي مَطْلُوقٌ وقَلْبِي مُقَيَّدٌ ولُبِّي مَنْزُوعٌ وفِكْرِي يُنَازِعُ
وأَصْلُ حَدِيثي في الغَرَام مُصَحَّحٌ وفي النَّاسِ مَشْهُورٌ وفي الخَلْقِ شَائعُ
ولي سِيرةٌ في الحُبِّ سَارَ بسَيْرِهَا حَلِيفٌ وَلُوعٌ بالمَحَبَّةِ وَالِعُ
وأَصْبَحتُ فِيهَا في المحبينَ قُدْوَةً وكُلٌّ لأَثَرِي مُقْتَفٍ ومُتَابعُ
وشَوْقِي سَمِيرٌ[٢] والهُيَامُ مُصَاحِبٌ ووَجْدِي قَرِينٌ والغَرَامُ مُضَـاجِعُ

إلى أن قالت في التخلص:

وهذا غَرَامٌ لَيْسَ فيهِ تَصَنُّعٌ عَلَيهِ دَلِيلٌ لَيْسَ فيهِ تَنَازُعُ
بِأَعْظَمِ مَحْبُوبٍ وأَشْرَفِ مُرْسَلٍ وأَفْضَلِ مَبْعُوثٍ له اللهُ رَافِعُ

(١) هَوَامِع: سوائل. (م).
(٢) سَمِير: مُسَامِر ومؤنس. (م).

وهي قصيدة طَنانَّة، وقالت محاكية لتائية ابن الفارض قصيدة مطلعها:

سَقَاني حُمِيًّا[1] الحبِّ مِنْ قَبْل نَشْأَتِي ... ومِنْ قَبْلِ وِجْدَاني طَرِبْتُ بِنَشْوَتِي
وأَشْهَدُ في لُطْفِ الجَمالِ كما يَشَا ... بما شَـــاء لَمَّا شَاءَ أَخْذَ شِهَادَتِي
وأَوْدَعَ سِرِّي سرّ سرّ يَجِلُّ عن ... إِحَاطَتِهِ بالفَهْمِ أو بالبَصِيرَةِ
فَجَلَّ عُلُوًّا عن إِحَاطَة حَادِثٍ ... وعزَّ جَلالاً عن فُهُومِ الخَلِيقَة
وأَسْمَعَنِي مِنْه خِطَابًا يَجِلُّ عن ... تَأَلُّف أَنْوَاعِ الحُرُوفِ بنغمة
خِطَابًا إليه ما بَرِحْتُ مشوقةً ... أُعَلِّلُ قلبي بالسَّمَاعِ ومُهْجَتِي
وصَيَّرَني في جَامعِ الحبِّ والهَوَى ... أُحَيْعِلُ[2] للعُشَّــــاقِ أهل المَحَبَّة
ومِنْ عَرفَات الحُبِّ قُمتُ بموقفٍ ... تأخَّرَ عنه كلُّ صَاحِبِ عِلَّةِ
ووَادِي مِنَى منه بَلَغْتُ المُنَى به ... بجمع بِلاَ فَرْقٍ بمُنْيَة مُنْيَتِي
نَحَرْتُ له نَفْسِي خِلافًا لأمْرِهَا ... فَسَلَّمَهَا من كلّ سوءٍ وفِتْنَة
ولَمَّا تَبَدَّى للبَصِيرَة ما سِوَى ... حبيبي فانٍ باطلٍ في الحقيقة
وأَنْ ليسَ إلا ذَاتُهُ وصِفَاته ... وأَفْعَالُهُ والغيرُ آثارُ قدرةِ
وأنَّ فِعَالَ الخَلْقِ مِنْ بَعْضِ خَلْقِهِ ... ولم يَمْلِكُوا مِنْ أَمْرِهِم بَعْضَ ذَرَّةِ

(١) حُمِيًّا: شدة حرارته. (م).
(٢) أُحَيْعِل: أدعو. (م).

تَلاشَى سِوَاهُ فِي عِيَانِ بَصِيرَتِي ولم أَرَ إلا هو بعَيْنِ الحقيقةِ
ولي فيه قَلْبٌ مع ذُنُوبِيَ وَاثِقٌ بعفوٍ ليجْلِيهَا وإِنْ هِيَ جَلَّتِ

وهي قصيدة طويلة جدًّا ولها مقطعات رائقة منها:

مَنْ لي بِرَايَاتِ سَعْدٍ فِي وُرُودِيَ مِنْ عينِ الحَيَاة بِوَصْلٍ فيـــه راءاتُ
رَوْحٌ ورَاحٌ[1] ورَوْقٌ[2] ورونحةٌ[3] ورُؤيَةٌ ورَياحِــــــــينٌ ورَاحَاتُ

ومنها:

متى يُقَالُ إلى الحَانَاتِ لِي هيا وأنظر الوَصْلَ للكَاسَاتِ لِي هيَّا
ومُنْيَةُ القَلْبِ بالملآنِ لي حيَّا وأصبحَ المَيْتُ مِنِّي بالرَّوَا حيَّا

ومنها:

لقَـــــدْ بَلَغْتُ الأَمَــــلاَ مِمَّنْ لَهُ كُـــــلُّ مَـــــــلاَ
أَجْلَسَـــــنِي فـــــي حَانِهِ لَمَّاسَــــــــقَانِي ومَـــــلاَ
مُدَامَـــــــــةٌ أَقْــــدَاحُها خَـــــزَائِنُ اللهِ المَـــــــلا

---

(١) رَوْحٌ وراح: راحة وريح طيبة. (م).
(٢) رَوْقٌ: إعجاب. (م).
(٣) رونحة: رنح الرجل: تمايل من السكر. (م).

ومنها:

أَجِدُ التَّذَلُّلَ في هَــــوَاك لَذَاذَةً   والبُعدَ قُرْبًا والشَّـــــقَاءَ نَعيمَا
والبؤسَ نُعْمَى والتَّقَاطُعَ وَصْلَةً   والْمَوتَ مَحْيَا وَالبَـــــلاَ تَكْرِيمَا

ومنها:

أَلاَ حَبَّذَا مِنْ خَمْرَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ   بها في قُلُوبِ الشَّارِبِين لَهَا نَهْبُ
وإِنْ تَبْغِ إِيضَاحًا فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ   هِيَ الشَّمْسُ إِلاَّ أَنَّ مَطْلَعَهَا القَلْبُ

ومنها:

عَذُولِي لو عَلِمْتَ بما يُعَاني   فُؤادِي في الهَوَى أَوْضَحْتَ عُذْرَه
ولو ذُقْتَ الوِصَالَ وذُقْتَ هَجْرَا   لَصِرْتَ بِحَــــالَةٍ للنـاسِ عِبْرَه

ولها ديوان شعر سلكت فيه مسلك أهل التصوّف وأكثرت فيه بمدح شيخها الجيلاني، ويستفاد منه أنها كانت متزوّجة وأن لها أولادًا.

وبالجملة، فكم لها من فتوحات إلهية ومنحات(١) صمدانية ذكرت أهل عصرها الذي هو بها فريد الفتوح على رابعة العدوية التي فيض بحرها بسيط

(١) مِنْحَات: عطايا. (م).

مديد بعد أن كانت مثقلة بالذنوب مُكَبَّلة بقيود العيوب. ولنذكر هنا قصة رابعة العدوية وسبب توبتها لما فيها من الموعظة لذوات الألباب من النسا، ولكل من تمادى قلبه على الذنوب وقسا، فنقول:

حكي عن ذي النون المصري رحمه الله تعالى أنه قال: بينا أسير في بعض السياحة في الجبال والأودية والقِفَار[1] إذ رمتني المقادير إلى وادٍ يقال له وادي المستضعفين بأرض مصر فتمشيت فيه حتى انتهيت إلى ساحل البحر، وكان زمن النيل فاشتقت إلى الركوب في المراكب، فجلست إلى الأرض ساعة وإذا بسفينة سائرة فقمت وناديت يا أهل السفينة عسى أن تحملوني معكم، فلم يلتفت إليّ أحد منهم فجلست، وإذا بسفينة ثانية مقلعة فقمت إليهم وناديتهم، فقالوا: يا شيخ إن كان معك دراهم حملناك وإلا فاجلس مكانك، قال: فجلست، وإذا بسفينة ثالثة مقلعة أيضًا، وإذا فيها حس أوتار ونغمة مزمار، قال: وكانت معهم رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية وهي تشرب الخمر قبل توبتها، قال: فقمت إليهم وقلت: عسى أن تحملوني معكم، فعرفني رجل منهم، وقال لي: يا شيخ ما أنت ذو النون؟ فقلت: نعم، فقال: أنت رجل صالح ونحن قوم عصاة نشرب الخمر فكيف ركوبك معنا، فقالت رابعة: يا قوم احملوه معكم وأنا أفتنه بحسني وجمالي، قال: فحملوني معهم وساروا حتى توسطنا البحر، فقام شاب منهم فملأ كأسًا من الخمر ووقف به على رأسي وأنشأ يقول:

(١) القِفَار: الأراضي الخالية من النبات والماء. (م).

وخَمَّار دَخَلْتُ إليـــــهِ لَيْلاً وجُنْحُ[١] اللـــــيلِ مُسْوَدُّ الجَنَاح
فقال مَنِ الفتىَ فَأجَبْتُ ضَيْفٌ تَسَرْبَلَ[٢] بالمَكَـــــارِمِ والسَّمَاحِ
فَقَـــــام إلى دِنَانٍ مُتْرَعَاتٍ[٣] مُفَدَّمَةٍ[٤] بكَافُـــــورٍ رَبَاحِي[٥]
وفضَّ خِتَامَهَا عَجِلاً فَلاَحَتْ على الظَّلْمَاءِ أَنْوَارُ الصَّبَاحِ

قال: ثم شرب الكأس وجلس وقام من بعده شاب آخر فملأ الكاس ووقف مثله وأنشأ يقول:

وصِحْنَا ببابِ الدِّيرِ يَا سَعدُ يا فَتَى وقد جاءَنَا بالرَّاحِ تَجْلُو نَفَائِسَا
طَرَقْنَا عليه الدِّيرَ في غَسَقِ الدُّجَا سُكَارَى بكَاسَاتِ الهوى وتَنَاعَسَا

وشرب ذلك الكاس ثم جلس، فقامت رابعة وقالت: ما تقدرون على ذي النون، أنا أفتنه بحسني وجمالي، ثم قالت: يا ساقي املأ الكاس، فملأه، فأخذته من يده، ووقفت على جانب السفينة، ونظرت إلى ذي النون، وجعلت تقول:

يَا لَيْلَةٌ باتَ نَـــــدِيمي بها مَلِيحَةُ الرِّدفِ كَعُوبٌ رَدَاح
شَبَّهْتُهَا والكـــــاسُ في كَفِّها بَدْرَ الدُّجَى يَحْمِلُ شَمْسَ الصَّبَاح

(١) جُنْح: جانب. (م).
(٢) تَسَرْبل: تلبَّس. (م).
(٣) مُتْرَعات: مملوءات. (م).
(٤) مُفَدَّمة: مُشْبعَة حُمْرَة. (م).
(٥) رَبَاحِي: موضع يُنْسَب إليه الكافور. (م).

ثم قالت: ياذا النون اشرب بكاسنا، فقال: ويحك لقد شربت بكاسٍ إذا شربه العليل لم يحتج إلى طبيب، وإذا شربه الصادق لم يفتر عن الخالق، فنادت يا ذا النون إن لم تشرب من شرابنا وإلا فاسقنا أنت من شرابك، فقلت: يا جارية أوتشربين من شرابنا؟ قالت: إي والله، قلت: فإذًا أبطلوا الأوتار واتركوا المزمار واسمعوا ما أقول، ثم قمت ونفضت مرقعتي وأنشأت أقول:

أَحْسَـــــنُ مِنْ قَيْنَةٍ وَمِزْمَارِ في غَسَقِ اللَّيْلِ نَغَمَةُ القَارِي
يا حُسْـــنَهُ والجَليلُ يَسْمَعُهُ بِطِيبِ صَوْتٍ وَدَمْعُهُ جَارِي
وَخَـــدُّهُ فـــي التُّرَابِ مُنْعَفِرٌ وقَلْبُهُ فـــي مَحَبَّةِ البَـــارِي
يقولُ يا ســـيِّدي ويا سَنَدِي أَشْغَلَنِي عَنْكَ ثِقْلُ أَوْزَارِي

قال: فزعقت رابعة ووقعت مغشيًّا عليها، فلما أفاقت نادته: يا ذا النون، والله لقد وقع دواؤك على دائي، فاسقني من شرابك وزدنا من أشعارك، فوقفت على جانب السفينة وقلت:

أَفِقْ مِنْ رَقْـــدَةِ السُّكْرِ وَدَاوِ القَـــلْبَ بالذِّكْـــرِ
فهذا اللَيَّـــلُ قَـــدْ وَلى ولاَحَـــتْ أَنْجُمُ الفَجـــرِ
تَرَفَّـــــقْ أَيُّهـــا السَّاقي قَتَلْتَ القَـــوْمَ بالسُّـــكْرِ
شَرِبْنَا لَيْـــلةَ الجَمْـــعِ وكَـــانَتْ لَيْلَةَ القَـــدْرِ

فعند ذلك قامت رابعة وقطعت ما كان عليها من الحلي والحلل، وعمدت إلى قلع السفينة فقطعت منه قطعة وتسترت بها، ورمت بنفسها في البحر في ظلام الليل، فقال ذو النون: وا أَسَفَى عليها، وظننا أنها غرقت فإذا بها تنادي على البر وهو معكم أينما كنتم، قال ذو النون: وسارت السفينة إلى أن أتينا إلى مسجد موسى عليه السلام فأقمت فيه عامين ثم اشْتَقْتُ إلى الحج، فبينا أنا أطوف إذ رأيت جارية متعلقة بأستار الكعبة، وهي نحيلة الجسم دقيقة العظم عليها أطمار من الصوف، وهي تنادي وتقول: بحبك لي إلا ما غفرت لي، قال ذو النون: فقلت لها كيف تقولين بحبك لي؟ كيف تعرفين أنه يحبك؟ فنادت: يا ذا النون لولا أن مولاي يحبني ما منّ علي بتوبته وواصلني إلى بيته الحرام، فقلت: من أعلمك باسمي؟ فقالت: لا إله إلا الله وقع التناكر بعد المعرفة، أنا الجارية التي تبت على يديك في السفينة، قال: فسلمت عليها وقلت لها: وأين ذلك الحسن والجمال؟ فقالت:

ذَهَبَتْ لَذَّةُ الصِّبَا فِي المَعَاصِي وَبَقِي بَعْدَ ذَاكَ أَخْذُ القِصَاصِ
ومَضَى الحُسْنُ والجَمَالُ وَمَالي عملٌ أَرْتَجِيهِ يَوْمَ الخَلاصِ
غَيْرُ ظَنِّي بِاللهِ وَهْوَ جَمِيلٌ فيه أَخْلَصْتُ غَايَةَ الإِخْلاَصِ

ثم قالت: يا ذا النون، أنت اليوم ضيفي فهل تشتهي شيئًا من الفاكهة؟ فقلت لها: من أين لك هذا في غير أوانه؟ فقالت: اجلس ولا تعترض حتى آتيك بما طلبت، فجلست ثم مضت الجارية إلى شعاب مكة، فما كان بأسرع أن جاءت وعلى يديها مائدة عليها عنب وتين ورمّان، فوضعته بين يديه وقالت: كُلْ بسم الله، فمددت يدي لآكل، فاختلج في قلبي وقلت: لي في عبادة الله اثنتان وسبعون سنة ما نلت هذه المنزلة ولهذه الجارية عامان فنالت؟! فبكت الجارية، فقلت: لم تبكين؟ قالت: كيف لا أبكي وقد اختلج في صدرك كذا وكذا؟ فقلت: سبحان الله ومن أعلمك بهذا؟ قالت: يا ذا النون، والله ما نلت هذه المنزلة إلا ببركتك؛ لأني أتيت مقام أبينا الخليل عليه السلام وصليت ركعتين، وقلت: إلهي بحرمة ذي النون لا تخجلني بين يديك، فلم أشعر إلا وهذا الطبق عن يميني، وإذا النداء يا رابعة: خذي هذا الطبق وانطلقي إلى ولينا.

وهذه الحكاية على كل حال لا تخلو عن التعريف بقدر ذي النون ورابعة، وأنهما من أكابر الزهاد الذين لهم قدم في العلوم اللدنية فارعه. ومما ينسب إلى رابعة العدوية قولها:

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالحَيَاةُ مَرِيرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى والأَنَامُ غِضَابُ
ولَيْتَ الَّذي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عامِرٌ وبَيْنِي وبَيْنَ العَالَمِينَ خَرَابُ
إذا صَحَّ مِنْكَ الوُدُّ فالكُلُّ هَيِّنٌ وكُلُّ الَّذي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

ومما ينسب إليها أيضًا:

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ الهَوى وَحُبًّا لأنَّك أَهْلٌ لِذَاكَ
فأمَّا الذي هو حُبُّ الهَوى فكشْفُكَ للحُجبِ حتىَّ أَرَاكَ
وأمَّا الذي أَنْتَ أْهَلٌ له فتَجْرِيدُ قَلْبِيَ عَمَّنْ سِوَاكَ

وقد اجتمع عندها علماء وزهاد وتفاوضوا في ذم الدنيا وهي ساكتة فلاموها، فقالت: من أحب شيئًا أكثر من ذكره إما بحمد أو ذم، فإن كانت الدنيا في قلوبكم لا شيء فلِمَ تذكرون لا شيء أي الدنيا.

وقد تَسَمَّى برابعة عدّة نساء غير أن الأعيان منهنّ ثلاث، الأولى: رابعة العدوية بنت إسماعيل البصري وهي صاحبة الترجمة، والثانية: رابعة بنت إسماعيل الدمشقية القدسية، وقد شاركت الأولى في اسمها واسم أبيها، والثالثة: رابعة بنت إبراهيم بن عبد البر البغدادية، وتسمى رابعة بغداد. وقبر رابعة العدوية – رضي الله عنها – بالبصرة وهو معروف ومشهور هناك، ورابعة الدمشقية بالقدس دفنت على رأس جبل هناك معروف بالطور، وإنما عرفت بالقدسية لدفنها هناك، ورابعة البغدادية دفنت ببغداد، وكانت وفاة رابعة العدوية البصرية سنة خمس وثلاثين ومائة في خلافة السفاح، وقيل سنة خمس وثمانين ومائة.

فجميع هؤلاء النساء مجموع فيهن معنى الحسن والجمال باطنًا وظاهرًا، من كل ما يتكفل لهنّ بوصف الكمال، فليست المعارف والآداب في النساء إلا محامد كالرجال، فلا يعاب قول الشعر بجميع أنواعه من ربات الحجال، فكيف لا وإنه يروى عن أبي تمام أنه قال: لم أنظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديوانًا للنساء دون الرجال، وهذا مما اطلع عليه من الدواوين القديمة، فما بالك بغير ذلك من المقطعات والقصائد، فالأدب في النساء جمال ثانٍ معنوي وهو مكمل لجمالهنّ.

لأن الأصل في المحاسن والمطلوب عند العقلاء في جميع المواطن إنما هو إصلاح السرائر لا مجردّ الجمال الظاهر، وإنما ضم إصلاح الظاهر إلى إصلاح الباطن لتحصيل الكمال، ولما فيه في الأغلب من الدلالة على الاعتدال، وتتمته تحسين المقاصد، وإصلاح العقائد، والانقياد إلى الأوامر الإلهية، وتلقي ما في الصحف السماوية كما أشار إليه صاحب المراتب الباطنة والظاهرة وقطب دائرة الكائنات في الدنيا والآخرة «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد الجسد ألا وهي القلب»، وصلاحه بملازمة الشريعة المطهرة والتخلق بأخلاق صاحبها المضيئة النيرة. وأما المحاسن الظاهرة التي فيها غالب النظم والنثر فهي الحسن الصريح، وهو ما استنطق بالتسبيح، والصحيح أنه معنى لا يدرك اختلفت فيه العبارات وكثرت فيه الاستعارات، والخلاف إنما هو في الألفاظ والمعنى المطلوب واحد في سائر الموارد، كما قيل:

عِبَارَاتُنَا شَتىَّ وحُسْنُكَ وَاحِدٌ وكُلٌّ إلى ذَاكَ الجَمَالِ يُشِيرُ

ولذلك قال بعضهم:

فَكَمْ بينَ حُذَّاقِ الجِدَالِ تَنَازُعٌ وما بَيْنَ عُشَّاقِ الجَمَالِ مُنَازِعُ

ومما يستحسنه الطبع والشرع في الجمال الظاهر التزين والطيب.

الفصل السابع

في استحباب الزينة والطيب للنساء

من المعلوم أنه مما يليق بالمرأة استعمال الزينة في الملبس، ويكون ذلك بأحسن الألوان المألوفة في كل عصر بحسبه، وأما عند العرب فأحسن ألوان الزينة إلباس المصبغات بالحُمْرَة والصُّفْرَة، وكانت العرب تستعمل ذلك للعروس عند هدائها، وعنهم أخذها الناس، ولملازمتهم استعمال ذلك صارت ثياب العروس عندهم عَلَمًا على الثياب المصبوغة، روي عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قالت: أدركت نساء من أزواج النبي ﷺ وما جل لباسهن إلا العصب والمعصفر، والعصب نوع من الوشي.

قال الشاعر:

فَخُـــــذِي مَلابسَ زِينَةٍ وَمُصْبَغَـــــاتٍ هُنَّ أَفْخَـــرُ

وإذا خَرَجْتِ تَقَنَّعـــــي بالحُمْرِ إِنَّ الحُسْـــنَ أَحْمَـــرُ

ومن الزينة للنساء التحلي بالذهب والفضة وأنواع الجواهر، وإن كان بعضهم يفضل العاطلة على المتحلية، قال الشاعر:

وإذا الدُّرُّ زَانَ حُسْنَ وُجُوهٍ كان للدُّرِّ حُسْنُ وَجْهِك زَيْنَا
وتَزِيدينَ أَطيبَ الطِّيبِ طِيبًا أن تَمَسِّيه أَيْنَ مِثْلُك أَيْنَا

وقال آخر:

وآنقُ[١] من عَقدِ العَقِيلةِ جيدُها وأحسنُ من سِرْبَالِهَا المُتجَرِّدِ

وقال آخر:

لَعَمْرُكَ مَا شَوْهًا[٢] بِحَلْيٍ تَزَيَّنَتْ كحُسْنًا وإنْ كَانتْ عن الحَلْي عَاطِلَةْ
إذا ما ادَّعَتْ حُسْنًا وتَزْوِير حَلْيِها شُهُودٌ فدَعوَى صَاحبِ الزُّورِ بَاطِلَةْ

ومن أبيات الحماسة:

لَعِبَ النَّسِيمُ بِهنَّ في أَظْلاَلِه حتَّى لَبِسْنَ ثِيابَ عَيْشٍ غَافِلِ
يأخُذْنَ زينتَهُنَّ أَحْسَنَ ما تَرَى فإذا عَطَلْنَ فهُنَّ غَيرُ عَوَاطِلِ
وإذا خَبَأن خُدودَهُنَّ أَرَيْنَني حَدقَ المَهَا وأَخَذنَ نَبْلَ القَاتِلِ
يَرْمِينَنا لا يَسْتَتِرنَ بِجُنَّةٍ إلاَّ الصِّبا وَعَلِمْنَ أين مَقَاتِلِي
يَلْبَسْنَ أَرْدِيَةَ الشَّبَابِ لأَهلِها ويجرُّ بَاطِلُهُنَّ ذَيْلَ البَاطِلِ

---

(١) آنَقُ: أعجب. (م).

(٢) شَوْهًا: قبحًا. (م).

وقال آخر:

أَتَى عَاطِلُ الجِيدِ يَوْمَ النَّوَى ... وقد حَـــــانَ مَوْعِدُنَا للفِرَاق
فَقَلَّدْتُهُ بِـــــلاَلِي الدُّمُوع ... ووشَّـــــحْتُهُ بنِطَاقِ[1] العِنَاق

ومما يستحب للمرأة، بل وللرجل استعمال الطيب، فقد ورد عنه ﷺ «حُبِّبَ إليّ النساء والطيب»، وفي رواية «حُبِّبَ إلي من دنياكم ثلاث النساء والطيب، وجُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة»، ونظم ذلك بعضهم في قوله:

إليّ مِنْ دُنْيَــــاكُمُ ... أَضْحَتْ ثَــــلاَثٌ مُشْتَهَاه
الطّيبُ والنِّسَـــــاءُ مَع ... قُرَّةِ عَيْنِي فِي الصَّــــلاة

وأشار بقوله «حُبِّب إلي» أنه ما أحبها بنفسه، بل حببها إليه الله ﷻ، ولم يذكر الفاعل تعظيمًا له أو لتطهيره عن اللسان غيرة عليه، كما قيل:

وَإِيَّـــاكَ واسْمَ العَامِرِيَّةِ إِنَّنِي ... أَغَـــارُ عَلَيهـــا من فَمِ المُتَكَلِّم

أو لكونه معلومًا لكل أحد، وإنما قال: «من دنياكم» فأضافها لغيره إشارة إلى أنه فيها كالغريب المسافر، ولها أهل سواه وهو من أهل الله لا من أهلها، وإنما حُبِّب

(١) نِطَاق: كل ما شُدَّ به وسطه. (م).

له هذه من أمور الدنيا ليستقرّ بها ويتقيد بقيودها مدّة سكناه فيها لأداء الأمانة وتبليغ الرسالة دعوة للعالمين وتكميلاً لهم، فقد قيدت نفسه بالنساء وقيد قلبه بالطيب ووجهه بالصلاة، وخصت هذه الأشياء بالذكر وإن كانت دنيوية معينة على الأمور الأخروية؛ لأنّ النكاح سنة أكيدة حتى قال عليه الصلاة والسلام: «النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وأما الطيب فلأنه يقوي القلب والروح فيلطف السر ويعين على إدراك المغيبات والإلهام، وأما الصلاة فعماد الدين ومعراج المؤمنين، وهذه الثلاثة من نعيم الجنان فهي دنيوية ظاهرًا أخروية باطنًا، وكان النبي ﷺ يتطيب لقدوم الملائكة، والملائكة تحب الطيب، وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل الثَّوم والبصل فيقول: إني أناجي ما لا تناجون، وقال ﷺ: «من أكل ثوْمًا أو بصلاً فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا»، وأكلهما يبيح ترك الجمعة والجماعة، وفي معناهما الكراث والفجل، ولما كان عليه الصلاة والسلام ظاهره في الدنيا وباطنه في الآخرة كان محبوبه كذلك مناسبًا له، وقدمت النساء لأنها أمّهات وأصول فرتبتهنّ التقديم، ولأن بهنّ يتخلى العارف عن الشواغل النفسانية، والطيب تحلية، والتخلية مقدّمة عليها، والنساء والطيب مقدَّمتان، والصلاة نتيجة، فَأُخِّرَتْ وإن كانت أشرف.

ويقال إنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر هذا الحديث قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله وأنا حُبِّبَ إِلَيّ من الدنيا ثلاث؛ النظر إليك وإنفاق مالي عليك والجهاد

بين يديك، وقال عمر رضي الله عنه: وأنا حُبِّبَ إلي من الدنيا ثلاث؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة حدود الله، وقال عثمان رضي الله عنه: وأنا حُبِّب إلي من الدنيا ثلاث؛ إطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام، وقال علي رضي الله عنه: وأنا حُبِّب إلي من الدنيا ثلاث؛ إكرام الضيف والصوم في الصيف والضرب بالسيف، فنزل جبريل فقال: وأنا حُبِّب إلي من الدنيا ثلاث؛ إغاثة المضطرين وإرشاد المضلين والمؤانسة بكلام رب العالمين، ونزل ميكائيل فقال: وأنا حبب إلي من الدنيا ثلاث؛ شاب تائب وقلب خاشع وعين باكية، وقد حسده اليهود على حب النساء فقالوا ما همه إلا ذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ** ﴾ [النساء/ ٥٤] الآية.

فلما بلغ ذلك الإمام أبا حنيفة قال: وأنا حُبِّب إليّ ثلاث؛ تحصيل العلم في طول الليالي، وتَرْك التعاظم والتعالي، وقَلْبٌ من أمور الدنيا خالي، فلما بلغ الإمام مالكًا قال: وأنا حُبِّب إلي ثلاث: مجاورة الرسول في روضته وملازمة تربته وحجرته وتعظيم أهل بيته وعترته(١)، فلما بلغ الإمام الشافعي رضي الله عنه قال: وأنا حُبِّب إليّ ثلاث؛ عِشْرَة الناس بالتلطف وترك ما يؤدي إلى التكلف والاقتداء بطريق التصوف، فلما بلغ الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه قال: وأنا حُبِّب إلي ثلاث: متابعة النبي صلى الله عليه وسلم في أخباره، والتبرك بعظيم أنواره، وسلوك الأدب في سننه وآثاره.

(١) عِتْرَته: أقرباؤه. (م).

(عود لبدء) ثم إن الطيب مندوب إليه في الشرع لمن قصد المقاصد الشرعية من تعظيم أيام الجمع والأعياد مثلاً، وأن يدفع عن نفسه ما يكره من الروائح الخبيثة، وأن يدخل على الناس بشم ذلك راحة، وأن يظهر نظافته ومروءته بين إخوانه وأهله، وأن يقوّي دماغه وقلبه لتأثير الطيب في تقوية هذه الأعضاء، فالطيب كله من أعظم لذات البشر وأقواها لدواعي قضاء الوطر، وقولهم في المثل: لا عطر بعد عروس، يضرب لتأخير الشيء عن وقت الحاجة إليه، قيل إن أصل المثل أن رجلاً تزوّج امرأة فوجدها شعثة، فقال لها: أين عطرك؟ فقالت: خبأته لوقت غير هذا، وقيل في تفسيره غير هذا، وقال يزيد بن معاوية في أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر:

إِنَّهَا بِنْتُ عَامـــــرِ بن لُؤَيّ حِين تُدْعَى وبِنْتُ عَبدِ مَنَافِ
ولَهَا فِي المطيبينَ جُـــدُودٌ ثم نَالَتْ ذَوَائِبَ الأَخْلافِ
لا تَرَاهَا على التعطُّر والبذ لة إِلاَّ كَـــدُرَّةِ الأَصْدَافِ

وسئلت عائشة رضي الله تعالى عنها عن الزينة الظاهرة فقالت: هي الكحل والخضاب، وورد الحرص على التكحل بالإثمد في غير ما حديث، وقال فيه رسول الله ﷺ: «إنه خيرًا كحالكم يجلو البصر وينبت الشعر»، وما أحسن قول بعضهم:

وأَحْوَر[1] يَصْطَادُ القُلُوبَ ومَا له   من الرِّيشِ إلا زَعْفَرانٌ وإِثْمِدُ
وما كُنتُ أَخْشَى الفَتْكَ ممن سِلاحُهُ   سِوَارٌ وخُلْخَالٌ وطَوْقٌ مُنَضَّدُ

وخضاب البنان عند العرب ممدوح، بل وخضاب اليد كلها أيضًا، قال بعضهم: رأيت قينة خضبت يدها بالحمرة ونقشت فيها بالسواد وهي تنشد هذا البيت:

لَيْسَ حُسْنُ الخِضَابِ زَيَّنَ كَفِّي   حُسْنُ كَفِّي مُزَيِّنٌ للخِضَاب

وما أحسن قول بعضهم في وصف مليحة جامعة لأوصاف الحسن:

تَبَدَّتْ فهذا البَدْرُ من كَلَفٍ بها   وحَقُّكَ مِثْلِي في دُجَى اللَّيْلِ حَائِرُ
ومَاسَتْ فشَقَّ الغُصْنُ غَيْظًا ثِيَابَه   أَلَسْتَ تَرَى أَوْرَاقَهُ تَتَنَاثَرُ
وعاجت[2] فأَلقَى العُودُ في النَّارِ نَفْسَهُ   كذا نَقَلَتْ عنه الحَرِيقَ المَجَامِرُ
وقالت فَغَارَ الدُّرُّ واصْفَرَّ لَوْنُه   كَذَلِكَ مازَالَتْ تَغَارُ الضَّرَائِرُ

(١) أَحْوَر: شدة بياض العين مع شدة سوادها. (م).
(٢) عاجت: رفعت صوتها. (م).

وقال آخر:

بَذَلْتُ لَهَا مِنْ أَدْمُعِ العَيْنِ جَوْهَرَا   وقِدْمًا حَكَاها في الصِّيَانَةِ والسِّتْرِ
فقَالَتْ وأَبْدَتْ مِثْلَهُ إذ تَبَسَّمَتْ   غَنِيتُ بهذا الدُّرِّ عن ذلك الدُّرِ

ومن السنن المطلوبة والآداب المرغوبة لكل من الرجل والمرأة استعمال السواك؛ لأنه يجلو الأسنان ويقوّيها ويطيب النكهة ويجلو البصر، ولم يكن في عهد النبي ﷺ أكثر استعمالاً للسواك من نسائه ﷺ، وسواك الأراك من أحسن ما يُسْتَاكُ به، ومن أحسن ما قيل فيه:

هَنِيئًا عَلَى رَغْمِي لِعُودِ أَرَاكَةٍ   تَسُوكُ بها الزَّلْفَاء مَبْسَمَها العَذْبَا
لئن شَبِعَتْ مِنهُ لقد زَارَ ثَغْرُهَا   أراكًا يبيسًا فانْثَنَى مَنْدلاً رَطْبًا

وقال آخر:

سَقَتْنِي بكاسِ الحُبِّ صَرْفًا مُروّقًا   رِقَاقَ الثَّنَايَا عَذْبَةَ المترنّقِ
وخَمْصَانَةٌ[١] تفْترُّ عن مُتَنسّقٍ   كَنَوْرِ الأَقَاحِ[٢] طيِّبِ المتذوّق
إذا امتَضَغَتْ بعد امتِنَاعٍ من الضُّحَى   أَنَابِيبَ من عُودِ الأَرَاكِ المُخَلَّقِ
سَقَتْ شُعَبَ المِسْوَاكِ مَاءُ غَمَامةٍ   فَضِيضًا[٣] بِخُرطُومِ الرَّحِيقِ المروَّق

(١) خَمْصَانَةٌ: ضامرة البطن. (م).
(٢) الأَقَاح: نبت طيب الرائحة. (م).
(٣) فَضِيضًا: مُفرقًا. (م).

وقال آخر:

وتَجْلُو بِفَـــــرْعٍ من أَرَاكٍ كأنَّه   من العَنْبَرِ الهِنْدِيِّ والمِسْك يُصْبِحُ
ذُرَى أُقْحُوان وَاجَهَ اللَّيْلَ وارْتَقَى   إليه النَّدَى من رَامةِ المتروِّحُ
هِجَانُ الثَّنَايَا مُعْرِبُ لو تَبَسَّمَتْ   لأَخْرَسَ عَنْه كَادَ بِالقَوْلِ يُفْصِحُ

ومما يحسن هنا على ذكر السواك قوله:

باللهِ إن جُزْتَ بِوَادِي الأَرَاكِ   وقَبَّلَتْ أَغْصَانُه الخُضْرُ فَاكَ
فابْعَثْ إلى المملُوكِ مِنْ بَعضِها   فإنَّني واللهِ مَـــــالِي سِوَاك

ولبعضهم:

عَجِبْتُ من المِسْوَاكِ يَرْشُفُ رِيقَهَا   مَدَى الدَّهْرِ لم يَمْنَعْهُ مِنْ ذَاكَ مَانعُ
ويَبْقَى جَمَادًا كَيْفَ لم يَحْي بالحَيَا   وتَفْنَى اللَّيَالِي وهو أَخْضَرُ يَانعُ
رُضَابٌ يَقُومُ المَيِّتُ إِنْ شَمَّ عَرْفَهُ   ولو قُطِعَتْ أَوْصَالُهُ والأَضَالعُ
فقال خَشِيتُ الهَجْرَ منها فعَاقَني   فَحَسْبُك عُذْرٌ في جَوابِيَ قَاطِعُ
بنفسيَ ثَغْرٌ قُلْتُ إذ لاَحَ نُورُهُ   أَبَرْقٌ بَدَا من جَانِبِ الغَوْرِ لاَمِعُ
وبَرْدُ رُضَابٍ قُلْتُ عِنْدَ وَدَاعِه   زمانَ اللِّقَا بِالخَيْفِ هَلْ أَنْتَ رَاجِعُ

وقال الصلاح الصفدي:

يا ثَغْرَه لَيْس الثَّنـــايا الـــتي تُضُـــيء غَـــيرَ الأَنْجُمِ الغُرِّ
فليَنْقُل المِسْــــوَاكُ ما عِنَــــده يَروي عن الضَّحَّــــاكِ والزَّهرِ

وقال آخر:

نَقَلَ الأَرَاك بأنّ رِيقَةَ ثَغْرِهِ من قَهْوَةٍ مُزِجَتْ بماءِ الكَوْثَرِ
قد صَحَّ ما نَقَلَ الأراكُ لأَنَّه يَرْوِيه حَقًّا عن صِحَاحِ الجَوْهَرِ

ومما يُحْكَى من النوادر أن بعض الظرفاء حج سنة، فلما رجع تاه يومًا عن الطريق فمر بخباء على بابه امرأة لم ير أحسن منها وجهًا، فأعرض بوجهه عنها فنادته لا تعرض عني، فأنا التي لا يتم حجك إلا بي، فقال لها ومن أنت؟ فقالت: أنا التي قال فِيَّ الشاعر:

تَمَامُ الحَــجِّ أَنْ تَقِفَ المَطَايَا عَلَى لَمْيَاءَ وَاضِعَــــة النِّقَابِ
تُصَــدِّقُ حين تُبْصِــرُهَا بِحُورٍ وُعِدْتَ بِهَــنَّ في أُمّ الكِتَاب
تَقُولُ لِوَجْهِهَا سُـــبْحَانَ مَوْلَى يُصَوّر مِثلَ هَـــذَا مِنْ تُرَابِ

قال: فقلت لها حمى الله هذا الوجه من العار، ولا عذبه في الآخرة بالنار، وأخرجت سِوَاكًا فناوَلْتُها إياه، وقلت: هذا السواك هدية الحجاج، فقالت: لا تقل سواك، بل قل أراك، ورفعت وجهها إلى السماء وقالت:

لا أَقُولُ السِّوَاكَ مِنْ أَجْلِ أَني   إِنْ ذَكَرْتُ السِّوَاك قُلْتُ سِوَاكَا
بَلْ أَقُولُ الأَرَاكَ مِنْ أَجْلِ أَني   إِنْ ذَكَرْتُ الأَرَاكَ قُلْتُ أَرَاكَا

قال: فَصَرَخْتُ وأغمي عليّ ووضعت رأسي على مقدّم الكُور[1]، فما رفعت رأسي إلا وناقتي على الطريق المسلوك، فذهبت وكنت أدعو الله كثيرًا أن يرزقني مثلها في الدنيا والآخرة، انتهى.

وقد أكثر الشعراء من التشبيهات الغريبة فيما يخص النساء وزينتهنّ وما يتحلين به مما هو معلوم في كتب الأدب.

وكما أن الزينة من المرأة ممدوحة فكذلك هي ممدوحة من الرجل بما يلائمه، فقد روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها «كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج يريدهم فجعل يُسوّي شعر رأسه ولحيته، قالت: فقلت يا رسول الله، رأيتك تفعل هذا، قال: نعم، إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه

---

(١) الكُور: الرَّحل بأداته. (م).

فإن الله جميل يحب الجمال، انتهى. والنساء يحببن من رجالهنّ التزين لهنّ كما يحبون أن يتزين لهنّ، قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة/٢٢٨] أي يتزين الرجل للمرأة كما يحب أن تتزين له، والمرأة تحب وجاهة زوجها، وذكر بعض شراح المقامات أن معن بن زائدة بينما هو جالس ذات يوم إذ أتته امرأة من بني سهم أحسن الناس وجهًا، فقالت: أصلح الله الأمير، إن عمي زوّجني من ليس لي بكفء، فقال معن: عَلَيَّ بزوجها؛ فَأُدْخل عليه رجل من أقبح الناس، فقال: من هذه منك؟ فقال: امرأتي، فقال: خَلِّ سبيلها، ففعل الرجل ذلك وأطرق معن ساعة، ثم قال:

أَتَيْتَ بِهَا مِثْلَ المَهَاةِ تَسُوقُها ... فيا حُسْنَ مَجلُوبٍ ويا شَرَّ جَالِبِ
لَعَمْرِي لقد أَصْبَحْتَ غَيْرَ مُحَبَّبٍ ... لَدَيْها فَفَـــارِقْهَا فِـــرَاقَ الأَجَانِبِ

ولبعضهم:

ألا رُبَّ حَوْرَاء المحَاجِرِ طَفْلَةٍ ... تُساقُ إلى وَغْـــدٍ من القَوْمِ تِنْبَالِ
يقــولــون جَرّتها إليـــه قَـــرَابةٌ ... فَوَيْح العَذَارَى من بَنِي العمِّ والخَالِ

والوغد الرجل الدنيء، والتنبال القصير، ومما يحُكَى في مثل هذا أن عمران بن قحطان دخل على امرأته حمدة وقد تزينت له وكانت جميلة، وكان عمران

قصيرًا قبيحًا، فلما نظر إليها ازدادت في عينه حسنًا فلم يستطع أن يصرف بصره عنها، فقالت: مالك؟ قال: أصبحت والله جميلة، فقالت له: أَبْشِر فإني وإياك في الجنة، قال: من أين علمت هذا؟ قالت: أُعْطِيتَ مِثلي فشكرت، وأُعْطِيتُ مِثلَك فصبرت، والشاكر والصابر في الجنة، فخجل ونهاها أن تعود لمثل ما قالت، وبالجملة فما أحسن قول من قال:

ليتَ الملاح ولَيتَ الرَّاحَ قد قُرِنا   في جَبْهَةِ اللَّيْثِ أو في قُبَّةِ الفَلَكِ
كي لا يَرْشف مِنْ خَمرٍ سِوَى أَسَدٍ   ولا يُقبّل مَعْشُوقًا سِوَى مَلِكِ

فمشاكلة الطبع للطبع توجب محبة الزوجين بدون أن يكون أحدهما في الباطن متحملاً ثقلاً من الآخر، لاسيما النساء فإنهنّ أَشَدّ مَيْلاً للتزين والتبرج والتنافس في الملاحة، يملن طبعًا لمن يمدحهنَّ بالجمال، فهذه الصفات عندهنّ موانع قوية من بلوغ درجة الكمال في التربية بدليل محاورة حمدة مع زوجها عمران بن قحطان وإحجاله، فلو كانت مؤدّبة صادقة لم يسمع منها مثل هذا الكلام؛ لأن المحبة تأباه والصداقة تستره.

الفصل الثامن

في الكلام على المحبة والصداقة بين الزوجين وغير الزوجين

تُطْلَقُ المحبة على ما يرادف العشق والمودّة والصداقة، فتعرّف على الأول بأنها الانجذاب الطبيعي الحاصل من تصوّر أوصاف المحبوب من الحسن ونحوه، فيتولد العشق فجأة بدون فكر ولا نظر على حسب مزاج العاشق قوّة وضعفًا، فقد يعشق الإنسان المرأة لوسامتها أو لتبسمها أو لسماع صوتها أو لرشاقة قَدِّها، قال الشاعر:

أَتَــاحَ لك الهَوَى بِيضٌ حِسَانٌ ... سَبَيْنَكَ[1] بِالعُيُــــونِ وبالشُّعُورِ
نظرتَ إلى النُّحُورِ فكِدْتَ تَقْضِي ... وأَوْلَى لو نظرْتَ إلى الخُصُورِ

وقال آخر:

صَادَتْــــكَ مِنْ بِعْضِ القُصُورِ ... بيــــضٌ نَواعِــمُ في الخدورِ
حُورٌ تَحُــورُ إلى صِـــبَا ... ك بأعينٍ منهــــنَّ حُــورِ

---

(١) سَبَيْنَك: أَسَرْنَك. (م).

وكأنما بِثُغــــــورهــــــنّ جَنَى الرُّضَاب[١] من الخُمُورِ
يصبغن تُفَّـــــاحَ الخُـــدودِ بماءِ رُمَّـــــانِ الصُّدُورِ

وقال آخر أيضًا:

إنَّ الخُدودَ إذا بَدَا تَوْرِيـــدُها نَارُ قُلوبِ العاشقينَ تَزيدُها
كَادَتْ تَسِيرُ مع النَّسيمِ نُفُوسُنا شَــغَفًا بها لَوْلاَ الجُفُونُ تَقُودُها

ثم يقوى العشق تارة بنفسه، وتارة بأسباب جديدة جاذبة، كما أنه قد ينقطع بأسباب نادرة كقساوة قلب المعشوق وهجره وإساءته والغيرة عليه، قال الشاعر:

ولَقَـــد شَــكَرتُ مُفَارِقي إذا سَـــاءَ فِـــي أَخْلاقِهِ
لو كان أَحْسَـــنَ عِشْــرَتِي لَهَلكْتُ يَــــوْمَ فِرَاقِـــه

وقال آخر:

إنْ خَــــلاَ[٢] مَـــلَّ مِنَّا خِلْنَـــا باللهِ مِنْــــهُ
هـــولا يَسْـــأَلُ عَنَّـــا مَا لَنَـــا نَسْـــأَلُ عَنْهُ

---

(١) الرُّضاب: الرِّيق. (م).
(٢) خَلاَ: فرغ. (م).

ومما لا يسامح فيه في مذهب المحبين التشريك في المحبة والتبديل والتغيير فيها، قال بعضهم في المعنى الأول:

تَرَكْتُ حَبِيبَ القَلْبِ لا عَنْ مَلالَةٍ ... ولَكِنْ جَنَى ذَنْبًا يُؤَدِّي إلى التَّرْكِ
أَرَادَ شَرِيكًا في المَحَبَّةِ بَيْنَنَا ... وإِيمَانُ قَلْبِي لا يَمِيلُ إلى الشِّرْكِ

وقال آخر يخاطب من يحب:

عَمْرَكَ[1] اللهُ لا تَمِلْ لِسِوَائِي ... وتَحَكَّم ولو بِمَا فيـــــه فَتْكِي
وانْظُرِ الحَقَّ في عُلا عُلاه ... كلُّ شَيءٍ يَمْحُوه غيرَ الشِّرْكِ

وما أحسن قول بعضهم من قصيدة:

كم سَهَّلَ خَدَّك وَجْهُ رِضَى ... والحَـــــاجِبُ مِنْـــكَ يُعَقِّدُه
ما أَشْرَكَ فِيكَ القَـــلْبُ فلِمَ ... فِـــي نَـــــارِ الهَجْـــرِ تُخَلِّدُهُ

وقال آخر في المعنى الثاني يخاطب محبوبته:

إِنْ كُنْتِ أَزْمَعْتِ عَلَى هَجْرِنَا ... مِنْ غَيرِ ما ذَنْبٍ فَصَبرٌ جَمِيلُ
وإِنْ تَبَــدَّلْــــتِ بِنَا غَيْرَنَا ... فَحَسْــــبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيــــلُ

---

(١) عَمْرَكَ اللهَ: أَطَال عمرك. (م).

وهذا في معرض التشريك والتبديل، وهناك إعراض يصدر عن المحبوب لمحض الدلال والخفر فليس بمذموم، قال الشاعر:

أَيُّهَــــــا الْمُعْـــرِضُ عنَّا إِنَّنَـــــــا نَهْـــوَى الدَّلالا
أَتُرَانَـــا قَــــطُّ قُلْنَـــــــا حَسْـــــبُكَ اللهُ تَعَــــالى

ولعله عرض بقول الشاعر:

يَا رَائحًـــا بَعْدَ مَا سَـــبَاني يَهْدِيكَ رَبُّ السَّـــما تَعَالى

والغالب أن هذا المعرض الأخير قد يكون سببًا لبقائه ورسوخه، فمن هذا يُفْهَم أن الحب في مبدئه اختياري، وبعد ذلك يصير اضطراريًّا؛ وذلك لأن الرجل تمرّ به المرأة فيكون ظاهر هيئتها وشكلها مشاكلاً لطبعه فتتحرّك نفسه وتنبعث همته من أوّل نظرة، فهذا لا يكون عشقًا؛ لأنه يمكنه أن لا يكرر النظر في الأوصاف، فإذا كرر النظر ازداد الحب، كما قيل:

لا تُكْثِــــــــرَنَّ تَأَمُّـــــلاً واحْبِسْ عَلَيكَ عِنَـــانَ طَرْفِك
فَلَـــــرُبَّمَا أَرْسَـــــــلْتَهُ فَرَمَـــاك في مَيْــــدَانِ حَتْفِك

وقال آخر:

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا إذا مَا زِدْتَهُ نَظَرَا

وإن حصلت مخالسة أو رؤية أو حصل من المحبوب نظر تِيهٍ وإعجاب افتتن المحب بالجمال ووقع من الحب في أسر الحبال، ودخل في عداد المحبين فلا يعدّ على هذا عاشقًا إلا بعد تلك المقدّمات، فكان يمكنه حسم المادّة بعد النظرة الأولى، فيفهم من هذا أنه في مباديه اضطراري ثم يصير اختياريًّا، وإن شئت قلت إن ابتداءه اضطراري واستمراره اختياري؛ ولذلك قال بعض العرب إنه نبتٌ بذرُه النظر وماؤه المزاورة ونماؤه الوصل وقتله الهجر وحصاده التجني، ويقال أيضًا أوّل الحب النظر وأوّل الحريق الشرر، قال بعضهم:

كُلُّ الحَوادِثِ مَبْدَاهَا من النَّظرِ ومعظمُ النَّارِ من مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كم أَثَّرَتْ نَظْرَةٌ في قَلْبِ صَاحِبِهَا فِعْلَ السِّهَامِ بلا قَوْسٍ ولا وَتَرِ
والمرءُ مَادَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُها في أَعْيُنِ العِينِ مَوْقُوفٌ على الخَطَرِ
مَنْ سَرَّ مُقْلَتَهُ قَدْ سَاءَ مُهْجَتَه لا مَرْحَبًا بِسُرورٍ جَاءَ بالضَّررِ

وقال الأصمعي: كنت في بعض مياه العرب فسمعت الناس يقولون: قد جاءت فتحرّك الناس فقمت معهم، فإذا جارية قد وردت الماء ما رأيت مثلها قط في حسن وجهها وتمام خلقتها، فلما رأت كثرة تشوّف الناس إليها أرسلت

برقعًا فكأنه سحابة غطت شمسًا فقلت لها: لم تمنعين النظر إلى وجهك الحسن؟ فقالت:

وكُنتَ متى أَرْسَلْتَ طَرْفَك رَائِدًا لِقَلْبِـــــكَ يَوْمًا أَتْعَبَتْهُ النَّواظِرُ
رَأيتَ الذي لا كُلّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْه ولاَ عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

ثم نظر إليها أعرابي وقال: أنا والله ممن قَلَّ صبره:

أَوَحْشيَّة العَيْنَين أَيْن لَكِ الأَهْلُ أَبالحَزَنِ حَلُّوا أم محلِّهم السَّهلُ
وأيَّةُ أَرْضٍ أَخْرَجَتْك فإنني أَرَاكِ من الفِرْدَوْسِ أن فتشَ الأصلُ
قِفي خَبِّرِينَا ما طَعِمْتِ ومَا الذي شَربتِ ومِنْ أَيْن استَقَلَّ بكِ الرَّحْلُ
لأن علاماتِ الجِنَانِ مُبِينَةٌ عليكِ وأَنَّ الشكلَ يشبهُهُ الشَّكْلُ

قال الأصمعي: قلت هذا والله هو السحر الحلال، والعذب الزلال، والبدر السامي؛ فكأني بها وقد ذكرت له الأهل ووصفت له المحل من الحزن[1] والسهل، هنالك يأتيها سعيًا على الرأس لا سعيًا على القدم، وتكون وَجَنَاتُها الحمر أَحَبُّ إليه من حُمُرِ النِّعَم، انتهى. يعني أن شعره أثر في قلبها فيرجى له منها الوصال.

(١) الحَزَن: ما غلظ واشتد من الأرض. (م).

والعشق قسمان: عشق الحواس وعشق القلب، فعشق الحواس المجرّد عن عشق القلب شهواني ينتهي بالوصال ولذة الاتصال، وأما عشق القلب الذي هو العشق الحقيقي فهو حُبٌّ قلبِيٌّ يرسخ في النفس مادامت أسبابه التي جذبت القلب إلى المعشوق راسخة، فإذا عشق الإنسان صفات محبوبه وكانت هذه الصفات خيالية ومجرد استحضارات تصوّرية، كان العشق محض خيال وتصوّر، فإذا انجذب القلب لمحاسن وجودية ثم انقضت فإن العاشق يستصحب الأصل نوعًا، يعني أن العقل يدرك الحقيقة ويسكت عنها، فكل عاشق يمدح معشوقه بصفات الجمال الكاملة والمحاسن الشاملة، وكان قد فات زمانها فإنه إنما يشاهدها بعين الاستحضار ويبصرها ببصيرة التذكار، فإذا وصف محبوبه بما ليس فيه لا ينسب إلى الكذب، وإذا تمدّح بشمائل محبوبه لا يعدّ من أرباب السخافة والطيش، وإنما عقول السامعين تقبل منه ما يقوله ولا تحكم بوجوده.

وبالجملة فالحب يُعمي بصيرة العاشق، ويُشوّش ذهن الوامق[١]، ويملك روحه ويتسلطن عليها، كما ورد عنه ﷺ: «الحب يعمي ويصم»، ومن ثم كان للعاشقين أوهام لا تُحصى ووساوس لا تُستقصى تجلب إليهم ملامة اللوّام وعذل العواذل في جميع الوقائع والنوازل، ومع أنه بهذه المثابة لا يخلو من المثالب[٢] ولا

---

(١) الوَامِق: المحب. (م).

(٢) المَثَالِب: العيوب. (م).

يخلص من الشوائب إلا أنه يختلف في كل إنسان باختلاف طبعه واستعداده الخاص به ووضعه، فيكون على حسب قابلية عقله وأصول تربيته وعقائده وعرف بلده وعوائده، فيتبع طبيعة الإنسان المستحكمة فيه ويطاوع ميله الغريزي في باطنه وخافيه، فقد كانت طبيعة بَوَادِي بلاد اليونان في قديم الأحقاب والأزمان ساذجة وعوائد أهلها بسيطة، وعيشتهم مستوية وأفكارهم دائمًا في الراحة والاطمئنان، فكانوا يحسُّون بالعشق إحساسًا لطيفًا، وينظمون فيه الشعر ويتغَّنْون به بخلاف الرومانيين، فإن أهل مدينة رومة -دار سلطنتهم- كانوا قديمًا أرباب زينة ورفاهية خارجة عن حدّ العادة وأخلاقهم فاسدة فكانوا يحتفلون بالعشق الشهواني ويُطْرُونَه وينهمكون فيه؛ فلذلك كانت اللذات مُسلَّطة على حواسهم فما كأنهم مخلوقون إلا للشهوات وما كأن الشهوات مخلوقة إلا لأجلهم.

وأما قدماء العرب فكانوا أشبه بقدماء اليونان في بساطة عوائدهم واستواء عيشتهم وراحة قلوب أهلهم، إلا أن إحساسهم بالعشق مع العفة كان عنيفًا قويًّا لاسيما بني عُذْرَة الذين يُنْسَب إليهم الهوى العُذْرِيّ، فكانوا غالبًا شهداء العشق قتلى المحبة ولا يخلو قلب أحدهم من الحب؛ قال الشاعر:

أنا أُفْتِى إِنَّ تَرْكَ الحُبِّ ذَنْبُ   أَثِمُ في مَذْهَبي مَنْ لاَ يُحِبُّ
ذُقْ عَلَى أمْرِي مَرَاراتِ الهَوَى   فهو عَذْبٌ وعَذابُ الحبِّ عَذْبُ
كلُّ قَلْبٍ لَيْسَ فِيه سَاكِنٌ   صَبوَة عُذْرِيَّةٍ مَا ذَاكَ قَلْبُ

حضر أعرابي بمجلس بعض الوعاظ فقال له: ممن الرجل؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا، فقال: عذري ورب الكعبة، ثم سأله علة ذلك، فقال: لأن في نسائنا صَبَاحَة[١]، وفي فتياننا عفة، فكان من العرب في القديم من هو متفرغ للعشق بالذات وهم أهل البادية لعدم اشتغالهم بالعوائق؛ ومن ثم كانوا أكثر الناس موتًا، وكان الفُرْس أيضًا يرغبون في العشق ويَحُثُّون عليه، كما حكي أن بهرام جور لم يرزق سوى ولد، فأخذ في ترشيحه للمُلْك وهو ساقط الهمة إلى أن اتفق المعلمون من الحكماء وغيرهم على أن لا نافع له غير العشق، فسلط عليه الجواري يعبثن به إلى أن علق بواحدة منهنّ، فأمرها الملك بالتجني عليه وأنها لا تطلب إلا رفيع الهمة وأرغبته في العلم والملك، فكان بسبب ذلك من أَجَلّ ملوك الفرس وأعلمهم، قال بعضهم:

وما سَرَّني أَنِّي خَلِيٌّ مِنَ الهَوَى ... ولو أَنَّ لي ما بينَ شَرْقٍ إلى غَرْبِ

قيل لبعضهم: هلاَّ عشقت حتى تكاتب وتراسل؟ فقال: لا، فقيل له: لن تفلح والله أبدًا، وقالت امرأة في العشق:

رَأَيْتُ الهوى حُلْوًا إذا اجتَمَعَ الشَّمْلُ ... ومُرًّا على الهِجْرَانِ لا بَلْ هو القَتْلُ
ومَنْ لم يَذُقْ للهَجْرِ طَعْمًا فإنه ... إذا ذَاقَ طَعْمَ الحُبِّ لم يَدْرِ ما الوَصْلُ

---

(١) صَبَاحَة: جمال. (م).

وقد ذُقْتُ طَعْمَيْهِ على القُرْبِ والنَّوَى   فَأَبْعَدُهُ قَتْلٌ وأَقْرَبُه خَبْلُ[١]

قال بعضهم:

قُرْبُ النِّسَاءِ يلذُّ ناعم لَمْسِهِ   ويَفُتُّ في عَظْمِ القَوِي الرَّاسِي
مِثلُ الحلاوَةِ للّسَانِ صَدِيقَةٌ   لكنَّها حَرْبٌ على الأضْرَاسِ

وقال بعضهم: إن أقل مزايا العشق تعليم الكرم والشجاعة والنظافة وحسن الأخلاق، وذلك أن غاية العشق رضى معشوقه، ورضى المعشوق اتصاف العاشق بما يوجب المدح ويحسن المرتبة في القلب، وإيضاح ذلك أن العاشق وإن بخل جدًّا فلا يمكن بخله على المعشوق، وإذا بخل على غيره ربما أوصل الغيرُ الأمرَ إلى معشوقه، فيجود العاشق فيؤدّي الحال إلى مطلق الكرم، وكذا باقي السجايا المذكورة؛ ولذلك جاء الناموس الشرعي بمطابقة القانون الحكمي كما هو شأن الشرع في غير هذا أيضًا، فقد رُوِي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ: «من عشق فصبر فعفَّ فكتم فمات فهو شهيد»، وشرط الشهادة الكتم والعفة، وإلى هذا المعنى أشار أبو القاسم القشيري بقوله:

إنَّ المُحِبَّ إذا تُوُفِّي صابِرًا   كانت مَنَازِلُه مَعَ الشُّهَدَاءِ

---

(١) خَبْل: جنون (م).

قال الحافظ مغلطاي: وقد أجمع العلماء على أن الحب ليس بمستنكر في الدين ولا بمحظور في الشرع، قال أبو محمد بن حزم: وقد أحب من الخلفاء والأئمة كثير، وقال رجل لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين رأيت امرأة فعشقتها، فقال له عمر: ذاك ما لا يملك. انتهى؛ ولذلك قال الشاعر:

يَلُومُونَنِي في حبِّ سَلْمَى كأنَّما يَرَوْنَ الهَوَى شيئًا تَيَمَّمْتُهُ عَمْدَا
أَلاَ إنما الحُبُّ الذي صَدَع الحَشَا قَضَاءٌ من الرَّحْمَنِ يَبْلُو بِهِ العَبْدَا

وسُئِل بعض الأطباء عن ماهية العشق فقال: إن وقوعه بأهله ليس باختيار منهم ولا بحرص لهم عليه ولا لذة لأكثرهم فيه، ولكن وقوعه بهم كوقوع العلل المُدْنِفَة[١] والأمراض المتلفة فلا ينبغي إنكاره على من ابتُلِيَ به بل يستحب مساعدته من غير تعنيف ولا زجر، كما فعله الصحابة والخلفاء الراشدون، وقال بعضهم المحبة أخذ جمال المحبوب بحبة القلب حتى لا يجد مساغًا للالتفات لسواه، ولا يمكنه انفكاك عنه ولا مخالفة لمراده، ولا وجود الاختيار عليه لوجود سلطان الجمال القاهر للحقيقة بتخلية المستفيض عليه دون اختيار منه ولا مهلة ولا رَوِيَّة، فإنّ مغازلة الجمال لا يشعر بها وأخذته لا يقدر عليها وحقيقة ما يتولد عنه لا يعبر عنها، فتنفى الأغراض وتفنى الحقائق والأعراض، فلا يبقى مع غير

(١) المُدْنِفَة: المُمرِضَة. (م).

المحبوب قرار ولا مع سواه إخبار، وقد قيل إنّ من العناية أن تحب ويحبك من تحب، ومن الشقاء أن تحب ولا يحبك من تحب، كما قيل:

وَمَا لِي أَنْصَارٌ سِوَى فَيضِ أَدْمُعِي   إذا بَاتَ مَنْ أَهْوَاه وَهْوَ مُهَاجِرِي

ويروى أن أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز وكانت من العابدات قالت لعزة ما معنى قول كُثَيِّر:

قَضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوَفَّى غَرِيمَهُ   وعَــــزَّةُ مَمْطُــــولٌ مُعَنًّى غَرِيمُهَا

ما كان هذا الدّين؟ قالت عزة: وَعدتُه قُبْلة ومَطَلْتُه بها، فقالت أمّ البنين: أنجزيها وعليّ إثمها ففعلت، ثم إنّ أم البنين ندمت على هذه المقالة على ما يقال، وأعتقت أربعين عبدًا عند الكعبة، وقالت: اللهم إني أبرأ لك مما قلته لعزة:

لو كَانَ للعُشَّاق في الحُبِّ حَاكِمًا   أَتَيْتُ إِلَيْه واشتكَيْتُ مِطَالَهُ
وأَثْبَتُّ فِي شَرْعِ المَحَبَّةِ حُجَّةً   عَلَيْه بِأنِّي أَسْـــــتَحقُّ وِصَالَه

وذهب بعض المحبين إلى استعذاب المطل[١] والتسلي به عن الوصل كما قال سلطان العاشقين الإمام شرف الدين بن الفارض:

---

(١) المطل: التسويف. (م).

عِدِيني بِوَصْلٍ وامْطِلِي بِنجَازِهِ فعِنْدِي إذا صَحَّ الهَوَى حَسُنَ المَطْلُ

حتى إن بعض المحبين يعدّ الوعد والأماني سبب الحياة، ولولا ذلك لمات، كما قال العفيف:

لَوْلاَ مَوَاعِيدُ آمَالٍ أَعِيشُ بِهَا لَمِتُّ يَا أَهْلَ هَذَا الحيِّ مِنْ زَمَنِ

وكأن ذلك يختلف باختلاف رُتَب المحبين في المحبة.

وكان أبو السائب المخزومي أحد القرّاء الورعين والظرفاء الصالحين يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، وقد رُئِي متعلقًا بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم ارحم العاشقين وقوّ قلوبهم وعَطِّفْ عليهم قلوب المعشوقين، فقيل له في ذلك؟ فقال: والله الدعاء لهم أفضل من عمرة في رجب من الجعرانة، ثم أنشأ يقول:

يا هَجْرُ كُفَّ عَنِ الهَوَى وَدَعِ الهَوَى للعَاشِقِين يَطِيبُ يا هَجْرُ
مَاذَا تُرِيدُ مِنَ الَّذِين قُلُوبُهم جَرْحَى وحَشْوُ حَشَاهُمُ جَمْرُ
مُتَلَذِّذِينَ من الهَوَى أَلْوَانُهُم مِمَّا تُجِنّ قُلُوبُهُم صُفْرُ
وسَوَابِقُ العَبَراتِ فَوْقَ خُدُودِهِم دُرَرٌ تَفِيضُ كَأَنَّهَا قَطْرُ

وبالجملة، فإن من الإنصاف التسربل بسربال العفاف، فحينئذ يكون المقصود من معنى الوصل ما قابل الهجران مادام القصد إنما هو تمتع النظر بحسان

الشمائل وشمائل الحسان، كما حكى بعضهم عن امرأة هويها وهويته أنه قال لها يومًا: هل لك أن نحقق ما قيل فينا؟ فقالت: معاذ الله أن أفعل ذلك وأنا أقرأ ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف / ٦٧]، وقال بعضهم:

أَهْوَى الحِسَانَ وأَهْوَى أَنْ أُخَالِطَهُم ... ولَيْسَ لِي في حَرَامٍ مِنْهُم وَطَرُ
فَذَلِكَ الحُبُّ لاَ إِتْيَانَ مَعْصِيَةٍ ... لا خَيْرَ في لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِها سَقَرُ

ولله دَرُّ القائل حيث يقول:

أُنَزِّهُ في رَوْضِ المحَاسِنِ مُقْلَتِي ... وَأَمْنَعُ نَفْسِي أَنْ تَنَال مُحَرَّمَا

وقلت:

أَقُولُ لَمَّا بَدَا والكَاسُ في يَدِهِ ... وجَوْهَرُ الخَمْرِ فِيَها مِثْلُ خَدَّيْهِ
حَسْبِي نَزَاهَةُ طَرْفِي في مَحَاسِنِهِ ... ونَشْوَتِي مِنْ مَعَاني سِحْرِ عَيْنَيْهِ

وسبب هذا كله مَيْل العرب لحفظ الناموس(١) والشرف في الأزمان القديمة، وكذلك في الحديثة فإنّ دين الإسلام يمنع جميع الآثام، شعر:

---

(١) النَّامُوس: صاحب السِّر. (م).

وحَلاوَةُ الإِيمَانِ مَنْ قَدْ ذَاقَهَا لَمْ يَخْشَ مَنْ شَرِقَ[١] بماءِ مُلامِ

ففي الأزمان المتأخرة أفكار الأهالي لاسيما في البلاد المتمدّنة متجهة صوب الشجاعة والحماسة ونظافة العِرض وحفظ الناموس، مع ما هم عليه من التعلق بالجمال مع الصون والكمال، فيتوصلون إلى جلب القلوب بالتلطف والاستعطاف، وينالون من نسائهم كمال الميل والانعطاف، وإن اختلف ذلك باختلاف الأقطار والأقاليم جنوبًا وشمالاً وشرقًا وغربًا، بل ربما رأيناه يختلف أيضًا باختلاف الحكومات العادلة والظالمة، وربما اختلف باختلاف مراتب الأمم والدول والملل والنِّحَل في درجات التمدّن والعمران.

وقد شبه بعض الظرفاء العشق بالشراب فإنه يختلف تعاطيه في المشرق والمغرب، وفي البدو والحضر، فالبدوي يروي منه الصدى[٢]، وربما صار الحضري بشربه مُعَرْبِدًا، ففريق منهما مُقِلّ والآخر مُكْثِر، وأما المتمدّن المتأدّب فمقتصد.

قال بعضهم: إن العاشق ينعشه آثار معشوقه ورؤيته في المنام وتذكاره، كما قال الشاعر:

---

(١) شَرِقَ: غُصَّ. (م).

(٢) الصَّدَى: العطش. (م).

يَرَاهَا بِعَيْنِ العِشْقِ قَلْبِي عَلَى النَّوى ... فيَحْظَى وَلكِنْ مَنْ لِعَيْنِي بِرُؤيَاهَا
إذا اسْتَوْحَشَتْ عَيْنِي أَنِسْتُ بِأَنْ أَرَى ... نَظَائِرَ تُصْبِينِي إِلَيْهَا وأَشْبَاهَا
وأَعْتَنِقُ الغُصْنَ الرَّطِيبَ لِقَدِّها ... وأَرْشَفُ ثَغْرَ الكَاسِ أَحْسَبُه فَاهَا

وقيل:

وهَيْفاءُ وَافَتْ بَعْدَ وَصْلٍ وأُلْفَةٍ ... وعَادَتْ إلى المُضْنَى(١) طَرِيحَ غَرَامِ
أُسَائِلُها يا مَنْ سَبَى القَلْبَ حُسْنُهَا ... مَتَى تَشْتَفِي بالوَصْلِ مِنْكَ سَقَامِي
فَقَالَتْ مَتَى الوَصْلُ الذِي كَانَ بَيْنَنَا ... وأَنْتَ أَخُو وَجْدٍ بِنَا وهُيَامِ
وَيكْفِيكَ أَنْ تَلْقَى خَيَالِي نَائِمًا ... فَقُلْتُ لَهَا هَيْهَاتَ أَيْنَ مَنَامِي

وقيل:

وَيْوم الكَثِيبِ اسْتَشْرَفَتْ لِي ظَبْيَةٌ ... مُولَّهةٌ(٢) قَدْ ضَلَّ بِالقَاعِ خَشْفَاها(٣)
فَمَا ارتَابَ طَرْفِي فِيكِ يا أُمَّ مَالكٍ ... على صِحَّةِ التَّشْبِيه أَنَّكِ إِيَّاهَا

---

(١) المُضْنَى: السقيم. (م).
(٢) مُولَّهَة: شديدة الحزن. (م).
(٣) خَشْفَاها: ولدا الظبية. (م).

وقال كُثَيِّر عزة في ظبية:

أَيَا شِبْهَ لَيْلَى لاَ تُرَاعِي فَإِنَّني لَكِ اليومَ مِنْ وَحْشِيَّةٍ لَصَدِيقُ
أَقُولُ وَقَدْ أَطْلَقْتُها مِنْ وَثَاقِهَا فَأَنْتِ لِلَيْلَى ما حَيِيت طَلِيقُ
فعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا وجِيدُكِ جِيدُهَا ولَكِنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْك دَقِيقُ

وقال آخر:

يا مَنْ سَبَى أَنْفَسَ البَرَايَا بِمَا بِجَفْنَيْهِ مِنْ فُتُورِ
أَشْبَهَك الظَّبْيُ في ثَلاثٍ في اللَّحْظِ والجِيدِ والنُّفُورِ

وقال آخر وتشطيره لمؤلفه:

باللهِ يا ظَبْيَاتِ القَاعِ قُلْنَ لَنَا هل اسْتَعَرْتُنَّ من لَيْلَى بَهَا الحَوَر
فَقُلْنَ مِنْها فَقُلْتُ الجِنْسُ مُخْتَلِفٌ لَيْلاي مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَى مِنَ البَشَرِ

وقال بعضهم في التذكار:

وجَرَتْ أَحَاديثُ الحِمَى[1] فَكَأَنَّما دَارَتْ هُنَالِكَ عِنْدَ ذَاكَ كُؤوسُ

---

(١) الحِمَى: مكان لا يقرب. (م).

يا سَائقَ الوَجْنَاءِ[1] أَلاَ عِدتَ لي ذِكْرَ الحِمَى كَيْمَا يَزُولَ البوسُ
وعَسَى بِذِكْرِى أَهْلِهِ وَأَثِيلِه[2] تَرْتَـــاحُ أَرْوَاحٌ لَنَـــا ونُفُوسُ
وإذَا القَصَائدُ طُرِّزَتْ بِمَدِيحِه يَوْمًا فَعَقْـــــدُ نِظَامِهِنَّ نَفِيسُ

وقال آخر:

وَاحَــــزَني مِــــنْ قَوْلِهَـــا خَـــانَ عُهُـــودِي وَلَهَـــا
وَحَــــقُّ مَـــــنْ صَيَّرَني عَبْدًا لَدَيْهَــــــا ولَهَـــــا
مَا خَطَـــــــرَتْ بِخَـــاطِرِي إلاَّ كَســــــــتَنِي وَلَهَـــا

وقال آخر:

وبِالجِذْعِ حَيٌّ كُلَّمَا عَنَّ ذِكْرُهُم أَمَاتَ الهَوَى مِنِّي فُؤادًا وأَحْيَاه
تَمَنَّيْتُهُمْ بالرَّقمَـــــتَين ودَارُهم بِوَادِي الغَضَى يا بُعْدَ ما أَتمَنَّاه

والعاشق يُرَى دائمًا مصفرّ اللون نحيف الجسم، أدق من خلالٍ، وأخفى من طيف خيالٍ، ويعهد منه المحبوب وغيره ذلك، كما قال بعضهم:

---

(١) وَجْنَاء: ناقة غليظة. (م).

(٢)أثيله: شرفه ومجده. (م).

تَقُـــــولُ لَمَّـــــا رَأتْنِي نِضْوًا[١] كَمِثْـــلِ الخِــلالِ[٢]
هَـــــذَا اللِّقَـــــاء مَنَامٌ وأَنْتَ طَيْـــفُ خَيـــالِ
فَقُـــلْتُ كَـــلاَّ ولَكِنْ أَسَـــاءَ بَيْنُكِ[٣] حَـــالي
فلَيْـــسَ تَعْـــرِفُ مِنِّي حَقِيقَـــتِي مِنْ مُحَـــالي

وشبه بعض النساء العاشق المهجور بالورد الذابل الذي ذهب زهوه وبقيت رائحته من باب (يبلى القميص وفيه عرف المندل)، وصوّر بعض قدماء الأمم العشق بصورة امرأة بديعة الجمال ظريفة الشكل كاملة الاعتدال، يخضع لها جميع العشاق، ويتخيلها أرباب الأشواق، وتميل إليها كافة الأذواق، وتهواها الأرواح والنفوس، فهي في فكرة كل إنسان كالعروس يصفرّ وجه من أمعن النظر في ورد خدّها الأحمر كما قيل:

يَصْفَرُّ وَجْهِـــــي إِذَا تَأَمَّلَهُ طَرْفِي فَيَحْـــمَرُّ وَجْهُه خَجَلاً
حَـــتَّى كَأَنَّ الَّـــذِي بوَجْنَتِهِ مِنْ دَمِ قَلْـــبِي إِلَيْه قَدْ نَقَلا

(١) نِضْوًا: نحيفًا. (م).
(٢) الخِلال: الثياب البالية. (م).
(٣) بَيْنُك: فراقك. (م).

وقريب منه قول ابن النبيه:

اللَّيْلُ من شُـــعُورِه مُسْبِلُ[١] والشَّمْـــسُ من طَلْعَتِهِ تَطْلُعُ
تَزْرَعُ عَيْنَـــــاي عَلَى خَدِّه وَرْدًا ولا أَجْنِي الَّذِي أَزْرَعُ

وقول آخر:

أَلْحَاظُكُم تَجْرَحُنَا في الحَشَى ولَحْظُنَا يَجْرَحُكُم في الخُدُودِ
جَرْحًا بَجَرْحٍ فاجْعَلُوا ذَا بِذَا فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ جَرْحَ الصُّدُودِ

ومما ينبغي أن يكون الحب الموجود في قلب المرأة والرجل بعضهما لبعض عبارة عن وداد خالص وصفاء فؤاد خَلَى من تجربة الغرام مشوب بحرارة الشبوبية في غالب الأحوال، فمتى تمكن الحب في قلب كل منهما فجميع وسائل اللذة توجد فيهما، فالمحبة هنا مشوبة بالصداقة الأكيدة، كما قال بعضهم:

غَرَضِـــي مِنَ الدُّنْيَا صديـــــــ ـقٌ لي صَـــــدُوقٌ فـــي المِقَةْ[٢]
يَرْعَـــــــى الجَمـــيل وعَيْنُهُ عن كُـــلِّ عَيْبٍ مُطْـرِقة
وإذا تَغَــــيَّر مَنْ تَغَيَّـــــ ـر كُنتُ مِنْـــه عَلَـــى ثِقَة

(١) مُسْبِل: طويل مرسل. (م).
(٢) المِقَة: المحبة. (م).

وقال آخر:

إذا مَا صَـــدِيقٌ أَسَا[١] مَرَّةً   وقَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى مُجْمِلا
ذَكَرْتُ المقَـــدَّمَ مِـــنْ فِعْلِهِ   فَـــلا يَنْقضُ الآخـــرُ الأوّلا

وقال آخر:

وكُنْتُ إذَا الصَّدِيقُ أَرَادَ غَيْظِي   وأَشْرَقَني عَلَى حَنَقٍ[٢] بريقي
غَفَرْتُ ذُنُوبَهُ وصَفَحْـــتُ عَنْه   مَخَافَةَ أَنْ أَعيشَ بِلاَ صَـــدِيقِ

فالصداقة هي التي ينتج عنها بين الرجل وأهله كمال الاتحاد والائتلاف في جميع الحركات والسكنات والأحوال والأطوار، مع ما ينشأ من ذلك من تقوية الجذب بالمسامرة والمحادثة والتبسم وإظهار التلطف والتعطف من كل ما يؤثر في النفس تأكيد المحبة، فتستحيل إلى عشق الشمائل المعنوية التي تبقى في المرأة دائمًا وأبدًا فتخلف الجمال الظاهري الزائل، وإنما يستحضر فقط ما كان عليه المعشوق حتى إن بعض الرجال يرى زوجته بالعين التي رآها بها يوم عرسها، فإن المرأة لا ترضى أن تتنازل عن الوصف بصفة الجمال أصلاً ولا تتعلق بزوجها

(١) أَسَا: أفسد. (م).
(٢) حَنَق: شدة الغيظ. (م).

غاية التعلق إلا إذا فهمت منه ذلك وهذا في حق النساء الكاملات، وأمّا النساء من حيث أنوثتهنّ فقل منهنّ من يتوقعن تمييز رجالهنّ لهنّ ولا وفاءهم لهنّ ولا ينوين الوفاء والصداقة، كما قال بعضهم:

وِمِنْ صِفَاتِ النِّسَـاءِ قَدَمًا[1] أَيْبَس في الـــــوُدّ مِنْ صَفَاةِ
وما يُبِنَّ الوَفَـــــاءَ إلاَّ في زَمَــــنِ الفَقْدِ والوَفَاةِ

يعني أن النفس تأسف على ما فات، قال من أسف على فراق الأحباب:

قُلْ لِمَنْ نَحْوَ أَرْضِكُم مَدَّ عَيْنَا وادَّعَى فــــي هَوَاكُمُ ما ادَّعَيْنَا
أَيْنَ آثارُ عَهْدِكُم إنَّ دَمْعِي مِثْلُ صَوْبِ الوَادِي إذا مَدَّ عَيْنَا
لَوْ تَجَلَّتْ حُورُ الجِنَانِ لِطَرْفي كَفَّ كَفّي عنهنّ مَا مَدّ عَيْنَا
لَوْ تَرَاءي يَوْمًا لِسَلْبِ قُلُوبٍ ورَآه العَـــذُولُ أَرْمَــــد عَيْنَا

وكما أن الرجل الكامل يرى زوجته بعين الإجلال والاحترام، كذلك الزوجة الكاملة المتحببة إلى زوجها لا ترى أن في الدنيا رجلاً يساوي زوجها وربما أحبته حبين؛ حُبًّا لِذَاته وحُبًّا لحقوق الزوجية، فهذه هي المحبة الراشدة جليلة الفائدة المنزهة عن الهوى، وهي لداء الشقاق في العائلة كالدَّوَا.

(١) قَدَمًا: سابقة في الخير. (م).

لم يَبْقَ لي أَمَلٌ سِوَاكِ فَإِنْ يَفُتْ وَدَّعتُ أَيَّامَ الحَيَاةِ وَدَاعَا
لا أَسْتَلِذُّ لِغَيْرِ وَجْهِك مَنْظَرًا وسِوَى حَدِيثِكِ لا أُرِيدُ سَمَاعَا

فمن ذلك يُعْلَم أن الواسطة الوحيدة في استدامة الودّ بين الزوجين ولو فُقِدَت المحاسن الظاهرية هي وجود الاحترام والإجلال بين النساء والرجال، وهناك شروط مؤكدة وأسباب لدعائم المحبة موطدة، وهي أن يجتهدا في تَحَبُّبهما لبعضهما حبًّا تامًّا، وأن لا يذم أحدهما الآخر في غيبته، وأن لا يغضبا في وقت واحد، وأن لا يكلم أحدهما الآخر بصوت عال، وأن يخضع كل منهما لإرادة الآخر، الرجل بالحب والمرأة بالطاعة، وأن لا يلوم أحدهما الآخر على زلة ما لم يتأكد وجودها فيه، وأن لا يلوم أحدهما الآخر على خطأ ماض، وأن لا يحوج أحدهما الآخر، إلى تكرار الطلب في حاجة، وأن يتمسك أحدهما بالآخر ولو كلفه فوات كل من سواه، وأن لا يُبَكِّت[1] أحدهما الآخر، وأن لا يفارق أحدهما الآخر ولو يومًا واحدًا من دون أن يودّعه بكلمة محبة لكي يتفكره بها مدّة الغياب، وأن لا يلتقيا من دون ترحيب، وأن لا يدعا الشمس تغرب على غضب أو زلة، وأن لا يدعا زلة ارتكباها تمضي من دون إقرار بها وطلب السماح عنها، وأن لا يتأوّها على ما فات بل يرضيان بما يوجد، وأن يجعلا الصدق دأبهما في معاملة

---

(١) يُبَكِّت: يوبخ ويؤنب. (م).

أحدهما الآخر، وأن لا يقول الزوج للزوجة كانت المرحومة كذا وكذا، ولا الزوجة للزوج كان المرحوم كذا وكذا إذا كانت زيجتهما بعد الترمل.

فهذه النصائح لا ينبغي للزوج أن يزدري بها لأنها موجهة إلى الزوجة، ولا للزوجة أن تستهين بها لأنها موجهة إلى الزوج، واتباعها هو من أكبر أسباب الراحة في العائلة، وهي توجب كون الزواج إنما يكون بين قوم يراعون الحقوق العمومية التي لكل من الزوجين على الآخر، وإلا فلا فائدة لها بالنظر إليهم إلا فيما ندر.

الباب السادس

في أسباب عمارية البيوت والمنازل وما يترتب على حسن تربية النساء من الفضائل، وفيه فصول

الفصل الأول

في الاجتماعات من حيث هي، وعلى الخصوص اجتماع العائلة

لما كان الإنسان مدنيًّا بالطبع مستأنسًا بالوضع، وسُمِّي إنسانًا لأنسه وائتلافه مع أبناء جنسه، جعل الشارع للهيئة التأنسية الاجتماعية محافل جامعة ومجامع عمومية، فسنّ الجماعة في الأوقات الخمس ليتم التأنس بين أهل الإيمان في اليوم والأمس، وفرض الجمعة في يوم الجمعة من كل أسبوع، وجعل صلاة العيد في كل عام من الاجتماع العام المشروع، وندب لصلاة الكسوفين والاستسقاء جماعة الناس عسى أن ينتفعوا جميعًا باستجابة دعاء الأتقياء، وفرض الحج والاعتمار ليجتمع على الشعائر الإسلامية في حرمه الشريف جمع من سائر الأقطار، وأوجب في وليمة العرس إجابة الدعوة لتجديد مجامع الأنس بين أهل النخوة، وقضى بين أصحاب الأحوال والأوضاع وأرباب الأخلاق السليمة والطباع أن يجتمعوا للأذكار مع حفظ الحشمة والوقار، ولم ينه عن مجامع الألعاب المشتملة على الرياضة التي لا تعاب، ولا عن المحافل والمواكب المؤذنة بتبجيل أولي المناصب والمراتب، ثم استحسنت بعد ذلك الاحتفالات للموالد السلطانية، لاسيما مولد أشرف البرية في المدائن والقرى لما يبذله في ذلك أهل الخير من الكرم والقرى.

ولذلك قال بعض أكابر الصوفية: أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما أراد أن ينشئ صورة آدم من زمن تقادم ابتناها على صورة مدينة محكمة المباني، وأتقن فيها ما يدل على قدرة الباني، وحرّك فيها مثالث ومثاني تشير بأنه ليس له ثاني، ثم نصب وسط هذه المدينة قصر المملكة وسماه بالقلب إذ هو بيت الرب وفيه اليُمْن والبركة، ومنه ينشأ السكون والحركة، وجعل مدار هذه المدينة عليه، ومرجع الكل إليه بمصداق ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب.

ووضع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا القصر سرير العز والسلطان، وأجلس عليه ملكًا يقال له الإيمان، وبث الجوارح في خدمته كالغلمان، فقال اللسان: أنا الترجمان، وقالت العينان: نحن الحارسان، وقالت الأذنان: ونحن الجاسوسان، وقالت القدمان: ونحن الساعيان، وقالت اليدان: ونحن العاملان، وقال الملكان: ونحن الكاتبان، وقال صاحب الديوان: كما تدين تدان.

ثم اتخذ الملك لنفسه وزيرًا وهو العقل، فقال الوزير: أيها الملك لابدّ لك من خاصة تصطفيهم لنفسك خلاصة يؤثرونك على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، فأوّل ما تحتاج إلى تاج وهو الولاية، وإلى معراج وهو العناية، وإلى دليل وهو الهداية، ثم لابدّ لك من مركوب وهو الصدر، ومن حلة وهو السكينة، ومن صاحب وهو العلم، ومن بواب وهو الورع، ومن سياف وهو الحق، ومن كاتب

وهو المراقبة، ومن سبحان وهو الخوف، ومن ميدان وهو الرجاء، ومن سراج وهو الحكمة، ومن نديم وهو الفكر، ومن خزانة وهو اليقين، ومن كنز وهو القناعة، ومن صاحب بريد وهو الفراسة.

ثم تنظر أيها الملك في رعيتك بعين الرحمة، وتفتح لهم خزائن النعمة، وتعدل بينهم في القسمة، وتبعث لكل واحد قسمه ليقيم بذلك رسمه، فقالت الملك: انظر أنت في الرعية وأزل عنهم الشكية وتول تفرقة الجامكية، فقال اليدان: عليَّ جمع الآلة، وقالت الأسنان: وأنا أطحن وأعزل النخالة، وقال الريق: وأنا أعجن وأتولى إلى المعدة إرساله، وقالت المعدة: وأنا أطبخ ولا أريد على ذلك جِعَالَة[1]، وقال الكبد: وأنا آخذ ما صفا وأترك الحثالة، وقالت القدرة: وأنا أتولى تفرقتها وقسمتها بالعدالة فأبعث لكل عضو ما يطيق احتماله، فلما فرقت الجامكية نقدًا لا حوالة صحح الملك أحواله، فقال الوزير: ما بعد النفقة إلا العرض وأداء الفرض، فناد في جيشك بالطول والعرض لينذر البعض منهم البعض قبل أن تبدّل الأرض غير الأرض، فنادى مناديه في ناديه يا معشر الرعية إن الملك قد أقسم بالألية أن من عدل عن الطريق بالسوية وكفر نعمة العطية وأنفقها في الخطية فقد أفسد النية ونقض الأمنية وأولئك هم شر البرية.

---

(١) جِعَالَة (بفتح الجيم أو ضمها أو كسرها): ما يُجْعل على العمل من أجر. (م).

ألا وإن للملك عدوًّا قد سكن جواره يقال له النفس الأمّارة قد نازعته الإمارة، واستنصرت عليه بالدنيا الغدّارة وظاهرها الهوى، وبعث إليها أنصاره، وجاءها الشيطان وكتبت له منشور الوزارة، وقد شنوا في أرض الملك الغارة، فيا خيل الله اركبي ومن الأعداء فلا ترهبي، فركب الملك عن يساره خوفه، وعن يمينه رجاه، ومقدمته توكله، وساقته النجاة متحملاً أثقال إياك نعبد متمسكًا بأذيال وإياك نستعين، فلما فصل بجنوده إلى معبوده بصدق النية نادى مناديه في ناديه أن الله مبتليكم بنهر الدنيا الدنية فمن شرب منه فليس مني، ومن عوّل عليه فليتنح عني، فقال أهل الضرورة: لابدّ لنا من إقامة الصورة فجاءت مروحة الراحة بالإباحة إلا من اغترف غرفة بيده.

فأمّا من عدم الفطنة ووقع في شرك الفتنة فشربوا وطربوا، فلما قابلهم القوم قالوا لا طاقة لنا اليوم، فقال الذين صبروا ابتغاء وجه الله: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، فالتقيا بجيشيهما في مجمع بحريهما هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج، فكان التوكل موكلاً بالحرص والزهد، محاذيًا للدنيا والتواضع، مدافعًا للعجب والإخلاص، ماحيًا للرياء. والتقى منافيًا للدعوى والخوف، موافقًا للهوى والتسبيح والتقديس في محاربة إبليس، فتقدّم حزب الله وشعارهم اللهم بك إقدامنا فثبت أقدامنا فإنا لا ندري ما قدّامنا، فهزموهم بإذن الله وما النصر إلا من عند الله، وأصبحت منازل الهوى والنفس كأن لم تغن بالأمس، وما زالت النفس بأسرها في أسرها، حتى اتصفت بكسرها واعترفت بخسرها وناداها من له المنة يأيتها النفس المطمئنة. انتهى.

ولما كان الإنسان من أصل خلقته في شكل مدينة عامرة كان مدنيًّا بالطبع، تميل أفراده إلى الائتناس والاجتماع، وأصل الجمعيات الإنسية الحائزة لأوفر خير وأوفى مزية جمعيات العائلات والعشائر التي هي إلى حسن العمران أفضل أشائر[١] وبالخير العاجل والآجل أكمل بشائر، وهي أُولَى الاجتماعات والأَوْلَى بالانتفاعات بل هي دلائل الخيرات، وأمائر[٢] المبرات ولا تكتسب إلا بحسن تربية الآباء والأمّهات تتوارث كابرًا عن كابر، وتنتقل من الأصاغر إلى الأكابر، وأساسها صلاح القرين والقرينة متى صدقت بينهما المحبة المتينة. لاسيما المرأة الصالحة التي هي لزوجها ريحانة طيبة الرائحة، ويقال أحسن زوجين في الإسلام عثمان بن عفان ورقية بضعة سيد الأنام، وأمّا جمع علي بفاطمة فهو أصح الجموع السالمة. وأصل تشبيه النساء بالرياحين قول الإمام علي رضي الله عنه: لا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها فإنها ريحانة وليست بقهرمانة.

وقال بعضهم: وقع خالد بن يزيد بن معاوية يومًا في عبد الله بن الزبير يصفه بالبخل، وزوجته رملة بنت الزبير أخت عبد الله حاضرة فأطرقت ولم تتكلم بكلمة مع زوجها خالد بن يزيد، فقال لها خالد: مَالَكِ لا تتكلمين أرضًى بما قلته أم تَنَزُّهًا عن جوابي، فقالت: لا هذا ولا ذاك، ولكن المرأة لم تخلق للدخول بين الرجال، وإنما نحن رياحين للشم والضم فما لنا والدخول بينكم، فأعجبه قولها فقام فقبل بين عينيها، وحكى ابن الجوزي في كتاب الأذكياء قال:

---

(١) أَشَائِر: من شور: أشار إليه وأومأ. (م).

(٢) أَمَائِر: جمع أَمَارة: وهي: علامة. (م).

مرّ شاعر بنسوة فأعجبه حسنهنّ فأنشأ يقول:

إنّ النِّساءَ شَيَاطِين خُلِقْن لَنَا   نَعُوذُ بِالله مِنْ شـرِّ الشَّـياطِين

فأجابته إحداهنّ بقولها:

إنّ النِّسَاءَ رَيَاحِين خُلِقْن لَكُم   وكُلُّكُم يَشْتَهِي شَـمَّ الرَّيَاحِين

فللّه درّها حيث كان قولها أقرب لما في الآية الشريفة، فقد قال تعالى في مقام الامتنان ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم/ ٢١].

ورُوِيَ أنّ رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يتزوّج المرأة لا يعرفها ولا تعرفه فلا يكون إلا ليلة حتى لا يكون شيء أحب إليه منها وإليها منه فقال ﷺ: تلك ألفة الله وتلا قوله ﷺ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم/ ٢١]، ومع ذلك فقد يكن أيضًا فتنة، فقد رَوَى البخاري عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ «ما تركت فتنة أضر على الرجال من النساء».

ومما يحسن هنا إيراده ما ذكره بعضهم في مقامة أدبية تحاور فيها مع بعض الأتراب والأمثال، وهي مبنية على طريق المثال والخيال كشف فيها عن وجه الحسن القناع، وجمع فيها من الذم والمدح لصفات النساء على طبقاتهنّ ما

انعقد على حسنه الإجماع، ونصه بتصرف يسير ولا ينبئك مثل خبير. قال: فقلت له لقد قدمت في كلامك أن المُتَيَّم من صيَّره الحب مملوكًا وإن كان ملكًا، فكيف قال السلطان محمد بن الأحمر الأندلسي في أحد جواريه.

أَيَا رَبَّةَ الخَالِ التي حسنت هَتْكِي   على أيِّ حالٍ كان لابدّ لي مِنْك
فإِمَّا بِذُلٍّ وهو أَلْيَقُ بِالهَوَى   وإِمَّا بِعِـــــزٍّ وهــو أليقُ بِالمُلْكِ

فقال: لقد خَطَّأه الصلاح الصفدي في قوله هذا وردّ عليه بقوله:

تَمَسَّك بِذُلٍّ فهو أَلْيَقُ بِالهَوَى   لِتُنْظَمَ مع أَهْلِ المَحَبَّةِ في سِلْكِ
مَتَى لاَقَ بِالعُشَّاقِ عزًّا وسَطْوَة   كأنَّك مِنْ ذُلِّ المحَبَّةِ في شَكِّ

وقد انتصر ابن حجر في شرح بانت سعاد لابن الأحمر، وردّ على الصلاح الصفدي فيما اعترض به عليه وأنكر حيث قال:

إذا لم يَكُنْ وَصْلٌ مِن الحُبِّ مُسْعِف   وأَمْسَيْتُ تحتَ الضِّيقِ في الحبِّ والضَّنْكِ
ولم تَسْتَطِعْ صَبْرًا عَلَى الذُّلِّ والهَوَى   فبِالعِزِّ وَصْلُ الخَوْدِ أَوْلَى من التَّرْكِ

فقلتُ: في كلام ابن حجر ما يقتضي عدول المحب عن الذُّل الذي هو مقامه، وقد فاته كالصلاح الصفدي قصد ابن الأحمر ومرامه؛ لأن ابن الأحمر قد

أشار إلى مرمى أخفى من السَّهَا[1] وأبعد من سدرة المنتهى، وهو أن كل شخص إذا أحب آخر فلابدّ أن يحبه الآخر بمقدار ما أحبه، فكلٌّ من المحب والمحبوب مُحِبٌّ من وجه ومحبوب من آخر، فإذا طلب المحب وصل حبيبه من حيث كونه مُحِبًّا طلبه بذل وهو أليق بالهوى، وإذا طلبه من حيث كونه محبوبًا طلبه بعز وهو أليق بالملوك، وهذا مما كشف الله لي عنه في هذا الوقت الغطا، وصَيَّر فهمي إليه أهدى من القطا[2]، ومما يشهد بميل المحبوب إلى المحب حديث: إن أُحُدًا جبل يحبنا ونحبه، وإذا كان الجماد يميل إلى من يحبه طبعًا فما بالك بالإنسان الذي هو أشرف أفراد العالم قطعًا، وأما قولهم المحبوب لا يملك فمرادهم لا يملك من وجه كونه محبوبًا فلا ينافي أن يملك من وجه كونه محبًّا كئيبًا وقد أشرت إلى ذلك بقولي:

سَأَطْلُبُ وَصْلَ الحُبِّ في كُلِّ حَالةٍ لأبْلُغُه مِنْ غَيْرِ رَيْبٍ ولا شَكِّ
فَإِمَّا بِكَوْني عَاشِــــقًا ذَا صَبَابَةٍ فأطْلُبُه بالذُّلِّ في الوُسْعِ والضَّنْكِ
وإِمَّا بِمَحْبُوبِيَّتي أَطْلُبُ اللِّقَا بعزٍّ وذَاكَ العِــــزُّ أَلْيَقُ بِالمُلْكِ

فقال: والله ما سمعت أذناي أحق بالصواب من هذا التحقيق، ولا أدق إدراكًا من هذا التدقيق، فلا عَدِمَتْك رياض الأدب التي أنت غيث خضرتها،

(١) السَّها: كوكب خفي يمتحن الناس به أبصارهم. (م).
(٢) القَطَا: طائر معروف . (م).

وأبكار المعاني التي أنت أبو عذرتها، فقلت: أيها الشيخ حيث حلبت أشطر المحبة ولم تدع في ضرعها من داعي اللبن لغيرك وزن حبة، فأخبرني أيها اليعسوب[١] والبحر الخضم اليعبوب[٢] بألطف جواب اتفق لك سماعه من محبوب، فقال: مما اتفق لي أنني كنت شغفت بجارية كانت مياه الحسن في جميع أعضائها، جارية قد قرنت بجمالها عذوبة الألفاظ، وقرأت ما في ضمائر الناس من الألحاظ، وكانت مع شغفي بحبها قد تمكن حبي من حبة قلبها.

وكانت كأنها اللبوة إذا سطت، والقطاة إذا قطت، والظبية إذا التفتت أو عطت، لها ردف مقعد وثدى مقعد وبنان يكاد من اللطافة واللين أن يعقد، فاشتهيت يومًا أن أرتضع لَمَى ثغرها المعسول، فقالت: لا سبيل لما أردت ولا وصول، فقلت: بأبي أنت وأمي كيف تبخلين على هذا المريض بدوائه، وتحولين بينه وبين شفائه، فقالت: أيها المغرم الكئيب والأريب الأديب، أما علمت أنّ المراضعة تحرّم المباضعة، فقلت: يا قرّة العين، ولكن التحريم مشروط بعدم بلوغ الرضيع حولين، فقالت: يا شقيق النفس، أما أنت ابن أمس على أن الحب أضعفك حين ألقاك في كل هوّة، فأنت ما بلغت حولاً ولا قوّة، فقلت لها: وعلى تسليم ما إليه السيدة تذهب، فأقول: إني شافعي المذهب وعندي لا تحريم إلا

(١) اليَعْسُوب: السَّيد المقدم. (م).

(٢) اليَعْبُوب: كثير الماء شديد الجريان. (م).

بخمس رضعات بشرط كونها متفرّقات، فقالت: والله إن مذهبك لواسع الحضرة وقد سمحت لك بشربة من رضابي فإياك أن تتبع الشربة بالجرة.

وقد اتفق لي مع جارية أخرى ما هو أعذب من هذا وأهنأ وأمرأ وقد كنت همت بها هيام توبة في ليلى وجميل في بثينة وعروة في عفرا، وكان قد وخطني المشيب وبلي ثوب شبابي القشيب[1]، وكانت ذات خدر لا ذات بعل، وهي لكل جمال وكمال أهل، فطالت بيني وبينها الصحبة وعرّضت لها يومًا بالخطبة فتألمت منها وتغافلت عنها، ثم دعتني يومًا بلطافتها إلى ضيافتها، فلما وصلت إلى دارها العامرة بمحاسنها الباهرة تلقتني بالترحيب والتأهيل والتعظيم والتبجيل، وأقبلت عليّ بحديث لو سمعه الميت لعادت إليه الحياة، أو الظمآن لاكتفى به عن زلال المياه.

فلما حضر وقت الطعام مدّت لنا مائدة الإكرام فتأملت ما فيها من الأزواد فلم أر فيها غير ضباب مقلية وجراد، فسئمت نفسي من ذلك وغثت واشمأزت وجاشت وخبثت، فلما رأت أن طبعي من ذلك قد نفر قالت: بسم الله هلم إلي ما حضر، فقلت: إن عَلَيَّ صيام يوم من رمضان هذا العام وقد نويته الليلة البارحة قبل المنام، وإنما أجبت السيدة المصونة لدعوتها امتثالاً لأمرها وحفظًا لحرمتها، فقالت: لا والله وإنما أظنك استقذرت ما قدمته إليك، ولو علمت منك ذلك لما

(١) القَشِيب: الجديد. (م).

كلفتك لما يشق عليك فكيف تتقذر من أكله وأنت معتقد لطيبه وحله، فقلت: يا سيدتي ما كل حلال يُشْتَهى، ولا كل ما يُشْتَهى حلال، والغزال مع ظرفته يأكل الحنظل ويشرب الماء الملح ولا يشرب العذب الزلال، فقالت: الآن برح الخفاء وذهب الجفاء فدع الاعتساف واحكم بالعدل والإنصاف، والعدل أن تعدل عن الهوى عدلك عن غير جنسك وتحكم للغير كما تحكم لنفسك، فعند ذلك زال الشك والريب وعلمت أنها تعرّض بكراهة نكاحي لكراهتها للشيب، فنهضت من عندها والقلب كالجفن منكسر، والدمع كالغيث ينهمر، أعثر في ذيول الخجل وآسف على خيبة الأمل، وها أنا إلى الآن كلما ذكرتها ينكسر فؤادي ويذهب رقادي وتطول حسرتي وتزيد زفرتي.

ثم قال: وأنت فأخبرني بألطف جواب سمعته من الأحباب، فقلت: مما اتفق لي أنني استنهضت يومًا همة رئيس من السودان في حاجة عَجَزَت عن قضائها أعيان الزمان، فقضاها في أسرع من مضغ ثمرة وحلب شاه، ومن وميض البرق وانحدار المياه، فتوجهت إلى محله لأشكره على حسن فعله، فلما رأيته قلت له: ماذا أقول في مدحكم من بليغ الأقوال، ومنكم لقمان الحكيم وبلال، وحسبكم من الفخر أنتم ومن كان من أمثالكم أن الله تعالى لا يكمل حسن الحور العين إلا بسواد بلالكم، فقال الأسود مع شهرته بفرط الذكاء بين العباد: كيف يكمل الله تعالى حسن الحور العين بذلك السواد؟!

وكان هناك غلام قد راهق البلوغ وأخجل الورد والبدر حتى ظهرت فيهما حمرة الخجل هذا حال الخروج من الكِمَام[1]، وذلك حالة البزوغ كأن رضابه العسل وقوامه العسال، يشهد فتك ألحاظه بأنه أسد، ومسك خاله بأنه غزال، قد جمع ثغره بين الشهد والرحيق، والدر والعقيق، كما جمع غصن قدّه بين التفاح والرمان، والورد والريحان، والماء والنار، والمطوّق والهزار، تشرق الشمس من وجهه والبدر من صدره، ويودّ الهلال أن يكون قلامة ظفره، نبيه يترك قس البيان سطيحًا، ويرى الكناية والإشارة والإيماء تصريحًا، لو رأته النسوة اللاتي قطعن أيديهن لجمال يوسف بن يعقوب لعدلن عنها إلى تقطيع الأكباد والقلوب، يغار من خاله قلب الشقيق، ويعلو حاجبه على العيون علوّ الأحرار وهو الأسود الرقيق.

فلما رأى تعجب ذلك الأسود من تكميل حسن الحور بسواد بلال واستغرابه لذلك الأمر والحال، قال له: يا سيدي لا تعجب من ذلك، فهو أيسر مراد للباري ومقدور؛ وذلك بأن يجعل سواد بلال شامات تفرّق في خدود الحور، فلما سمع الأسود منه ذلك نعق من طربه نعقة الغراب، وقال له: أعيذك من عيون الحاسدين بآيات الكتاب فما سمعت أذناي ألطف من هذا الجواب.

ومثل ذلك ما اتفق لي مع محبوب أجمل من هذا في وصفه، وأكثر منه في

(١) الكِمَام: غُلْف الزرع حال الخروج منه. (م).

رقته ولطفه، وذلك أنني جالسته يومًا وأطلت معه الجلوس، وتمتعت منه بما يميت الهموم ويحيي النفوس، ثم اطلعت ساعة لأنظر فيها إلى ما مضى من أجزاء النهار في مجالسته واغتنام رقائقها، فأخرج الآخر من عبه ساعة وصار يتأمل في دقائقها، فقلت له: أقسم عليك بالذي جعل اللحاظ سيوفك والرمح السمهري[١] قدّك ألا أخبرتني بما عندك، فقال: عندي مثل ما عندك فعند ذلك رغبت في اقترابه، وذهلت من سحر جوابه، فقال الشيخ: ما سمعت ألطف من هذين الجوابين المرقصين المطربين، وتالله لا يكمل جمال الإنسان إلا إذا كان فصيح اللسان، وما المرؤ إذا فاتته فصاحة اللسان إلا صورة ممثلة أو بهيمة مهملة، واللطيف لا يؤثر فيه إلا سحر البيان لا ما في الصور من الإتقان وألوان الدهان، قال سيدنا الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر الشيخ محيي الدين بن عربي بلغني الله به أربي:

أُحِبُّ مَلِيحَ الحِسِّ لَيْسَ بِبَارِعٍ جَمَالاً ولاَ أَهْوَى المَلِيحَ بلاَ حِسِّ
عَلَيْكَ تَصَاوِيرَ الكَنَائِسِ لُذْ بِهَا إِذَا كُنْتَ مَيَّالاً إِلَى الصُّوَرِ الخُرْسِ

وحُكي أن حكيمًا مرّ بمليح فاستنطقه[٢] فلم يحمد منطقه على ما فيه من المحاسن، بل قال: نعم البيت لو كان به ساكن، يشير بذلك إلى أن السر في السكان لا في الأماكن، فقلت: بالله أنشدني بعض غزلك أو نسيبك ليكمل

(١) السَّمهَرِي: الصليب العود. (م).
(٢) استَنْطَقَه: كلمه وناطقه. (م).

عقد سروري بفرائد تغزلك وتشبيبك، فقال: والله إني لا أحفظ من كلامي غير النزر[١] اليسير، ولم يحضرني الآن منه غير مقطوعة جاش بها الضمير، وهي قولي:

بِأَبِـــي التي أَمْسَت تُشِيرُ إلى قَوْمِي بِأَنْ يُصْغُوا إلى مُلَحِي[٢]
بِيَدٍ من الجُمَّـــارِ[٣] مِعْصَمُـــها وأَنَامِلٍ تَـــرْوِي عَنْ البَلَـــحِ

فقلت: أعيذك بالله من شر البغاة والغواة فأفدني هل كان البلحي من الرواة؟ فقال: نعم هو أبو العباس أحمد بن طاهر بن محمود من رواة الحديث الذين امتلؤوا معقولاً ومنقولاً ذكره ابن نقطة في كتاب الاستدراك، الذي استدرك فيه ما فات ابن ماكولا، فقلت: وأنا أنشدك بيتين من غزلي الحديث وجهت فيهما بذكر راوٍ من رواة الحديث ثم أنشأت أقول:

عُصْفُورُ قَلْبِي رَمَاه الحُبُّ في قَفَصٍ من الضُّلُوعِ فَلَم يَبْرَحْ من الدّورِي
وقَدْ أَخذتُ حَدِيثَ الحُسْنِ عَنْ رَشَأ وُرُودُ وَجْنَتِه تروِي عَنْ الجُورِي

---

(١) النَّزر: القليل التافه. (م).
(٢) مُلَحِي: كلمات حسنة. (م).
(٣) الجُمَّار: قلب النخلة في جوفها بياض. (م).

فقال: نعم الجوري شيخ النيسابوري (رجع) وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الله واتقوا النساء، فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، قال بعضهم: يجب على العاقل أن ينظر ثلاثة أشياء بعين ثلاثة، وهي أن ينظر الفقير بعين التواضع لا بعين التكبر، وأن ينظر إلى الأغنياء بعين النصح لا بعين الحسد، وأن ينظر إلى النساء بعين العفة لا بعين الشهوة، وقال الأسود الخاقاني وقد عتبته امرأة على هوى له:

وَيْك أَنَّ المَلاَم يُغْرِي المَلُومَا   لَيْسَ جُرْمِي كَمَا زَعِمْتَ عَظِيمَا
إنْ أَكُنْ عَاشِقًا فَلَم آتِ إلا   ما أَتَتْه الرِّجَــــال قَبْلِي قَدِيمًا
إنما يَكْثرُ التَّعجُّـــــبُ مِمَّن   كان مِنْ فِتْنَة النِّســــاءِ سَلِيمَا

فلذلك قال ﷺ كما رواه البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما: لا يخلونّ رجل بامرأة إلا مع ذي محرم. انتهى. ومن المعلوم أنه لا أنفع لأمن فتنة النساء من العفاف والتصوّن ورجاء الثواب لمن منع النفس عن هواها.

الفصل الثاني

في العفة وأمانة الزوجين وصدقهما في المحبة

العفة التي هي أمانة كل من الزوجين لصاحبه فضيلة دقيقة تفيد أن لا يصدر من أحد الزوجين ما يخدش صداقته للآخر، وفي الحقيقة وجود هذه الفضيلة ينبغي أن يحرص عليها ولو كانت عزيزة، وقَلَّ من يتصف بها في أعلى درجات كمالها مع دقة النظر اللازمة لذلك، فهي عصمة معنوية وهي أساس روابط الجمعية البشرية لأن عقد الزواج بمجرّد انتهائه رابط أحد الطرفين بالآخر، ومشروط فيه الأمانة ضمنًا على الوجه الذي قضته الحكمة الإلهية، فتقصير أحد الزوجين في تأدية حقوق الزوجية يعدّ مضادًا للأمانة الواجبة على كل من الزوجين على حد سواء.

وبالنظر للعرف يقتضي أن تكون الأمانة في المرأة آكد، وإن كانا مشتركين فيها، وسبب ذلك أن عوائد جميع البلاد وطبائع جميع المدن وعرف أرباب السياسة والدول والملل، كل ذلك يقضي بأنه لا يليق من النساء إلا كمال الصيانة والعفة وسلوك سبيل الحياء أكثر مما يطلب من الرجال، فإن الحياء ممدوح وعدمه مذموم، ففي الحديث عنه ﷺ «إنّ الله إذا أراد أن يهلك عبدًا نزع منه

الحياء (أي لا يستحي من الله أومن الخلق أو منهما) فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مِقِّيتًا (بكسر الميم وكسر القاف المشدّدة فعيل بمعنى فاعل أو مفعول من المقت وهو أشد الغضب) وقد قال ﷺ: «إن لكل دين خلقًا وخلق هذا الدين الحياء».

وقال الشعبي رحمه الله تعالى: حلية الرجال السماحة والفصاحة، وحلية النساء العفة والقناعة. وعند العرب أفضل النساء أطولهنّ إذا قامت، وأصدقهنّ إذا قالت، التي إذا غضبت حلمت، وإذا ضحكت ابتسمت، التي تلزم بيتها ولا تعصي بعلها، العزيزة في قومها الذليلة في نفسها. وقال بعضهم: الحياء نوعان: نفساني وهو المخلوق في النفوس كلها كالحياء عن كشف العورة بحضرة الناس، وإيماني وهو الامتناع عن فعل ما يذم شرعًا خوفًا منه تعالى. انتهى.

وقال ﷺ: «إنّ الله يحب الحيي الحليم ويبغض الفاجر البذيء»، فالمرأة متى خلعت ثوب الحياء فكأنها تنازلت عن سلوك سبيل العفاف والصون حيث إن خلع ثوب الحياء منها علامة قوية على نية خدش الأمانة التي يترتب عليها من العواقب الوخيمة مالا نهاية له، فإنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اقتضت حكمته الربانية وضع النسل في بطون الأمهات، فلا يباح للنساء هتك حرمة هذا النسب، فإذا تخلت المرأة عن العصمة فربما دست في العائلة ما ليس منها، فلا تكون أعضاء العائلة في الواقع ونفس الأمر بينهم قرابة حقيقية ينبني عليها صدق المحبة بينهم، بل يكونون في الحقيقة أباعد وكالأعادي الذين عداوتهم كامنة، فالمرأة في هذه الحالة إنما تسعى

بينهم في التوادد الظاهري، وهي في الحقيقة أعطت العائلة عدوّا في ثياب صديق، فالواجب على الزوجين أن يعيشا على الأمانة كما يقتضيه عقد الزواج، وبالجملة فينبغي أن يتمسك كل منهما مع غاية الدقة والانتباه بفضيلة الأمانة التي يترتب عليها صحة النسب؛ فبهذا تمتنع الوساوس والشك والحيرة وطهارة الأنساب في العشيرة، ومجمع العفة والتصوّن آية ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النور/ ٣١]، فقد نُهِيَت المرأة أن تنظر إلى غير زوجها كما أن الرجل كذلك لصدق المحبة. وما أحسن قول بعضهم:

قَالَتْ لِطَيْفِ خَيَالٍ زَارَنِي ومَضَى ... بِالله صِفْه ولا تَنْقُص ولا تَزِد
فَقَالَ خَلَّفْتُه لومَاتَ من ظَمَأ ... وقُلْتُ قِفْ عن وُرُودِ الماءِ لم يَرِد
قَالَتْ صَدَقْتَ وَفَاءُ الحُبِّ عَادَتُه ... يا بَرْد ذاك الذي قَالَت عَلَى كَبِدِي

وقال آخر وفيه لزوم ما يلزم

وَاحَـــزَني مِنْ قَوْلِهَـــا ... خَـــانَ عُهُـــودِي ولَهَـــا[1]
وحَـــقُّ مَنْ صَيَّرنِـــي ... وَقْفًـــا عَلَيْـــهَا ولَهَـــا
مَا خَطَـــرَت بِخَاطِـــرِي ... إلا كَسَـــتْنِي وَلَهَـــا[2]

---

(١) لَهَا: انشغل. (م).
(٢) وَلَهًا: حُبًّا. (م).

وقد سبقت هذه الأبيات، وممن حافظ على وفاء العهد وصدق المحبة لابنة عمه ابن زريق الكاتب البغدادي، قال يخاطب المنزل:

فِي ذِمَّة الله مَنْ أَصْبَحْتَ مَنْزِلَه وجَادَ غَيْثٌ عَلَى مَغْنَاك[١] يَمْرعَه[٢]

مَن عِندَه لِي عَهدٌ لا يَضِيعُ كَمَا عِنْدِي له عَهْد صِدْقٍ لا أُضَيِّعُه

وهذان البيتان من قصيدته المشهورة التي قالها بعد أن قصد أبا الخير عبد الرحمن الأندلسي، وكان ذلك لفاقة عرته[٣] فَارَقَ بسببها ابنة عمه وكان يحبها حبًّا شديدًا، وتوجه إلى بغداد فمدح عبد الرحمن بقصيدة فأعطاه شيئًا قليلاً فاعتل غمًّا ومات، وكان عبد الرحمن اشتغل عنه أيامًا ثم سأل عنه؛ فتفقدوه في الخان الذي كان فيه فوجدوه ميتًا وعند رأسه رقعة مكتوب فيها هذه القصيدة، ولكونها بين زوجين متحابين ناسب ذكرها ههنا وهي:

لا تَعْذِلِيه فَإِنّ اللَّـــوْمَ يُولِعُه قد قُلْتِ حَقًّا ولَكِن لَيْسَ يَسْمَعُه

جَاوَزْتِ فِي لَوْمِه حَدًّا أَضرّ به مِنْ حَيثُ قَدَّرتِ أنّ اللوْمَ يَنْفَعُه

---

(١) مَغْنَاك: موضعك الذي تعيش فيه. (م).

(٢) يَمْرَعَه: يخصبه. (م).

(٣) عَرَتْهُ: غشيته. (م).

فاسْتَعْمِلي الرفْقَ في تَأنِيبِه بَدَلاً | مِنْ عُنفِه فهو مُضْنَى[١] القَلْبِ مُوجَعُه
قَدْ كان مُضطَّلِعًا بالخَطْبِ يَحْمِلُه | فَضَلِعَتْ لخِطُوبِ البَيْنِ[٢] أَضْلُعُه
يَكْفِيه مِنْ لَوْعَةِ التَّشْتِيتِ أَنَّ له | من النَّوَى كُلَّ يومٍ ما يُروِّعُه
مَا آبَ مِنْ سَفرٍ إلاَّ وأَزعَجه | رَأيٌ إلى سَفَرٍ بالرَّغمِ يَجْمَعُه
تَأْبَى المطَامِعُ إلاَّ أن تُجَشِّمَه[٣] | للرِّزْقِ كَدًّا وكَمْ مِمَّن يُودّعُه
كَأنَّما هو في حِـــلٍّ[٤] ومُرْتَحَلٍ | مُوَكَّلٌ بِفضاءِ الأَرْضِ يَذْرَعُهُ[٥]
إِذَا الزَّمَانُ أَرَاه في الرَّحِيلِ عَنَّا | ولو إلى السَّدّ أَضْحَى وهو يَزْمَعُه[٦]
ومَا مجُاهَدةُ الإِنْسَانِ وَاصِلَةٌ | رِزْقًا وَلاَ دَعَةُ الإِنْسَانِ تَقْطَعُه
قد قَسَّم الله بين الخَلْقِ رِزْقَهُمُ | لَمْ يَخْلُقْ الله مِنْ خَلْقٍ يُضَيِّعُه
لَكِنَّهم مُلِئُوا حِرْصًا فَلَسْتَ تَرَى | مُسْتَرْزِقًا وسِوَى الغَايَاتِ تُقْنِعُه
والحِرْصُ في الرِّزقِ والأَرْزَاقُ قد قُسِمَتْ | بَغْيٌ أَلا إنَّ بَغْيَ المَرْءِ يَصْرَعُه
والدَّهرُ يُعْطِي الفَتَى مِنْ حيثُ يَمْنَعُهُ | دَأبًا ويَمْنَعُه مِنْ حَيْثُ يُطْمِعُه

(١) مُضْنَى: مريض (م).
(٢) البَيْن: الفراق. (م).
(٣) تُجَشِّمه: تكلفه المشقة. (م).
(٤) حِلٍّ: نُزُل أو إقامة. (م).
(٥) يَذْرعه: يجتازه. (م).
(٦) يَزْمَعُه: يمضي فيه. (م).

أَسْتَودِعُ اللهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمَرًا ... بِالكَرْخِ مِنْ فَلَكِ الأَزْرَارِ مَطْلَعُه
وَدّعْتُه وبِوُدِّي لَوْ يُودّعُنِي ... طِيبُ الحَيَاةِ وأَنِّي لا أُودّعُه
كَمْ قَدْ تَشَفَّع أَنِّي لا أُفَارِقُه ... وللضَّرُورَاتِ حَالٌ لا تُشَفِّعُه
وكم تَشبَّث بي يَومَ الرَّحِيلِ ضُحًى ... وأَدْمُعِي مُستَهِلَّاتٍ وأَدْمُعُه
لا أَكْذبُ اللهُ ثَوبُ العُذرِ مُنخرِقٌ ... عني بفُرقَتِه لَكِن أُرَقِّعُه
رُزِقتُ مُلكًا فلم أُحْسِن سياسَته ... كَذاكَ مَن لا يَسُوس الملك يَخْلَعُه
ومَن غَدَا لابِسًا ثَوْبَ النَّعِيم بِلاَ ... شُكْرٍ عَلَيْه فإنّ اللهَ يَنْزَعُه
إِنِّي أُوسِعُ عُذْرِي فِي جِنَايَتِه ... بِالبَينِ عَنِّي وجُرْمِي لا يُوسِعُه
كم قَائلٍ لَكَ ذَنْبُ البَيْنِ قُلتُ لَه ... الذَّنبُ واللهِ ذَنْبِي لَسْتُ أَدْفَعُه
أَلاَ أَقَمْتَ مَكَانَ الرُّشدِ أَجْمَعُه ... لَوْ أَنَّنِي حِينَ بَاتَ الرُّشْدُ أَتبَعُه
واللهِ مَا وَقعَتْ عَيْنِي عَلَى بَلَدٍ ... فِي سَفْرَتِي هَذِه إِلاَّ وأَقْطَعُه
ما اعتَضْتُ[1] عن وَجْهِ خِلِّي عِنْدَ فُرقَتِه ... كَأسًا أُجَرَّعُ مِنْها ما أُجَرَّعُه
يَا مَنْ أُقَطِّعُ أَيَّامِي وأُنْفِذُها ... حَزَنًا عَلَيْه ولَيْلِي لَسْتُ أَهْجَعُه
لا يَطْمَئِن لِجَنْبِيَ مَضْجَعٌ وكَذَا ... لا يَطْمَئِنُّ له مُذْ غِبْتُ مَضْجَعُه

---

(١) اعْتَضْت: سَأَلت عِوَضًا. (م).

مَا كُنتُ أَحْسَبُ أنَّ الدَّهْرَ يَفْجَعُنِي ... به ولا خِلْتُ بِي الأَيَّامُ تَفْجَعُه
حَتَّى جَرَى الدَّهْرُ فِيمَا بَيْنَنَا بِيَدٍ ... عَسْرَاءَ تَمْنَعُنِي حَظِّي وتَمْنَعُه
وكُنْتُ مِنْ رَيْبِ دَهْرِي خَائِفًا قَلِقًا ... فَلَم أُوقَ الَّذِي قَدْ كُنتُ أَجْزَعُه
بِالله يا مَنْزِلَ القَصْفِ[1] الَّذِي دَرَسَتْ[2] ... أَيامُه وعَفَتْ مُذْ بَنَتْ أَرْبُعُه
هَل الزَّمَانُ مُعِيدٌ فِيكَ لَذّتَنَا ... أَم اللَّيالِي الَّتِي أَمْضَتْه تُرْجِعُه
فِي ذِمَّةِ الله مَنْ أَصْبَحتَ مَنْزِلَه ... وجَادَ غَيْثٌ عَلَى مَغْنَاك يَمْرَعُه
مَنْ عِنْدَه لي عَهْدٌ لا يَضِيعُ كَمَا ... عِنْدِي لَهُ عَهْدُ صِدْقٍ لاَ أُضَيِّعُهُ
ومَنْ يُصَدّعُ[3] قَلْبِي ذِكْرُه وإِذَا ... جَرَى على قَلْبِهِ ذِكْرِي يُصَدّعه
لأَصْبِرَنّ لِدَهْرٍ لا يُمَتّعُنِي ... بِهِ وَلا بِيَّ فِي حَالٍ يُمَتِّعُه
عِلْمًا بِأَنَّ اصْطِبَارِي مُعْقِبُ فَرَجًا ... فَأَضْيَقُ الأَمرِ إِنْ فَكَّرْتَ أَوْسَعُه
عَسَى اللَّيالِي التي أَضنَتْ بِفُرقَتِنَا ... قَلْبًا سَتَجْمَعُنِي يَوْمًا وتَجْمَعُه
وإِنْ يَنَل أَحَدًا مِنَّا مَنِيَّته ... فَمَا الَّذِي بِقَضَاءِ الله يَصْنَعُه

---

(١) القَصْف: اللهو واللعب (م).

(٢) دَرَسَتْ: محت. (م).

(٣) يُصَدِّع: يَشُقّ. (م).

(رجع) قيل: لا عفة كالأمانة، ولا غنى كالقناعة، ولا سعادة كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق، ولا إيمان كالحياء، ولا راحة كالتوكل، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثُ خِصَالٍ مَنْ كنّ فيه نشر الله عليه رحمته وعَصَمه وأدخله جنته: مَنْ آوى المسكين ورحم الضعيف، وأنفق على والديه ورحم مملوكه ورفق به، وملك نفسه حين يغضب وحين يرغب وحين يرهب وحين يشتهي» وقد ورد عنه ﷺ أنّ الله يحب الرفق في الأمر كله.

قال أبو الفرج في كتاب النساء: سأل رسول الله ﷺ عليًّا رضي الله تعالى عنه وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم عما هو خير للنساء فلم يدروا ما يقولون، فانصرف علي رضي الله عنه إلى فاطمة -رضي الله عنها- فذكر لها ذلك فقالت: إن خير النساء الذين لا يرين الرجال ولا يرونهنّ، فأخبر عليٌّ بذلك رسول الله ﷺ فقال أعنك هذا أم عن غيرك، قال: بل أخبرتني به فاطمة، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ وقال: إنما فاطمة بضعة مني.

وقال بعضهم: خرجت في ليلة مظلمة فإذا أنا بجارية كأنها علم فعطفت عليها، فقالت: أما لك يا هذا زاجر من عقل إذا لم يكن لك ناه من دين، قلت يا هذه والله ما يرانا إلا الكواكب، فقالت: وأين مكوكبها؟ ثم ذهبت عني، قال الشاعر:

إذا ما خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فلا تَقُلْ خَلَوْتُ ولَكِنْ قُلْ عَلَيّ رَقِيبُ
ولا تَحْسَبَنَّ الله يَغْفَلُ سَاعةً ولا أَنَّ ما تُخْفِيه عَنْه يَغِيبُ

وقيل لبعض الأعراب وقد طال حبه لجارية، ما كُنْتَ صانعًا لو ظفرت بها ولا يراكما إلا الله تعالى؟ قال: لا والله لا أجعله أهون الناظرين، ولكن أصنع معها ما أصنع بحضرة أهلها حديث طويل، ولَحْظ كليل(١)، وترك ما يكرهه الرب وينقطع به الحب. قال نفطويه:

لَيْسَ الظَّرِيفُ بِكَامِلٍ في ظَرْفِه حَتَّى يَكُونَ عن الحَرام عَفِيفَا
فإذا تَعَفَّفَ عن مَحَـــارِمِ رَبِّه فهُنَاكَ يُدْعَى في الأَنَامِ ظَرِيفَا

وقيل:

وأَفْضَــــلُ النَّاسِ حُرٌّ لَيْسَ يَغْلِبُه عَلَى الحِجَا شَهْوَةٌ فِيه وَلاَ غَضَبُ

وقال بعضهم لرجل من بني عذرة غلب عليه الهوى: ما بال العشق يقتلكم معاشر بني عذرة من بين أحياء العرب، فقال: فينا جمال وتعفف، ونرى محاجر لا ترونها، وكان الرشيد يستحسن قول ابن مطير هذين البيتين:

---

(١) كَلِيل: لا يقطع. (م).

وقَدْ تَغْدِرُ الدُّنيَا فيَضْحَى غَنِيُّها   فَقِيرًا ويَغْنَى بَعْدَ بُؤسٍ فَقِيرُهَا
فَلاَ تَقْــــرَب الأَمرَ الحَرامَ فإنه   حَلاَوتُه تَفْنَى وَيْبقَى مَرِيرُهَا

قال اليزيدي: دَخَلْتُ على الرشيد وفي يده ورقة، فكان تارة ينظر فيها وتارة ينظر إليَّ عنها، فقال: بيتان وجدتهما فأضفت إليهما ثالثًا:

إِذَا سُدَّ بَابٌ عَنْكَ مِنْ دُونِ حَاجَةٍ   فَدَعْه لأُخْرَى يَنْفَتِح لَكَ بَابُها
فَإِنَّ قُرابَ[1] البَطْنِ يَكْفِيه مِلْؤه   ويَكْفِيكَ سَوْءَات الأُمُورِ اجْتِنَابُها
ولا تَكُ مِبْذَالاً لِعِرْضِكَ واجْتَنِبْ   رُكُوبَ المَعَاصِي يَجْتَنِبْك عِقَابُهَا

وما أحسن البيت الأخير الناهي عن بذل العِرْض الذي هو صفة معنوية وفضيلة جامعة تبعث صاحبها على اعتبار نفسه، وأن يفي مع النية الخالصة والشجاعة الفاضلة والهمة العالية بما يجب عليه من كل ما ينتج عنه الاعتبار والاحترام، ويعبر عنه بشرف النفس وهو أحد الأشياء التي يجب حفظها، وباقيها الدين والنفس والمال والنسب والعقل، وعرّف بعضهم العرض بأنه موضع المدح والذم من الإنسان، وهو يحمل صاحبه على أن يفعل ما يكتسب به الاعتبار عند

---

(١) قُرَاب: ما قارب قدر الشيء. (م).

الناس وعند نفسه، وأن يجتنب ما يُخِلّ بمقام الإنسان واعتباره، وهو اللؤم فإنه مذموم كما قيل:

أَلَمْ تَعْلَمُــــوا أنّ الزَّمَانَ مُوَكَّلٌ   بِمَدْحِ كِـــــرَامٍ أو بِذمٍّ لِئامِ

وقال آخر:

إِنّ الكَرِيمَ إذا تَمَكَّنَ مِنْ أَذَى   أَنْسَتْهُ رَأفَتُه الحُقُودَ فَأَقْلَعَا
وتَرَى اللَّئِيمَ إذا تَمَكَّنَ مِنْ أَذَى   يَطْغَى فَلاَ يَبْقَى لِصُلْحٍ مَوضِعَا

وقال بعضهم: سياسة الكِرَام بالرغبة، وسياسة اللئام بالرهبة، وإن أقرب شيء على سياسة اللئام أن يعاملوا بالرهبة ويؤخذوا بالعنف، فما دام أحدهم خائفًا من سطوتك فهو مقيم على الوفاء بعهدك، ومتى أَمِن ذلك عاد إلى طبعه، وقال الشافعي رضي الله عنه: ثلاثٌ إن أكرمتهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك المرأة واللئيم والمملوك وقيل:

الحُرُّ بِالبِـــــرِّ والإِحْسَانِ تَمْلِكُه   والنَّذْلُ بالضِّد أَفْعَالاً وأَخْلاَقَا
يَزْدَادُ لُؤمًا إِذَا مَا زِدْتَه كرمًا   كالنِّفْطِ يَزْدَادُ بالتَّكْرِيمِ إِحْرَاقَا

وقالوا: من أمارات الكريم الرحمة ومن أمارات اللئيم القسوة، ومن كَرُم أصله لاَنَ قلبه، وَوَرَدَ عنه ﷺ: «لا ينزع الله الرحمة إلا من قلبٍ شقي»، ومن علامات الكريم حب الإنصاف، ومن علامات اللئيم عدم الإنصاف، وقال بعضهم من علامات اللئيم إفشاء السر، واعتقاد الغدر، وغيبة الأحرار، وسوء الجوار.

فكل ما اشتمل على محامد الأخلاق ومكارمها فهو أساس للعرض، فصاحب العرض يبحث دائمًا عن حسن الصيت والشهرة الحميدة بالوفاء بما كلفه به الطبع والشرع، بشرط أن لا يتشبث في الحصول على ذلك بالوسائل التي يأباها الصلاح الحقيقي فصاحب هذه الفضيلة الشريفة يُرْجَى له أن يورثها لذريته وللخلف من بعده، وأن يبقى ذكر اسمه مخلدًا بدون عيب ولا دنس، وكما يُشَرِّف ذريته بصيته الحسن يشرف وطنه طول الزمن، ومن علامة شريف العرض والناموس إخلاص الإيمان وبغض النفاق وكراهة الموالسة(١)، والنفور من أهل الغش والخداع، ومجالسة أهل الخروج والابتداع، وعدم التلوّن فلا يكون داخلاً في قول القائل:

يَا مَنْ تَلوّن في الطِّبَاعِ أَمَا تَرَى ... وَرَقَ الغُصُونِ إذا تَلَوَّن يَسْقُطُ

---

(١) المُوَالَسَة: الخداع. (م).

وقيل:

كُـــــــلُّ يَـــــــوْمٍ تَتَـــلَوّنُ غَيْرَ هَـــــذَا بِـــــكَ أَجْمَـــلُ

وقيل: مَنْ جالس أهل البدع تعلق بقلبه شيء مما يُسْمَع، وقيل: لا تمكن زائغ القلب من أذنك؛ فإنَّا رأينا قومًا استهواهم تَهَاتِر[١] ابن الخطيب الرازي حتى تزندقوا[٢]، ولا غيبة فيمن كان بهذه الصفة لأن ذمه مأمور به، ورُوِيَ: قولوا في الفاسق ما فيه ليعرفه الناس. والبدعة ما كان مخترعًا على غير مثال سابق ومنه بديع السموات والأرض: أي موجدهما على غير مثال سبق، وشرعًا ما أحدث على خلاف أمر الشارع ودليله الخاص والعام بأن يكون الحامل عليه مجرّد الشهوة، وقال ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تَأَمَّر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عُضُّوا عليها بالنواجذ[٣]، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»، وورد عنه ﷺ: «ستفترق أمّتي ثلاثًا وسبعين فرقة، اثنان وسبعون في النار، وواحدة ناجية وهي ما أنا عليه وأصحابي».

قال اللقاني:

(١) تَهَاتِر: شهادات يكذب بعضها بعضًا. (م).

(٢) تَزَنْدَقُوا: ألحدوا أو أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر. (م).

(٣) النَّوَاجِذ: الأضراس . (م).

وكُلُّ خَيرٍ في اتِّبَاعِ مَنْ سَلَف وكُلُّ شَرٍّ في ابْتِدَاعِ مَنْ خلَف

وورد عنه ﷺ أَبَى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته. ومن دعائه ﷺ: «اللهم زدني علمًا ولا تُزِغْ قلبي بعد إذ هديتني وهَبْ لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب».

(رجع) ومن علامة شريف العِرض أن يعرف وضع الأشياء في موضعها، وأن يميز الغث[١] من السمين، وأن يؤثر العفاف كما قيل:

دَعْنِي ونَفْسِي والعَفَاف فَإِنَّني جَعَلْتُ عَفَافِي طُولَ عُمْرِي دَيْدَني[٢]
وأَصْعَبُ من قَطْعِ اليَدَين عَلَى الفتى صَنِيعةُ بِرٍّ نَالَها مِنْ يَدِي دَني

وأن يبذل نفسه في حب الخير والبر، وأن يأتمر بما تأمره به النفس المطمئنة، فبهذا يكتسب سعادة الدارين ولا يجدها إلا في الصدق والبر، ومن علاماته أن يعترف بالفضل لأربابه، ولا يدّعي أكثر مما عرفه كما قيل:

ومِنَ البَلْوَى الَّتِي لَيْـ سَ لَهَا فِي النَّاسِ كُنْه[٣]
أَنَّ مَنْ يَعرِفُ شَيْئًا يَدّعِي أَكْثَرَ مِنْه

(١) الغَثّ: الرديء. (م).
(٢) دَيْدَني: دَأْبِي. (م).
(٣) كُنْه: نهاية (م).

وقيل:

مَنْ تَـــــرَاه يَدّعِي مَا لَيْسَ فيه كَذَّبَتْه في دَعَــــــاوِيه الشَّوَاهِدُ

ومن علاماته عدم الحرص لأنه يسلب فضائل النفس لاستيلائه عليها، فيمنع من التوفر للعبادة، ويبعث على التورط في الشبهات لقلة تحرزه منها، مع أن الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى الإذلال لنفسه وإسخاط خالقه كما قيل:

لا تَطْلُبَنَّ معَيشَــــــةً بِتَذَلُّلِ فَليأَتِيَنَّك رِزْقُــــــكَ المقسُومُ
واعْلَم بأِنَّكَ آخِــــذٌ كُلَّ الَّذِي لَكَ في الكِتَابِ مُسَطَّرٌ مَرْقُومُ[١]

ومن المستحسن هنا قول بعضهم:

أَمْطِرِي لُؤْلُؤًا جِبَالَ سَرَنْدِيـ ـب وفِيضِي آبَارُ تَكْـرورَ تِبْرَا[٢]
أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أُحْرَم قُوتًا وإذا مِتُّ لَسْتُ أُعْدَم قَبْرَا
هِمَّتِي هِمَّةُ الكِرَامِ ونَفْسِي نَفْسُ حُرّ تَرَى المَذَلَّة كُفْرَا

---

(١) مَرْقُوم: مُبَيَّن. (م).

(٢) تِبْرَا: ذَهَبًا (م).

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: من أصبح يشكو من ضيق المعاش فكأنما يشكو ربه، ومن أصبح لأمور الدنيا حزينًا فقد أصبح ساخطًا على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنما يشكو الله، ومن تواضع لغني لأجل غناه أحبط الله ثلثي عمله، ومن أهان فقيرًا لأجل فقره ذهب ثلثا دينه، ومن أُعْطِيَ القرآن فلم يعمل به أُدْخِل النار، وأبعده الله من رحمته.

وفي الصحيح ذاق طعم الإيمان مَنْ رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً. فأخبر أن للإيمان طعمًا وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب، وقد ورد عنه ﷺ: «يأتي على الناس زمانٌ القابض على دينه كالقابض على الجَمْر» رواه الترمذي عن أنس كناية عن عدم المساعد والمعاون على الدين، وقيل مثل الإيمان مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق، قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ [الشعراء/ ١١٩]، وقال بعضهم: عليكم بدين العجائز، وقد أنشد الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد رحمه الله:

تَجَاوَزْتُ حَدّ الأَكْثَرِين إِلَى العُلَى ... وسَافَرْتُ واسْتَبقَيْتُهُم في المَرَاكِزِ
وخُضْتُ بِحَارًا لا قَرَارَ لِلُجِّها[1] ... وَأَلْقَيْتُ نَفْسِي في فَسِيحِ المفَاوِزِ[2]
ولَجَّتْ[3] بِي الأَفْكَارُ ثم تَرَاجَعَ اخْـ ... ـتِيَارِي إلى اسْتِحْسَان دِينِ العَجَائِزِ

---

(١) لُجّهَا: عمقها. (م).

(٢) المَفَاوِز: المهالك. (م).

(٣) لَجَّت: تداخلت. (م).

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

يا طَالِبَ الرِّزقِ في الدُّنيَا بِحِيلَتِهِ عَلَيْه مِنْ بَلَدٍ تَسْعَى إلى بَلَدِ
تَبْغِي الزِّيادَة والأَرْزَاقُ قد قُسِمَت بَيْنَ الخَلائِقِ لَمْ تَنْقُصْ ولَمْ تَزِدِ
أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ فِيمَا لَسْتَ تُدْرِكُه أَفْنَيت نَفْسَك في هَمٍّ وفي نَكَدِ
أَقْصِرْ عِنَاكَ[1] فَإِنَّ الرِّزقَ مُنْقَسِمٌ فالرِّزقُ يَأتِي ولَوْ في جَبْهَةِ الأَسَدِ

ويقال أنه وُجِدَ في كتاب لجعفر بن يحيى خمسة أسطر مكتوبة بالذهب: الرزق مقسوم، والأجل محتوم، والحريص محروم، والبخيل مذموم، والحسود مغموم، ومن كلام المتنبي:

وأَظْلَمُ أَهْلِ الأَرْضِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا لِمَن بَاتَ فِي نَعْمَائِه يتَقَلَّبُ

وعن النبي ﷺ أنه قال: أربعة جواهر تزيلها أربعة أشياء، أما الجواهر فهي العقل والدين والحياء والعمل الصالح، فالغضب يزيل العقل، والحسد يزيل الدين، والطمع يزيل الحياء، والغيبة والنميمة تزيل العمل الصالح. وفي المثل صحة الجسد ترك الحسد، وقال بعضهم: الناس على قسمين إن رأوا غَنيًّا حسدوه وإن رأوا فقيرًا مقتوه، وقيل: الحاسد غضبان على من لا ذنب له. وقال

(١) عِنَاك: معاناتك. (م).

أبو العتاهية:

حَسَدُوا الفَتَى إذْ لم يَنَالُوا سَعْيَه فالنَّاسُ أعـــداءٌ له وخُصُومُ
كَضَرائِرِ الحَسْنَاء قلنا لِوَجْهِهَا حَســدًا وبُغْضــًا إنه لَدَمِيمُ

وخير الناس من يُحْسَد كما قيل:

ولا خَــلاَّك الدَّهرُ مِنْ حَاسِدٍ فَإِنَّ خَيْرَ النَّــاسِ مَنْ يُحْسَــدُ

والحسد تمني زوال نعمة المحسود سواء تمنى انتقالها إليه أم لا، فيشترك مع الغبطة في أنهما طلب بالقلب، غير أنهما يفترقان من حيث إنّ الحسد تمني زوال النعمة عن الغير، والغبطة تمني حصول مثل نعمة الغير من غير تعرّض لزوالها عن صاحبها، وحكم الحسد التحريم، وحكم الغبطة الإباحة لعدم تعلقها بمفسدة، ودليل تحريم الحسد قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق/ ٥]، ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ [النساء/ ٥٤]. الآية، والسنة قوله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا[١] ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا» وهو أوّل معصية عُصِي الله بها في السماء حين حسد إبليس آدم عليه السلام فلم يسجد له، وفي الأرض حين قتل أحد ابني آدم - وهو من لم يُقْبَل قربانه - الآخر - وهو من تُقبِّل قربانه - ولجمال الدين محمد بن نباتة:

(١) تَنَاجَشُوا: تزايدوا في تقدير الأشياء إغراءً وتمويهًا. (م).

زِدْ كُلَّ يَوْمٍ فِي العُلَى رِفْعَةً وَلْيَصْنَعِ الحَاسِدُ مَا يَصْنَعُ
الدَّهْرُ نَحْوِي كَمَا يَنْبَغِي يَدْرِي الَّذِي يَخْفِضُ أو يَرْفَعُ

و قيل :

ومَا الجُودُ يُفْنِي المَالَ قَبْلَ فَنَائِه ولاَ البُخْلُ في مَالِ البَخِيلِ يَزِيدُ
فلا تَلْتَمِسْ مَا لا تَعِيشُ بِكَدّه لِكُلِّ غَدٍ رِزْقٌ يَعُودُ جَدِيدُ

وحُكِي أنّ قيس بن عاصم كان كريمًا جدًّا فتزوج ابنة زيد الفوارس، فأتته في الليلة الثانية بطعام، فقال: وأين أكيلي فلم تعلم ما يريد فأنشأ يقول:

أَيَا بِنْتَ عَبْدَ الله وابْنَة مَالِكِ ويَا بِنْتَ ذِي البُرْدَين والفَرَسِ الوَرْدِ
إذا ما صَنَعْتِ الزَّادَ فالتَمِسِي له أَكِيلاً فَإنِّي لَسْتُ آكُلُه وَحْدِي
أَخًا طَارِقًا أو جَارَ بَيْتٍ فإنني أَخَافُ مَذَمَّاتَ الأَحَادِثَ[1] مِنْ بَعْدِي
وإنِّي لَعَبْدُ الضَّيفِ مِنْ غَيْرِ ذِلَّة ومَا بِي إلاَّ تِلْكَ مِنْ شِيَمِ العَبْدِ

وعن أبي الدرداء أنّ رسول الله ﷺ قال: ما من يوم غربت شمسه إلا بعث الله ملكين يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثقلين. اللهم أعط منفقًا خلفًا وأعط ممسكًا تلفًا، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ [الليل / ٥]

---

(١) الأحادث: ما يتحدث به. (م).

الآيات، وقيل:

بِقَدْرِ الكَدّ أَنْفِق كُلَّ يَوْمٍ ومُدّ الرِّجْل في حَدّ الكِسَاء
وشَاوِرْ في أُمُورِك أَهْلَ فَضْلٍ وحَاذِرْ مِنْ مُشَاوَرَة النِّسَاء

ووقف عَليٌّ عَلَى سائل فقال للحسن: قل لأمّك تدفع له درهمًا، فقالت: إنما عندنا ستة دراهم للدقيق، فقال عليّ: لا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده، ثم أمر للسائل بالستة دراهم كلها، فما برح حتى مرّ به رجل يقود بعيرًا فاشتراه بمائة وأربعين درهمًا، وأنسأ أجله ثمانية أيام فلم يحل عقاله حتى مرّ به رجل آخر، فقال له: بكم؟ فقال: بمائة وأربعين درهمًا، قال: آخذه بمائتي درهم ودفع له الثمن، فدفع عليّ منه مائة وأربعين درهمًا للذي ابتاعه منه، ودخل بالستين الباقية على فاطمة رضي الله عنها، فسألته من أين هي؟ فقال: هذا تصديق لما جاء به أبوك، من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها.

ورُوِي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاء ثابت بن قيس إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مَجْهُود[1] فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق نبيًّا ما عندنا إلا ماء، ثم أرسل إلى الأخرى فقالت مثل ذلك، ثم قلن كلهنّ مثل ذلك ما عندنا إلا ماء، فقال من يُضَيِّفُ هذا هذه الليلة؟ فقام رجل من الأنصار يقال له

(١) مَجْهُود: بلغ غاية المشقة. (م).

أبو المتوكل وقيل أبو طلحة، فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق إلى رحله فقال لامرأته: هل عندك شيء فقالت: لا إلا قوت صبياني، قال: فعَلِّليهِم[(١)] بشيء فإذا دخل ضيفي فأطفئي السراج ونوّمي الأطفال وقدمي للضيف ما عندك، ففعلت وأظهرا له أنهما يأكلان معه فنزل قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر/ ٩] فلما أصبح غدا[(٢)] إلى النبي ﷺ فقال: قد عجب الله من صنيعكما الليلة بضيفكما، فإن قيل: إذا لم يكن ثم عندهما إلا قوت الصبيان، وهو يدل على أن الصبيان كانوا جياعًا، فيجاب بأن الصبيان لم تشتد حاجتهم للأكل، وإنما خشيا أن الطعام لو جيء به للضيف وهم مستيقظون لا يتركون الأكل منه ولو كانوا شباعًا على عادة الصبيان فيشوّشون على الضيف.

وقال ابن عمر: أُهدِي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ شيء، فقال: إن أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا منِّا فبعثه إليهم، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأوّل. ورُوِي أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار فجعلها في صرّة ثم قال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجرّاح ثم تلكأ ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع بها، فذهب

---

(١) فعَلِّليهِم: فاشغليهم. (م).
(٢) غَدَا: بكّر في الذهاب. (م).

بها الغلام إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعال يا جارية اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفدها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعدّ مثلها لمعاذ بن جبل، وقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل وتلكأ في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع، فذهب بها إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: رحمه الله ووصله، وقال: يا جارية اذهبي إلى بيت فلان بكذا، وبيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ وقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا، ولم يبق في الخرقة إلا ديناران فرمى بهما إليها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره بذلك فسرّ، وقال: إنهم أخوة بعضهم من بعض وقيل:

أُولَئِكَ قَوْمٌ أتلَفُوا مُهَجَاتِهِم ... لإِحْيَاءِ دِينِ الله بِالطَّعْنِ والضَّرْبِ
بِكُلِّ طَوِيلٍ مِنْ رِمَاحِ رُدَيْنَة[١] ... وكُلِّ حُسَامٍ مُرْهَفٍ ذَكَرٍ عَضْبِ[٢]
عَلَى كُلِّ مِخْمَاصٍ[٣] مِنْ الخَيلِ أَعوج ... يَمرّ كَمَرّ الرِّيحِ في أَثْرِ السُّحْبِ
غُيُوثٌ[٤] إذا أَعطُوا، لُيُوثٌ إذا التَقُوا ... مُعَانُون مَنْصُورُون بالرَّهَبِ والرُّعْبِ

(١) رِمَاح رُدَيْنَة: رماح منسوبة إلى امرأة اسمها ردينة. (م).
(٢) عَضْبِ: قاطع. (م).
(٣) مخْمَاص: خالي البطن من الجوع. (م).
(٤) غُيُوث: جمع غيث، وهو المطر. (م).

وقال أبو يزيد البسطامي: ما غلبني أحد، ما غلبني شاب من أهل بلخ قدم علينا حاجًّا فقال لي: يا أبا يزيد ما حدّ الزهد عندكم؟ فقلت: إذا وجدنا أَكَلْنا وإذا فقدنا صَبَرْنَا، فقال: هكذا كلام بلخ عندنا، فقلت له: ما حدّ الزهد عندكم؟ فقال: إذا فقدنا شَكَرنَا وإذا وجدنا آثَرْنَا[1]، والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال. وعن النبي ﷺ أنه قال: ذات يوم لأصحابه كيف أصبحتم؟ قالوا: أصبحنا مؤمنين بالله، قال: وما علامة إيمانكم؟ قالوا: نصبر على البلاء ونشكر على الرخاء ونرضى بالقضاء، فقال: أنتم مؤمنون بالله حقًّا ورب الكعبة.

وكان هشام بن المغيرة المخزومي من أجاويد العرب حتى اتخذت قريش يوم موته تاريخًا فقيل فيه من الرثا:

وأَصْبَحَ بَطْنُ مَكَّة مُقْشَعِرًّا ... كَأَنَّ الأَرْضَ لَيْسَ بِهَا هِشَامُ

وقيل:

المَالُ يَنْفَدُ والثَّنَــــاءُ يُخَلَّدُ ... والجُودُ في كُلِّ المَوَاطِنِ يُحْمَدُ
وأَخُو السَّمَاحَةِ في البِلادِ جَمِيعِها ... بَيْنَ العِبَادِ عَلَى الدَّوَامِ مُسَوّدُ[2]

---

(١) آثَرْنَا: فَضَّلْنَا غيرنا على أنفسنا. (م).

(٢) مُسَوَّد: سَيّد. (م).

وقيل: إنه لما حج جعفر اجتاز في طريقه بالعقيق، وكانت سنة مجدبة فاعترضته امرأة من بني كلاب وأنشدته:

إنِّي مَرَرْتُ عَلَى العَقيقِ وأَهْلِه يَشْكُون مِنْ مَطَرِ الرَّبيعِ نُزُورَا[١]

ما ضَرَّهم إذ جَعْفَر جَارٌ لَهُم أَنْ لا يَكُون رَبِيعُهم مَمْطُورَا

وقيل:

يَسْـــقُط الطَّيرُ حَيثُ يَلْتَقِطُ الحَـ ـبَّ ويَغْشَـــى مَنَـــازِل الكُرَمَاء

وقيل:

ثَمَنُ الإِحْسَـــــــانِ شُكْرٌ ويَدُ المعْـــــــــــرُوفِ ذُخْــــرُ

وثَنَـــــــاءُ الحَـــــيِّ بَعْدَ الـ ـــــمَـــوتِ للمَـــيّتِ عُمْرُ

وقال بعضهم: ولعمري إن الزمان الذي يُثْنَى فيه على الميت بعد موته أحسن عمريه وأطولهما وأشرفهما كما قيل:

رَدَّت صَنَائِعُـــــه إِلَيْه حَيَاتَـــه فَكَـــأنَّه مِن نَشْـــرِهَا مَنْشُور

وقيل:

ومَا ضَاعَ مَالٌ أَوْرَث المَجْدَ أهلُه وَلكِن أَمْـــوَالَ البَخِيلِ تَضِيعُ

---

(١) نُزُورًا: قليلاً. (م).

وقيل:

أَنْفِق فَإِنَّ اللهَ كَافِلُ عَبْدِه فالرِّزْقُ في اليـومِ الجَديدِ جَدِيدُ
المَـــالُ يَكْـــثُر كُلَّمَا أَنْفَقْتَهُ كالبِئْرِ يُنْـــزَحُ مَاؤُهَا فَيزِيدُ

وقيل:

إذا دَرَّت نِيَـــاقُك فاحْتَلِبْها فَمَا تَدْرِي الفَصِيـــلُ لِمَنْ يَكُونُ
إذا ظَفِرَت يَـــدَاكَ فلا تُقَصِّر فإنّ الدَّهْـــرَ عَادَتُه يَخُـــونُ

وروى الإمام أبو حنيفة رحمه الله عن ثوبان ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ «لا يزيد في العمر إلا البرِّ ولا يردّ القدر إلا الدعاء، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»، وقال ﷺ «جُبِلَت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»، عن ابن مسعود -ولهذا الحديث قصة- أخرج العسكري قيل للأعمش: أن الحسن بن عمارة ولي القضاء، فقال الأعمش: يا عجبًا من ظالم وُلِّي المظالم، ما للحائكين[1] والمظالم، فبلغ الحسن فقال: عَلَيَّ بمنديل وأثواب، فوجه بها إليه، فلما كان من الغد سئل الأعمش عنه، فقال: بخ بخ (كلمة تقال عند المدح للرضى بالشيء) هذا الحسن بن عمارة زان العمل وما زانه، فقيل له:

---

(١) الحَائِكِين: الناسجين. (م).

قلت بالأمس ما قلت واليوم تقول هذا، فقال: دع عنك هذا. حدّثني خيثمة عن ابن عمر عن المصطفى ﷺ أنه قال: جُبِلَت القلوب إلى آخره. وقيل: أبت النفس الخبيثة أن لا تخرج من الدنيا حتى تسيء إلى من أحسن إليها وقيل:

تَنَحَّ عَن القَبِيـــــحِ ولا تَرِدْه ومَنْ أَوْلَيْتَه حُسْنًا فَــزِدْه

وقيل:

دَارِ[١] جار الدَّارِ إِنْ جَارَ وإِنْ تَجِدْ صَبْرًا فَمَـــــا أَحْلَى النَّقْلِ

أراد مطلق الجار في دار أو دكان، مسلمًا أو غير مسلم، وقيل: الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق، وقيل:

إذا طَالَ الطَّريقُ عَلَيْكَ يَوْمًا فَلَيْس دَوَاؤُه إلاَّ الرَّفيقُ
تُحَادِثُه وتَشْكُو مَا تُلاقِي فيَقْصُر بالحَدِيثِ لَكَ الطَّرِيقُ

وقال ﷺ: مازال حبيبي (أي جبريل) يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه، وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»، ولا يجوز للجار إحداث ما يكشف حرم الجار من شباك وطاقات لأنه يَضُرُّ به. وقال

(١) دارِ: اتق ولاين. (م).

بعضهم: كل امرئ يُعْرَف بقوله ويُوصَف بفعله، فقل سديدًا وافعل حميدًا، من عرف شانه وحفظ لسانه، وأعرض عما لا يعنيه وكَفَّ عن عرض أخيه، دامت سلامته وقَلَّت ندامته. كن صَمُوتًا وصَدُوقًا فالصمت حرز(١) والصدق عز، من كثر مقاله شُتِم، ومن أكثر سؤاله حُرِم، ومن استخف بإخوانه خُزِل، ومن اجترأ على سلطانه قُتِل، ما عَزَّ من أذل جيرانه ولا سَعَدَ من حرم إخوانه، أَجَلُّ النوال ما وصل قبل السؤال، وقال ﷺ: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه ولم يتعد طوره.

(رجع) وقال بعض البلغاء: المقادير الغالبة لا تُنَال بالمغالبة، والأرزاق المكتوبة لا تُنَال بالشدة والمكالبة كما قيل:

إِنَّ الأُمُورَ إذا مَا الله يَسَّرَها أَتَتكَ مِنْ حَيثُ لا تَرْجُو وتَحْتَسِب
وكُلُّ ما لم يُقَدّره الإلَه فَمَا يُفيدُ حِرْصُ الفَتَى فيه ولا النَّصَب(٢)
ثِقْ بالإلَه ولا تَرْكَن إلى أَحَد والله أَكْرَمُ مَنْ يُرْجَى ويُرْتَقَب(٣)

---

(١) حِرْز: حصن. (م).
(٢) النَّصَب: التعب. (م).
(٣) يُرْتَقَبُ: يُنْتَظَرُ. (م).

وقيل:

إِنِّي أَرَى مَنْ لَهُ قنُـــوعُ يُدْرِكُ مَا نَـــالَ مَنْ تَمَـــنَّى
والرِّزْقُ يَأتِي بِـــــلاَ عَنَاءٍ ورُبَّمَا فَـــاتَ مَن تَعَـــــنَّى[١]

وقيل:

وقَدْ يَجِدّ الحَرِيصُ في طَلَب الرِّز قِ فَيَشْقَى ويُرْزَقُ المُسْتَرِيحُ
ويُعَادُ العَلِيلُ[٢] حِينًا من الدَّهـ ـرِ فَيَبْرأ[٣] وقَدْ يَمُوتُ الصَّحِيحُ

وقيل:

ومَنْ ظَنَّ أَنَّ الرِّزقَ يَأتِي بِحِيلَةٍ فَقَد كَذَبَتْه نَفْسُه وهو آثِمُ[٤]

وقال بعضهم من قصيدة نبوية:

فبِالأَقْدَارِ يُرْزَقُ غَيْرُ عَانٍ[٥] بِلاَ سَـــعْي ويُحْرَمُ مَنْ تَعَنَّى
ولم يَفُت الفَتَى بِالعَجْزِ حَظٌّ ولا بِالسَّعْي يُدْرِكُ مَا تَمَنَّى

---

(١) تَعَنَّى: تَعِب. (م).
(٢) عَلِيل: مريض. (م).
(٣) يَبْرَأ: يشفي. (م).
(٤) آثِم: وقع في المعصية. (م).
(٥) عَانٍ: متعب. (م)..

والسعيد من توكل على رازق الطير في عشه، والمريض في فرشه، والدود في الصخرة الصماء، والجنين في ظلمة الأحشاء. قيل:

لاَزَمْتُ دَارِي مِثْل مَا لاَزَم ضَبٌّ نَفَقَه[١]
فلَمْ يَدَعْنِي خَالِقِي سُبْحَانَه مِن نَفَقةْ

ويحسن هنا إيراد شذرة[٢] من ضمن مقالة خطابية تحاور بها شيخ مع تلميذه، فقد يتضح منها في هذا المسلك السبيل، وها هو عقدها البهي الجميل (فقلت) (أي التلميذ) له (أي شيخه) فقلت له: أعيذ شيبك من الشوائب ونفسك من النوائب.

فِيم اقْتِحَامُك لُجّ البَحْرِ تَرْكَبُه وأَنْتَ تَكْفيكَ مِنْه مَصَّة الوَشَل[٣]

فقال:

أُرِيدُ بَسْطَة كَفٍّ أَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى أَداءِ حُقُوقٍ للوَرَى قَبْلِي

(١) نَفَقَه: جحره. (م).
(٢) شذرة: جزء نفيس. (م).
(٣) الوَشَل: المحتاج إلى الماء. (م).

وتالله ما سعيي على نفسي التي ترضى باليسير، ولكن على عيال يعتقدون أنّ وليهم على كل شيء قدير، والفتى من يُرْجَى دوام نفعه وخيره، ولم يهتم في سعيه لنفسه كالسعي لغيره كما قلت سابقًا:

إنّ الفَـــتَى مَنْ لَمْ يَـــزَل   يَحْنُـــــو عَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِــه
أَبَـــدًا تَـــرَاه لِغَـــيْرِه   يَسْـــعَى ولا يَسْـــعَى لِنَفْسِه

ولله دَرُّ من قال:

ظِـــلُّ[1] الفَتَى يَنْفَعُ مَنْ دُونَه   ومَـــا لَهُ في ظِـــلِّه نَفْـــعُ

فقلت له: هلا كان ذلك قبل ارتحال شبابك، وتمزيق إهابك[2]، وذهاب أطيبيك، ونفاذ أعذبيك، واجتماع قواك، واعتدال شواك[3]، وكيف لزمت في ذلك الوقت الدَّعة[4] والوطن حتى استوجبت أن يقال لك: الصيف ضيعت

---

(١) ظِلُّ: شَخْصُه لمكان سواده. (م).
(٢) إِهَابُك: جلدك. (م).
(٣) شَوَاك: أطرافك. (م).
(٤) الدَّعة: خفض العيش. (م).

اللبن[١]، وأصبحت قُحْلاً نَحْلاً[٢] تحكي الهلال دقة وشكلاً، فقال: كان لي حينئذ أهل معونة يكفونني الثقلة والمؤنة[٣] فلما اجتثتهم[٤] المنية وانقطعت منهم الأمنية، ومات منهم من يعاش في أكنافهم[٥] ويحتفلون بإخوانهم وأضيافهم، وتشعث[٦] حالي ومرّ منه ما هو حالي، تجشمت عرق القُرْبة[٧] وتكلفت تعب الغربة، وتالله ما خرجت من الوطن الذي الفؤاد به معلق إلا بعد وصولي إلى حالة أعظم من حالة ابن المذلق، ثم استعبر وأنشأ يقول:

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ ومُقْتِرًا مِنَ المَالِ يَطْرَح نَفْسَه كُلّ مَطْرَحِ[٨]
لِيَبْلُغَ عُذْرًا أو يُصِيبَ رَغِيبَةً[٩] ومَبْلَغُ نَفْسٍ عُذْرَها مِثل مَنْجَحِ

---

(١) الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ الَّلبَن: مثل عربي يُضرب لمن ضيَّع الفرصة وفوَّت الغنيمة، وترك الكثير واختار القليل. (م).
(٢) قُحْلا نَحْلاً: يَبِسًا مهزولاً. (م).
(٣) الثِّقلة والمؤنة: الأمتعة والقوت. (م).
(٤) اجْتَثَّتْهُم: قطعتهم من أصولهم. (م).
(٥) أَكْنَافِهِم: نواحيهم. (م).
(٦) تَشَعَّث: تفرق. (م).
(٧) القُرْبَة: القرابة. (م).
(٨) مَطْرَح: مكان بعيد عن الأهل والعشيرة. (م).
(٩) رَغِيبَة: الأمر المرغوب فيه. (م).

ويرحم الله من قال:

إِذَا لم يَكُنْ إلاَّ الأَسِنَّة[١] مَرْكِبًا فَلاَ رَأْيَ للمُضطَّر إلاَّ رُكُوبُهَا

وفي المعنى قول الآخر:

ويَرْكَبُ حَدَّ السَّيفِ من أَنْ تُضِيمَه[٢] إِذَا لم يكُن عن شَفْرة السَّيفِ مَزْحَل[٣]

وبعد هذا، فإني على ظن قد لا يتحقق، ورجاء قد تذروه رياح الأقدار فيتمزق، ولكن قد أمر الله بالسعي وترك الدعة، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء/ ١٠٠]، وقال تعالى حاثًّا على السعي لخلقه: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك/١٥]، وفي حديث من صلى الله وملائكته عليه وسلموا «سافروا تصحوا وتغنموا»، وقال الشاعر:

إنْ خَانكَ الدَّهْرُ فكُنْ لاَئِذًا بالبيدِ[٤] والظَّلْمَاءِ والعِيسِ[٥]
وَلاَ تَكُنْ عَبْدَ المُنَى فالمُنَى رُؤوسُ أَمْوَالِ المَفَاليسِ

(١) الأَسِنَّة: أسنة الرماح ويقصد بها حديدتها لصقالتها وملاستها. (م).
(٢) تُضِيمُه: تظلمه وتنقصه. (م).
(٣) مَزْحَل: غِنَى عن عمل ذلك. (م).
(٤) البِيد: الصحاري. (م).
(٥) العِيس: الإبل. (م).

وفي المعنى قول أبي الأسود الدئلي حيث يقول:

وَمَا طَلَبُ المعِيشَةِ بالتَّمنِّي ولَكِن أَلْقِ دَلْوَكَ في الدِّلاء[1]
فَإِنَّ مَقَادِرَ الرَّحْمَنِ تْجرِي بِأَرْزَاقِ العِبَادِ من السَّمَاءِ

وقال آخر:

عَلَى المَرْءِ أَنْ يَسْعَى لِمَا فِيه نَفْعُه وَيقْضِي إِلَهُ الخَلْقِ مَا كَانَ قَاضِيًا

ومن زعم أن مباشرة الأسباب تنافي التوكل فقد عمي عن أسباب الشر والخير، والتحقيق أن حق التوكل مباشرة الأسباب مع عدم الاعتماد عليها كما يشير إليه حديث الطير؛ وإنما يباشرها العبد أدبًا وامتثالاً لرب الأرباب، وليرتقي بها إلى معرفة ذاته التي هي السبب الأعظم المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [ص/ ١٠]، فقلت: وما حكمة أمر العبد بمباشرة السبب ولو شاء الله لرزقه من غير تعب لأن السبب أمر عادي عند كل منتبه يخلق الله المسبب عنده لا به، فقال: تلك حكمة باهرة وآية ظاهرة، أمرك بمباشرة السبب في الدنيا لينبهك على أنك لا تنال إلا بشق الأنفس ما فيها من الشهوات الفانية، فكيف تنال مع الراحة نعيم الآخرة الباقية. فقلت: صدقت وبالحكمة نطقت.

---

(١) الدِّلاء: التي يُسْتَقى بها. (م).

فكيف يلتئم ما قدّمت من مدح السفر مع حديث: «السفر قطعة من العذاب»، فقال: «اعلم أن السفر كالأفعى فيه السم والترياق[١]، وكالماء فيه الحياة والإغراق»، فقوله: «سافروا تغنموا» تَعَرُّضٌ لخيره، وقوله: «السفر قطعة من العذاب» تعرض لضيره، ومثله ما ورد في المال من المدح والذم، ومنه نعم البيت الحمام، وبئس البيت الحمام، وهذا نوع من أنواع البديع تسميه أهله بالمغايرة لا يقتدر عليه إلا كل ذي قريحة[٢] غير قريحة[٣] وفكرة ذكية غير فاترة، لكن لابدّ أن يمدح فيه الشيء من غير الوجه الذي ذمه وبالعكس، وذلك مما تنشرح له الصدور وتطيب به النفس.

قال: ثم أعود إلى بقية جواب كلامك وما عرضت لي به فيه من ملامك، فأقول: وماذا عَلَى من أذهب أطيبيه وأعذبيه الزمان إذا حفظ الله عليه القلب واللسان، وقد عرفت أن المرأ بأصغريه لا بأكبريه، وأما الشيب فهو ثوب الوقار وزهرة الأعمار، وزبدة[٤] حياة المرء التي مخضتها[٥] يد التهذيب والتأديب، وسبيكة الفضة التي سبكتها راحة التجريب، وفجر الوسنان وأفضل الألوان، ونجوم الهدى ورُجُوم[٦] العدى، ونذير الأبرار وبطاقة العتق من النار، ففي الزبور

(١) التِّريَاق: الدواء. (م).
(٢) قَرِيحَة: طبيعة جيدة. (م).
(٣) قريحة: جريحة. (م).
(٤) زَبَدَة: خلاصة. (م).
(٥) مَخَّضَتْهَا: قلبتها وتبيَّنت عواقبها. (م).
(٦) رُجُوم: مرامي. (م).

يقول الباري: «الشيب نوري وأنا أستحي أن أحرق نوري بناري» على أن ما نقص من المرء من شبابه يزيد في عقله وآدابه كما قال ابن المعتز:

وَمَا يَنْتَقِص مِنْ شَبابِ الرِّجَالِ   يَزِدْ فِي نُهَاهَا[١] وأَلْبَابِهَا

وقال علي رضي الله عنه بقية عمر المرء ليس لها ثمن يستدرك بها ما فات ويحيا بها ما مات، وقلت سابقًا من فصل: إذا رحل عن المرء شبابه ووقع نسره وطار غرابه ذهبت لذة عمره ولم يبق منه غير دُرْدِي خمره[٢]، لكن ما أحسن تلك البقية إذا استدرك بها من التقصير وصرفها في طاعة مولاه السميع البصير، فهنالك يبدّل الله حركات نفسه سكنات وسيآتها حسنات، فيسمع هواتف الحق تنادي نفسه بأذن تصغي إلى الحق وتعي ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ. ٱرْجِعِىٓ﴾ [الفجر/ ٢٧- ٢٨] فترجع إلى سعة رحمة الرحيم، وتسبح في بحار كرم الكريم، وإنما الأعمال بالخواتيم.

وأما الصِّبا فهو شعبة من الجنون ومطية[٣] المغرور المفتون، تسلك به أضيق المسالك وتقتحم به في حفر المهالك، وهو سكران من خمر الشهوات، غارق في

(١) نُهَاهَا: عقولها. (م).

(٢) دُرْدِي خمره: ما يتبقى منه. (م).

(٣) مَطِيّة: ما يركب ظهره. (م).

بحار اللذات، فلا يستفيق من سكرته إلا بسكرة تقطع الوريد، ويقول مديرها عليه: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [ق/ ١٩]، وأما قولك أني قحل نحل فحسبك قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النحل/ ٦٨] أما بلغك ياذا اللسن أنّ إمامنا الشافعي قال: ما أفلح سمين قط إلا أن يكون محمد بن الحسن، أما علمت أن لحم الآدمي وشحم كلاه لا يربو[١] إلا لعدم همه بأمر آخرته ودنياه، ومن لم يهتم بإحداهما خرج عن الإنسانية وتمحض[٢] للحيوانية.

ثم قال - سبحان الله - لقد رأيت منك عجيبًا وأمرًا غريبًا، قلت: وما ذاك جعلت فداك؟ فقال: رأيتك تضحك وتمحك[٣]، وتقرب وتعزب وتطلع وتغرب وتطفو وترسب، وتغني وتنوح، وتكتم وتبوح، وتتصابى وتتمشيخ، وتتواضع وتتبزخ[٤]، وتارة أراك صدّيقًا وأخرى أحسبك زنديقًا حتى كأنك في تلونك الغول أو الحرباء أو أبو براقش أو أبو قلمون مع علمك أن التلون يسقط الإنسان من العيون كما يسقط أوراق الغصون كما قيل:

إيَّاكَ تُظْهِــــرُ للأَنَامِ تَلوّنًا   فَيَضِيعُ قَدْرُك عِنْـــدَه وتُلاَم
أو ما تَرَى الأَوْرَاقَ تَسْقُطُ مُذْ بَدَا   تَلوِينُها فَتَدُوسُـــها الأَقْــدَام

---

(١) يَرْبُو: يزيد. (م).

(٢) تَمَحَّض: تخلص. (م).

(٣) تَمْحَك: تجادل. (م).

(٤) تَتَبَزَّخ: تتقاعس. (م).

وقال آخر:

كَمْ أَنْتَ في حَقِّ الصَّديقِ تُفَرِّطُ ... تَرْضَى بِلاَ سَبَبٍ عَلَيْه وتَسْخَطُ
يا مَنْ تَلَوّن في الوِدَادِ أما تَرَى ... وَرَقَ الغُصونِ إذا تَلوّن يَسْقُطُ

فقلت: والله ما اقتدحت زندك[١] إلاَّ لأَرَي ما عندك، ولا قرعت[٢] مروتك إلاَّ لأَرَي مروءتك، وما اختبرتك إلا لأتخذك صاحبًا وخليلاً وظلاًّ ومقيلاً[٣]؛ فقد أوصى الحكماء بالاختبار قبل الاصطفاء والاختيار.

(رجع) وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خمسة مكتوبة على ساق العرش: لا راحة في الدنيا، ولا شفاعة في الموت، ولا حيلة في الرزق، ولا سلامة من ألسنة الناس، ولا رادّ لأمر الله»، وقالوا: مَثَلُ الدنيا مَثَلُ ظل الإنسان إن طلبه هرب منه، وإن وَلَّى عنه تبعه، وأنشدوا:

مَثَلُ الرِّزقِ الـــــذي تَطْلُبُه ... مَثَلُ الظِّلِّ الذي يَمْشِي مَعَك
أَنْتَ لا تُـــدْرِكُه طَـــالبًا ... وإذا وَلَّيْـــتَ عَنْـــــه تَبِعَك

---

(١) اقتَدَحْتُ زَنْدَك: أشعلت عودك، والمراد أثرت نفسك وحركت هِمَّتك. (م).

(٢) قَرَعْتُ: أصبت. (م).

(٣) مَقِيلاً: مكانًا للنوم والراحة. (م).

وليس للحريص غاية مقصودة ولا نهاية معدودة يقتنع بها، ولو صدق الحريص نفسه واستنصح عقله لعلم أن من تمام السعادة الرضى بالمقدور والقناعة بالميسور.

سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أن يعظه، فقال له الإمام: إن كان الله تعالى تَكَفَّل بالرزق فاهتمامك لماذا؟! وإن كان الرزق مقسومًا فالحرص لماذا؟! وإن كان الخَلَف[1] على الله فالبخل لماذا؟! وإن كانت الجنة حَقًّا فالراحة لماذا؟! وإن كانت النار حَقًّا فالمعصية لماذا؟! وإن كانت الدنيا فانية فالطمأنينة لماذا؟! وإن كان الحساب حَقًّا فالجمع لماذا؟! وإن كان كل شيء بقضائه وقدره فالحزن لماذا؟! وورد عنه ﷺ «لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها ومصابها وأجلها». وعنه ﷺ: «اتقوا الله وأجملوا[2] في طلب الدنيا (أي الحلال) فإن كلاًّ ميسر لما خلق له».

فمع النظر لذلك لا فائدة في سؤال الخلق مع التعويل عليهم، فإنّ قلوبهم كلها بيد الله يتصرف فيها على حسب إرادته، فوجب أن لا يعتمد في أمر من الأمور إلا عليه، فإنه المعطي المانع، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، له الخلق والأمر وبيد قدرته الضر والنفع وهو على كل شيء قدير. وقد ورد عنه ﷺ «ليس الغِنَي عن كثرة العَرَض وإنما الغنى غنى النفس (ففقر النفس لا ينسد أبدًا)»، وقال ﷺ: «لا تنظر إلى من هو أكثر منك فتتعب، وانظر إلى من هو أقل منك فترتاح».

---

(١) الخَلَف: ما يعطيه الله خَلَفًا. (م).

(٢) أَجْمِلُوا: اعتدلوا. (م).

وقال مجاهد في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل / ٩٧] (أي القناعة) وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ. وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[الانفطار / ١٣-١٤] النعيم القناعة والجحيم الطمع، وفي تفسير البغوي: الأبرار الذين برروا وصدقوا في إيمانهم بأداء فرائض الله تعالى واجتناب نواهيه. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم / ٩٦] (أي حُبًّا في قلوب الخلق) وقيل:

وإذا افْتَقَرْتَ إلى الذَّخَائِر[1] لم تَجِدْ ... ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالحِ الأَعْمَالِ

وقال بعض الأدباء: القناعة رضى والحرص سخط، والعايش راضيًا أحسن من العايش ساخطًا، وقيل:

اقنع بما تُرْزَق يَا ذَا الفَتَى ... فَلَيْسَ يَنْسَى رَبُّك النَّمْلَةْ
إِنْ أَقْبَل السَّعدُ فَقُم مُسْرِعًا ... وإِنْ تَوَلَّى مُدْبِرًا فَنَم له

قال بعضهم: يجب على العاقل أن يفعل في دنياه خمسة أشياء: أن يهجر الحرص والأمل، وأن يواصل العلم بالعمل، وأن يجتنب ارتكاب الزلل، وأن

(١) الذَّخَائِر: جمع ذخيرة، وهي ما يدخره الإنسان. (م).

يلاحظ قدوم الأجل، وأن يكون واقفًا بين الرجاء والوجل[١]. وعلامة الخوف قصر الأمل، وعلامة الرجاء أن تحسن الظن بالله تعالى.

ويُسَن للإنسان أن يُكْثِر من ذكر الموت لِخَبَر: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات». يعني الموت، فإنه ما يذكر في كثير إلا قَلَّلَه ولا قليل إلا كَثَّره، أي كثير من الأمل والدنيا، وقليل من العمل، وهاذم أي قاطع. وقيل لبعضهم:

قد قُلْتُ إذ مَدَحُوا الحَيَاة وأَسْرَفُوا　　في المَوْتِ أَلْفَ فَضَيلَةٍ لا تُعْرَفُ
مِنْهَا أَمَانُ عَذَابِه بِلقَائِه　　وفِرَاقُ كُلّ مُعَاشِرٍ لا يُنْصفُ

وقال أكثم بن صيفي: من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والثروة، وقيل:

ولم أَرَ بَعْد الدِّين خَيْرًا مِنْ الغِنَى　　ولم أَرَ بَعْدَ الكُفْرِ شَرًّا مِنْ الفَقْرِ

قال بعضهم: من كان له مال ولم يكن له واحد من عشرة أشياء فهو شقي: الدار الوسيعة، والخدم الملاح، والجواري الصباح، والملابس الفاخرة، والمراكب السنية[٢]، والبساتين النزهة، والخلان الفكهة[٣]، والأطعمة اللذيذة، والأشربة

---

(١) الوَجَل: الخوف. (م).
(٢) السَّنيَّة: الرفيعة. (م).
(٣) الخِلاَّن الفَكِهَة: الأصدقاء المازحين. (م).

الهنيئة، والعوارف[1] الجزيلة. وقيل الدار الضيقة العمى الأصغر. وقيل:

ولم يَسْتَقِم لِلمَرءِ يَوْمٌ ولَيْلَة بِلا شَمْس دينَارٍ ولا بَدْر دِرْهَمِ

وقيل: الدراهم مراهم تنجي من النوائب الدواهم[2]

وكان أحمد بن يوسف الكاتب يقول: مجالسة الثقلاء تثير الهموم وتجلب الغموم، وتؤلم القلب وتميت النفس، وتذهب النشاط وتطوي الانشراح. وقيل:

ومَا غُرْبَةُ الإِنْسَانِ في شُقَّةِ النَّوَى[3] ولَكِنَّهَا والله في عَدَمِ الشَّكْلِ[4]

رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: إذا أتى الرجل القوم فقالوا مرحبًا فمرحبًا له يوم القيامة، وإذا قالوا سخطًا فسخطًا له يوم القيامة، (ومرحبًا أي صادفت أو لقيت رُحْبًا بضم الراء سعة، وهي كلمة إكرام وإظهار مودّة ومحبة وتلقي الأحباب بها مندوب للحديث)، وقال ﷺ مجالسة الثقيل أثقل من سكرات الموت. وقيل: الموت الأحمر ولا مجالسة الثقيل.

---

(١) العَوَارِف: جمع عارفة وهي المعروف. (م).

( ) الدَّوَاهِم: الشديدة السواد . (م).

(٣) النَّوَى: البعد. (م).

(٤) الشَّكْل: الشبه والمثل. (م).

(رجع) وقال بعض البلغاء: إذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة، وإذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة؛ فمن أطاع الله ﷻ نصره، ومن لزم القناعة أزال فقره. وقال بعض الأدباء: القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر كما قيل:

قَنَعْتُ بِالقُوتِ مِنْ زَمَانِي   لِصَوْن عِرْضِي مِنَ الهَوَانِ
مَخَافَةَ النَّاسِ أَنْ يَقُولُوا   فَضْلُ فُلانٍ عَلَى فُلانِ
فَمَن رَآني بِعَيْنِ فَضْلٍ   رَأَيْتُه كَامِلَ المَعَاني
ومَنْ رَآني بِعَيْنِ نَقْصٍ   رَأَيْتُه مِثْلَ مَا يَرَاني
مَنْ كُنْتُ عَنْ بَابِه غَنِيًّا   فَلاَ أُبَالِي إذا جَفَاني

ورُوِيَ عنه ﷺ «عليكم بالقناعة فإنها كنز لا ينفد»، وورد عنه ﷺ «لا يحل لمسلم أن يذل نفسه»، وعن علي رضي الله عنه «تفضل على من شئت فإنك أميره، واستغن عمن شئت فإنك نظيره، واسأل من شئت فإنك أسيره».

وقيل:

مَنْ يُكْرِمِ النَّاسَ يُكْرِمُوه   ومَنْ يُهِنْهُم يَجِدْ هَوَانَا

وقيل:

أَفَادَتْنِي القَنَـــاعَة كُـــلَّ عِزٍّ وهَـــلْ عِزٌّ أَعَزُّ مِن القَنَاعَة
فَصَيِّرها لِنَفْسِـــك رَأْسَ مَالٍ وصَيِّر بَعْـــدَها التَّقْوى بِضَاعَة

وقيل:

والنَّفْـــسُ رَاغِبَـــةٌ إذا رَغَّبْتَها وإذا تُـــرَدُّ إلى قَلِيـــلٍ تَقْنَعُ

وقيل:

ومَا هِي إلاَّ جَوْعَةٌ قَدْ سَدَدْتُها وكُلُّ طَعَـــامٍ بَيْن جَنْبَيّ وَاحِـــدُ

وقيل:

إذا قَنِعْتَ كَثُر عِنْدَك القَليلُ وإذا طَمِعْتَ دَقَّ عِنْدَك الجَلِيلُ

وقيل:

إذا مَا شِئْتَ أنْ تَحْيَا سَعِيدًا حَبِيبًـــا للغَـــنِيِّ وللفَقِير
فَظُنَّ بِمَعْشَرِ الإسْـــلامِ خَيْرًا ورَاعِ الوَقْـــتَ واقْنَع باليَسِير

وقيل:

تَسَرْبَلْتُ سِرْبَالَ القَنَاعَة والغِنَى   صَبِيًّا فَكَانَا في الكُهُولَةِ دَيْدَني[١]
وقَدْ كَان يَنْهَاني أبي حُفَّ بِالرِّضَى   وبِالعَفْو أَنْ أولى يدًا من يدي دَني[٢]

وقيل:

تَجَنَّب كِرَامَ النَّاسِ واسْتَغْن عَنْهُم   ولا تَطْلُبَن في الدَّهْرِ فَضْلَ كَرِيمِ
فَمَـــدُّ اليَدَيْن لِلكَـــرِيم مَذَلَّةٌ   فكَيْفَ إذا مُدَّت يَـــدٌ لِلَئيـــمِ

وقيل: الحاجة تلجئ السيد إلى الأنذال، وربما أحوج المرض إلى شرب الأبوال، وورد عنه ﷺ «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع»، وعن علي رضي الله عنه اللُّكَع العبد أو الأحمق أو اللئيم: أي حتى يكون اللئام أو الحمقى أو العبيد رؤساء الناس، وقيل:

إذا امْتَلأَت كَفُّ اللَّئيم من الغِنَى   ثَنَى عِطْفَه[٤] كِبْرًا وقـــال أَنَا أَنَا
وأمَّا كَرِيمُ الأَصْلِ كالغُصْنِ كُلمَّا   تَحَمَّل من خَـــيْرٍ تَوَاضَعْ وانْحَنَا

---

(١) دَيْدَني: عادتي. (م).
(٢) دَني: قريب. (م).
(٣) عِطْفَه: عُنُقَه. (م).

وقيل لأعرابي: ما السقم الذي لا يبرأ والجرح الذي لا يندمل[1]؟ قال: حاجة الكريم إلى لئيم، فإن فوت الحاجة أهون من طلبها من غير أهلها. وعليه قول الشاعر:

لا تَطْلُبَن إلى لَئِيمٍ حَاجَة وَائتِ الكَرِيمَ فَخَيْرُه مَيْسُورُ

ومن كلام بعض الحكماء: إذا سألت كريمًا حاجة فدعه يتفكر؛ فإنه لا يتفكر إلا في الخير، وإذا سألت لئيمًا حاجة فعاجله لئلا يشير طبعه أن لا يفعل.

وقيل:

أيُّ شَيءٍ أَذَلُّ مِنْ بَذْلِ وَجْهٍ لِجَوَادٍ فكَيْفَ مَنْ لا يَجُودُ

وقيل:

وقَائِلٌ مَا المُلْكُ قُلْتُ الغِنَى فَقَال لا، بَلْ رَاحَةُ القَلْبِ
وصَوْنُ مَاءِ الوَجْه عَنْ بَذْلِه في نَيْلِ مَا يَنْفَدُ عَنْ قُرْبِ

وقال ﷺ «الذل في السؤال ولو أين الطريق، وقيل في معنى ذلك:

لا تَكُن طَالِبًا لِمَا في يَدِ النّـ ـاسِ فَيَزْوَرَّ[2] عن لِقَاكَ الصَّديقُ
إنما الذُّلّ في سُؤَالِكَ للنّـ ـاسِ ولَوْ في السُّؤالِ أين الطَّرِيقُ

وقيل:

بَلَوْتُ النَّاسَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْن فَلَم أَرَ غَيْرَ خَتَّار(١) وقَالِ(٢)
وذُقْتُ مَرَارَةَ الأَشْيَاءِ طُرًّا(٣) فَمَا شَيء أمرّ مِن السُّؤالِ
ولَمْ أَرَ في القُلُوبِ أَشَدّ وَقْعًا وأَنْكَى(٤) مِنْ مُعَادَاةِ الرِّجَالِ

وقيل:

لا تَحْسَبن المَوْتَ مَوْتَ البِلَى(٥) وإنَّمَا المَوْتُ سُؤَالُ الرِّجَالِ
كِلاهُمَا مَوْتٌ ولَكِنْ ذَا أَشَدّ مِنْ ذَاكَ بِذُلِّ السُّؤالِ

ورُوِيَ أن النبي ﷺ كان يدعو بعد صلاة الصبح ثلاث مرات بدعاء وهو: اللهم إني أسألك اللطف عند القضاء، والسلامة في الدين، والبركة في الرزق، والغنى بك عن خلقك. وورد عنه ﷺ عز المؤمن استغناؤه عن الناس، قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «أحب الناس إلى الناس من استغنى عن الناس ولم يسألهم شيئًا، وأبغض الناس من احتاج إليهم، وأحب الناس إلى الله تعالى من احتاج إليه وسأله، وأبغض الناس إلى الله تعالى من استغنى عنه ولم يسأل منه شيئًا». وقيل:

فلا تَيْأس إذا أَعْسَرتَ يَوْمًا فَقَدْ أَيْسَــرْتَ في دَهْــرٍ طَوِيلِ
فَلاَ تَظُنَّن بِرَبِّك ظَنَّ سُــوءٍ فــإِنَّ الله أَوْلَى بِالجَميــلِ

ومن كلام أبي السعود الجارحي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

سَلِّم لَهْ الأَمْرَ عَلَى تَسَلُّمٍ واصْبِرْ عَلَى الدَّهرِ إِنْ تَمَادَى
لا تَخْشَ نَارًا ذَكَتْ[1] بِلَيْلٍ فــرُبَّمَا أَصْبَحَــتْ رَمَــادًا

وقال ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى»، قال ابن قتيبة: العليا هي المعطية والسفلى هي السائلة. وقال ﷺ: إذا أراد الله بعبد خيرًا ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفَقَّهَه في الدين، وعَضَّدَه[2] باليقين، فاكتفى بالكفاف[3]، واكتسى بالعفاف، وإذا أراد به شرًّا حَبَّبَ إليه المال، وبسط منه الآمال، فشغله بدنياه، ووَكَلَه إلى هواه فركب الفساد وظلم العباد. وقيل:

عَلَيْــكَ بِالعَــدْلِ تَنَالُ المُنَى وتَرْتَجِي الفَــوْزَ بِيَوْمِ الوَعِيــد
فالظَّالِمُ المَغْرُورُ بَيْنَ الوَرَى مَنْ أَسْخَط المَوْلَى وأَرْضَى العَبِيد

(١) ذَكَتْ: اشتعلت. (م).
(٢) عَضَّدَه: أعانه. (م).
(٣) بِالكَفَاف: بما يغنيه من القوت. (م).

يقال أن موسى عليه السلام قال: يا رب إن فرعون جحدك مائتي سنة وادّعى أنه أنت مائتي سنة فكيف أمهلته؟ فأوحى الله إليه أمهلته لخلال[1] فيه أني أحببت إليه العدل والسخاء وحفظته لتربيتك. وورد عنه ﷺ: «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله شرهم، ومن أرضى الناس بسخط الله وَكَلَه الله إليهم، ومن أحسن فيما بينه وبين الله أحسن الله فيما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه. وقيل:

لا تَظْلِمَن إذا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا   فالظُّلْم آخـرُه يأْتِيـكَ بِالنَّدَم
تَنَامُ عَيْنَـاكَ والمَظْـلُوم مُنْتَبِه   يَدْعُو عَلَيْك وعَيْن الله لم تَنَم

ورُوِيَ عنه ﷺ «دعوة المظلوم لا تُحْجَب»، وقال الإمام علي كرم الله وجهه: «ما أضمر أحد شيئًا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه». ويقال: حُسْنُ المقال ما صدّقه حُسْنُ الفعال. وقال زهير في كلامه:

ومَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئ مِنْ خَلِيقَةٍ[2]   وإِنْ خَالَها تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَم

(١) خِلال: صفات. (م).
(٢) خَلِيقَة: خلق. (م).

وقيل:

كُلُّ امْرِئ رَاجِعٌ يَوْمًا لشِيمَتِه[١]   وإِنْ تَخلَّق أَخْلاَقًا إِلَى حِينِ

وقيل: حقيقة النفاق اختلاف السر والعلانية، ومخالفة القول العمل. وقيل: أشر الناس من هو في الظاهر صديق موافق وفي الباطن عدوّ منافق. وعليه قول الشاعر:

صَـــدِيقٌ إِذَا زُرْتَه سَـــاعَة   يَـــوَدّ مِنْ المَلَقِ[٢] بَوْسَ القَــدَمْ
يُريكَ البَشَـــاشَة عِنْدَ اللِّقَا   ويَبْرِيكَ[٣] إِنْ غِبْتَ بَرْيَ القَـــلَمْ
فَبِتّ حِبَالَك[٤] مِنْ وَصْـــلِه   ولا تُكْـــثِرَنّ عَلَيْه النَّـــدَمْ

ولأبي حيان عليه من الله الرحمة والرضوان:

تَغَـــيَّر إِخْوَانُ هَذَا الزَّمَان   وكُلُّ صَـــــديقٍ عَرَاه[٥] الخَــلَل

(١) شيمَة: طبيعة. (م).
(٢) المَلَق: التضرع. (م).
(٣) يَبْرِيك: ينحتك. والمراد يذكر كل عيوبك ولا يترك منها شيئًا. (م).
(٤) بتّ حبالك: اقطع رباطك. (م).
(٥) عَرَاه: غشيه. (م).

وكانوا قَــــدِيمًا عَلَى صِحَّـــــةٍ وقَدْ دَاخَلَتْهُـــــم حُرُوفُ العِلَل[١]
قَضَيْتُ التَّعَـــــجُّبَ من أَمْرِهِم فَصِــــــرْتُ أُطَالِعُ بَابَ البَدَل[٢]

وله

النَّاسُ مِثْلُ ظُرُوفٍ[٣] حَشْوُها صَبْرُ وفَوْقَ أَفْوَاهِهَا شَيءٌ مِنْ العَسَل
تَغُرّ ذَائِقَهَا حَتَّى إذا كُشِفَت له تَبَيَّن ما يَحْوِيه مِنْ دَخَل[٤]

وقال رحمه الله:

صَبَرْتُ على غَدْرِ الزَّمَانِ وحِقْدِه وطَابَ لي السُّمُّ الزُّعَاق[٥] بِشَهْده
وجَرَّبْتُ إِخْوَانَ الزَّمَانِ فلم أَجِدْ صَدِيقًا جَمِيلَ الغَيْبِ في حَالِ بُعْدِهِ
وكم صَاحِبٍ عَاشَرْتُه وأَلِفْتُه فما دَامَ لي يَوْمًا عَلَى حُسْنِ عَهْدِه
وكم غَرَّنِي مَنْ حَسُن ظَنِّي به فلم يُضِيءْ لي عَلَى طُولِ اقْتِدَاحِي لِزَنْدِهِ

(١) حروف العلل: هي حروف الألف والواو والياء في اللغة العربية، ويدخلها الحذف والنقل والتغيير، وأتى بها الشاعر على سبيل التشبيه ليدل على تغير وُدِّ الصديق. (م).
(٢) باب البدل: باب البدل أحد أبواب النحو العربي، وأتى به الشاعر على سبيل التشبيه ليدل على ضرورة استبدال الصديق المتحول بآخر وفي. (م).
(٣) ظُرُوف: أوعية. (م).
(٤) صَبْر: مُرّ. (م).
(٥) الزُّعاق: المُرُّ الغليظ. (م).

أَخُو ثِقَةٍ يَسْقِيكَ صَافِي وُدِّه وأَغْرَبُ من عَنْقَاء[١] في الدَّهرِ صَاحِبُ
فَلَيْس مَضَاءُ السَّيفِ إلا بِحَدّه بِنَفْسِك صَادِمُ كُلَّ أَمْر تُرِيدُه
فَمَا نَافِعٌ مُكْثَ الحُسَام بِغِمْدِه وعَزْمُك جَرِّد عِنْدَ كُلِّ مُهِمَّة
فَأَحْسَنُ أَحْوَالِ الفَتَى حُسْنُ قَصْدِه وكُنْ ذا اقتصادٍ في أَمُورِك كلِّها
كَمَا لا يَنَالُ الرِّزقَ يومًا بِكَدّه وما يُحْرَمُ الإِنْسَانُ رِزْقًا لِعَجْزِه
جَرَتْ بِقَضَـــاءٍ لا سَـــبيلَ لِرَدِّه حُظُوظُ الفَتَى مِن شِقْوَةٍ وسَعَادَةٍ

(رجع) وقد ورد عنه ﷺ «إنّ الله إذا أحب عبدًا جعل رزقه كفافًا [٢] فإن الغنى مبطرة[٣] والفقر مِبْذَلة[٤]» وقال أيضًا: «اللهم ارزق آل بيتي كفافًا» ومن كلام بعضهم:

لا شَيء أَخْسَر صَفْقَة مِنْ عَالمٍ لَعبت به الدُّنيا مَعَ الجُهَّالِ
فَغَدَا يُفَرّق دِينَه أَيْدِي سَبَا[٥] ويُزِيلُه حِرْصًا بِجَمْعِ المَالِ
لا خَيْرَ في كَسْبِ الحَرَام وقَلَّمَا يُرْجَى الخَلاصُ لِكَاسِبٍ لِحَلالِ
فَخُذ الكَفَافَ ولا تَكُنْ ذَا فَضْلَةٍ فالفَضْلُ تُسْأَلُ عنه أيّ سُؤَالِ

(١) عَنْقَاء: داهية. (م).
(٢) كفافًا: قدر الحاجة دون زيادة أو نقصان. (م).
(٣) مَبْطَرَة: طغيان النعمة. (م).
(٤) مِبْذَلة: امتهان. (م).
(٥) أيدي سَبَا: مَثَلٌ عربيٌّ يُضرب ليدل على شدة تفرقهم كما تفرق أهل سبأ. (م).

وفي تاريخ ابن عساكر عن أبي الرضى، العيش في ثلاثة أشياء: الاستغناء عن الناس العدوّ والصديق، وصحة البدن، والأمن من الدَّيْن، وقد ورد عنه ﷺ «الدَّيْن هَمٌّ بالليل ومذلة بالنهار» وقيل:

سَــــلِ الله رَبَّك مَــــا عِنْدَه ... ولا تَسْــــــأَل النَّاسَ مَا عِنْدَهُم
ولا تَبْتَغِــــــي مِنْ سِوَاه المُنَى ... وكُنْ عَبْدَه لا تَكُــــن عَبْدَهُــــم

وقيل: أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه بِصُرَّة فيها نفقة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه على يد عبدٍ له، وقال: إن قبلها فأنت حُرٌّ لوجه الله تعالى، فأتاه فلم يقبلها، فقال العبد: اقبلها فإن فيها عتقي، قال: إن كان فيها عتقك ففيها رِقِّي فعاوده بها وأَبَى[1] أن لا يقبلها. وقيل:

إذا تَرَخَّص[1] في قَوْمٍ مَكَاسِبُهم ... بِكُلِّ وَجْهٍ ذَمِيمٍ واقْتطَاعَاتِ[2]
فَلا قُضِــي لي أَمْرٌ إذْ يُعَوِّقُنِي ... عن كَسْبِ مَكْـرُمةٍ أو وَقْــتِ طَاعَاتِ

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: لا يزال الرجل كريمًا على الناس حتى يطمع في دنياهم فيستخفون به ويكرهون حديثه. وقيل لبعض أهل البصرة: من سيدكم؟

(١) تَرَخَّص: أُذِنَ لهم. (م).
(٢) اقْتِطَاعَات: طوائف. (م).

قالوا الحسن. قال: بم سادكم؟ قالوا احتجنا لعلمه واستغنى هو عن دنيانا. وقيل:

كِدّ كَدَّ العَبْدِ إن آ ثَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ حُرًّا
لا تَقُلْ ذا مَكْسَبٍ يُزْ رِي سُؤالُ النَّاسِ أَزْرَى[(١)]

ومن دعاء بعض السلف: اللهم اجعلها في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا. وعنه ﷺ: إن الفاقة لأصحابي سعادة، وإن الغِنَى للمؤمن في آخر الزمان سعادة؛ وسبب ذلك أن جُلَّ[(٢)] الناس الآن ناظرون إلى الدنيا، وأهل الصدر الأوّل كان نظرهم إلى الدين، وقد شح أهل الدنيا حتى بالقدر الواجب فاحتاج أهل العلم والصلاح ليستغنوا بها عن أهلها؛ فإن من احتاج إليهم هان قدره لديهم. وقال بعضهم نحبها للإنفاق لا للإمساك. ورُوِيَ عنه ﷺ «كرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى».

وقيل:

لَابُدّ مِنْ مَالٍ به العِلمُ يُعْتَلَى وجَاهٍ من الدُّنيَا يَكُفُّ المَظَالِمَا

وقيل:

حَيَاةٌ بِلاَ مَالٍ حَيَاةٌ ذَمِيمَةٌ وعِلْمٌ بِلاَ جَاهٍ كَلاَمٌ مُضَيَّعُ

(١) أَزْرَى: أشد عيبًا. (م).
(٢) جُلَّ: معظم. (م).

وقال عمرو بن العاص ﵁: المرء حيث وضع نفسه. يعني إن أعز نفسه علا قدره، ومن لا يُكْرِم نفسه لا يُكْرَم، وإن أهان نفسه وذَلَّها ذل وهان قدره؛ فينبغي أن يرفع قدره بإعزاز نفسه، فإن أنفة[١] القلب من هِمَم الأكابر لأنهم يعرفون قدر أنفسهم. وقيل:

إذا مَا أَهَانَ امْرؤٌ نَفْسَه ... فَلاَ أَكْرَمَ اللهُ مَنْ يُكْرِمُه

وقال عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله أبو البركات النحوي كمال الدين بن الأنباري:

العِلْمُ أَوْفَى حِلْيَةٌ ولِبَاسُ ... والعَقْلُ أَوْفَى جُنَّة[٢] الأَكْيَاسِ[٣]
كُن طَالبًا للعِلْمِ تَحْيَا دَائمًا ... جَهْلُ الفَتَى كَالموتِ في الأرْمَاسِ[٤]
وصُن العُلُومَ عن المطَامعِ كُلِّها ... لِتَرَى بأن العِزَّ عِزُّ البَاسِ[٥]
والعِلْمُ ثَوْبٌ والعَفَافُ طِرَازُه ... وَمطَامعُ الإِنْسَانِ كالأَدْنَاسِ[٦]
والعِلْمُ نُورٌ يُهْتَدَى بِضِيَائه ... وبِه يَسُودُ النَّاسُ فَوْقَ النَّاسِ

(١) أَنَفَة: عزة النفس والترفع. (م).
(٢) جُنَّة: سُتْرَة. (م).
(٣) الأَكْيَاس: العقلاء. (م).
(٤) الأَرْمَاس: القبور. (م).
(٥) البَاس: الشدة في الحرب. (م).
(٦) الأَدْنَاس: الأوساخ. (م).

وقيل:

عَجِبْتُ لِلمَرْءِ في دُنْيَاه تُطْمِعُه | في العَيْشِ والأَجَل المَحْتُوم يَقْطَعُه
يُمْسِي ويُصْبِح في عَشْوَاء يَخْبِطُهَا[١] | أَعْمَى البَصِيرَة والآمال تَخْدَعُه

وعن علي رضي الله عنه من كان في طلب العلم كانت الجنة في طلبه، ومن كان في طلب المعصية كانت النار في طلبه. ورُوِيَ عنه ﷺ: «منهومان (أي حريصان) لا يشبعان طالب العلم وطالب الدنيا، فأما طالب العلم فيزداد في رضى الرحمن، وأما طالب الدنيا فيزداد في الطغيان»، وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الأعمال على ظهر الأرض ثلاثة: طلب العلم والجهاد والكسب؛ لأن طالب العلم حبيب الله تعالى، والغازي وليّ الله تعالى، والكاسب صديق الله تعالى». ورُوِيَ عن سالم بن أبي الجعد أنه قال: اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني، فقلت في نفسي بأي حرفة أحترف، فاخترت العلم على كل حرفة، فلم تمض مدّة حتى أتاني الخليفة زائرًا. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فإذا سمع العلم خاف واسترجع[٢] على ذنوبه، فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب، فلا تفارقوا مجالس العلماء.

---

(١) عَشْوَاءَ يَخْبِطُهَا: يضرب مثلاً للذي لا يبصر طريقه ولا يهتم لعاقبته. (م).

(٢) اسْتَرْجَع: أي قال: إنَّا لله وإنا إليه راجعون. والمراد استغفر وتاب. (م).

وورد عنه ﷺ العلم ميراثي وميراث الأنبياء من قبلي، وورد عنه ﷺ «الناس رجلان عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما».

فعلماء الشريعة هم الزمام[١] وبانتظام أحوالهم يكمل الانتظام، فإذا تكسبوا من الحلال بصنعة استغنوا عن الشبهة المتوسطة بين الحرام والحلال واكتفوا شر السؤال كما قيل:

إِنْ حُزْتَ عِلْمًا فاتَّخِـــذْ حِرْفَة تَصُونُ مَاءَ الوَجْـــه لا يُبْذَل
ولا تُهِـــنْه أن يُـــرَى سَائلاً فَشَأنُ أَهْـــلِ العِلْمِ أن يُسْأَلُوا

وقيل:

سِـــتٌّ عُيُونٍ مَنْ تَأَتَّت له كَانَتْ لَهُ كَـــافِيَةً شَـــافِيةُ
العـــلم والعـــلياء والعفو والعـ ـــــــزَّةُ والعِفَّـــة والعَـــافِيَة

قال بعضهم: وطلب الكسب لازم كطلب العلم وهو أنواع أربعة: فرض وهو كسب أقل الكفاية لنفسه وعياله وقضاء دَيْنِه، ومُسْتَحَب وهو كسب الزائد على الكفاية ليواسي به فقيرًا أو يصل به قريبًا وهو أفضل نوع من العبادة، ومباح وهو

---

(١) الزِّمام: الحبل الذي يُشَّد به، والمراد: العلماء رباط هذه الأمة وسدنتها. (م).

كسب الزائد على ذلك للتنعم والتجمل، وحرام وهو كسب ما أمكن للتفاخر والتكاثر وإن كان من حِلٍّ. وأفضل الكسب الجهاد ثم التجارة ثم الزراعة ثم الصناعة.

والعلم أيضًا أنواع أربعة: فرض وهو تعلم ما يحتاج إليه لأداء الفرائض ومعرفة الحلال والحرام في أحوال نفسه، ومستحب وهو تعلم الزائد على ما يحتاج إليه وليعلمه من يحتاج إليه، وهو أفضل من نفل العبادة، ومباح وهو تعلم الزائد على ذلك للزينة والكمال، وحرام وهو التعلم ليباهي(١) به العلماء ويماري(٢) به السفهاء. ويجب على العالم تعليم غيره إذا طلب منه إلى أن يبلغ إلى المرتبة الأولى، ولا يجب على العالم أن يجيب عن كل ما يُسْأل عنه إلا إذا علم أن ما يُسْأل عنه لا يعلمه غيره، ولو طلب غير مسلم منه أن يعلمه القرآن والفقه فلا بأس به رجاء أن يطلع على محاسنه فتكون سببًا في غرس شجرة اليقين الإيماني في قلبه.

وقال بعضهم: يجب على العبد أن يحمد الله تعالى من ثمانية أوجه: الأوّل: أن أوجده من العدم، الثاني: أن خلقه حيوانًا ولم يخلقه جمادًا، الثالث: أن خلقه ناطقًا ولم يخلقه صامتًا، الرابع: أن خلقه ذكرًا ولم يخلقه أنثى، الخامس:

---

(١) يباهي: يغلب بالحسن. (م).

(٢) يماري: يستخرج ما عندهم من الحجة. (م).

أن جعله مسلمًا ولم يجعله كافرًا، السادس: أن جعله عالمًا ولم يجعله جاهلاً، السابع: أن جعله طائعًا ولم يجعله عاصيًا، الثامن: أن وفقه لمعرفته، ونعم الله لا تحصى. قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم/ ٣٤].

(رجع) ومن علامة شريف العرض عدم الشح والبخل، فالشحيح هو الذي يبخل بماله ومعروفه، والبخيل هو الذي يبخل بماله فقط فكل شحيح بخيل ولا عكس.

وسُئِلَ معاوية رضي الله تعالى عنه عن السفلة فقال: الذي ليس له معروف ولا نسب موصوف، فإذا ارتفعت الأسافل هلكت الأفاضل. وقال بعضهم في ذلك:

ولَقَدْ عَجِبْتُ مِن الزَّمَانِ وفِعْلِه   في حَطِّ ذِي شَرَفٍ ورِفعةِ أَرْذَلِ
كَطَبِيعةِ المِيزَانِ في أَفْعَالِهَا   تَضَعُ الرَّوَاجِحَ والنَّوَاقِصُ[1] تَعْتَلِي

وقيل:

الدَّهْرُ مَعَ الأَنَامِ كالمِيزَانِ   لا يَرْفَعُ إلاَّ صَاحِبَ النُّقْصَانِ

(١) الرواجح والنواقص: الثقال الوزن والقلائل. (م).

وقيل:

قَدْ رُمِينَا مِـــــن الزَّمَانِ بِسَهمٍ قَدَّم النَّـــــذلَ والكَرِيمُ تَأَخَّر
مَات مَنْ عَاشَ بالفَضِيلةِ جُوعًا وحَظِيَ[١] مَـــــازِحٌ ومَنْ يَتَمَسْخَر

وقيل:

ومَازَالَ هَذَا الدَّهْـــــر يَرْفَعُ نَاقِصًا كَذُوبًا ويَخْفِضُ فَاضِلاً طَيِّبَ الذِّكْر
كماشَاع سَبْتُ النُّورِ في النَّاس جَهْرَة وقد أُخْفِـيتَ مِنْ فَضْلِها لَيْلَة القَدْرِ

وفي الحديث القدسي عن النبي داود ﷺ قال الله تعالى: «يا داود لا تقوم الساعة حتى تُذَلّ الأشراف وترتفع الأراذل، ويُهجَر كتابي فلا يُتلَى، ويكثر فيه رزق العاصي والفاجر، ويقل فيه رزق المؤمن الطائع الفاضل، فإذا صار الأمر إلى ذلك الزمان حببت الدنيا إلى أهل ذلك الزمان ومنعتهم من محبة الآخرة، فإذا فعلوا ذلك سلطت عليهم سيف النقمة[٢] وأغليت أسعارهم، وجعلت الصغير لا يوقر[٣] الكبير، وابتليتهم بالفسق والفجور وذلك جزاؤهم عندي، وقال بعضهم:

---

(١) حَظِي: أخذ نصيبًا. (م).
(٢) النِّقْمَة: العقوبة. (م).
(٣) يُوَقِّر: يحترم. (م).

سَلِ الفَضْلَ أَهْلَ الفَضْلِ قِدَمًا ولا تَسَلْ بَخِيلاً وجَانِبْه وخُذْ عَنْه مَعْزِلا
ويَمِّم[1] كَرِيمًا عَاشَ في العِزِّ واطَّرِحْ[2] غُلامًا رُبِّي في الذُّل ثم تَمَوّلا
فلو جَادَت الدُّنيا عليه بِأَسْرِها ومِقْدَارُه للفَرْقَـدَيْن[3] قَدْ اعْتَلَى
وجِئتَ إِلَيْه في اضطرارٍ سَأَلْتُه تَذَكَّـر مَا قَاسَى مِنَ الذُّل أَوّلا

وقيل:

مُسْتَحْدَث النِّعْمَة لا تَرْجُه فَكَفُّـه مَمْلُـوءة فَـقْرًا

وورد عنه ﷺ «لأن تعطي يدك إلى التنين فيقضمها خير من أن تسأل ذا نعمة حدثت عليه» (والتنين ضرب من الحيَّات وقوله فيقضمها بضاد معجمة أي يعضها)، وورد عنه ﷺ «من عَظُمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس إليه، فمن لم يتحمل تلك المؤنة فقد عرَّض نعمته للزوال». وقيل:

إذا كُنْتَ في نِعْمَةٍ فَارْعَـهَا فإنّ المَعَاصِي تُزِيـلُ النِّعَم
ودَاوِم عَلَيْها بِشُكْرِ الإلَـه فإنّ الإلَه سَرِيعُ النِّقَـم

(١) يَمِّم: اقصد. (م).
(٢) اطّرح: أبعد. (م).
(٣) الفَرْقَدَيْن: نجمان في السماء. (م).

وقال ﷺ «السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار»، وقال ﷺ «طعام السَّخي دواء وطعام البخيل داء»، وقال ﷺ «لكل شيء زكاة وزكاة الدار بيت الضيافة»، وقال ﷺ «إنّ من السُّنة أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار».

ومن الخصال المذمومة الفجور والكذب والخيانة، والبخل والسخافة والفظاظة، والحقد والحسد والبَذَاء[١] والشره والطمع والتملق، والظلم والجحد والجهل والنفاق، والبلادة والكِبْر والعُجْب والجبن، وقال ﷺ «التملق[٢] ليس من أخلاق المؤمن». وعن أبي بكر رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن حافظ الحدود دائم الفكر طالب العلم كامل العقل، طيب اللسان حسن الخلق، قليل الضحك قليل اللهو، تارك الشهوات مخالف الشيطان طائع الرحمن، زاهد في الدنيا راغب في الآخرة» وقيل:

عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ فَتَقْوَاه مِمَّا يَرْفَعُ النَّاس أَرْفَعُ
هي العِزُّ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ عَشِيرَةٍ وزِينَتُها يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْفعُ

(١) البذَاء: الازدراء والاحتقار. (م).
(٢) التَّمَلُّق: ادعاء المودة خلافًا للحقيقة. (م).

وورد في الحديث الصحيح «خَمْسٌ بِخَمْسٍ: ما نقض العهد قوم إلا سلط الله عليهم عدوّهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا[١] فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة (أي الزنا) إلا فشا فيهم الموت، ولا طَفَّفُوا[٢] الكيل إلا مُنِعُوا النبات وأُخِذُوا بالسنين من القحط[٣]، ولا منعوا الزكاة إلا حُبِسَ عنهم القطر. وروى حذيفة عن النبي ﷺ قال: «يا معشر الناس اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال، ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة، أما اللاتي في الدنيا فيُذْهِب البهاء[٤] ويُورِث الفقر ويُنْقِص العمر، وأما اللاتي في الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار. أعاذنا الله من النار وما قرّب إليها من قول وعمل، ورزقنا عفوه ومغفرته بِمَنِّه وكرمه.

وورد عنه ﷺ: يقول الإنسان مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأبقى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس وقيل:

---

(١) فَشَا: انتشر. (م).

(٢) طفَّفوا: نقصوا في الميزان. (م).

(٣) القَحْط: قلة المطر. (م).

(٤) البَهَاء: الحسن. (م).

يَغْتَرُّ بالدَّهْرِ مَسْرُورًا بِصُحْبَتِه وقَدْ تَبَيَّن أَنَّ الدَّهْـــرَ يَصْرَعُه
ويَجْمَعُ المَالَ حِرْصًا لا يُفَارِقُه وقَدْ دَرَى أنَّه لِلغَـــيرِ يَجْمَعُه
تَرَاه يُشْفِقُ مِنْ تَضْييع دِرْهَمِه ولَيْس يُشْـــفِقُ مِنْ دِينٍ يُضَيِّعُه
وأَسْـــوَأُ النَّاسِ تَدْبِيرًا لِعَاقِبَةٍ مَنْ أَنْفَق العُمْرَ فِيمَا لَيْسَ يَنْفَعُه

وقال ﷺ: «إن الصعلوك كل الصعلوك الذي له مال لم يقدّم منه شيئًا» يعني لم يتصدق منه بشيء. قال ابن دريد في مقصورته:

ولِلْفَتىَ مِنْ مَالِه مَا قَدَّمَتْ يَدَاه قَبْلَ مَوْتِه لاَ مَا اقْتَنَى[١]
وإنمـا المَرْء حَدِيثٌ بَعْـــدَه فَكُن حَدِيثًا حَسَـــنًا لمن وَعَى

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه: أوّل من يدخل الجنة معي من أمتي سبعون ألفًا، مع كل ألف سبعون ألفًا ليس عليهم حساب، وهذا تخصيص لقوله ﷺ كما عند مسلم من حديث أبي برزة الأسلمي «لا تزول قَدَمَا عَبدٍ يوم القيامة حتى يُسْأَل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن علمه ما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وأينما أنفقه. وقيل:

(١) اقْتَنَى: اكتسب. (م).

ونَحْنُ في غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بنَا   نَنْسَى لِشِقْوَتِنَا[١] مَنْ لَيْس يَنْسَانا

وقيل:

المَالُ يَنْفَدُ حِلُّه وحَرَامُه   يَوْمًا وتَبْقَى بَعْدَه آثَامُه

وعن بعض الحكماء: من اعتصم[١] بعقله زَلّ، ومن استغنى بماله قَلّ، ومن اعتز بمخلوق ذَلّ. وقال ﷺ «إن الصدقة ولو قَلَّت تطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء»، وعنه ﷺ «الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»، وعنه ﷺ «إن الصدقة تطفئ عن أهلها حر القبور»، وقال ﷺ «كل امرئ في ظل صدقته حتى يُقْضَى بين الناس»، وقال ﷺ «الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر» قال بعضهم: وذلك أن الصدقة قد تقع في يد غني في الباطن والقرض لا يأخذه إلا محتاج، وعنه ﷺ «من سَرَّه أن ينجيه الله من كُرَب[٢] يوم القيامة فلينفس[٣] عن معسر أو يضع عنه»، وعنه ﷺ «من أنظر معسرًا أمهله الله بذنوبه إلى أن يتوب»، وعنه ﷺ «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»، وقال ﷺ عن الله ﷻ: «عبدي لم تشكرني إذا لم تشكر من أجريت النعمة على يديه»، وعنه ﷺ «من صُنِعَ

(١) اعْتَصَم: امتنع. (م).

(٢) كُرَب: شدائد. (م).

(٣) فليُنَفّس: فليُفرِّج. (م).

إليه معروف فقال لفاعله جزاك الله خيرًا فقد أبلغ في الثناء»، وقال ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء». وقيل:

فَلا كَانَتْ الدُّنْيَا إذا لَمْ تُرِدْ بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أو إِسَاءَة مُجْرِمِ

وقال بعضهم: نحن في زمان لا يزداد الخير فيه إلا إدبارًا[١] والشر إلا إقبالاً، والشيطان في هلاك الناس إلا أطماعًا. اضرب بطرفك[٢] حيث شئت فلا تبصر إلا فقيرًا يكابد[٣] فقرًا، وغنيًّا بدل نعمة الله كفرًا، وبخيلاً اتخذ حق الله وفرًا[٤]، ومتمردًا كأن في سمعه من سماع الموعظة وقرًا[٥]، وقيل: مازال إبليس يضل في الدين القويم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وقيل:

يَقُـــولُون الزَّمَانُ بِهِ فَسَـــادُ وقَدْ فَسَـــدُوا ومَا فَسَـدَ الزَّمَانُ

وللإمام أبي حنيفة رضي الله عنه:

نَعِيبُ زَمَـــانَنَا والعَيْبُ فِينَا ومَا لِزَمَانِنـــا عَيْبٌ سِـــوَانَا

---

(١) إِدْبَارًا: ذهابًا. (م).

(٢) بِطَرْفك: بلَحْظك. (م).

(٣) يُكَابِد: يعاني. (م).

(٤) وَفرًا: مالاً كثيرًا. (م).

(٥) وَقْرًا: ثقلاً في الأذن. (م).

وَنَهْجُو في الزَّمَانِ بِغَيرِ عَيْبٍ ... ولو نَطَقَ الزَّمَانُ بِنَا هَجَانَا[1]
ولَيْس الذِّئبُ يَأْكُلُ لَحْمَ ذِئْبٍ ... ويَأْكُلُ بَعْضُنَا بَعْضًا عِيَانَا[2]

وعن سعيد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال عن الله ﷻ: «يؤذيني ابن آدم يَسُبُّ الدهر وأنا الدهر بيدي الأمور أقلب الليل والنهار»، ولفظ البخاري في التفسير والتوحيد قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم إلى آخره. وفي رواية فإن الله هو الدهر. وقد أخرجه الطبراني عن أبي عيينة بهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار، فقال الله تعالى في كتابه ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية/ ٢٤] الآية فيسبون الدهر. قال الله تبارك وتعالى يؤذيني ابن آدم فذكره. قال القرطبي معناه: يخاطبني بالقول الذي يتأذى منه من يجوز في حقه التأذي، والله تعالى مُنَزَّه عن أن يصل إليه الأذى، وإنما هذا من التوسع في الكلام، والمراد أن من وقع منه ذلك تعرض لسخط الله تعالى.

وقوله: وأنا الدهر، قال الخطابي: معناه أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التي ينسبونها إلى الدهر، فمن سَبَّ الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور عاد سبه إلى ربه الذي هو فاعلها، وإنما الدهر زمان جُعِل ظرفًا لمواقع الأمور، وكانت عادة

(١) هَجَانا: ذَمَّنَا. (م).
(٢) عِيانًا: رأي العين. (م).

الجاهلية إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر فقالوا بؤسًا للدهر وتَبًّا للدهر. وقال النووي قوله: وأنا الدهر بالرفع في ضبط الأكثرين والمحققين، ويقال بالنصب على الظرف أي أنا باق أبدًا والموافق لقوله إن الله هو الدهر بالرفع وهو مجاز، وذلك أن العرب كانوا يسبون الدهر عند الحوادث، فقال: لا تسبوه إن فاعلها هو الله، وقال بعضهم: خلق الله الخلق ليظهر قدرته، ويعذبهم ليظهر نقمته، ويدخلهم الجنة ليظهر رحمته.

(رجع) وقال بعض الحكماء: عشرة خصال يبغضها الله تعالى لعشرة: البخل في الأغنياء، والكبر في الفقراء، والطمع في العلماء، وقلة الحياء في النساء، وحب الدنيا على الشيوخ، والكسل في الشبان، والحدة في السلطان، والجبن في الغزاة، والعجب في الزهد، والرياء في العبادة. وقيل:

اثْنَـــان بُغْضُهُمَا عَلَيّ فَرِيضَة مُتَكَبِّرٌ في نَفْسِــه وبَخِــيلُ

وقال ﷺ عن الله ﷻ: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري[1] من نازعني فيهما قصمته في النار ولا أبالي».

ورُوِيَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه دخل على النبي ﷺ وهو على سرير قد أثر الشريط بجنبه الشريف فبكى عمر رضي الله عنه، فقال ﷺ «ما يبكيك يا عمر،

(١) إِزَارِي: ثوب يحيط بنصف الجسم الأسفل، والمراد أن العظمة تشمله كما يشمل الثوب الجسد ويلفه. (م).

فقال: ذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه من الدنيا، وأنت رسول رب العالمين وقد أثر بجنبك الشريط، فقال ﷺ: أولئك قوم عُجِّلَت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ونحن قوم أُخِّرت لنا طيباتنا في الآخرة، وكان ﷺ في سفر فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله عَلَيّ ذبحها، وقال آخر: وعَلَيّ سلخها، وقال آخر: وعَلَيّ طبخها، فقال ﷺ وعَلَيّ جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك ذلك، فقال: قد علمت ولكني أكره أن أميز عليكم؛ فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزًا بين أصحابه، وقام فجمع الحطب، وهذا لكمال زهده وتواضعه ﷺ.

وحكى رجاء بن حيوة الكندي أنه بات ليلة عند عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فَهَمَّ السراج[1] أن يخمد[2] فقام إليه ليصلحه، فأقسم عليه عمر لتقعدن وقام هو فأصلحه، وقال: قمت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر. وقال ﷺ «رَبُّ الشيء أحق بشيئه ما لم يعجز عنه» وهذا لنفي الكِبْر. وقيل:

تَوَاضَعْ إذا نِلْتَ العُلَى تَعْلُ رُتْبَةً وتَكْتَسِب الشُّكْرَ الجَمِيلَ من الوَرَى
فَلَنْ يَشْكُرَ الغَيْثَ الرَّفِيعَ مَحِلَّه قَرِينُ الثُّرَيَّا أو يَصِيرَ مِنَ الثَّرَى

---

(١) السِّراج: المصباح. (م).
(٢) يَخْمُد: يسكن لهبه ولم يُطْفأ. (م).

وقيل:

عَجِبْتُ لِلإنْسَانِ في فَرَحِه وهو في غَدٍ في قَبْرِه يُقْبَرُ
ما بَالُ مَنْ أَوّلُه نُطْفَة وجِيفَةٌ[1] آخِرُه يَفْخَرُ
أَصْبَح لا يَمْلِكُ تَقْدِيمَ مَا يَرْجُو ولا تَأْخِيرَ مَا يَحْذَرُ

والتواضع من أَجَلِّ الأوصاف وأشرفها قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾[الحج/ ٣٤] يعني أهل التواضع، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان/ ٦٣] معناه متواضعين. وقال ﷺ «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله يحب الجمال، المتكبر من بطر[2] الحق وغمط[3] الناس»، وكان ﷺ يعود[4] المرضى ويشيع الجنازة ويجيب دعوة العبد، ويركب الحمار مخطومًا[5] بحبل من الليف، ويعلف البعير والشاة، ويخصف النعل[6] ويرقع الثوب، ويأكل مع الخادم، ويحمل

---

(١) جيفَة: جثة الميت إذا أَنْتَنَتْ. (م).

(٢) بَطَرَ: تكبر. (م).

(٣) غَمِطَ: احتقر. (م).

(٤) يعود: يزور. (م).

(٥) مَخْطُومًا: حبلاً معلقًا في رقبة البعير معقودًا على أنفه. (م).

(٦) يَخْصِف النعل: يخيطها. (م).

حاجته من السوق إلى أهله، ويصافح الغني والفقير ويبدؤهما بالسلام. وقال ﷺ «طوبى لمن تواضع في غير منقصة[١]، وأذل نفسه في غير مسكنة[٢]، وأنفق مالاً جمعه في غير معصية» وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يفخر أحد على أحد»؛ فإنكم عبيد الرب والرب واحد. وقيل ليس لمتكبر صديق، وقال مسلم بن قتيبة: ما تكبر أحد في ولاية إلا من كَبُرَت عنه، ولا تواضع فيها إلا من كَبُرَ عنها، وقيل:

ومُعْتَقِدٌ أَنَّ الرِّيَاسَةَ في الكِبْرِ   فَأَصْبَح مَمْقُوتًا[٣] بِهَا وهو لا يَدْرِي
يَجُرُّ ذُيُولَ العُجْبِ[٤] يَطْلُبُ رِفْعَة   أَلاَ فَاعْجَبُوا مِنْ طَالِبِ الرَّفْعَ بِالجَرِّ

وقيل:

لَمْ أَلْقَ مُسْتَكْبِرًا إلاَّ تَلَبَّس بي   عِنْدَ اللِّقَاءِ به الكِبْرُ الذي فيـــــه
ولا حَــــلاَ لِي مِن الدُّنيا ولَذَّتِهَا   إلا مُقَابَلَتِي للتيِّــــــه[٥] بِالتيّـــــهِ

---

(١) مَنْقَصَة: عيب. (م).
(٢) مَسْكَنَة: ذلَّة. (م).
(٣) مَمْقُوتًا: مكروهًا. (م).
(٤) العُجْب: الزهو. (م).
(٥) التِّيه: الصَّلَف والكبر. (م).

وقال ﷺ أكرم الكرم التقوى وأشرف الشرف التواضع وقيل:

أَقُولُ لَهُ إذ طَيَّشَـــته[1] رِيَاسَةٌ إليه أَتَتْ مَهْلاً فقد غَلَطَ الدَّهرُ
تَرَفَّق يُرَاجِعُ فيكَ دَهْرُك نَفْسُـه فَمَا سُدْتَ إلا والزَّمَانُ به سَـكْرُ
ألم تَرَ لليَقْطِين[2] عِنْدَ طُلُوعِـه يَطُولُ ولَكِن لا يَطُـولُ لَه عُمْرُ

وقال عمر رضي الله عنه «حسن التودّد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم، وحسن التدبير نصف المعيشة». وقيل:

إنَّ المَنَاصِبَ لا تَـدُومُ لأَهْلِهَا إنْ كُنْتَ تُنْكِرُ ذَا فَأَيْن الأَوّلُ
فاْغرِس مِنْ الفِعْلِ الجَمِيلِ مَكَارِما فَإذا عُزِلْتَ فَإنَّها لا تُعْـزَلُ

وقيل:

إنَّ الأَمِـيرَ هـو الـذي أَضْحَى أَمِـيرًا يَوْمَ عَـزْلِه
إنْ زَالَ سُـلْطَانُ الوِلايَـةِ لم يَزَلْ سُـلْطَانُ فَضْـلِه

(١) طَيَّشَتْه: زاغت به. (م).
(٢) اليَقْطِين: كل شجر لا يقوم على ساق. (م).

قال أبو عثمان الحيري: لا يكمل الرجل حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء: المنع والعطاء والعز والذل. وقال ﷺ: «ليس الشديد من غلب الناس إنما الشديد من غلب نفسه»، وورد عنه ﷺ «أشدكم من ملك نفسه عند الغضب، وأحلمكم من عفا عند القدرة».

وقال بعضهم: إن الله خلق النفس شر الأشياء، وهي مطيتك[1] وأنت محتاج إليها، ومثلها كمثل السارق الواقف على متاع البيت، وهي قرينة الشيطان ومأوى كل سؤولها، ولها صفات مذمومة تحب الشر وتبغض الخير، تخالف العقل وتوافق الهوى، وهي في الشبع مثل السبع، وفي الجوع مثل الطفل الضعيف، وفي الغضب مثل الملوك الجبابرة، وفي الشهوة مثل البهائم، وفي الخوف مثل الهرّ، وفي الأمن مثل الأسد والنمر. ومن سوء عاداتها تخاف من الفقر والقلة ولا تخاف من الله تعالى ومن أليم عذابه، وهي مسخرة الشيطان ولها أعوان وأنصار مثل الدنيا وزهرتها والهوى والشيطان، ولكل واحد من أعوانها جنود ووفود وحشم من زينة الحياة الدنيا مثل: كثرة النوم وكثرة الأكل وكثرة الضحك، ومحبة حكايات الفساق وحب الدنيا، والكبر والحسد والنميمة والعداوة الذميمة وارتكاب المعاصي واللعب.

---

(١) مَطِيَّتُك: ما تركب ظهرها، والمراد أنها مِعْوان لك إما على الشر وإما على الخير. (م).

وقد ورد عنه ﷺ إن الله كتب الإحسان في كل شيء، ففي أهله يحسن عشرتهم ولا يكلفهم ما لا يطيقون ولا يضيعهم، قال ﷺ «كفى بالمرء إثمًا أن يضيع ما يعول»، وإلى خدمه بأن لا يكلفهم من العمل ما لا يطيقونه ولا يضيعهم، وإلى إخوانه بأن لا يغشهم بل ينصح لهم ويحسن صحبتهم ويحمل أذاهم ويكرم مثواهم، وإلى سائر الناس بأن يعلمهم ما ينفعهم لمعاشهم ومعادهم وإرشاد سبيل الخيرات واجتناب المنكرات، وليحب لأخيه ما يحب لنفسه من الطاعات والمباحات الدنيوية، وسواء كان ذلك في الأمور الحسية كالغنى أو المعنوية كالعلم فيكون معه كالنفس الواحدة كما حث ﷺ على ذلك بقوله في الحديث الصحيح أيضًا «المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وقال ابن عباس -رضي الله عنهما- إني لأمرّ على الآية من كتاب الله تعالى فأودّ أن الناس علموا منها ما أعلم.

وكذلك يرفق بالحيوان بأن لا يجيعه ولا يعطشه ولا يضربه، ولا يكلفه من العمل مالا يطيقه، ولا يستمر راكبًا على الدابة وهي واقفة إلا لحاجة، وقد كان عمر رضي الله عنه يخرج إلى الحوائط يخفف عمن أثقل في عمله من الرقيق والأحرار والبهائم، ويزيد في رزقه لأن كف الأذى ودفع الضرر من المصالح المطلوبة، وقد قال ﷺ «لا ضرر ولا ضرار»، وقال ﷺ «خياركم خياركم للماليك».

(رجع) وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ «لا تسأل الإمارة فإنك إن سألتها وُكِلْتَ إليها، وإن سُئِلْتَ لها أُعِنْت عليها»، وقال الإمام ابن عطاء الله السكندري

رحمه الله تعالى: ما تعسر مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك. وعن علي كَرَّم الله وجهه: لا يغرّنك حر الشتاء، وضحك الأمراء، وتملق الأعداء، وزهد النساء، كما قيل:

إِنَّ العــدوّ وإِنْ أَبْدَى مُسَــالَمَةً   إذا رَأى مِنْكَ يَــوْمًا فُرصَةً وَثَبَــا

وقال الحسن: لولا الإبدال[1] لخسفت[2] الأرض، ولولا الصالحون[3] لهلك الطالحون، ولولا العلماء لصار الناس كالبهائم، ولولا الريح لأنتن كل شيء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله عز وجل، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه من خشية الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها فلم تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال إلى نفسها فأبى عنها وقال إني أخاف الله رب العالمين، قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة/ ٢٧١]،

(١) الإِبْدَال: التغيير. (م).
(٢) خُسِفَت: ذهبت. (م).
(٣) الطَّالِحُون: الفاسدون. (م).

وقد كان الإمام زين العابدين رضي الله تعالى عنه ينفق سرًّا ويتصدّق سرًّا حتى كان غالب أهل المدينة الشريفة يرمونه بالبخل، فلما مات وجدوه كان يقوت مائة بيت من أهل المدينة.

وكذلك كان شيخ الإسلام زكريا الأنصاري يُسِرُّ بصدقته حتى كان غالب الناس يعتقدون أنه بخيل، وما كان في علماء مصر أكثر صدقة منه، وكان إذا أراد أن يعطي أحدًا شيئًا يقول له: صافحني لأجل السنة ويضع له ما قسم له، وتارة يقول: هل هنا أحدًا، فإن قيل: نعم، يقول لمن يريد أن يعطيه شيئًا: يا فلان عد إلينا مرة أخرى فإن لي بك حاجة. وورد عنه ﷺ لا يجني على المرء إلا يده. وفي لفظ لا يجني جان إلا على نفسه، والمراد أنه لا يؤخذ إنسان بجناية غيره إن قتل أو جرح أو زنى، وإنما يؤخذ بما جنته يده، فيده هي التي أدّته إلى ذلك، والأصل في الدماء العصمة عقلاً ونقلاً، أما الأوّل فلأن في القتل إفساد الصورة الإنسانية المخلوقة في أحسن تقويم والعقل يأباه، وأما نقلاً فلقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام/ ١٥١] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء/ ٩٣] وقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «ليحذر أحدكم أن يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم يهريقه بغير حق»، ورُوِيَ عنه ﷺ أنه قال «من خرج من ذل المعصية إلى عز الطاعة أغناه الله من غير مال وأيده من غير جند وأعزه الله من غير عشيرة».

قال بعضهم: اعلم أن أمور الدنيا خمسة أشياء وهي: الاعتقادات والعبادات والعمليات والزواجر والآداب، أما الاعتقادات فخمسة أنواع: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأما العبادات فخمسة أنواع: الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، وأما المعاملات فخمسة أنواع: المعاوضات[١] المالية والمناكحة والمخاصمات والأمانات والشركات، وأما الزواجر فخمسة أنواع: زاجر عن قتل النفس وهو القصاص، وزاجر عن هتك الستر وإفساد الفِرَاش وإضاعة النسب وهو حد الزنا، وزاجر عن أخذ المال وهو حد السرقة، وزاجر عن سلب العِرْض وهو حد القذف، وزاجر عن إزالة العقل وهو حد الشرب. وأما الآداب فأربعة أنواع: الأخلاق الحميدة والشيم الحسنة والسياسات والمعاشرات.

ورُوِي عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «سألت جبريل عليه السلام أتنزل بعدي إلى الأرض قال: نعم أنزل عشر مرات أرفع جواهر الأرض، الأولى أنزل مرة أرفع البركة، الثانية أرفع الشفقة من قلوب العباد، الثالثة أرفع الحياء من النساء، الرابعة أرفع العدل من الأمراء، الخامسة أرفع المحبة من قلوب الخلق، السادسة أرفع الصبر من قلوب الفقراء، السابعة أرفع السخاء من الأغنياء، الثامنة أرفع العلم من صدور العلماء، التاسعة أرفع القرآن من المصاحف، العاشرة أرفع الإيمان من أهل الإيمان، نسأل الله تعالى العافية بفضله وكرمه.

---

(١) المُعَاوَضَات: التعويضات. (م).

قال الإمام علي كَرَّم الله وجهه: «طلبت الرفعة فوجدتها في التواضع، وطلبت الرياسة فوجدتها في العلم، وطلبت النصرة فوجدتها في الصبر، وطلبت العبادة فوجدتها في الورع، وطلبت الغنى فوجدته في القناعة، وطلبت الشكر فوجدته في الرضى، وطلبت الراحة فوجدتها في ترك الجهد، وطلبت ترك الغيبة فوجدتها في الخلوة، وطلبت الملك فوجدته في الزهد، وطلبت الصاحب فوجدته في العمل الصالح، وطلبت العافية فوجدتها في الصمت، وطلبت الأنس فوجدته في تلاوة القرآن، وطلبت ثقل الميزان فوجدته في ذكر الله دائمًا، وطلبت البر فوجدته في السخاء، وطلبت المروءة فوجدتها في الصدق». وقال ﷺ «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات، ومن أشفق من النار لَهَا[١] عن الشهوات، ومن ترقب الموت هانت عليه اللذات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات». وقيل:

المَوْتُ لاَبُدّ منه فاسْتَعِدّ لَهُ ... إنَّ اللَّبيبَ بِذِكْرِ المَوْتِ مَشْغُولُ
وكَيْفَ يَلْهُو بعَيْشٍ أو يَلَذُّ به ... مَنْ التُّرَابُ عَلَى خَدَّيهِ مَجْعُولُ

وورد عنه ﷺ علامة حب الله حب ذكره، وعلامة بغض الله بغض ذكره، وقال ﷺ «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار فأكثروا منهما فإن إبليس قال: أهلكتهم بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار»، وقال ﷺ «إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا[٢] قيل: وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: حلق

(١) لَهَا: انشغل. (م).
(٢) ارْتَعُوا: خوضوا. (م).

الذكر». وقال بعضهم: المروءة والفتوّة رضيعَا لبان وشريكا عنان وفرسا رهان. وقال الحسن بن علي رضي الله عنه: المروءة حفظ الرجل دينه وإحراز نفسه عن الدَّنَس[1]، وقيامه لضيفه، وأداء الحقوق، وإفشاء السلام، ورَوَى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير»، وزاد ابن المثني والصغير على الكبير.

وقيل :الفتوّة حسن الخلق لمن تبغضه، وبذل المال لمن تكرهه. وقيل لبعضهم: ما الفتوّة؟ فقال: أن لا تميز بين أن يأكل عندك ولي أو كافر. قيل: استضاف مجوسي إبراهيم الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام فقال له: بشرط أن تسلم فمرّ المجوسي لحال سبيله، فأوحى الله إلى إبراهيم منذ خمسين سنة أطعمه على كفره فلو ناولته لقمة من غير أن تطالبه بتغيير دينه لكان خيرًا لك، فمضى إبراهيم الخليل في أثره حتى أدركه واعتذر له، فسأله عن السبب فذكر ذلك له فأسلم المجوسي، وقد سماه الله فتى لذلك.

ومن وصايا بعض الكبار: إياك وكثرة الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن ويحرك من عدوّك ما سكن، وقيل:

النُّطْقُ زَيْنٌ والسُّكُوتُ سَلاَمَةٌ ... فإذا نَطَقْتَ فَلاَ تَكُنْ مِكْثَارَا
مَا إِنْ نَدِمْتَ عَلَى سُكُوتِكَ مَرَّة ... لَكِنْ نَدِمْت على الكَلامِ مِرَارَا

---

(١) الدَّنَس: الوَسَخ. (م).

وعن بعضهم عفة اللسان صمته؛ فإن اللسان سبع ضار فإن لم توثقه عدا عليك. وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في وصيته لابنه الحسين رضي الله تعالى عنه: يا بني أمسك عليك لسانك فإن تلاف المرء منطقه. والكلام على ثلاث مراتب: مستحب كالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والصلاة على النبي ﷺ، ومباح وهو قول الإنسان لغيره قم واقعد ونحو ذلك، وحرام وهو الكذب والغيبة والنميمة والشتيمة والتملق والنفاق ونحو ذلك.

ويستثنى من الكذب الكذب في الحرب للخديعة، وفي الصلح بين اثنين، وفي إرضاء الرجل أهله، وفي دفع الظالم عن المظلوم. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه «من جلس مجلسًا فكثر فيه لغطه[١] فقال قبل أن يقوم سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا كان كفارة لما بينهما» أخرجه الترمذي.

وقيل: الصمت منام اللسان والكلام يقظته، وقال الأصمعي سمعت أعرابيًّا يقول دع من الكلام ما تعتذر منه وتكلم بما شئت، وعنه ﷺ من صمت نجا، وقيل:

إذا مَا اضطُّررتَ إلى كِلْمَةٍ ... فَدَعْهَا وبَابُ السُّكُوتِ اقْصِدْ
فَلَو كَان نُطْقُكَ مِنْ فِضَّةٍ ... لَكَانَ سُكُوتُكَ مِنْ عَسْجَدْ[٢]

(١) لغطه: ضَجَّته. (م).
(٢) عسجد: ذَهَب. (م).

وقال بعض الحكماء: دَبِّر كلامك كما تدبر سهامك، وقيل إن اللسان سهم يخطئ ويصيب. وقيل: لا تفتح بابًا يعجزك سدّه، ولا تَرْمِ سهمًا يعجزك ردّه، واغتنم السكوت فإنّ أدنى نفعه السلامة، وإنّ أشقى الناس من ابتلي بلسان مطلق وقلب مطبق[١] فلا يحسن أن ينطق ولا يقدر أن يسكت.

وقال ﷺ: «كل لهو يلهو به المؤمن باطل إلا رميته عن قوسه وتأديبه فرسه ومداعبته امرأته».

وقال رجل لأبي بكر الوراق أوصني، فقال: كن في الدنيا كالنخلة أصلها ثابت وفرعها في السماء، إذا فَرَعَتْ[٢] فَرَّعَتْ[٣]، وإذا فرعت أثمرت، وكذلك المؤمن إذا أُدِّب تأدّب، وإذا هُذِّب تهذب، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم/٢٤] ولما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «ائتوني بشجرة تشبه المسلم لا يتحات[٤] ورقها تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فوقع الناس في شجر البوادي» قال ابن عمر: فسكت القوم فوقع في قلبي أنها النخلة، فقال عليه الصلاة والسلام: هي النخلة، فقلت لأبي: لقد كان وقع في قلبي أنها النخلة. قال: فما منعك أن

(١) مُطْبَق: مُغَطًّى. (م).

(٢) فَرَعَتْ: عَلَتْ. (م).

(٣) فَرَّعَتْ: كثرت أغصانها. (م).

(٤) يَتَحَاتّ: يتقشر. (م).

تكون قلت لرسول الله ﷺ، لأن تكون قلتها أَحبَّ إلي من كذا وكذا. فقلت: كنت في القوم وأبو بكر وعمر فلم يقولا شيئًا فكرهت أن أقول.

وفي هذا الحديث فوائد منها: استحباب إلقاء العالم المسألة على أصحابه ليختبر أفهامهم ويرغبهم في الفكر والاعتناء. وفيه ضرب الأمثال والأشباه، وفيه توقير الكبار كما فعل ابن عمر، لكن إذا لم يعرف الكبار المسألة فينبغي للصغير الذي يعرفها أن يقولها لإظهار شرفه بالنجابة[1] وحسن فهمه. قال العلماء: وشبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجوده على الدوام؛ فإنه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس وبعد أن ييبس، ويتخذ منها منافع كثيرة من خشبها وأوراقها وأغصانها فيستعمل جذوعًا وحطبًا وعِصِيًّا وحصرًا وحبالاً، ونواها ينتفع به علفًا للإبل، ثم جمال نباتها وحسن هيئة ثمرها فهي منافع كلها خير وجمال، كما أن المؤمن خير كله من كثرة طاعته ومكارم أخلاقه فيواظب على صلاته وصيامه وقراءته وذكره والصدقة والصلة وسائر الطاعات وغير ذلك. فهذا هو الصحيح في وجه التشبيه، وقيل وجه التشبيه، إذا قطع رأسها ماتت بخلاف باقي الشجر وقيل أنها لا تحمل حتى تلقح.

---

(١) النَّجَابَة: الكرم. (م).

قال بعضهم: وهي أوّل شجرة استقرّت على وجه الأرض، وهي شجرة مباركة لا توجد في كل مكان. قال رسول الله ﷺ: «أكرموا عمتكم النخلة»، وإنما سُمِّيَت عمة لأنها كما رُوِي خُلِقَت من فضلة طينة آدم عليه السلام؛ لأنها تشبه الإنسان في حسن استقامة قدّها[١] وطولها، وامتياز ذكرها بين النبات واختصاصها باللقاح ورائحة طلعها[٢] كرائحة النطفة، ولطلعها غلاف كالمشيمة التي يكون الولد فيها، ولو قطع رأسها ماتت، وإن أصاب جمارها آفة هلكت، والجمار من النخلة كالمخ من الإنسان، وعليه الليف كشعر الإنسان، وإن تقاربت ذكورها وإناثها حملت حملاً كثيرًا لأنها تستأنس بالمجاورة، وإن كانت ذكورها بين إناثها لقحتها الريح، وربما قُطِع إلفها من الذكور فلا تحمل لفراقه، وإذا دام شربها بالماء المالح أو طرح الملح في أصولها حسن ثمرها.

ويعرض لها أمراض مثل الإنسان، ومن أمراضها سقوط الثمرة بعد الحمل، وقال صاحب كتاب الفلاحة: إذا نقعت النوى في بول بغل وزرعت منها ما زرعت جاء نخله كله ذكورًا، وإن نقعت النوى في الماء ثمانية أيام وزرعته جاء بُسْره[٣] كله أحمر، وإن نقعت النوى في بول البقر أيامًا وجففته ثلاث مرات وزرعته جاءت كل نخلة تحمل حملاً قدر نخلتين، وإذا أخذت نوى البسر الأحمر

(١) قَدِّهَا: قامتها. (م).

(٢) طَلْعِهَا: نَوْر النخلة ما دام في الكافور. (م).

(٣) بُسْره: تمره. (م).

وحشوته في التمر الأصفر وزرعته جاء بسرها أصفر، وكذلك بالعكس، وكذلك فلاحة النوى المتطاول والنوى المدوّر، وكيفية غرسه أن تجعل طرف النوى الغليظ مما يلي الأرض وموضع النقير[١] إلى جهة القبلة وقيل:

فَشَرْطُ الفِلاَحَة غَرْسُ النَّبَات   وشَرْطُ الرِّيَاسَة غَرْسُ الرِّجَال

وعن بعض ملوك الروم أنه كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قد بلغني أن ببلدك شجرة تخرج ثمرها كأنه آذان الحمر[٢]، ثم ينشق كأحسن اللؤلؤ المنظوم، ثم يخضر فيكون كالزمرد، ثم يحمر ويصفر فيكون كشذور الذهب وقطع الياقوت، ثم ينقع فيكون أطيب من الفالوذج[٣]، ثم ييبس فيكون قوتًا ويُدَّخَر، فللّه درها[٤] من شجرة. فكتب إليه عمر رضي الله تعالى عنه صدّقت رسولك، وإنها الشجرة التي وُلِد تحتها المسيح عليه السلام، وقال: إني عبد الله فلا تدعُ مع الله إلهًا آخر، ووصف خالد بن صفوان النخل، فقال: هي الراسخات في الوحل المطعمات في المحل[٥] الملقحات بالفحل اليانعات[٦] كشهد النحل،

---

(١) النَّقير: النكتة في النواة. (م).
(٢) آذان الحُمْر: آذان النَّعَم. (م).
(٣) الفَالُوذَج: نوع من الحلوى، وهو لفظ فارسي معرب. (م).
(٤) لله دَرُّها: لله خيرها. (م).
(٥) المَحَل: نقيض الارتحال. (م).
(٦) اليَانِعَات: الناضجات. (م).

تخـرج أسفاطًا[١] غلاظًا وأوساطًا كأنها ملئت حللاً[٢] ورياضًا، ثم تنشق عن قضبان لجين[٣]وعسجد كشذر الفضة ثم تصير ذهبًا أحمر بعد أن كانت كالزبرجد الأخضر.

ومن خواص النخلة إذا مُضِغَ خوصها يقطع رائحة الثوم وكذلك رائحة الخمر. وقد قيل فيه شعر:

كَأَنَّ النَّخِيلَ البَاسِقَاتِ[٤] وقَدْ بَدَتْ   لِنَاظِرِهَا حُسْنًا قِبَابُ زَبَرْجَد
وقَدْ علقت من قَبْلِها زِينَةً لَهَا   قَنَاديل يَاقُوت بِأَعراشِ عَسْجَد

ولاشك أن حرفة الزراعة التي من ضمنها زراعة النخل أفضل الحرف بعد الجهاد ثم حرفة الخياطة ثم التجارة، وقيل التجارة شطارة، والصناعة لصاحبها ربح من غير خسارة، والزراعة من أَجَلِّ الصنائع، والعطارة من أكمل الحرف والبضائع، وكل صنعة لها فضيلة أخروية فهي أفضل، وكل صنعة يُحْتَاج إليها في أمور الدين وإقامة ركنه كالزراعة والخياطة ففيها فضيلة لتعليمها وتعلمها؛ لأن التغذي وستر العورة من أمور الدين وإقامة ركنه، فأي حرفة أشدّ احتياجًا إليها من أمور الدين والدنيا فهي أحرى وأولى من أختها. قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: مَنْ خَطَّ وخاط وفرس وعام فذاكم الغلام.

(١) أَسْفَاطًا: أوعية يُعبَّى فيها الطِّيب. (م).
(٢) حُللاً: أثوابًا. (م).
(٣) لُـجَيْن: الفضة. (م).
(٤) البَاسِقَات: المرتفعات. (م).

ولما كان من أهم صفات شرف العرض العفة أطلق عليها عرفًا وإلا فهو أعم منها، وأحسن ما قيل في ذلك قول السموأل بن عاديا الذي خمسه الصفي الحلي:

قَبِيحٌ بِمَن ضَاقَتْ عَن الرِّزْقِ أَرْضُه   وطُول الفَلاَ[١] رَحْبٌ[٢] لَدَيْه وعَرْضُه
ولم يَبْلُ[٣] سِرْبَالَ الذي فيه رَكْضُه   إذا المرء لم يَدْنَسْ من اللُّؤمِ عِرْضُه
فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيه جَمِيلُ

إذا المَرْءُ لم يَحْجُبْ عَن العَيْنِ نَوْمَهَا   ويُغْلِي من النَّفْسِ النَّفِيسَة سَوْمَهَا[٤]
أَضِيعُ ولم تَأْمَن مَعَالِيـــــه لَوْمَهَا   وإنْ هو لم يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَها[٥]
فَلَيْسَ إلى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ

وعُصْبَةُ غَدْرٍ أَرْغَمَتْهَا جُدُودُنا   فبَاتَتْ ومِنْهَا ضِـــــدّنا وحَسُودُنا
إذا عَجَزَتْ عن فِعْلِ كَيْدٍ يَكِيدُنا   تُعَـــيِّرُنَا أَنَّا قَلِيـــــــلٌ عَدِيدُنا
فقُلْتُ لَهَا إِنَّ الكِرَام قَلِيلُ

(١) الفَلا: القفار من الأرض. (م).
(٢) رَحْب: واسع. (م).
(٣) يَبْلُو: يختبر. (م).
(٤) سَوْمها: ثمنها. (م).
(٥) ضَيمها: ظلمها. (م).

رَفَعْنَا عَلَى هَام السِّمَاكِ[١] مَحِلَّنَا   فَلاَ مَلِكٌ إلاَّ تَفَيَّأَ[٢] ظِلَّنَا
وقَدْ خَافَ جَيْشُ الأَكْثَرِين أَقَلَّنَا   ومَا قَلَّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاه مِثْلَنَا
شَبَابٌ تَسَامى لِلْعُلَى وكُهُولُ
يُوَازِي الجِبَالَ الرَّاسِيَاتِ وَقَارُنَا   وتُبنَى عَلَى هَامِ المَجَرّة دَارُنَا
ويَأْمَنُ مِنْ صَرْفِ الزَّمَانِ جِوَارُنَا   ومَا ضَرَّنَا أَنَّا قَلِيلٌ وجَارُنَا
عَزِيزٌ وجَارُ الأَكْثَرِين ذَلِيلُ
ولَمَّا حَلَلْنَا الشَّامَ تَمَّتْ أُمُورُه   لَنَا وَحَبَانَا مَلِكُه وأَمِيرُه
وبِالنَّيرَبِ[٣] الأَعْلَى الذي عَزَّ طَوْرُه   لَنَا جَبَل يَحْتَلُّه مَنْ نُجِيرُه
مَنِيعٌ يَرُدّ الطَّرْفَ وهُوَ كَلِيلُ
يُرِيكَ الثُّرَيَّا مِنْ خِلالِ شِعَابِه[٤]   وتَحْدُق[٥] شَمْسُ الأُفُقِ حَوْلَ هِضَابِه
وتَقْصُرُ خَطْوَ المحِبِّ دُون ارتِكَابِه   رَسَا[٦] أَصْلُه تَحْتَ الثَّرَى وسَمَا بِه

(١) السِّماك: منازل القمر. (م).
(٢) تفيَّأ: تَظلل. (م).
(٣) النَّيْرَب: الرجل الجَلْد. (م).
(٤) شعَاب: صُدُوع. (م).
(٥) تَحْدُق: تحيط. (م).
(٦) رَسَا: ثبت. (م).

إلى النَّجْمِ فَرْعٌ لا يُنَالُ طَوِيلُ

وقَصْرٌ عَلَى الشَّقرَاءِ قَدْ فَاضَ نَهْرُه وفَاقَ عَلَى فَخْرِ الكَوَاكِبِ فَخْرُه

وقَدْ شَاعَ مَا بَيْنَ البَرِيَّةِ شُكْرُه هو الأَبْلَقُ الفَرْدُ[1] الذي شَاعَ ذِكْرُه

يَعِزُّ عَلَى مَنْ رَامَه ويَطُولُ

إذَا ما غَضِبْنَا في رِضَى المَجْدِ غَضْبَة لِنُدْرِكَ ثَـــــارًا أو لِنَبْلُغَ رُتْبَةً

تَزِيدُ عِدَاةَ الكَرّ[2] في المَوْتِ رَغْبَةً وإنَّا لَقَـــوْم لا نَرَى القَتْلَ سُبَّةً[3]

إذا ما رَأَتْه عَامِرٌ وسَلُولُ

أَبَادَتْ مُلاَقَاةُ الحُرُوبِ رِجَالَنَا وعَاشَ الأعَادِي حِينَ مَلُّوا قِتَالَنَا

لأَنَّا إِذَا رَامَ العِدَاةُ نِزَالَنَا[4] يُقَرّب حُبُّ المَوْتِ آجَالَنَا لَنَا

وتَكْرَهُه آجَالُهم فَتَطُولُ

ومِنَّا مُعِيدُ اللَّيْثِ في قَبْضِ كَفِّه ومَورِدُهُ في أَسْرِه كَأْس حَتْفِه

ومِنَّا مُبِيدُ الأَلْفَ في يَوْمِ زَحْفِه ومَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِه[5]

---

(١) الأَبْلَق الفرد: حصن للسموأل شاع ذكره، وضرب المثل به للدلالة على الشهرة. (م).

(٢) الكَرِّ: الرجوع. (م).

(٣) سُبَّة: عار. (م).

(٤) نِزَالَنَا: تضاربنا. (م).

(٥) حَتْف أَنْفِه: مات على فراشه بصورة طبيعية بلا ضرب أو قتل. (م).

ولا طَلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ

إذا خَافَ ضَيْمًا جَارُنَا أو جَليسُنَا فَمَن دُونَه أَمْوَالُنَا أو رُؤسُنَا

وإنْ أَجَّجَت نَارُ الوقَائعِ شَوْسنَا تَسِيلُ عَلَى حَدّ الظُّباتِ نُفُوسُنَا

ولَيْسَتْ عَلَى غَيْر الظُّباتِ[1] تَسِيلُ

جَنَى نَفْعَنَا الأَعْدَاءُ طَوْرًا وضُرَّنا فَمَا كَانَ أَحْلانَا لَهُمْ وأَمَرَّنَا

ومُذْ خَطَبُوا قَدَمًا صَفَانا وبِرَّنا صَفَوْنَا فلم نَكْدُرْ وأَخْلَص سرُّنَا

إنَاثٌ أَطَابَتْ حَمْلَنَا وفُصُولُ

لقد وَفَّت العَلْيَاءُ في المَجْدِ قِسْطَنَا وما خَالَفَتْ عَنْ مَنْشَأ الأَصْلِ شَرْطَنَا

فمُذْ حَاوَلَتْ في سَاعَةِ العِزِّ هبطنا عَلَوْنَا إلى خَيْرِ الظُّهُورِ وحَطَّنَا[2]

لِوَقْتٍ إلى خَيْرِ البطُونِ نُزُولُ

تَقَرّ[3] لَنَا الأَعْدَاءُ عِنْدَ انْتِسَابِنَا وتَخْشَى خُطُوبُ الدَّهْرِ فَصْلَ خِطَابِنَا

لَقَدْ بَالَغَتْ أَيْدِي العُلَى في انْتِخَابِنَا فَنَحْنُ كَمَاءِ المُزْنِ[4] مَا في نِصَابِنَا

(١) الظُّبَات: جمع ظُبَة، وهي حد السيف. (م).

(٢) حَطَّنا: أنزلنا. (م).

(٣) تَقرّ: تسكن وترضى. (م).

(٤) المُزْن: السحاب ذو الماء. (م).

كَهَام[١] ولا فِينَا يُعَدّ بَخِيلُ

نُغيثُ بَنِي الدُّنْيَا ونَحْمِلُ هَوْلَهُم كما يَوْمُنَا في العِزِّ يَعْدِلُ حَوْلَهم

نَطُولُ أُنَاسًا تَحْسُدُ السُّحْبُ طُولَهم ونُنكِرُ إنْ شِئْنَا عَلَى النَّاس قَوْلَهم

ولا يُنْكِرُونَ القَوْلَ حِينَ نَقُولُ

لأَشْيَاخِنَا سَعْيٌ به المُلْكَ أَيَّدُوا ومِنْ سَعْيِنَا بَيْتُ العَلاءِ مُشَيَّدُ

فَمَــازَالَ مِنَّا في الدســوتِ مُؤَيَّدُ إذا سَيِّدُ مِنَّا خَــلاَ قَــامَ سَيِّدُ

قَؤُولٌ بِمَا قَالَ الكِرَامَ فَعُولُ

سَبَقْنا إلى شَأْوِ[٢] العُلَى كُلَّ سَابِقِ وعَمَّ عَطَــــانَا كُلَّ رَاجٍ وَوَامِقِ[٣]

فكَمْ قَدْ خَبَت في المَحَلِّ نَارُ مُنَافِقِ ومَا خَمــَدَتْ نَارُ لَنَا دُونَ طَارِقِ

ولا ذَمَّنَا في النَّازِلين نَزِيلُ

عَلَوْنَا فَكَان النَّجْمُ دُونَ عُـلوِّنَا وَسَامَ العُدَاةَ الخَسْــفَ فَرْطُ سُموِّنَا

فماذا يَسُرّ الضِّدّ من يَوْمِ سَـوِّنا وأَيَّامُنَا مَشْـــهُورَةٌ في عَــــدُوِّنَا

---

(١) كَهَام: سيف لا يقطع. (م).

(٢) شَأْو: غاية. (م).

(٣) راجٍ ووامق: آمِل ومحب. (م).

بِهَا من قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ

أَبَدْنَا[١] الأَعَادِي حِينَ سَاءَ فِعَالُهَا فَعَادَ عَلَيْهَا كَيْدُها ونَكَالُهَا

بِبِيضٍ جَلاجِيلُ العِقَالِ[٢] صَقَالها مُعَوَّدة أَنْ لا تُسَلّ نِصَالُهَا[٣]

فَتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَتِيلُ

هُم هَوّنُوا في قَدْرِ مَنْ لم يُهِنْهُم وخَانُوا غَدَاة السِّلْم مَنْ لمَ يَخُنْهم

فإن شِئْتَ خبر المال مِنَّا ومِنْهُم سَلِي إِنْ جَهِلْتِ النَّاسَ عَنَّا وعَنْهم

فَلَيْس سَوَاءً عَالِمٌ وجَهُولُ

وقال شميلة من أشراف مكة وكان نجدًا شجاعًا شاعرًا:

لَيْس التَّعلُّلُ[٤] بالآمَالِ من شِيَمي ولا القَنَاعَةُ بالإقْــــلاَلِ من هِمَمِي

ولَسْتُ بالرَّجُلِ الرَّاضِي بِمَنزِلَةٍ حَتَّى أطَأَ[٥] الفُلْكَ الدَّوّارَ بِالقَدَمِ

---

(١) أَبَدْنَا: أهلكنا. (م).

(٢) العِقَال: الحبل الذي يربط به البعير أو الناقة. (م).

(٣) تُسَلّ نصالها: تُشْهَر حدائدها وأطرافها . (م).

(٤) التَّعَلّل: التّلَهِّي. (م).

(٥) أَطَأ: أدوس. (م).

هكذا تكون النخوة الهاشمية والشهامة القرشية، ولا يحسن الافتخار والحماس من عموم الناس، وإن حسن فهو من أهل البيت أحسن. جعلنا الله ممن أنعم عليهم بحبهم وأحسن.

فحفظ العرض الذي هو أساس الفضائل تدخل فيه العفة التي ينبغي أن تكون وصفًا للذكور والإناث، فمن شرف المرأة وفاؤها بحقوق زوجها بحفظ عرضه وماله، بأن تكون لزوجها راعية ومجيبة لطاعته سرًّا وعلانية، ولهذا كان الآباء والأمهات يوصون البنات بطاعة الأزواج.

الفصل الثالث

في خطبة الآباء والأمهات ووصاياهم للبنين والبنات وغير ذلك

جرت العادة عند العرب الذين هم خيار الناس بأن الآباء والأمهات يصطفون[1] لأبنائهم الأزواج والزوجات مع مراعاة الأصالة والأعراق، والنباهة وحسن الأخلاق، وكرم الأصل والفعال، وظرف المعاني ولطف الخصال، ووضاءة البهاء والجمال، وجميع الصفات الباعثة على عدم الشقاق الجالبة للوداد والوفاق، فمن ذلك ما حُكِي عن الحارث بن عوف سيد قبيلته أنه قال لبعض إخوانه: أترى أني أخطب إلى أحد فيردني، قال: نعم، قال: ومن هو، قال: أوس بن حارثة بن لام الطائي الذي قال في مدحه الشاعر:

إلى أَوْسِ بن حَـــــارِثَة بـــن لاَمِ   لِيَقْضِي حَاجَتِي فِيمَن قَضَاها
فما وَطِئ الحَصَى مِثْل ابْنِ سُعْدَى   ولا لَبِسَ النِّعَالَ ولا احْتَذَاهَا[2]

---

(١) يَصْطَفُون: يختارون. (م).

(٢) احْتَذَاهَا: انتعلها. (م).

فقال: اركب بنا إليه فركبا وسارا حتى أتيا أوس بن حارثة في بلاده فوجداه في فناء منزله، فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحبًا بك يا حارث ما جاء بك، قال: جئت خاطبًا، فأساءه في الجواب فانصرف ولم يكلمه، ودخل أوس إلى زوجته مغضبًا فقالت: مَنْ الرجل يسلم عليك فلم تكلمه؟ فقال: ذلك سيد العرب الحارث بن عوف الطائي، قالت: فما لك لم تستنزله[1]، قال: إنه استخفني، قالت: وكيف ذلك؟ قال: جاء خاطبًا، قالت: أفتريد أن تزوج بناتك أم لا؟ قال: نعم بل أزوجهن ولابد من الزواج، قالت: فإذا لم تزوّج سيد العرب في زمانه فمن تريد لهن؟! قال: كان ذلك وندم.

قالت له: فتدارك ما كان منك، قال: بماذا؟ قالت: بأن تلحقه وترده، قال: وكيف ذلك وقد فرط مني إليه ما فرط؟ قالت: تقول له إنك لقيتني وأنا مغضب لأمرٍ، فلك المعذرة فيما فرط مني، فارجع فلك عندي كل ما أحببت، قال: فركب في أثرهما فو الله إنا لنسير إذ حانت مني التفاتة فرأيته، فقلت للحارث وهو لا يكلمني غيظًا: هذا أوس في أثرنا، فقال: وما أصنع به؟ فلما رآنا لا نلتفت نادى يا حارثة ارْبَع قلبك[2] عليّ، فوقفا له وكلمه بذلك الكلام الذي علمته له زوجته فرجع مسرورًا.

(١) تَسْتَنْزِله: تحله ضيفًا. (م).
(٢) ارْبَع قلبك: ارفقْ قلبَك. (م).

فلما دخل أوس منزله قال لزوجته: ادعي بفلانة أكبر بناته فأتته، فقال لها: أي بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب قد جاءني خاطبًا وقد أردت أن أزوّجك منه فماذا تقولين، قالت: لا تفعل، قال: ولم؟ قالت: إني امرأة ذات خلق وفي خلقي رداءة وفي لساني حدّة، ولست بابنة عمه فيرعى حقي ورحمي ولا أنت مجاور له في البلد فيستحي منك، وأخاف أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون ذلك عَلَيّ سُبَّة وحسرة، قال: قومي بارك الله فيك، ثم دعا بابنته الثانية فقال لها مثل قوله لأختها، فأجابته بمثل ذلك، فقال: قومي بارك الله فيك.

ثم دعا بهنيسة وكانت أصغرهنّ سِنًّا وأحسنهن جمالاً وأدبًا وأرجحهن عقلاً، فقال لها مثل ذلك، فقالت له: والله إني الجميلة وجهًا الرقيقة خلقًا الحسنة رأيًا فإن طلقني فلا أخلف الله عليه، وإن أرادني كنت له معينًا على مضض[1] الزمان وحوادثه، فقال لها: بارك الله فيك، ثم خرج من عندها إلينا فقال زوّجتك: يا حارث بنتي هنيسة، قال: قد فعلت فأمر أمها أن تهيئ حالها وتصلح شأنها ثم أمر ببيت فضرب لها وأنزله إياه ثم بعثها إليه، فلما دخلت عليه لبث هنيهة ثم خرج إليّ، فقلت له: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله ما وصلت إلى شيء، قلت: وكيف ذلك؟ قال: لما مددت يدي إليها، قالت: مَهٍ[2] أعند أبي وإخوتي إني لأستحي منهم هذا والله لا يكون أبدًا، ثم أمر بالرحيل فارتحلنا بها معنا

(١) مَضَض: وجع. (م).

(٢) مَهٍ: اسم فعل بمعنى النهي والزجر. (م).

وسرنا إلى مأمننا، ثم قال لي: تقدم فتقدمت فعدل بها عن الطريق فمال قليلاً ولحقني، فقلت أقضيت حاجتك؟ قال: لا، قلت: ولم ذلك؟ قال: قالت لي: أتفعل بي كما يفعل بالسبية الأخيذة[1]، لا والله إلا حتى تنحر الجزور[2] وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل مثلك لمثلي، فقلت: والله إني لأرى همة وعقلاً وأرجو الله أن تكون المرأة النجيبة إن شاء فَسِرنا إلى حَيِّنا فأحضر البقر والغنم والإبل ونحر وأَوْلم[3].

ثم دخل عليها وخرج إليّ، فقلت: أقضيت حاجتك؟ فقال: لا والله، قلت: ولم ذلك؟ قال: دخلت عليها لأريدها وقلت لها: قد أحضرت من المال فخذي ما تريدين، فقالت: والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس فيك، قلت: ولم ذلك؟ قالت: أتتفرغ للنساء وبلغني أن العرب يقتل بعضهم بعضًا -وذلك في أيام حرب عبس وذبيان- قلت: فماذا تريدين؟ قالت: اخرج إلى القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد وتفوز بالسيادة على قومك، فقلت: والله إني لأرى عقلاً ورأيًا مباركًا سديدًا، قال: فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فأمرناهم بالصلح ودخلنا بينهم فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى ثم يأخذوا واحدًا في واحد، وما زاد يأخذوا دِيَّته فكانت الزيادة على فريق منهم

---

(١) السَّبيَّة الأَخيذَة: الأسيرة. (م).

(٢) الجَزُور: الناقة. (م).

(٣) أَوْلَم: صنع وليمة طعام للعرس وغيره. (م).

ثلاثة آلاف دينار فوزنوها وانصرفنا بأجمل ذكر وأعظم سيادة، ثم دخل عليها فقالت: نعم الآن، فأقامت معه في ألذ عيش وأطيبه وولدت له بنين وبنات وكان من أمرهما ما كان.

قال الغزالي في الإحياء: زوّج أسماء بن خارجة الفزاري ابنته، فلما أراد هداءها قال لها: إنك خرجت من العش الذي فيه درجت[١] وصرت إلى فراش لا تعرفينه وقرين لا تألفينه، فكوني له أرضًا يكن لك سماء، وكوني له مهادًا يكن لك عمادًا، وكوني له أَمَةً يكن لك عبدًا، ولا تلحفي[٢] به فيقلاك[٣]، ولا تتباعدي عنه فينساك، إن دنا فاقربي منه وإن نأى فابعدي عنه، واحفظي أنفه وسمعه وعينه، فلا يشم منك إلا طيبًا، ولا يسمع منك إلا حسنًا، ولا ينظر إلا جميلاً، وكوني له كما قلت لأمك:

خُذِي العَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي ... ولا تَنْطِقِي في ثَوْرَتي حِينَ أَغْضَبُ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الحُبَّ في الصَّدْرِ والأَذَى ... إذا اجْتَمَعَا لم يَلْبَث الحُبُّ يَذْهَبُ

وقالت أخرى لبنتها: كوني له فراشًا يكن لك معاشًا[٤]، وكوني له وِطَاء[٥] يكن لك غطاء، وإياك والاكتئاب إذا كان فرحًا والفرح إذا كان كئيبًا، ولا يطلعن

(١) دَرَج: مشيت فيه يومًا بعد يوم. (م).
(٢) تَلْحَفِي: تضري. (م).
(٣) يَقْلاك: يكرهك. (م).
(٤) مَعَاشًا: كل ما يعاش به. (م).
(٥) وِطَاء: خلاف الغطاء، والمراد كوني له كالأرض السهلة يعيش عليها مرتاحًا. (م).

منك على قبيح ولا يشمنّ منك إلا طيب ريح، ولا تفشين له سرًّا لئلا تسقطي من عينه، وعليك بالماء والدهن والكحل فإنها أطيب الطيب. وعلى ذكر النهي عن إفشاء السر قول عمرو بن العاص: «ما استودعت رجلاً سرًّا فأفشاه فَلُمْته لأني كنت أضيق صدرًا حيث استودعته إياه». وقيل:

إذا المَرْءُ أَفْشَى سِرَّه بِلسَانِه ... ولاَمَ عَلَيْـــــه غَيْرَه فهـــو أَحْمَق

إذا ضَاقَ صَدْرُ المَرْءِ عَنْ سِرِّ نَفْسِه ... فَسِرُّ الذي يَسْتَودِعُ السِّرَّ أَضْيَق

وقيل:

لا تُفْش سِرَّك ما اسْتَطَعْتَ إلى امْرِئ ... يُفْشِي إِلَيْك سَرَائرًا تُسْتَودَع[1]

فكَمَا تَرَاه بِسِرِّ غَيْرِكَ صَانعًا ... فكَذَا بِسِـــرِّك لا مَحَـــالَة يَصْنَع

وقيل:

إذا المَرْءُ لم يَحْفَظْ سَرِيرَة نَفْسِه ... فإِيَّاكَ أن تُفْشِـــي إِلَيْـــه حَدِيثَا

وقال ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان؛ فإن كل ذي نعمة محسود»، وقيل: من كتم سِرَّه ملك أمره، وقيل: كلما كثر خُزَّان الأسرار ازدادت ضياعًا.

---

(١) تسْتَوْدَع: تحفظ. (م).

(رجع) وقال شخص لابنته ليلة الهداء[١]: كوني لزوجك أَمَةً يكن لك عبدًا، وعليك باللطف فإنه أبلغ من السحر، وبالماء فإنه رأس الطيب.

ولما بلغ الحارث بن عمرو ملك كندة جمال ابنة عوف بن محلم الشيباني وكمالها وقوّة عقلها دعا امرأة من كندة يُقَال لها عصام ذات عقل ولسان وأدب وبيان، وقال لها: اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف، فمضت حتى انتهت إلى أمها، وهي أُمامة ابنة الحارث فأعلمتها ما قدمت له، فأرسلت أمامة إلى ابنتها وقالت: أي بنية هذه خالتك أتتك لتنظر إليك فلا تستري عنها شيئًا إن أرادت النظر من وجه أو خلق، وناطقيها[٢] إن استنطقتك، فدخلت إليها فنظرت إلى ما لم تر قط مثله، فخرجت من عندها وهي تقول: ترك الخداع من كشف القناع فأرسلتها مثلاً.

ثم انطلقت إلى الحارث فلما رآها مقبلة قال لها: ما وراءك يا عصام؟ قالت: صَرُح[٣] المَخْض[٤] عن الزبد رأيت جبهة كالمرآة المصقولة يزينها شعر حالك كأذناب الخيل إن أرسلته خلته السلاسل، وإن مشطته قلت: عناقيد جلاها

(١) الهداء: هَدْي العروس إلى بعلها. (م).
(٢) نَاطِيقهَا: كَلّمِيها. (م).
(٣) صَرُح: خَلُص. (م).
(٤) المَخْضُ: اللبن الذي أُخِذ زبده. (م).

الوابل، وحاجبين كأنما خُطَّا بقلم أو سُوِّدا بحمم (بوزن حبر الفحم) تقوّسا على مثل عين ظبية عبهرة (أي ممتلئة الجسم) بينهما أنف كحد السيف الصنيع[١] حَفَّت به وجنتان[٢] كالأُرْجوان[٣] في بياض، كالجمان[٤] شق فيه فم كالخاتم، لذيذ المبتسم فيه ثنايا غرّ ذات أُشُر (تأشير الأسنان تحزيزها وتحديد أطرافها) يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان بعقل وافر وجواب حاضر، يلتقي فيه شفتان حمراوان تحلبان ريقًا كالشهد في رقبة بيضاء كالفضة، ركبت في صدر كصدر تمثال دمية، وعضدان[٥] مدمجان يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عظم يُمَسّ ولا عِرْق يُجَسّ[٦]، رُكِّبت فيهما كَفَّان دقيق قصبهما[٧] لين عصبهما تعقدان شئت منهما الأنامل، نتأ[٨] في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها تحت ذلك بطن طُوِي طي القباطي[٩] المدمجة كُسِرَ عُكنها[١٠] كالقراطيس المدرجة،

---

(١) الصَّنيع: المُجَرَّب. (م).
(٢) وَجْنَتَان: مفردها: «وجنة»، وهي ما ارتفع من الخدين. (م).
(٣) الأُرْجوان: الأحمر. (م).
(٤) الجُمَان: اللؤلؤ. (م).
(٥) عَضُدَان: ساعدان. (م).
(٦) يُجَس: يُلْمَس. (م).
(٧) قَصَبُهُما: عظام أصابعهما. (م).
(٨) نتأ: ارتفع. (م).
(٩) القَبَاطي: ثياب رقيقة منسوبة إلى قبط مصر. (م).
(١٠) عُكنها: أطواء في بطنها من السمن. (م).

تحيط بتلك العكن سُرَّة كالمدهن المجلو خلف ذلك ظهر فيه كالجدول، ينتهي إلى خصر[١] لولا رحمة الله لانبتر لها كَفَل[٢] يقعدها إذا نهضت وينهضها إذا قعدت كأنه دعص[٣] الرمل لَبَده[٤] سقوط الطل، يحمله فخذان لُفًّا كأنما قلبا على نضد[٥] جمان تحتهما ساقان خدلتان (أي ممتلئتان)، يحمل ذلك قدمان كحذو اللسان فتبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما، فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوّجها إياه وبعث بصداقها فجهزت. وقيل:

ذَاتُ حُسْنٍ لو اسْتَزَادَتْ من الحُسْـ ـنِ إِلَيْـــهِ لَمـــَا أَصَابَتْ مَزِيدَا
فهي كالشَّمسِ بَهْجَةً والقَضِيبِ الـ ـلدنِ[٦] قدًّا والرِّيمِ[٧] طَرْفًا وجِيدَا

فلما أرادوا أن يحملوها إلى زوجها قالت لها أمها: أي بنية إن الوصية لو كانت تترك لفضل أدب أو مكرمة حَسَبٍ لتركت ذلك معك، ولكنها تذكرة للعاقل ومنبهة للغافل، أي بنية لو استغنت ابنة عن زوج لغناء أبويها لكنت أغنى

---

(١) خَصْر: وسط الإنسان. (م).
(٢) كَفَل: عَجُز. (م).
(٣) دِعْص: قُور من الرمل مجتمع. (م).
(٤) لَبَده: ركب بعضه بعضًا. (م).
(٥) نَضَد: سرير. (م).
(٦) اللّدن: اللين. (م).
(٧) الرِّيم: الظبي الأبيض. (م).

الناس عنه، ولكنا خلقنا للرجال كما خلق الرجال لنا، أي بنية إنك فارقت الوطن الذي منه خرجت، والعش الذي منه درجت إلى وكر(١) لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، أصبح بملكه إياك عليك ملكًا فكوني له أمة يكن لك عبدًا، واحفظي له خلالاً عشرًا.

أما الأولى والثانية فالصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة؛ فإن في القناعة راحة القلب، وفي المعاشرة بحسن السمع والطاعة رضى الرب، وأما الثالثة والرابعة فالتعهد(٢) لموقع عينه والتفقد(٣) لموقع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا طيب ريح، واعلمي أن الكحل أحسن الحسن الموجود، وأن الماء أطيب الطيب المفقود، وأما الخامسة والسادسة فالتعهد لوقت طعامه والهدء عند منامه؛ فإن حرارة الجوع ملهبة(٤) وتنغيص النوم مغضبة(٥)، وأما السابعة والثامنة فالاحتفاظ ببنيه وماله والرعاية لحشمه وعياله؛ فإن أصل المال من حسن التقدير والرعاية على الجسم والعيال من حسن التدبير، وأما التاسعة والعاشرة فلا تفشين له سرًّا ولا تعصين له أمرًا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت(٦) صدره.

---

(١) وَكْر: عش. (م).

(٢) التَّعَهُّد: التحفظ بالشيء وتجديد العهد. (م).

(٣) التَّفَقُّد: تطلب ما غاب من شيء. (م).

(٤) مُلْهِبَة: متقدة. (م).

(٥) مَغْضَبَة: من الغضب، وهو نقيض الرضا. (م).

(٦) أَوْغَرَت: أحرقت غيظًا. (م).

واتق مع ذلك الفرح إن كان ترحًا[1] والاكتئاب إن كان فرحًا؛ فإن الخصلة الأولى من التقصير والثانية من التكدير، وأشد ما تكونين له إعظامًا أشدّ ما يكون لك إكرامًا، وأكثر ما تكونين له موافقة أحسن ما يكون لك مرافقة، واعلمي أنك لا تقدرين على ذلك حتى تؤثرين هواه على هواك ورضاه على رضاك فيما أحببت أو كرهت، ثم ودّعتها وصرفتها بعد أن نبهتها وعرّفتها.

ومن الوصايا للرجال فيما يخص التأدب بالآداب الحسنة ومن جملتها العشرة مع الأزواج، وصية خطاب بن المعلى المخزومي القرشي لابنه حيث قال: عليك بتقوى الله تعالى وطاعته وتجنب محارمه وباتباع سنته ومعاملته حتى يصح عيشك وتقرّ عينك؛ فإنه لا يخفى على الله خافية، فإني قد رسمت لك رسمًا، ووسمت لك وسمًا، إن أنت حفظته ووعيته وعملت به ملئت بك أعين الملوك، فأطع أباك واقتصر على وصيته وفرّغ لذلك ذهنك واشغل به قلبك ولُبَّك، وإياك وهذر[2] الكلام وكثرة الضحك والمزاح وممارات[3] الإخوان؛ فإن ذلك يذهب البهاء ويوقع في الشحناء، وعليك بالرزانة والوقار من غير كِبْر يوصف منك ولا

---

(١) تَرِحًا: حزينًا. (م).

(٢) هَذْر: كلام لا يُعبأ به. (م).

(٣) مُمَارَات: مجادلات لأخذ الحجة. (م).

خيلاء[١] تُحْكَى عنك، والْقَ صديقك وعدوّك بوجه الرضى، وكَفِّ الأذى من غير ذلة لهم ولا مهابة منهم.

وكن في جميع أمورك أوسطها فإن خير الأمور الوسط، واقلل الكلام وافش السلام، وامش متكئًا ولا تخط[٢] برجلك ولا تسحب ذيلك، ولا تلق رداءك ولا تنظر في عطفيك[٣]، ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات ولا تتخذ السوق مجلسًا ولا الحوانيت متحدثًا، ولا تكثر المراء ولا تنازع السفهاء، وإن قضيت فاختصر وإن مدحت فاقتصر، وإذا جلست فتربع، وتحفظ من تشبيك أصابعك وفرقعتها، والعبث بلحيتك وخاتمك وذوآبة سيفك، وتخليل أسنانك وإدخال يدك في أنفك، وطرد الذباب عن وجهك وكثرة التثاؤب والتمطي وأشباه ذلك؛ فإن ذلك مما تستخفه الناس منك ويغتمزون به فيك.

وليكن مجلسك هادئًا وحديثك مقسومًا، واصغ إلى الكلام الحسن ممن يحدّثك بغير إظهار عجب منك، ولا تسأله إعادة، وغض عن الفكاهات من المضاحك والحكايات، ولا تحدّث عن إعجابك بولدك ولا خادمك ولا عن فرسك وسيفك، وإياك وأحاديث الرؤيا فإنك إن أظهرت الفرح بها طمع فيك السفهاء فولدوا لك الأحلام واغتمزوا في عقلك، ولا تبدل العبد وغب[٤]

(١) خُيَلاء: كبر. (م).

(٢) تَخُطّ: تعلم علامة في الأرض. (م).

(٣) عِطْفَيْك: جانبيك. (م).

(٤) غِبّ: ارع يومًا بعد يوم. (م).

بامتشاط لحيتك، وتوق نتف[1] الشيب وكثرة الكحل والإسراف في الدهن وليكن كحلك غبًّا[2].

ولا تلح في الحاجات ولا تجشع في الطلبات ولا تعلم أهلك وولدك فضلاً عن غيرهم بعدّة مالك؛ فإنهم إن رأوه قليلاً هنت، وإن رأوه كثيرًا لم تبلغ به مرضاتهم، واجفهم من غير عنف منك، وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك، وتجنب عجلتك وتفكر في حجتك وأَرِ الحاكم بينكما حلمك، ولا تكثر الإشارة بيدك وتوق حمرة الوجه وعرق الجبين، وإن سفه عليك فاحلم، وإذا هدأ غضبك فتكلم، وأكرم عرضك وألق الفضول عنك.

وإن قربك السلطان فكن منه على حدّ السنان، وإذا استرسل إليك فلا تأمنن انقلابه عليك، وارفق به كل رفقك وكَلِّمه بما يشتهي مما لم يضيع حقًّا من حقوق الله تعالى، ولا يحملنك ما ترى منه من ألطافه إياك وخاصته بك أن تدخل بينه وبين أحد من أهله وولده وحشمه إلا بخير، وإن كان لذلك منك مستمعًا وللقول منك فيه مطيعًا؛ فإن سقطة الداخل بين الملك وأهله صرعه.

وإذا وعدت فحقق وإذا حدثت فاصدق، ولا تجهر بمنطقك كمنازع الأصم[3] ولا تخافت به كتخافت الأخرس، وتخير محاسن القول بالحديث المقبول، وإذا

---

(١) نَتْف: نزع. (م).

(٢) غَبًّا: غبت الإبل الماء غَبًّا أي وردته يومًا وتركته يومًا، والمراد الإقلال من الشيء وعدم المبالغة.

(٣) الأَصَمّ: مَنْ لايسمع. (م).

حدثت بسماع فانسبه إلى أهله، وإياك والأحاديث الغريبة المستبشعة التي تنكرها القلوب وتقف بها الجلود، وإياك ومضاعف الكلام نعم نعم، ولا ولا، واعجل واعجل وما أشبه ذلك.

وإذا توضأت فأجد عرك كفيك ولا تنخع[١] في الطست، وليكن طرحك الماء من فيك مسترسلاً لا تمجه[٢] فينضح على أقرب جلسائك، ولا تعض بعض اللقمة ثم تعيد ما بقي منها في الفم فإن ذلك مكروه، ولا تكثر الاستقاء على مائدة الملوك، ولا تعبث بالمشاش (أي العظام)، ولا تَعِبّ[٣] طعامًا ولا شيئًا مما يقرب على المائدة من بقل أو خل أو تابل أو عسل؛ فإن الصحابة صيرت لنفسها المهابة بذلك.

ولا تمسك إمساك المسكين المثبور[٤] ولا تبذر تبذير السفيه المغرور، واعرف في مالك واجب الحقوق وحرمة الصديق، واستغن عن الناس يحتاجون إليك، واعلم أن الجشع - يعني الطمع - يدعو إلى الطبع، والرغبة كما قيل تدق الرقبة، والأكله تمنع الأكلات، والتعفف مال جسيم وخلق كريم، ومعرفة الرجل قدره تشرف ذكره، ومن تعدى القَدْر هوى في بعيد القفر[٥]، والصدق زين

(١) تَنْخَع: ألقى بالنُّخَاعة وهي ما يخرج من الصدر أو الخيشوم. (م).
(٢) تمُجّه: تلفظه. (م).
(٣) تعبّ: تتبع الطعام بطعام. (م).
(٤) المثبور: المطرود المُعذَّب. (م).
(٥) القَفْر: أرض خلاء ليس بها نبات ولا ماء. (م).

والكذب شين[١]، ولصدق يسرع عطب صاحبه خير وأحسن عاقبة من كذب يُسَلِّم صاحبه، ومعاداة الحليم خير من مصادقة الأحمق، والزوجة السوء ألدّ[٢] من داء العضال[٣]، وطاعة النساء تزري[٤] بالعقلاء. تَشَبَّه بأهل الفضل تكن منهم، واتضع للشرف تدركه، واعلم أن كل امرئ حيث وضع نفسه، وإنما يُنْسَب الصارم[٥] لصانعه، والمرء يُعْرَف بقرينه.

وإياك وإخوان السوء فإنهم يخونون من رافقهم ويحزنون من صادقهم، وقربهم أعدى من الجرب، ورفضهم من استكمال الأدب، وجفوة المستجير[٦] لؤم، والعجلة شؤم، وسوء التدبير وهن، والإخوان اثنان فحافظ عليك عند البلاء، وصديق لك في الرخاء، واحفظ صديق البلية وتجنب صديق العافية، فإنه أعدى الأعادي، ومن اتبع الهوى مال به إلى الردى، ولا يعجبنك الظريف من الرجال، ولا تحقر ضئيلاً كالخلال، وإنما المرء بأصغريه، وتَوَقَّ الفساد وإن كنت في بلاد الأعادي، ولا تفرش عرضك لمن دونك، ولا تجعل مالك أكرم عليك من عرضك، ولا تكثر الكلام فتثقل على الأقوام، وامنح البِشْر جليسك والقبول، وكن مُنْتَهِبًا في فرصتك، رفيقًا في حاجتك، مثبتًا في عجلتك والبس لكل دهر ثيابه. كما قيل:

---

(١) شَيْن: قبح. (م).
(٢) أَلَدّ: شديد الخصومة. (م).
(٣) عُضَال: شديد مُعْدي. (م).
(٤) تُزْري: تعيب. (م).
(٥) الصَّارِم: السيف القاطع. (م).
(٦) المُسْتَجِير: الجار. (م).

مَنْ شَــــاءَ أَنْ يَصْفُو له عَيْشُه يَمْشِي مَعَ العِمْيَان والــطُّرْشِ
مَا شِــــيمَتِي الذُّلُّ ولكِنَّني أَمْشِي مَعَ الدَّهــــرِ كَمَا يَمْشِي

وقيل:

فَاقْسِم لِكُلِّ زَمَانٍ ما يَلِيقُ به فَإِنَّ للزَّنْدِ حُلِيًّا لَيْسَ لِلْعُنُق

وكن مع كل قوم في سلكهم، ولا تعجل في أمر حتى تنظر إلى عاقبته، وعليك بالتنوير في كل شهر، وإياك وحلق الإبط بالنورة[١]، وليكن السواك من طبعك وإذا استكت[٢] فعرضا، وعليك بالعمارة فإنها أنفع من التجارة، وعلاج الزرع خير من اقتناء الضرع[٣]، ومنازعة اللئيم تطمعه فيك، ومن أكرم عرضه أكرمه الناس.

ومعرفة الحق من إخلاص الصدق، والرفيق الصالح ابن عم، من أَيْسَرَ عَظُمَ ومن افْتَقَر احْتُقِر. قَصِّر في المقالة مخافة عدم الإجابة، والساعي عاتب عليك، وطول السفر ملالة وكثرة المنى ضلالة، وليس للمعاتب صديق، وأدب الشيخ عياء والأدب للغلام شفاء، والدين أزين الأمور، والشماتة سفاهة، والسكران شيطان وكلامه هذيان، والعادة طبيعة لازمة إن خيرًا فخير وإن شرًّا

(١) النُّورَة: مادة تستعمل لإزالة الشعر. (م).

(٢) اسْتَكْت: من: ساك فمه بالعود، أي استعملت المسواك في تطهير الفم. (م).

(٣) الضَّرع: الجمل الضعيف. (م).

فشر، ومن حل عقدًا احتمل حقدًا، والفرار عار والتقدم مخاطرة، وكثرة العلل مع الموجود من البخل، وشرّ الرجال الكثير الاعتلال (يعني في القول)، وحسن اللقاء يُذْهِب الشحناء ولين الكلام من أخلاق الرجال الكرام.

أَبُنيّ: إن زوجة الرجل سكنه ولا عيش له مع خلافها، فإذا هممت بزواج امرأة فاسأل عن أهلها؛ فإن العروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة، واعلم أن النساء أشدّ اختلافًا من أصابع الكف، فَتَوقَّ منهم كل ذات يد مجبولة[١] على الأذى، فمنهن المعجبة بنفسها المزرية ببعلها، إن أكرمها رأت فضلها، ولا تشكره على جميل ولا ترضى منه بالقليل، لسانها عليه سيف صقيل قد كشفت الوقاحة ستر الحياء عن وجهها، هدّارة عقَّارة[٢]، زوجها مكلوم[٣] وعرضه مشتوم، لا ترعى له دينًا ولا دنيا، ولا تحفظه لصحبته ولا لكبر سنه، حجابه مهتوك[٤] وسرّه منشور وخيره مدفون، يصبح كئيبًا ويمسى عانيًا[٥]، شرابه شر وطعامه غيظ، وبيته مستملك وثوبه وسخ ورأسه شعث، إن تكلم فكاره وإن ضحك فراهب، نهاره ليل وليله نهار، تلدغه مثل الحية وتُكَرِّشه مثل العقرب، تهب مع الرياح وتطير مع

(١) مَجْبُولَة: مطبوعة. (م).
(٢) هَدَّارة عَقَّارة: كثيرة الصياح لا تلد. (م).
(٣) مَكْلُوم: جريح. (م).
(٤) مَهْتُوك: مفضوح. (م).
(٥) عانيًا: مُتْعبًا. (م).

كل ذي جناح، إن قال لا قالت نعم، وإن قال نعم قالت لا، محتقرة لما في يديه، تضرب له الأمثال وتقصر به دون الرجال وتنقله من حال إلى حال. قَلَي بيته ومَلَّ ولده وغشه عرسه وهانت عليه نفسه حتى أنكره إخوانه ورحمه جيرانه.

ومنهن الحمقاء ذات الدلال في غير موضعه، الماضغة للسانها التاركة لشانها، قد قنعت من زوجها بحبه ورضيت بكسبه تأكل كالأتان الراتع[١]، ترتفع الشمس ولم يُسْمَع لها صوت ولم يُكْنَس لها بيت، طعامها بائت وماؤها فاتر، وماعونها[٢] ممنوع وخادمها مضروب. ومنهن العطوف الودود، المباركة الولود، المأمونة على الغيبة، المحبوبة في جيرانها، الحافظة لسرها وإعلانها، الكريمة التبعل[٣] الكثيرة التفضل، الخافضة صوتًا النظيفة بيتًا، خادمها مؤتمن وابنها مزين، وخيرها دائم وزوجها ناعم، موصوفة بالخير والعفاف معروفة بخير الأوصاف، جعلك الله يا بني فيمن يقتدي بالهدى ويأتم بالتقى ويتجنب السخط ويحب الرضى والله خليفتي عليك. انتهى. وقال بعضهم:

إذا كُنْتُ أَعْلَم عِلْمًا يَقِينًا   بِأَنَّ جَمِيعَ حَيَاتِي كَسَاعَة
فَلِم لا أَكُونُ ضَنِينًا[٤] بها   وأَجْعَلُهَا في صَلاحٍ وطَاعَة

---

(١) الأَتَان الرَّاتع: الحمارة التي تأكل في سعة وخصب من الأرض. (م).
(٢) مَاعُونُها: كلُّ ما يُنْتَفع به. (م).
(٣) التَّبَعُّل: حسن العشرة. (م).
(٤) ضنينًا: بخيلاً. (م).

وقيل:

مَعَاصِيكَ العِظَامُ عَلَيْكَ دَيْنٌ ويَوْم الحَشْرِ تُبْدِيها جَمِيعًا
فكُن مُتَجَافِيًا[١] عن كُلِّ ذَنْبٍ فخَيْرُ النَّاسِ من أَمْسَى مُطِيعًا

وقيل:

تَزَوّد جَمِيلاً مِنْ فِعَالِكَ إنما قَرِينُ الفَتَى في القَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ
أَلا إِنَّما الإِنْسَانُ ضَيْفٌ لأَهْلِه يُقِيمُ قَلِيلاً عِنَدَهم ثم يَرْحَلُ

ومن الوصايا ما أوصى به العلامة السهرودي ابنه، قال: يا بني لا عقل لمن لا وفاء له، ولا مروءة لمن لا صدق له، ولا علم لمن لا رغبة له، ولا كرم لمن لا حياء له، ولا توبة لمن لا توفيق له، ولا كنز أنفع من العلم، ولا مال أربح من الحلم، ولا حسب أرفع من الأدب، ولا رفيق أزكى من العقل، ولا دليل أوضح من الحق، ولا شفيع أبهى من التوبة، ولا غائب أقرب من الموت، ولا كرم أنفع من ترك المعاصي، ولا حمل أثقل من الدَّيْن، ولا عبادة أفضل من الصمت، ولا شر أشر من الكذب، ولا كِبْرٌ أكبر من الحمق، ولا فقر أضر من الجهل، ولا ذل أذل من الطمع، ولا عار أقبح من البخل، ولا غنى أغنى من القناعة. يا بني من نظر في عيب غيره استعظم زلة نفسه، ومن سَلَّ سيف البغي قُتِل به، ومن حفر حفرة لغيره وقع فيها.

---

(١) مُتَجَافِيًا: متباعدًا. (م).

يا بني من صارع الحق صُرِع، ومن تعرض لهتك مسلم هتك الله عورته، ومن أعجبه رأيه ضَلّ، ومن تكبر على الناس ذَلّ، ومن شاور لم يندم، ومن جالس العلماء وقر، ومن جالس السفهاء حقر، ومن قل كلامه حمدت عاقبته، ومن عُرِف بالكذب لم يصدقه أحد، ومن طاوع نفسه في شهواتها فضحته، ومن لم يعرف مقادير الرجال فألحقه بالبهائم.

يا بني إني ذقت الطيبات كلها فلم أجد ألذ من العافية، وذقت المرارة كلها فلم أجد أمرّ من الحاجة إلى الناس، ونقلت الحديد والصخر فلم أجد شيئًا أثقل من الدَّيْن. يا بني جهاد البلاء في الدين ست خصال: سلطان يظلم رعيته، ورجل يضرب امرأته من غير ذنب، وكثرة العيال مع قلة المال، وانتظار شخص على المائدة، وصديق يمشي بهلاك صاحبه، وجار سوء يدفن حسناتك ويفشي سيئاتك، يا بني لا خير في النساء، ولا تركن[١] إليهن، ولا تبح إليهن بسرك، وكن من خيارهن على حذر. يا بني إذا جاورك قوم فغض نظرك عن محارمهم.

يا بني من أساء إليك فأحسن إليه وازرع الجميل تحصد الجزيل، واصحب الأشراف وتجنب الأطراف؛ لأن الأشراف إن صحبتهم رفعوك، وإن ظلمت نصروك، وإن تكلمت سمعوك، والأطراف[٢] إن صحبتهم وضعوك، وإن أمنتهم خدعوك، وإن اطلعوا على سرك فضحوك، وإن استغنوا عنك تركوك. يا بني

---

(١) تَرْكَن: تميل. (م).

(٢) الأطراف: الذين لا يثبتون على عهد. (م).

عليك بالندامة على الذنب واذكر الله بالعشيّ والإبكار، واهرب من رفيق السوء. يا بني لا تصاحب ستة من الرجال: الأحمق والفاسق والنمام والكذاب والبخيل والخائن. وقال ﷺ: «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها». وورد عنه ﷺ «المجالس بالأمانة»، وقال الأعمش: جواب الأحمق السكوت. والتغافل يطفئ شرًّا كثيرًا ورضى المتجني غاية لا تدرك والاستعطاف عون للظفر وقيل:

عَوّد لِسَانَك صِدْقَ القَوْلِ تَحْظَ بِهِ   إِنَّ اللِّسَانَ لِمَا عوّدتَه اعْتَادَا

وقيل:

وَعْدُ الفَتَى بِلسَانِه   دَيْنٌ عَلَى إِحْسَانه
فإذا وَفَّى مِيعَادَه   انْحَلَّ عِقْدُ لِسَانه

وكان عليه الصلاة والسلام يقول الحق ولو كان مرًّا.

وقال بعض الحكماء: لا تصحب من الناس إلا من يكتم سرك ويستر عيبك، ويكون معك في النوائب[١] ويوثر الرغائب، وينشر حسنتك ويخفي سيئتك، فإن لم تجد فلا تصاحب إلا نفسك. وقيل:

(١) النوائب: الشدائد. (م).

وإذا صَاحَبْتَ فَاصْحَـبْ مَاجِدًا ذَا حَيَـاءٍ ووَفَـاءٍ وكَرَم
قَوْلُه لِلشَّـيءِ لا إِنْ قُلْتَ لا وإذا قُلْتَ نَعَـم قَالَ نَعَـم

ورُوِي عن ابن مسعود ﵁ مَثَلُ الجليس الصالح كمثل حامل المسك إن لم يعطك منه أصابك من ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل القين[١] إن لم يحرق ثيابك أصابك من ريحه ودخانه. ووصف بعض البلغاء إخوانًا له فقال: أخطأ الناس لديهم من أحسن إليهم، فإن قَصَّر عنهم رفضوه وبغضوه، وإن حضروا عنده داهنوه[٢]، وإن غابوا عنه شاحنوه، وإن رأوا خيرًا دفنوه وإن سمعوا شرًّا أعلنوه. وقيل:

إذا رَأَوا سُبَّةً طَارُوا بِهَا فَرحًا مِنِّي وما سَـمِعُوا من صَالحٍ دَفَنُوا

وقيل:

وعَيْنُ الرِّضَى عن كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَة[٣] كما أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المسَاوِيَا

وعنه ﷺ: «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا»، وقال بعض الحكماء: ليس الإخوان من جلس على الخوان، إنما يُحَبّ امرؤ ودّه غير

(١) القَيْن: الحَدَّاد. (م).
(٢) دَاهَنُوه: غَشُّوه. (م).
(٣) كَلِيلَة: لم تحقق عملها، أي تتغاضى عن معايبه. (م).

ممنون[١] وعقبه مأمون، فهذا هو الخليل الذي مَا لَه عديل[٢]، وما عنه إذا غاب بديل. والخوان ما يؤكل عليه وهو فارسي معرب وجمعه أخونة وإخوان، ولا يسمى خوانًا إلا إذا كان الأكل عليه.

وقال الزجاج: الخليل هو الذي ليس في خُلَّتِه خلل، والخلة هي الصداقة وهي مأخوذة من تخلل المودة في القلب، وشرطه أن يكون لك نافعًا وعنك مدافعًا، تعدّه لنائبات الدهر إذا نزلت وللمسرة إذا حصلت، فكل حبيب خليل ولا عكس. سئل بعض الحكماء عن الصديق ما هو؟ فقال: هو الذي إذا زرته سرك، وإذا زارك سرك، وسُمِّي صديقًا لصدقه إياك، وسمي العدوّ عدوًّا لعدوانه عليك إذا ظفر بك، وذلك مما يستدل به على لؤمه وخبث طَوِيَّتِه[٣]، فقد قيل: الكريم إذا قدر غفر وإذا رأى زلة ستر، وقالوا: ليس من عادات الكرام سرعة الغضب والانتقام، وقال الماوردي:

وصَاحِبُ خِلْتُه[٤] خَلِيـــــــلاً   ومَا جَـــرَى غَـــــدْرُه بِبَالِي
لم يُحْصِ[٥] إِلاَّ القَبِيحَ مِنِّي   كَأَنَّـــــــه كَـــاتِبُ الشِّمَال

(١) غير مَمْنُون: غير مقطوع. (م).
(٢) عَدِيل: مثيل. (م).
(٣) طَوِيَّته: ضميره. (م).
(٤) خِلْته: تخيلته. (م).
(٥) يُحْصِ: يَعُدّ. (م).

ومن كلام بعضهم:

تَنَحَّ عَن الدُّنْيَا وصُحْبَةِ أَهْلِهَا وبَايِنْهُمُو[١] مادُمْتَ في الدَّهرِ بَاقِيَا
فَمَا مِنْهُم إلا حَسُودٌ وشَامتٌ تَرَاه بِأَقْوَالِ النَّمِيمَةِ عَادِيَا
إذا نِلْتَ خَيْرًا أَظْهَرُوا لك وُدَّهُم وأَبْدُوا سُرُورًا كُلَّمَا دُمْتَ وَالِيَا
وإِنْ سَاءكَ الدَّهْرُ الخَؤونُ بِصَرْفِه[٢] ترى مِنْهُم الشَّيءَ الذي كَان خافِيَا
وصار الصَّدِيقُ المُظْهِرُ الوُدّ والرِّضى يُجَرِّدُ سَيفًا بالعَدَاوَةِ مَاضِيَا
فما في بَنِي الدُّنْيَا الدَّنِيَّة صَاحِبٌ يَدُومُ عَلَى عَهْدٍ إذا كُنْتَ نَائِيَا
فَشَمِّر[٣] إلى التَّقوَى ودَعْ كُلَّ حَاسِدٍ وَرَاعِ حُقُوقَ الله إِنْ كُنْتَ رَاعِيَا
فما الخَيْرُ إلا في الخُمُولِ مَعَ التُّقَى وما الغُنْم[٤] إلا أَنْ تَقُومَ اللَّيالِيَا

وقيل:

جَزَى الله الشَّدَائِدَ كُلَّ خَيْرٍ عَرفْتُ بِهَا عَدُوّي مِنْ صَدِيقِي

---

(١) بَايِنْهُمُو: فارقهم. (م).
(٢) بِصَرْفِه: حدثانه ونوائبه. (م).
(٣) فشَمِّر: فتهيأ. (م).
(٤) الغُنْم: الفوز. (م).

وللإمام الشافعي رضي الله عنه:

المَرْءُ في زَمَنِ الإِقْبَالِ كَالشَّجَرة وحَوْلَها النَّاسُ مادَامَتْ بِهَا الثَّمَرة
حتى إذا ماعَرَت[١] عن حِمْلِهَا انْصَرَفُوا عَنْها عُقُوقًا وقَدْ كَانُوا بِهَا بَرَرَةْ
وحَاوَلُوا قَصَّهَا مِنْ بَعْد ما شَفَقُوا دَهْرًا عَلَيْها من الأَرْيَاحِ والغَبرةْ
كذلك النَّاسُ إِنْ صَاحَبْتَ أَكْثَرَهم فما صَفَا لك رُبْعُ السُّدسِ من عَشَرَه

وقيل: الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، وقيل:

لا تَحْمِدنّ امْرَأً حتَّى تُجَرِّبَه فَرُبَّمَا لا يُوَافي خَبَرُه خُبْره[٢]

وقيل:

وقَدْ كَانَ حُسْنُ الظَّنِّ بَعْضَ مَذَاهِبي فَأَدَّبَني هَذَا الزَّمَانُ وأَهْلُه

وفي الخبر أن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود والخبيث والطيب رواه الحاكم. وقيل:

---

(١) عَرَت: جردت. (م).

(٢) خُبْره: مخبرة الإنسان. (م).

النَّاسُ أَطْوَارٌ[1] إذا جَرَّبتَهُم ... كالنَّبْتِ فيه طَيِّبٌ وخَبِيثُ

وقيل:

كُلُّ امْرِئٍ رَاجِعٌ يَوْمًا لِشِيمَتِه ... وإنْ تَخَلَّق أَخْلاَقًا إلى حِينِ

وقيل:

وما سَامَنِي[2] ضَيْمًا ولا شَفَّنِي[3] أَذًى ... مِنَ النَّاسِ إِلاَّ مَنْ أَوَدُّ وآلَفُ
وما ضَرَّني إلاَّ الَّذين عَرَفْتُهم ... جزى الله خيرًا كُلَّ مَنْ لَسْتُ أَعْرِفُ

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

لَكَ في العُزْلَةِ فَاعْلَم ... نِعَمٌ تُوجِبُ شُكْرَا
قَلَّ مَنْ يُنْصِفُ فاجْعَل ... لَكَ مِنْ بَيتِكَ قَبْرَا
لا تَخَفْ ضِيقَةَ عَيْشٍ ... إنَّ بَعْدَ العُسْرِ يُسْرَا

(١) أَطْوَار: أخياف، أي على حالات شتى. (م).
(٢) سَامَنِي: كلَّفني. (م).
(٣) شَفَّنِي: لذعني. (م).

وقال بعضهم:

لَوْ قِيلَ لِي خُذْ أَمَانًا مِنْ أَعْظَمِ الحَدَثَانِ[1]
لَمَا أَخَذْتُ أَمَانًا إِلَّا مِنَ الإِخْوَانِ

وقيل:

اهرَبْ بِنَفْسِكَ واسْتَأنِسْ بِوَحْدَتِهَا تَلْقَ السُّرُورَ إذا مَا كُنْتَ مُنْفَرِدَا

وقال ذو النون: لا تصحب إلا من إذا مرضت عادك، وإذا أذنبت تاب لك، وعلى ذلك قول الشاعر:

إذا مَرِضْتُم أَتَيْنَاكُم نَعُودُكُم وتُذْنِبُون فَنَأْتِيكُم ونَعْتَذِر

وقيل:

إِذا اعتَذَرَ المُسيء إِلَيْكَ يَوْمًا تَجَاوَزْ عَنْ مَسَاوِيهِ الكَثِيرَة
فَإِنَّ الشَّافِعِيّ روى حَدِيثًا بإِسْنَاد صَحِيحٍ عَنْ مُغِيرَةْ
عن المُخْتَارِ إِنَّ اللهَ يَمْحُو بِعُذْرٍ وَاحِدٍ أَلفَي كَبِيرَةْ

---

(١) الحَدَثَان: النُّوَب والشدائد. (م).

ومن السُّنة تخفيف العيادة[١]، قيل: مرض بكر بن عبد الله المزني فعاده أصحابه فأكثروا عنده الجلوس، فقال: المريض يُعاد والصحيح يُزار، وكذلك زيارة الأصدقاء والإخوان وسائر الصالحين ينبغي أن تكون خفيفة لقوله ﷺ «زُرْ غِبًّا[٢] تزدد حُبًّا»، ولقوله ﷺ: «من زار أخاه خاض في الرحمة حتى يرجع»؛ لأنها من الأخلاق العلية ومحاسن الآداب السنية، وأجمل المزايا وأجل السجايا، بحيث لا تكون المدة التي بين الزيارتين طويلة مملة ولا قصيرة مُخِلَّة[٣] وهذا في زيارة الأحياء، أما زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين فتُسْتَحَب مطلقًا من غير نظر إلى طول أو قصر أو قلة أو كثرة لانتفاء العلة المذكورة. وقيل:

عليْكَ بِإغْبَابِ[٤] الزِّيَارَةِ إِنَّها ... إِذَا كَثُرَت كَانَتْ إلى الهَجْرِ مَسْلَكًا
فَإنِّي رَأَيْتُ الغَيْثَ يُسْأَمُ دَائِمًا ... ويُسْأَلُ بِالأَيْدِي إِذَا هُو أَمْسَكَا

وقيل:

لا تَزُرْ مَنْ تُحِبّ في كُلِّ شَهْرٍ ... غَيْرَ يَوْمٍ وَلاَ تَزِدْه عَلَيْهِ
فاجْتِلاَء[٥] الهِلاَلِ في الشَّهْرِ يَوْمٌ ... ثم لا تَنْظُرُ العُيُونُ إِلَيْهِ

(١) العِيَادَة: الزيارة. (م).
(٢) غِبًّا: أي زُرْ يومًا واترك يومًا. (م).
(٣) مُخِلَّة: مجحفة. (م).
(٤) إغْبَاب: تقليل الزيارة يومًا ويومًا. (م).
(٥) اجْتِلاء: النظر. (م).

وقيل:

لا تُنْكِرَّن عَدَمَ الزِّيَارَة سَيِّدِي فمَحَبَّتِي طَبْـــــعٌ بِغَيْرِ تَـــــرَدُّدِ

ولكن ما أحسن ما قيل:

إِذَا آنَسْـــتَ مِنْ خِلٍّ[١] وِدَادًا فَزُرْه ولا تَخَفْ مِنْه مِـــــلالا
وكُنْ كالشَّمسِ تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ ولا تَكُ في مَحَبَّتِه هِـــــلالا

ومرض إنسان فكتب إليه بعض أصدقائه: كشف الله مابك من السقم وطهرك بالعِلة[٢] من الخطايا، ومتعك بأنس العافية وأعقبك دوام الصحة. وفضل العيادة مشهور وشرفها مذكور وبها تعظم الأجور. وعاد بعض الناس مريضًا فأطال عنده الجلوس، فدعا الله فقال: اللهم علمنا كيف نعود المرضى؟ ففهم منه أنه أطال عنده الجلوس فقام. وقال ﷺ: «إذا مرض الغريب فنظر عن يمينه وعن شماله وعن أمامه وعن خلفه فلم ير أحدًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه»، ورُوي عنه ﷺ «ثلاثة في ظل العرش عائد المرضى ومشيع الموتى ومعزي الثكلى» والثكلى فاقدة الولد ومن لوازمها الحزن. روى السهروردي عن رسول الله ﷺ قال: «من عزى ثكلى

---

(١) خِل: صديق. (م).
(٢) العِلَّة: المرض. (م).

كُسِي بردًا[١] في الجنة» ورُوِي عنه أيضًا قال: «ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة إلا كساه الله ﷻ من حُلل[٢] الكرامة يوم القيامة»،

والتعزية هي الحمل على الصبر وذكر ما يُسلِّي[٣] المصاب ويخفف حزنه ويهوّن مصيبته، وهي مستحبة فإنها مشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي داخلة في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة/ ٢] وتُسْتَحَبّ التعزية قبل الدفن وبعده، قيل: وتُكْرَه بعد ثلاثة أيام لأنها قد تجدد الحزن، وقيل: إنها لا تُفْعَل بعد ثلاثة أيام إلا في صورتين: وهما إذا كان المُعَزَّى أو صاحب المصيبة غائبًا حال الدفن واتفق رجوعه بعد ثلاثة، والتعزية بعد الدفن أفضل منها قبله لأن أهل الميت مشغولون بتجهيزه، ولأن وحشتهم بعد دفنه لفراقه، هذا إذا لم يُرَ منهم جزعًا فإن رآه قدم التعزية ليسكنهم.

وأما لفظ التعزية فلا حجر فيه فأي لفظ عُزِّي به حصلت، واستحب أصحاب الشافعي أن يقال في تعزية المسلم بالمسلم: أعظم الله أجرك وأحسن عزاك وغفر لميتك، وفي المسلم بالكافر: أعظم الله أجرك وأحسن عزاك، وفي الكافر بالكافر: أخلف الله عليك ولا نقص عددك. وأحسن ما يُعَزَّى به ما

---

(١) بُردًا: ثوبًا. (م).
(٢) حُلَل: جمع حُلَّة، وهي ثوبين من جنس واحد. (م).
(٣) يُسلِّي: يُنَسِّي. (م).

رُوِي في صحيحي البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد ﵁ قال: أرسلت إحدى بنات النبي ﷺ إليه تدعوه وتخبره أن صبيًّا لها أو ابنًا في سكرات الموت، فقال للرسول ارجع إليها فأخبرها: فإن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فَمُرْها لتصبر ولتحتسب. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة/ ١٥٦-١٥٧]، وقال ﷺ: «ما من مسلم يصاب بمصيبة وإن قل عهدها فأحدث لها استرجاعًا إلا أحدث الله له أجرًا وأعطاه الله مثل أجر ذلك يوم أصيب بها»، وقال ابن المبارك: المصيبة واحدة فإذا جزع منها صاحبها فهي اثنان: إحداهما المصيبة بعينها، والثانية ذهاب أجر المصيبة. وقيل: إن الجزع لا يرد ميتًا ولا يدفع حزنًا، وورد عنه ﷺ: «إن المعونة تأتي العبد من الله على قدر المؤنة وإن الصبر يأتي العبد على قدر المصيبة»، وكان ﷺ إذا عَزَّى قال: «آجركم الله ورحمكم».

وكتب بعضهم إلى صديقه يعزيه بأخيه ويسليه: ما تصنع يا أخي والقضاء نازل والموت حكم شامل، وإن لم تَلُذ بالصبر فقد اعترضت على مالك الأمر، وأنت تعلم أن نوائب الدهر لا تُدْفَع إلا بعزائم الصبر، فاجعل بين هذه اللوعة[١] الغالبة والدمعة الساكبة حاجبًا[٢] من فضلك، وحاجزًا من عقلك، ودافعًا من

(١) اللوْعَة: وجع القلب. (م).
(٢) حَاجِبًا: ساترًا. (م).

دينك، ومانعًا من يقينك، فإن المحن إذا لم تعالج بالصبر كانت كالمنح إذا لم تقابل بالشكر؛ فصبرًا صبرًا ففحول الرجال لا تستفزها الأيام بخطوبها، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها، فعزيز عليّ أن أخاطب مولاي معزيًّا وأكاتبه مسليًّا عن كبير أو صغير ممن يتعلق بذمته أو ينتمي إلى جملته، فكيف بالصنو(١) الأكرم والذخر الأعظم والركن الأشد والسهم الأسَدّ(٢) والشهاب الأسطع والحسام الأقطع، لكن التعزية سِيَرٌ سارة وسُنَّة ماضية، وقدر الله هو المقدر وأجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولولا أن الذكرى تنفع والتعزية يستوي فيها الأشرف والأوضع لأجللت مولاي أن أفاتحه معزيًّا وأخاطبه مسليًّا، ولكن بحمد الله العالم لا يعلم والسابق لا يقدم.

ورُوِي أن أبا بكر الصديق ﵁ كان إذا عزى امرأ قال: ليس مع العزاء مصيبة ولا مع الجزع فائدة، والموت أشدّ مما قبله وأهون مما بعده، فاذكروا فَقْدَ رسول الله ﷺ تهن عليكم مصيبتكم، صَلَّى الله على محمد وأعظم أجركم.

وعَزَّى عمر بن الخطاب ﵁ رجلاً فقال له: إن صبرت مضى أمر الله وأنت مأجور، وإن جزعت مضى أمر الله وأنت مأزور. وورد عنه ﷺ إذا قضى الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة وأنشدوا:

---

(١) الصِّنو: الشقيق. (م).

(٢) الأسَدّ: القاصد. (م).

إذا ما حِمَام[1] المَرْءِ كان بِبَلْدَةٍ   دَعَتْه إِلَيْهَا حَاجَةٌ فَيَطِيرُ

وقال ﷺ: «مَنْ دفن ثلاثة من الولد حرم الله عليه النار» رواه الطبراني. وقال ﷺ: «من كَفَّن ميتًا كان له بكل شعرة منه حسنة»، وقال العلامة الأجهوري: من علامة البشرى للميت أن يصفر وجهه ويعرق جبينه وتذرف عيناه، ومن علامة السوء أن تحمر عيناه وتغبر شفتاه، وينبغي للجار أن يهيئ لأهل المصاب طعامًا لأنه قام بهم ما يشغلهم.

وقد أوصى بعض الصلحاء وصية لابنه ونفعها عام لجميع الناس، حيث قال: ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا، يا بني أرشدك الله وأيدك وأوصيك بوصايا إن أنت حفظتها وحافظت عليها رجوت لك السعادة في دينك ومعاشك بفضل الله ورحمته إن شاء الله تعالى، أوّلها وأولاها: مراعاة تقوى الله العظيم بحفظ جوارحك كلها من معاصي الله ﷻ حياء من الله تعالى والقيام بأوامر الله عبودية لله، وثانيها: أن لا تجزع من المصيبة، وثالثها: أن تنصف من نفسك ولا تنتصف لها إلا لضرورة، ورابعها: أن لا تعادي مسلمًا ولا ذميًّا، وخامسها: أن تقنع من الله بما رزقك من جاه ومال، وسادسها: أن لا تستهين بِمِنَن الناس عليك، وسابعها: أن تحسن التدبير فيما في يديك استغناء به عن الخلق،

(١) حِمَام: موت. (م).

وثامنها: أن لا تطيع نفسك في الفضول[١] بترك استعلام ما لم تعلم والإعراض عما قد علمت، وتاسعها: أن تلقى الناس مبتدئًا بالسلام محسنًا في الكلام منطقًا صادق الوعد، متواضعًا باعتدال مساعدًا بما تجد إليه السبيل، متحببًا إلى أهل الخير، مداريًا لأهل الشر، مبتغيًا في ذلك السُّنة، وعاشرها: أن لا تستقر على جهل ما تحتاج إليه في مصلحة دينك ومعاشك اللهم أَهّلْه في ذلك لامتثالنا.
وقيل:

على المَرْءِ أَنْ يَسْعَى لِمَا فِيهِ نَفْعُه وليْسَ عَلَيْه أَنْ يُسَاعِدَه الدَّهْرُ
فَإِنْ نَالَ بِالسَّعي المُنَى تَمَّ أَمْرُه وإِنْ غَلَبَ المَقْدُور كَانَ له العُذْرُ

وقيل:

وكُنْ فَاعِلاً مِثْلَ فِعْلِ الزَّمَانِ فَإِنَّ الزَّمَانَ فَعُولُن فَعُولُ

وقال بعضهم في تدبير اليقظة: اعلم أن الإنسان لا يصلح أن يضيع زمانه بطالة فيمضي كله سُدَى[٢]، وقال عمر بن الخطاب ﷺ: إني أكره أن أرى أحدكم لا في عمل دنيوي ولا في عمل أخروي، وقال الإمام الشافعي ﷺ: فيا ضيعة الأعمار تُمشى سبهللا[٣]، وقال الكسائي: السبهلل الذي لا شيء معه، وذلك

(١) الفُضُول: الزيادة. (م).
(٢) سُدًى: مُهمَل. (م).
(٣) سَبَهْلَلا: أي بلا شيء. (م).

أن الإنسان قد مضى عليه وقت النوم بغير فائدة، فينبغي أن لا يخلي نفسه من عمل ديني ولا من عمل دنيوي فمن عرف الزمان أكثر من الاستعداد وقيل:

إِنَّ مُقَامَ[1] المَـــرْءِ فـــي بَيْتِه مِثْل مُقــامِ المَرْءِ فـــي لَحْدِه

فوَاصِلُ الرِّحلَةِ نَحْـــوَ الفَلَى[2] فالسَّيفُ لا يَقْطَـــعُ فـــي غِمْدِه

فإن الله تعالى لم يجمع منافع الدنيا في أرض بل فرقها وأحوج بعضها إلى بعض، وقيل: المسافر يجمع العجائب ويكتسب التجارب، وقيل: ليس بينك وبين البلاد نسب فخير البلاد ما حملك، وقيل:

سَـــافِر إذا حَاوَلْت قَـــدْرًا سَـــارَ الهِـــلالُ فَصَارَ بَدْرَا

والمَاءُ يُكسَـــبُ مَا جَـــرَى طِينًا ويَخْبُثُ مـــا اسْـــتَقَرَّا

وبِنَقْـــلَةِ الـــدُّرِّ النَّفيـ ـسَةِ بُدِّلَتْ بالبَـــحْرِ نَحْـــرَا

وأخصر وصية جامعة نافعة وصية عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي، قال لابنه: يا بني أني مُؤَدٍّ حق الله في تأديبك فَأَدِّ إليّ حق الله، أي بني كف عن الأذى، وارفض البذا[3]، واستعن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي

---

(١) مُقَام: الموضع الذي يقيم فيه الإنسان. (م).

(٢) الفَلَى: الأرض القفر. (م).

(٣) البِذَا: الفحش. (م).

تدعوك فيها نفسك إلى الكلام؛ فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب، واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحًا، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشًّا لأنه يرديك لمشورته، واعلم يا بني أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائمًا ووجدت هواك يقظانًا، فإياك أن تستبد برأيك فإنه حينئذ هواك، ولا تفعل فعلاً إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا ترديك[١] وأن نتيجته لا تجني عليك، وإياك ومعاداة الرجال فإنك لن تعدم مكر حليم أو معاداة لئيم. انتهى.

والمشاورة في الأمور تفيد ازدياد البصيرة، ومثل ذلك المشاركة في العلم، كما قيل:

إذا اجْتَمَعُوا جَاؤُوا بِكُلِّ عَزِيمَةٍ فَيَزْدَادُ بَعْضُ القَوْمِ مِنْ بَعْضِهِم عِلْمَا

وقيل:

شَاوِرْ صَدِيقَكَ في الخَفِيِّ المُشْكِلِ[٢] واقْبَلْ نَصِيحَة حَازِمٍ مُتَفَضِّلِ
فالله قَدْ أَوْصَى بِذَاكَ نَبِيَّه في قَوْلِه شَاوِرْهُم وتَوَكَّلِ

(١) تُرْدِيك: تهلكك. (م).
(٢) المُشْكِل: المُلْبس. (م).

وقد أمر الله تعالى نبيه بمشاورته أصحابه في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران/ ١٥٩] وفي الحديث: «ما ندم مَنْ استشار ولا خاب مَنْ استخار»، ومَنْ استخار الله ليرشده إلى مصالحه فليعلم أن الذي قدّره له هو الخير في نفس الأمر والأصلح له، وإن جاء على خلاف ما يريد، فإن الله خبير بمصالح عبده وبما يؤول نفعه إليه وما يندفع ضرره عنه، فالخير له فيما قدّره الله له وإن كرهه العبد، كما في الحديث القدسي عن الله «وإن من عبادي من يصلح له الفقر ولو أغنيته لفسد حاله وإن من عبادي من يصلح له الغنى ولو أفقرته لفسد حاله» فإرادة الله مع عباده مبنية على الحِكَم والمصالح.

قال بعض الحكماء: مَنْ استعان بذوي العقول فإنه يدرك المأمول[١]. وقال بعضهم: لا تصلح الأمور إلا برأي أولي الألباب، ولا تدور إلا على الأقطاب[٢]. قال علي كرم الله وجهه: «نعم الموازرة[٣] المشاورة»، وقال بعض الحكماء: لا يستغني العاقل عن المشورة كما لا يستغني الفرس عن السوط، وقال بعض الحكماء: كَفَى بالتجارب تأدبًا وبتقلب الأيام عظة. وقالوا: التجربة مرآة العقل والغيرة ثمرة الجهل؛ ولذلك قالوا: المشايخ ينابيع الأخبار لا يطيش لهم سهم

---

(١) المَأمُول: المَرْجُوّ. (م).
(٢) الأَقْطَاب: الأسياد. (م).
(٣) المُوَازَرَة: المعاونة. (م).

ولا يسقط لهم وهم. وقال آخر: عليكم بآراء المشايخ فإنهم لو عدموا ذكاء الطباع أفادتهم الأيام ضنكة[1] وتجربة، وقد قيل في ذلك:

إذا طَالَ عَقْلُ[2] المَرْءِ في غَيْرِ آفَةٍ أَفَادَت لَهُ الأَيَّامُ في ذِكْرِهَا عَقْلاَ

وقول عبد الله بن الحسن بن الحسين في وصيته: واستعن في الكلام بطول الفكر محله إذا لم تفت بذلك فرصة، ولذلك لما قال بعضهم للخليفة المنصور حين عزم على قتل أبي مسلم الخراساني:

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا تَدَبُّرٍ فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ يَتَعَجَّلا

أجابه المنصور:

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ يَتَرَدّدَا
ولا تُمْهِل الأَعْدَاءَ يومًا بِغُدْوَةٍ[3] وبَادِرْهُم أَنْ يَمْلُكوا أَمْنَها غَدَا

وهذا كقول الإمام علي رضي الله عنه «من فكر في العواقب لم يشجع فلكل من العجلة والتأني مواقع»، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ

(١) ضَنْكَة: ضيقًا. (م).
(٢) عَقْلُ: حبس. (م).
(٣) غُدْوَة: البكرة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس. (م).

كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران/ ١٢٠] الآية، قال في الكشاف: إن هذا تعليم من الله تعالى وإرشاد في أن يستعان على كيد العدوّ بالصبر والتقوى، وقالت الحكماء إذا أردت أن تَكْبِت[1] من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك، ومنه أخذ الإمام الشافعي رضي الله عنه.

إِذَا مَا شِئْتَ إِرْغَامَ الأَعَادِي بلا سَيْفٍ يُسَلّ ولا سِنَان
فَزِدْ في مَكْرُمَاتِك فَهِي أَعْدَى عَلَى الأَعْدَاءِ مِنْ نُوَبِ الزَّمَان

(١) تَكْبِت: تصرع. (م).

الفصل الرابع

في أن التوادد والتحابب بين الزوجين مما ينتج حسن العشرة بينهما وبين ذريتهما

قال الإمام الغزالي رحمه الله في كتاب الإحياء: فوائد الزواج خمس: النسل والتحصين لكسر الشهوة، وترويح القلب بالمعاشرة والمحادثة ونحوها، ومجاهدة النفس ورياضتها برعاية الأهل والقيام بهنّ، وآفاته ثلاثة: التخليط[1] في الاكتساب بسبب العجز عن الحلال، والقصور عن القيام بحقوقهنّ واحتمال أخلاقهنّ، والاشتغال بهنّ وبأولادهنّ عن الله تعالى، وبعد هذا ينظر فمتى وجدت فيه الفوائد أو بعضها وَانْتفَت عنه الآفات فلاشك أن الزواج في حقه أفضل، ومَنْ انتفت عنه الفوائد واجتمعت عليه الآفات فالعُزْبَة[2] في حقه أفضل، وإن تعاظمت الفوائد والآفات كما هو الغالب فليزن الأمرين بميزان الاعتدال، فإذا غلب على ظنه رجحان أحدهما عمل بموجب الراجح. انتهى.

قال بعضهم: وأما إذا لم تدع الحاجة إلى الزواج كالعجز عن المهر أو الأُهْبَة[3]

---

(١) التَّخْلِيط: الإفساد. (م).

(٢) العُزْبَة: عدم الزواج. (م).

(٣) الأُهْبَة: العُدَّة. (م).

أو الإنفاق، فلا ينبغي له الزواج، وعلى ذلك يحمل قوله ﷺ: «خيركم بعد المائتين الخفيف الحاذ (أي الظهر) الذي لا أهل له ولا ولد». والأمر كذلك فمن تركه فقد أراح نفسه واستبرأ[١] لدينه وعرضه وكان عزيزًا بين أقرانه، جليلاً بين إخوانه، رفيعًا عما سواه من مكانه، ومن تزوّج وهو فاقد لما ذُكِر فقد أتعب نفسه فيما لا طائل تحته، وحملها مالا طاقة لها به من الذل والاحتياج ونحوه، أما إذا دعت الحاجة لذلك بأن تاقت نفسه إلى الزواج، وكان واجد الأهبة وما يحتاج إليه الحال فالأفضل له الطلب لقوله ﷺ: «تناكحوا تناسلوا تكثروا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة» وقوله ﷺ: «شراركم عُزَّابكم».

ومتى صح التوادد بين الزوجين ترتب على ذلك أن عائلة البيت تجلب له خصائص نافعة؛ لكثرة رزقه وثروته وحفظه من جميع آفات التباين والمشاجرات؛ فإن الزوجين المجتمعين في بيت واحد المُتَّحِدين قلبًا وقالبًا بالمحبة والأُلفة يتوطنان[٢] فيه ويحبانه ولا يخرج أحدهما إلا لعذر؛ فبهذا يسارعان في تحصيل ما يلزم لهذا المنزل من الأثاث والمتاع والأهبة وجميع الخيرات، ويحسنان إدارته فتجد كُلاًّ من الزوجين مجتهدًا في تربية ما يرزق به من الذرية، وهذا كله يجعل الخدم والحشم وغيرهم مجبولين على احترام هذا المنزل، وعلى الوفاء بالأمانة

(١) اسْتَبْرَأَ: طلب البراءة. (م).
(٢) يَتَوطَّنَان: يقيمان. (م).

لأهله وساكنيه، وأن يمنعوا عنه جميع الأسباب المُفضية[١] إلى الخلل والكسل.

فمتى سلك الزوجان مسلكًا حسنًا في تحسين أحوال منزلهما وعائلتهما عاشا في السعة والاعتبار، بخلاف ما إذا نقض أحدهما أو كلاهما عهد المحبة والوداد، وزالت الأمانة من بينهما، فإن البركة تذهب من البيت ويكثر فيه التشاجر والشقاق، وتشويش الخواطر والبغضاء والشحناء، حتى يسري ذلك من الآباء للأبناء والخدم والحشم، وتتعوّد الذرية والخدم على ارتكاب القبائح والمثالب[٢] المنزلية، فكل عضو من أعضاء البيت يسهل عليه أن يسرق ويبذر ويسلب وينهب ويتصرف في جميع ما وقع في يده؛ فتذهب أموال المنزل هباء منثورًا ويرتكب رب المنزل الديون من كل جانب، وربما كان ذلك سببًا لتشتت العائلة والخدم لما يعتريهم[٣] من ضيق الحال، وربما حصل بين الزوجين المرافعات والمحاكمات من كل ما يوقع أمر العائلة في الفقر والمسكنة والذل ومدّ اليد للسؤال، وقيل:

وَمَنْ لم يَكُنْ في بَيْتِهِ قَهْرَمَانَة فَذَلِكَ بَيْتٌ لاَ أَبا لَكَ ضَائِـــع

وقال آخر:

إِذَا لَمْ يَكُنْ في مَنْزِلِ المَرْءِ حُرَّةٌ تُدَبِّره ضَاعَتْ مَصَـــالِحُ دَارِهِ

---

(١) المُفْضِية: المؤدية. (م).

(٢) المَثَالِب: العيوب. (م).

(٣) يَعْتَرِيهِم: يغشاهم. (م).

وقال بعضهم: «ثمانية أشياء أربعة منها سعادة وأربعة منها شقاوة، فمن السعادة: الزوجة الصالحة والجار الصالح والمسكن الواسع والمركب الهنيء. ومن الشقاوة: المرأة السوء والجار السوء والمركب الصعب والمسكن الضيق». وقيل: «الدار الضيقة العمى الأصغر».

وقد ورد في الحديث عنه ﷺ: «أيما رجل صبر على سوء خلق زوجته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب عليه السلام على بلائه، وأيما امرأة صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله من الأجر مثل ما أعطى آسية بنت مزاحم زوجة فرعون». وقيل: إن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو إليه سوء خلق زوجته؛ فوقف ببابه ينتظره فسمع الرجل امرأة عمر رضي الله عنه وهي تُغْلِظُ عليه بالقول، وهو ساكت لا يرد عليها فانصرف الرجل وهو يقول: «إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته، فكيف حالي؟! فخرج عمر رضي الله عنه فرأى الرجل موليًا[1]، فناداه ما حاجتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، جئت أشكو إليك سوء خلق زوجتي واستطالتها[2] علي بلسانها، فسمعت زوجتك تغلظ عليك بالكلام وأنت ساكت فرجعت وقلت: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي؟! فقال عمر رضي الله عنه: يا أخي إني أتحملها لحقوق لها علي، إنها طباخة لطعامي، خبازة لخبزي، غسّالة لثيابي، مُرْضِعة

(١) مُولِّيًا: مُدبرًا. (م).

(٢) اسْتِطَالَتِهَا: تطاولتها. (م).

لولدي، ويسكن قلبي بها عن الحرام فأنا أتحملها لذلك، فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين، وكذلك أنا أتحمل زوجتي، قال: فتحملها فإنها مدّة يسيرة وتنقضي.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من لم يكن فيه ثلاث خصال لم يجد طعم الإيمان: علم يرد به جهل الجاهل، ووَرَعٌ يحجره[١] عن المحارم، وحسن خلق يداري به الناس». وقال حكيم: «أربعة أشياء من أعظم البلاء: كثرة العيال مع قلة المال، والجار السيئ الجوار، والمرأة التي ليس لها وقار، وصحبة الفُجّار»، وقال ﷺ: «سوء الخلق شؤم وشراركم أسوأكم خلقًا». وعنه ﷺ: «سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل». وقيل: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة القائم الصائم، وقال ﷺ لمعاذ بن جبل: يا معاذ حَسِّن خلقك مع الناس، أي عاملهم بطلاقة الوجه وجَبر[٢] الخواطر وكف الأذى؛ فإنّ ذلك يؤدّي إلى اجتماع القلوب وانتظام الأحوال، فلا أحسن من الزوجين المتمتعين في منزلهما بالسعادة والهناء وبحسن إدارة المنزل، ولا أحسن من الزوج الذي يحسن إرضاء زوجته، ولا من الزوجة التي تحسن إرضاء زوجها كما قيل:

إذا كُنْتَ عَنِّي يا مُنى النَّفْسِ رَاضِيًا   أَرَى كُلَّ مَا في الكَوْنِ لي يَتَبَسَّمُ
وإِنْ كُنْتَ عَنِّي يا ضِيَا العَيْنِ نَائِيًا   تَنكَّر لي في الدَّهرِ مَا كُنتُ أَعْلَمُ

---

(١) يَحْجرُه: يحرمه. (م).

(٢) جَبَر: عَوَّض وأصلح. (م).

فمعرفة إرضاء أحد الزوجين للآخر فنّ نفيس - وإن كان صعبًا في حد ذاته- لأنه يستدعي كمال التربية والإنصاف بالعدل، وقوّة العقل، وذكاء الفطنة، واعتياد كل من الزوج والزوجة على تحسين أحوال المنزل المشترك بينهما، وتنظيمه وترتيبه وتنظيفه بقدر ما يمكن، ومعرفة الاعتناء بالوسائل التي تستدعيها الصداقة بين الزوجين لاشتراكهما في المنفعة العمومية، فروابط الوداد الأكيدة بين الزوجين يتولد منها اعتمادية[١] أكيدة في أفعالهما وأقوالهما، وجمع قلوب بعضهما على بعض، فيكون كل منهما قوي الوداد، شريف الفؤاد، فإذا حصل بينهما التناسل والذرية، تأكدت هذه المحبة التي قضت بثبوتها الزوجية، واقتدى الأولاد بالوالدين في المحبة العمومية، وفي الأشغال المنزلية الموجبة للعمارية.

وينبغي أن يكون لنساء هذه الأعصر في خدمتهن لمنزلهن اقتداء بنساء النبي ﷺ، ونساء أصحابه، فإن نساء النبي ونساء أصحابه كن يسعين على عيالهن، ويَخْدِمْنَ أزواجهن ويمتهن أنفسهن. قالت عائشة: كنت أفتل[٢] قلائد هدي رسول الله ﷺ فيقلد هديه، وقالت: ما رأيت صانعًا للطعام مثل حفصة، وقالت في زينب بنت جحش: لم أر امرأة قط خيرًا منها في الدين وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشدّ ابتذالاً لنفسها في العمل.

---

(١) اعْتِمَادِيَّة: قصدية. (م).

(٢) أَفْتِل: ألوي. (م).

وفي صحيح البخاري أن أبا أسيد الساعدي دعا النبي ﷺ لعرسه وأصحابه فما صنع لهم طعامًا ولا قربه إليهم إلا امرأته، وبلت تمرات من الليل في تور[١] من حجارة، فلما فرغ ﷺ من الطعام ماثته[٢] له فَسَقَتْه تتحفه بذلك، فكانت امرأته خادمهم يومئذ وهي عروس. وفي الصحيح قالت أم الربيع: كنا نغزو مع النبي ﷺ فنسقي القوم ونخدمهم ونرد القتلى إلى المدينة ونداوي الجرحى، وقالت أم عطية: غزوت معه ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم[٣] وأصنع لهم الطعام وأداوي الجرحى وأقوم على المرضى، وفي حديث أنس: كن يسقين الماء ويداوين الجرحى.

وقالت أسماء بنت أبي بكر الصديق -رضي الله عنها- امرأة الزبير وهي أخت عائشة -رضي الله عنها- كنت أعلف فرسه يعني فرس الزبير، وأسقي الماء، وأَخْرُزُ غَرْبه[٤] وأعجن، ولم أكن أحسن أن أخبز، وكان يخبز جارات لي من الأنصار وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعها النبي ﷺ، وأحمله على رأسي وهي على ثلثي فرسخ من المدينة فجئت يومًا والنوى على رأسي، فلقيت النبي ﷺ ومعه نفر من الأنصار فدعاني ثم قال: «إخ،

---

(١) تَوْر: إناء. (م).

(٢) مَاثَتْه: ذَوَّبَتْه في الماء. (م).

(٣) رِحَالُهم: مراكب البعير وما يستصحبونه معهم من متاع. (م).

(٤) وأَخرُزُ غَرْبه: أخِيط دَلْوَه. (م).

إخ» ليحملني خلفه فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته فعرف رسول الله ﷺ أني استحييت فمضى، قالت: ثم أعطاني ﷺ خادمًا فكفتني سياسة الفرس؛ فكل هذه دلائل مصرحة بأن نساءهم كن يشتغلن بالخدمة وبالمهنة رضي الله عنهم.

ورُوِي أن آدم عليه السلام ذبح كبشًا ثم أخذ صوفه فغزلته حواء ونسجت هي وآدم فجعل منه جبة[1] لنفسه، وجعل لحواء درعًا (أي قميصًا) وخمارًا، وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «نِعْمَ لهو المرأة المغزل» وعن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال: «عَمَلُ الأبرار من الرجال الخياطة، وعمل الأبرار من النساء الغزل»، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا نساءكم بالغزل فإنه خير لهنّ وأزين». وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يأكل من غزل أمه، وسمع بعضهم عليًّا رضي الله عنه يقول: «إن الغزل من طيبات الرزق وهو صنع العابدات الزاهدات». ولهذا قيل لعائشة يوم الجمل إن صرير المغزل خير لها من السيف، وهذا يدل على استحسان مباشرة كل صنعة تليق بالمرأة.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأم سلمة: «إذا أدت المرأة فريضة ربها وأطاعت بعلها وحركت المغزل كانت كأنها تُسَبِّح، ومادام المغزل في يدها كانت كأنها تصلي جماعة، وإذا طبخت القدر لأجل أطفالها تساقطت ذنوبها،

(١) جُبَّة: ضَربٌ من مقطعات الثياب. (م).

وغزل المرأة بمغزلها مثل عمارة القناطر والربط، وثلاثة أصوات تبلغ تحت العرش، أحدها قسي الغزاة المجاهدين في سبيل الله، والثاني صرير أقلام العلماء، والثالث، أصوات مغازل المصونات من النساء، وقال ﷺ: «شربة يشربها الرجل من يد امرأته خير لها من ألف بدنة[1] تنحرها للمساكين تسبيحًا، والمرأة إذا كست زوجها أعطاها الله ثواب من حج واعتمر؛ فإن رضاء الله لا ينقطع عن امرأة أصبحت وأمست في رضى الزوج، وإذا باتت المرأة هاجرة محل زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح، وأيما امرأة خففت عن زوجها مهرها إلا كتب الله لها بكل درهم حجة مبرورة متقبلة، وكانت من القانتات الذاكرات التائبات العابدات»، فتبين من هذا أن حمل النساء بالنسبة للرجال ثقيل، ولهن أيضًا تكاليف غير ما ذكر.

---

(١) بَدَنَة: أُضحية. (م).

الفصل الخامس

في بعض حقوق يلزم كلاً من الزوجة الزوج مراعاتها

من حقوق الزوجة حفظ مال الزوج فإنها له راعية، وطاعته فيما أمر به سرًّا وعلانية، وقد ورد عنه ﷺ: «أعظم النساء بركة أقلهن مؤنة، وخيركم خيركم لأهله، وأكمل المؤمنين أحسنهم خلقًا مع زوجته، وكلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وأهله وولده وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسئولة عنه، وقال ﷺ: «استوصوا بالنساء خيرًا فإنما هن عندكم وديعة لا يملكن لأنفسهنّ ضرًا ولا نفعًا، وإنما هنّ كأسرى بين أيديكم وإنما أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتموهنّ بكلمات الله، فعاشروهنّ بالمعروف ولا تظلموهنّ وقوموا بحقهنّ»، وقال الأحنف بن قيس: إن أردتم أن تحبكم النساء فعاشروهنّ بأحسن الأخلاق. وقال الأصمعي: كانت أشياخنا وعجائزنا يقولون: عاشروا الناس بخلق حسن إن غبتم حنوا إليكم وإن متم ترحموا عليكم، وقيل:

كُلُّ الأُمُورِ تَبِيدُ عَنْكَ وتَنْقَضِي ... إلا الثَّنَاء فَإِنَّه لَكَ بَاقِي
ولو أَنَّنِي خُيِّرتُ كلَّ فَضِيلَةٍ ... ما اخْتَرْتُ غَيْرَ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ

ومن حقوق الزوج على الزوجة أن لا تحنث[1] قسمه ولا تَكْفُر نعمه ولا تخرج من بيته إلا بإذنه، وعليها الرفق بأقاربه والأدب مع إخوته وأعمامه وأخواله، والرعاية لذريته بعد موته، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيما امرأة خرجت من بيت زوجها بغير إذنه إلا لعنتها الملائكة حتى ترجع منزلها فإن رضي عنها زوجها رضي الله عنها وزالت اللعنة وإن غضب عليها وماتت دخلت النار».

وقال بعضهم: أن لها أن تأخذ من ماله ما تعلم رضاه به، فقد رخص لهنّ الرطب يأكلنه ويهدينه، وفي الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أنفقت المرأة طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب وللخازن مثل ذلك لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئًا». فهذه هي الحقوق الواجبة لأحد الزوجين للآخر، فيجب عليها أن تفي بما يجب لزوجها كما يجب عليه أن يفي بما عليه لها، وكثير من الرجال يرى أن له حقًّا على زوجته وليس لها عليه حق، وأن جميع ما يفعله معها جميل وقد وبخ مثل هذا بعضهم بقوله:

لَهُ حَـــقٌّ ولَيْسَ عَلَيْـــــهِ حَقٌّ ... ومَهْمَا قَالَ فالحسَـــنُ الجَمِيلُ
وَقَدْ كَانَ الرَّسُـــــولُ يَرَى حُقُوقًا ... عَلَيْهِ لِغَـــيْرِه وَهُـــوَ الرّسُولُ

(١) تَحْنَث: تنقض يمينها. (م).

ويحرم سفر المرأة بلا زوج لها أو محرم أو نسوة ثقات، ويحرم تشبيههنّ بالرجال في الملبس والهيئة، كما يحرم تشبيه الرجال بهن في ذلك، ويكره لهنّ ترك الحلي تشبيهًا بالرجال، ومن المعلوم أن التزين المطلوب من النساء إنما هو لأزواجهن أو لهنّ في بيوتهن في أنفسهن، لا يتبرجن به للرجال الأجانب كعادة الأعجام[١] المبنية على اختلاط الرجال بالنساء؛ فإن هذا لا يخلو من الاستحسان الذي يترتب عليه الافتتان.

كما يحكى أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم المرواني أحد ملوك الأندلس وَجَّه شاعره يحيى بن الحكم المعروف بالغزال إلى ملك الروم؛ فأعجبه حديثه وخف على قلبه وطلب منه أن ينادمه، فامتنع الغزال من ذلك واعتذر بتحريم الخمر، وكان يومًا جالسًا معه وإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهي كالشمس الطالعة حُسْنًا فجعل الغزال يميل بطرفه إليها، وجعل الملك يحدثه وهو لاهٍ عن حديثه فأنكر ذلك وأمر الترجمان بسؤاله فقال له: عرّفه أنه قد بهرني من حسن هذه الملكة ما قطعني عن حديثه فإني لم أر قط مثلها، وأخذ في وصفها والتعجب من جمالها وأنها شوّقته إلى الحور العين، فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده وسرت الملكة بقوله، والآن عند أهالي أوربا من آكد الواجبات في الجمعيات التأنسية ملاطفة النساء والبنات.

---

(١) الأعْجَام: خلاف العرب. (م).

ومن حقوق الزوج عليها الصيانة والستر، وترك المطالبة بما وراء الحاجة، وتحسين خلقها وحسن معاشرتها، والعفو عن زلته والصبر عليها إن ضعف أو خرف، ومن حقها عليه أن يعلمها ما تحتاج إليه من أحكام الوضوء والصلاة والصوم والحيض، وما يلزم أن تعتقده من قواعد الإسلام، وما يجب عليها من مهمات دينها ونحو ذلك مما لابدّ لها من معرفته، ويطعمها من الحلال ولا يظلمها شيئًا مما يجب لها من الحقوق، ولا يكلفها فوق طاقتها من الخدمة، فإنها غير واجبة عليها ولا يفعل ما يؤذيها، وقال ﷺ: «أكمل المؤمنين أحسنهم خلقًا وألطفهم بأهله».

وقد ورد عنه ﷺ: «إن الله رفيق» أي لطيف بعباده فلا يكلفهم فوق طاقتهم (يحب الرفق) وهو ليِّن الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل، ويعطي عليه في الدنيا من الثناء الجميل ونيل المطالب وتسهيل المقاصد[1] في الآخرة من الثواب الجزيل ما لا يعطي على العنف (وهو بالضم المشقة)، وكل ما في الرفق من الخير ففي العنف من الشر مثله. قال السبكي: مجامع السعادة سبعة أشياء: الدين والدنيا والعقل والأدب وحسن السمت والتودّد إلى الناس ورفع الكلفة عنهم.

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن داود عليه السلام قال: «يا رب أخبرني بأحبابك من خلقك قال: ذو سلطان يرحم الناس ويحكم للناس كما يحكم لنفسه، ورجل

(١) المَقَاصِد: الغايات. (م).

آتاه الله مالاً فهو ينفق منه ابتغاء وجه الله وفي طاعة الله ﷻ، ورجل يفني شبابه وقوّته في طاعة الله».

وفي رواية النسائي مرفوعًا: أن رجلاً لم يعمل خيرًا قط وكان يداين الناس؛ فيقول لرسوله خذ ما تيسر واترك ما تعسر وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا، فلما مات قال الله له: هل عملت خيرًا قط؟ قال: لا إلا أنه كان لي غلام وكنت أداين الناس فإذا بعثته يتقاضى قلت له: خذ ما تيسر واترك ما تعسر، وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا، قال الله تعالى: تجاوزت عنك. وروى الإمام أحمد وغيره: من أنظر معسرًا قبل أن يحل الدين فله بكل يوم مثله صدقة فإذا حل فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة.

وكان ﷺ مخصوصًا بجوامع الكلم أي: الكلم الجامع لمعان كثيرة بألفاظ قليلة، قال ﷺ: «أُوتيتُ جوامع الكلم واخْتُصِر لي الكلام اختصارًا»، وسماحة الدين لخلوّه من الآصار[١] والتكاليف التي كانت على اليهود من نحو وجوب قرض محل النجاسة، ومن التخفيف المفرط المفوت لمحاسن الآداب. قال ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة السهلة». والحنيف الطريق المستقيم، وسمي إبراهيم حنيفيًّا لأنه مال إلى الله تعالى. وقال ﷺ: «الدين يسر ولن يشادّ[٢] أحد الدين

(١) الآصار: الأعباء الثقيلة. (م).

(٢) يُشَادّ: يغالب. (م).

إلا غلبه فسدّدوا وقاربوا[١]»، وقال ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله تعالى؛ فإن المُنْبَتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى» قال أبو عبيدة: أَوْغِل: أي سر فيه برفق والإيغال السير الشديد، والمنبت هو الذي يعدو في السير المنقطع به يُتْعِب نفسه حتى تعطب[٢] دابته فيبقى منبتًا منقطعًا به، لم يقض سفره ولا بلغ وَطَره[٣] وقد أعطب ظهره، فشبهه بالمجتهد في العبادة حتى يكل[٤] ويمل.

وقال عمرو بن معدي كرب الزبيدي: الكلام اللين يلين القلوب التي هي أقسى من الصخر، والكلام الخشن يخشن القلوب التي هي أنعم من الحرير، وقيل لبعض الفضلاء: من أضيق الناس طريقًا وأقلهم صديقًا؟ فقال: مَنْ عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال عليهم بنفسه، وروي عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - أنها قالت: إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق، وقال الله ﷻ: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ** (أي سيئ الخلق) **لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران/ ١٥٩] وقال الله تعالى: ﴿ **ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ [فصلت/ ٣٤] وقال ﷺ: «اليمن حسن الخلق والشؤم سوء الخلق»

(١) فسددوا وقاربوا: استقيموا ولا تبعدوا عن الوسطية. (م).

(٢) تَعْطَب: تهلك. (م).

(٣) وَطَرَه: حاجته. (م).

(٤) يَكِلّ: يتعب. (م).

وقال الحسن البصري: «حقيقة حسن الخلق بذل المعروف وكف الأذى وطلاقة الوجه»، وقال القاضي عياض: «هو مخالطة الناس بالجميل»، وقال العسقلاني: «هو اختيار الفضائل واجتناب الرذائل». وقيل:

مَنْ عَاشَ بَيْنَ النَّاسِ فَلْيَلْتَزِم سَماحَة النَّفْسِ وتَرْكَ اللِّجَاج[1]
ولْيَحْفَظ المُعْوَجَّ مِنْ خُلقِهِـــــم أيّ طَرِيقٍ لَيْسَ فِيهَا اعْوِجَاج

وقيل:

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَخًـــــا لا تَلُمْه عَلَى شَعثٍ أَيُّ الرِّجَالِ المُهذَّب

قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: «ادع الله أن يغنيني عن الناس»، فقال: إن حوائج الناس متصل بعضها ببعض كاتصال الأعضاء، فمتى يستغن المرء عن بعض جوارحه، ولكن قُلْ أغنني عن شرار الناس. وحُكي عن معاوية ﵁: إني لآنف أن تكون في الأرض حاجة لا يسعها مالي، أو ذنب لا يسعه حلمي، وجاءته امرأة ثعلب بن سليمان بن مهران فقالت يا أمير المؤمنين: مشت جرذان بيتي على العصا، فقال: لأَدَعَنَّها تثب وثب الفهود كما ألطفت بالسؤال، فملأ لها البيت حنطة وغيرها، وحكي عن ابن عباس ﵁ أنه كان

(١) اللِّجَاج: الخصومة. (م).

يقول: من قصدني كان له الفضل عَلَيَّ حيث رآني أهلاً لحاجته وقيل:

إِنَّ العَظِيمَ يَحْمِلُ العَظِيمَا كما الجَسِيمُ يَحْمِلُ الجَسِيمَا

وقال بعضهم: سعة الأخلاق كنوز الأرزاق. وقال بعض الحكماء: ثمرة حسن الخلق الإحسان، وثمرة سوء الخلق الإساءة، وقيل: من ساء خلقه قل صديقه، وقال الحسن: إن حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار. وقال بعضهم: عقل موفور يهدي إلى مراشد الأمور؛ فإن الحمق لا تثبت معه مودّة، ولا تدوم لصاحبه استقامة، ومن لانت كلمته وجبت محبته، وسئل حكيم: ما اللبيب العاقل؟ قال: الفطن المتغافل؛ فإن التغافل من شيم الكرام، وقيل: الكرم شيء هين: بشاشة وجه وكلام لين.

وقال بعضهم: الجامع للأخلاق ومحاسن الشريعة على الإطلاق الخلق الحسن والأدب والاتباع والإحسان فهذه أمهات الأخلاق. وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁: أربعة يسود بها العبد: العلم والأدب والعفة والأمانة. وقواعد الأخلاق أربعة: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل. وقال ﷺ: «إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل ثعبان، وقيل: إنما تعرف الشجاعة عند اللقاء، والأمانة عند الأخذ والعطاء، والأهل والولد عند الفقر والحاجة، والأصدقاء عند الشدائد».

قال أبو بكر الصديق ﵁: ثمانية أشياء هنّ زينة لثمانية: العفاف زينة الفقر، والصبر زينة البلاء، والتواضع زينة الحسب، والحلم زينة المعلم، والتذلل زينة المتعلم، وكثر البكاء زينة الخوف، وترك المنّ زينة الإحسان، والخشوع في الصلاة زينة الصلاة. انتهى فالمن مذموم كما قيل:

لَنَقْلُ الصَّخْـــرِ من قُلَلِ[1] الجِبَالِ أَحَبُّ إِليَّ من مِنَنِ الرِّجَـــــالِ
يَقُولُ النَّاسُ هَلْ في الكَسْبِ عَارٌ فَقُلْتُ العَـــــارَ في ذُلِّ السُّـــؤالِ

(رجع) ويُسَن للزوج أن لا يمنع زوجته من زيارة والديها ولا الخروج إلى المسجد ونحوه إلا لعذر، ويُسَنُّ ملاعبتها إيناسًا وتلطيفًا لها، وأن يتزين لها كما يحب أن تتزين له، ويكره أن يتحدث بما جرى بينه وبين زوجته أو أَمَتِه، ويكره أن تخبر المرأة زوجها أو غيره بحسن بدن امرأة من غير حاجة شرعية، ويكره للرجل وصال زوجته، وهناك من يسمع حسه من امرأة أو نحوها، ويجب على المرأة الاحتجاب من الأجانب، ويحرم على الرجل النظر إلى شيء من المرأة الأجنبية ولو زوجة لأخيه أو أختًا لزوجته ولو في حالة أمن الفتنة، وكذلك نظر المرأة إلى الأجنبي حرام ولو زوجًا لأختها ما لم يكن مَحْرَمًا، ويحرم أن يخلو رجل بأجنبية.

(١) قُلَل: أعالي. (م).

قال أبو المختار: لقيت امرأة من قومي بمكة فجلست أحدثها وعبد الله بن عباس يُصلي فسمعني أقول لها: يا فلانة استوحش لفراق القلب وجاورني من لا أهوى فكنت كما قال الأوّل:

أَيَبْعدُ مَنْ أَهوَى وتُسْعِفُنا[1] النَّوَى بِمَنَ لا أُبَالِي أَنْ يُفارِقَه أَهلِي

فأقبل عليَّ ابن عباس فقال: من هذه المرأة منك؟ قلت: من العشيرة وبنات العم، فقال: قم وإلا وقعتما في فتنة، إن النساء حبائل الشيطان، فإياك أن تخلو بامرأة إلا أن تكون مَحْرَمًا. وروى البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يخلون رجل إلا مع ذي محرم ولا بأس أن يخلو رجل أو عدة رجال بنسوة ثقات لا رجل أو عدة رجال بواحدة.

وأما ذوو المحارم من النسب والرضاع والمصاهرة وهم الذين لا يَحِلُّ تزوّج بعضهم بعضًا أبدًا فتجوز لهم الخلوة، ولا يجوز النظر فيما لا يحل إلا بأسباب أحدها: النظر للمداواة بقدر الحاجة، ثانيها: النظر للوجه والكفين لمن يريد أن يتزوّجها، ثالثًا: النظر في المعاملة المفتقرة للشهادة عليها والتعريف لها ونحو ذلك مما تدعو إليه ضرورة المعاملة فينظر الشاهد إلى الوجه لا غير، رابعها: المعلم ينظر بقدر الحاجة والضرورة ويجوز سماع صوتها والإصغاء إليه عند أمن الفتنة على الأصح، ويجوز لها أن تستفتي وتستشير الرجال.

(١) تُسْعِفُنا: تُدْنِينَا. (م).

وقالت عائشة رضي الله عنها: رحم الله نساء الأنصار لم يكن الحياء يمنعهن أن يتفقهن في الدين. وروى مسلم عن أنس رضي الله عنه أن أم سليم حدثت أنها سألت النبي ﷺ عن المرأة ترى في منامها ما يرى الرجل فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأت ذلك المرأة فلتغتسل» فقالت أم سليم واستحييت من ذلك وهل يكون هذا، فقال رسول الله ﷺ: نعم فمن أين يكون الشبه؟ الحديث، ولبعضهم:

ولَيْسَ العَمَى طُولُ السُّؤالِ وإِنَّما تَمامُ العَمَى طُولُ السُّكُوتِ عَلَى الجَهْلِ

وقال عمر رضي الله عنه: من رق وجهه رق علمه، وقال مجاهد: لن ينال العلم مستحي ولا متكبر، وكان سفيان الثوري يقول: حياة العلم بالسؤال والعمل وموته بتركهما، وقد ورد في كتم العلم ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كتم علمًا من أهله ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»، أي الممسك عن الكلام بمثل من ألزم نفسه بلجام، وتنكير علم يوهم شموله لكل علم، وخصه كثير بالعلم الشرعي، واحترز بقوله من أهله عن كتمه عن غير أهله فمطلوب، وقوله تعالى ﴿**وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ**﴾ [النساء/ ٥] شاهد على أن حفظ العلم عمن يفسده أو يَضُرُّ به أولى، وجعل بعضهم حبس كتب العلم من صور الكتم أيضًا لاسيما أن عَزَّت كتبه، وقد قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ**﴾ [آل عمران/ ١٨٧] الآية وقال عليه الصلاة والسلام: «بلغوا عني ولو آية».

وكان إبراهيم بن عيينة يقول: أطول الناس ندمًا يوم القيامة عالم يتعاظم بعلمه على الناس، وقيل: العلم حرب للمتعالي كما أن السيف قاطع للمكان العالي، وأسباب التكبر سبعة: الأوّل التكبر بالعلم فالتكبر يسرع إلى العالم لأنه يرى الناس دونه فيستجهلهم ويتوقع منهم خدمته وتقديمه، وهذا أولى بأن يسمى جاهلاً؛ لأن العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به ربه ونفسه، السبب الثاني: الزهد والعبادة وذلك لأن الزهاد والعباد يتزينون للناس بأخلاق الصلاح ويرون أن غيرهم بزيارتهم أولى، وينظرون أنفسهم بعين النجاة والناس بعين الهلاك ومن اعتقد ذلك فهو الهالك، جاء في الصحيح أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان أن قل لفلان قد غفرت له وأحبطت عملك.

الثالث: النسب فالذي نسبه شريف قد يستحقر غيره وربما ظهر ذلك على لسانه، وافتخر رجلان عند النبي ﷺ فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك، فقال رسول الله ﷺ: افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما للآخر أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل للذي افتخر بأن التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم، الرابع: الجمال وأكثر ما يجري ذلك بين النساء، وذلك يدعو إلى التنقيص والغيبة، الخامس: التفاخر بالغنى حتى يستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا**﴾ [الكهف/ ٣٤] ثم بين الله تعالى عاقبة أمره فقال: ﴿ **وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ**

﴿مُنتَصِرًا﴾ [الكهف / ٤٣]، السادس: التكبر بالقوة كما حكى الله تعالى عن قوم عاد ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت / ١٥].

السابع: التكبر بكثرة الأتباع فمن حق من عرف الكبر ودواهيه وما يترتب عليه من الهلاك أن يتواضع لله ولعباده، فإن التواضع من أشرف الخصال، قال ﷺ: «الكرم التقوى، والشرف التواضع»، وقال ﷺ: «من تواضع لِغَنِيٍّ لِغِنَاه ذَهَبَ ثلثا دينه، وإنما ذهب ثلثا دينه لأن المرء بثلاثة أشياء قلبه ولسانه وبدنه، فإذا تواضع بلسانه وبدنه ذهب ثلثا دينه، فلوا اعتقد بقلبه ما حصل منه بلسانه وبدنه للغني من أجل غناه لَذَهَبَ دينه كله، ومن عرف أن العزة لله فلا يتعزز على خلق الله فإن العزة لله ولمن تعزز به، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر / ١٠] وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون / ٨] فعزة الرسول ﷺ وعزة المؤمنين لله ملكًا وخلقًا، وعزته سبحانه له وصفًا فإذن العزة كلها لله عز وجل، وإذا عرف العبد أن العزة لله تعالى فلا يطلب العزة من غيره، فقد قيل من استعز بغير الله ذل.

الباب السابع

في عموم القرابة، وحقوق بعضهم على بعض، وفيه فصول

الفصل الأول

في القرابة

القرابة هم: الآباء والأمهات، والبنون والبنات، والإخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وأولاد العم والعمة، وأولاد الخال والخالة، فالعصبات[1] وأولو الأرحام قرابات مشتبِكة، وفي سلسلة النسب مشترِكة؛ ولهذا كان الولد الذي يشبه في الأكثر أباه وأمّه قد يشبه أخواله، فقد روي أن النطفة إذا استقرّت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم في أي صورة ما شاء ركبه، أي في أي شبه من أب أو أمّ أو خال أو عم أو غيرهم، وربما أشبه الولد الخال في المخايل[2] والطباع والأحوال والأوضاع؛ ولذلك تتمدّح العرب بأصالة الخال كما تتمدّح بأصالة العم، فيقال فلان معم مخول، قال الشاعر:

خَالي لأَنْتَ وَمَنْ جَـــرِيرٌ خَالُهُ ... يَنَلِ العَـــــلاءَ وَيُكْرِمُ الأَخْوَالا

---

(١) العَصَبَات: جمع «عصبة» وهم قرابة الرجل لأبيه وبني عمه. (م).

(٢) المَخَايِل: جمع «مَخِيلَة» وهي السمة والعلامة والدلالة. (م).

وقال آخر:

فَكَيْفَ وَلَم يُنْسَبْ زَعِيمُ عَشِيرَةٍ إلى المَجْدِ إلاَّ كَانَ خَالِي أَوْ عَمِّي
فَإِنْ أَشْبَهَتْهُمْ في الفَخَارِ خَلائِقِي وَفِعْلي فَهَذَا الرَّاحُ[١] مِنْ ذَلِكَ الكَرْمِ

وقال آخر:

إِذَا مُضَرُ الحَمْرَاءُ كَانَتْ أَرُومَتِي[٢] بِنَصْرِي فَإِنِّي حَازِمٌ وَابْنُ حَازِمِ
عَطَستُ بِأَنْفِي شَامِخًا وتَنَاوَلَتْ بَنَانِي الثُّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ

وأما قول بعض العرب:

بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الأَبَاعِدِ

فإنما المراد به نسبتهم إلى قبائل آبائهم وعشائر رجالهم، وانتظامهم في سلكهم عند شنّ الإغارات وإثارة الحروب، وحماية الحقيقة لا نفي القرابة بالكلية ولا قطع النسب إلى أمهاتهم، فالعرب تتمدّح بشرف النسب من الجهتين وإن قويت لُحْمَة العصوبة، فقد كان العلويون يدعون بني العباس أبناء عمهم، وقال بعضهم: رأيت بطريق مكة أعرابية وما رأيت أحسن منها، فقعدت أنظر إليها وأتعجب من

(١) الرَّاح: اسم من أسماء الخمر. (م).
(٢) أَرُومَتِي: الأرومة هي: الحسب والأصل. (م).

جمالها؛ فجاء شيخ قصير فأخذ بأذنها فسارّها ومضى، فقلت لها: ما هذا الشيخ؟ قالت: زوجي، فقلت: كيف يرضى مثلك بمثله فقالت شعر:

أَيَا عَجَبًا للخَوْدِ يَجري وِشَاحُهَا[1] تُزَفُّ إِلَى شَـــيْخٍ مِنَ القَوْمِ تِنْبَالِ
دَعَانِي إِلَيْـــــه أَنَّنِي ذُو قَـــرَابَةٍ يَعِزُّ عَلَيْنَـــا مِنْ بَنِي العَمِّ والخَالِ

(التنبال: الوغد القصير الدنيء)، وقال بعضهم:

وَلا زَادَنَا بَغْيًـــــا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ غِنَانَا وَلاَ أَزْرَى بِأَحْسَـــابِنَا الفَقْرُ

وعن أبي هريرة ﵁ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إن لي ابنة جامحة لا تريد التزويج، وكلما أتيت برجل إليها تأبى، فقال رسول الله ﷺ: ائتني بها بعد العشاء الأخيرة في بيت عائشة -رضي الله عنها- فلما حضرت قال لها: ما لك وبمخالفة ما أحل الله لك وأمر به؟ فقالت: إني أحب ابن عمي زيد بن أرقم وأبي لا يرضى به، فقال: أطيعي أباك فإنه ما من امرأة عصت أمر والدها إلا عذبها الله بالنار، فقالت: يا رسول الله كيف أفعل بالقلب؟ فلما علم النبي ﷺ تَمَكُّن الحب من قلبها أرسل خلفها إلى ابن عمها وأعلمه، فقال: يا رسول الله وأنا لها بالحب أزيد؛ فزوّجها رسول الله ﷺ إلى ابن عمها وقال له: أنت كفء.

(١) الوِشَاح: نسيجٌ عريض يُرصَّع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقيها. (م).

ومن أحسن ما كتب في القرابة التي لا تنفع كتابة بعضهم إلى صديق له: أما بعد، فإن قرابتك من قَرُبَ منك خيره، وابن عمك من عَمَّك نفعه، وعشيرتك من أحسن عِشْرَتك، والسلام.

قال بعضهم: الدنيا خمسة وعشرون قسمًا ترجع إلى خمسة أقسام، فمنها خمسة بالقضاء والقدر، وخمسة بالاجتهاد، وخمسة بالعادة، وخمسة بالجوهر، وخمسة بالوراثة. فأما التي بالقضاء والقدر فهي الأهل والمال والولد والسلطنة والعمر، وأما التي بالاجتهاد فهي الثواب والعقاب والعفة والفروسية والكتابة، وأما التي بالعادة فهي الأكل والشرب والنوم والمشي والجماع، وأما التي بالجوهر فهي التواضع والصدق والوفاء والسخاء والحب، وأما التي بالوراثة فهي الهيبة والذهن والذكاء والحياء، وقال آخر: مجامع الهوى خمسة وهي قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد/ ٢٠] والأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة ستة يجمعها قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران/ ١٤].

ثم إن الإنسان بالنسبة للأقارب ملعبة البخت، فإذا حسن بخته رزق بأفضل البنين يعني بالشاب البار، وبأفضل البنات يعني الخالية من العار،

وبأفضل الأخوات أي التي لا تفضح أخاها بالشَّنار[١]، ومن فضائل الولد الصالح ذكرًا كان أو أنثى أنه يلحق أبويه بركة دعائه، والبركة كما قال الراغب: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، والمبارك ما فيه ذلك الخير، كما في حديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»، وهذا الحديث يشتمل على أساس الدنيا والدين، فكأنه حاصر لما يمدح به العامل بعد موته من دوام عمله ثوابًا، أو دوامًا مجازيًّا كأنه عامل دائم العمل مُثاب دائم الثواب.

والثلاثة الفضائل المُخلِّدة لذكره وأجره، الباقيات بعد انقضاء عمره، جامعة لمعالي الأمور؛ فإنّ الصدقة الجارية هي الصدقة التي لا ينقطع نفعها ولا يمتنع من الدر ضرعها، وهذا معنى جريانها كحفر الآبار، وغرس الأشجار، وإجراء الأنهار، وتسليك الطرقات للأسفار، وحاجة التجار وما أشبه ذلك من الأوقاف المخلدة والأموال المرصدة على المصالح الخيرية، فالصدقة الجارية اسم جامع لأكثر عموم المنافع، وهي الفضيلة الأولى من المخلد للعمل بعد انقضاء الأجل.

والفضيلة الثانية العلم النافع سواء كان اجتهادًا كاجتهاد المجتهدين وعلومهم المخلدة عنهم أو تدوين المدوّنين الواضعين للعلوم الشرعية وآلالية والفنون، وكل علم نافع للملة ولو صنعة، فإنها ذات قواعد وموضوعات، فإنها

(١) الشَّنار: العيب والعار. (م).

تدخل في العلم فيدخل فيه كتب الزراعة والتجارة ونحوها اختراعًا أو تكميلاً، فكل هذه الأشياء اختراعها وتدوينها والتأليف فيها، وتكثير كتبها بكتابة أو طباعة مما يحتمله فحوى العلم النافع، والأحسن التعميم لا التخصيص؛ لأن كلام النبوّة يبين دائمًا مكارم الأخلاق.

والفضيلة الثالثة الولد الصالح وهذا إشارة منه ﷺ إلى النسل، فهذه الفضائل الثلاثة جامعة لكل خير لا يخرج منه شيء من الأمور المعاشية والمَعَادِيَّة باعتبار العمل والغاية مادام العمل صادرًا عن نية؛ فإن المباح بِنِيَّة القربة يعقبه الثواب، قال البرهان البقاعي رحمه الله:

لِلْعَبْدِ يَجْرِي الأَجْرُ بَعْدَ المَوْتِ فِي ... تِسْعٍ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ المُصْطَفَى
إِجْرَاءُ نَهْرٍ حَفْرُ بِئْرٍ غَرْسُ نَخْلٍ ... نَشْرُ عِلْمٍ وَالتَّصَدُّقُ فِي الشّفَا
وَبِنَاءُ بَيْتِ ابْنِ السَّبِيلِ وَمَسْجِدٍ ... وَبِتَرْكِهِ ابْنًا صَالِحًا أَوْ مُصْحَفَا

وكلها ترجع للثلاثة، وروى مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرِقَ منه له صدقة، وما أكل السبع فهو له صدقة، وما أكلته الطير فهو له صدقة، ولا يرزأه[١] أحد إلا كانت له صدقة»، وروى جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) يَرْزَأه: يصيب من ماله شيئًا. (م).

«لا يغرس رجل مسلم غرسًا ولا زرعًا فيأكل منه سبع أو طائر أو شيء إلا كان له فيه أجر»، وقال ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مروءة (أي قوّة وشدّة)»، وقال بعض الأعيان: ألزمني أحمد بن طولون صدقاته فقلت: ربما مُدَّت إليَّ اليد المطوّقة بالذهب والسوار والمعصم والكم الناعم أفأمنع هذه الطبقة؟ قال: هؤلاء المستورون الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، احذر أن تردّ يدًا مُدَّت، وأعط من استعطاك[١]، وكان يتصدق في كل أسبوع بثلاثة آلاف دينار.

وقال ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط، وأجوع ما كانوا قط، وأظمأ ما كانوا قط، فمن كسا لله عز وجل كساه الله عز وجل، ومن أطعم لله عز وجل، أطعمه الله عز وجل، ومن سقى لله عز وجل سقاه الله عز وجل»، وقال ﷺ: «إن الله يباهي ملائكته بالذين يطعمون الطعام من عبيده، وقال ﷺ: «من حفر ماء ليشرب منه كبد حراء[٢]من جنّ أو إنس أو طائر إلا آجره الله يوم القيامة»، وقال ﷺ: «من موجبات الرحمة إطعام المسلم المسكين والولد فلذة الكبد»، قال بعض السلف: أولادنا أكبادنا، قال الشاعر:

وَإِنَّمَـــــا أَوْلادُنَـــــا بَيْنَنَـــــا أَكْبَـــــادُنَا تَمْشِـــي عَلَى الأَرْضِ

---

(١) اسْتَعْطَاك: طلب عطاءك. (م).

(٢) كَبِد حرَّاء: مبالغة يريد بها أنها لشدة حرها عطشت. (م).

فينبغي أن يرحمه بإحسان تربيته لحديث «إن لكل شجرة ثمرة وثمرة القلب الولد، إن الله لا يرحم من لا يرحم ولده والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلا رحيم، قلنا: يا رسول الله كلنا رحيم، قال: ليست الرحمة أن يرحم أحدكم خاصته حتى يرحم الناس أجمعين، قال الشاعر:

ابْــغِ لِلنَّــاسِ مِنَ الخَــيْرِ كَمَــا تَبْغِــي لِنَفْسِك
وارْحَــمِ النَّــاسَ جَمِيعًا إنَّهُــم أَبْنَــاءُ جِنْسِك

وورد عنه ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، وورد عنه ﷺ «كونوا رحماء فإن الله رحيم يحب كل رحيم»، وقد ورد أنه ﷺ رأى في النار امرأة حِمْيَرِيَّة تُعَذَّب بسبب هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تسقها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت، وإن تلك الهرة إذا أقبلت تنهشها[1]، وإذا أدبرت تنهشها (وخشاش الأرض بمعجمات حشراتها).

وكان عائذ بن عمرو المزني لا يخرج من داره ماء إلى الطريق لا من مطر ولا غيره، وكان إذا مات له سنّور[2] دفنه في داره ولا يخرجه اتقاء أَذَاهُ النَّاسَ من

(١) تَنْهَشهَا: تعضها فتؤثر فيها ولا تجرحها. (م).
(٢) سنّور: قِطّ. (م).

رائحته، ومعنى الأذى ما يؤذي المارّة كإلقاء قذر وشوك وحجر، وحيوان مخوف، وردم بناء، وعظم وقزاز وغير ذلك مما يؤذي المارّ في الطريق، فإذا رأى الإنسان شيئًا من ذلك وأزاله من طريق المسلمين كتبت له بذلك صدقة وغفر له، لما ورد أن رجلاً رأى غصن شوك في الطريق فقطعه فغفر له، ورأى رجل فرخًا وقع من عشه فردَّه إلى عشه فغفر له، ورأى رجل كلبًا يأكل الثرى من العطش فسقاه فغفر له، وامرأة رأت كلبًا يلهث عطشًا، فنزعت خُفَّهَا وأخرجت له ماء وسقته فغفر لها، وقد ورد الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، وقد ورد عنه ﷺ «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»، وعن النبيﷺ أنه قال لعلي: «يا علي أربع خصال من الشقاء جمود العين، وقساوة القلب، وبُعْد الأمل، وحب الدنيا».

قيل إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم: قد ابتليت بهذه البلايا فأشيروا علي، فقال له سالم: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبًا، وأوسطهم أخًا، وأصغرهم ولدًا، فبِرّ أباك، وارحم أخاك، واحْنُ على ولدك. وقال رجاء: إن أردت النجاة من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، وهذا هو الإنصاف، وورد عنهﷺ: «لا تزال أمتي بخير ما وَقَّر صغيرُهم كبيرَهم»، وقال ﷺ «البركة في أكابرنا فمن لم يرحم صغيرنا، ويجلّ كبيرنا فليس منا»، وقيل:

ارْحَمْ بَنِي جَمِيعِ الخَلْقِ كُلِّهِم   وَانْظُرْ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ اللُّطْفِ وَالشَّفَقَةْ
وَقِّرْ كَبِيرَهُمُ وَارْحَمْ صَغِيرَهُمُ   ثُمَّ ارْعَ فِي كُلِّ خَلْقٍ حَقَّ مَنْ خَلَقَه

وما يحكى عن صلاح الدين من شفقته على امرأة عيسوية، وعدم حرمانها من ولدها فيه عبرة فينبغي أن يُقتدى به في ذلك، قال العماد: وقد كان للمسلمين لصوص يدخلون في خيام الإفرنج فيسرقون، فاتفق أن بعضهم أخذ صبيًّا رضيعًا من مهده ابن ثلاثة أشهر، فَوَجَدَت[1] عليه أمه وجدًا شديدًا واشتكت إلى ملوكها، فقالوا لها: إن سلطان المسلمين رحيم القلب فاذهبي إليه، فجاءت إلى السلطان صلاح الدين فبكت وشَكَتَ أمر ولدها فرَقَّ لها رقة شديدة ودمعت عيناه، فأمر بإحضار ولدها فإذا هو بيع في السوق؛ فرسم بدفع ثمنه إلى المشتري، ولم يزل واقفًا حتى جيء بالغلام فدفعه إلى أمه وحملها على فرس إلى قومها مكرمة، انتهى.

وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ كان في بعض غزواته وامرأة تطوف على ولدها ضيع، فلما وجدته حنت عليه وألقمته الثدي، فنظر الصحابة إليها متعجبين، فقال ﷺ: «الله أرحم بعبده المؤمن من الأم على ولدها»، وقال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله من أطعم مسكينًا من جوع، أو دفع عنه مغرمًا[2]، أو كشف

---

(١) وَجَدَت: حزنت. (م).

(٢) مَغْرَم: دَيْن. (م).

عنه كربًا»، وعنه ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله بعد الفرائض إدخال السرور على المسلم»، وقال ﷺ: «من أدخل السرور على مسلم فقد أسرني»، وعن أنس رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لو جاء العسر ودخل هذا الحجر لجاءه اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه»، وروى الحاكم أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لن يغلب عسر يسرين» كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح/ ٥-٦]، قال ابن أبي جمرة: كان علي رضي الله عنه إذا كان في شدّة استبشر وفرح، وإذا كان في رخاء أي سعة قلق، فسئل عن ذلك فقال: ما من تَرْحَة إلا ويتبعها فرحة، وما من فرحة إلا ويتبعها ترحة، ثم تلا هذه الآية ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

وقيل: لا تشغل قلبك بما ذهب منك ولكن احفظ ما بقي لك، وقال آخر: حفظك لما في يدك أولى بك من طلب ما في يد غيرك، والحيلة في حفظ الأموال أداء الزكاة، قال ﷺ: «ما ضاع مال في بر ولا بحر إلا بمنع الزكاة، فالشدائد والمحن بتقدير الله وقضائه»، قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد/ ٢٢]. الآية.

وقال بعضهم: إن للنكبات[1] نهايات لا بد لأحد إذا نكب أن ينتهي إليها، فينبغي للعاقل إذا أصابته نكبة أن ينام لها حتى تنقضي مدتها، فإن في رَفْعَها قبل انقضاء مدتها زيادة في مكروهها، وقيل: لا ثناء مع الكبر، ولا صحة مع الهم والتخم، ولا شرف مع سوء الأدب، ولا راحة مع الحسد، وقيل:

إِذَا مَا أَتَاكَ الدَّهْرُ يَوْمًا بِنَكْبَةٍ فَهَيِّئ لَهَا صَبْرًا وَوَسِّعْ لَهَا صَدْرَا
فَإِنَّ تَصَارِيفَ الزَّمَانِ عَجِيبَةٌ فَيَوْمًا تَرَى عُسْرًا وَيَوْمًا تَرَى يُسْرَا

قال بعضهم: ومن العوارض النفسانية الحزن على فائت؛ فينبغي أن لا يكثر التأسف فإن الدنيا بأسرها فانية، وليُعَزِّ نفسه بأنه لو أصيب بمصيبة أعظم منها لكان أعظم حزنًا مثل أن يقع الحزن على فائت من المال، فيقول: لو وقع هذا في الولد كان أكثر مصيبة، أو وقع في الولد فيقول: لو وقعت هذه المصيبة في روحه لكان أكثر مصيبة، ونحو ذلك مما يهوّن عليه الحزن، وقال عمر ﵁: ما أصبت بمصيبة إلا ونظرت أن الله أنعم عليَّ فيها بثلاث نِعَم، الأولى أن الله هوّنها علي ولم يصبني بأعظم منها وهو قادر على أعظم منها، والثانية أن الله تعالى جعلها في دنياي ولم يجعلها في ديني وهو قادر على ذلك، والثالثة أن الله تعالى يأجرني بها يوم القيامة، وقيل:

(١) النَّكَبَات: جمع نكبة وهي المصيبة. (م).

إِذَا أَرَادَ الإِلَــــهُ أَمْــــــرًا قَضَــــاؤُهُ فِي النُّفُوسِ مُبْرَم[١]
فَوَّضْتُ أَمْـــرِي وَقُلْتُ خَيْرًا مَا دَفْـــعَ اللهُ كَـــانَ أَعْظَم

وقيل:

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الفَتَى ذَرْعًا وَعِنْدَ اللهِ مِنْهَا المَخْرَجُ
كَمُلَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلقَاتُهَا فُـــرِجَتْ وَكَانَ يَظُنُّها لاَ تُفْرَجُ

وقال تقي الدين بن حجة:

وَفِي الخُطُوبِ تَظْهَرُ الجَوَاهِرُ مَا غَلَبَ الأيامَ إلاَّ الصَّابِرِ
لا تَيْأَسَن مِنْ فَـــرَجٍ وَلُطْفٍ وَقُوَّةٍ تَظْهَرُ بَعْدَ ضَعْفٍ

وقيل:

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى اليَأْسِ القُلُوبُ وضَاقَ بِهَا لَكَ الصَّدرُ الرَّحِيبُ
وأَوْطَدتْ[٢] المَكَـــارِهُ وَاطْمَأَنَّتْ وأَرْسَتْ فِي مَنَاكِبِهَا الخُطُوبُ

---

(١) مُبْرَم: مُحكم ومدبر. (م).
(٢) أَوْطَدَت: ثبَّتت ورسَّخت. (م).

وَلَمْ تَرَ لانْكِشَافِ الضُّرِّ وَجْهًا ولا أَغْنَتْ بِحِيلَتِهِ الأَرِيبُ[1]
وكُلُّ الحَادِثَاتِ وإِنْ تَنَاهَتْ فَمَقْرُونٌ بِهَا فَرَجٌ قَرِيبُ

وقال الشيخ زكريا الأنصاري رضي الله عنه:

كَفَى مُقْلَتِي قَرحًا وفي القَلْبِ قَلْبُها عَسَى يا إِلَهِي تَنْقطُ القَافَ وَاحِدَة
وإِنْ تَنقِط الأُخْرَى إلى الحَاءِ بَعْدَها بِفَضْلِكَ يا مَنْ لا يُخَيِّبُ قَاصِدَه

وقيل:

عَسَى فَرَجٌ يَكُونُ غَدَا وقَبْلَ غَدٍ عَسَى الفَرَجُ
فَلاَ تَجْزَعْ[2] لِنَازِلَةٍ وإِنْ ذَابَتْ بِهَا المُهَجُ
ودُمْ لِلبَابِ تَقْرَعه فكَمْ مِنْ قَارِعٍ يَلِجُ

وأخرج ابن عساكر عن محمد بن عمر أنه قال: أمر الحَجَّاج بإحضار رجل من السجن، فلما أُحْضِر بين يديه أمر بضرب عنقه، فقال له الرجل: أيها الأمير

(١) الأَرِيب: العاقل. (م).
(٢) تَجْزَع: تخاف وتحزن. (م).

أَخِّرْني إلى غد، فقال له الحجاج: وَيْحَك، وأي فرج في تأخير يوم؟ ثم أمر برده إلى السجن فسمعه الحجاج يقول:

عَسَى فَرَجٌ يَأتِي بِهِ اللهُ إِنَّهُ لهُ كُلَّ يَوْمٍ في خَلِيقَتِهِ أَمْرُ

فقال الحجاج: والله ما أخذه إلا من القرآن العظيم، يعني من قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن/ ٢٩] فأمر بإطلاقه، وقيل: إذا اشتدت الأزمة انحلَّت الحزمة، أوّل الفرج آخر الضيق، وأشدّ الأعداء أقرب صديق، ولكل باطن ظاهر، ولكل أوّل آخر، وكان ﷺ يقول: «اشتدي أزمة تنفرجي»، وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ﴾الآية [الأعراف/ ١٧٢]، قال: جمعهم فجعلهم أرواحًا ثم صوّرهم فاستنطقهم وآدم ينظر إليهم فرأى الغني والفقير، والمبتلى وحسن الصورة، ودون ذلك فقال: يا رب لم لا سوّيت بين عبادك؟ قال: إني أحببت أن أُشْكَر.

فهذا نص من الله تعالى على الحكمة في خلق الناس متفاوتين في صفة الكمال والنقص، حتى أنه جعل أنواع البلاء متفاوتة إرادة الشكر، فلا ترى ذا بلاء إلا وهو يرى أشد بلاء منه، ولا ذا حال سيئ إلا وهو يرى من هو أسوأ حالاً منه ولو من نوع آخر، فترى مثلاً الفقير الذي لا يجد قوته ويبيت الليالي طاويًا يرى من هو دنف[١] ملازمًا للوسادة وهو كثير المال فيشكر الله على العافية، وذلك

(١) دَنِف: مصاب باعتلال بسبب مرض عضال. (م).

الدَّنف يرى هذا الفقير وهو يتمنى القوت فلا يجده فيشكر الله أن رُزِق الغنى مع سقمه ولم يجعله يتكفف الناس، وينظر الملك إلى ما خوّله من النعيم ونفوذ الأمر فيشكر الله أن جعله أميرًا لا مأمورًا ومالكًا لا مملوكًا، وتنظر آحاد الرعية إلى ما يقاسيه الملك من أنكاد الدنيا وهمومها وخروج الخوارج عليه، وانتشار المفسدين والقطاع، وخوفه على نفسه ممن يغتاله أو يسلب منه ملكه ويقصده بأنواع المكائد، ثم ما يتبع ذلك من الحساب يوم القيامة على كل فرد فرد من رعاياه، وهل قام فيهم بما أمر الله من العدل وتخليص مظلومهم من ظالمهم، وإنفاذ أوامر الله فيهم وإيصال حقوقهم إليه، وعلى كل ذرة من مال قبضها أو صرفها هل أخذها كما أمر الله وصرفها فيما أمر الله فيحمد الله ذلك المسكين إذ لم يجعله ملكًا، فحينئذ لا ترى أحدًا من الناس إلا شاكرًا كلٌّ بحسب حاله.

وانظر إلى هذه الحكمة البديعة في جعل الناس مع تباين أحوالهم متفاوتين في الحال الواحد مقولين بالتشكيك لا بالتواطؤ، فذوو الفقر متفاوتون ليرى كل دونه وكذا ذوو البلاء إلى غير ذلك، ومما يُعزى للإمام الشافعي رضي الله عنه:

مَنْ ذَا الَّذِي قدْ حَازَ رَاحَةَ سِرِّه ... فِي يُسْـــرِه إِنْ كَانَ أَو فِي عُسْرِه

فلَـــرُبَّمَا يَلْقَـــى الغـَنِيُّ بِمَالِه ... أَضْعَـــافَ ما يَلْقَى الفَقِيرُ بِفَقْرِه

وأَخُو التِّجَـــارَةِ خَائِفٌ مُتَرَقِّبٌ ... مِمَّا يُلاَقِـــي مِنْ نَوَائِبِ دَهْــرِهِ

وأَخُو الـــوَزَارة وَاجِدٌ مُتَحَير مِمَّا يُلاقِي مِنْ نَوَائبِ عَصْرِه
وكذلك السُّلطَانُ في أَحْكَامِه رَهْن الهُمُـــومِ من جَلالَةِ قَدْرِه
ولَقَد حَسَدتُ الطَّيْرَ في أَوْكَارِهَا[1] فَوَجدتُ أَكْثرَها يُصَادُ بِوَكْرِه
تاللهِ لَوْ عَـــاشَ الفَتَى في أَمْرِه أَلفًا مِن الأَعْـــوَامِ مَالِكَ أَمْرِه
مُتَلَذِّذًا فِيهَا بِكُـــلِّ عَجِيبَةٍ ومبَلِّغًا فِيهَـــا مآرِبَ فَخْرِه
لا يَعْتَرِيهِ الســـقمُ فِيهَا مَرَّةً أَبَدًا ولم تَجْرِ الهُمُومُ بِفِكْرِه
وَصَفَت له الأَيَّـــامُ حَتَّى أَنَّه لَمْ تَنْطِق الأَصْوَاتُ عِنْد مَقَرِّه
وله طُوَالُ الأَرْضِ تَخْضَعُ ذِلَّةً مُسْتَشْـــهِدِين لَه جَـلالَة قَدْرِه
مَا كَانَ ذَلِكَ كُلّه مما يَفِـــي بمَبِيتِ أَوَّلِ لَيلَةٍ في قَـــبْرِه

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: خِيرَةُ الله فيما يكرهه العبد أحسن من خيرته فيما يحب، وقد يكون الشيء أبدع في وقت وخلافه أبدع في وقت آخر، وكذلك الحياة والموت، واليسر والعسر، والأمن والخوف، والصحة والسقم، وذلك لعلم الله بحكمته البالغة أن الإبداع في هذا الوقت إيجاد أحد الضدّين إلى وقت كذا، فإذا حل ذلك الوقت فالإبداع إيجاد ضده فيوجده على حكمته،

(١) أَوْكَارِها: أعشاشها. (م).

ومن قَدَحَ[١] في شيء من هذا فقد قدح في الحكمة وعارض حكمة الحكيم برأي من عنده، ويرجح ذلك قصة المنسوخ من الشرائع والأحكام فإن الله تعالى عالم بحكمته البالغة أن الأبدع شرع هذا الحكم في هذا الوقت، فشرعه إلى وقت كذا، فإذا جاء ذلك الوقت فالإبداع شرع خلافه فيشرعه.

حكي عن رجل من الراضين أنه كان يقول في كل ما يصيبه الخيرة فيما قدره الله، وكان في بادية ومعه أهله وليس له إلا حمار يحمل عليه أمتعته وكلب يحرسهم وديك يوقظهم، فجاء ثعلب أخذ الديك فقال: خيرة، وجاء ذئب فقتل الحمار فقال: خيرة، ثم أصيب الكلب فمات فقال: خيرة، فتعجب أهله من ذلك حتى أصبحوا وقد سُبِيَ من حولهم واسْتُرِقَّت أولادهم، وكان قد عُرِفَ مكان بعضهم بصوت الديك، ومكان بعضهم بنهيق الحمار، فقال: قد رأيتم أن الخيرة فيما قدره الله فلو لم يهلكهم لهلكتم وهلكنا.

وَمَا ثَمّ إِلاَّ الله في كُـــلِّ حَالَةٍ   فلا تَعْتَمِد يَوْمًا على غَيْرِ لُطْفِهِ
فكَمْ حَالَةٍ تَأتِي ويَكْرَهُهَا الفَتَى   وخِيرَتُـــهُ فِيهَا على رَغْمِ أَنْفِهِ

ورُوِي أن نبيًّا كان يتعبد في جبل وكان بالقرب منه عين ماء فاجتاز بها فارس وشرب، ونسي عندها صرة فيها دنانير فجاء آخر وأخذ الصرة، ثم جاء

(١) قَدَح: طَعَنَ وشَكَّكَ. (م).

فقير على رأسه حزمة حطب فشرب واستلقى يستريح فرجع الفارس في طلب الصرة فلم يرها فأخذ الفقير فصلبه وعذبه حتى قتله، فقال النبي: إلهي ما هذا آخذ الصرة، سَلَّطَت هذا الظالم على هذا الفقير حتى قتله، فأوحى الله إليه أن اشتغل بعبادتك فليس معرفة ذلك من شأنك، إن هذا الفقير كان قتل أبا الفارس فمكنته من القصاص، وإن أبا الفارس كان أخذ ألف دينار من مال آخذ الصرة فرددته إليه من تَرِكَته[1]، فمن أتقن أمثال هذه الأسرار لم يتعجب من أفعال الله له، وتعجب من جهل نفسه ولم يقل وكيف فَرَضِيَ بما دبر الله في ملكوته وقيل:

دَعْ الاعتِرَاضَ فَمَا الأمرُ لَك ... ولا الخَــوْضُ في لُجِّ بَحْرِ الفَلَك
ولا تَسْــأل الله عَــــنْ فِعْلِهِ ... فَمَنْ خَاضَ لُجَّةَ بَحْرٍ هَــــلَك

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى/ ١٩] يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، ويعفو عن كثير من سيئاتهم، ولا يؤاخذهم بجميع جناياتهم، ويجزيهم بالحسنة عشر أمثالها، ولا يجزيهم بالسيئة إلا مثلها، ويكتب لهم الهَمَّ[2] بالحسنة، ولا يكتب عليهم الهم بالسيئة، وقال الحليمي: لطيف بالبر والفاجر؛ حيث لم يقتلهم جوعًا بمعاصيهم، وقال بعضهم الرحمة خاصة والبلاء عام، وهذا من جملة رحمة الله بالعصاة؛ إذ لو نزل البلاء كله على الذين يستحقونه بالمعصية

(١) تَرِكَته: ما يتركه الميت لورثته من المال والممتلكات. (م).
(٢) الهمَّ: العزم على القيام بالشيء. (م).

لمحق الله تعالى أثرهم، وإنما يوزع على الناس فيصيب كل واحد منهم قدر يسير لا يكاد يحس به، ويحصل للعاصي مثل أحد الناس من باب سبق رحمته تعالى غضبه، وأما المطيع فينزل عليه أكثر الرحمة بطاعته؛ لأنه محبوب لله فلا يحصل لغيره من الرحمة إلا اليسير، ومن لم يحسن جوار نعم الله نفرت عنه، إن الله لا يغير ما بقوم من الكروب حتى يغيروا ما بأنفسهم من الذنوب.

ومن لطفه أن جعل الرزق من الطيبات ولم يدفعه إليك جملة لئلا تسرف فيه، ومن لطفه بعباده أن أعطاهم فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة، ومن لطفه أن يَسَّر لهم الوصول إلى سعادة الأبد بسعي خفيف في مدة قصيرة وهو العمر، ومن لطفه إخراج اللبن من بين فَرْث[١] ودم، وإخراج الجواهر النفيسة من الأحجار الصلبة، وإخراج العسل من النحلة الضعيفة، والإبريسم من الدودة النحيفة، والدُّرَّة اليتيمة من الصدفة المهينة، وأعجب من ذلك كله أن ركب فيك الشهوة، وخلق من النطفة القذرة مستودعًا بمعرفته، وحاملاً لأمانته ومشاهد الملكوت سمواته، وهذا لا يمكن إحصاؤه وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها.

(رجع) وقال بعض الحكماء: الولد ريحانتك سبعًا وخادمك سبعًا ثم بعد ذلك شريكك أو عدوّك، وبُشِّر الإمام عمر الفاروق رضي الله عنه بولد فقال: ريحانة أشمها بُرْهَة من الزمان، وعما قليل إما ولد بارّ وإما عدوّ ضار، وأنشد بعضهم:

---

(١) فَرْث: طعام مهضوم في القناة الهاضمة من المعدة والأمعاء. (م).

هَذَا الزَّمَانُ الذي كُنَّا نُحَاذِرُهُ   في قَوْلِ كَعْبٍ وفي قَوْلِ ابنِ مَسْعُودِ
إِنْ دَامَ هَذَا ولَمْ يَحْدُثْ له غِيَرٌ[1]   لم يُبْكَ ميتٌ ولم يُفْرَحْ بمَوْلُودِ

وقال بعض من لم يأنس في ولده الرشد بعد أن حاول رشده:

كَمْ فَرْحَـةٍ لي في الحَشَـــا[2]   بِوَلَدٍ لِـــــي قدْ نَشَـــا
كُنَّـــا نَشَـــاءُ رُشْدَهُ   فَمَـــا نَشَا كَمَـــا نَشَا

وقال آخر في سوء حظه من ولده وعبده:

لِيَهْنِكَ أَنَّ لِـــي وَلَـــدًا وعَبْدًا   سَــــوَاء في المَقَالِ وفِي المقَامِ
فهَذَا سَـــابِقٌ مِنْ غَيرِ سِـــينٍ   وهَذَا عَاقِـــلٌ مِنْ غَـــيرِ لامِ

ولكون الولد فلذة الكبد كما سبق يتنافس فيه أبوه وأمه ويطلب كل منهما أن يستحوز عليه ويتحاوران في شأنه، فقد وقعت محاورة أبي الأسود الدئلي وزوجته في ولدهما أمام القاضي شُرَيْح، فقد قالت: أيها القاضي إني حملته تسعًا، ووضعته دفعًا، وأرضعته شفعًا، حتى إذا نَمَتْ أوصاله، ودنا فصاله، أراد أن

---

(١) غِيَر: جمع غِيرَة وهي: تغير الحال. (م).

(٢) الحَشَا: ما دون الحجاب الحاجز مما يلي البطن كالكبد والمعدة والأمعاء. (م).

يأخذه كرهًا، ويتركني بعده ورهًا، فقال أبو الأسود: إني حملته قبل أن تحمليه، ووضعته قبل أن تضعيه، فقالت حملتَه خفًّا وحملتُه ثقلاً، ووضعتَه شهوة ووضعتُه كرهًا، إن بطني كان له حواء، وثديي سقاء، ويدي وقاء، ورجلي حذاء، فقال أيها القاضي إني أعطيتها مهرًا كاملاً ولم أصب منها طائلاً، إلا وليدًا خاملاً فافعل ما رأيت فاعلاً؛ فقضى لها القاضي شريح رحمه الله.

وقد جرت العادة أن أَعَزَّ الأقارب الولد لاسيما بالنسبة لمحبة أمه له وشفقتها عليه، وقد توثر المرأة أخاها على ولدها، كما حكي أنه قيل لامرأة قد أَسَرَ الحجاج زوجها وابنها وأخاها: اختاري أيهم شئت فقالت: أختار الأخ؛ فإن الزوج موجود، والابن مولود، والأخ مفقود، فقال الحجاج: قد عفوت عنهم بحسن كلامها، وبعض النساء، يؤثر الزوج على الأب والأخ، كما حكى المَدَائِنِي أن رجلاً مات عن زوجته وكانت مَلِيحَة فصيحة محبة له؛ فبينما هي تمشي في بستان أبيها إذ ذكرت زوجها فبكت وأنشأت تقول:

إنَّما أَبْكِي لإلْفٍ[1] خَانَه الدَّهرُ فَمَاتَا
قُلْتُ للدَّهْرِ بِحُزْنٍ أَيُّهَا الدَّهْرُ أَسَاتَا
لِمَ تَرَكْتَ الأَبَ والأَخَ وبِالزَّوجِ بَدَاتَا

---

(١) إِلْف: حبيب وأنيس. (م).

ثم التفتت فإذا بأبيها وأخيها خلفها فسمعا ما قالت؛ فقالا لها: ما هذا الذي تقولين؟ فقالت: لما رأيت شجرة الخوخ جفت، قلت:

إنَّما أَبْكِي لِخُوخٍ خَانَه الدَّهرُ فَمَاتَا
قلتُ للدَّهْرِ بحُزْنٍ أَيُّهَا الدَّهْرُ أَسَاتَا
لِمَ تَرَكْتَ الزَّرعَ والكَرْم وبالخُوخِ بَدَاتَا

فقالا لها: ما هذا الكلام؟ فقالت: ما كان إلا هذا، فتعجبا من فصاحتها ووهبا لها البستان، والظاهر أن إنشادها الشعر إنما هو لمجرد شفاء غليلها فقط، وأنها لو خُيِّرَت لم تختر موت أبيها أو أخيها على زوجها، وأن ما صدر منها إنما هو نفثة مصدور، كما يحكى عن بعضهم أنه قال: خرجت إلى مقابر البصرة، فإذا امرأة واقفة على قبر زوجها تنشد أبياتًا آخرها:

يَا مَوْتُ مَاذَا أَرَدْتَ مِنِّي حَقَّقتَ ما كُنتُ أَتَّقِيه
دَهْرٌ رَمَانِي بِفَقْدِ إِلْفِي أَذُمُّ دَهْرِي وأَشْتَكِيه
أَمَّنَكَ اللهُ كُلَّ رَوْع وكُلَّ مَا كُنْتَ تَتَّقِيه
أَسْكَنَكَ اللهُ في مَحَلٍّ يَقْصُرُ عَنْ وَصْف ذَاكِرِيه

فأثر في قلبي منظومها عند إنشادها، وكانت لي ابنة لطيفة المحل من قلبي نفيسة المنزل في نفسي ذات محاسن كثيرة، وفضائل غزيرة، ورزقت حظًّا من التلاوة والآداب الدينية والصناعية مع عقل رصين وبراعة ودين، فسلمت للرب جل جلاله قضاءه فيها، وعرفت حسن اختياري لي ولها، إذ كان خالقها أملك لها من والدها ورضيت ثواب الله عوضًا منها، ولهجت بما في هذه الأبيات ومكثت أقطع ليلي ونهاري بترجيعها، وبالجملة فالرجل لزوجته مَلِكٌ وسلطان تبكيه زوجته المحبة له طول الزمان ولا تزال تصفه بصفات الكمال، كما يحكى أن بعضهم قال: مررت على قبر ببغداد وعليه امرأة تَنُوح على زوجها وتنشد:

فَمَنْ للسُّؤالِ ومَنْ للنَّوَالِ ... ومَنْ للمَقَالِ ومَنْ للخُطَبْ
ومَنْ للحُماةِ ومَنْ للكُمَاةِ ... إِذَا مَا الكُمَاة جَثَوْا للرُّكَبْ
إذا قِيلَ مات أَبُو مَالِك ... فَتَى المَكْرُمَاتِ قَرِيعُ الكُرَب[1]

فقلت لها: من هو أبو مالك الذي ترثينه بذلك؟ فقالت: هذا أبو مالك الحجام الذي ختن الخليفة المنصور، فقلت لها: ما ظننت بسماع كلامك إلا أنه سيد من سادات العرب، قال بعضهم: لا حرمة لنائحة لأنها تأمر بالجزع، وقد نهى

(١) قريع الكُرَب: السيد المُختار لإبعاد الشدائد والهموم. (م).

الله عنه، وتنهى عن الصبر وقد أمر الله به، وتبكي شجو غيرها وتأخذ الأجرة على دمعها وتُحزن الحي وتؤذي الميت، وبالجملة فالقرابة عصبة أو رحمًا، والمصاهرة التي هي أيضًا نوع من القرابة يجب بينهم المحبة العمومية وحفظ التوادد والتواصل، ولذلك كانت صلة الرحم فيها خصال محمودة أولها: رضاء الله تعالى؛ لأنه أمر بتقواه وصلة الرحم، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء/ ١]، الثاني: إدخال السرور عليهم، وأفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن، الثالث: حسن الثناء وزيادة العمر والبركة في الرزق.

وفي صلة الرحم سرور الأموات أيضًا؛ لأن الآباء يسرون بصلة القرابة، قال رسول الله ﷺ: «تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله، وتعرض على الأنبياء وعلى الآباء والأمهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضًا وإشراقًا، فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم»، وفي صلة الرحم أيضًا زيادة في المروءة لأنه إذا وقع لواصل الرحم سرور أو حزن اجتمعوا عليه وأعانوه أو سلُّوه، فيكون له زيادة في المروءة وزيادة بعد موته لأنهم يدعون له كلما ذكر بره.

وأقسام المروءة سبعة، ثلاثة في الحضر وأربعة في السفر، أما التي في الحضر: فغض البصر، وإمساك الفرج، وأداء الأمانة. وأما التي في السفر فبذل الزاد، ومراعاة الرفيق، وإحسان الخلق، وإدلال الدال إلى الطريق، والرحم هو القرابة من قبل الأب أو الأم من غير تقييد بمحرمية، وقيل بتقييدها ورجحه الشهاب

الرملي، وقيل كل قرابة إلى ثمانية عشر جدًّا، وقيل من تجب نفقته. وللأقارب حقوق يقدم في البر الأحوج فالأحوج والصلة والإحسان إليهم.

وقد وردت أحاديث كثيرة في صلة الرحم منها «من سَرَّه أن يُمَدَّ له في عمره، ويُوَسَّع له في رزقه، ويُدْفَع عنه ميتة السوء فليتق الله وليصل رحمه»، ومنها «الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله»، ومنها يقول الله عز وجل «أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها اسمًا من اسمي فمن وصلني وصلته، ومن قطعني قطعته»، وقال ﷺ: «إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم»، وقال ﷺ: «إن صلة الرحم تقرب العبد إلى رحمة الله تعالى وتباعده من عقوبته»، وقال ﷺ: «بِرُّوا أرحامكم ولو بالسلام».

وما ذكر من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر/ ١١]، إن معناه كل من طال عمره أو قصر فهو مكتوب في الكتاب، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام/ ٢] إن الأجل المسمى عنده هو الأجل الذي قضاه، وقوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد/ ٣٩] على عمومه حتى الشقاوة والسعادة والأجل والرزق والخلق لكن باعتبار متعلق الكتاب والعلم؛ لأن المشاهد أن الشخص يكون كافرًا وذلك مكتوب في اللوح المحفوظ؛ لأنه من جملة الحوادث ثم يسلم، ومسلمًا ثم يكفر، وفقيرًا ثم يستغني وعكسه.

ولا ريب أن كل ذلك والحوادث كلها مكتوبة في اللوح المحفوظ فبالضرورة حصل المحو والإثبات، وأن علم الله بذلك أزلي لا يتغير ولا يتبدل. فقد ثبت بالدلائل القطعية أن الله عالم بالآجال والأرزاق وغيرها، وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ما هو عليه، فإذا علم الله أن زيدًا يموت بوقت معين استحال أن يموت قبله أو بعده فلا يتغير علمه تعالى بذلك، وأن المعلوم هو الذي يتغير ويتبدل على وفق علمه، وينتقل من حال إلى حال وذلك معلوم بضرورة المشاهدة، وأنه لا يمحو شيئًا ولا يثبت إلا ما سبق علمه به، وأن صلة الرحم ونحوها تزيد في العمر، وأن الدعاء يدفع البلاء، وروي عنه ﷺ «اثنان لا ينظر الله إليهما قاطع الرحم وجار السوء» وهو الذي إن رأى حسنة كتمها أو سيئة أفشاها.

فصلة القرابة هي أن يفعل القريب معهم ما يعدّ به واصلاً غير منافر ولا مقاطع فيصلهم بالهدية ونحوها، فإن لم يقدر على الصلة بالمال، وكانوا غير محتاجين إليه وصلهم بالزيارة والإعانة على أعمالهم إن احتاجوا إلى ذلك، وإن كان غائبًا عنهم وصلهم بالكتاب وإرسال السلام ولين الكلام ونحو ذلك، فإن قدر على السعي إليهم بالحضور لمشاهدتهم فهو أفضل، ثم إن حقوق الأقارب من حيث البر والصلة مختلفة في القوّة كما سيأتي.

الفصل الثاني

في بر الوالدين، وفي فضل العلم والحث على تعليمه، وفي آداب كل من المُعَلِّم والمُتَعَلِّم

بر الوالدين واجب شرعًا وعقلاً، قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء/ ٣٦] الآية، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآ﴾ [العنكبوت/ ٨] وهذه الآية والتي في العنكبوت وسورة الأحقاف نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمه حمنة بنت أبي سُفْيَان لما أسلم وكان بارًّا بأمه، فقالت أمه: ما هذا الدين؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت، فمكثت كذلك أيامًا فجاءها سعد فقال: يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني، فكلي واشربي إن شئت أو اتركي، فلما يئست منه أكلت وشربت، فأنزل الله هذه الآية وأمره بالبر والإحسان إليهما وأن لا يطيعهما في الشرك، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء/ ٢٣] الآية، ويسمى بِرُّهُما أيضًا بالمحبة البنوية أي صداقة الولد والبنت للأب والأم علوًّا وسفلاً في كليهما.

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي والدة أنفق عليها وهي تؤذيني بلسانها فكيف أصنع؟ فقال النبي ﷺ: أدّ حقها فوالله لو قطعت لحمك ما أديت ربع حقها، أما علمت أن الجنة تحت أقدام والدتك؟ فسكت الرجل وقال: والله لا أقول لها شيئًا، ثم أتى الرجل إلى والدته وقَبَّل أقدامها وقال: يا والدتي بذلك أمرني رسول الله ﷺ.

وقد اقتضت حكمة الله ﷻ بتكليف الأبناء ببر آبائهم لثلاثة أسباب أصلية؛ السبب الأول: الإحساس والشعور، فإن الأطفال يدركون من صغر سنهم بإدراك غريزي اعتناء والديهم بشئونهم وتعهد أحوالهم وأطوارهم، ومعاناة آبائهم وأمهاتهم حسن تربيتهم، فيرتسم في ذهن الأطفال من المهد هذه التربية فيصير حب الآباء والتعلق بهم طبيعيًّا للأبناء، ويتعودون عليه، ويصير من جملة الوجدانيات. السبب الثاني: أن العدل والإنصاف مركوز في طبيعة الإنسان، فالطفل متى استشعر من أبويه تعهد شؤونه لمحبته إياه عامله بالمثل إجراء على قانون العدل والإنصاف؛ فلهذا تجد الأطفال يحسنون معاملة آبائهم بمثل ما عاملوهم به، بل يجب عليهم أن يعوضوهم شيئًا جزاءً لتربيتهم إياهم، وفي نظير ما أنفقوه عليهم من الأموال في صباهم فبرهم واجب في مقابلة ذلك، وقد قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن/ ٦٠].

السبب الثالث: وهو نتيجة الأوّل أن المصلحة الخصوصية تقتضي سبق حسن المعاملة من الآباء لأولادهم بقطع النظر عن البنوّة؛ لأن الآباء إذا أساءوا تربية أبنائهم ولم يحسنوا معاملتهم كأنهم جعلوا لهم وسيلة للتأسي بهم؛ حيث عوّدوهم على العوائد السيئة المنتجة للعقوق فكأنما الصغير شب بسوء تربيته على عقوق والده وعصيانه وكفران نعمه، فمتى صار كبيرًا واحتاج إليه أبوه عامله عند الإبان[١] بالمثل، فإذا أحسن الآباء تربية أبنائهم وعاملوهم بالإكرام كانت مصلحة الأولاد في محبة آبائهم وبِرِّ هِم لاسيما في حالة شيخوختهم التي تكاد أن تكون عَوْدًا إلى الطفولية.

وحكي أن عمر بن عبد العزيز -رضي الله تعالى عنه- رأى ولدًا له يوم عيد وعليه قميص خَلِق[٢] فبكى، فقال له ما يبكيك؟ فقال: يا بني أخشى أن ينكسر قلبك في يوم العيد إذا رآك الصبيان بهذا القميص الخلق، فقال: يا أمير المؤمنين إنما ينكسر قلب من أعدمه الله رضاه أو عق أمه وأباه، وإني لأرجو أن يكون الله راضيًا عني برضاك، فبكى عمر رضي الله عنه وضمه إليه وقَبَّل ما بين عينيه ودعا له، فكان أزهد الناس بعد أبيه، وقيل:

دَنَوْتَ تَوَاضُعًا وعَلَوْتَ مَجْدًا   فشَأْنَاكَ اتّضَاعٌ وارتِفَاعُ

---

(١) الإبَّان: الوقت والحين. (م).

(٢) خَلِق: بالٍ ورَثّ. (م).

ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أتته الوفود فإذا فيهم وفد الحجاز، فنظر إلى غلام صغير السنّ وقد أراد أن يتكلم، فقال: ليتكلم من هو أسنّ منك فإنه أحق بالكلام، فقال له: صدقت، ولكن يا أمير المؤمنين إنا قَدِمنا عليك من بلد نحمد الله الذي مَنَّ بك علينا، ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة، أما الرغبة فقد أَمنَّا بك في منازلنا، وأما الرهبة فقد أَمِنَّا جورك ببعدك عنا، فنحن وفد الشكر والسلام، فقال له عمر: عظني يا غلام، فقال: يا أمير المؤمنين إن ناسًا غرّهم حلم الله وثناء الناس عليهم، فلاتك ممن غرّه حلم الله وثناء الناس عليه فَتَزِلَّ قدماك وتكون من الذين قال فيهم ﴿ **وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** ﴾[الأنفال / ٢١]، فنظر في سنّ الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة.

ومن الزهد دوام النظر في الدنيا، والتفكر في سرعة انصرافها وقلة الحاصل منها، وغرور أكثر الخلق بالإقبال عليها، ومفارقتها لهم عند كمال محبتهم لها، وإقبالهم عليها، وكون كل لذة منها مقترنة بآفة تلازمها، فكم من لذة في مأكل ومشرب كانت سبب هلكة، وكم من لذة في شهوة بجماع كانت سبب هَمٍّ وغَمٍّ وزيادة كلفة، وكذلك سائر أقسامها من جاهها ومالها، فأرباب الجاه فيها معذبون بحفظ جاههم والصيانة عن نزول قدرهم، وأرباب المال مشغولون بحفظه عما يتلفه عليهم، وبتنميته طلبًا للزيادة مع ما لديهم، عمالٌ في نهارهم سكارى في ليلهم، فالفكرة في الدنيا في هذه الجهات مع فراغ القلب من المشغلات تدل

اللبيب على حقارة الدنيا، وتزرع في قلبه الزهد فيها والإعراض عنها، فلا تغُرَّنك زهرتها ولا تَفْتَنِنَّك زينتها، فإنها سَلاَّبة للنعم أَكَّالَة للأمم، وقيل:

لَعَمْرُكَ مَا الدُّنيَـــــا بدَارِ إقَامةٍ   ولَكِنَّها دَارُ انتِقَـــــالٍ لِمَنْ عَقَلْ
إذا أَضْحَكَتْ أَبكَتْ وإِنْ هِي أَقْبَلَتْ   تَوَلَّتْ وإِنْ أَعْطَتْ فأيَّامُهَا دُوَلْ[١]

وحكي أن البادية أقحطت على أيام هشام فقدمت عليه العرب وهموا أن يكلموه، وكان فيهم دراوس بن حبيب وهو ابن ست عشرة سنة وله ذؤابة[٢] وعليه شملتان[٣]، فوقعت عليه عين هشام فقال هشام لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل عليّ إلا دخل حتى الصبيان فوثب دراوس حتى وقف بين يديه مطرقًا برأسه فقال: يا أمير المؤمنين إن في الكلام طيًّا ونشرًا، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه وقال: انشره لله درك، فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاثة؛ السنة الأولى أذابت الشحم، والثانية أذابت اللحم، والسنة الثالثة أذابت العظم، وفي أيديكم فضول مال فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم فعلامَ تحبسونها عنهم، وإن كانت لكم فتصدّقوا بها عليهم إن الله يجزي المتصدّقين. فقال هشام لمن عنده:

(١) دُوَل: تنتقل من حال إلى حال. (م).
(٢) ذُؤَابَة: عمامة. (م).
(٣) شَمْلَتَان: الشملة كساء من صوف أو شعر يتغطى به. (م).

ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذرًا، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار وللغلام بمائة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ فقال ما لي حاجة لنفسي دون عامّة المسلمين، فخرج من عنده وهو من أجَلِّ القوم.

وقيل: إن سعد بن ضمرة الأسدي لم يزل يغير على النعمان بن المنذر يسلب أمواله حتى عيل[١] صبره، فبعث إليه يقول: إن لك عندي ألف ناقة على أنك تدخل في طاعتي، فوقف عليه وكان صغير الجثة فاقتحمته عينه وانتقصه فقال: مهلاً أيها الملك، إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إن نطق نطق ببيان، وإن صال صال بجَنَان[٢]، ثم أنشد يقول:

يا أَيُّها المَلِكُ المَرْجُوُّ نَائِلُهُ إِنِّي لِمَن مَعْشَرٍ شمّ لِذِي بَطَرِ
فَلاَ تَغُرَّنَّك الأَجْسَادُ إِنَّ لنا أَحْلاَمَ عَادٍ وإِنْ كُنَّا إلى قِصَرِ
فكَمْ طَوِيلٍ إِذَا أَبْصَـــرْتَ جُثَّتَه تَقُولُ هَذَا غَدَاةَ الرَّوعِ[٣] ذُو ظَفَرِ
فإن أَلَمَّ به أمـــــرٌ فَأَفْظَعَـهُ رأَيتَهُ خاذلاً للأهلِ والزُّمَرِ[٤]

فقال: صدقتنا، هل لك بالأمور علم؟ قال: إني لأنقض منها المفتول، وأُبْرِم منها المحلول، وأجيلها حتى تجول، ثم أنظر فيها إلى ما تؤول، وليس للأمور

(١) عِيلَ صَبْرُه: فقد صبره. (م).
(٢) صَالَ بجَنان: سطا على عدوه بثبات وقوة. (م).
(٣) الرّوع: يوم الحرب. (م).

بصاحب من لم ينظر في العواقب، فتعجب من فصاحته وعقله، ثم إنه أمر له بألف ناقة، ثم قال: سعد إن أقمت عندنا واسيناك بالعطاء، وإن رحلت واصلناك بالإحسان، فقال سعد: قرب الملك أحب إليّ من الدنيا وما فيها، فأنعم عليه وأدناه وجعله من خواص ندماه.

وقد جرت العادة أن الصبي الشريف النفس الكريم الأخلاق الحسن التربية يرى من أوجب الواجبات عليه لأبيه وأمه شكر النعمة؛ حيث هما أصل وجوده وسبب حفظه وصونه، فقد جبلت الطبيعة البشرية على دوام الإحسان لمن أحسن إليها وحماها وصانها، فارتباط الأبناء بالآباء ارتباط صحيح يستدعيه الذوق السليم والطبع المستقيم، فلا تخرج الأبناء من ربقة[(١)] هذا التعلق لاسيما بالآباء، فحسب الرجل أن يهذب ابنه ويحسن تربيته حتى يكون بذلك أبًا منصفًا، فبهذا يستحق على ولده البر والمحبة، فمن الناس من كان دَيْدَنُه[(٢)] مدح أبيه في حياته ورثاؤه بعد مماته، ومنهم من أدّته الخسة وقلة التربية لهجو والده، فمن القسم الأوّل ابن سناء المُلْك؛ حيث يقول في مدح أبيه الرشيد:

أَنَا الغَوِي بهمي والرَّشِيدُ أَبِي هو الرَّئيسُ على الدُّنيَا بِهِمَّتِهِ
أُحْيِي وأَنشُرُ مَيِّتَ المَجْدِ مُجْتَهِدًا في لَمّ لمتِهِ أَوْ رَمِّ رُمَّتِهِ

---

(١) رِبْقَة: قيد. (م).

(٢) دَيْدَن: عادة ودأب. (م).

أَصْبَحْتُ أَخْتَالُ في حَالِي ونُضْرَتِها   بِه وأَرْتَــعُ في عَيْشِـــي وخُضْرَتِهِ
وأَسْعَدُ النَّاسِ مَنْ لاقَى بِلا تَعَبٍ   مَبْدَا السَّعَادةِ في مَبْدَا شَـــبِيبَتِهِ[1]

وقال فيه أيضًا:

يَكْفِيكَ أَنِّي بِكَ يا سَـــيِّدِي   قد طابَ أصلي وزكا مَحْتِدِي[2]
جَاوَزْتَ حَـــدَّ البِرِّ بِي صَـــاعِدًا   فقِفْ فَمَا أَبَقَيْتَ مِنْ مَصْـــعَدِ

ومن القسم الثاني ممن هجا والده ابن الرومي بقوله:

لَوْ كَانَ مِثْـلُكَ في زَمَانِ مُحَمَّدٍ   ما جـــاءَ في القُـــرْآنِ بِرُّ الوَالِدِ

وذكر السمهودي في كتاب النورين أن من أسباب زوال الإيمان والعياذ بالله تعالى أربعة أشياء؛ ترك الشكر على الإسلام، وترك الخوف على ذهاب الإسلام، وظلم أهل الإسلام، عقوق الوالدين، وروي عنه ﷺ أنَّ من أكبر الكبائر الشرك بالله، وعقوق الوالدين، ويمين الغَمُوس[3]، وقال أبو العَيْنَاء: أنا أوّل من أظهر العقوق لوالده بالبصرة، قال لي أبي: إن الله قرن طاعته بطاعتي فقال: ﴿ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان/ ١٤]، فقلت: يا أبت إن الله أمنني عليك ولم

(١) شَبِيبَتِه: شَبَابه وحَدَاثته. (م).
(٢) مَحْتِدي: أصلي. (م).
(٣) يَمِين الغَمُوس: يمين كاذبة تغمس صاحبها في النار، لأنه يحلف وهو يعلم أنه كاذب. (م).

يؤمنك عليّ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء/ ٣١]، وقال بعضهم: إذا أتت الجفوة من موضع المبرة تضاعف إيلامها وإيجاعها، كما أن المبرة إذا أتت من موضع العقوق حسن موقعها وأعجب أمرها، قال الشاعر:

وما يُوجِعُ الحِرْمَان مِنْ كَفِّ حَارِمٍ كما يُوجِعُ الحِرْمَانُ مِنْ كَفِّ رَازِقِ

ومن علامات الساعة أن يكون الولد غيظًا، والمطر قيظًا، وأن يفيض الأشرار فيضًا؛ أي يكون الولد غيظ أبيه وأمه، أي يعمل ما يغيظهما بعقوقه لهما، ولا يكون في طوعهما، ويكون المطر في الصيف فلا ينبت شيئًا، وهذا قريب من أن من أشراط الساعة كثرة القطر وقلة النبات، وفيض الأشرار كثرتهم. وَوَرَدَ عنه ﷺ «دعاء الوالد يفضي إلى الحجاب[1]»، وعنه أيضًا «دعاء الوالد لولده كدعاء النبي لأمّته»، وورد عنه ﷺ «الجنة تحت أقدام الأمهات»، وقال ﷺ: «طاعة الله في طاعة الوالد ومعصيته في معصية الوالد».

ومن أعظم حقوق الولد على والده أن يتخير أمه لئلا يُعَيَّر بها وظِئْره أي مرضعته، وأن يعيش الأب معها بكمال الوداد والمحبة، وسلوك طريق الإنصاف والعدل لتكون المحبة مشتركة بين الأب والأم والولد، وإذا كان للزوج والزوجة

---

(١) الحِجَاب: السِّتْر. (م).

عدّة أولاد سَوُّوا بينهم في تعهد شؤونهم وتقويم أَوَدِهم، ليشب الإخوة على التحابب والتوادد بعضهم لبعض، وهذا ما يسمى بالمحبة الأخوية، وسيأتي ذكرها في الفصل الرابع من هذا الباب.

ومن حقوق الولد أيضًا على والده أن يحسن اسمه وأدبه، ويعلمه القرآن إذا عقل، ويزوّجه إذا بلغ، وأن يعلمه السباحة والخط والحساب، وإن كانت أنثى زوّجها جميلاً تقيًّا، وينفق على ولده ويكسوه إذا احتاج، قال ﷺ: «أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم، ومن حقوق الأولاد على الوالد أن يسوي بينهم في العطية غنيهم وفقيرهم وذكرهم وأنثاهم، قال ﷺ: «ساووا بين أولادكم في العطية، فإني لو كنت مؤثرًا أحدًا لآثرت النساء على الرجال»، وفي رواية «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم كما تحبون أن يبروكم»، وقال ﷺ: «إن في الجنة دارًا يقال لها الفرح يدخلها من فرح الصبيان». رواه ابن عدي عن عائشة، وقال ﷺ: «رحم الله والدًا أعان ولده على بره» وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بأوّل التمر فيقول: اللهم بارك لنا في مدينتنا، وفي ثمارنا، وفي مُدِّنَا[١] وفي صاعنا[٢] بركة مع بركة، ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان.

ومن حقوق الولد على الوالد أن يَعُقّ[٣] عنه بشاتين وعن الجارية بشاة في اليوم السابع، ومنها أن يحلق شعر رأسه ويتصدّق بوزنه ذهبًا، فإن لم يجد ففضة،

(١) مُدِّنَا: المُد: مِكْيَال قديم اختلف الفقهاء في تقديره. (م).
(٢) صَاعِنَا: الصاع: مكيال يُكال به وتدور عليه أحكام المسلمين. (م).
(٣) يَعُقُّ: يذبح عنه ذبيحة في اليوم السابع لولادته. (م).

كما روي عن سلمان بن عامر الضبي أن النبي ﷺ قال: «الغلام مرتهن بعقيقته»، ومنها أن يختنه؛ لأن الختن من الفطرة أي الخلقة الإسلامية، والختان للذكور سُنَّة والخفاض للنساء مَكْرُمَة، واختتن إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- بالقدوم، وهي قرية من قرى كنعان اختتن إبراهيم فيها بنفسه، لا ما ذهب إليه بعض الناس من الآلة التي تجري مجرى الفاس، فإذا بلغ المولود سنّ التمييز أوصاه أن يتمسك بأخلاق الصالحين وأن يصان عن مخالطة الفسقة، واتفقت الأمة على فضيلة التقوى وطلبها حتى قال بعضهم:

ولا تَمْشِ إلاَّ مَعَ رِجَالٍ قُلُوبُهُم تَحِنُّ إلى التَّقْوَى وتَرْتَاحُ للذِّكْرِ

ومنها أن يعلمه أحكام الدين والعربية ويأمره بالصلاة، والنحوُ جمال الألسنة وكمال العلماء، يعلم به معاني الكتاب والسنة النبوية، ومخاطبة العرب بعضهم بعضًا؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «أَحِبُّوا العرب لثلاث؛ لأني عربي والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي»، وقال رسول الله ﷺ: «تعلموا العربية وعلموها الناس»، والأصل فيه ما قيل إن أبا الأسود الدؤلي رحمه الله تعالى سمع قارئًا يقرأ قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة/ ٣] بالجر عطفًا على المشركين، فذهب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأخبره بذلك، فقال له: ذلك بمخالطتهم؛ يعني صاروا يلحنون[١] في الكلام بسبب

(١) يَلْحَنُون: يخطئون في الإعراب ويخالفون وجه الصواب. (م).

مخالطتهم لأبناء العجم، ثم قال: يا أبا الأسود أقسام الكلام ثلاثة اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أوجد معنى في غيره، والفاعل مرفوع وما سواه فرع عليه، والمضاف إليه مجرور وما سواه فرع عليه إلى آخره. انح لهم هذا النحو يا أبا الأسود؛ فلهذا سمي هذا العلم نحوًا، ثم خَلَفَ أبا الأسود ميمون الأقرن فزاد فيه أمورًا كثيرة، إلى أن جاء سيبويه والكِسائي فأخذ عن كل واحد منهما فرقة، فعن سيبويه البصريون، وعن الكسائي الكوفيون، فهذَّبوا الفن ورتبوا الترتيب الخاص المشاهَد الآن.

وكان معاوية أرسل إلى الأحنف بن قَيْس فقال له: يا أبا الحسن ما تقول في الولد؟ قال: يا أمير المؤمنين ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة، وبهم نَصُول على كل جليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم يمنحوك ودهم ويحبوك جهدهم، ولاتك عليهم قفلاً فيَمَلُّوا حياتك، ويحبوا وفاتك ويكرهوا قربك، فقال له معاوية: لله أنت يا أحنف، لقد دخلت عليّ وأنا مملوء غضبًا على يزيد، فلما خرج الأحنف من عنده رضي عن ابنه يزيد وبعث إليه بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب، فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب قاسمه إياها.

قال بعض التابعين: من دعا لأبويه كل يوم خمس مرات فقد أدّى حقهما؛ لأن الله تعالى قال ﴿ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان/ ١٤] فشُكْر الله

أن يُصَلى كل يوم خمس مرات، فكذلك شكر الوالدين أن يدعو لهما كل يوم خمس مرات، وقال ﷺ: «إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما بعد موتهما فيكتبه الله من البارين»، وقال ﷺ: «بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله»، وقال: «لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه»، وقال بعضهم: من فاته بر والديه فليصل ليلة الخميس ركعتين يقرأ في كل منهما فاتحة الكتاب ويقرأ في كل واحدة آية الكرسي والإخلاص والمعوذتين خمسًا، فإذا سلم يستغفر الله خمس عشرة مرة ويهب ثواب ذلك لهما، فإنه يقوم مقام برهما إن شاء الله تعالى.

روي عن ابن عباس يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ يسأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده، فيقال له إنهم لم يدركوا ما أدركت، فيقول: يا رب إني عَمِلْتُ لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾[الطور/ ٢١].

وروى سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي وابن مردويه عنه مرفوعًا، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن إليه -وفي لفظٍ معه- في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتَقَرَّ بهم عينه، ثم قرأ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، قال: ما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين.

وروى أبو نعيم عن سعيد بن جبير أنه سئل عن أولاد المؤمنين قال: هم مع خير آبائهم، إن كان الأب خيرًا من الأم فالولد مع الأب، وإن كانت الأم خيرًا من الأب فهو مع الأم، وأما قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[النجم/ ٣٩] فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا منسوخ الحكم بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور/ ٢١]الآية أو كان هذا الحكم في شريعة إبراهيم وموسى، وأما هذه الأمّة فلهم ما سعوا وما سعى لهم غيرهم من قراءة وصدقة وغيرهما، لما ورد عنه ﷺ في ذلك قولاً وفعلاً، قال أبو العباس أحمد بن تيمية: من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعلمه فقد خرق الإجماع وذلك باطل، انتهى. وروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «إن الله ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته[١] ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم»، وقال ﷺ: «إن الله ليرفع درجة العبد في الجنة فيقول أنى هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك، وقيل:

رَأَيْتُ صَلاحَ المرءِ يُصْلِحُ أَهْلَه ويُعدِيهِمُ عِنْدَ الفَسَادِ إذا فَسَدْ
يُعَظَّمُ في الدُّنيَا بِفَضْلِ صَلاحِه ويُحْفَظُ بَعْدَ المَوتِ في الأَهْلِ والوَلَدْ

---

(١) دُوَيْرَته: بلده. (م).

وقال بعض العلماء: ترك الدعاء للوالدين يضيق العيش على الولد، وإذا كان كذلك فالدعاء لهما يوسع العيش عليه، وروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قالت اليهود للنبي ﷺ كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام، وغلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام كذلك إلى السماء السابعة والأرضون مثل ذلك، وما بين السماء السابعة إلى العرش مثل جميع ذلك، فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة/ ١٨٦] الآية والإجابة بمعنى القبول، وقال قوم: إن الله يجيب كل الدعاء فإما أن تظهر الإجابة في الدنيا، وإما أن يكف عنه سوءًا، وإما أن يدخر له في الآخرة، لما روى أبو سعيد: قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له، وإما أن يكف عنه من السوء مثلها، وقال بعضهم فيمن تعجل دعوتهم:

وسَبْعَةٌ لا يرُدُّ اللهُ دَعْوَتَهُم مظلومُ والد ذو صومٍ وذو مَرَضِ
ودعوةٌ لأخٍ بالغَيبِ ثم نَبِي لأمَّة ثم ذو حَجٍّ بذاك قُضِي

وقال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»، وقيل:

ورُبَّ ظَلُومٍ قد كمنتُ لِحَرْبِه فأَوْقَعَهُ المقْدُورُ أَيَّ وُقُوعِ
ولَيْسَ مَعِي إلاَّ سِلاحُ تَهجُّدٍ وأَدْعِيَةٌ لا تُتَّقَى بدُرُوع

وهَيْهَاتَ أَنْ يَنْجُو الظَّلُومُ وخَلْفَه سهَامُ دُعَاءٍ من قِسِيٍّ رُكُــــــوعِ
مُهَدَّبَةٍ[١] بالرِّيشِ مِنْ جَفْنِ سَاهرٍ وأَنْصَــــالُها[٢] مَسْقِيَّةٌ بِدُمُــــوعِ

وقد ورد عنه ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب، يسأل أحدكم ربه حاجته حتى شسع نعله[٣] إذا انقطع»، فكما يسأل منه سبحانه وتعالى الشيء الجليل يسأل منه الشيء القليل، وعنه ﷺ قال: «إن الله يحب المُلِحِّينَ في الدعاء أي (....) والمخلوق يغضب وينفر عند تكرر السؤال، وأنشدوا:

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وبَنِي آدَمُ حِينَ يُسألُ يَغْضَبُ

فشتان ما بين هذين وسحقًا لمن تعلق بالأثر وأعرض عن العين، فإذا سألت فاسأل الله أن يعطيك إياه ولا تسأل غيره، فإن خزائن الوجود بيده وأَزِمَّتُها[٤] إليه؛ إذ لا قادر ولا معطي ولا متفضل غيره، فهو أحق أن يقصد سِيَّما وقد قسم الرزق وقدّره لكل أحد بحسب علمه القديم الأزلي، وإن كان يقع في ذلك تبديل في اللوح المحفوظ بحسب تعليق على شرط، ومن ثم كان للسؤال فائدة لاحتمال أن يكون إعطاء المسئول معلقًا على سؤاله، وقال طاوس لعطاء: إياك

(١) مُهَدَّبَة: وصف للسهام بالطول والقوة والمقصود به الدعاء. (م).
(٢) أَنْصَال: جمع نصل وهو الحد القاطع. (م).
(٣) شِسْع النعل: هو سَيْر يُمسك النعل بأصابع القدم. (م).
(٤) أَزِمَّتها: جمع زمام، وهو ما يمسك به الحيوان ونحوه والمقصود تمام السيطرة والتحكم. (م).

أن تطلب حوائجك ممن يغلق بابه دونك، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة أمرك أن تسأله ووعدك أن يجيبك، وقال عامر بن قيس: قرأت آيات من كتاب الله تعالى فاستغنيت بالله عن الناس، قرأت قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس/ ١٠٧]، فلم أسأل غيره كشف ضُري، وقرأت قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس/ ١٠٧]، فلم أرد الخير والفضل إلا منه، وقرأت قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود/ ٦]، فلم أطلب الرزق من غيره، وقال ﷺ: «سَلُوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يُسْأَل، وأفضل العبادة انتظار الفرج».

وقال بعضهم: إجابة الدعاء لابد لها من شروط فشرط الداعي أن يكون عالمًا بأن لا قادر إلا الله، وأن الوسائط في قبضته ومُسَخَّرَة بتسخيره، وأن يدعو بِنِيَّة صادقة وحضور قلب، فإن الله تعالى لا يقبل دعاء من قلب لاهٍ، قال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»، وأن يكون متجنبًا لأكل الحرام وأن لا يمل من الدعاء، ومن شروط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعًا، وأما إذا كان الدعاء غير جائز الطلب والفعل شرعًا كما إذا كان بإثم أو قطيعة رحم فلا يستجاب، فيدخل في الإثم كل ما يأثم به من الذنوب، ويدخل في الرحم جميع حقوق المسلمين.

وقال سهل بن عبد الله التستري: شروط الدعاء التضرع والخشوع، وأكل الحلال، وحفظ اللسان، وحفظ العين عن النظر إلى ما لا يحل، وحفظ الفرج

من الحرام، وقال ابن عطاء: إن للدعاء أركانًا وأجنحة وأسبابًا وأوقاتًا، فإن وافق أركانه قوي، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه نجح، فأركانه حضور القلب والخشوع، وأجنحته الصدق ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصلاة على النبي ﷺ، فالابتهال إلى الله بالتضرع والدعاء والاستغفار أولى وأحسن، فإن الله تعالى لا يردّ سائله، ولا يخيب قاصده، ولا يضيع أجر العاملين، ورحمته قريب من المحسنين، وعفو الله واسع، ورحمته واسعة، ولطفه بخلقه وكرمه بهم جل عن إحصائه، وقال أبو العطاء الوفائي الكبير في دعائه:

إِلَهِي لَئِنْ عَذَّبْتَ بِالنَّارِ عَاصِيًا ... فَوَعْدُكَ بالغُفْرَانِ لَيْسَ لَه خُلْفُ
وإِنْ كُنْتَ ذَا بَطْشٍ شَدِيدٍ وقُوَّةٍ ... فمِنْ شَأْنِكَ الإِفْضَالُ والجُودُ واللُّطْفُ
رَكِبْنَا خَطَايَانَا وسَتْرُكَ مُسْبِلٌ[1] ... ولَيْسَ لِسترٍ أَنْتَ سَاتِرُه كَشْفُ
إِذَا نَحْنُ لَمْ نَرْفَع إِلَيكَ أَكُفَّنَا ... فَمَن ذَا الذي نَرْجُو ومَنْ ذَا الذِي يَعْفُو

قال بعضهم: وقد دل العقل والنقل وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومِلَلِها ونِحَلها[2] على أن التقرب إلى رب الأرباب بطلب مرضاته والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استُجْلِبَتْ نعم الله واستُدْفِعَتْ نقمه بمثل طاعته والتقرب

(١) مُسْبِل: عميم وواسع. (م).
(٢) نِحَلِها: جمع نِحْلَة وهي: العقيدة والمذهب. (م).

إليه والإحسان إلى خلقه، وقد رتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول السرور في الدنيا والآخرة كتابه العزيز على الأعمال ترتب الجزاء على الشرط والعلة على المعلول والمسبب على السبب، فقال جل من قائل: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [الأنفال/ ٢٩]، وقال: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ﴾ [النساء/ ٣١] الآية وقال: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم/ ٧] وقال: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات/ ١٤٣-١٤٤].

وبالجملة فالقرآن من أوّله إلى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر وأحكام الشريعة على الأسباب بل أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب انتهى. وأن يخفض الداعي صوته لقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف/ ٥٥]، وعن أبي عبد الرحمن الهمداني قال: صليت مع أبي إسحاق الغداة فسمع رجلاً يجهر بالدعاء فقال: لكن زكريا نادي ربه نداء خفيًّا، وينبغي للداعي أن لا يتكلف ويأتي بالكلام المطبوع غير المسجوع لقوله عليه الصلاة والسلام: «إياكم والسجع في الدعاء فحسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل»، وقيل: إن من شروط الدعاء أن يكون سليمًا من اللحن، كما قال بعضهم:

يُنَاجِـــــي رَبَّهُ بِاللَّحْـــنِ لَيْثٌ   لِذَاكَ إذا دَعَـــــاهُ لاَ يُجِيبُ

وقد قال الإمام الشعراني: وأما زبدة علم النحو والبيان فهي كلها ترجع إلى ما يعرف به إصلاح اللفظ من اللحن المؤدّي إلى فساد المعنى عند أهل هذه العلوم، وذلك لا يحتاج إليه أحد ممن يريد اللحوق بأهل الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن أهل الله عَزَّ وَجَلَّ قد عمدوا إلى إصلاح قلوبهم بأكل الحلال وحفظ القلوب والجوارح، فنارت هياكلهم[1] فأدركوا الشرائع ودقائقها بذلك النور الذي جعله الله في قلوبهم، فمن عمل على طريقهم أدرك جميع العلوم المستنبطة من الكتاب والسنة بالنور لا بقواعد أهل النحو والمعاني والبيان، ولم يشتغل ولي منهم قط في علم النحو، ومن قال إنما يتعلم النحو خوفًا من أن يبدل أحد شيئًا من القرآن باللحن، قلنا له القرآن معصوم من التبديل والتغيير إلى يوم القيامة، فهو محفوظ بالعصمة الإلهية لا بعلم النحو والمعاني، فلولا ظلمة الباطن ما احتاج عبد إلى آلات يفهم بها كلام أفصح الخلق ﷺ وفصحاء أمّته من العلماء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين.

وقال بعضهم: اعلم أن مبنى أمر الولي على الاكتفاء بالله والقناعة بعلمه والاعتناء بشهوده، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ**﴾ [الطلاق/ ٣]، وقال تعالى ﴿**أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ**﴾ [الزمر/ ٣٦] وقال: ﴿**أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ**﴾ [العلق/ ١٤] وقال: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت/ ٥٣]

(١) هَيَاكِلَهم: صدورهم وقلوبهم. (م).

فمبنى أمرهم في بداياتهم على الفرار من الخلق، والانفراد بالملك الحق، وإخفاء الأعمال، وكتم الأحوال، تحقيقًا لفنائهم، وتثبيتًا لزهدهم، وعملاً على سلامة قلوبهم، وحبًّا في إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكن اليقين، وأيدوا بالرسوخ والتمكين، وتحققوا بحقيقة الفناء، وردّوا إلى وجود البقاء، فهنالك إن شاء الحق أظهرهم، وإن شاء سترهم، إن شاء أظهرهم هادين لعباده إليه، وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شيء إليه، وظهور الولي ليس بإراداته لنفسه، لكن بإرادة الله له، بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء لا الجلاء فلما لم يكن الظهور مطلبهم وأراد سبحانه إظهارهم فأظهرهم تولاهم في ذلك بتأييده وواردات مزيده، لقوله ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة لا تطلب الإمارة، فإنك أن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها»، ومن تحقق منهم بالعبودية لله لم يطلب ظهورًا ولا خفاء بل إرادته وقف على اختيار سيده.

ولما علم الله عَزَّوَجَلَّ أن كل نبات لا ينبت ويثمر إلا بجعله تحت الأرض تعلوه الأَرْجُل جعلوا أنفسهم أرضًا للخلق ليعطيهم الله تعالى ما أعطى أولياءه الأَمَاجِدْ حتى تواضعوا للعباد، ولذلك قال ابن عطاء الله السكندري في حكمه: ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نَبَتَ مما لم يُدْفَن لم يتم نتاجه، فنفوسهم عندهم حقيرة ذليلة كسيرة لا يشتغلون بما لا يعنيهم ولا يلتفتون لما يلهيهم، قد تخلقوا بكل خلق سني، وتنزهوا عن كل وصف دنّي، فارقوا الأخلاق الطبيعية،

وخرجوا عن الصفات البشرية، وتَخَلَّقُوا بالصفات الروحانية، تخلقوا بأخلاق الله وبأخلاق حبيبه ومصطفاه،لم يكن لهم مع الله اختيار إلا ما اختار، ومن ثم جانبوا من هذه الدنيا الدنية الإقتار والاستكثار والادخار.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أو أخفاه، انتهى. قال بعضهم: معرفة الأولياء بين الناس بلطائف ألسنتهم، وحسن أخلاقهم، وبشاشة وجوههم، وقلة اعتراضهم، وقبول عذر من اعتذر إليهم، وبتمام الشفقة على جميع الخلق بارهم وفاجرهم، وصفتهم أن يكون الفقر كرامتهم، وطاعة الله حلاوتهم، وحب الله لذتهم، ومع الله تجارتهم، وعليه اعتمادهم، وبه يقينهم، وعليه توكلهم، والجوع طعامهم، والزهد ثمارهم، وحسن الخلق لباسهم، وطلاقة الوجه حليتهم، وسخاء النفس حرفتهم، وحسن المعاشرة محبتهم، والعلم فائدتهم، والصبر سائقهم، والهدي مركبهم، والقرآن حديثهم، والذكر نهمتهم، والرضى راحتهم، والقناعة مالهم، والعبادة كسبهم، والشيطان عدوّهم، والحياء قميصهم، والخوف سجنهم، والنهار فطنتهم، والليل فكرتهم، والحكمة سيفهم، والحق حارسهم، والرجاء مرحلتهم، والقبر حصتهم، والفردوس مسكنهم، والنظر إلى رب العالمين منيتهم، قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان/ ٦٣].

وقد سئل العلامة النجم الغيطي عن كون العلماء أولياء لله تعالى العامل منهم وغيره أم لا؟ فأجاب رحمه الله تعالى بقوله: الولاية عامة وخاصة، فالعامة ولاية الإيمان، فمن آمن بالله ورسوله وما جاء به فهو ولي، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة/ ٢٥٧] ثم ولاية القيام بالمأمورات واجتناب المنهيات، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ . ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ . لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾[يونس/ ٦٢-٦٤]. الآية، والولاية الخاصة محبة الله للعبد وحفظه له لقوله ﷺ عن الله عز وجل: «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» الحديث.

وسيأتي فالإيمان بداية الولاية والصديقية القصوى غايتها، وبين الغاية والبداية مراتب ومقامات وأحوال تتفاوت فيها أقدام الرجال، وهي بكل ممدوحة ومطلوبة، لكن المراد حيث أطلقت في كلام القوم وكتبهم الخاصة، فالعلماء العاملون وغيرهم يطلق عليهم أولياء الله تعالى من حيث دخولهم في الولاية العامة، وأما الولاية بمعنى القيام بالمأمورات والولاية الخاصة فلا تطلق إلا على العلماء العاملين، فقد روى البيهقي في مناقب الشافعي رضي الله عنه من طريق الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: إن لم تكن الفقهاء أولياء الله تعالى فما لله ولي، ومراد الشافعي رضي الله عنه بذلك الفقهاء العاملون.

وقال بعضهم في الكلام على الكرامات: اعلم أن الكلام في الكرامات ينحصر في طرفين الأوّل: الجواز والثاني: الوقوع، أما الجواز فلا خفاء أَنَّ ظهور الكرامة من الأولياء من الممكنات؛ لأنه إن لم تكن من الممكنات فإما أن تكون من الواجبات وإما أن تكون من المستحيلات، وباطل أن تكون من المستحيلات فإن المستحيل هو الذي لو قُدِّر وجوده لزم منه محال عقلي، ولا يلزم من تقدير وجود الكرامات محال عقلي، وباطل أن تكون من الواجبات إذ الطائفة مجمعة على أنه قد يكون الولي وليًّا وإن لم تُخْرَق العادة له، فتعين أن تكون من الجائزات، وكل شيء كان من الجائزات فلا يحيله العقل، وكل مالا يحيله العقل ولم يرد بعدم وقوعه نقل فجائز أن يكرم الله به أولياءه.

ثم إن هذه الكرامة قد تكون اطلاعًا على كوائن كانت وكوائن ستكون من غير طريق العادة، أو تكثيرًا لطعام أو شراب، أو إتيانًا بثمرة في غير أوانها، أو انباع ماء من غير حفر، أو تسخيرًا لحيوانات عادية، أو إجابة دعوة بإتيان مطر في غير وقته، أو صبرًا عن الغذاء مدة تخرج عن طور العادة، أو إثمار الشجرة يابسة وهذه كلها كرامات ظاهرة حسية، وهناك كرامات هي عند أهل الله أفضل منها وأجلّ وهي الكرامة المعنوية؛ كالمعرفة بالله، والخشية له، ودوام المراقبة له، والمسارعة لامتثال أمره ونهيه، والرسوخ في اليقين والقوّة والتمكين، ودوام المتابعة، والاستماع من الله والفهم عنه، ودوام الثقة، وصدق التوكل عليه إلى غير ذلك.

وقال بعضهم: اعلم أن اطّلاَع أولياء الله على بعض الغيوب لا يحيله العقل، وقد ورد به النقل، قال أبو بكر في مرض موته وزوجته حامل: إن في بطنك جارية، وكان كما قال رضي الله عنه، وقول عمر رضي الله عنه: يا سارية الجبل، وسارية بأقصى العراق، فسمع سارية صوته، وكان قد أطلعه الله على سارية وقد أحاط به العدو، فأمره بالانحياز إلى الجبل، فانحاز هو والجيش الذين معه فانتصروا وظفروا، وكان قال ذلك وهو في أثناء خطبته على المنبر فترك الخطبة وقال: يا سارية الجبل وعاد لخطبته، فجاء بعض الصحابة إلى علي رضي الله عنه فقالوا له: بينما عمر اليوم يخطب إذ ترك الخطبة وقال يا سارية الجبل، ثم عاد إلى خطبته، فقال عليّ: وَيْحَكم، دعوا عمر فإنه ما دخل في شيء إلا كان له المخرج منه، فبعد ذلك قدم سارية وأخبر عن ذلك اليوم أنه سمع نداء عمر في الوقت الذي نادى عمر، وقول عثمان رضي الله عنه لداخل دخل عليه وكان قد نظر إلى محاسن امرأة في الطريق يدخل أحدهم وآثار الزنى بادية في وجهه.

وأما عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقد جاء عنه في هذا الباب العجب العجاب، حتى إنه ذَكَرَ أهل الإخبار أنه أرجفه[١] بالكوفة أن معاوية قد مات، فقال عليّ رضي الله عنه إذ بلغه: والله ما مات ولن يموت حتى يملك تحت قدميَّ هاتين، فمن يومئذ كاتب أهل الكوفة معاوية وعلموا أن الأمر صائر إليه، وحكايات الأولياء في كل زمن وقطر تتضمن ثبوت ذلك بما بلغ حدَّ التواتر فلا يمكن جحده، ثم أنا أَدُلُّك رحمك الله

(١) أَرْجَفَه: أَرْعَبَه وخَوَّفَه. (م).

على أمر يسهل عليك التصديق بذلك، وهو أن اطلاع العبد المخصوص على غيب من غيوب الله بعد أن يشهد له الرسول ﷺ أنه إنما ينظر بنور ربه لا بوجود نفسه، وكذلك قوله في الحديث: فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به الحديث إلى آخره. ومن كان الحق بصره فليس الاطلاع على الغيب عليه مستغربًا، وفي بعض طرق هذا الحديث فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا وقلبًا وعقلاً ويدًا.

ولله تعالى خمس حضرات وهي: حضرة الذات، وحضرة الصفات، وحضرة الأسماء، وحضرة الأفعال، وحضرة الآثار، فمن أحب ذات الله وحدها فمحبته ذاتية، ومن أحب لطفه ورحمته ونحوهما من صفات كماله فمحبته صفاتية، ومن أحب أسماءه كالحليم والكريم ونحوهما فمحبته أسمائية، ومن أحب إيجاده وإمداده فمحبته أفعالية، ومن أحب بعض الصور التي خلقها فمحبته آثارية ومحب آثاره محب له.

وأُبَيِّن لك أمورًا تسهل عليك الإيمان بكرامات أولياء الله وأن لا تستكثرها عليهم؛ الأوّل أن تعلم أن قدرة الله التي لا تكبر عليها شيء هي التي أظهرت الكرامات في هذا الولي فلا تنظر إلى ضعف العبد ولكن انظر إلى قدرة السيد، فجحد الكرامة في الولي جحد لقدرة القدير وعمى عن شهود عظمة وصفه سبحانه وتعالى. الثاني أنه ربما كان سبب إنكارك الكرامات استكثارها على ذلك العبد الذي أضيفت إليه مع أن تلك الكرامة التي ظهرت على يدي هذا العبد شاهدة بصدق من العبد تابع له وهو النبي ﷺ، فهي بالنسبة لمن ظهرت على يديه كرامة، وبالنسبة إلى من ظهرت

ببركة متابعته معجزة؛ ولذلك قالوا: كل كرامة لولي فهي معجزة لذلك النبي الذي الولي تابع له، فلا تنظر إلى التابع ولكن انظر إلى عظم قدر المتبوع.

الثالث أن تعلم أن الذي أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأوليائه من الإيمان واليقين مما أنت مصدّق به ومثبت له أعظم مما استغربته أو نكرته من الاطلاع على الغيب ونحو ذلك، فمثلك إذا استغربت ذلك على المؤمن كمثل من يستغرب على عبد من خواص الملك أعطاه الملك سفطًا[١] مملوءًا ياقوتًا ثمينًا علمت أنت به، وكل ياقوتة تضمنها ذلك السفط تساوي عشرة آلاف دينار، ثم قال ذلك العبد الذي هو من خواص الملك، أو قيل عنه: إن الملك قد أعطاه مائة دينار، فاستغربت أنت ذلك، فهل يستصوب استغرابك هذا ذو فَهْم ولُبّ، وما أكرم الله العباد في الدنيا كرامة بمثل الإيمان والمعرفة بربوبيته؛ لأن كل خير من خيري الدنيا والآخرة فإنما هو فرع الإيمان بالله من أحوال ومقامات وأوراد وإرادات ونور وعلم وفتح، ونفوذ إلى غيب، وسماع مخاطبة، وجريان كرامة، وما تضمنته الجنة من حور وقصور وأنهار وثمار، ورضى الله ورؤيته، ونحو ذلك إنما هو نتائج الإيمان ووجود آثاره وإمداد نوره، انتهى. وقد نظم بعضهم الأمر الخارق للعادة فقال:

إذا ما رَأَيْت الأمرَ يَخْرِقُ عَادَةً ... فمعجزةٌ إنَّ من نبيٍّ لنـــا صَدَرْ

وإِنْ بَانَ مِنْه قَبْلَ وَصْفِ نُبُوَّةٍ ... فَالإِرْهَاصُ[٢] سِمَةٌ تَتبعُ القَوْلَ في الأَثَرْ

---

(١) سَفْطًا: قُفة أو وعاء مصنوع من أغصان الشجر توضع فيه الفاكهة. (م).

(٢) الإِرْهَاص: التنبؤ والتوقع. (م).

وإنْ جَاءَ يومًا مِنْ وَلِيٍّ فَإِنَّه الكَـ ـرَامَةُ في التحقيق عِنْدَ ذوي النظر
وإنْ كَانَ مِنْ بَعْضِ العَوَام صُدُورُه فكنُّوه حَقًّا بالمَعونَةِ واشْتَهَر
ومِنْ فَاسِقٍ إِنْ كَانَ وِفْقَ مُرَادِهِ يُسَمَّى بالاسْتِدْرَاجِ فِيمَا قَدْ اسْتَقَر
وإلا فَيُدْعَى بِالإِهَانَةِ عِنْدَهُم وقَدْ تَمَّت الأَقْسَامُ عِنْدَ الذي اخْتَبر

وقال بعضهم: اعلم أن من الناس من أدركه الخذلان فأنكر كرامات الأولياء أصلاً، فنعوذ بالله من هذا المذهب، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة/ ٤١]، وقيل: إذا أراد الله أن يضل عبدًا لم ينصره عقل ولم ينفعه وفور علم، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة/ ٢٠٩]. ومن الناس فرقة أخرى صَدَّقُوا بكرامات الأولياء الذين ليسوا في زمنهم وكذبوا بكرامات أولياء زمنهم، فهم كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وما هي إلا إسرائيلية صدقوا بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام وكذبوا بمحمد ﷺ لأنهم أدركوا زمنه، وقال بعضهم:

أَتَقْدَحُ فِيمَنَ شَرَّفَ اللهُ قَدْرَهُ ومَازَالَ مَخْصُوصًا به طِيبُ الثَّنَا
رِجَالٌ لَهُم سِرٌّ مَعَ اللهِ صَادِقٌ وَلاَ أَنْتَ مِنْ ذَاكَ القَبِيلِ وَلاَ أَنَا

وقيل:

احذَرْ احذَرْ أَهْلَ القُلُوبِ وَسَلِّم   إنَّهُم سَــــادَةٌ فُحُــــولٌ رِجَالُ
لا يَكُنْ مِنْــــكَ ذَرَّة بِنَكِيرٍ   فَسُيُوفُ الأَحْوَالِ فِيهَا صِقَالُ

وقيل: الاعتقاد عطية والانتقاد حرمان، كما قيل إن المرء ينتفع حسب اعتقاده ويحرم بسوء رأيه وانتقاده، وقال بعضهم: عليكم بحفظ لسانكم مع أهل الشرع، فإنهم بوّابون لحضرات الأسماء والصفات، وعليكم بحفظ قلوبكم من الإنكار على أحد من الأولياء فإنهم بوابون لحضرة الذات، وإياكم والانتقاد على عقائد الأولياء بما عَلِمْتُمُوه من أقوال المتكلمين، فإن عقائد الأولياء مطلقة متجدّدة في كل آن على حسب الشئون الإلهية. وقال العارف بالله سيدي علي وفاء -قدس الله سره: امتهان العباد المكرمين بعد معرفتهم سُمٌّ ساعة، فإذا خالط القلب مات لوقته، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم/ ٤٧]، ولا شك أن الصوفية -قدّس الله أسرارهم- كاملو الإيمان، فنصرهم مقطوع به لأنهم لا ينتصرون لأنفسهم رضي الله عنهم تسليمًا وتفويضًا لله تعالى، فيغار الحق سبحانه وتعالى لهم، ويكون هو المحارب عنهم، فقد ورد في الحديث القدسي «من آذى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب»، ولا شك في هلاك من حاربه الله تعالى.

وقال بعضهم: من الشهوة الخفية للولي إرادته النصرة على من ظلمه، وقد قال تعالى للمعصوم الأكبر ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ [الأحقاف/ ٣٥] أي فإن الله تعالى قد لا يريد إهلاكهم انتهى. وقال بعضهم: للولي أربعة شروط؛ أحدها: أن يكون عارفًا بأصول الدين حتى يفرق بين الخلق والخالق. الثاني: أن يكون عالمًا بأحكام الشريعة. الثالث: أن يتخلق بالخلق المحمود الذي يدل عليه الشرع أو العقل. الرابع أن يلازم الخوف أبدًا، قال رسول الله ﷺ: «ما اتخذ الله من ولي جاهل ولو اتخذه لعلمه»، قال القشيري رحمه الله: أصول مذهبنا ثلاثة: الاقتداء بالنبي ﷺ في الأقوال والأفعال، والأكل من الحلال، وصدق النية في جميع الأعمال (رجع)، وقال بعضهم في الوصية بالوالدين:

قَضَى الله أَنْ لا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ حَتْمًا وبالبِرِّ والإِحْسَانِ في ذِكْرِهِ أَوْمَا
وأَوْصَاكُمُوا بِالوَالِدَيْنِ فَبالِغُوا ببرِّهِمَا فالأَجْرُ في ذَاكَ والرُّحْمَى
فَكَمْ بَذَلا مِنْ رَأْفَةٍ ولَطَافَةٍ وكَمْ مَنَحا عِنْدَ احتِيَاجِكَ مِنْ نُعْمَى
وأُمُّكَ كَمْ بَاتَتْ بِثِقلِكَ تَشْتَكِي تُوَاصِلُ مما شَفَّها[1] البُؤْسَ والغَمَّا
وَفي الوَضْعِ كَمْ قَاسَتْ وعِنْدَ وِلادةٍ أُمُورًا تُذِيبُ اللَّحْمَ والجِلْدَ والعَظْمَا

(١) شَفَّهَا: لذع قلبها وأذهب عقلها. (م).

وكَمْ سَهِرَتْ وَجْدًا عَلَيْكَ جُفُونُها وأَكْبَادُها حُزْنًا بجَمْرِ الأَسَى تَحْمَى
وكَمْ غَسَلَتْ عَنْكَ الأَذَى بَيمِينِهَا حُنُوًّا وإِشْفَاقًا وأَكْثَرَتِ الضَّمَّا
وأَنْتَ قَرِيرُ العَيْنِ رَيّانُ نَاعِمٌ مُكِبٌّ على اللَّذَاتِ لا تَسْمَعُ اللَّوْمَا
فَبِالوَالِدَيْن البِرُّ أَوْجَبُ وَاجِبٍ وَيَا وَيْحَ مَنْ يَعْصِي أَبَاه أو الأُمَّا

وقد روي عنه ﷺ: «اثنان يُعَجِّلُ الله تعالى عقوبتهما في الدنيا لفاعلهما البغي: أي مجاوزة الحد يعني التعدي بغير حق، وعقوق الوالدين: أي إيذاؤهما وعصيانهما». وقال بعضهم: خمسة أشياء من داوم عليها تزيد في حسناته مثل الجبال الرواسي، ويوسع الله عليه رزقه، من داوم على الصدقة قليلها وكثيرها، ومن وصل رحمه، ومن داوم على الجهاد في سبيل الله، ومن داوم على الوضوء ولم يسرف في الماء، ومن أطاع والديه وداوم على طاعتهما. وقال ﷺ: «من زار قبر والديه أو أحدهما يوم الجمعة فقرأ عنده يس غفر الله له»، وفي الإحياء قال ﷺ: «من زار أبويه كل جمعة غفر له وكتب بارًّا».

وقال بعضهم: إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله ﷻ من البارين، ثم إن الشخص إذا زار الموتى أو زار أبويه يخاطبهم خطاب الحاضرين فيقول -كما في خبر أبي داود- السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وكَنَّى بالدار عن أهلها، وعن أبي شيبة عن الحسن أنه قال: من دخل المقابر فقال: اللهم رب هذه الأجساد البالية

والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا وهي مؤمنة بك أدخل عليها روحًا من عندك وسلامًا مني أستغفر له كل من مات منذ خلق الله آدم (والروح بفتح الراء).

وعن أبي الأسود الدئلي قال: قدمت المدينة وقد وقع بها مرض فجلست إلى عمر بن الخطاب، فمرَّت به جنازة فأثنى على صاحبها خيرًا، فقال عمر: وجبت، ثم مرّت أخرى فأثنى على صاحبها شرًّا فقال: وجبت. قال أبو الأسود: وما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال عليه الصلاة والسلام: «أيما مسلم يشهد له أربعة بخير إلا أدخله الله الجنة، قلنا وثلاثة؟ قال وثلاثة، قلنا واثنان؟ قال واثنان، ثم لم نسأله عن الواحد» أخرجه البخاري والنسائي، وفي خبر آخر فقال عمر: يا رسول الله ما وجبت؟ فقال عليه الصلاة والسلام «أنتم شهداء الله في الأرض فمن أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرًّا وجبت له النار».

وروي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ يرويه عن ربه عز وجل «ما من عبد مسلم يشهد له ثلاثة أو اثنان بخير إلا قال الله عز وجل: قد قبلت شهادة عبادي على ما علموا وغفرت له ما أعلم» رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده. وعن ابن عباس أنه مات ابن له بقديد أو عسفان فقال لبعض أصحابه: انظر ما اجتمع له من الناس؟ قال فخرجت فإذا أناس قد اجتمعوا فأخبرته، فقال: هم أربعون؟ قلت: نعم، قال: أخرجوه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم الله فيه» رواه مسلم.

وعنه ﷺ يقول الله تعالى: «عجبت لمن أيقن بالموت كيف يجمع، وعجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك، وعجبت لمن أيقن بالآخرة كيف يستريح، وعجبت لمن أيقن بالدنيا وزوالها كيف يطمئن إليها، وعجبت لمن هو عالم باللسان جاهل بالقلب، وعجبت لمن يطهر بالماء وهو غير طاهر القلب، وعجبت لمن يشتغل بالناس وهو غافل عن عيب نفسه، وعجبت لمن يعلم أن الله مُطَّلِع عليه كيف يعصيه، وعجبت لمن يعلم أنه يموت وحده ويدخل القبر وحده ويحاسب كيف يستأنس بالناس، قال القرطبي في تذكرته: من أكثر ذكر الموت أُكْرِم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة النفس، والنشاط في العبادة، ومن نسي ذكره عوقِب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة، والكفاف الحالة الوسطى ما بين الغنى والفقر.

قيل: وجدت رقعة تحت وسادة الإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله فيها هذه الأبيات:

قُلْ لإِخْـــوَانٍ رَأَوْنِي مَيِّتًا فبَكُـــــوْنِي ورَثُونِـــي حَزَنَا
لا تَظُنُّونِي بـــأَنِّي مَيْتُكُم لَيْـــسَ ذَاكَ المَيْتُ واللهِ أَنَا
أَنَا في الصـــورِ وهَذَا جَسَدِي كَانَ بَيْتِي وقَمِيصِـــــي زَمَنًا
أَنَا كَنْزٌ وحِجَـــابِي طِلَسْم[١] مِنْ تُرابٍ قَدْ تَخَـــــلَّى لِلْفَنَا

(١) طِلْسم: لُغْز أو شيء غامض أو مبهم. (م).

أَنَا عُصْفُورٌ وهَذَا قَفَصِي طِرْتُ عَنْه فتَخَلَّى رَهنَا
أَحْمَدُ اللهَ الذِي خَلَّصَنِي وبَنَى لي في المَعَــالِي سَكَنَا
كُنْتُ قَبْلَ اليَوْمِ مَيْتًا بيْنَكُم فحَـــيِيتُ وخَلَعْتُ الكَفَنَا
وأَنَا اليَــــوْم أُنَاجِي مَلأً وأَرَى اللهَ جِهَـــارًا عَلَنَا
عَاكِفًا في اللَّوْحِ أَقْرَا وأَرَى كُلَّ مَا كان ويـــأْتِي وَدَنَا
وطَعَامِي وشَرَابِي وَاحِدٌ هو رَمْزٌ فافْهَمُـــوه حَسَنَا
لَيْسَ خَمْرًا سَائِغًا أو عَسَلاً لا ولا مَاءً يُــــرَى أو لَبَنَا
فَافهَمُوا السِّرَّ فَفِيــه نَبَأٌ أَيُّ مَعْنًى تَحْتَ لَفْظِي كَمُنَا
لا تَظُنُّوا المَوْتَ مَوْتًا إِنَّه لَحَياةٌ هو غَايَــــاتُ المُنى
حَيٌّ هذا الـــدَّارِ مَيْتٌ نَائِمُ فَإِذَا مَاتَ أَمَاطَ الوَسَـــنَا[1]
لا تَزَعْكُم هَجْمَةُ المَوْتِ فَمَا هُوَ إلاَّ مِنْ هُنَـــا إِلَى هُنَـــا
أجهدوا في الزَّادِ والسَّيْرِ فما لَيْسَ بِالعَـــاقِلِ مِنَّا مَنْ وَنَى
أَحْسِنُوا الظَّنَّ بِرَبٍّ رَاحِمٍ يَشْكُرُ السَّـــعْيَ ويُولِي مِنَنا

(١) الوَسَن: النعاس. (م).

والغزالي هو الإمام محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الجليل أبو حامد الغزالي حجة الإسلام ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام، ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة، وكانت وفاته بها يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة، وقد أطال السبكي في طبقاته بما يليق بمقامه الكريم وذكر كرامات له لا ينكرها إلا حاسد أو زنديق لئيم، ومما أنشده أبو حفص عمر بن عبد العزيز لنفسه يمدح الغزالي:

هذَّبَ المَذْهَبَ حَبْرٌ أَحْسَنَ اللهُ خَلاصَه
بِبَسِيطٍ وَوَسِيطٍ ووَجِيزٍ وخُلاصَةْ

ونقل المناوي في طبقات الأولياء أن كتب الإمام الغزالي التي صنفها وزعت على عمره فخص كل يوم أربعة كراريس، ومن كلامه رضي الله عنه: جلاء القلوب وإبصارها يحصل بالذكر، ولا يتمكن منه إلا الذين اتقوا، فالتقوى باب الذكر، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الكبير. وقال: مهما رأيت إنسانًا سيئ الظن بالناس طالبًا للعيوب، فاعلم أنه خبيث في الباطن، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق. وقال: من الذنوب ما يورث سوء الخاتمة، وهو ادّعاء الرجل الولاية مع فقدها منه.

وعن الشاذلي رضي الله عنه: من كانت له إلى الله حاجة فليتوسل إليه بالغزالي. ونقل في المصباح عن سبط الإمام الغزالي أنه أخبره أن الإمام المذكور منسوب

إلى غزالة قرية من قرى طوس، قال لي: أخطأ الناس في تثقيل اسم جدّنا وإنما هو مخفف نسبة لما ذكر، ومن بر الوالدين بعد موتهما أن يأتي بما يسرهما من الطاعات لله تعالى وغيرها مما ليس بمنهي عنه، ومنه الإحسان إلى صديقهما، قال ﷺ: «إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ودّ أبيه»، قال الشاعر:

خَالِلْ خَلِيلَ أَبِيكَ وارْعِ وِدَادَهُ   واعْلَمْ بأَنَّ أَخَا أَبِيكَ أخُوكَا
وبَنُوكَ ثُمَّ بَنُو أَبِيكَ فكُنْ بِهِمْ   بَرًّا فَإِنَّ بَنِي أَبِيكَ بَنُوكَـــا
والطُفْ بِجَدِّك عَطْفَةً وتَرَحُّمَا   وارْحَمْ فإِنَّ أَبَا أَبِيـــكَ أبُوكَـــا

وللوالد حقوق على ولده زيادة على ما ذكر الأوّل إذا احتاج إلى الطعام أطعمه. الثاني إذا احتاج إلى الكسوة كساه إن قدر عليها. الثالث إذا احتاج إلى الخدمة خدمه. الرابع إذا دعاه أجابه وحضره. الخامس إذا أمره بأمر غير معصية أطاعه. السادس أن يتكلم معه باللين وخفض الصوت ولا يتكلم معه بالغلظ. السابع والثامن أن لا يدعوه باسمه فيقول: يا فلان بل يا أبت أو يا والدي، ولا يستسب له، ولا يمشي أمامه، ولا يجلس قبله، ويدعو له بالمغفرة كما يدعو لنفسه، ويرضى له ما يرضى لنفسه، وروى أبو هريرة عنه ﷺ «لا تمشين أمام أبيك ولا تجلس قبله ولا تدعه باسمه ولا تستسب له (أي لا تعرضه للسب وتجرّه إليه بأن تسب أبا غيرك فيسب أباك مجازاة لك). وقد جاء مفسرًا في الحديث الآخر أن من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه، قيل: وكيف يسب والديه؟ قال: يسب الرجل فيسب أباه وأمّه.

ومن حقوق الوالدة على الولد أن لا يدخل عليها إلا بإذن، فقد روى الإمام مالك في المُوَطَّأ أن رسول الله ﷺ سأله رجل فقال: يا رسول أستأذن على أمي؟ فقال: نعم، قال الرجل: إني معها في البيت، قال رسول الله ﷺ: استأذن عليها، فقال الرجل: إني خادمها، فقال ﷺ: استأذن عليها، أَتُحِبُّ أن تراها عريانة؟ قال لا، قال: فاستأذن عليها، والاستئذان ثلاث مرات، فقد روى الإمام مالك عن بكير بن عبد الله بن الأشج عن أبي سعيد الخدري عن أبي موسى الأشعري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الاستئذان ثلاث مرات فإن أذن لك فادخل وإلا فارجع».

وأما الحقوق التي للعباد بعضهم مع بعض فهي أن يسلم عليه إذا لقيه، ويجيبه إذا دعاه، ويعوده إذا مرض، ويشهد جنازته إذا مات، ويبر قسمه إذا أقسم عليه، وينصحه إذا استنصحه، ويحفظه بظهر الغيب إذا غاب، ويحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه. وقال ﷺ: «عائد المريض يمشي في مخرفة الجنة حتى يرجع» رواه مسلم. والمخرفة البستان وسكة بين صفين من نخل يخترق المخترق من أيهما شاء، وقال ﷺ: «عائد المريض يخوض في الرحمة، ومن تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على وجهه أو على يده فيسأله كيف هو وتمام تحيتكم بينكم المصافحة» رواه أحمد عن أبي أمامة، وقال ﷺ: «عودوا المرضى ومروهم فليدعوا لكم فإن دعوة المريض مستجابة وذنبه مغفور».

وقيل: في المرض ست خصال ما ينبغي للعبد أن يجحدها؛ فمنها: تنقية الجسم، وتمحيص الذنوب، وتذكير بالنعم في حال الصحة، واستدعاء بالتوبة، وحث على الصدقة، وقال بعضهم: الذل في ثمانية أشياء؛ في العليل والمحزون والكذب والغربة والمديون والفقير بين الأغنياء والجاهل بين العلماء ومن ترادفت عليه المصيبات.

ويجوز للوالد استخدام ولده الصغير وضربه فيما فيه تدريب له وتأديب وتعليمه في صغره ما يلزم لإصلاح حاله، وقال بعضهم عند قوله ﷺ فغطني[1] الثالثة في حديث بدء الوحي: إنه لا يجوز للمعلم الزيادة على ثلاث ضربات، ونهى ﷺ أن يضرب المعلم الصبيان بالعود وباليد فوق ثلاث، وما زاد على ذلك فهو قصاص يوم القيامة ولا يضرب بالدرة إلا ثلاثًا وقيل:

إِنَّ حَقَّ التَّأْدِيبِ حَقُّ الأُبُوَّة   عِنْدَ أَهْلِ الحِجَا وأَهْلِ الفُتُوَّة
وأَحَقُّ الرِّجَالِ أَنْ يَحْفَظُوا ذَا   كَ وَيَرْعَوْهُ أَهْلُ بَيْتِ النُّبوَّة

وقيل:

بُنَيَّ استَقِمْ فالعُودُ تَنْمُو عُرُوقُهُ   قَوِيًا ويَعْرُوه إِذَا مَا التَوَى النوى
وعَاصِ الهَوَى المُرْدِي[2] فَكَم مِنْ مُحَلِّقٍ   إلى النَّجْمِ إلا إن أَطَاعَ الهَوَى هَوَى

---

(١) فَغَطَّنِي: عَصَرني عَصْرًا شديدًا. (م).
(٢) المُرْدِي: المهلك. (م).

المحلق بكسر اللام المشدّدة العالي الرفيع الذي وصل إلى ما لم يصله غيره، وقد ورد عنه ﷺ: «التعلم في الصغر كالنقش في الحجر، والتعلم في الكبر كالنقش على الماء»، وقيل:

تَعَلَّمْ يا فَتىَ والعُودُ رَطْبٌ وجِسْمُكَ لَيِّنٌ والطَّبْعُ قَابِلْ
فحَسْبُكَ يَا فَتَى شَرَفًا وفَضْلاً سُكُوتُ الحَاضِرِينَ وأَنْتَ قَائِلْ

ومن الأخلاق المذمومة في الشيوخ والصبيان عدم الحياء، فربما تقوى قلة الحياء في الطفل إذا لم يجد من يردعه عن ذلك لتزول عنه هذه الصفة إن كانت طارئة عليه، وتضعف إن كانت عنصرية، فقد ورد عنه ﷺ «إن شر الناس عند الله من خافه الناس اتِّقاء فُحْشِه».

وروى البخاري عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى إذا لم تَسْتَحِ فاصنع ما شئت»، والأمر فيه للتهديد والتوبيخ، فإذا ارتفع الحياء صنعت النفس ما تهوى، ومعنى الحياء شرعًا خلق يبعث الإنسان على ترك القبيح ويمنعه من التقصير في حقه تعالى، قال العلماء رحمهم الله: إن قوله مما أدرك الناس من كلام أي شرائع النبوّة الأولى يعني ما اتفقت عليه الأنبياء؛ لأنه جاء في شريعة آدم واتفقت عليه بقية الشرائع، فما من نبي من الأنبياء إلا وندب إليه وحث عليه، ولم يُنْسَخْ في شريعة من الشرائع؛ لأنه أمر قد علم صوابه وظهر فضله واتفقت عليه العقول وتَلَقَّتْه جميع الأمم بالقبول.

ويدخل في جملة الحياء من الله ثم من الناس ستر العورة، فقد روى البيهقي عن أنس أنه قال: خرج رسول الله ﷺ يومًا إلى غنم له وفيها أجير له يرعاها، وإذا بالأجير متجرد من ثيابه في الغنم، فدعاه رسول الله ﷺ وقال له: كم لك عندنا من الأجرة؟ فقال: يا رسول الله، لم أحسن الرعاية والولاية، قال: لا أحب أن يكون فيها من لا يستحي من الله، ودخل محمد بن عبد الرحمن الحمام فرأى بعض إخوانه عريانًا فغمض عينيه، فقال له العريان: مذ كم عميت؟ فقال له: منذ هتك الله سترك، وقال ﷺ: «إن الله يستحي من عبد يشيب في الإسلام أن يعذبه، أفلا يستحي الشيخ من الله تعالى أن يذنب وقد شاب في الإسلام؟ وقال ﷺ: «إن الله يبغض الفاحش المتفحش، وقيل:

فَلاَ تَفْخر على أحدٍ بظُلْمٍ ... فَإِنَّ الظُّلْـــمَ مَرْتَعهُ وَخِيمُ
ولا تُفْحِشْ وإِنْ مُلِئتَ غَيْظًا ... عَلَى أَحَدٍ فَإِنَّ الفُحْشَ لُوْمُ
ولا تَقْطَعْ أَخًا لك عِنْدَ ذَنْبٍ ... فَإِنَّ الذَّنْبَ يَغْفِرُهُ الكَرِيمُ
وَمَا جَزَعٌ بِمُغْنٍ عَنْكَ شَيْئًا ... وَلاَ مَا فَاتَ تُرْجِعهُ الهُمُومُ

وورد عنه ﷺ «إن الله إذا أحب عبدًا (أي أراد به خيرًا ووفقه) دعا جبريل وقال: إني أحب فلانًا فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء ويقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، (وإذا بغض عبدًا) أي أراد به شرًّا أبعده عن الهداية (دعا جبريل فقال: إني

أبغض فلانًا فابغضه فيبغضه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء ويقول: إن الله يبغض فلانًا فابغضوه فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض)، فيبغضه أهلها جميعًا فينظرون إليه بعين الازدراء فتسقط مهابته من النفوس وإعزازه من الصدور من غير إيذاء منه لهم ولا جناية عليهم، فالعزيز من أعزه الله والذليل من أذله الله، قال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

إِذَا أَكْرَمَ الرَّحْمَنُ عَبْدًا بِعِزِّهِ   فَلَم يَقْدِر المَخْلُوقُ يَومًا يُهِينُهُ
وَمَنْ كَان مَوْلاهُ العَزِيزُ أَهَانَهُ   فَلاَ أَحَدٌ بِالعِزِّ يَوْمًا يُعِينُهُ

روى الترمذي عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: كنت خلف النبي ﷺ فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك (وفي رواية أمامك أي معك)، وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجَفَّت الصحف». قال العلماء رحمهم الله: قوله في الحديث احفظ الله أي احفظ دين الله من التضييع والتبديل بأن تحفظ أوامره التي أوجبها ونواهيه التي حرمها، فتقف عند أوامره بالامتثال وعند نواهيه بالاجتناب، فلا يراك حيث نهاك، فإذا أطعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه أحاطك بمعقبات من بين يديك ومن خلفك يحفظونك من أمر الله.

وحقيقة صيانة المحفوظ من الضياع أن لا تصل إليه أذية وضرر، فيحفظك في نفسك وأهلك ومالك، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل / ٩٧] وما يصيب الإنسان من نواكب ونوائب فإنما هو بتضييعه أوامر الله وتعديه حدوده بشهادة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى / ٣٠]، فمن حفظ الله في صباه وقوّته حفظه الله في كبره ومنعه بحوله وقوّته، وقد قيل إن القاضي أبا الطيب عاش مائة وستين سنة فلم يختل عضو من أعضائه، فسئل في ذلك فقال: لم أعصِ الله بعضو منها.

ويتعدّى الحفظ إلى ذريته، كما في قوله تعالى ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف / ٨٢]، وكان سعيد بن المُسَيِّب يقول لولده إني لأزيد في صلاتي من أجلك رجاء أن تحفظ، ثم يتلو: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾، وكان عمر بن عبد العزيز يقول: ما من مؤمن صالح يموت إلا حفظ الله عقبه وعقب عقبه. وقد يتعدّى الحفظ إلى جيرانه وأهل ناحيته، لقول ابن المبارك: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده، وولد ولده، والدويرات التي حوله، انتهى.

ورواية غير الترمذي (تعرّف إلى الله)، أي تقرب إلى الله بلزوم الطاعات والإنفاق في القُرُبات والشكر على ما أَوْلاك (في الرخاء)، أي في سعة الرزق وصحة البدن (يعرفك في الشدة)، بتفريج الهموم والغموم ويجعل لك من كل هَمٍّ فرجًا ومن كل ضيق

مخرجًا، (واعلم أن ما أخطأك) مما قدّر في الأزل من خير أو شر (لم يكن ليصيبك)، أي يصل إليك، (وما أصابك) مما قدّر في الأزل من خير أو شر (لم يكن ليخطئك) إذ لا يصيب الإنسان إلا ما قدّر عليه، وهذا حث من النبي ﷺ على التوكل على الله تعالى والرضى بما قدّره، ونفي الحول والقوة؛ إذ لا حول ولا قوة إلا بالله.

وورد عنه ﷺ «إن الله إذا أراد بعبده الشر (وفي رواية شرًّا) أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة، أي لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة متوفر الذنوب وافيها، فيستوفي ما يستحقه من العذاب، وهذا الحديث له تَتِمَّة وهي «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط»، وقال ﷺ: «إن الله جعل عذاب هذه الأمة في دنياها»، وقال بعضهم: وقد جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لقبضة السعادة أهلاً ولقبضة الشقاوة أهلاً، فإذا تحرَّك صاحب قبضة السعادة جاءته العناية الأزلية وسارت به على فلك التقريب إلى ما فيه سعادته الأُخروية، وإذا تحرك صاحب قبضة الشقاوة جاءته الوساوس الشيطانية وقطعته عن إدراك الرتبة العلية، كل ذلك بمحض التقدير والإرادة الكائنين في اللوح المحفوظ عن النقص والزيادة، فالطاعة به والعصيان، ولكنه لا يرضى بالمعصية لإنسان.

إِذَا قَدَّرَ اللهُ الأُمُورَ عَلَى امْرِئٍ جَرَى ذَلِكَ المَقْدُورُ حَتْمًا عَلَى العَبْدِ
فَكَمْ نَصَحَ المُخْتَارُ حَقًّا لِعَمِّهِ فَجَاءَ له القُرْآن إِنَّكَ لاَ تَهْدِي

وعن بعضهم: ما أُوتِي أحد بعد الإيمان أفضل من الصبر على الأذى. وعن عيسى صلوات الله وسلامه عليه: من احتمل كلمة سفه كتب له عشر حسنات، وقيل:

إِذَا ما هَجَانِي نَاقِصٌ لا أُجِيبُهُ   فَإِني إِنْ جَاوَبْتـــــه فَلِيَ الذَّنْبُ

وقيل:

وَجَدْتُ الرِّفْقَ أَبْلَغَ في السُّمُوِّ   ولم أَرَ كالتَّواضُــــع في العُلُوِّ

ومَنْ بَسَطَ اللِّسَانَ عَلَى عَدُوٍّ   كَمَنْ دَفَعَ السِّلاحَ إلى العَدُوِّ

وروى أبو هريرة ﵁ أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: يا رسول الله المفلس فينا من لا درهم له، قال رسول الله ﷺ: المفلس من أُمَتيِّ من يأتي يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته، وكان قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، وقال تعالى ﴿**وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ**﴾ [الأنفال/ ٤٦] وقيل: المخاصمة تكدّر العيش وتعقب الندم وتُمِرضُ القلب وتُذْهِب الحياء وتجسر عليك من كان يهابك، وقيل: جرح اللسان لا يبرأ، وجمرة الحَمِيَّة لا تُطْفَأ، ونار الحقد لا تخمد، وعين العداوة لا ترقد، فلا تُوغِر عليك صدرًا، ولا تفعل ما يجلب إليك شرًّا فإن قبيح الكلام سلاح اللئام، وقيل:

لا تَنْبــش الشَّــرَّ فَتُبْلَى بِهِ   واحْذَرْ على نَفْسِــــكَ من نَبْشِهِ
مَوَاقعُ البَغْـــــــي لَهَا مَصْرَعُ   تنْكِسُ السُّـــــلْطَانَ عَنْ عَرْشِهِ

وسبّ رجل رجلاً فلم يلتفت إليه فقال: يا هذا إياك أعني، فقال: وعنك أعرض. وروي عنه ﷺ أنه قال: «مكارم الأخلاق من أعمال الجنة»، وقال ﷺ: «سب المؤمن فسوق، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا وأشار بيده إلى صدره، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وعرضه وماله» رواه مسلم. ونهى ﷺ أن يستهزئ الرجل الغني بالفقير، وقال: تستهزئ به ملائكة الله يوم القيامة، وقيل:

أُحِبُّ مَكَـــارِمَ الأَخْلاَقِ جَهْدِي   وأَكْرَهُ أَنْ أَعِيبَ وأنْ أُعَابَـــا
وأَصْفَحُ عَنْ سِبَابِ النَّاسِ حِلْمًا   وشرُّ النـــــاسِ مَنْ يَهْوَى السّبَابَا

وقيل:

خَاصَمَنِي مَنْ سَــــكَتُّ عَنْه   فظَـــنَّ أَنْ لَيْسَ لِي لِسَــــانُ
فَقُــلْتُ مَا أَنْتَ لِي بِخَصْـــمٍ   وإِنَّمَـــا خَصْــــمِي الزَّمَانُ

وقيل:

إِنَّ الضَّرُورَةَ للإِنْسَــــانِ حَامِلَةٌ   على خِــــلاَفِ الذي يَهْوَى ويَخْتَارُ

ومن أمثال العرب: من غربل الناس نخلوه، ومعناه من فَتَّشَ على أحوالهم وأمورهم جعلوه نخالة(١)، وقيل:

لاتَهْتِكَن من مَسَاوِي النَّاسِ ماسَتَرُوا   فيَهْتِكَ اللهُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكَا
واذْكُرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِم إذا ذُكِرُوا   ولا تَعِبْ أَحَــــدًا مِنْهُم بما فِيــكا

وقيل:

قَبِيحٌ عَلَى الإِنْسَانِ يَنْسَى عُيُوبَهُ   ويَذْكُرُ عَيْبًا فِي أَخِيه قَدْ اخْتَفَى
فَلَو كَانَ ذَا عَقْلٍ لَمَا عَابَ غَيْرَهُ   وفِيهِ عُيُوبٌ لَوْ رَآهَا بِهَا اكْتَفَى

وروي عنه ﷺ «الحياء خير كله»، وروي عنه أيضًا «الحياء حسن ولكنه من النساء أحسن»، وقال بعضهم: من الأدب ترك الأدب عند من لا يحتشمك ولا يحترمك، قيل لبعضهم: من أدَّبك؟ فقال: لم يؤدِّبني أحد، وإنما رأيت جهل الجاهل فتجنبته، ورأيت أدب العاقل فأحببته وسلكته. ويقال: شخص بلا أدب

(١) نُخَالَة: ما بقي من الشيء بعد تصفيته. (م).

كلفظ بلا معنى وجسد بلا روح، وقيل: من لا أدب له لا علم له، وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من نفسي، قيل له: فكيف ذلك؟ قال: كنت إذا كرهت شيئًا من غيري لا أفعله بأحد مثلي.

قيل: إن الحلم أفضل خصال الملوك ولم ير على الإطلاق أحلم من رسول الله ﷺ، روي أنه لما انكسرت رباعيته[١] في غزوة أُحد وأدمي وجهه قال: «كيف تفلح أمّة خَضَّبَتْ وجه نبيها، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، فشق ذلك على أصحابه فقالوا: لو دعوت عليهم؟ فقال: إني لم أبعث لَعَّانًا ولكن بعثت داعيًا ورحمة»، فهو نبي ما أَحْلَمَه، وشفيع ما أعظمه، وشفوق ما أشفقه، وكريم ما أرفقه ﷺ وزاده شرفًا وكرمًا لديه. وقال ﷺ: «أتاني آتٍ من عند ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمّتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئًا». وقال ﷺ: «أدّبني ربي فأحسن تأديبي»، وعنه ﷺ «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وقيل لابن عباس -رضي الله عنهما- مَنْ أجود الناس، ومن أحلمهم، ومن أبخلهم، ومن أسرفهم؟ فقال: أجود الناس من أعطى من غير طلب، وأحلمهم من عفا عمن ظلم، وأبخلهم من بخل بالصلاة والسلام على النبي ﷺ، وأسرفهم من يسرف في صلاته.

(١) رُبَاعِيَّتُه: سن بين الثنية والناب. (م).

وأوصى حكيم ولده فقال: يا بني إن أصعب ما على الإنسان أن يكون فيه ستة أشياء؛ أوّلها أن يعرف نفسه، ويعلم عيبه، ويكتم سره، ويهجر هواه، ويخالف شهوته، وأن يمسك عما لا يعنيه، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أوصني، فقال: «يا أبا هريرة أوصيك بست كلمات فيهن ستمائة كلمة، إذا اشتغل الناس بالفضائل اشتغل أنت بالفرائض، وإذا اشتغل الناس بالخَلْقِ اشتغل أنت بالخالق، وإذا اشتغل الناس بالعلم اشتغل أنت بالعمل، وإذا اشتغل الناس بالظاهر اشتغل أنت بالباطن، وإذا اشتغل الناس بعمارة الدنيا اشتغل أنت بعمارة الآخرة، وإذا اشتغل الناس بالعيوب اشتغل أنت بعيب نفسك» وقال ﷺ: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة» رواه الترمذي عن أبي الدرداء، وقيل:

لاَ تَلُمِ المَرْءَ عَلَى فِعْلِهِ وأَنْتَ مَنْسُوبٌ إِلَى مِثْلِهِ
مَنْ ذَمَّ شَيْئًا وَأَتَى مِثْلَهُ فَإِنَّما يُزْرِي[1] عَلَى عَقْلِهِ

قال ابن المعتز: النصح بين الملأ تقريع[2]، كما قيل:

تَعَمَّدْني بِنُصْحِكَ في انْفِرَادِي وجَنِّبْنِي النَّصِيحَةَ في الجَمَاعَةِ
فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ ضَرْبٌ مِنَ التَّقْرِيعِ لاَ أَهْوَى سَمَاعَه
فَإِنْ خَالَفْتَني طَلَبًا لِنَقْصِي فَلاَ تَغْضَبْ إِذَا لَمْ أعط طَاعَة

(١) يُزْرِي: يعيب. (م).
(٢) تَقْرِيع: تأنيب وتعنيف. (م).

وأوصى حكيم ولده فقال: يا بني تَزَوَّد من الدنيا خمسة أشياء تبلغك للبعث وتونسك عند الوحدة؛ كَفُّ الأذى، وحسن الخلق، والصدق، والنصح، والبر، وورد عنه ﷺ قال: «إن الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». وروي عنه ﷺ «إنكم لن تَسَعُوا الناس بأموالكم» أي لا يمكنكم ذلك «ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق» أي لا تسع أموالكم لعطائهم فوسعوا أخلاقكم لصحبتهم.

وكان النبي ﷺ يكرم أهل الفضل ويتألف أهل الشرف ويكرم كريم كل قوم ويُوَلِّيه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد بِشْرَه[١] وخلقه ويتفقد أصحابه ولا يقول إلا حقًّا، وعنه ﷺ «أكرموا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر»، وقال الإمام الشافعي: لا علم إلا مع التقى ولا أدب إلا مع العقل، وقال بعض العلماء: العقول أربعة: عقل الإيمان بالاستقامة، وعقل العلم بالاجتهاد، وعقل الأدب بصحبة الصالحين، وعقل العيش بالتدبير. وقال بعضهم: ثمانية إن أهينوا فلا يلومون إلا أنفسهم؛ الجالس على مائدة لم يدع إليها، والمتكبر على رب البيت، وطالب الخير من أعدائه، وطالب الودّ من اللئام، والداخل بين اثنين في حديثهما، والمستخف بالسلطان، والجالس مجلسًا ليس له أهلاً، والمقبل بحديثه على من لم يسمع منه، وقيل:

(١) بِشْرِه: طلاقته. (م).

بِكُلٍّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ نَــــرَ نِعْمَةً أَعَزَّ مِنَ النَّفْــــسِ العَزِيزةِ والعَقْلِ

ونهى ﷺ أن يدخل أحد إلى طعام لم يُدْعَ إليه، وقد ورد في الحديث أنه ﷺ قال: «من دخل إلى طعام لم يدع إليه دخل سارقًا وخرج مُغَيِّرًا»، وروي عن عمر بن الخطاب ؓ: لا تصغر هِمَّتَك فإني لم أر أَضَرَّ بالرجل من صغر همته، وقيل: على قدر المرء تكون همته، وقيمة كل امرئ همته.

وكما فضل الله العالمين بعضهم على بعض في الرزق وكثرة المال، كذلك فَرَّق بين العالمين في العقول ومنحهم منه ما شاء من كثير وقليل، فعقول الأنبياء والملائكة أكثر من عقول العلماء، وعقول العلماء أكثر من عقول العوام، وعقول العوام أكثر من عقول النساء، وعقول النساء أكثر من عقول الصبيان. وقيل: العاقل مَنْ نَفْسُه في تعبٍ، والناس منه في راحة، والجاهل عكس ذلك. وقال الحارث بن أسد المحاسبي: لكل شيء جوهر وجوهر الإنسان العقل وجوهر العقل الصبر، ومن كلامهم: الصبر لا يتجرعه إلا حر، وقيل:

سَأَصْبِرُ حتىَّ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّنِي صَبَرْتُ عَلَى شَيءٍ أَمَرَّ من الصَّبْرِ
وما أَحْسَنَ الصَّبْرَ الجَمِيلَ مَعَ التُّقَى وَمَا قَدَّرَ المَوْلَى عَلَى خَلْقِهِ يَجْرِي
ولَوْ أَنَّ ما بِي بِالجِبَالِ لَهُدِّمَتْ وبِالنَّارِ أَطْفَاهَا وبالرِّيحِ لم يَسْرِ
ومَنْ قَالَ إِنَّ الدَّهْرَ فِيهِ حَلاوَةٌ فَلاَ بُدَّ مِنْ يَوْمٍ أَمَرّ مِنَ المُرِّ

وقال بعض الملوك لوزيره: ما خير ما يُرْزَقه العبد؟ قال: عقل يعيش به، قال: فإن عدمه؟ قال: أدب يتحلى به، قال: فإن عدمه؟ قال: مال يستره، قال: فإن عدمه؟ قال: موت يريح منه العباد والبلاد. وقيل: ليس الفتى من يفتخر بقومه وأهله، وإنما الفتى من يفتخر قومه بفضله، فالدرّ لا تضره كثافة الصدف وملوحة البحر، والشوك لا ينفعه شرب ماء المُزْن ولا مجاورة لطيف الزهر، فالعاقل لا يفتخر بالنسب وإنما يفتخر بنسب الأدب، فإنما المرء ابن نفسه إذ بها يعلو ويسفل بين أبناء جنسه، كما قيل:

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامًا وعَلَّمَتْهُ الكَرَّ والإِقْدَامَا
وصَيَّرَتْهُ مَلِكًا هُمَامًا

وقيل:

رَأَيْتُ العِزَّ في أَدَبٍ وَعِلْمٍ وفي الجَهْلِ المَذَلَّةُ والهَوَانُ
كَفَى بالمَرْءِ ذَمًّا أَنْ تَرَاهُ له وَجْهٌ ولَيْسَ له لِسَانُ

قال المقريزي في رسالة له: إن لكل شيء غاية، فغاية المعدن أن يصير ذهبًا، وغاية النبات النخلة، وغاية الحيوان الإنسان، وغاية الإنسان أن يكون عالمًا، وغاية العالم أن يكون كاملاً في وقته باقيًا بذكره.

وقيل: الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم، وقيل: عقول الناس على قدر أزمنتهم، فالكامل هو الذي يحرص على بقاء ذكره الحسن، قال الله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء/ ٨٤]، وقد منّ الله تعالى على نوح عليه الصلاة والسلام ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الصافات/ ٧٨]، ومعناه تركنا عليه ثناء حسنًا في كل أمّة، ومَنّ الله تعالى على رسوله محمد ﷺ بقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ [الزخرف/ ٤٤]، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يعني أن القرآن الشريف شرف لك ولقومك، وقال تعالى مُمْتَنًّا على نبيه ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح/ ٤]، أي إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي.

وعن نبي الله سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام: الذكر الجميل خير من الرائحة الطيبة، والإنسان يوم يموت خير من يوم يولد؛ لأن الرائحة الطيبة قد لا تبلغ ربع ميل، والثناء الحسن والصفات الجميلة قد تبلغ أقصى الآفاق، وذلك أن الإنسان ما دام حيًّا يزهد فيه نظراؤه فإن النفوس كأنها ظافرة به، ومن شأن المرء أن يزهد فيما ظفر به؛ لأنه في يده، وقد أمن من فوته، وأن يحرص على طلب ما غاب عنه ويرغب في تحصيله، فإذا مات الإنسان فقد فات، فتلهج الألسنة حينئذٍ بنشر أخباره وآثار فضله ونشر مآثره وإذاعة محاسنه حتى كان موته سببًا لإشهار فضائله أكثر من إشهارها في حياته، كما قيل:

المَــــرْءُ مَا دَامَ حَيًّا يُسْتَهَانُ بِهِ ... ويَعْظُمُ الرُّزْءُ[1] فيــــه حِينَ يُفْتَقَدُ

وقيل:

وَمَا يَنْفَعُ الإِنْسَــــانَ مِمَّا يَحُوزُهُ ... إِذَا فَارَقَ الدُّنْيَا سِوَى طِيب ذِكْرِهِ

وقيل:

وَمَا تَنْفَعُ الآَدابُ والعِلْمُ والحِجَا ... وصَاحِبُهَا عِنْدَ الكَمَــــالِ يَمُوتُ

وقيل:

وللخَيْرِ أَهْلٌ لَــــمْ تَكُــنْ أَقْعَدَتْهُمُ ... عن الخَيْرِ فِيمَنْ أَقْعَدَتْهُ الطَّبَائعُ

وللشَّرِّ أَهْلٌ قَــــدْ تُشِيرُ إِلَيْهِم ... على كُلِّ حَالٍ بالأَكُفِّ الأَصَابِعُ

فالقول بأن يوم وفاة المرء خير من يوم ولادته إنما يراد به أن الإنسان حصل على الغاية، وغاية الإنسان إما عالم باقٍ أو جاهل غير مُتَّبَع، فولادة الإنسان إنما هي ليكون له صدق في الآخرين بحسن السيرة، فإن الفضائل كانت فيه وقت ولادته بالقوة، فإذا صارت له الفضائل بالفعل استحق الثناء عليه أيام حياته، وكثر انتشار فضائله بعد مماته، وانتشارها بعد مماته حياة باقية يتوجه إليها الصالحون

(١) الرُّزْء: المصيبة. (م).

ويرغب فيها العارفون، فيوم كمال الغاية المطلوبة والفضيلة المتوجه إليها أكمل من يوم ولادته.

ومما روي عن رسول الله ﷺ: «من أهان خمسًا خَسِرَ خمسًا؛ من استخف بالعلماء خسر الدين، ومن استخف بالأمراء خسر الدنيا، ومن استخف بالأقارب خسر المروءة، ومن استخف بالجيران خسر المنافع، ومن استخف بأهله خسر طيب عيشه». قال الإمام القَسْطَلاَّني رحمه الله: إذا ظهر الجاهل، واستقل بالعالم، وصدق الكاذب، وائتمن الخائن، واستحلَّت العلماء الرخص، واستحل الناس الحرام من تلقائهم، فقد مُحِيَ الورع، وانقطع الزهد، ووجب الاعتزال.

(رجع) وكذلك يدعو التلميذ لأستاذه ولوالديه، وكذلك يفعل كلما شرع في قراءة درس وتكراره أو مطالعته أو مقابلته في حضور أستاذه أو في غيبته، وإذا فرغ من الدرس دعا لأستاذه أيضًا، ويدعو الأستاذ للتلميذ أيضًا كما دعا له، وإن ترك التلميذ الاستفتاح بما ذكر جهلاً أو نسيانًا نبهه عليه وعلمه إياه وذكره فإنه من أهم الأدب، وقال بعضهم:

عَلِّم العِلْمَ مَنْ أَتَــــاكَ لِعِلْمٍ   واغْتَنِمْ ما حَيِيتَ منهُ الــــدُّعَاء
وليَكُنْ عِنْدَكَ الفَقِيرُ إِذَا ما   طَلَبَ العِـــلْمَ والغَــــنِيُّ سَوَاء

وقيل:

وكَمْ مِنْ جَــاهِلٍ أَمْسَى أَديبًا بصُحْبَةِ عَــالِمٍ وَغَــدَا إِمَامَا
كَمَاءِ البَحْــرِ مُرٌّ ثُمَّ تَحْــلُو مَذَاقَتُــهُ إذا صَحِبَ الغَمَــامَا

وقيل: من لم يتحمل ذل التعليم ساعة بقي في ذل الجهل أبدًا. ومما ينسب للإمام الشافعي رضي الله عنه:

فَإِنْ يَسّــرَ اللهُ الكَرِيمُ بِفَضْلِهِ وصَادَفْتَ أَهْلاً للعُلُومِ ولِلْحِكَم
بَثَثْتَ(١) مُفِيدًا واسْتَفَدْتَ وِدَادَهُم وإلا فَمَحــرُونٌ لَدَيَّ وَمُكْتَتَم
ومَنْ مَنَحَ الجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ ومَنْ مَنَعَ المُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَم

وقال ﷺ: «آفة العلم النسيان، وإضاعته أن تحدث به غير أهله» ولبعضهم:

إذا شِئْتَ أنْ تَبْكِي فَقِيدًا مِنَ الوَرَى(٢) وتَنْدبُهُ نَدْبَ النَّبِــي المُكَرَّمِ
فَلاَ تَبْكِيَن إلا على فَقْدِ عَالمٍ يُبَــالغُ في التَّعْــلِيمِ للمُتَعَلِّم
وفَقْدِ إِمَامٍ عَادِلٍ صَانَ مُلْكَهُ بِأَنْوَارِ حُكْمِ اللهِ لا بالتَّحَكُّمِ

(١) بَثَثَت: فَرَّقت ونشرت. (م).
(٢) الوَرَى: الخَلْق. (م).

وفَقْدِ شُجَاعٍ صَادقٍ في جِهَادِهِ وقَدْ نُشِــرَتْ أَعْلامُهُ للتَّقَدُّمِ
وفَقْدِ وَلِيٍّ حَافِظِ الوُدِّ والوَفَا مُطِيعٍ لرَبِّ العَالَمِينَ مُعَظِّمِ
وفَقْدِ سَخِيٍّ لا يَمَلُّ مِنَ العَطَا يُفَرِّجُ هَمَّ الكَرْبِ عن كُلِّ مُعْدَمِ
وفَقْدِ أخٍ يَفْدِيكَ حَيًّا بِنَفْسِه ويُقْصِيكَ بالمَجْهُودِ عَنْ كُلِّ مُؤْلِمِ
كَذَا زَوْجَة تَرْعَى أَمَانَةَ بَعْلِهَا ولَوْ غَابَ عَنْهَا مُدَّةَ الدَّهْرِ أَوْ عَمِي
فَهُم سَبْعَةٌ يُبْكَى عَلَيْهِم وغَيْرهُمْ إِلَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ

قال بعضهم: فإن موت العلماء من المصايب الكبرى والنكائب العظمى؛ إذ هم أقمار الدنيا وشموسها، وبذهابهم تخسف الأقمار والشموس، وبموتهم تقل العلوم، وتَدْرُس الرسوم، فمما ورد من ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد/ ٤١]، قالوا هو موت العلماء، وورد عنه ﷺ: «إن الله لا يرفع العلم انتزاعًا، وإنما يرفعه بموت أهله»، ومن ذلك ما روي من قوله ﷺ: «إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم يُهْتَدَى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا النجوم انطمست[١] يوشك أن تضل الهداة»، وعنه ﷺ: «من لم يحزن لموت العالم فهو منافق»، وقوله ﷺ: «خيار أمتي علماؤها وخيار علمائها حلماؤها».

(١) انْطَمَسَت: اختفت وتوارت. (م).

وقال ﷺ: «وَقِّرُوا من تُعَلَّمون منه العلم ووَقِّروا من تُعَلِّمونه العلم» رواه البخاري في تاريخه عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - فمن ذلك تبجيلهم وتعظيمهم عن غيرهم، ومنه قضاء مصالحهم والاهتمام بها وقبول شفاعاتهم، ومنه إطعامهم الطعام، والقيام لهم، وتقبيل أيديهم وأيدي غيرهم من الصلحاء إجلالاً لهم وتعظيمًا، فقد قال النووي رحمه الله: يستحب تقبيل أيدي العلماء والمشايخ أهل الفضل، ومن يتلمح منهم آثار الخير والبركة والصلاحية والتبرك بهم والتماس دعواتهم الصالحة ونحو ذلك مما هو مطلوب، ويستحب لهم القيام أيضًا، فقد ورد عنه ﷺ «أنزلوا الناس منازلهم»، وقام ﷺ لصفوان بن أمية لما قدم عليه، وإلى عدي بن حاتم قال السهيلي: وليس معارضًا لحديث «من سَرَّه أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار»؛ لأن هذا الوعيد إنما توجه للمتكبرين وإلى من يغضب أن لا يقام له، وكان ﷺ يقوم لفاطمة -رضي الله عنها- وكانت تقوم له ﷺ.

فحق المعلم أن يجري متعلميه مجرى بنيه، فإنه لهم في الحقيقة أشرف الأبوين وأبو الإفادة أعظم حقًّا من أبي الولادة، فيوقرهم كما يوقر أولاده ويوقرونه كما يوقرون آباءهم، كما قال الإسكندر وقد سُئل أمعلمك أكرم عليك أم أبوك؟ فقال: بل معلمي؛ لأنه سبب حياتي الباقية، ووالدي سبب حياتي الفانية، فهو أحق بالتوقير من الأب، وقيل:

إِذَا أَفَادَكَ بَعْضُ النَّاسِ فَائِدَةً مِنَ العُلُومِ فَوَاظِبْ شُكْرَهُ أَبَدَا
وقُلْ فُلَانٌ جَزَاهُ اللهُ صَالِحَةً أَفَادَنِيهَا وَأَلْغِ الكِبْرَ وَالحَسَدَا
فالحُرُّ يُكْثِرُ مِنْ ذِكْرِ المُفِيدِ له عِلْمًا ويَذْكُرُه إنْ قَامَ أَوْ قَعَدا

وعلى المفيد أن يعبر للمستفيدين بعبارة واضحة مفصلة لأجل أن يفهموها، فقد كان ﷺ إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين يَعُدُّه العادّ، قالت عائشة رضي الله عنها: ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم هذا، كان يحدث حديثًا لو عَدَّه العاد لأحصاه، وكان يعيد الكلمة ثلاثًا لتفهم عنه. وذكر البخاري رضي الله عنه عند قوله باب من خصّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا: عن معروف عن أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله» وعلى المفيد أن يعامل المستفيدين بالإرشاد والشفقة ويهتم بمصالحهم ويصبر على جفائهم وسوء أدبهم، ويعذرهم في قلة أدبهم في بعض الأحيان، فإن الإنسان مُعَرَّض للنقصان لاسيما إذا كان حديث السن كالصغير، وعليه أن يصرفهم عن الرذائل إلى الفضائل بلطف في المقال وتعريض في الخطاب، والتعريض أبلغ من التصريح. قال الغزالي: آفة العلم الخيلاء فلا يلبث العالم أن يتعزز بالعلم ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم نظره إلى البهائم، وقيل: العلم حرب للمتعالي كما أن السيل قاطع للمكان العالي.

قال بعضهم: لا ينبغي للعالم حب الرياسة والتعظيم، والتسارع إلى نبذ من تَلُوحُ عليه شواهد العلم بالقصور، ويلتمس بكثرة الانتقاد والعثرات ويستر رسوم الحسنات ببعض السقطات، وربما رأى بعضهم استحقاقه العلم بالتوارث، وقد قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة/ ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾ [القصص/ ٦٨] أي الفضائل والكمالات، وقد نص القرافي على أن ذلك من البدع المحرمة، وقيل:

وَمَا عَبَّرَ الإِنْسَانُ عَنْ فَضْلِ نَفْسِهِ ... بِمِثْلِ اعْتِرَافِ الفَضْلِ في كُلِّ فَاضِلِ
وَإِنَّ أَخَسَّ النَّقْصِ أَنْ يَتَّقِي الفَتَى ... قَذَى النَّقْصِ عَنْه بِانْتِقَاصِ الأَفَاضِلِ

قال بعضهم: وينبغي له أيضًا أن لا يمدح نفسه ولا يزكيها ولا يفرح بمدح الناس له ولا بثنائهم عليه، فقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم/ ٣٢] أي لا تمدحوها. وكان الحسن البصري يقول: رُبَّ هالكٍ بالثناء عليه ورب مستدرج بالإحسان إليه، وقيل لحكيم ما الصدق القبيح؟ قال: ثناء المرء على نفسه إلا أن ينوي المادح التحدث بنعمة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى/ ١١]، أو ينوي به إعلام حاله من العلم والعمل ليقتدوا به وليأخذوا عنه وليعطوه حقه ويدفعوا عنه الظلم ونحو ذلك، فلا يكون مدحه لنفسه مذمومًا حينئذ، وينبغي له أيضًا أن يتمسك بالسبب الأقوى والحبل المتين والزاد الموصل إلى القرب من رب العالمين الذي ذكره الله في مُحْكَم الكتاب بقوله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ

ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة/ ١٩٧]؛ إذ التقوى رأس كل خير والأمان من كل ضَير، وقد مدح الله المتقين في آيات كثيرة ووصفهم بأوصاف جميلة، وأثنى عليهم بأشياء جليلة، وكذلك نبيه ﷺ في أحاديث شهيرة، فمن الآيات قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ**﴾ [الحجرات/ ١٣] وقوله تعالى: ﴿ **وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران/ ١٣٣]، ولما نزل قوله تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ**﴾ [آل عمران/ ١٠٢] تحرّجت الصحابة يعني حصل لهم حرج وضيق في أنفسهم وشق ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ **فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن/ ١٦] فاطمأنوا بذلك، ومعنى اتقاء الله حق تقاته أن يُطَاع فلا يُعْصَى ويُذْكَر فلا يُنْسَى.

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»، يعني من قصر في العمل حتى تَوَرَّط في الأمور المهلكة لم يكد ينفعه نسبه ولا يعتمد عليه، بل يقول أنا ابن العالم الفلاني وابن الشيخ الفلاني والشريف الفلاني معتمدًا عليه تاركًا لما أمر به؛ إذ لم ينفعه ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. ونهى ﷺ أن يفتخر الرجل بآبائه وأجداده؛ لأنهم قد صاروا إلى ما قدموا من العمل، وقيل:

إذا افْتَخَرْتُ بآباءٍ مَضَوْا زَمَنًا قالوا صَدَقْتَ ولكنْ بِئْسَ ما وَلَدُوا

وقيل:

وَلَيْسَ فِخَارُ المَرْءِ إلا بِنَفْسِهِ   وإِنْ عَدَّ آباءً كِرَامًا ذَوِي نَسَبِ

ولا ينفع ذلك إلا مع العلم والعمل.

قال بعض العلماء رضي الله عنهم: ما ثم أنفع لأولاد العلماء والصالحين من الدعاء لهم بظاهر الغيب مع تفويض أمرهم إلى الله تعالى؛ وذلك لأن أحدهم يتربى في الدلال على الدوام مع مساعدة أمه إن كانت، ويكتفي بتعظيم الناس له بحكم التبع لأبيه فلا يصير عنده داعية إلى اكتساب الفضائل غالبًا، ويقول في نفسه الذي كنت أتعب في تحصيله من الجاه بالاشتغال بالعلم والرياضة قد حصل لي بواسطة والدي، بخلاف أولاد العوام والفلاحين فإن أحدهم يفتح عينه على الكد والتعب والإهانة فيصير يتفكر في عمل حيلة تعتقه من تلك الإهانة، فيلهمه الحق أن يشتغل بالعلم والقرآن، فلا يزال كلما عَظَّمَه الناس يزداد رغبة في العلم والمجاهدة حتى يصير شيخ الإسلام.

وقال صلى الله عليه وسلم: «ويل للعالم من الجاهل» ويل كلمة تقال لمن وقع في هلكة ولا يترحم عليه، بخلاف ويح أي حيث لم يعلمه معالم الدين ويرشده إلى طريقه المبين مع أنه مأمور بذلك «وويل للجاهل من العالم»؛ حيث أمره بمعروف ونهاه عن منكر فلم يأتمر بأمره ولم ينته بنهيه إذ العالم حجة الله على خلقه، قال الشافعي: العلم جهل عند أهل الجهل، كما أن الجهل جهل عند أهل العلم.

وينبغي له أيضًا أن يتخلق بالأخلاق الحميدة والمحاسن الشريفة التي ورد الشرع بها، والشيم المرضية والخلال الزكية التي أرشد إليها من الزهد في الدنيا والتقلل منها وعدم المبالاة بها وبأهلها، والسخاء والجود والكرم ومكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وطلاقة الوجه في غير خروج إلى حد الخلاعة والصبر والتقوى عن دنيء الاكتساب، وأن يكون ذا ورع صادق، قال الحكماء: عالم بلا ورع كأرض بلا نبات، وأن يكون ملازمًا للخشية من الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر / ٢٨] وقال بن عطاء الله في حكمه: خير العلم ما كانت الخشية معه وأن يكون مهذب الأخلاق ذا نفس مرضية وخلق حسن، وقيل:

يَا مَنْ تَقَاعَدَ عَنْ مَكَارِمِ خُلقِهِ لَيْسَ التَّفَـــاخُرُ بالعُلُومِ الزَّاخِرَة
مَنْ لَمْ يُهَذِّبْ عِلْمُهُ أَخْلاَقَهُ لَمْ يَنْتَفِــعْ بعُلُومِهِ في الآخِـــرَة

وأن يكون مكثرًا من الخشوع والسكينة والوقار والخضوع متجنبًا للضحك والإكثار من المزاح ملازمًا على الوظائف الشرعية الواردة عن خير البَرِيَّة، كتنظيف الأوساخ، والشعور التي ورد الشرع بإزالتها، كقص الشارب، وتقليم الأظفار، وتسريح اللحية، ونتف الإبط، وحلق العانة، وإزالة الروائح الكريهة، متجنبًا للملابس الرَّثَّة المكروهة المبتذلة، فقد نهى ﷺ عن الشهرتين في اللباس المرتفعة جدًّا والمنخفضة جدًّا، قال النووي رحمه الله تعالى: كانوا يكرهون الشهرتين

الثياب الجياد والثياب الرذلة؛ إذ الأبصار تمتدّ إليهما، وبهذا ورد الحديث فلبس المرقعات أمر مكروه شرعًا، وربما يكون حرامًا إذا قصد إظهار الزهد للطلب.

وأن يكون تاركًا للشهرة محبًّا للخمول، فإنه أحسن الخصال المفضلة، وأن يكون متواضعًا لله تعالى ومن تواضع لله رفعه، وقد رفع الله المتواضعين وأثنى عليهم ووصفهم في كتابه العزيز بأوصاف جميلة، ومن المعلوم أن النبي ﷺ كان سيد المتواضعين ورأس المتأدبين، وقد أمره الله تعالى بالتواضع وحسن الخلق ومكارم الأخلاق، فقد قال تعالى: ﴿**خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ**﴾ [الأعراف/ ١٩٩] والآيات والأحاديث والأشعار في فضل التواضع والرفق ونحوهما كثيرة، وما أحسن ما قيل:

وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ تَوَاضُعًا   فَكَمْ تَحْتَهَا قَـــوْمٌ هُمْ مِنْكَ أَرْفَعُ
وإِنْ كُنْتَ فِي عِزٍّ وَجُودٍ وَمَنْعَةٍ   فَكَمْ مَاتَ قَوْمٌ هُمْ مِنْكَ أَمْنَعُ

وقال آخر:

تَوَاضَعْ تَكُنْ كالنَّجْمِ لاَحَ لِنَاظِرٍ   على صَفَحَاتِ المَـــــاءِ وَهْوَ رَفِيعُ
وَلاَ تَكُ كالدُّخَانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ   إِلَى طَبقَـــاتِ الجَـــوِّ وَهْوَ وَضِيعُ

وليحذر كل الحذر من الحسد والكبر والرياء والعجب، وأن يكون تعويله في سائر أموره على الله تعالى منقطعًا إليه عن الخلق وعن التعلق بهم غير ملتفت لما في

أيديهم، وينبغي أن يرفق بمن يقرأ عليه من المستفيدين ويعلمهم برفق لقوله ﷺ: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما كان العنف في شيء إلا شانه»، وأن يرحب بهم ويحسن إليهم بحسب حاله، فقد ورد عن أبي هارون العبدي قال: كنا نأتي أبا سعيد الخدري رضي الله عنه فيقول: مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ، قال: «إن الناس لكم تبع وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا» رواه الترمذي وابن ماجه وغيرهما، وينبغي أن يبذل لهم النصيحة، فقد قال ﷺ: «الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» رواه مسلم، ومن النصيحة لله ولكتابه إكرام قارئه وطالبه وإرشاده إلى مصلحته والرفق به ومساعدته بما أمكن.

وأما ما يفعله معلمو القرآن الشريف وشدة تعنفهم وضربهم للأولاد الصغار المبتدئين في التعليم، فهو خروج عن حد الشرع ويترتب على ذلك أن الأولاد يمتنعون من الكتابة والقراءة لما يرونه من ذلك، فلو عاملوهم بالرفق والحيلة في التعليم لما امتنعوا من ذلك، خصوصًا وأنهم مفارقون اللعب إلى الحبس والضيق، وقد ورد عنه ﷺ «عَلِّمُوا ولا تعنفوا، فإن العلم خير من العنف»، وروي عنه ﷺ «البركة في أكابرنا، فمن لم يرحم صغيرنا ويجل كبيرنا فليس منا (أي ليس متبعًا هدينا وطريقتنا)». قال بعض العلماء: وينبغي للمعلمين أن يأذنوا لهم في بعض الأوقات باللعب ويكون لعبًا جميلاً غير متعب لهم ليستريحوا من كلفة الأدب كما سيأتي.

وينبغي للعالم أن يتألف قلوب الطالبين ويتلطف بهم، ويحرضهم على التعليم ويحثهم عليه وينبههم إن غفلوا، وينبغي أن يذكرهم فضيلة ذلك؛ ليكون سببًا لنشاطهم وزيادة في رغبتهم في الخير، ويزهدهم في الدنيا ويصرفهم عن الركون إليها والاغترار بها، ويخبرهم بأن الاشتغال بالقرآن وسائر العلوم الشرعية هو طريقة الحازمين وعباد الله العارفين، وأن ذلك رتبة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وينبغي له أيضًا أن يحب لهم ما يحب لنفسه، وأن يكره لهم ما يكره لنفسه لحديث الصحيحين أنه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وينبغي أن يكون معترفًا بنعم الله تعالى عليه التي من جملتها العلم الذي صار به من أفضل الخلق، بل هو أجلها وأفضلها فلا يغفل عن سؤال الله تعالى إدامة نعمته شاكرًا له آناء الليل وأطراف النهار؛ إذ الشكر قيد النعمة وعقالها مستلزم للزيادة منها، قال تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم/ ٧] ولأنه أدوم للنعمة عليه لئلا تنفر عنه فلا تعود إليه، كما قال ﷺ: «قلما نفرت النعمة عن قوم فعادت إليهم»، ولهذا قال بعض الحكماء: اعلموا أن صحائف الدهر مقلدة بالشكر والذم، وإذا كان كذلك فأكرموا من له بيت في الأصل، ومن له قدر في المروءة، ومن له مكانة في العلم، ولا يغرنكم سوء حاله وانقلاب الزمان به، فإن الدهر يجبر كما يكسر ويكسر كما يجبر، وما أعطى الدهر شيئًا بيمينه إلا واسْتَلَّه بشماله، كما قيل:

الدَّهْرُ لا يَبْقَى على حَـــالةٍ لابد ما يُقبـــلُ أو يُدبِـــرُ
فَإِنْ تَلَقَّـــاكَ بِمكْـرُوهِـــهِ فَاصْبِرْ فإنَّ الدَّهْـــرَ لا يَصـــبْرُ

وقيل:

قُلْ للَّذِي بصُرُوفِ الدَّهْرِ عَيَّرَنَا هَلْ عَانَدَ الدَّهْرُ إِلاَّ مَنْ له خَطَرُ
أَمَا تَرَى البَحْرَ يَعْلُو فَوْقَهُ جِيَفٌ[١] ويَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ الدُّرَرُ
فَإِنْ تَكُنْ نَشَبَتْ أَيْدِي الزَّمَانِ بنَا ومَسَّنَا مِنْ تَمَادِي بُؤْسِهِ الضَّرَرُ
فَفِي السَّماء نُجُومٌ مَا لَهَا عَدَدٌ ولَيْسَ يُكْسَفُ إلا الشَّمْسُ والقَمَرُ

وقال بعضهم: وأما ما يطلب من المتعلم فأمور كثيرة أيضًا إذ هو تابع له، فمما يطلب من المتعلم: أن يكون متأدبًا مع الله تعالى ومع أستاذه؛ إذ لا شيء أحسن من الأدب في حق المتعلم، فقد قال ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، وقال علي رضي الله عنه: لا شرف مع سوء الأدب، وأوصى حكيم ولده فقال: أوصيك بخمس خصال؛ الأولى: لا تعاند من فوقك. الثانية: لا تقل ما لا تعلم. الثالثة: لا تتعاطى ما لا تنال. الرابعة: لا تخالف بلسانك ما في قلبك. الخامسة: لا يخالف قولك فعلك. وقيل: الحاكم لا يعاند والقاضي لا يخاصم والشاعر لا يعادي، وأن يكون متواضعًا لأستاذه محبًّا له معتقدًا فيه سامعًا لقوله مستطيعًا لأمره، لما ورد من قوله ﷺ: «اغد عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا أو محبًّا، ولا تكن الخامسة فتهلك يعني مبغضًا، وأن يكون بمنزلة العبد لأستاذه وأستاذه بمنزلة المولى له.

(١) جِيَف: جمع جيفة وهي جثة الميت إذا أنتنت. (م).

وجاء في معلمي القرآن حديث مرفوع «من علم عبدًا آية من كتاب الله فهو مولاه» أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة، ونحوه قول شعبة: «من كتبت عنه حديثًا فأنا له عبد»، وأن يكون مجدًّا في التعليم مشمرًا عن ساعد الجد والاجتهاد قائمًا على قدم العناية والسداد فإن ذلك من سبل الرشاد فلعله أن يظفر ببعض المراد، فقد قيل: أعط العلم كلك يعطك بعضه، ولكل مجتهد نصيب، والأجر على قدر المشقة.

وينبغي لطالب العلم أن يكون متأملاً في جميع الأوقات في دقائق العلوم ويعتاد ذلك؛ ولهذا قيل: من تأمل أدرك ولابد من التأمل قبل الكلام حتى يكون صوابًا، فإن الكلام كالسهم لابد من تقويمه بالتأمل قبل الكلام حتى يكون مصيبًا، وأن يكون مستفيدًا في جميع الأحوال والأوقات من جميع الأشخاص، قال ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها»، وينبغي أن لا يكون للمستفيد فتور فإنه آفة، وكان شيخ الإسلام برهان الدين رحمه الله يقول: إنما فقت شُرَكاي لأنه لم تقع لي الفترة في التحصيل، قيل: وقت العلم من المهد إلى اللحد، وقيل: إنه لما أوجع الفقر والحرمان القاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي رحمه الله تمنى الكفاف ولزم العلم إلى الممات، فقال:

يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى شيئينِ لو جُمِعَا   لكُنْتُ حِينَئذٍ مِنْ أَسْعَدِ البَشَرِ
كَفَافُ رِزْقٍ يَقِينِي ذُلَّ مَسْأَلَةٍ   وخِدْمَةُ العِلْمِ حَتَّى يَنْقَضِي عُمْرِي

والكفاف حالة متوسطة بين الغنى والفقر، وقال ﷺ: «ذكاء المرء محسوب عليه»، وقال بعضهم في ذلك:

إذا أَبْصَرْتَ ذَا فَضْلٍ فَقِيرًا   فلا تَعْجَبْ لِفَقْرٍ في يَدَيْهِ
فَقَدْ قال الرَّسُولُ مَقَالَ صِدْقٍ   ذَكَاءُ المَرْءِ مَحْسُوبٌ عَلَيْهِ

ومما ينسب للإمام الشافعي رضي الله عنه:

ومِنْ العَجِيبِ من القَضَاءِ وصُنْعِهِ   بُؤْسُ اللَّبِيبِ وطيبُ عَيْشِ الأَحْمَقِ
وأَحَقُّ خَلْقُ الله بالهَمِّ امرُؤٌ   ذُو هِمَّةٍ يُبْلَى بِرِزْقٍ ضَيِّقِ
ولَرُبَّمَا مَرَّتْ بِقَلْبِي فِكْرَةٌ   فَأَودّ منها أَنَّنِي لَمْ أُخْلَقِ

وقيل:

وأَنْكَدُ النَّاسِ عَيْشًا مَنْ تَكُونُ لَهُ   نَفْسُ الملُوكِ وحَالاَتُ المَسَاكِينِ
أَرَى بِعَيْنَيَّ مَا لاَ تَسْتَطِيلُ يدي   له وقَدْ حَازَهُ مَنْ قَدْرُهُ دُونِي

وقال بعضهم: لا يخفى فضل العلم على المال عند ذوي الكمال؛ لأن المال تصلح به دنياك والعلم تصلح به دنياك وأخراك، والمال تتركه في هذه الدنيا قهرًا والعلم يصحبك في الدار الأخرى، حتى لقد ورد في الحديث المرفوع إلى

صاحب الوسيلة والدرجة العليا «إن الناس يحتاجون إلى العلماء في الآخرة كما يحتاجون إليهم في الدنيا، والمال يشغلك عن الله وعبادته، والعلم يحثك على مراقبته وطاعته.

وأفضل أوقات تحصيل العلوم شرخ الشباب ووقت السحر(١) وما بين العشاءين، وينبغي أن يستغرق جميع أوقاته، فإذا مَلَّ علمًا اشتغل بعلم آخر، وكان ابن عباس رضي الله عنه إذا مل من الكلام يقول: هاتوا ديوان الشعر، وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «متعلم كسلان (يعني لا يجتهد في طلب العلم) أفضل عند الله من سبعمائة عابد مجتهد»، وقال ﷺ: «إن من الذنوب ذنوبًا لا يكفرها صلاة ولا صوم ولا جهاد إلا الهموم في طلب العلم»، وينبغي للمستفيد أن يكون منقطعًا تاركًا لما يشغله من علائق الدنيا هاجرًا لإخوانه وخلانه، إذ هو الذي يتأتى له التحصيل من بين أقرانه، فقد قال الخطيب: لا ينال العلم إلا من عطل دكانه وخرب بستانه وهجر إخوانه، وقال بعضهم:

شُغِلْنَا بِكَسْبِ العِلْمِ عن مَكْسَبِ الغِنى كما شُغِلوُا عن مَكْسَبِ العِلْمِ بِالكثْرِ
فَكَانَ لهم حَظٌّ مِنَ الجَهْلِ وَالغِنىَ وكان لنا حَظٌّ مِنَ العِلْمِ والفَقْرِ

(١) وَقْتُ السَّحر: آخر الليل قُبيل الصبح. (م).

والحظ لغة النصيب، وعرفًا ما وافق الغرض من مال وعلم وجاه ورياسة ونحوها مما تألفه النفس، وما لم يوافقها يسمى نصيبًا كالعمى والجهل وقلة المال، فكل حظ نصيب ولا عكس. والحظوظ مما قدرها الله وقضاها في الأزل فلا تعلل لقضائه بدليل ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف/ ٣٢] يعني خلقنا هذا غنيًّا وهذا فقيرًا، وهذا عالمًا وهذا جاهلاً، وهذا ملكًا وهذا مملوكًا، هذا عطاؤنا لا تبديل فيه ولا تغيير، ولا نقص ولا زيادة، ولا محو ولا إثبات، وهذا معنى قوله ﷺ: «رفعت الأقلام وجفت الصحف وقضي ما هو كائن إلى يوم القيامة»، وقيل:

نَحْنُ قَسَمْنَا الرِّزْقَ بين الوَرَى ... فَأَدِّبِ النَّفْسَ ولا تَعْتَرِض
وسَلِّم الأَمْرَ لأَحْكَامِنَا ... فكُلُّ عَبْدٍ رِزْقُهُ قَدْ فُرِض

وقال أهل السنة والجماعة: الأرزاق مقسومة معلومة لا تزيد بتقوى المتقين ولا تنقص بفجور الفاجرين، وقيل: الدنيا يعطيها الله لمن يحبه ولمن لا يحبه.

وقال بعضهم: اعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما شدد البلاء على الأفاضل؛ لأن الله تعالى يبغض الدنيا وحجبها عنهم ليكثر لهم الأجر في الدار الآخرة ويتفرغوا لطاعته ولا يشتغلوا بها فتحملهم على المعصية، فإن النعمة قد تكون سبب المعصية، لقوله

تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام/ ٤٤]، ولذلك قال بعضهم:

قَدْ يُنْعِمُ اللهُ بالبَلْوَى وإِنْ عَظُمَتْ   ويَبْتَلِي اللهُ بَعْضَ النَّاسِ بالنِّعَمِ

وقال بعضهم: أحسن ما قيل في حكمة عدم اجتماع الفضل والمال؛ لأن ذاك لعزة الكمال لأنه لو حواهما شخص لحوى الكمال بِرُمَّتِه، والله تعالى هو المنفرد بالكمال دون بَرِيَّته، وقال بعضهم في قدرة الله أن يجعل الجبال ذهبًا، فرد عليه بعضهم بقوله: مُسَلَّمٌ ذلك، وأكثر منه كيف، وقد عرض على نبيه ﷺ ذلك فأباه، لكن الأبدع ما صنع الله إذ لو كانت الجبال كلها ذهبًا لتعطل الوجود، وترك الناس الزراعة وسائر وجوه المعيشة فيؤدي إلى هلاكهم، وهذا هو السر في انقسام الناس إلى زاهد وحريص، ووضع الأمل والرغبة في الدنيا، ولو كان الناس كلهم زهادًا ولا مال لهم لتركوا المعاش والمتاجر والأسفار وجلب الأمتعة من البلاد القاصية فلم ينتظَم للناس معيشة، فكان صنع الله أبدع، صنع الله الذي أتقن كل شيء، وأيضًا فلو كانت الجبال ذهبًا لاقتتلوا عن آخرهم.

قال الإمام علي كرم الله وجهه: لا تحزن على شيء من أمور الدنيا فإنها ستة: مطعوم ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح، فأفخر طعامها العسل وهو بزاقة ذبابة، وأفخر شرابها الماء يستوي فيه جميع الحيوانات، وأفخر ملبوسها الديباج وهو نسج دود، وأفخر مشمومها المسك وهو دم غزال، وأفخر

مركوبها الخيل وعليها تقتل الرجال، ومنكوحها النساء وهو مَبَال في مَبَال، وقيل:

أرى اللَّذَّاتِ في الدُّنيـــا ثَلاَثًا كما قالَ الثِّقَـــاتُ مِنَ الرِّجَالِ
فبَزْقُ ذُبَـــابةٍ مع غـــزلِ دُودٍ وأَحْسَـــنُها مَبَـــالٌ في مَبَـــالِ

وقيل: من آفات المال شغل القلب، والحرص على الزيادة، والخوف من الفوات، وطمع قطاع الطريق فيه، وحرصه من السرقة، وذم على الدنيا، فقال: من صح فيها هرم، ومن مرض فيها سقم، ومن استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن طلبها فاتته، ومن تركها أتته. وقال ﷺ: «تعس عبد الدنيا يعني الذي يجمعها ولا يفعل منها خيرًا كزكاة وصدقة وصلة رحم بل يكون حريصًا عليها»، وقال عمر رضي الله عنه: ما كانت الدنيا هَم أحد إلا لزم عليه أربع؛ فقر لا يدرك غناه، وَهمٌّ لا ينقضي مداه، وشغل لا ينفد أذاه، وأمل لا يدرك منتهاه، وورد عنه ﷺ «تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، فإن من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه، وقيل:

تَقَنَّعْ بما يَكْفِيكَ واسْتَعْمِلِ الرِّضَى فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي أَتُصْبِحُ أَمْ تُمْسِي
فَلَيْسَ الغِـــنَى عَنْ كَثْرَةِ المالِ إنَّما يَكُونَ الغِنى والفَقْرُ مِنْ قِبَلِ النَّفْسِ

(رجع) وينبغي للمستفيد أن يكون مكبًّا على الاشتغال ساهرًا هاجرًا للمنام؛ لأن الليل مجمع الحواس ووقت الخلوة والمناجاة، والنفس من طبعها الكسل والميل إلى اللهو واللعب والتنعم والفتور عن الطاعات خصوصًا عن الاشتغال بالعلم وتحصيله، فإن من المعلوم عند أهله المشهورين بنبله وفضله الملازمين لتحقيق مسائله وتدقيق دلائله أنهم لا يلتَذُّون بشيء أحلى منه؛ فإنه يحصل لهم به من الفرح والسرور والغبطة والحبور والنشأة والطرب مما لا يحصل لغيرهم ممن يتحرى سماع الآلات وطرب الإنشادات ولذة المآكل والمشارب وغير ذلك، وما أحسن قول القائل:

سَهَرِي لتَنْقِيحِ العُلومِ أَلَــــذُّ لي مِنْ وَصْلِ غَانِيَةٍ وَطِيبِ عِنَاقِ
وصَرِيرُ أَقْــــلامِي عَلَى أَوْرَاقِهَا أَحْلَى مِنْ الدَّوْكَـــــاةِ والعُشَّاقِ
وأَلَذُّ من نَقْــــرِ الفَتَاةِ لِدُفِّهَا نَقْرِي لأُلقِــــي الرَّملَ عَنْ أَوْرَاقِي
أَأَبِيتُ ســــهْرَانَ الدُّجَا وتَبِيتهُ نَوْمًا وتَبْغِـــــي بَعْدَ ذَاكَ لحَاقِي

ولذا قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: لو علم الملوك لذة ما نحن فيه من العلم لقاتلونا عليها بالسيوف، وينبغي للمستفيد أن لا يواجه أستاذه بخلاف قوله وإن كان هو الصواب رعاية للأدب معه، وأن يكون في حال البحث معه على غاية من السكينة والوقار والخضوع، وأن يحسن ظنه به لينتفع بما يستفيده، وأن يكون ضابطًا لما يتعلمه مقيدًا له فلا يتكل على حفظه فإن الإنسان محل النسيان،

وقيل: قَيِّدُوا العلم بالكتابة، وقال بعضهم في الاجتهاد وتكرار الدراسة لما حفظه:

خَلِيلِي لا تَكْسَلْ ولا تُـمْهِلِ الدَّرْسَا ولا تعد طَوْعًا في تَكَاسُلِهَا النَّفْسَا
ولا تَتَرِكْ التَّكْرَارَ فِيمَا حَفِظْتَهُ فَمَنْ يَتْرُكْ التَّكْرَارَ لابُدَّ أَنْ يَنْسَى

وأنشد بعض أهل الأدب لأبي بكر الخوارزمي:

لا تَصْحَبِ الكَسْلانَ في حَاجَاتِهِ كَمْ صَالِحٍ بِفَسَادِ آخَر يَفْسَدُ
عَدْوَى البَلِيدِ[1] إلى الجَلِيدِ[2] سَرِيعَةٌ والجَمْرُ يُوضَعُ في الرَّمَادِ فَيَخْمدُ

وكان أبو حفص الكبير رحمه الله يكتسب ويكرر، وإذا كان لابد لطالب العلم من الكسب لنفقة العيال فليكتسب وليذاكر ولا يكسل، وليس الفقر لصحيح العقل والبدن مانعًا من ترك التعلم فإنه لا يكون أفقر من الإمام أبي يوسف رحمه الله، ولم يمنعه ذلك من التفقه، فمن كان له مال كثير فنعم المال الصالح، وفي الحكمة من استغنى بمال الناس افتقر، والعالم إذا كان طماعًا لم يُبْق حرمة العلم ولا يقول بالحق، ولهذا كان يتعوذ صاحب الشرع الشريف ﷺ منه، ويقول: أعوذ بالله من طمع يدني إلى طبع، وقيل:

العِـــــلْمُ بالتّكْـــــرَارِ والتَّـأني يُـــــــدْرَكُ لا بالتَّـــرْكِ والتَّمَنِّي

(١) البَلِيد: المستكين الخاضع. (م).
(٢) الجَلِيد: الصلب القوي. (م).

ولا بد للمستفيد من المذاكرة والمطارحة والمناظرة مشاورة، فينبغي أن تكون بالإنصاف والتأني والتأمل، ويحترز عن الشغب والغضب والمماراة، فإن كانت نيته إلزام الخصم وقهره فلا يحل ذلك، وإنما يحل ذلك لإظهار الحق والتمويه، والحيلة فيها لا تجوز إلا إذا كان الخصم مُتَعَنِّتًا لا طالبًا للحق.

وقال ﷺ: «من طلب العلم ليماري[1] به السفهاء أو يكابر به العلماء أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار» (أي فليتخذ لنفسه منزلاً)، يقال تبوّأ الرجل المكان إذا اتخذه مسكنًا، وهو أمر بمعنى الخبر أو بمعنى التهديد أو بمعنى التهكم أو دعاء على فاعل ذلك أي: بوأه الله ذلك. ومن حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث، لا تتعلم العلم لتماري أي تجادل به الناس، ولا تباهيهم به، بل تتعلمه ابتغاء وجه الله والتفقه في دينه، ولا تتركه لثلاث لا تتركه حياء في طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضاء بجهالة بل ينبغي للإنسان أن يتعلم العلم على قدر الضرورة والإمكان.

ونهى ﷺ عن مجادلة اليهود والنصارى، وقال: دلوهم في دينهم بترك مجادلتكم إياهم، يعني ﷺ إنك إن جادلتهم وكذبتهم فإنهم يكذبونك، وفائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرّد التكرار؛ لأن فيه تكرارًا وزيادة، وقيل مطارحة ساعة خير من تكرار شهر، ولكن إذا كانت مع منصف سليم الطبيعة.

(١) يُمارِي: يجادل. (م).

وإياك والمذاكرة مع مشغب غير مستقيم الطبع فإن الطبيعة مسرية والأخلاق مغيرة والمجاورة مؤثرة، وتفقه الإمام أبو حنيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بكثرة المطارحة والمذاكرة في دكانه حين كان بزازًا، وبهذا تعلم أن تحصيل العلم والفقه يجتمع مع التكسب، قيل لابن عباس - رضي الله عنهما - بم أدركت العلم؟ قال بلسان سؤول وقلب عقول، وقيل: العلم مزرعة والمطالعة مادّة والمذاكرة ثمر ولكل شيء آفة وآفة العلم النسيان وسبب النسيان العصيان.

وقال الإمام الشافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لا تخرج من علم إلى غيره حتى تحكمه فإن ازدحام الكلام في السمع مَضَلَّة في الفهم ولكن يبدأ منه بالأهم، قال عبد الله بن قتيبة: من أراد أن يكون عالمًا فليلزم فنًّا واحدًا، ومن أراد أن يكون أديبًا فليتسع في العلوم، وهذا من أحسن ما نتخذه مذهب وإلى محاسنه نميل ونذهب، وقيل: لا تدع الأمر إذا أقبل وتطلبه إذا أدبر، وقيل:

اغْتَنِمْ يَوْمَك هَذَا إنَّمَا يَوْمُك ضَيْفُ
وانتَهِبْ فُرْصَةَ عُمْرٍ حَاضِرٍ فالوَقْتُ سَيْفُ

وقد كان الإمام الشافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يجالس الصوفية، فقيل له في بعض الأيام ما استفدت من هؤلاء يا إمام؟ قال: استفدت منهم قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، وقولهم: إن لم تشغل نفسك بالخير شغلتك بالسوء والضير، وقيل: عليك بالحفظ دون الجمع للكتب، فإن للكتب آفات تفرّقها، والماء يغرقها،

والفار يخرقها، والنار تحرقها، واللص يسرقها، وقيل: حفظ سطرين خير من حمل وِقْرَين[1] وفهم حرفين خير من حفظ سطرين، فإذا تهاون في الفهم ولم يجتهد مرة أو مرتين ويعتاد ذلك فلا يفهم إلا اليسير. وقال الإمام مالك: أهل المدينة ليس لهم كتب، مات ابن المسيب والقاسم ولم يتركا كتابًا ولم يكن عند ابن شهاب إلا كتاب فيه نسب قومه.

وقد كان أهل العصر الأوّل يَتَّكِلون على الحفظ، فكانوا لا يدونون الحديث ولا يصنفون اتكالاً على حفظهم، ولذلك قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: قال العلماء: كَرِهَ جماعة من الصحابة والتابعين كتابة الحديث واستحبوا أن يؤخذ عنهم حفظًا كما أخذوه حفظًا، لكن لما قصرت الهمم وخشيت الأئمة من ضياع العلم بموت العلماء دوّنوه بأمر عمر بن عبد العزيز لما كتب إلى الآفاق انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه، وأوّل من دَوَّن الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين والتصنيف وحصل بذلك خير كثير، وحينئذٍ فيطلب تدوين الحديث النبوي وتخريجه خوفًا من ضياعه.

وقال ابن الجوزي: الأمل مذموم إلا للعلماء، فلولا أملهم لما صنفوا ولا ألفوا، وفي الأمل سر لطيف؛ لأنه لولا الأمل ما تهنى أحد بعيش ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا، وإنما المذموم منه الاسترسال فيه وعدم

---

(١) وِقْرَين: ثِقْلَيْن (م).

الاستعداد لأمر الآخرة، وليحذر كل الحذر من استفادة العلوم من الكتب وأخذها منها من غير أستاذ يوقفه على معانيها ويبين له مبانيها؛ لئلا يكون هناك قول ضعيف، ولئلا يقع في التصحيف والتحريف. وقال بعضهم: آلات العلم أربعة: عقل رَجَّاح، ومرشد فتاح، وكتب صحاح، ومداد وإلحاح، وهذا في غير الحديث أما الحديث فيجوز نقله من الكتب المعتمدة للعمل والاحتجاج به. كما هو مقرّر في مصطلح الحديث، فقد قال الطبري - رحمه الله تعالى - إذا وجدنا حديثًا في نسخة صحيحة جاز لنا روايته والحجة به، وحكى أبو إسحاق الإجماع على جواز النقل من الكتب المعتمدة ولا يشترط اتصال السند إلى مصنفها.

ومما يُرْوَى أن عبد الملك بن مروان دخل المسجد الحرام فرأى حلق العلم والذكر فأعجب بها وكلما أشار إلى حلقة وقال لمن هذه؟ قيل: لفلان، وكلهم من أبناء الفرس الذين من اليمن المعبر عنهم بالأبناء، فرجع إلى منزله وبعث إلى أحياء قريش فجمعهم وقال لهم: كنا -فيما قد علمتم- أي جاهلية فمنّ الله علينا بمحمد ﷺ بهذا الدين حتى غلبكم أبناء الفرس، فلم يردّ عليه أحد إلا علي بن الحسين -رضي الله عنهما- فإنه قال: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ثم قال عبد الملك: ما رأيت كهذا الحي من الفرس ملكوا من أوّل الدهر فلم يحتاجوا إلينا، وملكنا فما استغنينا عنهم ساعة.

وفي اللباب لابن الأثير، الأبناء يقال في التعريف فلان من الأبناء والنسبة إليه ابناوي، وكل من ولد باليمن من أبناء الفرس الذين وجههم كسرى مع

سيف بن ذي يزن وليس من العرب يسمونه الأبناء، وممن نسب بهذه النسبة طاوس بن كيسان، ووهب بن منبه بن كامل اليماني أبو عبد الله الأبناوي بفتح الهمزة وسكون الموحدة بعدها نون ثقة من الثالثة، وقال ﷺ: «يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم»، وقال ﷺ لعلي رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حُمُر النعم[1]»، وقيل: تعلموا قبل أن تُسَوَّدُوا أي تصيروا سادة منظورًا إليكم فلا يمكنكم التعلم، وقال ﷺ: «اغتنم خمسًا قبل خمس؛ شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك.

وقد ذكر شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الشافعي رضي الله عنه في رسالة له مشتملة على بيان تعلم العلوم وتعليمها، وحصر أنواعها وبيان حدودها وفوائدها وسماها «باللؤلؤ النظيم في شروط التعلم والتعليم» لا بأس بذكرها هنا للانتفاع بها فقال: أما شروط تعليمها وتعلُّمها فاثنا عشر أحدها: أن يقصد به ما وضع ذلك العلم له فلا يقصد به غير ذلك العلم كاكتساب مال أو جاه أو مغالبة خصم أو مكابرة. ثانيها: أن يقصد العلم الذي تقبله طباعه؛ إذ ليس كل أحد يصلح لتعليم العلوم، ولا كل من يصلح لتعلمها يصلح لجميعها، بل كل مُيَسَّر لما خلق له. ثالثها: أن يعلم غاية ذلك العلم ليكون على ثقة من أمره. رابعها: أن يستوعب ذلك العلم من أوّله إلى آخره تصورًا وتصديقًا. خامسها: أن يقصد فيه الكتب الجيدة

(١) حُمُر النَّعم: الإبل الحمراء وهي أنفس أموال العرب. (م).

المستوعبة لجميع الفن. سادسها: أن يقرأ على شيخ مرشد أمين ناصح ولا يستبد بذلك بنفسه وذكائه. سابعها: أن يذاكر به الأقران والأنظار طلبًا للتحقيق لا للمغالبة بل للمعاونة على الإفادة والاستفادة. ثامنها: أنه إذا حصل ذلك العلم لا يضيعه بإهماله ولا يمنعه مستحقه (لخبر من علم علمًا وكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار ولا يؤتيه غير مستحقه)، وأن يثبت ما استنبطه فكره مما لم يسبق إليه لمن أتى بعده كما فعل من قبله، فمواهب الله ﷻ لا تقف على أحد.

تاسعها: أن لا يعتقد في علم أنه حَصَّل منه مقدارًا لا يمكن الزيادة عليه، فذلك نقص وحرمان. عاشرها: أن يعلم أن لكل علم حدًّا فلا يتجاوزه ولا ينقص عنه. حادي عشرها أن لا يُدْخِل علمًا في علم آخر لا في تعلم ولا في مناظرة؛ لأن ذلك يشوّش الفكر. ثاني عشرها أن يراعي كل من المعلم والمتعلم حق الآخر خصوصًا الأوّل؛ لأن معلمه كالأب بل أعظم؛ لأن أباه قد أخرجه إلى دار الفناء ومعلمه دله على دار البقاء، واعلم أن للاشتغال بالعلم آفات كثيرة، فمنها الوثوق بالزمان المستقبل فيترك التعلم حالاً؛ إذ التعلم والتعليم في اليوم أفضل من غد وأفضل منه أمسه، والإنسان كلما كبر كثرت عوائقه، ومنها الوثوق بالذكاء فكثير من فاته العلم بركونه إلى ذكائه وتسويفه أيام الاشتغال، ومنها التنقل من علم قبل إتقانه إلى آخر، ومن معلم إلى آخر قبل إتقان ما بدأ به عليه فإنه هدم لما قد بني، ومنها طلب الدنيا والتردّد على أهلها والوقوف على أبوابهم، ومنها ولاية المناصب فإنها شاغلة مانعة كما أن ضيق الحال مانع أيضًا.

وأما حصر أنواع العلوم فهي إما شرعية وهي ثلاثة؛ الفقه والتفسير والحديث الشريف، وإما أدبية وهي أربعة عشر علمًا؛ علم اللغة، وعلم الاشتقاق، وعلم التصريف، وعلم النحو، وعلم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، وعلم العروض، وعلم القوافي، وعلم قرض الشعر، وعلم إنشاء النثر، وعلم الكتابة، وعلم القراءات، وعلم المحاضرات، ومنه علم التواريخ، وإما رياضية وهي عشرة: علم التصوّف، وعلم الهندسة، وعلم الهيئة، وعلم التعليمي، وعلم الحساب، وعلم الجبر، وعلم الموسيقى، وعلم السياسة، وعلم الأخلاق، وعلم تدبير المنزل، وإما عقلية وهي ما عدا ذلك؛ كالمنطق والجدل، وأصول الفقه، وأصول الدين، والعلم الإلهي، والعلم الطبيعي، والطب، وعلم الميقات، وعلم النواميس، والفلسفة، والكيمياء.

وأما بيان حدودها وفوائدها فعلم الفقه علم بحكم شرعي مكتسب من دليل تفصيلي وفائدته امتثال أوامر الله ونواهيه، وعلم التفسير علم يعرف به معاني كلام الله تعالى من الأوامر والنواهي وغيرهما وفائدته الاطلاع على عجائب كلامه ﷻ وامتثال أوامره ونواهيه، وعلم الحديث رواية علم يشتمل على نقل ما أضيف إلى النبي ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريرًا أو صفة، وفائدته الاحتراز عن الخطأ في نقل ذلك، وعلم الحديث دراية علم يعرف به حال الراوي والمروي من حيث القبول والردّ، وفائدته معرفة ما يقبل وما يردّ من ذلك، وعلم اللغة علم يُعْرَف به أبنية الكلم، ويقال علم بنقل الألفاظ الدالة على المعاني المفردة، وفائدته الإحاطة بها لمخاطبة أهل اللسان وللتمكين من إنشاء الخطب والرسائل، وعلم الاشتقاق علم يعرف

به أصل الكلام وفرعه وفائدته التمييز بين المشتق والمشتق منه، وعلم التصريف علم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلم التي ليست بإعراب وفائدته الاحتراز عن الخطأ في اللسان والتمكن من الفصاحة والبلاغة، وعلم النحو علم بأصول يعرف بها أحوال أواخر الكلم إعرابًا وبناء وغايته الاحتراز عن الخطأ في اللسان.

وعلم المعاني علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال، وفائدته فهم الخطاب وإنشاء الجواب بحسب المقاصد والأغراض جاريًا على قوانين اللغة في التركيب، وعلم البيان علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه، وفائدته التمكن من مخاطبة أهل اللسان بذلك، وعلم البديع علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة، وفائدته معرفة أحوال الشعر وما يدخل فيه من المحسنات وغيرها، وعلم العروض علم بأصول يعرف بها صحيح أوزان الشعر وفاسدها، وفائدته لذي الطبع السليم أن يأمن اختلاط بعض البحور ببعضها، وأن يعلم أن الشعر المأتي به أجازته العرب أو لم تجزه ولغيره هدايته إلى الفرق بين الأوزان الصحيحة والفاسدة في النظم، وعلم القوافي علم يعرف به أحوال أواخر الأبيات الشعرية من حركة وسكون ولزوم وجواز وفصيح وقبيح، وفائدته الاحتراز عن الخطأ في القوافي، وعلم قريض الشعر علم يعرف به كيفية النَّظْم وترتيبه، وفائدته تعرّف كيفية إنشاء الموزون السالم من العيوب.

وعلم إنشاء النثر علم يعرف به كيفية إنشائه وفائدته الاحتراز في الإنشاء، وعلم الكتابة علم يعرف به أحوال الحروف في وضعها وكيفية ترتيبها خطًّا، وفائدته الاحتراز عن الخطأ في الكتابة، وعلم القراءات علم بأصول يعرف بها أحوال ألفاظ القرآن الشريف من حيث النطق بها وفائدته معرفة ما يقرأ به كل من أئمة القراء والقرآن الشريف كلام الله تعالى المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف وفائدته سعادة الدارين، وعلم التصوّف علم بأصول يعرف بها صلاح القلب وسائر الحواس وفائدته صلاح أحوال الإنسان.

وعلم الهندسة علم يعرف به خواص المقادير الخط والسطح والجسم التعليمي ولواحقها وأوضاعها، وفائدته معرفة كمية مقادير الأشياء، وعلم الهيئة علم يعرف به الأجرام البسيطة من حيث كمياتها وكيفياتها وأوضاعها وحركاتها اللازمة لها، وفائدته معرفة أعيان تلك الأجرام وكلياتها وكمية كل مقدار منها وما يلحقها، والعلم التعليمي ما يبحث فيه عن الأشياء صورة ومادة كالمقادير والأشكال والحركات، وفائدته معرفة أعيان تلك الأشياء وكلياتها وكمية كل مقدار منها وما يلحقها، وعلم الحساب علم بأصول يتوصل بها إلى استخراج المجهولات العددية وفائدته صيرورة ذلك العدد من الحيثية المذكورة معلومًا باستعمال قوانينه، وعلم الجبر علم بأصول يعرف بها استخراج كمية المجهول بمقدّمة معلومة وفائدته صيرورة تلك المقادير المجهولة معلومة باستعمال قوانينها، وعلم الموسيقى علم بأصول يعرف بها النغم وكيفية تأليف الألحان بعضها من بعض، وفائدته بسط الأرواح وقبضها؛ ولهذا يستعمل في الأفراح والحروب وعلاج المرضى.

وعلم السياسة علم بأصول يعرف بها أنواع الرياسات والسياسات المدنية الفاصلة بين الخصوم والإنصاف بينهم، وعلم الأخلاق علم يعرف به أنواع الفضائل وكيفية اكتسابها وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها، وفائدته الاتصاف بأنواع الفضائل واجتناب أضدادها، وعلم تدبير المنزل علم بأصول يعرف بها الأحوال المشتركة بين الرجل وزوجته وولده وخدمه، وفائدته انتظام أحوال الإنسان في منزله ليتمكن من كسب السعادة العاجلة والآجلة، وعلم المنطق علم بأصول تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر، وفائدته الاحتراز عن الخطأ في الفكر، وعلم الجدل علم بأصول يعرف بها كيفية الأدلة ودفع الشبه عنها، وفائدته تحرير معرفة المباحث الفقهية والأصولية لتشحيذ الفكر.

وعلم أصول الفقه أدلة الفقه الإجمالية وطرق استفادة جزئياتها وحال مستفيدها وقيل معرفتها، وفائدتها نصب الأدلة على مدلولها ومعرفة كيفية الاستنباط منها، وعلم أصول الدين علم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية وفائدته معرفة ما يطلب اعتقاده، والعلم الإلهي علم بأصول يعرف بها أحوال الموجودات وما يعرض لها، وفائدته ظهور المعتقدات الخفية والاعتقاديات الباطلة، والعلم الطبيعي علم يبحث فيه عن أحوال الجسم المحسوس من حيث إنه مُعَرَّض للتغيير وفائدته معرفة الأجسام الطبيعية البسيطة والمركبة وأحوالها، ويفارق علم الكلام بأنه مبني على أصول الفلسفة من أن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد، وأن الواحد لا يكون قابلاً وفاعلاً معًا، وأن الإرادة ممتنعة وغير ذلك، وأما علم الكلام فمبني على أصول الإسلام من كتاب الله تعالى وسنة رسوله والإجماع الذي لا يخالفهما.

وعلم الطب علم يعرف به أحوال بدن الإنسان من صحة ومرض ومزاج وأخلاط وغيرها مع أسبابها من المآكل وغيرها، وفائدته استعمال أسباب الصحة كمية والعلم بها، وعلم الميقات علم يعرف به كمية الأيام والليالي وأحوالها، وفائدته معرفة أوقات العبادات، وعلم النواميس علم يعرف به حقيقة النبوّة وأحوالها ووجه الحاجة إليها، والناموس يقال للوحي وللملك النازل وللسنة وفائدته بيان ثبوت النبوّة وحاجة الإنسان إليها في معاشه ومعاده، وعلم الفلسفة ويسمى عند بعضهم علم الأخلاق علم بأصول يعرف بها حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح وفائدته العمل بما اقتضاه العقل من حَسَنٍ وقبيح.

ويتفرع على ذلك علوم أُخَر كعلم الأرتماطيق، وعلم المساحة، وعلم البيطرة، وعلم الفلاحة، وعلم السحر والطلسمات، وعلم الفراسة، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم أحكام النجوم، فعلم الأرتماطيق علم يعرف به أنواع العدد وأحواله وكيفية تولد بعضه من بعض أي من حيث إنه زوج أو فرد أو من زوج زوج أو من زوج فرد ونحوها، وفائدته ارتباط الذهن بالنظر في المجردات في المادّة ولواحقها، وعلم المساحة استخراج مقدار أرض معلومة بنسبة ذراع أو غيره وفائدته العلم بمقدارها، وعلم البيطرة علم بأصول يعرف بها أحوال الدَّوَابّ من صحة أو مرض، وفائدته استعمال ما يصلح لها، وعلم الفِلاحَة معرفة أحوال النبات من حيث تنميته بالسقي والعلاج وفائدته معرفة حاله من نموّ أو غيره.

وعلم السحر والطلسمات علم بكيفية استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية على ظهور التأثير في عالم العناصر إما بلا معين أو معين سماوي، والأوّل السحر والثاني الطلسمات وفائدتها تغيير الشيء من حال إلى حال، وعلم الفراسة معاينة المغيبات بالأنوار الربانية بسبب قرب آثار الصور وفائدته الإخبار بما ظهر بالتفرس، وعلم تعبير الرؤيا علم يعرف به الاستدلال من التخيلات الحلمية على ما شاهدته النفس حال النوم من عالم الغيب، وحكته القوّة المخيلة بمثال يدل عليه من عالم الغيب والشهادة، وفائدته الإخبار بما ظهر بالاستدلال بما ذكر، وعلم أحكام النجوم علم يعرف به الاستدلال بالأشكال الفلكية على الحوادث السفلية وفائدته العمل بما ظهر بالاستدلال بما ذكر.

واعلم أن بعض العلوم المذكورة قد يمكن دخوله في بعض كعلم الفرائض، فإنه وإن كان داخلاً في علم الفقه فقد أفرد على حِدَته، وكعلم الأرتماطيق فإنه وإن كان داخلاً في العلم التعليمي فقد أفرد على حِدَته، انتهى ما قاله العَلاَّمَة زكريا الأنصاري في رسالته.

وقال بعضهم: تنحصر العلوم الرياضية في أربعة؛ الهندسة والهيئة والمويسيقى والحساب، وقال بعضهم:

إِنَّ عِلْمَ الحِسَابِ عِلْمٌ رَفِيعٌ فِيهِ عَوْنٌ إِذْ تَشْتَرِي وتَبِيعُ
لَمْ يَضِعْ قَطُّ دِرْهَمٌ بِحِسَابٍ وأُلُوفُ بِلاَ حِسَابٍ تَضِيعُ

وقيل:

إِنَّ الحسَابَ مِنَ العُلُومِ جَلِيلُ وعَلَى دَقِيقَاتِ الأُمُورِ دَلِيلُ
فَاحْرِصْ على عِلْمِ الحِسَابِ فَإِنَّه بِرياضَةِ المُسْتَصْعبينَ كَفِيلُ
لَوْلاَ الحِسَابُ لِعِلْمِ كُلِّ فَرِيضَةٍ لَمْ يُعْلَمِ التَّحرِيمُ والتَّحْلِيلُ

وقال بعضهم: العلم علمان علم اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم، وعلم القلب فذلك العلم النافع، والعلم النافع هو الذي يتبعه العمل. وقال بعضهم إن الحكمة هي كلما دعت إلى مكرمة أو نهت عن قبيح، وهي ما قال فيها عليه الصلاة والسلام: «الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها»، وهي أيضًا المرادة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة/ ٢٦٩]فَسَّرَها العلماء بتفاسير كثيرة ترجع إلى العلم النافع، ولله دَرُّ من قال:

إِنَّما النَّفْسُ كالزُّجَاجَةِ والعِـ لمِ سِرَاجٌ وحِكْمَـــــةُ الله زَيْتُ
فَإِذَا أَشْـــــرَقَتْ فَإِنَّـــك حَيٌّ وَإِذَا أَظْلَمَتْ فَإِنَّـــــكَ مَيْتُ

وقيل: العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك، وقيل: الخير كثير وقليلٌ فاعله، وأفضل العلوم علم دين الله وشرائعه؛ فإن به حفظ الإيمان والإسلام اللذين هما من أَجَلِّ ودائعه، وأفضله علم العقائد الدينية فإن به يهتدي المكلف إلى المسالك السَّنِيَّة، ويرتقي إلى المراتب السَّنِيَّة، والعلوم الواردة في الكتاب والسنة منها ما يتعلق بأفعال المكلفين، ومنها ما يتعلق بأحوال المبدأ والمعاد، ومنها ما يتعلق بالأخلاق من الزهد والصبر والرضى وحضور القلب في العبادات ونحو ذلك من مكارم الأخلاق.

والأوّل منها: إما أن يتعلق بأفعال المكلفين بطريق القصص والأخبار ويسمى علم الوعظ والتذكير، وإما بطريق شرع الأحكام من الاقتضاء والتخيير، فإما أن يكون البحث عنها بتمهيد قواعد كلية يتوصل بها إلى استنباط الأحكام، ويسمى هذا بعلم أصول الفقه أو باستنباط الأحكام الجزئية من أدلتها التفصيلية ويسمى بعلم الفقه، وعلم الشريعة، وعلم المذهب، وأما الثاني: وهو المتعلق بالمبدأ والمعاد أي بأحوالهما فإن كان لإثبات العقائد الدينية فقط فيسمى بعلم الاعتقادات وعلم أصول الدين، وأن اعتبر مع ذلك الإلزام على المكابرين في الحق والمعاندين في الدين يخص باسم علم الكلام، وأما الثالث وهو المتعلق بالأخلاق الباطنة فيسمى بعلم التصوّف، وعلم الرياضة، ومكارم الأخلاق، فهذه العلوم الستة أعني علم التذكير، والأصول والفقه، والكلام، والتصوّف، وهي العلوم الدينية التي يجب تحصيلها على كل مكلف الذي تضمنه قوله ﷺ:

«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة». ومن أشكل عليه علم من العلوم فعليه أن يرجع فيه إلى أهله فمن أُشكِلَ عليه شيء من تعلق الفقه رجع إلى أئمة الفقه، ومن أُشكِلَ عليه شيء من علوم الأحوال والرياضيات، ودقائق الورع ومقامات المتوكلين يرجع إلى أئمة الصوفية.

قال بعضهم: ويجب على طائفة من الأمة أن يتفقهوا في الدين ليكونوا قدوة للمسلمين وحفظًا للشرع من الضياع، فإذا قامت به هذه الطائفة سقط فرض الكفاية عن غيرها والمراد بالدين دين الإسلام، وقد جاء ﷺ بالهدى والنور، ومن ذلك ما شرعه الله على لسانه من التحليل والتحريم والوصايا والآداب وسير الأوّلين والآخرين وما قص من أحسن القصص، فأين كان ﷺ من الجانب الغربي إذ قضى الله إلى موسى الأمر؟ قال الله ﷻ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص/ ٤٤]، ولَمَّا انقلبت العصا حية وولى موسى عليه السلام هاربًا. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران/ ٤٤].

وكانت الأخبار الماضية وهي غيب لا يعلمها إلا الله ﷻ ثم من كان فيها فأخبر هو عليه السلام بها وشهدت العلماء منهم بذلك، كما قال ﷻ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ [الأحقاف/ ١٠] أي أنه لم يختلف خبره ﷺ عن خبر التوراة والإنجيل، فكان هذا أمرًا واضحًا في إعلام الله له بما كان من ذلك الغيب، وكذلك ما كان غائبًا عن أهل وقته مما علم به، كقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ

ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [التحريم/ ٣] فأحاط بالغيب من الوجوه الثلاثة؛ الماضي كقوله «إذ قضينا»، والمستقبل كقوله «سيغلبون»، والحاضر كقوله «نبأني العليم الخبير» فأحاط بالغيب من جميع جهاته.

ومما استدل به الأكثرون على أفضلية الفقه على غيره من العلوم بعد معرفة الله تعالى قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ [التوبة/ ١٢٢] لما كان نفر جميع المؤمنين لطلب التفقه غير ممكن، قال الله تعالى: فلولا أي فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة، أي من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم لتحصل بهم الكفاية ليتفقهوا في الدين، ليتكلفوا الفقاهة فيه، ويتحملوا المشاق لأخذها وتحصيلها، ولينذروا قومهم ليجعلوا عزمهم وصرف همتهم في التفقه إنذار قومهم وإرشادهم ونصحهم، فأوجب تعالى النفر[١] في طلب التفقه على البعض دون الكل لعدم إمكانه ثم ينصرفون بعد التفقه راجعين إلى أوطانهم فَيُعَلِّمون غيرهم الذين لم ينفروا من أوطانهم، وقد أثنى الله تعالى عليهم بأن جعلهم منذرين، وقيل:

فلَوْلاَ العِلْمُ مَا شَرُفَتْ أُنَاسٌ وَلاَ عَرَفُوا الحَلالَ مِنَ الحَرَامِ
وأَهْلُ اللهِ أَهْلُ العِلْمِ حَقًّا بما حَفِظُوهُ مِنْ حُسْنِ الكَلامِ

---

(١) النَّفْر: الخروج والتَفرُّق في الأرض. (م).

فالفقيه كل الفقيه من لم يُقَنِّط الناس من رحمة الله، ولمْ يُرَخِّص لهم في معاصي الله، ولم يُؤَمِّنهم عذاب الله، ولم يَدَعْ القرآن رغبة عنه إلى غيره.

وقد جرت عادة الله تعالى في خلقه على مر الأعوام والدهور أنه لا يخلو زمن من الأزمنة ولا قرن من القرون عن أئمة من العلماء الأعلام لإقامة شرائع الإسلام وتقرير الحدود والأحكام، وأنه إذا انقرضت طائفة خلفتها أخرى؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي قائمين بأمري متظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»، فَسَّرَه البخاري بطائفة أهل العلم، فالكتاب والسنة موجودان بين المسلمين إن شاء الله تعالى إلى يوم الدين.

وقد انتهى تدوين فروع الفقه إلى أربعة كلهم عدول عدّلهم العلماء، وأخذوا عنهم لتلقيهم الأحكام التي اجتهدوا فيها عن الصحابة والتابعين والعلماء مما استقرّ ذلك عمن ذكر، وهؤلاء الأربعة هم: الإمام أبو حنيفة النعمان، والإمام مالك بن أنس، والإمام محمد الشافعي ابن إدريس، والإمام أحمد بن حنبل، ولكل واحد من هؤلاء الأربعة أتباع قلدوا متبوعهم فيما ذكره، فكل مجتهد وكل مقلد لمجتهد فيما صح عنه على خير؛ حيث أراد الله به الخير وفقهه في الدين، وأما اختلاف الأئمة في بعض المجتهدات فللرّحمة العامة المبعوث بها ﷺ قال تعالى﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء/ ١٠٧] ويحسن هنا قول الشيخ الجعبري رحمه الله في الأئمة؛ حيث قال:

بالشَّــــافِعِي بِمُحَمَّـــــدٍ وبِأَحْمَدٍ وبِمَالِكٍ وأَبِي حَنِيفةَ نَقْتَدِي
عُلَمَاءُ دِينِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ أَنْصَارُ شَرْعِ الهَاشِمِيِّ مُحَمَّدِ
الخُلْفُ[١] مِنْهُم فِي المَذَاهِبِ رَحْمَةٌ وتَفَسُّحٌ في الدِّينِ فَاسْمَع وَاقْتَدِ
ما كان خُلْفُهُم عِنَادًا فَاسْتَمِعْ قَوْلِي ودَعْ قَوْلَ اللَّئِيمِ المُعْتَدِي
كُلٌّ رَوَى عَنْ أَحْمَدٍ مَا قَدْ رَوَى عَنْ رَبِّهِ فَالكُلُّ هَادٍ مُهْتَدِي
أَخَذُوا بِقَوْلِ اللهِ جَلَّ جَلالُه حَقًّا وبِالخَيْرِ الصَّحِيحِ المُرْشِدِ
نَقَدُوا الصَّحِيحَ من السَّقِيمِ وبَيَّنُوا نَهْجَ الصَّوَابِ لأَهْلِ سُنَّة أَحْمَدِ
فَبِهِم بَــــدَا نَهْجُ الهِدَايَةِ ظَاهِرًا فاسْلُكْهُ تَرْشُدْ للصَّوَابِ وتَسْعَدِ
فاللهُ يَرْحَمُهُمْ وَيَرْضَى عَنْهُمُ أَهْلُ الهِدَايَةِ والمَقَالِ الأَرْشَدِ

وقال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» وقال ﷺ: «إن الأنبياء لم يورّثوا درهمًا ولا دينارًا إنما ورّثوا العلم»، فمن أخذه أخذه بحظ وافر، فالعلم أفضل العبادات وأشرفها وأكملها وأفخرها، والعلماء أفضل الناس وأرفعهم قدرًا وأحسنهم ذكرًا، والأحاديث والآثار المرغبة في إفادة العلم واستفادته كثيرة، وكيف لا وهو أولى ما صرفت الهمة في تحصيله، وأعلى ما دأب المكلف في معرفة دليله ومدلوله، وهو وإن تنوّع فمرجعه إلى علم ربوبية وعلم عبودية، ومعرفة الله أولى بالتقسيم، وهي

(١) الخُلْف: الاختلاف. (م).

السبب الأعلى والطريق المستقيم. وروى البخاري ومسلم من حديث معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين».

قال الإمام النووي رحمه الله: وهذا من أقوى الأدلة على الحكم على طالب العلم بأن الله تعالى أراده واصطفاه؛ لأن إرادة الله بالخير للإنسان مغيبة عنا، وهذا فيمن طلب العلم مريدًا به وجه الله تعالى، وأما إذا كان طلب العلم لغرض دنيوي: كمال أو رياسة، أو منصب، أو جاه أو شهرة، أو نحو ذلك فهو مذموم، وقد قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى/ ٢٠]، وقال ﷺ: «من تعلم علمًا يريد به عَرَضًا (وهو بالعين المهملة وفتح الراء متاع الدنيا وحطامها) من الدنيا لم يَرَح رائحة الجنة أي لم يجد ريحها أو لم يشمه»، وقوله لم يرح بفتح الياء والراء أصله يراح أي وجد الريح، وحكى بعضهم ضم أوله وكسر الراء والأوّل أجود وعليه الأكثر، وحكى ابن الجوزي ثالثة وهي بفتح أوّله وكسر ثانيه من راح يريح، وعبارة النهاية شاملة للغات الثلاث، ونصها راح يريح وراح يراح وأراح يريح إذا وجد رائحة الشيء.

وعنه ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قيل: وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: حلق العلم». وروي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر لأن تغدو

فتعلم آية من كتاب الله تعالى خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغدو فَتُعَلِّم بابًا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة. قال بعضهم: وهو نهاية في التحريض على نشر العلم وتعليمه للناس والتصدي لتعلم أحكام الدين، وبيان جزيل الثواب للمعلم وإن كان ما يعلمه قليلاً، وقوله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته[١] (بفتح اللام) في الخير، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس» وقوله ﷺ: «يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم»، وقال بعضهم: أول العلم الصمت، والثاني الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العمل، والخامس نشره.

قال بعضهم: والمنكر لما وردت به الشرائع هو الذي كل ذهنه ووقف فهمه بسبب طربه من النظر في علم المعقولات ثم لا يتقنه ولا يحققه فتختبط عليه الأمور وتلتبس ولا يهتدي بشيء؛ ولهذا ترى كثيرًا ممن ينسب إلى المعقولات عارض كثيرًا من الأحاديث والسنن الثابتة وأنكرها وقال بخلافها؛ كالفلاسفة وغالب أهل المنطق من الإسلاميين وذلك أنهم لم يتقنوا المعقول كل الإتقان؛ فخبطوا وظنوا أن الأحاديث النبوية تخالف القواعد العقلية؛ فلم يسعهم إلا ردّها أو تحريفها ليوافق المعقول بزعمهم، ولو أتقنوا المعقول لعلموا أن الشرع لم يرد ما يخالف العقل ألبتة، فكانوا يطبقون الأحاديث على المعقولات، انتهى. وكما يجب علينا الإيمان

(١) سَلَّطَه على هلكته: أهلكه وأنفقه. (م).

والتصديق بكل ما جاءت به الرسل وإن لم نفهم حكمته فكذلك يجب علينا الإيمان والتصديق بكلام الأئمة، وإن لم نفهم علته حتى يأتينا عن الشارع ما يخالفه، وقال بعضهم: كل علم لا يؤيده الكتاب ولا السنة فهو ضلال.

وقال ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهوا» بضم القاف؛ أي مارسوا الفقه وتعاطوه، أي أن أصول بيوتهم الشريفة تعقب أمثالها ويسري كرم أعراقها إلى فروعها ولا يكون فيه خيار بمجرد ذلك، فلا خيار في الإسلام إلا بالفضل والتقوى، فمن اتفق له مع ذلك أصل حميد شريف الأعراق كملت فضيلته وربما فضل عن غيره، والسائحون في قوله تعالى هم طلاب العلم، والسياحة أمر عظيم في تكميل النفس؛ لأنه يلقى أفاضل مختلفين فيستفيد من كل واحدة فائدة مخصوصة، وقد بلغ الأكابر من الناس فيستحقر نفسه في مقابلتهم وقد يصل إلى المدارس الكبيرة فينتفع بها، وقد يشاهد اختلاف أحوال أهل الدنيا بسبب ما خلق الله في كل طرف من الأحوال الخاصة بهم فتتقوى معرفته، فالرحلة إلى العلماء والانتقال عن الأوطان في طلب العلوم واكتساب الفضائل والفوائد هي أمر واجب أو مستحب.

وحينئذٍ فمن لم يجد مُعَلِّمًا يعلمه في بلده أو وطنه ما يحتاج إليه من أمر دينه ومعاشه؛ فليرحل وجوبًا في الواجب وندبًا في المندوب اقتداءً بالسلف الصالح والخلفاء التابعين، فقد رحل موسى إلى الخضر -عليهما الصلاة

والسلام- للاستفادة منه، ورحل جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه مسيرة شهر إلى أنس بن عبد الله في طلب حديث واحد، ورحل عتبة بن الحارث من مكة إلى المدينة في مسألة واحدة، ولا يخفى ما يحصل للإنسان في غربته من الفضائل العظيمة والخصال الجسيمة، وقيل:

تَغَرَّبْ عَنْ الأَوْطَانِ في طَلَبِ العُلَى　　وسَافِرْ ففي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ وَاكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ　　وعِلْمٌ وآدَابٌ وصُحْبَةُ مَاجِدِ
وَإِنْ قِيلَ في الأَسْفَارِ ذُلٌّ وغُرْبَةٌ　　وقَطْعُ فَيَافٍ[١] وارْتكَابُ شَدَائدِ
فَمَوْتُ الفَتىَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ　　بِدَارِ هَوَانٍ بَيْنَ وَاشٍ وَحَاسِدِ

ومَثَّل بعضهم في معنى ذلك بمثالين أحدهما: أن الماء الصافي الزُّلَال[٢] إذا استمرّ في محل واحد من غير ورود شيء عليه من ماء آخر فإنه يصير مُتَغَيِّرًا مُنَتَّنًا، الثاني: أن البدر المُنير لولا غربته وانتقاله من منزلة إلى منزلة لم يحصل له الكمال والشرف، وما أحسن ما قيل في معنى ذلك:

كَثْرَةُ المُكْثِ في المَنَازِلِ ذُلٌّ　　فاغْتَنِمْ سَفْرَةً بِها تَتَفَنَّنْ
مَا جَرَى المَاءُ فَهْوَ عَذْبٌ زُلَالٌ　　وإِذَا طَالَ مُكْثُهُ يَتَعَطَّنْ

(١) فَيَاف: صحارٍ واسعة لا ماء فيها. (م).
(٢) الزُّلَال: العذب البارد الصافي. (م).

ومعلوم أن الغربة للإنسان أفضل من الإقامة في بلده، والله تعالى لا يزال في عون عبده غائبًا كان أو حاضرًا مقيمًا أو مسافرًا، وكان ﷺ يقول للمسافر: «أستودع الله دينك وأمانتك»، وجاءه رجل فقال: إني أريد سفرًا، فقال له: زوّدك الله التقوى، قال: زدني، فقال: وغفر ذنبك، فقال: زدني، فقال: ويسر لك الخير حيثما كنت وتوجهت. وذكر بعض الفضلاء أنه لما حج وأراد الانفصال كان قد صحبه أفاضل من أهل العلم بمكة فخرجوا معه لوداعه وقالوا له: تريد أن ترجع لهذا الموضع؟ قال: نعم، قال: اقرأ عند آخر رؤيتك هذا الموضع من سورة القصص قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص/ ٨٥] فإنك ستعود إن شاء الله تعالى، قال فقرأتها فعدت، وقرأتها أيضًا فعدت، وقرأتها وأنا راج أن أعود إن شاء الله تعالى.

ويقوي ما قاله هذا الفاضل ما رواه أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه المسمى «بانبعاث الساكن إلى أشرف المساكن» أن النبي ﷺ لما خرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة أدركته في الطريق الوحشة، فنزل عليه جبريل وقال: قل «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد». ولا يبالي الشخص بما يقاسي في الغربة من الهموم والمذلة وكسر النفس والإهانة وغير ذلك؛ حيث كان متمسكًا بالتقوى، وقد أنشد الشيخ أيوب الشامي في ذلك؛ حيث قال:

زَعَمَ الَّذِينَ تَشَرَّقُوا وتَغَرَّبُوا ... أَنَّ الغَرِيبَ وإنْ أَعَزَّ ذَلِيلُ
فَأَجَبْتُهم إِنَّ الغَرِيبَ إذا اتَّقَى ... مَهْمَا أَحَلَّ به الرِّكَابُ جَلِيلُ

ثم لا فرق بين أن يكون غنيًّا أو فقيرًا، مالكًا أو مملوكًا، فلا تحتقر لما هو فيه من الفقر والفاقة، بل اعتبر فضله دون عيبه، فقد ورد عنه ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» فلا عبرة بالظواهر، كما قيل:

يرى ظَاهِري للنَّاسِ في حُسْنِ صُورَةٍ ... ولي كَبِدٌ مُلْقًى عَلَى آلَةِ السَّبْكِ(١)
وَلِي ظَاهِرٌ يَنْكِي العدوَّ وبَاطِنٌ ... ملمي(٢) لو يَدْرِي حَقِيقَتَهُ يَبْكِي

وقال ﷺ: «شدائد الدنيا أربعة؛ أوّلها: غربة ولو كانت ساعة، وثانيها: دَيْن ولو كان حبة، وثالثها: سفر ولو كان فرسخًا، ورابعها: سؤال ولو كان مقدار خَرْدَلَةَ»، وقال بعضهم: السؤال مُرّ لما يترتب عليه من بذل الوجه الذي لا يَعْدِلُهُ شيء في الدنيا؛ ولهذا قيل:

وإذا السُّؤالُ مَعَ النَّوَالِ(٣) وَزَنْتهُ ... رَجَحَ السُّؤَالُ وخَفَّ كُلُّ نَوَالِ

قال العلماء ﷺ ما وجب عليك عمله من عبادة وغيرها وجب عليك العلم به فورًا عند إمكانه، وقال ابن عباس -رضي الله عنهما- كفاك من علم

---

(١) آلَةُ السَّبْك: الآلة التي تُذاب وتفرغ فيها المعادن . (م).
(٢) مُلمِّي: العارف والمحيط بحالي. (م).
(٣) النَّوال: العطاء. (م).

الدين (أي الشريعة) ما لا يسعك جهله؛ أي ما لا بدّ لك من معرفته في إقامة واجبات الدين، ويكفي في ذلك معرفة أحكامها الظاهرة ولا تجب معرفة دقائقها، فالظاهرة نحو تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما بحيث يجزم اعتقاده بذلك ولو عن تقليد وتعلم واجبات الطهارة والصلاة، وتعلم الصوم بأن يعلم أن وقته من الفجر إلى غروب الشمس، وأن الواجب فيه النية والإمساك عن المفطرات من أكل ونحوه، وأن ذلك مستمر إلى رؤية الهلال أو تمام العدّة، وتعلم واجبات ما لزمه من الزكاة، وتعلم كيفية الحج إذا عزم على فعله بأن يعلم أركانه وواجباته وغير ذلك من دقائقه.

وفي الأثر «مَنْ عَبَدَ الله تعالى بالجهل كان ما يفسده أكثر مما يصلحه»، وروى الطبراني في الأوسط «ما عُبِدَ الله بشيء أفضل من فقه في دين، ولفقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد»، وقوله ولفقيه واحد أي وجوده وبقاؤه فإن الفقيه يأمر الناس بالطاعة ويدعوهم إلى سبيل الرحمن فيصلون إلى السعادة الباقية والدرجات الراقية، وكل ذلك مخالف لمراد الشيطان، فيكون العالم أشدّ عليه وأبغض إليه بخلاف العابد، والمراد من الألف هنا المبالغة في الكثرة، وقال عمر رضي الله تعالى عنه: «تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا» بضم المثناة وفتح السين وتشديد الواو، أي تجعلوا سادة، ومعناه تعلموا العلم قبل أن تصيروا سادة منظورًا إليكم فتستحوا أن تتعلموا بعد الكبر فتبقوا جهالاً، وقيل قبل أن تتزوجوا وتشتغلوا بالزواج عن العلم، وروى أيضًا «من يُرِدِ الله به خيرًا يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم

والله يعطي»، فإذا رأى أن الله أقامه في طلب العلم كان ذلك دليلاً على أن الله تعالى أراد به خيرًا.

وعَرَّف بعضهم الدين بأنه وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم بالذات، فقوله وضع إلهي أي أحكام وضعها المولى وشرعها وبيَّنَها قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الشورى / ١٣] الآيات وأما وصف نبينا بكونه شارعًا فباعتبار نقلها عن الله؛ ولذلك يقولون نبينا هو الشارع المَجَازي والله هو الشارع الحقيقي، واحترز بذلك عن وضع الخلق كآلات النجارة والقزازة وغير ذلك فلا تسمى دينًا، وقولنا سائق أي باعث خرج به الأوضاع الإلهية غير السائقة كإنبات الأرض وإمطار السماء، وقولنا لذوي العقول خرج به ما يسوقهم وغيرهم من الحيوانات كالأوضاع الطبيعية التي تهتدي بها الحيوانات لمنافعها كنسج العناكب واتخاذ النحل بيوتًا، ومضارها كاجتناب المهاوي والمهالك، وقولنا باختيارهم خرج به الأوضاع الإلهية الاتفاقية كالحَمِيَّة والعصبية، وقولنا المحمود احتراز عن الاختياري المذموم كالانهماك في الدنيا والشهوات فلا يسمى دينًا، وقولنا إلى ما هو خير لهم بالذات كالانهماك في خدمة الله وطاعته ومحبته فإن ذلك خير ذاتي يترتب عليه الفوز الأكبر غدًا، واحترز بذلك عن الخير لا بالذات كالانهماك في تصحيح الأبدان بالحكمة والعقاقير وغير ذلك فلا يسمى دينًا. وأجمع من هذا التعريف وأظهر منه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ

مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البيّنة/ ٥] وسمي دينًا للتَّدَيُّن به، ويسمى ملة أيضًا وصراطًا مستقيمًا قال تعالى: ﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [الفاتحة/ ٦] أي الدين القَيِّم الذي لا اعوجاج فيه، فمن سَبَّ الدين أو المِلَّة أو المذهب فإنه يكفر؛ لأنها عبارة عن الشرع الشريف الذي شرعه الله لنا، قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ [النحل/ ١٢٣].

وقد فَضَّل الله تعالى هذه الأمة على سائر الأمم بما خصهم به من الإيمان والحكم والعلوم الشرعية خصوصًا علم الشريعة والحقيقة، قال تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ** ﴾ [الحج/ ٧٨] الآية. ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة/ ١٤٣] ومعنى الوسط في الآية الجزء الذي بين الطرفين، والمعنى أنهم وسط لتوسطهم في الدين فلم يغلوا كَغُلُوّ النصارى ولم يقصروا كتقصير اليهود ولكنهم أهل وسط واعتدال، وقال الطبري: الوسط في كلام العرب الخيار، يقولون فلان وسط في قومه وواسط إذا أرادوا الرفع في حسبه، وقال الزَّمَخْشَرِيّ: قيل للخيار وسط لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والأوساط محفوظة، وقال تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ [آل عمران/ ١١٠]،

وهذه الآية مما استدل بها على أفضلية نبينا محمد ﷺ على جميع المخلوقات؛ إذ حاصلها الإخبار بأن أمته أفضل الأمم، ولا شك أن خيرية الأمم بحسب كمالهم في الدين، وذلك تابع لكمال نبيهم الذي يتبعونه، فتفضيل الأمة من حيث إنها أمة تفضيل للرسول الذي هم أمته.

ورُوِي عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الجنة حُرِّمَت على الأنبياء كلهم حتى أَدْخُلَها، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي»، وفي حديث عبد الله بن بُرَيْدَة قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون من هذه الأمة»، وأدل دليل على عِظَم شرفهم ورفعة رتبتهم وكمال فخرهم عند ربهم قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة/ ٣].

وأما الدين فثلاثة؛ إيمان وإسلام وإحسان، فالإيمان لغةً التصديق بمعنى إذعان الحكم وقبوله وهو إفعال مأخوذ من الأمن؛ لأن حقيقته الأمن من التكذيب والمخالفة، وشرعًا تصديق القلب بما علم ضرورة مجيء الرسول به من عند الله، ولا يعتبر إلا مع التلفظ بالشهادتين من القادر، وهل النطق بهما شرط لإجراء أحكام المؤمنين في الدنيا أو جزء من مُسَمَّاه؟ قولان ذهب جمهور المحققين إلى أوّلهما، وذهب كثير من الفقهاء إلى ثانيهما، ولكن من صدق بقلبه واخْتَرَمَتْهُ[1] المَنِيَّة قبل اتساع وقت الإقرار به فهو مؤمن عند الله تعالى، والإسلام إعمال الجوارح من

(١) اخْتَرَمَتْه المَنِيَّة: مات وذهب. (م).

الطاعات؛ كالتلفظ بالشهادتين والصلاة والصوم والحج ولكن لا تعتبر الأعمال في الخروج من عهدة التكليف إلا مع الإيمان والتصديق، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك كما في خبر الصحيحين المشتمل على بيان الإيمان بأن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر كله خيره وشره.

وجملة أحكام التكليف خمسة؛ واجب ومندوب ومحظور (أي حرام) ومكروه ومباح، فالواجب يرسم بأنه الذي يثاب فاعله امتثالاً كالصلاة ويعاقب بمشيئة الله تعالى تاركه، ويرسم المندوب بأنه الذي يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، ويرسم المحظور بأنه الذي يعاقب بمشيئة الله تعالى فاعله ويثاب تاركه امتثالاً، ويرسم المكروه بأنه الذي يثاب تاركه ولا يعاقب فاعله، ويرسم المباح بأنه الذي ليس في فعله وتركه ثواب ولا عقاب. وشرائط التكليف ثلاثة؛ أحدها البلوغ والعقل وهو صفة يميز بها الحسن والقبيح ومحله القلب، فلا تكليف على صبي ومجنون لرفع القلم عنهما، وثالثها بلوغ دعوته ﷺ إلى توحيد الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء/ ١٥].

وجملة أركان الإيمان أي أجزاؤه التي تتركب منها ماهيته ثمانية يجب على المكلف أن يعلمها بأن يعتقد ويصدّق بقلبه اعتقادًا جازمًا، ومعنى تصديقه العلم بأنه تعالى واجب الوجود بذاته وقِدَمِه ووحدانيته وأُلوهيته وبصفاته وبرسله، وبأن دين

الإسلام حق، وبأن الله ورسوله ﷺ صادقان فيما أخبرا به، فلا يكفي الاعتقاد من غير علم؛ إذ اعتقاد صدق الله ورسوله إنما يصح بعد العلم بصدقهما في إخبارهما، وإنما يكون كذلك بعد العلم بأنه حي، بعد العلم بأنه فاعل، إلى آخر الصفات الآتية؛ الأولى: أن الله حي لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة/ ٢٥٥]، ولأنه لا يجوز وجود شيء من الأمور الموجودة من غير حي، الثانية: أن تعتقد أن الله تعالى عليم بالجزئيات والكليات، لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [النساء/ ١٦٦]، ولقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الرعد/ ٩]، ولأن الأفعال المشاهدة لا تحصل من جاهل مع أن الجهل نقص، الثالثة: أن تعتقد أن الله قادر على كل شيء لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة/ ٢٠].

الرابعة: أن تعتقد أنه متكلم بكلام نفسي أزلي قائم بذاته من غير حرف ولا صوت ولا انتهاء لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح/ ١٥] ولقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء/ ١٦٤]، فالكلام المشتمل على الحرف والصوت دال على الكلام النفسي القائم بالذات اتصف به المولى وأسمعه نبيه موسى بهذا الوصف من غير حرف ولا صوت، والكلام صفة عبر عنها بالنظم المعروف المسمى بالقرآن غير مخلوق، بمعنى أنه موجود أبدًا وأزلاً مكتوب في مصاحفنا بأشكال الكتابة وصور الحروف الدالة عليه محفوظ في صدورنا مقروء بألسنتنا بحروفه الملفوظة المسموعة.

الخامسة: أن تعتقد أنه تعالى سميع من غير جهة قرب ولا بعد سواء في ذلك السر والجهر، لا تختلف عليه الأصوات ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة/ ١] وإن عدم السمع نقص، والسمع صفة أزلية تحيط بالمسموعات، السادسة: أن تعتقد أنه تعالى بصير من غير حدقة ولا جارحة[1]، والإبصار صفة أزلية تحيط بالمبصرات، فالله مبصر للأشياء بلا واسطة، السابعة: أن تعتقد أنه تعالى مريد لكل واقع في العالم من خير وشر وطاعة ومعصية، وإن كان لا يرضى المعصية من خلقه، والإرادة صفة تخصص أحد طرفي الشيء من الفعل والترك بالوقوع، ومذهب محققي أهل السنة أن الإرادة والمشيئة غير الرضى والمحبة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر/ ٧] مع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام/ ١١٢]، الثامنة: أن تعتقد أنه تعالى باقٍ أي واجب الوجود لذاته بغير زمان ولا نهاية، بمعنى أنه لا يسبقه قِدَم ولا يلحقه عدم، فهذه الصفات الثمانية للذات المقدَّس قديمة؛ لأنها قائمة بذاته لازمة له، وقد نظمها بعضهم في قوله:

حَيَاةٌ وعِلْمٌ قُدْرَةٌ وإِرَادَةٌ كَلاَمٌ وإِبْصَارٌ وسَمْعٌ مع البقا
صِفَاتٌ لِذَاتِ اللهِ جَلَّ قديمةٌ لَدَى الأَشْعَرِيّ الحَبْرِ[2] ذِي العِلْمِ والتُّقَى

---

(١) حَدَقَة ولا جَارِحَة: الحدقة: هي السواد المستدير وسط العين، والجارحة: عضو في الجسد والمقصود عدم التجسيد. (م).

(٢) الحَبْر: الرجل الصالح العالم. (م).

وأعمها العلم والكلام لتعلقهما بكل واجب وجائز ومستحيل وتعلق القدرة والإرادة بالممكنات دون الواجبات والمستحيلات، ويتعلق البصر بجميع الموجودات قديمها كرؤيته تعالى ذاته وصفاته وحادثها كرؤيته تعالى ذوات خلقه وصفاتهم، وكل صفة من صفاته تعالى مُتَّحِدَة لا تعدّد فيها، وأما قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه/ ٩٨] فمن مجاز التشبيه؛ لأن علمه تعالى واحد لا تعدّد فيه ولا سعة، وإنما الاتساع من حيث كثرة التعلقات بالمعلومات فيجب تنزيهه تعالى عن كل نقيصة ذاتًا وصفات؛ إذ له الكمال المطلق فيهما، وقد وصف نفسه بالأعلى لعُلُوِّه فيهما؛ إذ ذاته أعلى الذوات قدرًا وشرفًا وكذا كل صفة له.

ووصف نفسه بالوحدانية لتوحده فلا شبيه له ولا نظير قديم لا يسبقه قدم أبدي لا يلحقه عدم؛ لأنه لا أوَّل له ولا آخر له؛ لأنه تعالى خلق العالم، ولأنه لو لم يكن قديمًا لكان حادثًا، وهو باطل ولا تجوز عليه التغيرات، ولا تحل به الحادثات تعالى عن الجهة والحلول والهبوط والصعود والقيام والقعود، ليس بمتحرك ولا ساكن ولا منفصل عن العالم منزه عن الجسم والتحديد والتقسيم، فلا دهر يخلقه، ولا قهر يلحقه، ولا شيء يستره، ولا كشف يظهره، ولا عَدَّ يجمعه، ولا ضدّ يمنعه، ولا حدّ يقطعه، ولا كون يحصره، ولا عون ينصره، ولا يتقيد بزمان، ولا يحويه مكان، ولا يتصوّر في الأوهام، ولا يتكيف في الأذهان، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا يطرأ عليه نسيان، ولا يحمله شيء من مخلوقاته، ولا يَعْزُبُ عن علمه شيء من معلوماته، لا تأخذه سِنَة ولا نوم ولا يتوجه عليه عتب ولا لوم،

تعالى عن الظلم والجَوْر في شيء من أفعاله، وعن التناقض في شيء من أقواله، لا اعتراض عليه في تصرفه في مخلوقاته بما أراده في الأزل من تقديراته منزه عن الأغراض في الأفعال والأحكام، أفعاله لا تعلل وكلماته لا تبدل لا يجب عليه شيء، يثيب من يشاء بفضله ويعذب من يشاء بعدله، وقال الإمام اللقاني:

فَإِنْ يُثِبْنَا فبِمَحْضِ الفَضْلِ وإِنْ يُعَذِّبْ فبِمَحْضِ العَدْلِ

وقَوْلُهم إِنَّ الصَّلاَحَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ زُورٌ مَا عَلَيْهِ وَاجِب

أَلَمْ يَرَوْا إِيلامَه الأَطْفَالا وشَبَهها فَحَاذِرِ المُحَالا

له الإفضال بالنعم على مستحق النعم لا قبح في شيء من أفعاله، كلها حسنة خيرها وشرها، نفعها وضرها، قليلها وكثيرها، لا حق لأحد عليه وله الحق على غيره، له إيلام الأطفال والدواب، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا اعتراض عليه ومن اعترض زاد شقاؤه واشتدّ بلاؤه وعظم عناؤه، ليست الربوبية مقيدة بمصالح العبودية؛ إذ لا حجر للعباد على ربهم حتى لا يفعل إلا بما يصلحهم، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية، وقد اجتمعت صفاته الثبوتية والسلبية جميعها في ضمن سورة الإخلاص فـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ نفي الكثرة والعدد لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء/ ٢٢]، ولأنه لو كان معه غيره لما استقام الخلق والأمر؛ إذ قد يريد أحدهما إيجاد شيء والآخر نفيه فلابدّ أن يكون أحدهما مقهورًا والمقهور لا يكون خالقًا ولا غالبًا فلا يكون إلهًا،

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ نفي الشريك والمعين، ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ نفي العلة والمعلول، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ نفي الشبيه والمثيل. ومن قال لك ما ذات الله؟ فقل له: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى/ ١١]؛ لأن المُتَمَاثِلَيْن يجري على أحدهما ما يجري على الآخر، فلو شابهه غيره وجرى على غيره الحدوث وصفات النقص لجرى ذلك عليه أيضًا فلا يكون إلهًا ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض؛ لأن هذه الأمور تلزمه الحدوث وصفاته النقص، والله تعالى بخلاف ذلك ولا زمان له ولا مكان.

قيل: البحث عن ذات الله إشراك والكف عن ذات الله إدراك، ومن قال: ما فعل الله؟ فقل له: كل يوم هو في شأن لا يشغله شأن عن شأن، ولا تشغله الأشياء عن الأشياء، يدبر الأمر يفصل الآيات، لا يُسَأل عما يفعل وهم يُسْألون، ولا يجري في العالم أمر إلا بإرادته وحكمه، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام/ ٥٩] الآية. وأنه لو جرى في العالم أمر بغير إرادته لكان مقهورًا مجبورًا وذلك نقص، وأن تعتقد أنه مثيب لعباده الصالحين ومعاقب للمذنبين لقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة/ ٧-٨] وقال: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت/ ٤٦] ولأن الثواب والعقاب لو لم يثبتا لَفَعَل من شاء ما شاء، ولبطل الأمر والنهي والعبادة وكل ما يخطر ببالنا مما يمتنع على ربنا فهو باطل والله بخلاف ذلك.

يعني أن ما هجس بالبال أي الذهن من تصور كيفيته تعالى وتشبيهه بشيء من الخلق ذاتًا أو صفة فهو باطل أوجبه قصور العقل والمعرفة، فإن الله بخلاف ما يخطر في الأذهان وفوق ما تنتهي إليه العقول ما وحده من كيفه، ولا أصاب حقيقته من مثله، ظهر فبطن، وبطن فعلم، ولطف فجل تعالى الله عما يقوله المبطلون علوًّا كبيرًا، وما سمعته مما يوهم جارحة كنحو﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [الفتح/ ١٠]، و ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص/ ٨٨]، فهو من المتشابهات التي نؤمن بها ونكل علمها إلى الله تعالى مع القطع بالتنزيه عن ظاهرها لاستحالتها عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونؤوّلها على ما يليق بجنابه المقدس، وكذا يجب الإيمان بأنبيائه ورسله أي يجب علينا الجزم واليقين بأنبيائه ورسله وهم قوم خصوا بنفوس قدسية حصلوا بها على المطالب دون اشتغال بالمبادئ الموصلة، فالنبوّة والرسالة بفضل الله تعالى لا بالاكتساب، قال الإمام اللقاني:

وَلَمْ تَكُنْ نُبُــــوَّةٌ مُكْتَسَبَة   ولَوْ رَقَى فِي الخَــيْرِ أَعْلَى عَقِبه
بَلْ ذَاكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ لِمَنْ   يَشَاءُ جَلَّ اللهُ وَاهِــبُ المِنن
وأَفْضَلُ الخَلْقِ عَلَى الإِطْلاقِ   نَبِيُّنا فَمِـــلْ عَنِ الشـــِّقَاقِ

والنبي إنسان أُوحِي إليه بشرع وإن لم يؤمر بتبليغه، والرسول إنسان أُوحِي إليه بشرع وأُمِرَ بتبليغه، والشرع ما شرعه الله من الأحكام للعباد، لقوله تعالى ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء/ ٥٩] أي لكتابه والرسول

مدة حياته، وبعد موته إلى سنته، أي اكشفوا عليه منهما؛ فالكتاب والسنة هما البينات والهدى اللذان أنزلهما الله تعالى، قال تعالى : ﴿حمٓ . تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر/ ١-٢] الآية، وقال جل ذكره وتقدست أسماؤه ﴿حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ [فصلت/ ١-٣]، والسنة أقوال نبيه عليه الصلاة والسلام وأفعاله وذلك وحي مُنَزَّل، وإذا تأملت فواصل القرآن وجدتها كلها لا تخرج عن المناسبة، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ . وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحى/ ٩-١٠] لا يجوز التبديل بينهما، ونهى ﷺ عن انتهار السائل، قال ﷺ: «ردوا السائل ولو بشق تمرة ولو بمثل رأس العصفور فلك أجرها مرتين». وروي أن أعرابيًّا سمع شخصًا يقرأ: والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم بدل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة/ ٣٨] فقال: ما ينبغي أن يكون كلام الله تعالى هكذا، فقيل له: إن القارئ غلط والقراءة والله عزيز حكيم، فقال: نعم هكذا يكون فإنه لَمَّا عَزَّ حَكَم.

وكذا يجب الإيمان بالبعث والنشور، لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة/ ٧٣]، ولقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن/ ٩] وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك/ ١٥] ولأنه لو لم يكن بعث ولا نشر لما كان أمر ونهي ولفعل كل من شاء ما شاء، وقيل:

فلَـــوْ أَنَّـــا إذا مِتْنَا تُـــرِكْنَا   لَكَانَ المَوْتُ رَاحَـــةَ كُلِّ حَيِّ
وَلَكِـــنَّا إِذَا مِتْنَـــا بُعِثْنَا   ونُسْأَلُ بَعْـــدَ ذَا عَنْ كُلِّ شَيِّ

وكذا يجب الإيمان بالجنة والنار وإلا لما كان أمر ونهي، وكذا يجب الإيمان بالصراط وبالميزان القسط، لقوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنبياء/ ٤٧] وبالحَوْضِ والشفاعة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ [الكوثر/ ١] فسره النبي ﷺ فقال: «هو حوض آنيته أكثر من عدد نجوم السماء، من شرب منه لم يظمأ بعده أبدًا»، ونؤمن بالقرآن وأنه كلام الله غير مخلوق، وأنه معجز لجميع البشر إنسهم وجِنِّهم مفترقين أو مجتمعين، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء/ ٨٨].

قال السنوسي رحمه الله: وأفضل المعجزات القرآن العظيم الذي لم تزل آياته تقرع أسماع البُلَغَاء، وتحرك لطلب المعارضة على سبيل التعجيز حمية اللسن المُتَوقِّدِي الفطنة الأقوياء المعارضين الخائضين في كل فن من فنون البلاغة طولاً وعرضًا بحيث لا تفلت من معارضتهم أمنع كلمة، وإن لم يعرض فيها بعجزهم فكيف وهم يسمعون في تعجيزهم صريح قوله تعالى: ﴿ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ ﴾ [هود/ ١٣] ثم تنزل معهم، فقال تعالى: ﴿ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ [البقرة/ ٢٣]، ومع ذلك لم تتحرّك أنفسهم، ومن عادتهم لا يتمالكون

معها عند ورود أدنى عارض يقدح[١] في مناصبهم وإن كان ذلك حَتْفَ أنفسهم، فكيف بما هو من نوع البلاغة التي هي كلامهم وتدب فيهم دبيبًا[٢] حتى إنهم بها في كل واد يهيمون؟ ومن لم يستح منهم وانتدب لمعارضة هذا الأمر الإلهي كمُسَيْلمَة الكذاب افتضح وأتي بمضحكة يتضاحك منها إلى قيام الساعة، ولو أنهم نُقِل إليهم القرآن نَقْل غيره من الكلام نقل آحاد لأمكن الاعتذار عنهم بعدم الوصول، كَلاَّ بل امتلأت بحملته وصحفه وإشادة أمره الأرض كلها سهلها وجبلها، بدوها وحضرها، برّها وبحرها، مؤمنها وكافرها، وإنسها وجنها، وتطاولت أزمنته على تلك الصفة قريبًا من تسعمائة سنة أفيَسْتَرِيب[٣] عاقل بعد هذا في كونه من عند الله جل وعلا صَدَّق به نبيه ﷺ؟

هذا مع ما فيه من الأخبار قبل الوقوع بالغيوب المطابقة ومحاسن علوم الشريعة المشتملة على ما لا يقدر البشر على ضبطه من المصالح الدنيوية والأخروية، وتحرير الأدلة والرد على المخالفين بالبراهين القطعية، وسرد قصص الماضين وتزكية النفس بمواعظ يغرق في أدنى بحارها جميع وعظ الواعظين. هذا كله على يد نبي أُميّ ما خط قط كتابًا ولا حصلت له مخالطة لذي علم يمكن بها تحصيل أدنى شيء من ذلك، علم ذلك كله بالضرورة ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن

(١) يَقْدَح: يُشَكِّك. (م).
(٢) دَبِيبًا: مشيًا بطيئًا. (م).
(٣) يَسْتَرِيب: يتشكك ويتحير. (م).

قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت / ٤٨] ثم هذا إلى ما له من المعجزات التي لا تحصى، ثم إلى ما جبلت عليه ذاته الكريمة من الكمالات التي كادت أن تفصح بل أفصحت قبل بعثه برسالته خَلْقًا وخُلُقًا.

ثم مع ذلك كله أكد الله تعالى صدقه بذكر اسمه بجميع وصفه في الكتب الماضية، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ [الأعراف / ١٥٧] الآية. وأطلق ألسنة الأحبار قريبًا من مبعثه بجميع ذلك حتى إنه سبحانه بفضله مما أَكَّد به زوال اللَّبْسِ[١] عن نبوّته أَنْ منع العرب قبله من التسمي باسمه الخاص به إلا أناسًا قليلين تسموا قريبًا من مولده باسمه رجاء حصول النبوّة لهم لما سمعوه من الأحبار، ثم من عظيم فضل الله تعالى في إزالة اللبس عن نبوته أنه لم يطلق لسان أحد من أولئك الذين تسموا باسمه بدعوى النبوّة، فإذا وفقت لعلم هذا كله حصل لك العلم ضرورة بصدق رسالة نبينا ومولانا محمد ﷺ، فوجب الإيمان به في كل ما جاء به عن الله سبحانه وتعالى جملة وتفصيلاً كالحشر والنشر لعين هذا البدن لا لمثله إجماعًا.

وأما أمور الدين فهي امتثال المأمورات، وهو أن تمتثل لكل ما أمر الله ورسوله به من فرائض وسنن وأحكامهما والعمل بهما من غير تهاون ولا تقصير، واجتناب المنهيات وهي كل ما نهى الله ورسوله عنه، ورضاء بقضاء وقدر، وهو أن ترضى بما

(١) اللَّبس: الخَلْط والتَّعْمِيَة. (م).

قدّره الله تعالى عليك من خير أو شر، والمقدّر هو الذي يأتي المرء على رغم أنفه من غير اختياره فنؤمن بذلك ونرضاه، فقد قال رسول الله ﷺ: «من لم يرض من ربه بوعده ووعيده فهو كافر»، قال الله ﷻ ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ** ﴾ أي طرف وجانب من الدين ﴿ **فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ** ﴾ [الحج/ ١١]، وقال بعضهم: أمور الدين أربعة صحة العقل وصدق القصد ووفاء العهد وحفظ الحدّ، فَصِحَّة العقل معرفة الله تعالى، وصدق القصد الإخلاص لله تعالى، ووفاء العهد امتثال أوامر الله تعالى، وحفظ الحدّ هي ترك المعاصي.

فينبغي لمعلم التلامذة أن يعلمهم أوّلاً عقائد التوحيد؛ لأن أوَّل واجب على الإنسان معرفة ربنا جل وعلا ومعرفة أحكام عبادته، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ** ﴾ [الذاريات/ ٥٦] أي ليعرفونِ، ولأجل أن تتمكن من قلوبهم في حال صغرهم وهي خالية بحيث إذا ورد على قلبهم شيء يخل بالعقيدة الإيمانية لا يتغير، كما قال الشاعر:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى ... فَصَـــادَفَ قَلْبًـــا خَالِيًا فَتَمكَّنا

وحينئذٍ فالاشتغال به مُقَدَّم على كل الواجبات؛ إذ بمعرفته تنقذ المهج[١] من أليم المهلكات، فالسعيد من وفق لتحقيق عقائد إيمانه لما يراه بعد الموت من النعيم والسرور بواضح برهانه.

---

(١) المُهج: جمع مُهجة وهي الروح والنفس. (م).

قال ابن حجر: اعلم أن الله تعالى أرسل نبيه محمدًا ﷺ بالشريعة المطهرة والحنيفية السمحة إلى كافة الخلق فكان ذلك سببًا لسعادتهم وموجبًا لصلاح معاشهم ومعادهم، وكان ذلك على فترة من الرسل ليس للناس شرائع ولا أحكام ولا علم بالتوحيد ولا أمر شرعي يحفظ دماءهم وأموالهم، فكانت شريعته جامعة لها ولغيرها من الحكم التي لا تُحصى والنعم التي لا تُستقصى.

وكان العلماء هم القائمين بعده ﷺ بتقرير تلك الأحكام والشرائع وتدوين العلوم والمسائل التي استمدّوها منه ﷺ، ووصلت إليهم بالطرق الصحيحة والأسانيد المتصلة، وكانوا هم الوارثين لتلك المرتبة بعده ﷺ والمُسْتَحِقِّينَ لها دون غيرهم لكونهم نشروا الشريعة لأربابها وعلموها لطلابها ولم يكتموها عنهم، لما ورد من قوله ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»، أي مقررين ومؤكدين ومبينين لما جاء به ﷺ عن الله تعالى وآمرين الأمة به، كيوشع بن نون عليه السلام فإنه كان مقررًا لشريعة موسى عليه السلام وآمرًا بالعمل بما في التوراة، وهو نبي ليس بمرسل؛ لما ورد من قوله ﷺ: «ما آتى الله عالمًا علمًا إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه»، فنشروا العلوم عملاً بقوله ﷺ، وردوا عن سنته المطهرة كلام الملحدة والمبتدعة وغيرهم، وبذلك صاروا أعظم الناس قدرًا وأكملهم فخرًا، وأتقنوا الأصول وأسسوها، واشتغلوا بالفروع ودونوّها، واستنبطوا[1] المسائل الفقهية وأثبتوها، وصارت قريبة المأخذ سهلة المراجعة وحينئذٍ فليجد طالبها للتعليم والمطالعة.

(١) استنبطوا: توصلوا إليها من مبدأ عام أو عن طريق انتقال الذهن من مقدمات إلى نتائج. (م).

وقد روي أن أبا إسحاق الإسفراييني رحمه الله صعد في زمن هيجان المبتدعة إلى جبل لبنان لأولياء الله تعالى فوجدهم هناك يتعبدون، فقال لهم: هربتم إلى هذا الموضع تتعبدون وتركتم أمة النبي ﷺ في أيدي المبتدعة؟ فقالوا له: أيها الأستاذ لا قدرة لنا على مخالطة الخلق، وأنت الذي أقدرك الله على ذلك فأنت أهله، فرجع رضي الله عنه واشتغل بالردّ على المبتدعة وألف كتابه «الجامع بين الجلي والخفي». اهـ. وقال رسول الله ﷺ: «لا خير في العيش إلا لمستمع واع أو عالم ناطق، أيها الناس إنكم في زمان هدنة، وإن السير بكم لسريع، وقد رأيتم الليل والنهار كيف يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد، فقال له المقداد رضي الله عنه: يا رسول الله ما الهدنة؟ قال: دار بلاء وانقطاع، وإذا لبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وشاهد مصدق، فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار.

وإذا علمت ذلك فالعلوم الشرعية أهم العلوم كلها، والاشتغال بها من أفضل الواجبات للحاجة إليها والاضطرار إلى معرفة الحلال والحرام والمشتبه منهما، ولذلك كان أهلها أفضل من غيرهم، فأما المفسرون فاشتغلوا بتفسير كلام الله تعالى وفهم معانيه وأحكام آياته ومبانيه، وتبيين مطلقه من مُقَيَّدِه ومُبَيَّنه من مجمله، ومحكمه ومتشابهه، وقصصه ومواعظه، ومنسوخه وناسخه، فَهُمْ أساس الدين. وأما الفقهاء فإنهم فُضِّلُوا على أصحاب الحديث بما خُصُّوا به من الاستنباط في فقه الحديث، والتعمق بدقيق النظر في ترتيب الأحكام وحدود الدين، والترتيب بين الناسخ والمنسوخ وغيرها، فَهُمْ حُكَّام الدين.

وأما أصحاب الحديث فإنهم تعلقوا بظاهر حديث رسول الله ﷺ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر / ٧] واشتغلوا بسماعه ونقله وتدقيقه وتمييز صحيحه من سقيمه، فَهُمْ حُرَّاس الدين، ثم إن الفقيه إذا اشتغل بالعبادة واعتزل الناس ولم يشتغل بالتعليم، فإن كان الناس مستغنين عنه بغيره فذلك ظاهر، وإن لم يكونوا كذلك بل كانوا محتاجين إليه فالأفضل في حقه التعليم، فإن الله تعالى إذا فتح على قلب عبد مواهب العلوم التي هي أخص صفاته ولم ينفع بها غيره فهو كالخازن لأنفس خزائنه؛ لأنه حينئذ يكون كاتمًا للعلم المنهي عن كتمانه، فلا يليق به الإعراض عن المحتاجين والاشتغال عن الإنفاق على من أكرمه الله تعالى عليهم من العباد وأحوجهم إليه، فلا يشتغل بعبادة ولا صلاة نافلة بل يشتغل بالتعليم؛ لأنه أفضل من ذلك، كما ورد عنه ﷺ: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة»، ولأن النفع المتعدي إلى الغير أفضل من النفع القاصر وإن كان كل منهما عبادة.

وقد قال ﷺ: «خير الناس من ينفع الناس»، فذو العقل الحاذق[١] والملكة القوية من وفقه الله تعالى لإنفاق أوقاته في تحصيل العلم واستفادته وإقداره على استنباطه وإفادته؛ إذ العقل أس[٢] العلم ومنبعه، ولذا وقع الخلاف بين العلماء هل العقل أفضل أم العلم؟ فمن قائل بالأول ومن قائل بالثاني. وقد ورد في

---

(١) الحاذق: المُتقن الماهر. (م).

(٢) أُسّ: أساس وأصل الشيء. (م).

فضل العلم الآيات الكثيرة والأحاديث والآثار الشهيرة، فمن الآيات قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر/ ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه/ ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر/ ٢٨] وإن من زاد علمًا فقد بلغ مناه وأرغم أعداه، وعلا قدره بين الأنام وتكامل فخره بين الخاص والعام، وطاب له عيشه وصفا له المورد الأهنى وارتقى إلى المقام الأسنى(١)، وظفرت يداه بالسعادة في الدنيا والأخرى.

وأما الأحاديث والأخبار فكثيرة لا تحصى ولا تستقصى، فإذا أخذ الفقيه حظه من الفقه وصار حظًّا وافرًا فينبغي له أن لا يكون عليه مقتصرًا وقاصرًا، بل ينظر بعد ذلك في العلوم ذات الترغيب والترهيب لعله أن يكون له منها حظ ونصيب، ثم في كلام الحكماء الذين انجلى عن قلوبهم الخبث وقاذورات الدنيا، وارتفع الغطاء عنها حتى اتضح لهم حلية الحق عيانًا، ثم في شمائل السلف الصالحين الذين بذكرهم تتنزل الرحمة من رب العالمين.

وكان شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رضي الله عنه يقول: إذا لم يكن للفقيه علم بأحوال القوم واصطلاحاتهم فهو جاف(٢). وقال الإمام مالك رضي الله عنه: إذا كانت العلوم منحًا إلهية ومواهب اختصاصية فليس بمستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين، فإياك أن تحتقر من مَنّ الله عليه بمحبة القوم

(١) الأَسْنَى: الأعلى والأرقى. (م).

(٢) جافٍ: بعيد. (م).

ومطالعة كتبهم، ويقول: ما بقي في هذا الزمان من يفهم كلامهم فقد سمعت ما قاله الإمام مالك رضي الله عنه.

وقال بعضهم: لا يعترض على الجنيد والحلاج وأشباههم من المتقدمين، والشيخ محيي الدين بن العربي وابن الفارض ونحوهما من المتأخرين رضي الله عنهم وإن كانوا قد شطحوا[١] وباحوا وتكلموا بأشياء خارقة مما لا قدرة للجاهلين على سماعها ولا سبيل إليها، بل يسلم إليهم أحوالهم في الأقوال والأفعال، وحاشاهم[٢] أن يصدر منهم قول أو فعل مخالف لقواعد الشريعة بل ولا يحفظ عنهم هفوة ولا يصدر منهم زلة، بل لم يزالوا خائفين واقفين على قدم الخوف بالذل والانكسار، وما أحسن قول بعضهم: من لم يعرف مصلحتنا لا يجوز له الخوض في طريقتنا؛ فالأولى التغافل عن أمورهم وأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم، فإن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، ويحمل ما يراه منهم على أحسن محمل والتسليم أسلم ويؤوله على ما يليق به المقام.

وقال بعضهم: إن العلوم وإن تفاوتت أقدارها وعظمت لدى النفوس أخطارها فعلم الحديث خير من بَيَّنَّا بأن يُشمر له ساعد الجدّ والعناية؛ إذ هو مع انتشاره يحتاج لإتقان الرواية قبل الدراية، وقد بذل السلف الصالح في

---

(١) شَطَحُوا: تباعدوا واسترسلوا. (م).

(٢) حاشاهم: تنزيهًا لهم. (م).

ذلك هممهم العلية وأفكارهم الألمعية[١] حتى تميزت الأحاديث الصحيحة من الضعيفة، وبلغوا بذلك المراتب الرفيعة الشريفة فجزاهم الله عن إحياء سُنَّته ﷺ الجزاء الوافي وأعطاهم الخير الكثير الشافي:

جَزَى اللهُ أَصْحَابَ الحَدِيثِ مَثُوبَةً وبَوَّأَهُمْ في الخُلْدِ أَعْلَى المَنَازِلِ
فَلَوْلاَ اعْتِنَاهُمْ بالحَدِيثِ وحِفْظِهِ ونَفْيِهم عَنْه ضُرُوبَ الأَبَاطِلِ
وإنْفَاقُهُم أَعْمَارَهم في طِلابِهِ وبَحْثُهم عَنْه بِجِدٍّ مُوَاصِلِ
لَمَا كان يَدْرِي مَنْ غَدَا مُتَفَقِّهًا صَحِيحَ حَدِيثٍ مِنْ سَقِيمٍ وبَاطِلِ
ولَمْ نَسْتَبِنْ مَا كان في الذِّكْرِ مُجْمَلاً ولم نَدْرِ فَرْضًا مِنْ عُمُومِ النَّوَافِلِ
فحُبُّهُمُ فَرْضٌ على كُلِّ مُسْلِمٍ ولَيْسَ يُعَادِيهم سُوَى كُلِّ جَاهِلِ

وروى عكرمة مولى ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «اللهم ارحم خلفاي، قلنا: يا رسول الله مَنْ خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي وسنتي ويعلمونها الناس»، وقال ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله[٢] ينفون عنه تحريف الغالين[٣] وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»، فهذه

(١) الألْمَعِيَّة: الذكيَّة (م).

(٢) عُدُولَه: جمع عَدْل وهو من تُرضى شهادته. (م).

(٣) الغَالِين: جمع غالٍ وهو المتشدد المجَاوز للحد. (م).

شهادة من رسول الله ﷺ بأنهم أعلام الدين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف والانتحال الباطل وردّ تأويل الجاهلين.

وسئل الإمام مالك: هل يقدم في الأحاديث أو يؤخر والمعنى واحد؟ قال: أما ما كان من قول النبي ﷺ فإني أكره ذلك، وما كان من غير قوله فلا أرى به بأسًا إذا اتفق المعنى. وقيل للإمام مالك: أرأيت حديث رسول الله ﷺ تزاد فيه الواو أو الألف والمعنى واحد؟ قال: أرجو أن يكون خفيفًا وشدد غيره؛ لأن المعنى يختلف بذلك غالبًا. وقال الإمام مالك: لا يؤخذ العلم عن أربعة ويؤخذ عمن سواهم؛ لا يؤخذ عن مبتدع يدعو إلى بدعته، ولا عن سفيه مُعْلِنٍ بالسفه، ولا عمن يكذب في أحاديث الناس وإن كان يصدق في أحاديث الرسول ﷺ، ولا عمن لا يعرف بهذا الشأن. وقال بعضهم: من جالس أهل البدع تعلق قلبه بشيء مما يسمع، وقيل: لا تُمَكِّن زائغ القلب[1] من أذنك. وروي عنه ﷺ: «أَبَى[2] الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته»، وهذا إذا كانت البدعة محرّمة.

وقال ﷺ: «من أحدث» أي اخترع وأتى من قبل نفسه بأمر حادث وهو المسمى بالبدعة «في أمرنا هذا» أي في ديننا وشرعنا «ما ليس منه» أي ما ليس له فيه مستند من الكتاب والسنة سواء كان ذلك الأمر الحادث قوليًّا أو فعليًّا أو

(١) زائغ القلب: الذي في قلبه ميل عن الحق. (م).

(٢) أَبَى: كَرِه. (م).

اعتقادًا «فهو ردّ» أي مورود على فاعله لبطلانه، فكأنه قال غير مُعْتَدّ به ولا مُعَوّل عليه وهو عام مخصوص بالحادث الذي دل الشرع على حرمته، ورواية الإمام مسلم «من عمل عملاً» أي أحدثه هو أو غيره وعمل به «ليس عليه أمرنا» أي لا يرجع إلى دليل شرعنا «فهو ردّ» أي مردود.

وقد قسم ابن عبد السلام الحوادث إلى الأحكام الخمسة فقال: والبدعة فعل ما لم يقع في عصر النبي ﷺ، وتكون واجبة كالاشتغال بعلوم العربية المتوقف عليها فهم الكتاب والسنة، ومحرّمة كالاشتغال بمذهب أهل البدع كالقدرية، والجبرية المخالفين لمذهب أهل السنة، وتكون البدعة مندوبة كأحداث الربط وبناء القناطر، وتكون البدعة مكروهة كزخرفة المساجد وتزويق المصاحف. وقال المتولي من الشافعية: لا يكره ذلك لما في ذلك من إعزاز الدين وتعظيمه.

وتكون البدعة مباحة كالتوسع في المأكل والمشرب والملابس الفاخرة وغير ذلك، ومن البدع المباحة أيضًا اتخاذ المناخل للدقيق؛ لأن أول شيء أحدثه الناس بعد رسول الله ﷺ اتخاذ المناخل؛ لأن تليين العيش وإصلاحه من المباحات، ومن البدع المباحة الأكل بالملاعق، وقد حضر الإمام أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة -رضي الله عنهما- مائدة الخليفة هارون الرشيد فطلب الملاعق، فقال له أبو يوسف: يا أمير المؤمنين قد قال جدّك ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء/ ٧٠]، أي جعلنا

لهم أصابع يأكلون بها ولم نجعلهم كالدواب تأكل بأفواهها، فردّ الخليفة الملاعق وأكل بأصابعه، فتبين من معنى الحديث الأمر باتباع ما جاء به الشرع والتحذير من الابتداع، وحينئذٍ فالبدعة خاصة بالحادث المذموم.

وروي عن ابن مسعود أنه قال: عمل قليل في سنة خير من عمل كثير في بدعة. وعن أنس أنه قال: إذا مات صاحب بدعة فقد فتح في الإسلام فتح. وأخرج الطبراني عن عبد الله بن بشير أنه قال: من وقَّرَ صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام، وقيل: من صح إيمانه يَهْدِ الله قلبه لاتباع السنة، وورد عنه ﷺ: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». وكان ابن عباس رضي الله عنه حَبْر الأمة ومن الراسخين في العلم بدعاء النبي ﷺ له بالتفقه في الدين وبعلم التأويل والحكمة، وكان ابن عباس يفتي على عهد سيدنا عمر وعثمان -رضي الله عنهما- إلى أن مات رضي الله عنه.

وكتب أبو عمرو في بعض رسائله من كان من العلم محرومًا لم يكن من الزلل معصومًا، فالعلم دعامة الإسلام والعلماء سرج الأنام.

وقال أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه: قيمة كل امرئ ما كان يحسنه، أقل الناس قيمة أقلهم عقلاً، ثمرة الأدب العقل الراجح، وثمرة العلم العمل الصالح، وقيل كل شيء إذا كَثُرَ رخص إلا العقل فإنه كلما كَثُرَ غلا، وفي هذا المعنى شعر:

العَقْلُ أَحْسَنُ مَعْقِلٍ[١] فاهْرَعْ[٢]إلى أَبْوَابِهِ العُلْيَا تَنَلْ كُلَّ العُلا
وَاعْلَمْ بأَنَّ الشَّيءَ يَرْخُصُ كَثْرةً والعَقْلَ إِنْ كَثُرَتْ حَوَاصِلُهُ غَلا

وقال بعضهم:

رَأَيْتُ العَقْلَ لَمْ يَكُن انتِهَابًا ولَمْ يُقْسَمْ عَلَى قَدْرِ السِّـــنِينَا
فَلَو أَنَّ السِّــــنِينَ تَقَسَّــمَنْه حَوَى الآبَاءُ أَنْصِبَـــةَ البَنِينَـــا

وقيل:

مَا وَهَبَ الله لاِمْــرِئٍ هِبَـــةً أَفْضَـــلَ مِنْ عَقْـــلِه ومِنْ أَدَبِه
هُمَا جَمَـــالُ الفَتَى فإِنْ فُقِدَا فَفَقْـــدُه لِلْحَيَـــاةِ أَجْمَلُ بِه

روى الثعالبي أن النبي ﷺ قال: «خير الناس وخير من يمشي على جديد الأرض المعلمون كلما خَلَق[١] الدين جددوه، أعطوهم ولا تستأجروهم، فإن المعلم إذا قال للصبي قل: بسم الله الرحمن الرحيم فقال الصبي: بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبي وبراءة لوالديه وبراءة للمعلم من النار»، وقد اختلف في جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، فالجمهور على الجواز متمسكين بقوله ﷺ: «أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله تعالى»، وورد عنه ﷺ «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وكون الأحاديث المانعة لهذه ليس فيها ما تقوم به الحجة فلا

(١) خَلَقَ: بَلِي. (م).

تكون معارضة لما صح عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت خالد بن الوليد ﵁ يوم اليرموك يرمي بين الهندمتين ومعه رجال من أصحاب رسول الله ﷺ وقال: أمرنا أن نعلم أولادنا الرمي والقرآن. رواه الطبراني، وقال الشاعر:

إِنَّ المُعلِّمَ والطَّبِيبَ كِلاهُمَا لَمْ يَبْذُلا نُصْحًا إذا لَمْ يُكْرَمَا
فاصبِرْ لِدَائِك إِنْ جَفَوْتَ طَبِيبَه وَاصْبِر لجَهْلِكَ إِنْ جَفَوْتَ مُعَلِّما

وكان العارف بالله تعالى ابن عراق المدني يعلم تلامذته دعاء لحفظ القرآن فيحفظونه إذا لازموا الدعاء به وهو:

كَلامٌ قَـــدِيمٌ لا يُمَلُّ سَـــمَاعُه تَنَزَّهَ عَنْ قَوْلِي وَفِعْلِي وَنِيَّتِي
بِه أَشْـــــتَفِي مِنْ كُلِّ دَاءٍ ونُورُه دَلِيلٌ لِقَلْبِي عِنْدَ جَهْلِي وَحَيْرَتِي
فيَـــاربّ مَتِّعْنِي بِسِـــــرِّ حُرُوفِهِ ونَوِّرْ به سَمْعِي وقَلْبِي ومُقْلَتِي

وروي عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: نزل القرآن على تسعة أحرف حلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وبشير ونذير، وقصص ومواعظ وأمثال، فأَحِلُّوا الحلال وحرموا الحرام واعملوا بالمحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال، وقيل:

أَلاَ إِنَّمَا القُـــــرْآنُ تِسْعَةُ أَحْرُفٍ أَتَيْتُ بِهَا فِي شِعْرِ بَيْتٍ بِلا خَلَل
حَـــلالٌ حَرَامٌ مُحْكَمٌ مُتَشَابِهٌ بَشِـــيرٌ نَذِيرٌ قِصَّـــــةٌ عِظَةٌ مَثَل

وكان ينزل على النبي ﷺ على قدر الحاجة، فكان أمد نزوله عشرين سنة بقدر نبوّته، وقيل في ثلاث وعشرين سنة مدة الوحي، بمكة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة عشر سنين، ومن شعائر الإسلام قراءة القرآن، والصلوات والجماعة، والمساجد، والمحاريب[1] في زماننا أكثر؛ إذ النبي ﷺ خرج من الدنيا والإسلام لم يبلغ غير جزيرة العرب، وقال ﷺ: «ابنوا المساجد وأخرجوا القمامة منها فمن بنى لله مسجدًا بنى الله له بيتًا في الجنة»، وعاش ﷺ ثلاثًا وستين سنة، فأربعون مضت في التعبد، والباقي ثلاث وعشرون سنة في النبوّة والرسالة، وصلاة الخمس المفروضات افْتُرِضَتْ بعد اثنتي عشرة سنة من النبوّة، ومن قبل كان يسبح ويهلل.

وقال ﷺ: «أدبوا أولادكم على ثلاث؛ حب نبيكم وحب آل بيته، وعلى قراءة القرآن فإن حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله»، والمراد بآل البيت فاطمة وعليّ والحسن والحسين رضوان الله عليهم أجمعين، ويدل له حديث عائشة -رضي الله عنهما- قالت: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مِرْط مُرَجَّل[2] من شعر أسود فجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه، ثم جاء عليّ فأدخله فيه، ثم جاء الحسن فأدخله فيه، ثم جاء حسين فأدخله فيه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب/ ٣٣]، وقال: «اللهم أهل بيتي وخاصتي أَذْهِبْ عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، ثم قال

(١) مَحَارِيب: جمع مِحْرَاب وهو صدر المسجد والقبلة وأشرف موضع فيه. (م).
(٢) مِرْط مُرَجَّل: كساء من خز أو صوف أو كتان غير مخيط به صور كصور الرجال. (م).

أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم وعدوّ لمن عاداهم»، والرجس السوء، وقال مجاهد الشك. ودلت هذه الآية أيضًا على نبوّته ﷺ وعلى فضل أهل الكساء رضي الله تعالى عنهم لاشتمالها على غرر من مآثرهم والاعتناء بشأنهم، وقال بعضهم في ذلك:

إِنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّـــدًا وَوَصِيَّهُ وابْنَيْه وابْنَتَهُ البَتُولَ الطَّاهِرَة
أَهْلُ العَبَـــاءَةِ إِنَّنِي بِوَلائِهِم أَرْجُو السَّلامَةَ والنَّجَا في الآخِرَة

وقد انقرض نسله ﷺ إلا من فاطمة رضي الله تعالى عنها طاب أصلها أمًّا وأبًا، وانتشر نسله الشريف منها من جهة السبطين[١] ويقال لأولهما حسني والثاني حسيني، ثم إن للشرفاء حقوقًا على غيرهم من الناس كما أن للناس حقوقًا عليهم، فالحقوق التي على الشرفاء لغيرهم من الناس أن لا يفخروا بشرفهم على غيرهم؛ لأن فخرهم على الغير قد يؤدي من ضعف دينه إلى عداوتهم وبغضهم والبحث عن عوراتهم وذلك ممنوع؛ لأنه يؤدّي إلى الاستخفاف بحقه عليه الصلاة والسلام، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٣]، وقد قال عليه الصلاة والسلام إن: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه». قال الماوردي يعني أن الفضل والكرم بالعمل لا بالنسب، وقد يؤدي فخر الشريف بنسبه

---

(١) السِّبْطَيْن: الحفيدين. (م).

أو بسَبِّه لغيره المفخور عليه إلى الإيذاء، فيكون قد فتح الذريعة إليه، فليحذر الشريف على نفسه وعلى المسلمين جهده وليأخذ نفسه بالصبر والاحتمال.

ومن حقوق الناس لهم أن يؤثروا رضى الأشراف على أهوائهم بما يجب من التبجيل والتعظيم عند الحضور معهم لما أنهم بعض رسول الله ﷺ، وأن يبغضوا من يؤذيهم لأنه يؤذيه ﷺ، وأن يريدوا لهم التقدّم بفضيلة نسبهم إلى رسول الله ﷺ، وأن يخلصوا لهم المودّة ويوازروهم وينصروهم أحياءً وأمواتًا ويَذُبُّوا[1] عن أعراضهم ويضربوا عن مساوئ ذي المساوي منهم صفحًا، وأن ينشروا محاسنهم ويتوسلوا بجاههم إلى الله ورسوله لأنهم سلالة رسول الله ﷺ، وقد قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى/ ٢٣] أي بأن تودّوا قرابتي، ولقد أحسن من قال:

رَأَيْتُ وَلاَئِي آلَ طَهَ فَرِيضَةً عَلَى رَغْمِ أَهْلِ البُعْدِ يُورِثُنِي القُرْبَى
فَمَا طَلَبَ المَبْعُوثُ أَجْرًا عَلَى الهُدَى بتَبْلِيغِهِ إلا المَوَدّة في القُرْبَى

وينبغي للإنسان أن يعرف أولاد رسول الله ﷺ ويحفظهم؛ لأن النبي ﷺ سيدنا، وعار على الإنسان أن لا يعرف أسماء أولاد سيده وهم سبعة؛ القاسم وبه كان يُكَنَّى، وزينب وهي أكبر بناته، ورقية، وفاطمة وهي أصغر بناته، ولدت

---

(١) يَذُبُّوا: يدفعوا عنه ويمنعوه. (م).

قبل النبوّة بخمس سنين، وتوفيت بعده عليه الصلاة والسلام بستة أشهر وتُلَقَّب بالزهراء، وكانت أحب أولاده إليه ﷺ، فكانت إذا دخلت عليه قام لها إجلالاً، وأم كلثوم ولا يعرف لها اسم وإنما تعرف بكنيتها، وعبد الله وهو الملقب بالطيب والطاهر، وولد بعد المبعث وتوفي بمكة، ولما توفي قال العاص بن وائل: قد انقطع ولد محمد فهو أبتر[١]، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر/ ٣]، وولد لرسول الله ﷺ إبراهيم في طيبة، ولما مات بكى عليه ﷺ وقال: «البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان»، وقال: «من لا يرحم لا يُرحم»، وخسفت الشمس يوم موته، فقال الناس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة» وسبب ذلك إذا أراد الله أن يري عباده آية يخوفهم بها أظهر لهم من عظمته. وكل أولاده ﷺ من السيدة خديجة أم المؤمنين -رضي الله عنها- إلا إبراهيم فإنه من مارية بنت شمعون القبطية، ومات جميع أولاده ﷺ في حياته إلا فاطمة فبعده بستة أشهر كما سبق، ولم يكن له ﷺ أولاد من غيرها، وقد نظم بعضهم عدة أولاده ﷺ:

فَأَوَّلُ وَلَدِ المُصْطَفَى القَاسِمُ الذي به كُنِّي المُخْتَارُ فافْهَمْ وحَصِّلا
وزَيْنَبُ تَتْلُوهُ رُقَيَّةُ بَعْدَهَا وفَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ جات عَلَى الولا
كَذَا أُمُّ كُلْثُوم تعدّ وبَعْدَهَا في الإِسْلامِ عَبْدُ الله جَاءَ مُكَمِّلا

(١) أَبْتَر: من لا عقب له من الأولاد. (م).

وكُلُّهُم كَانُوا أَتَوا مِنْ خَدِيجَة وَقَدْ جَاءَ إِبْرَاهِيمُ في طِيبَةَ تَلا

(رجع) قال بعضهم: وينبغي للمعلم أن يكون متأنيًا غير مبادر بالاستعجال بالعقوبة، ولا يؤاخذ أحدًا بأوّل ذنب يصدر وبزلة تندر؛ لأن العصمة من الخلق لمن سوى الأنبياء مفقودة، وقد ورد عنه ﷺ «إن الله رفيق يحب كل رفيق يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف».

وقال بعضهم: يُسَنُّ للمؤدب أن يأمر الصبيان بالصلاة لسبع، ويضربهم على تركها لعشر، ويأمرهم ببر الوالدين والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة، والدعاء لهما وتقبيل أيديهما عند الدخول إليهما، ويؤدّبهم على إساءة الأدب والفحش من الكلام، ونحو ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع مثل أنواع القمار ونحو ذلك.

وقال بعضهم: لا ينبغي للمؤدب أن يستخدم أحد الصبيان في حوائجه وأشغاله التي فيها عار على آبائهم، ولا يرسله إلى داره وهي خالية؛ لئلا تسلك إليه التهمة. قال بعضهم: ويشترط في السائق لهم أن يكون أمينًا ثقة عاقلاً غير بذي[1] اللسان؛ لأنه يتسلم الصبيان في الغدّو والرواح، ولأجل أن تكون تربية المعلمين بالأخلاق الحسنة سارية للمتعلمين، وأما إذا كانت أخلاق المعلمين سيئة فتسري إلى المتعلمين لأن الطباع سراقة.

---

(١) البَذِيء: الفاحش في القول. (م).

وقال بعضهم: يجوز للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر والمؤدب أن يقول لمن يخاطبه في ذلك الأمر: وَيْلك أو يا ضعيف الحال، ويا قليل النظر لنفسه، ويا ظالم نفسه وما أشبه ذلك، بحيث لا يتجاوز إلى الكذب ولا يكون فيه لفظ قذف؛ لأن الغرض به التأديب والزجر، وليكون الكلام أوقع في النفس لما روي عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يسوق بَدَنَة[١]، قال: اركبها، قال: إنها بدنة، قال: اركبها، قال: إنها بدنة، قال: في الثالثة اركبها ويلك. ولقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لابنه عبد الرحمن لما لم يجده عشى أضيافه: يا غُنثر[٢].

وقال بعضهم: من يأمر بالمعروف يحتاج إلى خمسة أشياء؛ أوّلها: العلم لأن الجاهل لا يحسن الأمر بالمعروف. وثانيها: أن يقصد به وجه الله تعالى وإعزاز الدين. وثالثها: الشفقة على الذي يأمره فيأمره باللين والتودّد، ولا يكون فظًّا غليظًا؛ لأن الله تعالى قال لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه/ ٤٤]. رابعها: أن يكون صبورًا حليمًا؛ لأن الله تعالى قال في قصة لقمان ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان/ ١٧]. وخامسها: أن يكون عاملاً بما يأمر به؛ لكيلا يُعَيَّر به، ويدخل تحت قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة/ ٤٤]، وقال في آية أخرى ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف/ ٢]، الآية، وقوله تعالى في سورة

(١) بَدَنَة: ناقة. (م).
(٢) يا غُنْثَر: شَتْم، معناه يا جاهل أو أحمق أو سفيه أو لئيم. (م).

آل عمران ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران/ ١٠٤]، قال الكشاف في تفسير هذه الآية: إنما أورد بمن التبعيضية؛ لأنه لا يصلح كل أحد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما يصلح لذلك من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر، وعلم كيفية ترتيبهما فلا يتغلظ في مقام اللين ولا يلين في مقام التغليظ.

وقد ذكر ابن الجوزي في كشف مُشْكِل الصحيحين عُبَادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه، وقال: شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان يُعَلِّم أهل الصُّفَّة القرآن، وهو أحد النقباء الاثني عشر، وهو كان يعلم ذلك بالمدينة والنبي ﷺ فيها. والصفة هي مكان مرتفع في مسجد رسول الله ﷺ يجلس فيه فقراء الصحابة الذين تزهدوا في الدنيا وانقطعوا إلى الله تعالى وهم الذين ذكرهم الله تعالى بقوله ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحشر/ ٨] الآية.

وقال بعضهم: حفظ شيء من القرآن بمقدار ما تجوز به الصلاة فرض عين على المسلمين، وحفظ فاتحة الكتاب وسورة واجب على كل مسلم، وحفظ جميع القرآن على سبيل الكفاية على الأمّة. وورد عنه ﷺ «إن الله يريد العذاب بأهل الأرض فإذا سمع تعليم الصبيان الحكمة صرف ذلك عنهم»، قال مروان: يعني بالحكمة القرآن، وقد ورد في الآثار ما يدل على أن أوّل دار فتحت للقرّاء بالمدينة المشرفة، ولا مانع من أن تعتبر أنها أوّل مدرسة فتحت في الإسلام، فقد قال

الواقدي: إن عبد الله بن أم مكتوم قدم مهاجرًا إلى المدينة فنزل دار القرّاء، ولعل عبادة بن الصامت كان يعلم فيها القرآن والكتابة، وكذلك عبد الله بن سعيد بن العاص كان يعلم الكتابة في المدينة كما سيأتي قريبًا، فلعله أيضًا كان من جملة من يعلم في هذه الدار، وكذلك الأسرى الذين كانوا يفدون أنفسهم بتعليم كل واحد منهم الكتابة لعشرة من أبناء الأنصار كما سيأتي.

وأما من بعثه ﷺ إلى الجهات يعلم الناس القرآن فمنهم مصعب ابن عمير رضي الله عنه، ففي سيرة ابن إسحاق: ولما انصرف عن رسول الله ﷺ القوم يعني الذين بايعوه في العقبة الأولى وهم اثنا عشر بعث معهم مصعب بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، وكان يسمى المقرئ بالمدينة. ومنهم معاذ بن جبل فإنه أرسله رسول الله ﷺ إلى مكة يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن، وبعثه رسول الله ﷺ أيضًا قاضيًا إلى الجند في اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم، وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين في اليمن. ومنهم عمرو بن حزم بن زيد الخزرجي من بني مالك على نجران، وهم بلحارث بن كعب وهو ابن سبع عشرة سنة ليفقههم في الدين، ويعلمهم القرآن، ويأخذ صدقاتهم، وذلك سنة عشر بعد أن بعث إليهم خالد بن الوليد فأسلموا.

وممن كان يعلم الكتابة عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف، وكان اسمه في الجاهلية الحكم فسماه رسول الله ﷺ عبد الله وأمره أن يعلم الكتابة بالمدينة، وكان كاتبًا محسنًا. وخرج أبو داود رحمه الله عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: عَلَّمْت ناسًا من أهل الصفة الكتاب والقرآن، وأهدى إليَّ رجل منهم قوسًا فقلت: ليست بمال وأرمى عليها في سبيل الله ولآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه فأتيته فقلت: يا رسول الله رجل أهدى إليّ قوسًا ممن كنت أُعَلِّمه الكتاب والقرآن وليست بمال وأرمى عليها في سبيل الله، قال: إن كنت تحب أن تطوّق طوقًا من نار فاقبلها. قال السهيلي في الروض الأنف في الكلام على غزوة بدر: إنه كان من الأسرى يوم بدر من يكتب ولم يكن في الأنصار أحد يحسن الكتابة فكان منهم أي من الأسرى من لا مال له فيقبل منه أن يعلم عشرة من غلمان الأنصار الخط فإذا حذقوا فهو فداؤه.

قال بعض العلماء: وينبغي للمعلم أن يرغب المتعلمين في التحصيل ويدلهم على مكانته، ويصرف عنهم الهموم المشغلة لهم، ويهون عليهم مؤنته، ويذاكرهم بما حصله من الفوائد والغرائب، وينصحهم في الدين، فبذلك يستنير قلبهم ويزكو علمهم، وينبغي للمتعلم أن يكون جلوسه بين يدي المعلم ويحضر كتابه الذي يقرأ منه معه، ويحمله بنفسه ولا يضعه حال القراءة مفتوحًا بل يحمله بيديه ويقرأ منه، ولا يقرأ حتى يستأذن أستاذه، ولا يقرأ عند شغل قلب أستاذه أو ملله أو غمه أو غضبه أو تعبه، وكذلك إذا رأى أستاذه قد أتعبه الوقوف

اقتصر ولا يحوجه إلى قوله اقتصر، وإن لم يظهر له ذلك فإن أمره بالاقتصار اقتصر حيث أمره ولا يستزيده، وإذا عين له قدرًا فلا يتعداه، وكذلك ينبغي للمعلمين أن يأذنوا في بعض الأوقات للمتعلمين باللعب ويكون لعبًا جميلاً غير متعب لهم ليستريحوا من كلفة الأدب.

وهذه الرياضة تُرَوِّح النفس، وتحرّك الحرارة الغريزية، وتحفظ الصحة، وتنفي الكسل، وتطرد البلادة، وتبعث النشاط، وتزكي النفس، فإن النفس تمل من الدؤوب في الجد، وترتاح إلى بعض المباح من اللهو، وقد قال رسول الله ﷺلحنظلة: «ساعة وساعة». وكان نبينا ﷺ قد جزأ نهاره ثلاثة أجزاء؛ جزء لله، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس، وكان يستعين بالخاصة على العامة، وكان يقول «أبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي؛ فإن من بَلَّغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها أَمَّنَه الله يوم الفزع الأكبر». وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «رَوِّحُوا القلوب فإنها تمل كما تمل الأبدان». وكان ﷺ يقول: «يا بلال روّحنا».

وفي الزبور أوحى الله إلى داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ياداود، إن العاقل لا يخلو من أربع ساعات؛ ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يمشي فيها إلى الإخوان الذين يخبرونه بعيوبه، وساعة يخلي فيها نفسه بين لذاتها الحلال. وعن عليّ رضي الله عنه: سَلُّوا هذه النفوس ساعة بعد ساعة فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد. وكان ابن عباس - رضي الله عنهما- يقول إذا فاض من عنده في الحديث بعد القرآن والتفسير: احمضوا أي إذا مللتم من

الفقه والحديث وعلم القرآن فخذوا في الأشعار وأخبار العرب، كما أن الإبل إذا مَلَّت ما حلا من النبت رعت الحمض وهو ما ملح منه. ومنه قول الزهري: هاتوا من أشعاركم فإن للأذن مجاجة وللنفس حمضة؛ أي أنها تشتهي الشيء بعد الشيء كما تفعل الإبل انتهى.

وهذا كله ما لم يكن دائمًا متصلاً كما قال علي ساعة بعد ساعة، وأما إن كان ذلك عادة الرجل حتى يعرف به ويتخذه ديدنًا ويطرف به الناس ويضحكهم فذلك مذموم غير محمود دال على سقوط المروءة ورذالة الهمة. وقد عد هذا النوع الفقهاء فيما يقدح في عدالة الشاهد، قال بعضهم: وفيه من الفقه جواز المزح في بعض الأحايين ما لم يكن سفهًا وإباحة الدعابة مع الأهل وبسط الوجه واللسان مع جميع الناس بالكلام الحلو السهل، فهو من أحسن العشرة، وقال ﷺ: «ويل للذي يحدث فيكذب (أي في حديثه) ليضحك به القوم ويل له ويل له»، كرره إيذانًا بشدة هلكته؛ وذلك لأن الكذب وحده رأس كل مذموم وجماع كل فضيحة، فإذا انضم إلى استجلاب الضحك الذي يميت القلب، ويجلب النسيان، ويورث الرعونة كان أقبح القبائح.

ومن ثم قال الحكماء: إيراد المضحكات على سبيل السخف نهاية القباحة. وقيل: لا مروءة للكذاب، ولا كرم أعز من التقى، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية، والتقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات. وقد ورد في الحديث عنه ﷺ: «ابن آدم إذا أصبحت معافى في جسدك آمنًا في سربك (أي

في نفسك) عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء»، وقال الرشيد: النوادر تشحذ الأذهان وتفتق الآذان، وقال الشاعر:

أُرَوِّحُ القَلْبَ بَبْعضِ الهَزْلِ تَجَاهُلاً مِني بَغْيرِ جَهْلِ
أَمْزَحُ فِيهِ مَزْحَ أَهْلِ الفَضْلِ والمَزْحُ أَحْيَانًا جِلاءُ العَقْلِ

وأحسن ما قيل في المزح قول أبي الفتح البستي رحمه الله:

أَفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ بالجدِّ رَاحَةً يجمُّ وعَلِّله بِشَيءٍ مِنْ المَزْحِ
وَلَكِنْ إِذَا أَعْطَيتَهُ المَزْحَ فليَكُنْ بِمقْدَارِ مَا تُعْطِي الطَّعَامَ مِنَ المِلْحِ

وقد كان عليه الصلاة والسلام يمزح ولا يقول إلا حقًّا، ومن مزحه ﷺ أَنْ جاءه رجل فقال: يا رسول الله احملني على جمل، فقال: لا، أحملك على ولد الناقة، قال: لا يطيقني، فقال له الناس: ويحك وهل الجمل إلا ولد الناقة. وقال ﷺ لامرأة من الأنصار: الحقي بزوجك ففي عينيه بياض فسعت المرأة نحو زوجها مرعوبة، فقيل لها: ما دهاك؟ قالت: النبي ﷺ قال إن في عيني زوجي بياضًا، فقال: نعم والله وسوادًا. وأتته أيضًا عجوز أنصارية فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز، فَوَلَّتْ المرأة تبكي، فتبسم رسول الله ﷺ وقال لها: أما قرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً . فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة/ ٣٥-٣٧]. وقالت عائشة -رضي الله عنها: سابقتُ رسول الله ﷺ فسبقته، فلما كثر لحمي سابقته فسبقني فضرب بكفي

وقال: هذه بتلك. وعنها -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ يدخل وأنا ألعب مع صويحباتي فإذا رأين رسول الله ﷺ سعين، فيقول رسول الله ﷺ: كما أنتن، ولا يعيب عليَّ.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لا بأس بالمفاكهة[١] يخرج بها الرجل من حد الحبوس[٢]. وروي عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يتحادثون ويتناشدون الأشعار، فإذا جاء ذكر الله انقلبت حماليقهم[٣] كأنهم لم يعرفوا أحدًا. وسُئل النخعي هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي.

وكان نعيمان بن عمرو الصحابي من أولع الناس بالمزاح، وكان بدويًّا قيل: إنه ذكر عند النبي ﷺ أنه يكثر المزاح والضحك، فقال: دعوه فإنه يدخل الجنة وهو يضحك، فمن مزاح نعيمان ما روي أنه أهدى لرسول الله ﷺ جرة عسل اشتراها من أعرابي بدينار، وجاء الأعرابي إلى باب النبي ﷺ فقال: خذ الثمن من ههنا، فلما علم النبي ﷺ ذلك قال لنعيمان: ما حملك على ما صنعت؟ قال: أردت بِرَّك ولم يكن معي شيء، فتبسم النبي ﷺ وأعطى الأعرابي ثمنه. وكذلك باع نعيمان سُوَيْبِط بن حَرْمَلَة من الأعراب بعشر قلائص، فسمع أبو بكر فأخذ القلائص وردها

(١) المُفَاكَهَة: الممازحة. (م).

(٢) الحبوس: حبس: منع، والمراد أن يتخفف الرجل بالمزاح عن حياة الجد والعناء. (م).

(٣) حَمَالِيقُهم: الحماليق باطن أجفان العين الذي يُسَوِّده الكحل. (م).

واسترد سويبطًا فضحك النبي ﷺ وأصحابه منه حولاً كاملاً.

وكان سالم بن عبد الله يقول: ترك الضحك من العجب وأعجب منه الضحك من غير سبب، وكان بالمغرب وَرَّاق فكتب مصحفًا في أسبوع، فقيل له: في كم كتبته؟ فقال: في سبعة أيام وما مسنا من لغوب[١]، فشُلَّتْ يده، وهذا ممن أدركه الخذلان وسلب التوفيق فاستعمل الهزل في موضع الجد، وتخطاه أن يتدبر قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة/ ٦٥]، وفي الخبر: إياكم والمزاح، فإنه يذهب بهاء المؤمن ويسقط مروءته ويجر غضبه، وهذا يُحْمَل على من يكون ديدنه. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من كثر ضحكه قلَّت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، وقيل لكل شيء بذر وبذر العداوة المزاح.

قال ابن المعتز رحمه الله: المزح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب. وقيل: المزح يذهب البهاء ويجرِّئ عليك السفهاء، وتركه يقيض المؤانسين ويوحش المخاطبين، وقيل:

لاَ تَجْعَلِ الهَزْلَ دَأبًا فَهْوَ مَنْقَصَةٌ   والجِدُّ تَعْلُو بِهِ بَيْنَ الوَرَى القِيَمُ
وَلاَ يَغُرَّنكَ مِنْ مَلِكٍ تَبَسُّمُهُ   مَاتَسْحَبُ السُّحبُ إلاَّ حِينَ تَبْتَسِمُ

(١) لُغُوب: تعب وإعياء. (م).

قال الإمام الشافعي ﷺ: الانبساط مع الناس مجلبة لقرناء السوء، والانقباض عنهم مكسب العداوة، فكن بين المنقبض والمنبسط. وقيل في المثل لا تكن رطبًا فتعصر ولا يابسًا فتكسر. وكان ابن الماجشون ينشد:

إِنَّمَا لِلنَّاسِ مِنَّا حُسْنُ خُلقٍ ومِزاح
وَلَنَا مَا كَانَ فِينَا مِنْ فَسَادٍ وصَلاح

والمزح الدعابة، والممازحة المفاكهة، وعن زيد بن ثابت أنه كان من أفكه الناس في أهله، وأصمتهم إذا جلس مع القوم. وكان مالك بن أنس من أحسن الناس خلقًا مع أهله وولده، وكان يقول: يجب على الإنسان أن يتحبب إلى أهل داره حتى يكون أحب الناس إليهم. وحديث أم زرع مشهور وفق الكلام سيد عليه، وفسره القاضي عياض فجاء في سِفْر صغير. وأما حديث خُرافَة فخَرَّجَ الترمذي في الشمائل عن عائشة قالت: حدّث رسول الله ﷺ ذات ليلة نساءه حديثًا، فقالت امرأة: كأن الحديث حديث خرافة، فقال: أتدرون ما خرافة؟ قالوا: لا، قال: إن خرافة كان رجلاً من عذرة، أَسَرَتْهُ الجن في الجاهلية فمكث وهو فيهم، ثم ردّوه إلى الإنس فكان يحدث الناس بما رأي فيهم من الأعاجيب، فقال الناس: حديث خرافة. فهذا من حسن خلقه ﷺ.

الفصل الثالث

في محبة الأمّهات لأبنائهنّ وبناتهنّ، وما يتعلق بذلك من التوسعة على العيال وحسن التأهيل

هذه المحبة من الأمّهات وما يصحبها من شدّة الشفقة والرأفة سر إلهي، أودعه الله تبارك وتعالى في قلوب الأمهات من خلقه جميعًا من درجة الإنسان إلى آخر درجات الحيوان، فالأم دائمًا تحنو على المولود بما أودع فيها من السر الإلهي، وقد أودعت الحكمة الإلهية في مهد الطفل ما لا يعدّ ولا يحصى من الإنعام والإحسان، وأكثرت فيه من الخير الحميم والفيض الجسيم والشفقة والرأفة والرحمة والكرامة ما لا مزيد عليه، فإن الولد أوّل وضعه يجد ثدي أمه غزير اللبن الجيد الغذاء الملائم لمعدة الصبي، وقد جعل الله سبحانه وتعالى فم الطفل بمجرد ولادته أنيسًا لأمه ونديمًا لها تأنس به بدون أن يؤذيها لخلوه عن الأسنان التي لو خلق بها لجرحت ثدي أمه حين الرضاع وآست عليها، فكلما كبر الطفل غزر اللبن وصار مادّة مغذية كافية له، فإذا فطم الطفل وانفصل عن الرضاع نشف ما في الثدي من غزير اللبن.

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن الأم يعتريها في مدة رضاعها لولدها وَهَنٌ وضعف، وأن قوتها تعود لها غب[1] الفطام دفعة واحدة، فتقدر على أن تتحمل ما لا يستطيع أن يتحمله الرجل القوي الشديد في تربية الطفل بعد الفطام فتتعهد شؤون ولدها وتربيه في صغره حتى يكبر، وتقوّم أَوَدَه بالقيام بضرورياته فتتعهد أحوال ابنها آناء الليل وأطراف النهار، وتؤدي له جميع ما يحتاج إليه، وقد جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في المرأة الحاضنة لولدها خفة كاملة، وسرعة حركة شاملة، لم تكن تعهد فيها قبل الولادة، فإنها تلمس طفلها النحيف البدن لمسًا خفيفًا بدون أن تؤلمه ولا أن تؤذيه في عضو من أعضائه النحيفة، وقد ألهمها الله تعالى أنها تؤمل من طفلها أن يكون زينة الحياة الدنيا، فإذا بكرت المرأة بمولود فكل شيء في زمن الرضاع يؤذيها من صوت أو غيره فتتأذى من كل شيء، وتحب خفيف المأكل والمشرب، وتجتنب المغلظات، وتحب رقيق الملبس، ووطيء الفراش، ويخشى عليها من هبوب النسيم.

وأما غب الفطام فإنها لا تتكلف شيئًا فقد يكفيها رغيف خبز ولو من الخشكار، وثوب ولو من القماش الصفيق، وحصير من الحلفاء، وتقوى على تحمل الرياح والأمطار فلا تتأذى بشيء من ذلك، ومع هذا فقد لا تملك من الدنيا عند وضعها إلا اللبن التي تسقيه لولدها والكساء الذي تلف ابنها في طرف منه،

(١) غِبّ الفطام: آخره. (م).

فلا يوجد أحد في الدنيا إذا تذكر رأفة أمه به وما اعتراها من المشقة في تربيته، وتلطفها معه، ونصيحتها إياه، وتأديبها له إلا أثر ذلك في قلبه كل التأثير، حتى إن الإنسان إذا تذكر أمه من حيث إنها ولدته بقطع النظر عن حسن صنيعها في تربيته حَنَّ قلبه إليها، وعظم حبه لها، وازداد وُدُّهَا في قلبه، فمحبة الأم تدوم وتعظم أكثر مما عداها من المحبة الطبيعية التي خلقها الله في قلوب الناس.

وللرضاع تأثير ظاهر في الأولاد، فقد قال ﷺ: «الرضاع يغير الطباع»، وقال: «لا تسترضعوا الحمقى فإن اللبن يعدي ويروي»، ومعناه أن المرضعة إذا أرضعت غلامًا نزعت إليه أخلاقها فيشبهها؛ ولذلك تختار المرضعة العاقلة صحيحة الحواس ظاهرًا وباطنًا، معتدلة المزاج، عظيمة الثديين، وتتغذى الحلو والسمين والسمك والرطب.

وأما محبة الوالد لأولاده فهي ناتجة عما يعلمه الأولاد من أن أباهم اهتم بتربيتهم وعَوَّدَهم على حسن الأفعال وطيب الأخلاق ليتأهلوا لنفع الأوطان وإعانة الإخوان والخلان، فشفقة الوالد على ولده بهذا المعنى فضيلة من الفضائل العظيمة وبركة من البركات الجسيمة، والأجداد في ذلك كالآباء فالأصل متى عوّد الفرع على العوائد الحسنة والأخلاق المستحسنة، وفقهه بما يجلب له أنواع الراحة، وأنفق عليه ماله وجاهه تذكر الابن دائمًا فضل أبيه وشكر له صنيعه، فما يصطنعه الآباء في زمان شبوبيتهم لأولادهم من المنافع يجدونه عند شيخوختهم

واحتياجهم إليهم فتكون الأولاد أعوانًا وأنصارًا لآبائهم وقت الهرم، وكثيرًا ما تكفي الأبناء الآباء جميع ما يحتاجون في حال الكبر ويخففون عنهم أثقال الهرم التي لابد منها، ويستحب التوسعة على العيال لاسيما في يوم عاشوراء من المحرم وفي الأيام الفاضلة والعيدين، قال ﷺ: «من وسع على عياله يوم عاشوراء وسع الله عليه السنة كلها»، قال سفيان: إنا جربناه خمسين سنة فوجدناه كذلك.

ومن الممدوح تسمية الولد محمدًا أو أحمد فإنها من أحب الأسماء، قال ﷺ: «سَمِّ ابنك محمدًا يكثر خير بيتك»، وقال ﷺ: «أفضل الأسماء ما عُبِّدَ وما حُمِّد»، وقال ﷺ: «إذا سميتم الولد محمدًا فأكرموه ووسعوا له في المجلس ولا تقبحوا له وجهًا». وقال مالك: سمعت أهل مكة يقولون ما من بيت فيه اسم محمد إلا نما ورزقوا. وقال ﷺ: «أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام»، ويسن كنية أهل الفضل من الرجال والنساء ومخاطبتهم بها، فيكنى الإنسان ذكرًا أو أنثى بأبي فلان وأم فلانة سواء كان له ولد أم لا وسواء الصغير والكبير، والأولى أن يكنى بأكبر أولاده. والأدب أن لا يذكر الإنسان كنيته في كتابه أو خطابه إلا إن كان لا يعرف إلا بها أو كانت أشهر من اسمه، ولا يجوز التكني بأبي القاسم لمن اسمه محمد.

فاعتناء الآباء بالأبناء إعانة للأبناء على بر الآباء، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «رحم الله والدًا أعان ولده على بره»، وقال بعض العلماء: إنما سمي الأبرار أبرارًا؛ لأنهم بروا الآباء والأبناء. وقال الأحنف: أولادنا ثمار قلوبنا

وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة، وبهم نصول على كل جليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم يمنحوك ودهم ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم مُقِلاًّ فيملوا حياتك ويحبوا مماتك ويكرهوا قربك، وكما يجب تربية الأولاد تندب تربية الأقارب بل وغيرهم، فقد ربى النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه وزوّجه ورفعه ونصره.

ثم إن الاعتناء بشأن البنات من الآباء فيه جزيل الثواب، فقد ورد عن النبي ﷺ: «من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كنّ له سترًا من النار»، وفي رواية: «من عال ثلاث بنات تكفلهنّ ورحمهنّ وترفّق بهنّ فهو معي في الجنة»، وقيل:

أُحِبُّ البَنَـــــات فحُبُّ البَنَا ... تِ فَرْضٌ على كُلِّ نَفْسٍ كَرِيمَة
وإنَّ شُـــــعَيْبًا لأَجْـــلِ ابنَتَيْه ... أَخْدَمَهُ الله مُوسَــــى كَلِيمَهْ

قال إسحاق بن خلف المعروف بابن الطيب في ابنة أخت له كان رباها يتيمة تسمى أميمة:

لَوْلاَ أُمَيْمَةُ لَمْ أَجْزَعْ مِنَ العَدَمِ ... ولَمْ أَجُبْ في اللّيَالي حِنْدِسَ[1] الظُّلَمِ
وزَادَني رَغْبَةً في العَيْشِ مَعْرِفَتي ... ذُلَّ اليَتِيمَةِ يَجْفُوهَا ذَوُو الرَّحِمِ

(١) حِنْدِس: ظُلمة. (م).

أَخْشَى فَظَاظَةَ عَمٍّ أَوْ جَفَاءَ أَخٍ وكُنْتُ أَبْكِي عَلَيْهَا مِنْ أَذَى كَلِمِ
إِذَا تَذَكَّرْتُ بِنْتِي حِينَ تَنْدِبنِي فَاضَتْ لِعَبْرَةِ بِنْتِي عَبْرَتِي بدَمِ

وقال ﷺ: «خير بيوتكم بيت فيه يتيم مكرم»، وورد عنه ﷺ: «خيركم خيركم لنسائه وبناته»، وورد عنه ﷺ: «إن الله يحب أبا البنات الصابر المحتسب»، وورد عنه ﷺ: «لا تكرهوا البنات فإنهن المؤنسات الغاليات»، وورد عنه ﷺ: «من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى».

ومن أحسن الإحسان إلى البنات تزويجهنّ إلى من هَوَيْنَهُ وأحببنه، قال زيد بن عمرو: كان فينا رجل له ابنة شابة وكان له ابن أخ يهواها وتهواه فمكثا بذلك دهرًا، ثم إن الجارية خطبها بعض الأشراف وأرغب في المهر فأنعم أبو الجارية واجتمع القوم للخطبة، فقالت الجارية لأمها يا أماه ما يمنع أبي أن يزوجني من ابن عمي؟ قالت: أمر كان مقضيًّا، قالت: والله ما أحسن ذلك رباه صغيرًا ثم يدعه كبيرًا، ثم قالت: أي أماه إني والله منه حامل واكتمي إن شئت أو فبوحي، فأرسلت الأم إلى الأب فأخبرته الخبر فقال: اكتمي هذا الأمر، ثم خرج إلى القوم فقال: يا هؤلاء إني كنت أجبتكم وإنه حدث أمر عسى أن يكون فيه الأجر، وإني أشهدكم أني زوجت ابنتي فلانة من ابن أخي فلان، فلما انقضى ذلك قال الشيخ: أدخلوها، فقالت الجارية: هي بالرحمن كافرة إن دخلت عليه إلا بعد سنة تبين نفي حملها، قال: فما دخل بها إلا بعد الحول، قال: فعلم أهلها أنها احتالت على أبيها.

ثم إن الأولاد الناتجين عن آبائهم وأمهاتهم إذا حسنت تربيتهم وحسنت المحبة من الآباء لهم وحسن برهم لآبائهم كان في الغالب بينهم محبة ووداد بعضهم لبعض واتحاد والتئام، وانتفت الغيرة منهم للتسوية بينهم في التربية والتألف، فيشبون عادة على محبة بعضهم لبعض، وتسمى هذه المحبة بالمحبة الأخوية.

الفصل الرابع

في المحبة الأخوية

متى صح الودّ بين الآباء والأمهات، وصحت تربية البنين والبنات بسلوك الآباء طريق العدل والإنصاف في تسوية أبنائهم وبناتهم في تقويم أودهم[1] شب الإخوة على التحابب والتوادد بعضهم لبعض، فهذه محبة الأخوية وهي فضيلة من الفضائل العظيمة، لأنها عبارة عن وجود الوفاق والاتحاد بينهم، فهذه الفضيلة تكسب العائلة قوة وأمنًا وحفظًا وصونًا، فإن اجتماع الإخوة المتحابين تعاون على الأجنبي فيحمي بعضهم بعضًا من عدوّهم فلا يصاب أحد الإخوة بضيم ما دام إخوته أنصارًا له، وعند الضرورة المعاشية يعين بعضهم بعضًا ويساعد الأخ أخاه إذا جار عليه الزمان وحاربته صروف الحدثان. فباتحاد الإخوان يثبت قدم العائلة ويرسخ أساسها ويكون له صورة وجود قوي في خارج الأعيان، بخلاف ما إذا بغض الإخوة بعضهم بعضًا ووقع بينهم التحاسد والمشاحنة[2] وصار أمر كل منهم موكولاً على حدته لقوة نفسه لا ناصر له ولا معين من إخوته، فإنه بهذه

---

(١) أَوَدِهم: اعوجاجهم. (م).

(٢) المُشَاحَنَة: المباغضة والعداوة. (م).

المثابة يصير عرضة لجميع مكاره العزلة والانفراد والضعف الشخصي المترتب على عدم الاتحاد، وهذا معنى ما ينسب لبعض العقلاء من ملوك التركمان أرباب الحكمة والأمثال في قديم الزمان، وذلك ما يحكى أن خاقانًا[١] من خواقين التركمان كان مريضًا في فراشه وقد أيس من حياته فأحضر أولاده بين يديه وأحضر حزمة من الرماح لديه وأمرهم أن يحطموها بأيديهم فعجزوا عن ذلك مع كونهم في عنفوان الشباب ونضارة الإهاب[٢]، أقوياء العروق والأعصاب، ولم تؤثر فيها أيديهم شيئًا، فأخذها الخاقان وفرقها من بعضها رمحًا رمحًا فصار يحطم بأطراف أصابعه كل واحد منها حتى كسر الجميع، ثم قال لأولاده: انظروا إلى فضل الاجتماع وثمرته، فإذا اجتمعتم عصبة واحدة كالحزمة الواحدة فلا غالب لكم من أعدائكم وإذا تفرقتم تحطمتم كالقناة.

وكان بعض نساء العرب يفضل الأخ على الزوج والابن، قيل لامرأة كان أسر الحجاج زوجها وابنها وأخاها: اختاري أيهم شئت، فقالت: الأخ، فإن الزوج موجود والابن مولود والأخ مفقود، فقال الحجاج: قد عفوت عنهم بحسن كلامها، فلولا أنها ذات نسب ما نطقت بهذا الكلام.

---

(١) خاقان: اسم من أسماء الملك. (م).

(٢) الإِهَاب: الجلد. (م).

وحُزْن مُتَمّم بن نُوَيْرَة على أخيه مالك لما قتل في الردة ورثاؤه له بقصائد طَنَّانة رَنَّانة يدل أبهر دلالة على المحبة الأخوية، وقوله فيه حين قتل: فتى ولا كمالك مما تضرب به الأمثال، أي فتى ليس له مثيل. وكذلك بكاء الخنساء على أخيها صخر مما سارت به الرُّكْبَان، وكذلك محبة أمه له وحزنها عليه في مرضه وسآمة زوجته من طول علته مما أطنبت فيه السير هو للفرق بين الأم والزوجة عبرة لمن اعتبر، وذلك أن صخر بن عمرو أخا الخنساء لَمَّا طعنه أبو ثور الأسدي طعنة في جنبه مرض منها حولاً كاملاً حتى مَلَّه أهله أي زوجته فسمع امرأة تقول لامرأته: سلمى كيف بعلك؟ فقال لا حي يرجى ولا ميت فينعى، لقد لقينا منه الأمرّين، فقال صخر:

أَرَى أُمَّ صَخْر لا تَمَلُّ عِيَادَتي ... ومَلَّتْ سُلَيْمَى مَضْجَعِي ومَكَانِي
فأَيُّ امرئٍ سَاوَى بأمّ حَلِيلَةٍ ... فَلا عَاشَ إِلاَّ في شَقَا وهَوَانِ

فلما طال به البلاء نتأت قطعة من جنبه في موضع الطعنة، فقطعوا ذلك الموضع فيئس من نفسه فمات، فصارت أخته الخنساء ترثيه وتبكيه دائمًا، فمن ذلك قولها:

تُذَكِّرُني طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا ... وأَذْكُرُهُ بكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ
ولَوْلاَ كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي ... على إِخْوَانِهِم لقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَنْعُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُسَلِّي القَلْبَ عَنْهُ بالتَّأَسِّي

وما حكاه الجاحظ عن أخت ملك الخزر يفيد نصيحة الأخوات لإخوتهم، فقد قال الجاحظ: حدثني حميد بن عطاء قال: كنت عند الفضل بن سهل بدار الخلافة ببغداد، وعنده رسول ملك الخزر، وهو يحدثنا عن أخت ملكهم، قال: أصابتنا سنة احتدم(١) شواظها(٢) علينا بحر المصايب وصنوف الآفات، ففزع الناس إلى الملك فلم يدر ما يجيبهم به، فقالت أخته: أيها الملك إن الخوف لله خلق لا يَخْلَق جديده، وسبب لا يمتهن عزيزه، وهو دال الملك على استصلاح رعيته وزاجره عن استفسادها، وقد فزعت إليك رعيتك بفضل العجز عن الالتجاء إلى من لا تزيده الإساءة إلى خلقه عزًّا، ولا ينقصه العَوْد بالإحسان إليهم ملكًا، وما أحد أولى بحفظ الوصية من الموصي، ولا بركوب الدلالة من الدال، ولا بحسن الرعاية من الراعي.

ولم تزل في نعمة لم تغيرها نقمة، وفي رضى لم يكدره سخط إلى أن جرى عند القدر بما عمي عنه البصر، وذهل عنه الحذر فسلب الموهوب والواهب هو السالب، فَعُد إليه بشكر النعم واستعذ به من فظيع النقم، فمتى تنسه ينسك، ولا تجعلن الحياء من التذلل للمعز المذل سترًا بينك وبين رعيتك فتستحق مذموم العاقبة، ولكن مُرْهُم ونفسك بصرف القلوب إلى الإقرار له بكُنْه القدرة وبتذلل الألسن في الدعاء بمحض الشكر له، فإن المالك ربما عاقب عبده

(١) احْتَدَم: اشتد إحماؤه. (م).
(٢) شَوَاظ: اللهب الذي لا دخان فيه. (م).

ليرجعه عن سيئ فعل إلى صالح عمل، أو ليبعثه على دائب شكر ليحرز[١] به فضل أجر، فأمرها الملك أن تقوم فيهم فتنذرهم بهذا الكلام ففعلت، فرجع القوم وقد علم الله منهم قبول الوعظ في الأمر والنهي، فحال عليهم الحول[٢] وما منهم مفتقد نعمة كان سلبها، وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصنع، فاعترف لها الملك بالفضل فقَلَّدَها الملك فاجتمعت الرعية لها على الطاعة في المكروه والمحبوب.

وقد خلق الله الناس أطوارًا؛ فطائفة للعبادة، وطائفة للسياسة، وطائفة للفقه والسنة، وطائفة للبأس والنجدة، ورجوعة بين ذلك يغلون السعر ويكدرون الماء.

وكان العلامة الصالح المعمر الشيخ عبد الله بن حزام أبو الطوع الفيومي المالكي يأتي إليه أحد العوام، فيقول له: حاجتي في بلد كذا فقم معي حتى أقضيها، فيطيعه ويذهب معه الميلين والثلاثة ويقضيها له، وقد تكرر ذلك منه، وكان له في كل يوم صدقات على الفقراء والمساكين يفرقها عليهم بيده ولا يشمئز، وكان الذي على نسقه العلامة الشيخ سليمان الفيومي رحمهما الله.

وقال الإمام عليّ كرم الله وجهه: من كانت له إليَّ حاجة فليرفعها إليَّ في كتاب لأصون وجهه عن المسألة، فوقف أعرابي للإمام عليّ رضي الله عنه وقال: إن لي

(١) يُحْرِز: يُسَجِّل ويسبق. (م).

(٢) الحَوْل: العام. (م).

إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك، وإن أنت لم تقضها حمدت الله وعذرتك، فقال: خطها[١] في الأرض، فخط: إني فقير فدفع إليه حلة فلما تسلمها أنشد:

كَسَــــوْتَنِي حُلَّةً تَبْلَى مَحَاسِنُهَا فسَوْفَ أَكْسُوكَ من حُلَلِ الثَّنَا[٢] حُلَلا
إِنَّ الثَّناءَ ليُحْيِي ذِكْرَ صَاحِبِهِ كالغَيْثِ يُحْيِي نَدَاهُ السَّهلَ والجَبَلا
لا تَزْهَد الدهْرَ في عُرْفٍ بَدَأْتَ به فكُلُّ شَخْصٍ سَيُجْزَى بالذي فَعَلا

وروي عنه ﷺ: «إن لله عبادًا خلقهم لحوائج الناس»، وروي عنه أيضًا: «من مشى في عون أخيه فله ثواب المجاهدين»، وروي عن أبى هريرة رضي الله عنه: إن لله ملائكة سائحين في الأرض فإذا أراد رجل يتكلم مع رجل في قضاء حاجة وقفوا عندهما، فإن قضاها بسطوا أيديهم ودعوا له بالمغفرة والهداية وأمنوا على بعضهم.

وكان ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة، وهو لا يسأل في شيء إلا أعطاه، وكان إذا دخل رمضان أطلق كل أسير وأعطى كل سائل، وكان جوده ﷺ بجميع أنواع الجود؛ من بذل الحِلْم والمال وبذل نفسه في إظهار دينه وهداية عباده، وإيصال النفع العميم بكل طريق من إطعام جائعهم ووعظ جاهلهم وقضاء

(١) خُطَّهَا: اكتبها. (م).
(٢) الثَّنَا: الإطراء والمدح. (م).

حوائجهم وتحمل أثقالهم. ولم يزل ﷺ على هذه الخصال الحميدة منذ نشأ؛ ولهذا قالت له خديجة -رضي الله عنها- في أوّل بعثه لما عاد إليها وأخبرها الخبر وقت رجوعه من غار حراء بعدما غطه جبريل عليه السلام لما أمره بالقراءة وحصل له الجهد من ذلك: والله لا يحزنك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتقري[١] الضيف وتحمل الكَلّ[٢] وتعين على نوائب الدهر. وفي الحديث عنه ﷺ: «من لم يحمل هَمَّ المسلمين فليس منهم»، وفي لفظ «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»، أي علامة من يحمل همهم أن يكون حاله كحال صاحب الأولاد يوم موت أعز أولاده أو إخوانه.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا حصل للناس هم يخلع ثيابه ويلبس ثوبًا قصيرًا لا يكاد يبلغ ركبتيه ثم يرفع صوته بالبكاء والاستغفار وعيناه تدمعان حتى يغشى عليه، وكان إذا نزل بالمسلمين بلاء لا يضحك قط. وكذلك عمر ابن عبد العزيز وسفيان الثوري وعطاء السلمي حتى يرتفع ذلك البلاء. وكان الشيخ علي الخواص إذا نزل بالناس بلاء لا يتكلم ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام حتى ينكشف، روي أن موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال: يا رب، دلني على أحب الخلق إليك، فقال: يا موسى أحب الخلق إليّ

(١) تُقْرِي: تُضيف وتُكرم وتُحسن. (م).
(٢) الكَلّ: المُتعب الضعيف. (م).

مَنْ إذا سمع أن أخاه المؤمن شاكته شوكة حزن لها كأنها شاكته هو، وقيل: لا يصلح لصحبة الأمراء إلا رجال الرحمة، وأما رجال النقمة فلا يصلحون لصحبة الولاة؛ لأنهم يمقتونهم[١] ويهلكونهم، ولولا رجال الرحمة وشفاعتهم فينا لنزل علينا العذاب فأهلكنا لسوء ما نفعله، ومن أعان ظالمًا سَلَّطَه الله عليه، ومَنْ طلب رضاه بسخط الله أسخط الله وأسخطهم عليه، ولا يحيق[٢] المكر السيئ إلا بأهله. وقال الشيخ عليّ الخواص: أعرف جماعة من أرباب الأحوال يقيمون دائمًا في مواضع المعاصي فيشفعون في أهل هذه المعاصي كلما عصوا أو كلما أصروا، إما أن يغفر الله لهم وإما أن يتوبوا عقب ذنب ولا يصروا، وقال تقي الدين بن حجة:

وأَسْعَدُ العَالَمِ عِنْدَ اللهِ مَنْ سَاعَدَ النَّاسَ بفَضْلِ الجَاهِ
ومَنْ أَغَاثَ البَائِسَ المَلْهُوفَا أَغَاثَهُ اللهُ إذا أُخِيفَا
وإنَّ مِنْ خَلاَئِقِ الكِرَامِ رَحْمَةُ ذِي البَلاءِ والأَسْقَامِ

وقد ورد أن موسى عليه الصلاة والسلام لما رعى الغنم لم يضرب واحدة منهن بعصاه إنما كان يهش بها فقط، وكان لا يجيعها ولا يؤذيها بعطش، وجاء بها مرة إلى نهر ليسقيها فوجد فيها شاة عرجاء لا تقدر على الوصول إلى الماء فحملها ونزل بها فسقاها، فلما رأى الحق منه قوّة شفقته على غنمه بعثه الله نبيًّا

(١) يَمْقُتُونَهم: يبغضونهم ويكرهونهم. (م).
(٢) يَحِيق: يصيب ويحيط. (م).

وكليمًا راعيًا لبني إسرائيل وناجاه بالتوراة وغيرها. فمن رحم رعيته وشفق عليها اصطفاه الله من بين الخلق، وقال ﷺ: «كما تكونوا يُوَلَّى عليكم»، وقيل: أعمالكم عُمَّالكم.

ونهى ﷺ أن يعذب أحدكم دابته بأن يحملها ما لا تطيق أو يتعبها في الأشغال، أو يعذب كلبه أو قطه بالجوع أو بالنار أو نحو ذلك، فإن الله تعالى لا يعذب أحدًا بالجوع. ونهى عن أكل الكلاب وثمنها، ودِيَة[1] الكلب السلوقي أن يكون درهمًا، ودية كلب الغنم كبش، ودية كلب الزرع فرق من طعام. ونهى عن تحريق خشاش الأرض فإنه ما خلق الله شيئًا عبثًا.

وما ذكرناه من خطبة ملكة الخذر التي يظهر أنها مترجمة بالعربية يفيد أن في نساء الأعجام من الفصاحة في لسانهم والبلاغة فيه مثل ما يوجد في نساء العرب، فإن لنساء العرب فصاحة وبلاغة قَلَّ أن توجد في الرجال. وروى الأحنف بن قيس قال: سمعت كلام أبي بكر حتى مضى، وكلام عمر حتى مضى، وكلام عثمان بن عفان حتى مضى، وكلام عليّ بن أبي طالب حتى مضى، فلا والله ما سمعت فيهم أبلغ من عائشة -رضي الله عنها. وكان ﷺ كثيرًا ما يلاطفها بقوله: يا حميراء تصغير حمراء، ومعناها البيضاء، وفي القاموس: الأحمر ما لونه الحمرة والبياض.

---

(١) دِيَة: حق القتل. (م).

وقال معاوية بن أبي سفيان: ما رأيت أبلغ من عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- ما غلقت بابًا قط وأرادت فتحه إلا فتحته، ولا فتحت بابًا وأرادت غلقه إلا غلقته. وروى الشعبي عن شبرمة قال: لما كان يوم الجمل لَغَطَ[١] الناس في عسكر عائشة -رضي الله عنها- فالتفتت ثم أشارت أن كُفُّوا، فكأنما قطعت الألسن في الأفواه، ثم قالت: أيها الناس إن لي عليكم حق الأمومة وحق الصحبة فلا يتهمني منكم إلا من عصى ربه، قُبِضَ رسول الله ﷺ بين سَحْري ونَحْري، وأنا إحدى نسائه في الجنة، وله حصنني ربي عز وجل من كل بضع، وأبي ثاني اثنين وأوّل من سمي صِدِّيقًا، قُبِض رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ، وقلده رهق[٢] الخلافة فرقد النفاق وأطفأ واقدة المشركين حين اضطرب حبل الدين، وأنتم يومئذٍ جحظ العيون تسمعون الصيحة وتتبعون الدعوة فقام بحق الله حتى قبضه الله إليه، وإني أقبلت أطلب بدم الخليفة المنتهكة منه الحرم الأربع؛ حرمة الخلافة، وحرمة الصحبة، وحرمة الإسلام وحرمة البلد الحرام، فمن ردنا بالحق تابعناه، ومن ردنا بالباطل قاتلناه، انتهى.

وكانت عائشة -رضي الله عنها- تصوم الدهر كله ولا تفطر إلا يوم الأضحى ويوم الفطر، وتوفيت -رضي الله عنها- ليلة الثلاثاء لتسع عشرة خَلَوْنَ من شهر رمضان سنة ثمانٍ وخمسين وهي ابنة ست وستين سنة، وأوصت أن

(١) لَغَطَ: أحدثوا ضجة. (م).

(٢) رَهَق: مشقة. (م).

تدفن بالبقيع مع صواحباتها، وصلى عليها أبو هريرة، وروت عن رسول الله ﷺ ألفًا ومائتي حديث، وروى عنها خلق كثير من الصحابة والتابعين ﷺ.

وما تقرر من اتحاد الإخوة يقال مثله في اتحاد الإخوان، ففي الحديث الشريف: «المرء كثير بأخيه»، كما قيل:

ما ضَرَّ مَنْ كَانَ لَه صَاحِبٌ يَقْدِرُ أَنْ يُصْلِحَ مِنْ شَأْنِه
فَإِنَّما الدُّنْيَا بسُكَّانِهَا وإِنَّما المَرْءُ بإخْوَانِه

وقال تقي الدين بن حجة:

فإنَّما الرِّجَالُ بِالإِخْوَانِ واليَدُ بِالسَّاعِدِ والبَنَانِ
لا يَحْقِرُ الصُّحْبَةَ إلاَّ جَاهِلُ أَوْ مَائِقٌ[١] عَنْ الرَّشَادِ غَافِلُ
ومُوجِبُ الصَّدَاقةِ المسَاعَدة ومُقْتَضى المَوَدَّةِ المُعَاضَدَة[٢]
لاسِيَّمَا في النُّوَبِ الشَّدَائِدِ والمِحَنِ العَظِيمَةِ الأَوَابِدِ[٣]

وقال بعضهم: اختبر من تريد اتخاذه صاحبًا من الرجال بواحدة من ثلاث خصال؛ الأولى أن تنظر كيف كان مع إخوانه وأهل عشيرته الذين سبقوك إلى

(١) مَائِق: الهالك حمقًا وغباوة. (م).
(٢) المُعَاضَدَة: الإعانة والنصرة والإسعاف. (م).
(٣) عَظِيمَة الأَوَابِد: شديدة ومؤلمة. (م).

مودته وصحبته، فإن رأيته فركهم وجفاهم وتركهم فتباعدْ عن صحبته، واعلم أنه لا جديد لمن لا خلق له، قال الشاعر:

إِذَا مَا أَرَدْتَ إخــَــاءَ امرئٍ فسَلْ كَيْــفَ كان لإِخْوَانِهِ
فَإِمَّــا رَغِبْــتَ فأَحْبَبْتَهُ وإِمَّا تَرَغَّبْتَ عَــنْ شَــأْنِهِ

الثانية: أن تنظر كيف صلته لرحمه؟ موجودها ومفقودها لاسيما أبويه اللذين هما السبب القريب في كون نفسه ووجودها، فإن وجدته لأحد أبويه منازعًا ففرّ منه فرارك من العيب والعار، واعلم أن الله قاطعه عن كل خير وأن مصيره إلى النار، ولعمري إن قاطع الرحم أخبث من قاطع الطريق، فكيف يطمع العاقل أن يكون له من ذلك العدّو خير صديق، ومن كان قاطعًا لرحم الأنساب كيف يرجى وصله لرحم الأصحاب. الثالثة: أن تغضب من تريد اتخاذه صاحبًا وحميمًا؛ فإن الغضب يظهر لك من أخلاقه ما كان مكتومًا.

وقد ورد عنه ﷺ: «أخبر تقله»، وقيل: احذر الصاحب الصاخب والنسيب النشيب[1]، وعليك بالخليل الجليل، الأثيل[2] الأصيل، النبيه النبيل، الذي يتباعد منك عند وضع الموائد ويتفقدك في أوقات الشدائد، ويستر ما بدا من عيبك

(١) النَّشيب: المجاهر بالعداوة. (م).
(٢) الأَثِيل: المُؤصل. (م).

ويحفظك في حضورك وغيبك، ويعينك إذا عثرت ويفهم ما في ضميرك من عينك إذا نظرت، ويغار عليك من خياله، ويفديك بنفسه وبماله، كما قال الشاعر:

إنَّ أَخَاكَ الحَـقَّ مَنْ كَـانَ مَعَكْ ... ومَنْ يَضُرُّ نَفْسَـهُ لينفَعَكْ

ومَنْ إذا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَعَـكْ[١] ... شَتَّتَ فيك شَمْلَهُ ليَجْمَعَكْ

واحذر أن تتخذ صاحبًا من السفل وهو من يصحبك للأغراض والعلل، فإنه متى انقطعت علته تبعتها خُلَّتُه، وإياك ووضع أمانة الأسرار في خزائن صدور الأشرار، فإنهم أنم من الزجاج على الشراب ومن المشيب على الخضاب، بل أنم من جرس ومن جوزتين في مخلاة فرس، واسمع قول بعض الحكماء الذي لا يضل من يسمعه: سِرُّ المرء من دمه فلينظر أين يضعه، واحذر الشره[٢] فإنه يهدم الشرف وربما عجز صاحبه عند تلافي التلف، وانظر إلى من هو تحتك في الدنيا وإلى من فوقك في الدين، وازهد في النعيم الفاني تفز بالنعيم الباقي أبد الآبدين.

وقال الإمام عليّ كرم الله وجهه: عليكم بإخوان الصدق ومجانبة القرين السوء، فإن إخوان الصدق زين في الرخاء وعدّة عند البلاء، وقيل:

اجْعَلْ قَرِينَكَ مَنْ رَضِيتَ فِعَالَهُ ... وَاحْذَرْ مُقَارَنَةَ القَرِينِ الشَّائِنِ[٣]

---

(١) صدعك: شقك وكسرك. (م).

(٢) الشَّرَه: النَّهَم. (م).

(٣) الشَّائِن: المخجل المخزي. (م).

وقيل:

تَجَنَّبْ قَرِينَ السُّوءِ وَاصْرِمْ[١] حِبَالَهُ   وإنْ لَمْ تَجِدْ مِنْه مَحِيصًا فَدَارِهِ
وأَحْبِبْ حَبيبَ الصِّدْقِ واتْرُكْ مِرَاءَهُ[٢]   تَنَلْ مِنْهُ صَفْوًا لِوُدٍّ مَا لَمْ تُمَارِهِ

وقال بعضهم: إن العقل في ستة أشياء؛ مؤاخاة الأكفاء، ومدارة الأعداء، والحذر من السقطة، والتيقظ من الورطة، وتجرع الغُصَّة[٣]، ومعاجلة الفرصة.

ولا شك أن المخالطة تؤثر والطباع سراقة؛ ولذلك قيل: لا يصحب الإنسان إلا نظيره وإن لم يكن من بلده؛ فصحبة الأخيار تورث الفلاح والنجاح؛ ومجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحًا؛ والنظر إلى الصور يؤثر أخلاقًا، وعقائد مناسبة لخلق المنظور إليه وعقيدته كدوام النظر إلى المحزون يحزن وإلى المسرور يسر، والجمل الشرود[٤] يصير ذلولاً بمقارنة الذلول، فالمقارنة لها تأثير في الحيوان بل في النبات ففي النفوس أولى.

وقال عبد الله بن جعفر: لذتي في ثلاث؛ يد أصطنعها، أو حاجة أقضيها، أو صديق أستفيده. وقال بعض الحكماء: لقاء الإخوان جلاء الأحزان، وبالجملة

---

(١) اصْرِم: اقطع. (م).
(٢) مِرَاءه: جداله. (م).
(٣) الغُصَّة: الحزن والهم والغم الشديد. (م).
(٤) الشَّرود: النافر المستعصي. (م).

فيجب في جميع الأمور أن يجري الجمهور على التخلق بأخلاقه ﷺ فهي نور على نور، قال عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قلت لعائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها: صفي لي خلق رسول الله ﷺ: فقالت أما تقرأ القرآن؟ كان خلقه القرآن، ومعنى هذا أن القرآن يجمع كل فضيلة ويحث عليها، وينهى عن كل نقيصة ويباعد عنها، مثل قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف/ ١٩٩]، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل/ ٩٠] الآية قال بعضهم: إن هذه الآية الشريفة أجمع آية في كتاب الله تعالى للخير والشر، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أعظم آية في كتاب الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ الآية [البقرة/ ٢٥٥]، وأجمع آية في كتاب الله تعالى للخير والشر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل/ ٩٠] الآية، وأكثر آية في كتاب الله تعالى تفويضًا ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا .وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق/ ٢-٣] الآية، وأشدّ آية في كتاب الله تعالى رجاء ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر/ ٥٣] الآية، وما من شيء يحتاج إليه الناس من أمر دينهم مما يجب أن يؤتى ويترك إلا وقد اشتملت عليه هذه الآية.

خاتمة حسنى

فيما يتعلق بحفظ الصحة التي هي للإنسان
أعظم منحة، وفي شذرة
من كلامه صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول

فيما يتعلق بحفظ الصحة التي هي للإنسان أعظم منحة

كانت العرب في قديم الزمان جل طعامهم التمر واللبن واللحم والخبز، فمنهم من كان يقتصر على التمر واللبن، ومنهم من كان يقتصر على الخبز، فكان في العرب عبد الله بن حبيب العنبري سيد بني العنبر في زمانه يسمى آكل الخبز؛ لأنه كان لا يأكل التمر ولا يرغب في اللبن، فكان بنو العنبر إذا تفاخروا قالوا منا آكل الخبز، وكان الخبز عندهم كالفالوذج عند الأعجام، ثم صار الفالوذج عند العرب أشرف طعام وقع إليهم، حتى إن عبد الله بن جدعان من أشراف العرب أوّل من أطعم الناس هذا الطعام فمُدِح بذلك واشتهر به. وأما الثَّرِيد الذي هو الخبز مع اللحم فكان عند أشراف قريش عَامًّا يضاهي الفالوذج، وغلب عليه هاشم حين هشم الثريد لقومه وأطعمه لهم في المحل فمدح به في قول الشاعر:

عمرو العلا هَشَّمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ   ورجالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ[1] عِجَافُ[2]

---

(١) مُسْنِتُون: داخلون في القحط والمجاعة. (م).

(٢) عِجَاف: أصابهم الضعف والهُزال. (م).

وقال آخر:

لا أَحَدٌ كَهَاشِمٍ وإِنْ هَشَـــمْ[١] كَـــلاًّ ولا كَحَاتِمٍ وإِنْ حَتَمْ[٢]

فالثريد عند العرب هو أوفق للصحة من سائر الأطعمة، وقال ﷺ: «فضل الثريد على الطعام كفضل عائشة على النساء» ضرب ﷺ المثل بالثريد؛ لأنه أفضل طعامهم، ولأنه ركب من خبز ولحم، ولا نظير له في الأطعمة؛ لأنه جامع بين الغذاء واللذة والقوّة وسهولة التناول وقلة المؤنة في المضغ وسرعة المرور في الحلقوم، والصواب أن الحاجة للخبز أعم واللحم أفضل وهو أشبه بجوهر البدن من كل ما عداه، وخص ﷺ المثل بالثريد إيذانًا بأن عائشة جمعت من حسن الخلق وحسن الحديث، وحلاوة المنطق وفصاحة اللهجة، وجودة القريحة ورزانة الرأي ورصانة العقل، والتحبب إلى البعل، ومن ثم عقلت عنه ما لم يعقل غيرها من نسائه، وروت عنه ما لم يرو مثلها من الرجال والنساء.

ولم يزل الثريد عند عرب الأرياف مستحسنًا ولو أن أشكال الأطعمة تنوّعت إلى ما لا نهاية له، إلا أن اللائق بالأطفال والصبيان حفظ الصحة بعدم تعويدهم على الجشع والنهم، فلا ينبغي أن يمكن الصبي من جميع ما يطلبه من المآكل فإنه يكون كالمستغيث من الجوع بما يقتله، فإن الصبي كلما اشتهت

---

(١) هَشَم: أي هشم الثريد لقومه. (م).

(٢) حَتَم: قضى. (م).

نفسه شيئًا وظفر به كأنه وجد تمرة الغراب. كما يحكى أن بعض العرب دخل على أهله وهو جائع عطشان فبشروه بمولود وأتوه به، فقال: والله ما أدري أآكله أم أشربه، فقالت امرأته: هو غرثان(١) فأطعموه واسقوه، فلما طعم وشرب قال: كيف الطلا(٢) وأمه؟ فأرسلها مثلاً يضرب لمن ذهب همه وتفرغ لغيره. وبالجملة فينبغي تعويد الصبي على عدم النهم وتقليل الطعام، ومن الأمثال: أقلل طعامك تحمد منامك؛ لأن كثرته تورث الآلام المسهرة والأمراض المنفرة.

ومن المعلوم أن المرض أمر مقلق شاق على النفوس، ومع ذلك فالصغار لاسيما تلاميذ المكاتب من غلمان وبنات يجدون فيه بعض راحة؛ حيث إن الصغير المريض لا يذهب إلى محل التعليم ولا يكلف بحفظ درس ولا غيره، وإذا احتاج إلى دواء كريه للنفس ليشربه فإن الغالب أن يحلى له بأنواع الحلوى التي يميل إليها الصبي بالطبع. يروى أن بعض أبناء الملوك دخل على المبرد وعنده سلة حلوى قد أعدَّها لبعض إخوانه فوجد ابنه الفرصة في اشتغال أبيه مع الداخل إليه فأقبل يأكل منها فنظر إليه المبرد فأنشده:

النَّـــــــاسُ في غَفَـــلاتِهِمْ   وَرَحَـــــــى المَنِيَّةِ تَطْحَــــــنُ

---

(١) غَرْثَان: شديد الجوع. (م).

(٢) الطَّلا: الولد. (م).

وقد جرت العادة أن المريض يواسيه أهله ويلاطفونه أيام مرضه، فالصغار الذين يميلون إلى راحة أنفسهم عادتهم أن يألفوا المرض ولا يكترثون به لعدم تفكرهم فيما يحصل لأهليهم من التألم بذلك، بخلاف الصبيان الذين تحسن آباؤهم تربيتهم فإنهم يتفكرون في أن قلوب آبائهم تضرم[١] بنار القلق والحيرة عند تمرضهم، وإنهم لا يذوقون الراحة ولا يتلذذون بالنوم فهم دائمًا يحرصون على حفظ الصحة واجتناب أسباب الأمراض ولا يعرضون أنفسهم لذلك شفقة على آبائهم.

وقد جرت العادة كذلك أن المرء قليل الأولاد إذا كان له ولد بلغ من العمر في السن أربع سنوات يعز على أبيه وأمه فيربى في الدلال والدعابة، يعني يتعود أن يفعل كما يشاء من السفه[٢] بدون أن ينهاه مربيه، فيشب هذا الولد على الاستعداد على أنواع التلف الصادر عن الغفلة وعدم النصيحة، فيكون هذا الولد لا تجريب عنده في شيء من العيشة ويكبر بدون أن يعلم شيئًا من أحوال الدنيا، فمثله كمثل الجيش الذي يحاول الانتصار على عدوه فيحتاج في ذلك إلى قائد شجاع همام يكلفه التكليفات الشاقة حتى ينتصر على أعدائه، فمثل هذا الصبي يحتاج إلى مؤدب يسلك معه في التربية سبيل الجدّ.

---

(١) تَضْرِمِ: تشتعل وتلتهب. (م).

(٢) السَّفَه: الخفة والطيش. (م).

فنفرض أن هذا الصبي صار قوي الرأس كالبغل الحرون، وكثير الهذر في الكلام كالببغاء، وسمين الجسم كجرو القصاب، فلا نشك من منظره أنه متسلطن عليه داء التخمة، وأنه نهم لا يشبع، وأن همه من الدنيا ليس إلا ملء بطنه وأنها صنمه المعبود له لا يعرف سوى أداء حقها بأكثر ما تستحقه من الطعام.

فكثيرًا ما يصاب هذا الصبي بداء عدم الهضم والتهاب المعدة ويعالج منه حتى يشفى ثم يعود إلى عادته وتضرم في جوفه النهامة، ولا يستطيع أبواه أن ينصحاه على ترك الإكثار من الطعام والشراب، حتى إن الحكيم إذا نصحه وقال له: إن كثرة الأكل تضر بالبدن، قال له: إن في ذلك لذة وراحة، وقد ورد عنه ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنه، حسب الآدمي لقيمات يقيم بهن صلبه، فإن غلبت الشخص نفسه فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس»، وورد عنه ﷺ: «البِطْنَة تذهب الفطنة»، وقال ﷺ: «البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء، وعودوا كل جسم بما اعتاد». وقيل إن رجلاً سأل رجلاً في مرض موته فقال: أوصني، فقال: إن شئت جمعت لك علم العلماء وحكم الحكماء وطب الأطباء في ثلاث كلمات؛ أما علم العلماء فإن سئلت عما لا تعلم فقل لا أعلم، وأما حكم الحكماء فإذا كنت جليس قوم فكن أسكتهم فإن أصابوا كنت من جملتهم، وإن أخطأوا سلمت من خطئهم، وأما طب الأطباء فإذا أكلت طعامًا فلا تقم إلا ونفسك تشتهيه فإنه لا يلم بجسدك غير مرض الموت.

قال بعضهم: والأكل على ثلاث مراتب؛ فرض وهو قَدْر ما يندفع به الهلاك ويمكن معه الصلاة قائمًا، ومباح وهو أدنى الشبع بنية أن يقوى على العبادة، وحرام وهو ما زاد على ذلك إلا للصوم في غدأ ولموافقة الضيف. ومن سنن الأكل غسل اليدين قبله وبعده، والتسمية قبله والشكر بعده، ومن اشتدّ جوعه وعجز عن كسب قوته يجب على من علم بحاله إطعامه، وإن لم يعلم به أحد يجب عليه أن يسأل ويعلم بحاله، فإن لم يفعل حتى مات كان كقاتل نفسه، ومن له قوت يوم لا يحل له السؤال ويباح له الأخذ، وينبغي أن لا يجمع الإنسان بين حارين كاللحم والبيض، ولا باردين كالسمك واللبن، ولا بين رطبين كالفواكه واللبن، ولا بين يابسين كالدخن والعدس، ولا يأكل شيئًا شديد اللزوجة يصعب على الأسنان قطعه فهو أصعب على المعدة أن تهضمه، ولا يشرب عقب الأكل بسرعة حتى يسكن الطعام في معدته، فكل ذلك مضر.

وقد ورد عنه ﷺ: «أصل كل داء البردة وهي إدخال الطعام على الطعام، وقال ﷺ: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء»، والأكل بقدر يفرح القلوب ويصلح الجسم ويزيد في الحفظ، ومن قلل الغذاء زاد نشاطه في العداء، فارفع يدك عن الطعام وأنت تشتهيه فإن الشهوة تبطل بعد ساعة. وقال الأحنف بن قيس: اختارت الحكماء من كلام الحكمة أربعة آلاف حكمة، ثم اختاروا منها أربعمائة كلمة، ثم اختاروا منها أربعين كلمة، ثم اختاروا منها أربع كلمات؛ الأولى: أن لا تثق بالنساء، الثانية: لا تُحَمِّل معدتك

ما لا تطيق، الثالثة: لا يَغُرَّنَّك المال وإن كثر، الرابعة: يكفيك من العلم ما تنتفع به. وقال أيضًا: ثلاثة لا ينبغي للعاقل أن يتركهن؛ عمل يتزوّد به لمعاده، وصنعة يستعين بها على أمر دينه، وطب يذب به الداء عن جسده وعن نفسه.

قال الحكماء: الأصلح في كل يوم وليلتين ثلاث أكلات وقت البرد. وقال بعضهم: كل يوم وليلة أكلة وهي عند إفطار الصائم، ولا بأس بما قد تعود الناس عليه من الغداء والعشاء بُكْرَة وعَشِيَّة مع القدر اليسير من الطعام، وليجد مضغه حتى يسهل على المعدة، ويبدأ ببسم الله ويختم بالحمد لله، ويأكل مما يليه، هذا هو الحال الأصلح. وقال أفلاطون: راحة الجسم في قلة الطعام، وراحة اللسان في قلة الكلام، وراحة الروح في قلة المنام، وراحة القلب في قلة الانتقام. وقال بعضهم:

جَمِيعُ الطِّبِ في بَيْتَيْنِ حَقًّا وحُسْنُ القَوْلِ في قصرِ الكلامِ
فَأَقْلِلْ إِنْ أَكَلْتَ وبَعْدَ أَكْلٍ تَجَنَّبْ فالشِّفاءُ في الانْهِضَامِ
ولَيْسَ على النُّفُوسِ أَشَدُّ تَعْسًا مِن ادْخَالِ الطَّعَامِ على الطَّعَامِ

روي عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب، فإن الله يطعمهم ويسقيهم»، وروى أبو سعيد قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه[1]، فقال

(١) اسْتَطْلَق بَطْنُه: أصيب بإسهال. (م).

رسول الله ﷺ: «اسقه عسلاً، ثم جاءه فقال: إني سقيته عسلاً فلم يزده إلا استطلاقًا، فقال له: ثلاث مرات ثم جاءه الرابعة فقال: اسقه عسلاً، فقال: لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقًا، فقال رسول الله ﷺ: صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه وبرئ».

وقال بعضهم: الأدوية من جنس الأغذية فمَنْ غالب أغذيتهم مفردات كأهل البوادي، فأمراضهم قليلة جدًّا وطبهم بالمفردات، ومَنْ غالب أغذيتهم مركبات كأهل المدن يحتاجون إلى الأدوية المركبة؛ وسبب ذلك أن أمراضهم في الغالب مركبة.

ولنذكر هنا محاورة طبيب مع صبي نهم، وهو أن ذلك الطبيب عاد ذات يوم من الأيام صبيًّا متعودًا على المرض بالتخمة واكتساب الآلام، وكان هذا الصبي دائمًا تظهر منه السخافة وخفة العقل، فوجده طبيبه على خلاف عادته متصفًا باللطافة والظرافة، وفي يده كيس مكلل باللؤلؤ والمرجان، والصبي بهذا الكيس الظريف المملوء من النقود جذل[1] فرحان، فقال له الطبيب: هل كيسك المملوء من الدراهم والدنانير يسع شيئًا زيادة عما فيه من قليل أو كثير؟ فقال الصبي: حيث هو بالدراهم ملآن: فكيف يسع ما يدخله الآن؟ فقال الطبيب: إذا أعطيت شيئًا من المال له بال فهل تقدر أن تدخله في الكيس على هذا الحال؟

(١) جَذِل: فَرِح. (م).

فقال الصبي: ليس فيه محل خال، فإدخال ما يزيد على ما فيه من المحال، فقال الطبيب: لو أردت أن تضع فيه الدراهم الزائدة بشدة القوة والعنفوان لفزت بها إن وجدت لها فيه مكان وساعدك الإمكان وإلا تلف الكيس وتمزق وتفتق وتخرق، فجَرِّب لتعرف وتعلم لتنصف.

فقال له الصبي: تجربتي لوضع الدراهم الزائدة في مثل هذا الكيس الظريف المرصع باللولؤ تكون مضرة وبدون فائدة، فقال له الطبيب: الحق معك ولكن أخبرني بصورة حضورك في مجلس المائدة إذا طلبت القدح للشراب هل تملؤه لنفسك بنفسك أو يملؤه لك بعض الأقارب والأحباب؟ فقال: أنا الذي أملؤه لنفسي وأشربه بدون أن يكون أحد يقربه، فقال الطبيب: إذا قدحك امتلا هل تستمر على صب الماء فيه على الولا؟ وإذا صببت عليه الماء ماذا يصيبه؟ وماذا يكون نصيبه؟ فقال الصبي: يسقط الماء الزائد على السماط[1]، ويحصل لأهل المجلس الانقباض بعد الانبساط، فقال له الطبيب: اعلم أيها الصبي أن معدتك ككيسك أو قدحك فمتى ملأتها وزدت عليها شيئًا فقد أتلفتها، وهي أعظم منحك، فإذا أكلت أزيد من ملء بطنك أضعفت معدتك التي داؤها عضال ينتج عنه جميع الأوجاع والأوحال، وربما كانت التخمة سببًا لقصر الأعمار والآجال. ومع نصيحة الطبيب لهذا الصبي السفيه وإقناعه بالشواهد القوية لم تنفعه الوصية، وإلا كان يتبع نصح طبيبه ويقتفيه.

---

(١) السِّماط: الثوب الذي ليس له بطانة. (م).

قال الطبيب المذكور: اتفق لي ذات يوم من أيام المواسم التي تفرح فيها الصبيان وتتعب منها الشيوخ من كثرة آلام الولائم أنني كنت نائمًا عقب تعب ونصب، فأيقظني أبو ذلك الصبي فجأة بدون أن أبلغ من نعاسي الأرب ودموعه تسيل على خدّه مع شدة حزنه ووجده، وقال: إن ابني به خناق قبيح، وإنه من شدة الوجع يبكي ويصيح، وإن أهل المنزل في غاية من الحزن والغم لما ألم بهذا الولد من الألم، فأسرعت بالقيام لأنظر ما بهذا الصبي من الآلام وآمر له من العلاج بما يلائم، فذهبت إليه للعيادة فلم أجد به سوء الهضم كالعادة، بل وجدت به حمى ثقيلة لا تطاق، وإنه من الخطر يتحمل جميع المشاق.

فبالسؤال عن السبب وجد أنه لم يكتف من أكل الملبس والحلوى في جميع يومه بالأرب، ولكن أثقل معدته بجزء وافر من الفطير والكعك الناعم النضير، فرأيت جميع أعضائه ترتعش من الحمى الباطنة التي حرارة نارها في جميع بدنه كامنة لاسيما وقد تمكنت من رأسه كل التمكين حتى كأن بها تنورًا[١] يوقد في كل حين، فبهذا احمرت منه العينان، ويبس منه اللسان، ونشف الإهاب، وما هذا إلا لإصابة معدته بالالتهاب، وهو حريق لا يحمله الشيوخ فضلاً عن الشباب، فوجب علي أن آمر له بعلاج صعيب يليق بقساوة الطبيب، فأمرت بأخذ الدم بالدود الكثير والحراريق العديدة وأشربة العقاقير فعالجته بجميع أنواع الأدوية الصعبة، وكان غنيًّا عن ذلك لو أزمع[١] من ذنب النهامة[٢] توبة، فكان هذا

(١) تَنُّور: الذي يخبز فيه. (م).

الداء عقوبة له على اتباع هوى بطنه ولأهله على تمكينهم له من كل ما يشتهيه بدون نظر إلى خوفه وأمنه، ومع ذلك فهم في غاية من القلق والنكد جزاءً لهم على ما عوَّدوا عليه هذا الولد، وبهذا كله لم يتأثر الصبي بحزن أبيه وأمه ولا يحب غير امتلاء بطنه.

وفي هذه الحادثة البشعة ابتليت بطنه بسائر العلاجات من الحمية التامة والحراريق واللبخات، وامتنع عن الأكل والشرب حتى خشينا أن المرض لا ينتهي إلا بأجله، وأن هذا جزاء انهماكه على الأكل وقبيح عمله، ولكن الحق ﷻ أخذ بيد أبيه وأمه، وبحسن المعالجة تناقص المرض الحادث من السفاهة، ورجع الصبي بعد مدة مديدة إلى درجة النقاهة بعدما أحزن العائلة، ولولا تعويدهم له على الأكل لكانوا أغنياء عن هذه الغائلة(٣).

وهذا ما وقع لأحد أطباء أوربا، ونظيره ما وقع لطبيب العرب العَرْبَاء لصبي ممسك عن الرياضة، ومن المعلوم أن الرياضة بعد القناعة في الطعام والشراب وغيرهما من أحسن ما يحفظ به الإنسان صحته ويصون به قوة بدنه بما يرى فيه مصلحته، وأن الكسل والبطالة يورثان في المعدة الضعف وفي البدن والأعضاء الحسية والمعنوية الكلالة(٤) بخلاف العمل والحركة، فهما أصل اليمن والبركة، فيحفظان قوى الأبدان، وينعشان عقل الإنسان، ويقيان المرء من كثير من الأمراض، ويمنعان

---

(١) أَزْمَع: مضى فيه. (م).
(٢) النَّهَامَة: إفراط الشهوة في الطعام. (م).
(٣) الغَائِلة: الأمر المنكر. (م).
(٤) الكَلالَة: الإعياء. (م).

الإدراك من أن تتطرق إليه الأعراض.

يروى أنه كان لملك من ملوك العرب صبي يهواه؛ حيث لم يكن له من الأولاد سواه، فأصيب بمرض عضال عجز عن تشخيصه الأطباء مع ما أنفق الملك على علاجه من الأموال، وكان هذا الولد لا يحس بألم شديد من هذا الداء، وإنما فيه ذبول بالغ لا يستطيع معه الحركة فكأنما الضعف أثر السقم في بدنه وانتهكه فكان لا يتحرك في فراشه ولا يذوق الراحة في معاشه، كثير القلق، شديد الأرق، تعطلت قواه الهاضمة، فقد الإيناس ولا يألفه من حوله من الناس، ومع أن بنيته الطبيعية كانت عظيمة الأساس كان يحس على مر الأوقات بضعفها كمال الإحساس، وسبب ذلك أنه كان متعودًا من صغر سنه على الدعة وعدم النشاط، ولا حظ له في الألعاب التي لأقرانه في سِنِّه سُنَّة متبعة، فلعدم ترويضه من صغر سنه على تحريك الأعضاء أدى به السقم إلى هذا الحال، وأفضى، وكان أبوه عن ترويضه قد أغضى.

فلما عجزت عن علاجه الأطباء، وأخبر أباه عن حكيم ماهر خارج المدينة بعض الأحياء، وأنه من أشهر حكماء العرب العرباء، أحضره الملك بديوانه، ووعده بمكافأة عظيمة تليق بمكانته ومكانه، إذا كانت مداواة ابنه في إمكانه، فشخص في الحال هذا الطبيب مرض هذا الصبي الأمير، وعلم بالاستفهام عن حقيقته أنه إلى الآن ليس بخطير، ووعد الملك أن يحضر ثاني يوم بدواء نافع لداء هذا الصبي قاطع، فحضر في اليوم الثاني بالديوان ومعه كرة وصولجان، وقال للصبي هاك هذا الصولجان وتلك

الكرة فقد دهنتهما لك بمنقوع بعض العقاقير المعتبرة مما فيه خاصة بشفاء دائك خاصة، ففي كل يوم قبل الأكل في الصباح والمساء تروض بتحريك يديك في الأيام الأوائل في داخل رحبة الديوان والمناز، ثم اذهب إلى الخلاء مقدار ساعة كل يوم واضرب بيديك الكرة بالصولجان ومتى انقلبت فَاجْرِ وخذها من الميدان وهلم جرا.

فهذا الدواء يثمر الشفاء عن قريب بشرط أن يسمع المريض وصية الطبيب، فعمل الصبي بما أوصاه به طبيبه فكان له فيه من تعجيل الشفاء حظه ونصيبه، فما مضت عليه أيام قلائل إلا وجد من علامات الشفاء أعظم دلائل؛ حيث عادت إليه لذة الطعام والمنام، وبعد مُضِيّ نصف شهر رجعت إليه قواه كالمرغوب والمرام، وبعد شهر اكتسى بحلة الصحة التامة، ووجد في الرياضة التي أوصاه بها الحكيم المنفعة العامة، ولما شاهد الملك أن ابنه عاد إليه كمال الصحة، وأن الطبيب بذل في العلاج نصحه أراد أن يكافئه بما وعده من الإكرام ويرضيه بما يستحقه من الإتحاف[١] والإنعام، فقال له الطبيب: اعلم أيها الملك أن معارفي ليست هي التي أفادت ولدك الشفاء، ولا استعملت في علاجه أدوية عجيبة ولا عقاقير غريبة، بل دهنت الكرة والصولجان بمنقوع حشائش وهو أرخص دهان جنيتها من الغياض واقتطفتها من الرياض بدون كلفة بل بمجرد الاتفاق والصدفة، فالفضل للرياضة التي أذهبت البطالة والكسل فليكن عليها في ديوانك الشريف كمال العمل وهي تمام الأمل.

(١) الإتْحَاف: البِرّ واللُّطْف. (م).

الفصل الثاني

في شَذْرَة من كلامه صلى الله عليه وسلم

أما كلامه ﷺ فبحره طام[1] لا تنفد مداد عبابه[2] الأقلام، وأعجز الخاص والعام من الأعلام، فلنذكر جملة من كلامه ﷺ تحث على كل فضل.

قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»، وقال: «الحلال بَيِّن والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقي الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كراع يرعى حول الحمى[3] يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة[4] إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد

(١) طَام: كثير. (م).

(٢) عُبَابِه: كَثْرَة مَائِه، والمراد كثرة ألفاظه ومعانيه. (م).

(٣) الحِمَى: المقصود الآثام والخطايا. (م).

(٤) مُضْغَة: قطعة صغيرة من اللحم، والمقصود القلب. (م).

كله ألا وهي القلب»، وقال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»، وقال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعينه». وقال: «أجملوا في طلب الدنيا فإن كلاً مُيَسَّرٌ لما خلق له». وقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعد نفسك من أهل القبور». وقال: «كما تدين تدان». وقال: «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك». وقال: «لا يغني حذر من قدر». وقال: «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّروا وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا». وقال: «استفت قلبك وإن أفتوك».

وقال: «احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»، وفي رواية «احفظ الله تجده أمامك، تَعَرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا».

وقال: «الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله». وقال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». وقال: «من سعادة المرء حسن الخلق ومن شقاوة المرء سوء الخلق». وقال: «إن الدين يسر ولن

يشادّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا[١] وقاربوا وبشروا واستعينوا بالغدوة وشيء من الدلجة[٢]». وقال: «أفضل الأعمال أن يسلم الناس من لسانك ويدك وما عظمت نعمة الله على امرئ إلا عظمت مؤنة الناس عليه». وقال: «أدّ ما افترض الله عليك تكن من أعبد الناس، واجتنب ما حرم الله عليك تكن من أورع الناس، وارض بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس». وقال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وقال: «إن الله تعالي يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِر[٣]».

وقال: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت». وقال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك». وقال: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك». وقال: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». وقال: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء عليها». وقال: «المرء مع من أحب». وقال: «من تشبه بقوم فهو منهم». وقال: «من أحب شيئًا أكثر من ذكره».

---

(١) سَدِّدُوا: استقيموا. (م).

(٢) الدُّلْـجَة: سير السَّحر. (م).

(٣) يُغَرْغِر: تتردد روحه في حلقه عند الموت. (م).

وقال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم، ذكر الله». وقال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان». وقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وقال: «أفضل الجهاد كلمة حق تقال عند سلطان جائر[1]». وقال: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة».

وقال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابَّا في الله فاجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل ذكر الله خاليًّا ففاضت عيناه من خشية الله تعالى، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فأبى عنها وقال إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». وقال: «آية المنافق ثلاث؛ إذا حدث كذب، وإذا أوعد أخلف، وإذا ائتمن خان». وقال: «أحسنوا جوار نعم الله لا تنفروها فقلما زالت نعمة عن قوم

---

(١) جَائِر: ظالم . (م).

فعادت إليهم». وقال: «مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش، فمن كَثَّر كُثِّر له ومن قَلَّل قُلِّل له». وقال: «ما جعل الله وليًّا إلا على السخاء وحسن الخلق». وقال عن الله ﷿: «من آذى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب». وقال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تَأَمَّر عليكم عبد، وإن من يعش فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عَضُّوا عليها بالنواجذ[1]، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة». وقال: «أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه». وقال: «يأتي على أمتي زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر». وقال: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر». وقال: «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة». انتهى.

(قال مدير هذه الطباعة عليّ فهمي رافع رفاعة)

تم بحمد الله على أحسن نسق وأجمل أسلوب هذا الكتاب الآتي

في تربية البنين والبنات بالمطلوب والمرغوب، وهو مأثرة من مآثر

مؤلفه الوالد رحمه الله وأثابه الثواب الأكمل جزاء له على هذه

المحامد، فجاء مثنيًا بلسان الحال والمقال على حضرة الخديو

(١) النَّوَاجِذ: أقصى الأضراس في آخر الحنك. (م).

الأعظم صاحب الفضل والأفضال، معترفًا بقصور

التبييض والتحرير لنجل المؤلف الفقير.

أحسن الله له تمام نعمة الخاتمة بفضله

كما أتمها على أبويه من قبله

بجاه محمد الحبيب

إنه سميع

مجيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله عدد كمال الله وكما يليق بكماله.

«﴿نهاية المتن﴾»

معد التقديم في سطور

منى أحمد محمد أبو زيد

- أستاذ الفلسفة الإسلامية، دكتوراه في الآداب سنة ١٩٨٩م جامعة الزقازيق، تقدير مرتبة الشرف الأولى، رئيس قسم الفلسفة بآداب حلوان سنة ٢٠٠٤م.
- عملت وكيلاً للكلية لشئون الدراسات العليا والبحوث من ٢٠٠٠م إلى ٢٠٠٣م، ثم ٢٠٠٤م، ومن ٢٠٠٧م حتى الآن.

من أبرز الأعمال والمؤلفات العلمية

- الخير والشر في الفلسفة الإسلامية، بيروت، ١٩٩١م.
- التصور الذري في الفكر الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م.
- الإنسان في الفلسفة الإسلامية، بيروت، ١٩٩٣م.
- الفكر الكلامي عند ابن خلدون، بيروت، ١٩٩٧م.
- المدينة الفاضلة عند ابن رشد، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.
- الحرية الإنسانية عند الشيعة - الإثنى عشرية، الإسكندرية، ١٩٩٩م.

من أبرز الأبحاث

- الدين والعلم في فكر زكي نجيب محمود، مجلة المسلم المعاصر، القاهرة، عدد (٦٩)، ١٩٩٠م.
- أبو القاسم الزهراوي رائد الجراحة العربية، مجلة الدراسات الإسلامية، باكستان ١٩٩١م.
- ابن رشد طبيبًا، الكتاب التذكاري - المجلس الأعلى للثقافة، مصر ١٩٩٣م.
- المنهج الإصلاحي عند الإمام عبد الحميد بن باديس، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، العدد الثاني، ١٩٩٣م.

أعضاء اللجنة الاستشارية للمشروع

٢٠١٠/٢٠١١

رئيس اللجنة

إسماعيل سراج الدين (مكتبة الإسكندرية)، مصر.

أعضاء اللجنة

إبراهيم البيومي غانم (المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة)، مصر.
إبراهيم زين (الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالامبور)، ماليزيا.
حسن مكي (جامعة إفريقيا العالمية)، السودان.
رجب شان ترك (جامعة فاتح، إستانبول)، تركيا.
زاهر عبد الرحمن عثمان (مؤسسة التراث بالرياض)، السعودية.
زكي الميلاد (رئيس تحرير مجلة الكلمة)، السعودية.
زينب الخضيري (كلية الآداب، جامعة القاهرة)، مصر.
سيد دسوقي حسن (كلية الهندسة، جامعة القاهرة)، مصر .
صلاح الدين الجوهري (مكتبة الإسكندرية)، مصر – **أمين اللجنة.**
ظفر إسحق أنصاري (الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد)، باكستان.
عبد الرحمن السالمي (وزارة الأوقاف والشئون الدينية)، عُمان.
عبد الرحيم بنحادة (جامعة الرباط)، المغرب.
عمار الطالبي (جامعة الجزائر)، الجزائر.
محمد الحداد (الجامعة التونسية)، تونس.
محمد عمارة (مجمع البحوث الإسلامية – الأزهر الشريف، القاهرة)، مصر.
محمد كمال الدين إمام (جامعة الإسكندرية)، مصر.
محمد موفق الأرناؤوط (جامعة آل البيت)، الأردن.
منى أحمد أبو زيد (جامعة حلوان، القاهرة)، مصر.
نور الدين الخادمي (جامعة الزيتونة، تونس)، تونس.

AL-MURSHID AL-AMIN LIL-BANAT WAL-BANIN

The Trusted Guide for Girls and Boys

Rifa‘ah al-Tahtawi

DAR AL-KITAB
AL-MASRI



DAR AL-KITAB
AL-LUBNANI

في الفكر النهضوي الإسلامي

AL-MURSHID AL-AMIN LIL-BANAT WAL-BANIN

The Trusted Guide for Girls and Boys

Rifa‘ah al-Tahtawi

(19)

هذا الكتاب

طبع لأول مرة عام (١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م)، ويُعد أول كتاب عربي حديث يُكتب في التربية، ويدعو إلى تعليم البنات، ليس مثل كتب المطالعة المؤلفة في عصرنا الحاضر التي تجمع موضوعات شتى لا تربط بينها فكرة، ولا يجمعها خط، بل هو كتاب ذو غاية واحدة ترمي إلى خلق المواطن الصالح، يُعرِّفه حقوقه وواجباته، ويجعل منه إنسانًا متميزًا بعقله وخلقه، سواء كان ذكرًا أو أنثى، يحببه في وطنه، ويطالبه بالعمل بكل قوته لإسعاده ومجده.

يقسم الفكرة إلى أبواب، ويضع للأبواب فصولاً تتناول جزئيات صغيرة، وينتقل بين معارف تربوية، ومعلومات سياسية، وعواطف وطنية، ومبادئ إصلاحية، وشئون اجتماعية، وعلاقات أسرية، ومسائل دينية، وتبدو فيه أثر الثقافة الأجنبية من حيث وَحْدة الفكرة وتنظيمها، وأثر الثقافة العربية من حيث كثرة استشهاده بالشعر، وإتيانه بالحكم، ويبدو فيه الأثر الإسلامي بوضوح حين يلجأ لتأكيد أفكاره بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وأقوال السلف والصحابة، وأخبار من التاريخ الإسلامي.

ISBN: 978-977-452-130-7

DAR AL-KITAB AL-MASRI
CAIRO

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

DAR AL-KITAB AL-LUBNANI
BEIRUT